الْفَاتِحَةُ - والْبَقَرَةُ

مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الطَّبَرِيّ

اخْتَصَرَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

أَحْمَدُ بْنُ طَلِيلٍ أَبُو الْفِيتَة

أَبُو حَمْزَةَ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَهَذَا مُخْتَصَرٌ مُفِيدٌ - إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى - مِنْ تَفْسِيرِ الْإِمَامِ الْكَبِيرِ مُحَمَّدِ ابْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ[١] الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣١٠هـ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً -.

وَلَقَدْ حَرَصْتُ - كُلَّ الْحِرْصِ فِي هَذَا الْمُخْتَصَرِ - عَلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى نَصِّ كَلَامِ الطَّبَرِيِّ بِحُرُوفِهِ: بِدُونِ زِيَادَةٍ، وَلَا تَبْدِيلٍ؛ بِحَيْثُ يَسْتَطِيعُ الْقَارِئُ أَنْ يَقْتَبِسَ مِنْهُ وَيَسْتَشْهِدَ بِهِ مَعْزُوًّا إِلَى أَصْلِهِ الْأَوَّلِ!.

تَنْبِيهَاتٌ تَتَعَلَّقُ بِالتَّعْلِيقَاتِ الْمَبْثُوثَةِ فِي حَوَاشِي الْكِتَابِ:

الْأَوَّلُ: التَّعْلِيقَاتُ الْمَبْدُوءَةُ بـ(قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ)؛ فَهِيَ لِلْإِمَامِ الطَّبَرِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ -، مُلْتَقَطَةٌ مِنْ تَفْسِيرِهِ.

الثَّانِي: وَالتَّعْلِيقَاتُ الْمَبْدُوءَةُ بـ(قَالَ أَبُو حَمْزَةَ)أَوْ كَانَتْ غُفْلًا؛ فَهِيَ - فِي الْغَالِبِ - لِكَاتِبِ هَذِهِ السُّطُورِ!.

الثَّالِثُ: وَبَاقِي التَّعْلِيقَاتِ مَبْدُوءَةٌ بِأَسْمَاءِ أَصْحَابِهَا.

وَاللهَ أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وكتب:

أحمد بن طلبة أبو النيبة - أبو حمزة

[١] انظر ترجمة شيخ المفسرين في سير أعلام النبلاء؛ للذهبي.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ الِاسْتِعَاذَةِ:

الِاسْتِعَاذَةُ: الِاسْتِجَارَةُ، وَتَأْوِيلُ قَوْلِ الْقَائِلِ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ[٢] الرَّجِيمِ[٣]: أَسْتَجِيرُ بِاللهِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ خَلْقِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ أَنْ يَضُرَّنِيَ فِي دِينِي، أَوْ يَصُدَّنِي عَنْ حَقٍّ يَلْزَمُنِي لِرَبِّي.

الرَّجِيمِ: الْمَلْعُونُ، الْمَشْتُومُ. وَكُلُّ مَشْتُومٍ بِقَوْلٍ رَدِيءٍ أَوْ سَبٍّ؛ فَهُوَ مَرْجُومٌ.

وَأَصْلُ الرَّجْمِ: الرَّمْيُ بِقَوْلٍ كَانَ أَوْ بِفِعْلٍ.

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ مَكِّيَّةٌ، وَآيَاتُهَا سَبْعٌ:

١- ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ أَيْ: أَبْدَأُ بِتَسْمِيَةِ اللهِ وَذِكْرِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، أَوْ: أَقْرَأُ بِتَسْمِيَةِ اللهِ، أَوْ: أَقُومُ وَأَقْعُدُ بِتَسْمِيَةِ اللهِ وَذِكْرِهِ.

﴿اللهِ﴾: هُوَ الَّذِي يَأْلَهُهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَيَعْبُدُهُ كُلُّ خَلْقٍ.

﴿الرَّحْمَنِ﴾: رَحْمَنُ جَمِيعِ خَلْقِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ﴿الرَّحِيمِ﴾: رَحِيمُ الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

٢- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الشُّكْرُ خَالِصًا لِلَّهِ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾سَيِّدُ الْعَالَمِينَ.

وَالْعَالَمُونَ: جَمْعُ عَالَمٍ، وَالْعَالَمُ: اسْمٌ لِأَصْنَافِ الْأُمَمِ، وَكُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا عَالَمٌ، وَأَهْلُ كُلِّ قَرْنٍ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهَا عَالَمُ ذَلِكَ الْقَرْنِ وَذَلِكَ الزَّمَانِ، فَالْإِنْسُ عَالَمٌ، وَكُلُّ أَهْلِ زَمَانٍ مِنْهُمْ عَالَمُ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَالْجِنُّ عَالَمٌ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ أَجْنَاسِ الْخَلْقِ، كُلُّ جِنْسٍ مِنْهَا عَالَمُ زَمَانِهِ.

---

[٢] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: الشَّيْطَانُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: كُلُّ مُتَمَرِّدٍ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالدَّوَابِّ وَكُلِّ شَيْءٍ.
وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْمُتَمَرِّدُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ شَيْطَانًا؛ لِمُفَارَقَةِ أَخْلَاقِهِ وَأَفْعَالِهِ أَخْلَاقَ سَائِرِ جِنْسِهِ وَأَفْعَالَهُ، وَبُعْدِهِ عَنِ الْخَيْرِ!.

[٣] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: وَمَعْنَى أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**، أَيْ: أَسْتَجِيرُ بِجَنَابِ اللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ أَنْ يَضُرَّنِي فِي دِينِي، أَوْ دُنْيَايَ، أَوْ يَصُدَّنِي عَنْ فِعْلِ مَا أُمِرْتُ بِهِ، أَوْ يَحُثَّنِي عَلَى فِعْلِ مَا نُهِيتُ عَنْهُ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَكُفُّهُ عَنِ الْإِنْسَانِ إِلَّا اللهُ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ – تَعَالَى – بِمُصَانَعَةِ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَمُدَارَاتِهِ؛ بِإِسْدَاءِ الْجَمِيلِ إِلَيْهِ؛ لِيَرُدَّهُ طَبْعُهُ عمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الْأَذَى! وَأَمَرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ شَيْطَانِ الْجِنِّ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ رِشْوَةً، وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ جَمِيلٌ؛ لِأَنَّهُ شِرِّيرٌ بِالطَّبْعِ، وَلَا يَكُفُّهُ عَنْكَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُ!!.
قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: وَصِيَغُ الِاسْتِعَاذَةِ كَثِيرَةٌ؛ مِنْهَا: ١- أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. [يقال عند الغضب؛ وهو في الصحيحين] ٢- أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. ٣- أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ مِنْ هَمْزِهِ، وَنَفْخِهِ، وَنَفْثِهِ ٤- أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ مِنْ هَمْزِهِ، وَنَفْخِهِ، وَنَفْثِهِ. [الصيغ الثلاث الأخيرة – صححها الألباني – تقال قبل القراءة في الصلاة].

٣- ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ[٤]﴾أَيْ: أَنَّ لِلَّهِ الْمُلْكَ يَوْمَ الدِّينِ خَالِصًا دُونَ جَمِيعِ خَلْقِهِ.

﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾: يَوْمُ الْحِسَابِ وَالْمُجَازَاةِ بِالْأَعْمَالِ.

٤- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: لَكَ اللَّهُمَّ نَخْشَعُ وَنَذِلُّ وَنَسْتَكِينُ، إِقْرَارًا لَكَ يَا رَبَّنَا بِالرُّبُوبِيَّةِ لَا لِغَيْرِكَ.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ[٥]﴾: وَإِيَّاكَ رَبَّنَا نَسْتَعِينُ عَلَى عِبَادَتِنَا إِيَّاكَ وَطَاعَتِنَا لَكَ وَفِي أُمُورِنَا كُلِّهَا، لَا أَحَدَ سِوَاكَ، إِذْ كَانَ مَنْ يَكْفُرُ بِكَ يَسْتَعِينُ فِي أُمُورِهِ بِمَعْبُودِهِ الَّذِي يَعْبُدُهُ مِنَ الْأَوْثَانِ دُونَكَ، وَنَحْنُ بِكَ نَسْتَعِينُ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا مُخْلِصِينَ لَكَ الْعِبَادَةَ.

٥- ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ[٦]﴾: وَفِّقْنَا لِلثَّبَاتِ عَلَى مَا ارْتَضَيْتَهُ وَوَفَّقْتَ لَهُ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِكَ، مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ.

٧- ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾اهْدِنَا يَا رَبَّنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ بِطَاعَتِكَ وَعِبَادَتِكَ؛ مِنْ مَلَائِكَتِكَ، وَأَنْبِيَائِكَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحِينَ.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ[٧]﴾هُمُ الْيَهُودُ ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ هُمُ النَّصَارَى.[٨]

---

[٤] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: الْقُرَّاءُ مُخْتَلِفُونَ فِي تِلَاوَةِ (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، فَبَعْضُهُمْ يَتْلُوهُ: (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، وَبَعْضُهُمْ يَتْلُوهُ: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، وَبَعْضُهُمْ يَتْلُوهُ: (مَالِكَ يَوْمِ الدِّينِ) بِنَصْبِ الْكَافِ.

[٥] **قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ**: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ أَيْ: لَا نَطْلُبُ الْعَوْنَ إِلَّا مِنْكَ وَحْدَكَ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِكَ وَحْدَكَ، لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْهُ مَعَكَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ. وَإِتْيَانُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾؛ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَوَكَّلَ إِلَّا عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُ لَيْسَ بِيَدِهِ الْأَمْرُ.

[٦] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمِ؛ هُوَ: الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ. وَإِنَّمَا وَصَفَهُ اللهُ بِالِاسْتِقَامَةِ؛ لِأَنَّهُ صَوَابٌ لَا خَطَأَ فِيهِ.

[٧] قُلْتُ - أَبُو حَمْزَةَ -: غَضَبُ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ؛ وَهُوَ غَضَبٌ حَقِيقِيٌّ يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، لَا يُمَاثِلُ غَضَبَ الْمَخْلُوقِينَ؛ لِأَنَّ اللهَ - جَلَّ جَلَالُهُ -: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: "لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ غَضَبُ اللهِ - تَعَالَى - مِثْلَ غَضَبِنَا؛ كَمَا أَنَّ حَقِيقَةَ ذَاتِ اللهِ لَيْسَتْ مِثْلَ ذَاتِنَا، فَلَيْسَ هُوَ مُمَاثِلًا لَنَا: لَا لِذَاتِنَا، وَلَا لِأَرْوَاحِنَا؛ وَصِفَاتُهُ كَذَاتِهِ" اهـ. مِنْ مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى

[٨] عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قَالَ: «**الْيَهُودُ: مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى: ضُلَّالٌ**» [صحيح: رواه الترمذي، وغيره؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٣٢٦٣)، وصحيح الجامع(٨٢٠٢)].

فَائِدَةٌ: **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ**: وَقَدِ ابْتَدَعَ بَعْضُ النَّاسِ الْيَوْمَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِدْعَةً، فَصَارُوا يَخْتِمُونَ بِهَا الدُّعَاءَ! وَيَبْتَدِئُونَ بِهَا الْخُطَبَ! وَيَقْرَؤُونَهَا عِنْدَ بَعْضِ الْمُنَاسَبَاتِ؛ وَهَذَا غَلَطٌ!! تَجِدُهُ - مَثَلًا - إِذَا دَعَا، ثُمَّ دَعَا، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ: (الْفَاتِحَة!)! يَعْنِي: اقْرَؤُوا الْفَاتِحَةَ!. وَبَعْضُ النَّاسِ يَبْتَدِئُ بِهَا فِي خُطَبِهِ، أَوْ فِي أَحْوَالِهِ؛ وَهَذَا - أَيْضًا - غَلَطٌ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَاتِ مَبْنَاهَا عَلَى التَّوْقِيفِ وَالِاتِّبَاعِ.

(سُورَةُ الْبَقَرَةِ)

١- ﴿الم[٩]﴾ الصَّوَابُ فِي تَأْوِيلِ مَفَاتِحِ السُّوَرِ: أَنَّ اللهَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - جَعَلَهَا حُرُوفًا مُقَطَّعَةً وَلَمْ يَصِلْ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ فَيَجْعَلَهَا كَسَائِرِ الْكَلَامِ الْمُتَّصِلِ الْحُرُوفَ؛ لِأَنَّهُ - عَزَّ ذِكْرُهُ - أَرَادَ بِلَفْظِهِ الدَّلَالَةَ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهُ عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ، لَا عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ.

٢- ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ هَذَا الْكِتَابُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لَا شَكَّ فِيهِ، ﴿هُدًى[١٠]﴾ هُدًى مِنَ الضَّلَالَةِ.

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ اتَّقَوُا اللهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فِي رُكُوبِ مَا نَهَاهُمْ عَنْ رُكُوبِهِ، فَتَجَنَّبُوا مَعَاصِيَهُ وَاتَّقَوْهُ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ فَأَطَاعُوهُ بِأَدَائِهَا.

٣- ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ يَعْنِي: يُصَدِّقُونَ. وَالْإِيمَانُ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِلْإِقْرَارِ بِاللهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَتَصْدِيقُ الْإِقْرَارِ بِالْفِعْلِ. وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَالَّذِي هُوَ أَوْلَى بِتَأْوِيلِ الْآيَةِ وَأَشْبَهُ بِصِفَةِ الْقَوْمِ: أَنْ يَكُونُوا مَوْصُوفِينَ بِالتَّصْدِيقِ بِالْغَيْبِ؛ قَوْلًا، وَاعْتِقَادًا، وَعَمَلًا.

﴿بِالْغَيْبِ﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا غَابَ عَنْهُمْ: مِنَ الْجَنَّةِ، وَالنَّارِ، وَالثَّوَابِ، وَالْعِقَابِ، وَالْبَعْثِ، وَالتَّصْدِيقِ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَجَمِيعِ مَا كَانَتِ الْعَرَبُ لَا تَدِينُ بِهِ فِي جَاهِلِيَّتِهَا، بِمَا أَوْجَبَ اللهُ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - عَلَى عِبَادِهِ الدَّيْنُونَةَ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يَعْنِي: الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَإِقَامَتُهَا: أَدَاؤُهَا بِحُدُودِهَا، وَفُرُوضِهَا، وَالْوَاجِبِ فِيهَا عَلَى مَا فُرِضَتْ عَلَيْهِ.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أَيْ: لِجَمِيعِ اللَّازِمِ لَهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ، مُؤَدِّينَ زَكَاةً كَانَ ذَلِكَ أَوْ نَفَقَةً مَنْ لَزِمَتْهُ نَفَقَتُهُ مِنْ أَهْلٍ وَعِيَالٍ وَغَيْرِهِمْ، مِمَّنْ تَجِبُ عَلَيْهِمْ نَفَقَتُهُ بِالْقَرَابَةِ وَالْمُلْكِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

٤- ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أَيْ: يُصَدِّقُونَكَ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنَ اللهِ - جَلَّ وَعَزَّ -، وَمَا جَاءَ بِهِ مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمْ وَلَا يَجْحَدُونَ مَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ

---

[٩] ﴿الم﴾ تُقْرَأُ: أَلِفْ، لَامْ، مِيمْ، كَمَا تَقُولُ: وَاحِدٌ، اثْنَانِ، ثَلَاثَةٌ.

[١٠] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَالْهُدَى فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: مَصْدَرٌ، مِنْ قَوْلِكَ: هَدَيْتُ فُلَانًا الطَّرِيقَ: إِذَا أَرْشَدْتُهُ إِلَيْهِ، وَدَلَلْتُهُ عَلَيْهِ، وَبَيَّنْتُهُ لَهُ؛ أَهْدِيهِ هُدًى وَهِدَايَةً.

رَبِّهِمْ، ﴿وَبِالْآخِرَةِ[11] هُمْ يُوقِنُونَ﴾مِنَ الْبَعْثِ، وَالنَّشْرِ، وَالثَّوَابِ، وَالْعِقَابِ، وَالْحِسَابِ، وَالْمِيزَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَعَدَّ اللهُ لِخَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

٥- ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾مَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّهُمْ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِمْ، وَبُرْهَانٍ وَاسْتِقَامَةٍ، وَسَدَادٍ بِتَسْدِيدِ اللهِ إِيَّاهُمْ وَتَوْفِيقِهِ لَهُمْ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾أَيْ: أُولَئِكَ هُمُ الْمُنْجِحُونَ، الْمُدْرِكُونَ مَا طَلَبُوا عِنْدَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِأَعْمَالِهِمْ، وَإِيمَانِهِمْ بِاللهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ؛ مِنَ الْفَوْزِ بِالثَّوَابِ، وَالْخُلُودِ فِي الْجِنَانِ، وَالنَّجَاةِ مِمَّا أَعَدَّ اللهُ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْعِقَابِ.

٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا[12]﴾جَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَسَتَرُوهُ عَنِ النَّاسِ وَكَتَمُوا أَمْرَهُ، وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾مُعْتَدِلٌ عِنْدَهُمْ أَيُّ الْأَمْرَيْنِ كَانَ مِنْكَ إِلَيْهِمْ: الْإِنْذَارُ ، أَمْ تَرْكُ الْإِنْذَارِ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَى الْحَقِّ، وَلَا يُصَدِّقُونَ بِكَ وَبِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ.

٧- ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾طَبَعَ عَلَيْهَا، فَلَا يَعْقِلُونَ لِلَّهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – مَوْعِظَةً وَعَظَهُمْ بِهَا فِيمَا آتَاهُمْ مِنْ عِلْمِ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ كُتُبِهِ، وَفِيمَا حَدَّدَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَوْحَاهُ وَأَنْزَلَهُ إِلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾فَلَا يَسْمَعُونَ مِنْ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نَبِيِّ اللهِ تَحْذِيرًا وَلَا تَذْكِيرًا، وَلَا حُجَّةً أَقَامَهَا عَلَيْهِمْ بِنُبُوَّتِهِ، فَيَتَذَكَّرُوا وَيَحْذَرُوا عِقَابَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – فِي تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِصِدْقِهِ وَصِحَّةِ أَمْرِهِ. ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾عَنْ أَنْ يُبْصِرُوا سَبِيلَ الْهُدَى، فَيَعْلَمُوا قُبْحَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالرَّدَى!.

---

[11] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: أَمَّا الْآخِرَةُ، فَإِنَّهَا صِفَةٌ لِلدَّارِ، كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿**وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾وَإِنَّمَا وُصِفَتْ بِذَلِكَ؛ لِمَصِيرِهَا آخِرَةً لِأُولَى كَانَتْ قَبْلَهَا، كَمَا تَقُولُ لِلرَّجُلِ: أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، فَلَمْ تَشْكُرْ لِيَ الْأُولَى وَلَا الْآخِرَةَ!.

وَإِنَّمَا صَارَتِ الْآخِرَةُ آخِرَةً لِلْأُولَى؛ لِتَقَدُّمِ الْأُولَى أَمَامَهَا، فَكَذَلِكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ سُمِّيَتْ آخِرَةً؛ لِتَقَدُّمِ الدَّارِ الْأُولَى أَمَامَهَا، فَصَارَتِ التَّالِيَةُ لَهَا آخِرَةً. وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ سُمِّيَتْ آخِرَةً؛ لِتَأَخُّرِهَا عَنِ الْخَلْقِ، كَمَا سُمِّيَتِ الدُّنْيَا دُنْيَا؛ لِدُنُوِّهَا مِنَ الْخَلْقِ.

[12] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَصْلُ الْكُفْرِ عِنْدَ الْعَرَبِ: تَغْطِيَةُ الشَّيْءِ؛ وَلِذَلِكَ سَمَّوُا اللَّيْلَ كَافِرًا؛ لِتَغْطِيَةِ ظُلْمَتِهِ مَا لَبِسَتْهُ.

﴿وَلَهُمْ﴾ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ خِلَافِكَ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قَالَ: فَهَذَا فِي الْأَحْبَارِ مِنْ يَهُودَ فِيمَا كَذَّبُوكَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ رَبِّكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِمْ.

٨- ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ - هُمُ الْمُنَافِقُونَ - ﴿مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ﴾ صَدَّقْنَا بِاللهِ ﴿وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يَعْنِي: بِالْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي: بِمُصَدِّقِينَ فِيمَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ بِهِ مُصَدِّقُونَ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةُ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى بُطُولِ[١٣] مَا زَعَمَتْهُ (الْجَهْمِيَّةُ): مِنْ أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ التَّصْدِيقُ بِالْقَوْلِ دُونَ سَائِرِ الْمَعَانِي غَيْرِهِ! وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - عَنِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ، أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ثُمَّ نَفَى عَنْهُمْ أَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ؛ إِذْ كَانَ اعْتِقَادُهُمْ غَيْرَ مُصَدِّقٍ قِيلَهُمْ ذَلِكَ.

٩- ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَخِدَاعُ الْمُنَافِقِ رَبَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ: إِظْهَارُهُ بِلِسَانِهِ مِنَ الْقَوْلِ وَالتَّصْدِيقِ خِلَافَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مِنَ الشَّكِّ وَالتَّكْذِيبِ؛ لِيَدْرَأَ عَنْ نَفْسِهِ بِمَا أَظْهَرَ بِلِسَانِهِ حُكْمَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - اللَّازِمَ مَنْ كَانَ بِمِثْلِ حَالِهِ مِنَ التَّكْذِيبِ لَوْ لَمْ يُظْهِرْ بِلِسَانِهِ مَا أَظْهَرَ مِنَ التَّصْدِيقِ وَالْإِقْرَارِ، مِنَ الْقَتْلِ وَالسِّبَاءِ، فَذَلِكَ خِدَاعُهُ رَبَّهُ وَأَهْلَ الْإِيمَانِ بِاللهِ. ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ بِصَنِيعِهِمْ ذَلِكَ ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ دُونَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بِأَنَّ اللهَ خَادِعُهُمْ بِإِمْلَائِهِ لَهُمْ، وَاسْتِدْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ، الَّذِي هُوَ مِنَ اللهِ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - إِبْلَاغٌ إِلَيْهِمْ فِي الْحُجَّةِ وَالْمَعْذِرَةِ، وَمِنْهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ خَدِيعَةٌ، وَلَهَا فِي الْآجِلِ مَضَرَّةٌ.

١٠- ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يَعْنِي: فِي اعْتِقَادِ قُلُوبِهِمُ - الَّذِي يَعْتَقِدُونَهُ فِي الدِّينِ وَالتَّصْدِيقِ بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ - مَرَضٌ وَسُقْم.

وَالْمَرَضُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - أَنَّهُ فِي اعْتِقَادِ قُلُوبِهِمُ - الَّذِي وَصَفْنَاهُ -: هُوَ شَكُّهُمْ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَتَحَيُّرِهِمْ فِيهِ: فَلَا هُمْ بِهِ مُوقِنُونَ إِيقَانَ إِيمَانٍ، وَلَا هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ إِنْكَارَ إِشْرَاكٍ؛ وَلَكِنَّهُمْ كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: مُذَبْذَبُونَ بَيْنَ ذَلِكَ؛ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ، وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ.

﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ شَكًّا وَرِيبَةً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الْأَلِيمُ: هُوَ الْمُوجِعُ، وَمَعْنَاهُ: وَلَهُمْ عَذَابٌ مُؤْلِمٌ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، بِقَوْلِهِمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وَهُمْ فِي

[١٣] مِنَ (الْبُطْلَانِ)، قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ: بَطَلَ الشَّيْءُ يَبْطُلُ بُطْلًا وَبُطُولًا وَبُطْلَانًا: فَسَدَ أَوْ سَقَطَ حُكْمُهُ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَجَمْعُهُ: بَوَاطِلُ.

قِيلِهِمْ ذَلِكَ كَذِبَةٌ؛ لِاسْتِسْرَارِهِمُ الشَّكَّ وَالْمَرَضَ فِي اعْتِقَادَاتِ قُلُوبِهِمْ، فِي أَمْرِ اللهِ، وَأَمْرِ رَسُولِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

١١– ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ: الْعَمَلُ فِيهَا بِمَا نَهَى اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – عَنْهُ، وَتَضْيِيعُ مَا أَمَرَ اللهُ بِحِفْظِهِ.

﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ لَا مُفْسِدُونَ، وَنَحْنُ عَلَى رَشَدٍ وَهُدًى فِيمَا أَنْكَرْتُمُوهُ عَلَيْنَا دُونَكُمْ لَا ضَالُّونَ.

فَكَذَّبَهُمُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – فِي ذَلِكَ مِنْ قِيلِهِمْ، فَقَالَ:

١٢– ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ الْمُخَالِفُونَ أَمْرَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –، الْمُتَعَدُّونَ حُدُودَهُ، الرَّاكِبُونَ مَعْصِيَتَهُ، التَّارِكُونَ فَرْوضَهُ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وَلَا يَدْرُونَ أَنَّهُمْ كَذَلِكَ!.

١٣– ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ يَعْنِي: وَإِذَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ وَنَعَتَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾: صَدِّقُوا بِمُحَمَّدٍ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ كَمَا صَدَّقَ بِهِ النَّاسُ.

وَيَعْنِي بِالنَّاسِ: الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ وَنُبُوَّتِهِ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ[١٤]﴾ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ أَهْلُ الْجَهْلِ وَنُصَدِّقُ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَمَا صَدَّقَ بِهِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا عُقُول لَهُمْ وَلَا أَفْهَامَ!.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾هُمُ الْجُهَّالُ فِي أَدْيَانِهِمْ، الضُّعَفَاءُ الْآرَاءِ فِي اعْتِقَادَاتِهِمْ وَاخْتِيَارَاتِهِمُ الَّتِي اخْتَارُوهَا لِأَنْفُسِهِمْ: مِنَ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ فِي أَمْرِ اللهِ، وَأَمْرِ رَسُولِهِ، وَأَمْرِ نُبُوَّتِهِ، وَفِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَأَمْرِ الْبَعْثِ؛ لِإِسَاءَتِهِمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَا أَتَوْا مِنْ ذَلِكَ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا يُحْسِنُونَ! وَذَلِكَ هُوَ عَيْنُ السَّفَهِ؛ لِأَنَّ السَّفِيهَ إِنَّمَا يُفْسِدُ مِنْ حَيْثِ يَرَى أَنَّهُ يَصْلُحُ! وَيُضَيِّعُ مِنْ حَيْثُ يَرَى أَنَّهُ يَحْفَظُ!!. فَكَذَلِكَ الْمُنَافِقُ: يَعْصِي رَبَّهُ مِنْ حَيْثُ يَرَى أَنَّهُ يُطِيعُهُ! وَيَكْفُرُ بِهِ مِنْ حَيْثُ يَرَى أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِهِ!! وَيُسِيءُ إِلَى نَفْسِهِ مِنْ حَيْثُ يَحْسِبُ أَنَّهُ يُحْسِنُ إِلَيْهَا(!).

---

[١٤] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَالسُّفَهَاءُ: جَمْعُ سَفِيهٍ، كَالْعُلَمَاءِ: جَمْعُ عَلِيمٍ، وَالْحُكَمَاءِ: جَمْعُ حَكِيمٍ. وَالسَّفِيهُ: الْجَاهِلُ الضَّعِيفُ الرَّأْيِ، الْقَلِيلُ الْمَعْرِفَةِ بِمَوَاضِعِ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ.

١٤- ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾وصَدَّقْنَا بِمُحَمَّدٍ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾إِلَى مَرَدَتِهِمْ، وَأَهْلِ الْعُتُوِّ وَالشَّرِّ وَالْخَبَثِ مِنْهُمْ، وَمِنْ سَائِرِ أَهْلِ الشِّرْكِ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى مِثْلِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللهِ، وَبِكِتَابِهِ، وَرَسُولِهِ، وَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ.

﴿قَالُوا﴾لَهُمْ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾عَنْ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّكْذِيبِ بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَبِمَا جَاءَ بِهِ، وَمُعَادَاتِهِ، وَمُعَادَاةِ أَتْبَاعِهِ، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ إِنَّمَا نَحْنُ سَاخِرُونَ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي قِيلِنَا لَهُمْ إِذَا لَقِينَاهُمْ: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

١٥- ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾يَسْخَرُ بِهِمْ لِلنِّقْمَةِ مِنْهُمْ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾يَزِيدُهُمْ، عَلَى وَجْهِ الْإِمْلَاءِ وَالتَّرْكِ لَهُمْ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ[١٥]﴾فِي ضَلَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ﴿يَعْمَهُونَ﴾يَتَرَدَّدُونَ حَيَارَى ضُلَّالًا، لَا يَجِدُونَ إِلَى الْمَخْرَجِ مِنْهُ سَبِيلًا؛ لِأَنَّ اللهَ قَدْ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَخَتَمَ عَلَيْهَا، فَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْهُدَى وَأَغْشَاهَا، فَلَا يُبْصِرُونَ رُشْدًا، وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا!!.

١٦- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾أَخَذُوا الضَّلَالَةَ وَتَرَكُوا الْهُدَى.

﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾تَأْوِيلُ ذَلِكَ: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ بِشِرَائِهِمُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى، خَسِرُوا وَلَمْ يَرْبَحُوا.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ مَا كَانُوا رُشَدَاءَ فِي اخْتِيَارِهِمُ الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَى، وَاسْتِبْدَالِهِمُ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ، وَاشْتِرَائِهِمُ النِّفَاقَ بِالتَّصْدِيقِ وَالْإِقْرَارِ.

١٧- ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾مَثَلُ اسْتِضَاءَةِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَظْهَرُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ لِرَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، مِنَ الْإِقْرَارِ بِهِ، وَقَوْلِهِمْ لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ: آمَنَّا بِاللهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، حَتَّى حُكِمَ لَهُمْ بِذَلِكَ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا بِحُكْمِ الْمُسْلِمِينَ؛ فِي حَقْنِ الدِّمَاءِ، وَالْأَمْوَالِ، وَالْأَمْنِ عَلَى الذُّرِّيَّةِ مِنَ السِّبَاءِ، وَفِي الْمُنَاكَحَةِ وَالْمُوَارَثَةِ - كَمَثَلِ اسْتِضَاءَةِ الْمُوقِدِ النَّارَ بِالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ارْتَفَقَ بِضِيَائِهَا، وَأَبْصَرَ مَا حَوْلَهُ مُسْتَضِيئًا بِنُورِهِ مِنَ الظُّلْمَةِ؛ خَمَدَتِ النَّارُ وَانْطَفَأَتْ، فَذَهَبَ نُورُهُ، وَعَادَ الْمُسْتَضِيءُ بِهِ فِي ظُلْمَةٍ

[١٥] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَالطُّغْيَانُ: الْفُعْلَانُ، مِنْ قَوْلِكَ: طَغَى فُلَانٌ يَطْغَى طُغْيَانًا: إِذَا تَجَاوَزَ فِي الْأَمْرِ حَدَّهُ فَبَغَى، وَمِنْهُ قَوْلُ اللهِ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾أَيْ: يَتَجَاوَزُ حَدَّهُ.

وَحِيرَةٍ!. وَذَلِكَ أَنَّ الْمُنَافِقَ لَمْ يَزَلْ مُسْتَضِيئًا بِضَوْءِ الْقَوْلِ الَّذِي دَافِعَ عَنْهُ فِي حَيَاتِهِ الْقَتْلَ وَالسِّبَاءَ، مَعَ اسْتِبْطَانِهِ مَا كَانَ مُسْتَوْجِبًا بِهِ الْقَتْلَ وَسَلْبَ الْمَالِ لَوْ أَظْهَرَهُ بِلِسَانِهِ، تُخَيِّلُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ نَفْسُهُ أَنَّهُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ مُسْتَهْزِئٌ مُخَادِعٌ، حَتَّى سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ، إِذْ وَرَدَ عَلَى رَبِّهِ فِي الْآخِرَةِ، أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُ بِمِثْلِ الَّذِي نَجَا بِهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْكَذِبِ وَالنِّفَاقِ!. أَوَمَا تَسْمَعُ اللهَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – يَقُولُ إِذْ نَعَتَهُمْ ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ عِنْدَ وُرُودِهِمْ عَلَيْهِ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ ظَنًّا مِنَ الْقَوْمِ أَنَّ نَجَاتَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ فِي الْآخِرَةِ فِي مِثْلِ الَّذِي كَانَ بِهِ نَجَاتُهُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالسِّبَاءِ وَسَلْبِ الْمَالِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْكَذِبِ وَالْإِفْكِ! وَأَنَّ خِدَاعَهُمْ نَافِعُهُمْ هُنَالِكَ نَفْعَهُ إِيَّاهُمْ فِي الدُّنْيَا!! حَتَّى عَايَنُوا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا أَيْقَنُوا بِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ ظُنُونِهِمْ فِي غُرُورٍ وَضَلَالٍ، وَاسْتِهْزَاءٍ بِأَنْفُسِهِمْ وَخِدَاعٍ؛ إِذْ أَطْفَأَ اللهُ نُورَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ! فَاسْتَنْظَرُوا الْمُؤْمِنِينَ لِيَقْتَبِسُوا مِنْ نُورِهِمْ! فَقِيلَ لَهُمُ: ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا! وَاصْلَوْا سَعِيرًا!! فَذَلِكَ حِينَ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ، كَمَا انْطَفَأَتْ نَارُ الْمُسْتَوْقِدِ النَّارَ بَعْدَ إِضَاءَتِهَا لَهُ، فَبَقِيَ فِي ظُلْمَتِهِ حَيْرَانَ تَائِهًا!! يَقُولُ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ –: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

١٨- ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾هَذَا خَبَرٌ مِنَ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – عَنِ الْمُنَافِقِينَ، أَنَّهُمْ بِاشْتِرَائِهِمُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى، لَمْ يَكُونُوا لِلْهُدَى وَالْحَقِّ مُهْتَدِينَ، بَلْ هُمْ صُمٌّ عَنْهُمَا فَلَا يَسْمَعُونَهُمَا؛ لِغَلَبَةِ خُذْلَانِ اللهِ عَلَيْهِمْ، بُكْمٌ عَنِ الْقِيلِ بِهِمَا، فَلَا يَنْطِقُونَ بِهِمَا، وَالْبُكْمُ: الْخُرْسُ، وَهُوَ جَمْعُ أَبْكَمَ، عُمْيٌ عَنْ أَنْ يُبْصِرُوهُمَا فَيَعْقِلُوهُمَا؛ لِأَنَّ اللهَ قَدْ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ بِنِفَاقِهِمْ فَلَا يَهْتَدُونَ!.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾إِلَى الْإِقْلَاعِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ، وَلَا يَتُوبُونَ إِلَى الْإِنَابَةِ مِنْ نِفَاقِهِمْ.

١٩- ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ[١٦]مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ[١٧]﴾أَوْ كَمَثَلِ غَيْثٍ تَحَدَّرَ مِنَ السَّمَاءِ، فِيهِ ظُلُمَاتٌ ، وَصَوْتُ رَعْدٍ ﴿وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَوْ مِثْلُ مَا اسْتَضَاءَ بِهِ الْمُنَافِقُونَ مِنْ قِيلِهِمْ لِرَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِأَلْسِنَتِهِمْ: آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِمُحَمَّدٍ وَمَا جَاءَ بِهِ، حَتَّى صَارَ لَهُمْ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا أَحْكَامُ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ مَعَ إِظْهَارِهِمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا يُظْهِرُونَ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ، مُكَذِّبُونَ، وَلِخِلَافِ مَا يُظْهِرُونَ بِالْأَلْسُنِ فِي قُلُوبِهِمْ مُعْتَقِدُونَ؛ كَمَثَلِ غَيْثٍ سَرَى لَيْلًا فِي مُزْنَةٍ ظَلْمَاءَ وَلَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ يَحْدُوهَا رَعْدٌ وَيَسْتَطِيرُ فِي حَافَاتِهَا بَرْقٌ شَدِيدٌ لَمَعَانُهُ كَثِيرٌ خَطَرَانُهُ، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ! وَيَخْتَطِفُهَا مِنْ شِدَّةِ ضِيَائِهِ وَنُورِ شُعَاعِهِ! وَيَنْهَبِطُ مِنْهَا تَارَاتٌ صَوَاعِقُ تَكَادُ تَدَعُ النُّفُوسَ مِنْ شِدَّةِ أَهْوَالِهَا زَوَاهِقَ!.

فَالصَّيِّبُ: مَثَلٌ لِظَاهِرِ مَا أَظْهَرَ الْمُنَافِقُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْإِقْرَارِ وَالتَّصْدِيقِ، وَالظُّلُمَاتُ الَّتِي هِيَ فِيهِ: لِظُلُمَاتِ مَا هُمْ مُسْتَبْطِنُونَ مِنَ الشَّكِّ وَالتَّكْذِيبِ وَمَرَضِ الْقُلُوبِ.

وَأَمَّا الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ: فَلِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْوَجَلِ مِنْ وَعِيدِ اللهِ إِيَّاهُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي آيِ كِتَابِهِ، إِمَّا فِي الْعَاجِلِ وَإِمَّا فِي الْآجِلِ، أَيْ: يَحِلُّ بِهِمْ مَعَ شَكِّهِمْ فِي ذَلِكَ: هَلْ هُوَ كَائِنٌ، أَمْ غَيْرُ كَائِنٍ، وَهَلْ لَهُ حَقِيقَةٌ أَمْ ذَلِكَ كَذِبٌ وَبَاطِلٌ؟ مَثَلٌ.

فَهُمْ مِنْ وَجَلِهِمْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حَقًّا يَتَّقُونَهُ بِالْإِقْرَارِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَلْسِنَتِهِمْ مَخَافَةً عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ وَنُزُولِ النِّقْمَاتِ؛ وَذَلِكَ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: يَتَّقُونَ وَعِيدَ اللهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ فِي كِتَابِهِ

---

[١٦] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَالصَّيِّبُ: الْفَيْعِلُ، مِنْ قَوْلِكَ: صَابَ الْمَطَرُ يَصُوبُ صَوْبًا: إِذَا انْحَدَرَ وَنَزَلَ.

[١٧] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَمَّا الرَّعْدُ: فَإِنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ اخْتَلَفُوا فِيهِ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مَلَكٌ يَزْجُرُ السَّحَابَ.

قُلْتُ - أَبُو حَمْزَةَ -: وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ؛ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ! أَخْبِرْنَا عَنِ الرَّعْدِ مَا هُوَ؟ قَالَ: «**مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، مَعَهُ مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللهُ**»، فَقَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ: «**زَجْرُهُ بِالسَّحَابِ إِذَا زَجَرَهُ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أُمِرَ**»، قَالُوا: صَدَقْتَ [حسن: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي في الكبرى، والطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية؛ وحسنه الألباني في الصحيحة(١٨٧٢)، وصحيح الجامع(٣٥٥٣)].

عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِمَا يُبْدُونَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنْ ظَاهِرِ الْإِقْرَارِ، كَمَا يَتَّقِي الْخَائِفُ أَصْوَاتَ الصَّوَاعِقِ بِتَغْطِيَةِ أُذُنَيْهِ وَتَصْيِيرِ أَصَابِعِهِ فِيهَا حَذَرًا عَلَى نَفْسِهِ مِنْهَا.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ جَعَلَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مَثَلًا لِخَوْفِهِمْ وَإِشْفَاقِهِمْ مِنْ حُلُولِ عَاجِلِ الْعِقَابِ الْمُهْلِكِ الَّذِي تَوَعَّدَهُ بِسَاحَتِهِمْ، كَمَا يَجْعَلُ سَامِعَ أَصْوَاتِ الصَّوَاعِقِ أَصَابِعَهُ فِي أُذُنَيْهِ حَذَرَ الْعَطَبِ وَالْمَوْتِ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ تَزْهَقَ مِنْ شِدَّتِهَا.

﴿وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ بِمَعْنَى: جَامِعُهُمْ فَمُحِلٌّ بِهِمْ عُقُوبَتَهُ.

٢٠- ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ﴾ يَعْنِي بِالْبَرْقِ: الْإِقْرَارَ الَّذِي أَظْهَرُوهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ يَعْنِي: يَذْهَبُ بِهَا وَيَسْتَلِبُهَا وَيَلْتَمِعُهَا؛ مِنْ شِدَّةِ ضِيَائِهِ، وَنُورِ شُعَاعِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ﴾ يَعْنِي: أَنَّ الْبَرْقَ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ، وَجَعَلَ الْبَرْقَ لِإِيمَانِهِمْ مَثَلًا.

وَإِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ: أَنَّهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمُ الْإِيمَانُ، وَإِضَاءَتُهُمْ لَهُمْ أَنْ يَرَوْا فِيهِ مَا يُعْجِبُهُمْ فِي عَاجِلِ دُنْيَاهُمْ مِنَ النُّصْرَةِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَإِصَابَةِ الْغَنَائِمِ فِي الْمَغَازِي، وَكَثْرَةِ الْفُتُوحِ، وَمَنَافِعِهَا، وَالثَّرَاءِ فِي الْأَمْوَالِ، وَالسَّلَامَةِ فِي الْأَبْدَانِ وَالْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ، فَذَلِكَ إِضَاءَتُهُ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُظْهِرُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا يُظْهِرُونَهُ مِنَ الْإِقْرَارِ ابْتِغَاءَ ذَلِكَ، وَمُدَافَعَةً عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ.

وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿مَشَوْا فِيهِ﴾ مَشَوْا فِي ضَوْءِ الْبَرْقِ. وَإِنَّمَا ذَلِكَ مَثَلٌ لِإِقْرَارِهِمْ عَلَى مَا وَصَفْنَا. فَمَعْنَاهُ: كُلَّمَا رَأَوْا فِي الْإِيمَانِ مَا يُعْجِبُهُمْ فِي عَاجِلِ دُنْيَاهُمْ عَلَى مَا وَصَفْنَا، ثَبَتُوا عَلَيْهِ وَأَقَامُوا فِيهِ، كَمَا يَمْشِي السَّائِرُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَظُلْمَةِ الصَّيِّبِ الَّذِي وَصَفَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، إِذَا بَرَقَتْ فِيهَا بَارِقَةٌ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ فِيهَا ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ﴾ يَعْنِي: ذَهَبَ ضَوْءُ الْبَرْقِ عَنْهُمْ. وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عَلَى السَّائِرِينَ فِي الصَّيِّبِ الَّذِي وَصَفَ جَلَّ ذِكْرُهُ، وَذَلِكَ لِلْمُنَافِقِينَ مَثَلٌ. وَمَعْنَى إِظْلَامِ ذَلِكَ: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كُلَّمَا لَمْ يَرَوْا فِي الْإِسْلَامِ مَا يُعْجِبُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ عِنْدَ ابْتِلَاءِ اللهِ مُؤْمِنِي عِبَادِهِ بِالضَّرَّاءِ وَتَمْحِيصِهِ إِيَّاهُمْ بِالشَّدَائِدِ وَالْبَلَاءِ مِنْ إِخْفَاقِهِمْ فِي مَغْزَاهُمْ وَإِنَالَةِ عَدُوِّهِمْ مِنْهُمْ، أَوْ إِدْبَارٍ مِنْ دُنْيَاهُمْ عَنْهُمْ؛ أَقَامُوا عَلَى نِفَاقِهِمْ وَثَبَتُوا عَلَى ضَلَالَتِهِمْ كَمَا قَامَ السَّائِرُ فِي الصَّيِّبِ الَّذِي وَصَفَ جَلَّ ذِكْرُهُ إِذَا أَظْلَمَ وَخَفَتَ ضَوْءُ الْبَرْقِ، فَحَارَ فِي طَرِيقِهِ فَلَمْ يَعْرِفْ مَنْهَجَهُ!. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى نِفَاقِهِمْ وَكُفْرِهِمْ.

﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَإِنَّمَا وَصَفَ اللهُ نَفْسَهُ – جَلَّ ذِكْرُهُ – بِالْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؛ لِأَنَّهُ حَذَّرَ الْمُنَافِقِينَ بَأْسَهُ وَسَطْوَتَهُ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ بِهِمْ مُحِيطٌ، وَعَلَى إِذْهَابِ أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ

قَدِيرٌ، ثُمَّ قَالَ: فَاتَّقُونِي أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ! وَاحْذَرُوا خِدَاعِي وَخِدَاعَ رَسُولِي وَأَهْلَ الْإِيمَانِ بِي، لَا أُحِلُّ بِكُمْ نِقْمَتِي؛ فَإِنِّي عَلَى ذَلِكَ – وَعَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ – قَدِيرٌ. وَمَعْنَى قَدِيرٍ: قَادِرٌ.

٢١– ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ[١٨]﴾يَعْنِي: وَحِّدُوهُ أَيْ: أَفْرِدُوا الطَّاعَةَ وَالْعِبَادَةَ لِرَبِّكُمْ دُونَ سَائِرِ خَلْقِهِ ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾لِأَنَّهُ – جَلَّ ذِكْرُهُ – هُوَ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ ، وَخَالِقُ أَصْنَامِهِمْ وَأَوْثَانِهِمْ وَآلِهَتِهِمْ.

فَقَالَ لَهُمْ جَلَّ ذِكْرُهُ: فَالَّذِي خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ آبَاءَكُمْ وَأَجْدَادَكُمْ وَسَائِرَ الْخَلْقِ غَيْرَكُمْ، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى ضَرِّكُمْ وَنَفْعِكُمْ؛ أَوْلَى بِالطَّاعَةِ مِمَّنْ لَا يَقْدِرُ لَكُمْ عَلَى نَفْعٍ وَلَا ضَرٍّ!.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾بِعِبَادَتِكُمْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَطَاعَتِكُمْ إِيَّاهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ، وَإِفْرَادِكُمْ لَهُ الْعِبَادَةَ، لِتَتَّقُوا سَخَطَهُ وَغَضَبَهُ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ رَضِيَ عَنْهُمْ رَبُّهُمْ.

٢٢– ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ مِهَادًا، وَمَوْطِئًا، وَقَرَارًا يُسْتَقَرُّ عَلَيْهَا.

يَذْكُرُ رَبُّنَا – جَلَّ ذِكْرُهُ – بِذَلِكَ مِنْ قِيلِهِ زِيَادَةَ نِعَمِهِ عِنْدَهُمْ وَآلَائِهِ لَدَيْهِمْ؛ لِيَذْكُرُوا أَيَادِيهِ عِنْدَهُمْ، فَيُنِيبُوا إِلَى طَاعَتِهِ، تَعَطُّفًا مِنْهُ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَرَأْفَةً مِنْهُ بِهِمْ، وَرَحْمَةً لَهُمْ، مِنْ غَيْرِ مَا حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَى عِبَادَتِهِمْ، وَلَكِنْ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ السَّمَاءُ سَمَاءً؛ لِعُلُوِّهَا عَلَى الْأَرْضِ، وَعَلَى سُكَّانِهَا مِنْ خَلْقِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ كَانَ فَوْقَ شَيْءٍ آخَرَ؛ فَهُوَ لِمَا تَحْتَهُ سَمَاءٌ.

وَإِنَّمَا ذَكَرَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – فِيمَا عَدَّدَ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمِهِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ مِنْهُمَا أَقْوَاتَهُمْ وَأَرْزَاقَهُمْ وَمَعَايِشَهُمْ، وَبِهِمَا قِوَامُ دُنْيَاهُمْ، فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ الَّذِيَ خَلَقَهُمَا وَخَلَقَ جَمِيعَ مَا فِيهِمَا وَمَا هُمْ

---

[١٨] **قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى:** (الْعِبَادَةُ): هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ: مِنَ الْأَقْوَالِ، وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ؛ فَالصَّلَاةُ، وَالزَّكَاةُ، وَالصِّيَامُ، وَالْحَجُّ، وَصِدْقُ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ، وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْجِهَادُ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْجَارِ، وَالْيَتِيمِ، وَالْمِسْكِينِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالْمَمْلُوكِ مِنَ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ، وَالدُّعَاءُ، وَالذِّكْرُ، وَالْقِرَاءَةُ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَةِ اهـ.

وَأَصْلُ الْعِبَادَةِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، هَاتَانِ الشَّهَادَتَانِ هُمَا أَصْلُ الْعِبَادَةِ، وَهُمَا أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ، وَهُمَا الْأَسَاسُ الَّذِي تَنْبَنِي عَلَيْهِ جَمِيعُ الْعِبَادَاتِ، فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مَعْنَاهَا: إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ، وَالْإِيمَانُ بِأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبَادَةِ، وَأَنَّهُ لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سِوَاهُ – جَلَّ وَعَلَا –، وَجَمِيع مَا عَبَدَهُ النَّاس مِنْ دُونِ اللهِ؛ مِنْ أَصْنَامٍ، أَوْ أَنْبِيَاءٍ، أَوْ مَلَائِكَةٍ، أَوْ أَشْجَارٍ، أَوْ كَوَاكِبٍ، أَوْ أَمْوَاتٍ فِي قُبُورِهِمْ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ كُلُّهُ مَعْبُودٌ بِالْبَاطِلِ! وَالْمَعْبُود بِالْحَقِّ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ**﴾.

فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ هِيَ الْأَسَاسُ، وَمَعْنَاهَا: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ، فَهِيَ تَنْفِي الْعِبَادَة بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهَا عَنْ غَيْرِ اللهِ؛ بِقَوْلِكَ: لَا إِلَهَ، وَتُثْبِتُ الْعِبَادَة للهِ وَحْدَهُ؛ فِي قَوْلِكَ: إِلَّا اللهُ، فَهُوَ – سُبْحَانَهُ – الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ؛ مِنْ صَلَاتِكَ، وَصَوْمِكَ، وَسُجُودِكَ، وَصَدَقَاتِكَ، وَحَجِّكَ، وَجَمِيعِ سَائِرِ الْعِبَادَاتِ؛ مِنْ دُعَاءٍ، وَخَوْفٍ، وَرَجَاءٍ، وَاسْتِغَاثَةٍ، وَاسْتِعَانَةٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا – كُلُّهُ – للهِ وَحْدَهُ [من دروس الإمام ابن باز، مع تصرف يسير].

فِيهِ مِنَ النِّعَمِ؛ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ عَلَيْهِمُ الطَّاعَةَ، وَالْمُسْتَوْجِبُ مِنْهُمُ الشُّكْرَ وَالْعِبَادَةَ، دُونَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾يَعْنِي: أَنَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَطَرًا، فَأَخْرَجَ بِذَلِكَ الْمَطَرِ مِمَّا أَنْبَتُوهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ زَرْعِهِمْ وَغَرْسِهِمْ ثَمَرَاتٍ، رِزْقًا لَهُمْ غِذَاءً وَأَقْوَاتًا.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا[19] وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾كَمَا لَا شَرِيكَ لِي فِي خَلْقِكُمْ وَفِي رِزْقِكُمُ الَّذِي أَرْزُقُكُمْ، وَمُلْكِي إِيَّاكُمْ، وَنِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُهَا عَلَيْكُمْ؛ فَكَذَلِكَ فَأَفْرِدُوا لِيَ الطَّاعَةَ، وَأَخْلِصُوا لِيَ الْعِبَادَةَ، وَلَا تَجْعَلُوا لِي شَرِيكًا وَنِدًّا مِنْ خَلْقِي، فَإِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ عَلَيْكُمْ مِنِّي.

٢٣- ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْعَرَبِ وَالْكُفَّارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ ﴿فِي رَيْبٍ﴾ فِي شَكٍّ ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، مِنَ النُّورِ وَالْبُرْهَانِ وَآيَاتِ الْفُرْقَانِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِي، وَأَنِّي الَّذِي أَنْزَلْتُهُ إِلَيْهِ، فَلَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ وَلَمْ تُصَدِّقُوهُ فِيمَا يَقُولُ، فَأْتُوا بِحُجَّةٍ تَدْفَعُ حُجَّتَهُ؛ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كَلَامِكُمْ أَيَّتُهَا الْعَرَبُ، كَمَا أَتَى بِهِ مُحَمَّدٌ بِلُغَاتِكُمْ وَمَعَانِي مَنْطِقِكُمْ.

وَإِذَا عَجَزْتُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ الْبَرَاعَةِ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَالذَّرَابَةِ[20]، فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ غَيْرَكُمْ عَمَّا عَجَزْتُمْ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ أَعْجَزُ!. فَيَتَقَرَّرُ حِينَئِذٍ عِنْدَكُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَتَقَوَّلْهُ وَلَمْ يَخْتَلِقْهُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ مِنْهُ اخْتِلَاقًا وَتَقَوُّلًا؛ لَمْ يَعْجَزُوا وَجَمِيعُ خَلْقِهِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ؛ لِأَنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَعْدُ أَنْ يَكُونَ بَشَرًا مِثْلَكُمْ، وَفِي مِثْلِ حَالِكُمْ فِي الْجِسْمِ وَبَسْطَةِ الْخَلْقِ وَذَرَابَةِ اللِّسَانِ، فَيُمْكِنُ أَنْ يُظَنَّ بِهِ اقْتِدَارٌ عَلَى مَا عَجَزْتُمْ عَنْهُ، أَوْ يُتَوَهَّمَ مِنْكُمْ عَجْزٌ عَمَّا اقْتَدَرَ عَلَيْهِ!.

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾وَاسْتَنْصِرُوا عَلَى أَنْ تَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، أَعْوَانَكُمْ وَشُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يُشَاهِدُونَكُمْ وَيُعَاوِنُونَكُمْ عَلَى تَكْذِيبِكُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُظَاهِرُونَكُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ وَنِفَاقِكُمْ، إِنْ

---

[19] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَالْأَنْدَادُ: جَمْعُ نِدٍّ، وَالنِّدُّ: الْعِدْلُ وَالْمِثْلُ، كَمَا قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

يَعْنِي بِقَوْلِهِ: وَلَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ: لَسْتَ لَهُ بِمِثْلٍ وَلَا عِدْلٍ. وَكُلُّ شَيْءٍ كَانَ نَظِيرًا لِشَيْءٍ وَلَهُ شَبِيهًا؛ فَهُوَ لَهُ نِدٌّ اهـ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»، قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ! قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «**وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «**أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم؛ وغيرهما].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، قَالَ: «**جَعَلْتَ لِلَّهِ نِدًّا؟! بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**» [صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد، والطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد(٦٠٥)، والصحيحة(١٣٩)].

[20] **قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ**: لِسَانٌ ذَرِبٌ، أَيْ: فَصِيحٌ.

كُنْتُمْ مُحِقِّينَ فِي جُحُودِكُمْ أَنَّ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – اخْتِلَاقٌ وَافْتِرَاءٌ، لِتَمْتَحِنُوا أَنْفُسَكُمْ وَغَيْرَكُمْ: هَلْ تَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ تَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ فَيَقْدِرُ مُحَمَّدٌ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ بِجَمِيعِهِ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ اخْتِلَاقًا؟!.

٢٤- ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ يَعْنِي: إِنْ لَمْ تَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَقَدْ تَظَاهَرْتُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ عَلَيْهِ وَأَعْوَانُكُمْ فَتَبَيَّنَ لَكُمْ بِامْتِحَانِكُمْ وَاخْتِبَارِكُمْ عَجْزُكُمْ وَعَجْزُ جَمِيعِ خَلْقِي عَنْهُ، وَعَلِمْتُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِي، ثُمَّ أَقَمْتُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ بِهِ. ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أَيْ: لَنْ تَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ أَبَدًا.[٢١]

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ يَقُولُ: فَاتَّقُوا أَنْ تُصْلَوُا النَّارَ بِتَكْذِيبِكُمْ رَسُولِي بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِي أَنَّهُ مِنْ وَحْيِي وَتَنْزِيلِي، بَعْدَ تَبَيُّنِكُمْ أَنَّهُ كِتَابِي وَمِنْ عِنْدِي، وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْكُمْ بِأَنَّهُ كَلَامِي وَوَحْيِي، بِعَجْزِكُمْ وَعَجْزِ جَمِيعِ خَلْقِي عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

ثُمَّ وَصَفَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ النَّارَ الَّتِي حَذَّرَهُمْ صِلِيَّهَا، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ النَّاسَ وَقُودُهَا، وَأَنَّ الْحِجَارَةَ وَقُودُهَا؛ فَقَالَ: ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ يَعْنِي بِقَوْلِهِ (وَقُودُهَا): حَطَبُهَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَكَيْفَ خُصَّتِ الْحِجَارَةُ فَقُرِنَتْ بِالنَّاسِ حَتَّى جُعِلَتْ لِنَارِ جَهَنَّمَ حَطَبًا؟ قِيلَ: إِنَّهَا حِجَارَةُ الْكِبْرِيتِ؛ وَهِيَ أَشَدُّ الْحِجَارَةِ – فِيمَا بَلَغَنَا – حَرًّا إِذَا أُحْمِيَتْ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ[بْنِ مَسْعُودٍ]، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ قَالَ: هِيَ حِجَارَةٌ مِنْ كِبْرِيتٍ، خَلَقَهَا اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، يُعِدُّهَا لِلْكَافِرِينَ.[٢٢]

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ يَعْنِي: أُعِدَّتِ النَّارُ لِلْجَاحِدِينَ أَنَّ اللهَ رَبُّهُمُ الْمُتَوَحِّدُ بِخَلْقِهِمْ وَخَلْقِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، الَّذِي جَعَلَ لَهُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَهُمْ، الْمُشْرِكِينَ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ الْأَنْدَادَ وَالْآلِهَةَ، وَهُوَ الْمُتَفَرِّدُ لَهُمْ بِالْإِنْشَاءِ، وَالْمُتَوَحِّدُ بِالْأَقْوَاتِ وَالْأَرْزَاقِ.

---

[٢١] قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

[٢٢] صحيح موقوف: أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي، والطبراني في الكبير؛ وغيرهما، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٣٦٧٥).

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: وَالْحِجَارَةُ: هِيَ حِجَارَةُ الْكِبْرِيتِ الْأَسْوَدِ، وَخُصَّتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا تَزِيدُ عَلَى جَمِيعِ الْأَحْجَارِ بِخَمْسَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ: سُرْعَةِ الِاتِّقَادِ، نَتْنِ الرَّائِحَةِ، كَثْرَةِ الدُّخَانِ، شِدَّةِ الِالْتِصَاقِ بِالْأَبْدَانِ، قُوَّةِ حَرِّهَا إِذَا حَمِيَتْ!!.

٢٥- ﴿وَبَشِّرِ[٢٣] الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ[٢٤] تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِإِبْلَاغِ بِشَارَتِهِ، فَقَالَ لَهُ:

يَا مُحَمَّدُ! بَشِّرْ مَنْ صَدَّقَكَ أَنَّكَ رَسُولِي وَأَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالنُّورِ فَمِنْ عِنْدِي، وَحَقَّقَ تَصْدِيقَهُ ذَلِكَ قَوْلًا بِأَدَاءِ الصَّالِحِ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي افْتَرَضْتُهَا عَلَيْهِ، وَأَوْجَبْتُهَا فِي كِتَابِي عَلَى لِسَانِكَ عَلَيْهِ؛ أَنَّ لَهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَاصَّةً، دُونَ مَنْ كَذَّبَ بِكَ وَأَنْكَرَ مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْهُدَى مِنْ عِنْدِي وَعَانَدَكَ، وَدُونَ مَنْ أَظْهَرَ تَصْدِيقَكَ، وَأَقَرَّ بِأَنَّ مَا جِئْتَهُ بِهِ فَمِنْ عِنْدِي قَوْلًا وَجَحَدَهُ اعْتِقَادًا، وَلَمْ يُحَقِّقْهُ عَمَلًا! فَإِنَّ لِأُولَئِكَ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، مُعَدَّةً عِنْدِي.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا﴾ يَعْنِي: كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْ أَشْجَارِ الْبَسَاتِينِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِهِ ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ﴾مِنْ ثِمَارِهَا﴿رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ هَذَا فِي الدُّنْيَا.

﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾فِي اللَّوْنِ وَالْمَنْظَرِ، وَالطَّعْمُ مُخْتَلِف.

يَعْنِي بِذَلِكَ: اشْتِبَاهَ ثَمَرِ الْجَنَّةِ وَثَمَرِ الدُّنْيَا فِي الْمَنْظَرِ وَاللَّوْنِ، مُخْتَلِفًا فِي الطَّعْمِ وَالذَّوْقِ.

وَكَانَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ لَمَّا أَخْرَجَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ، زَوَّدَهُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، وَعَلَّمَهُ صَنْعَةَ كُلِّ شَيْءٍ، فَثِمَارُكُمْ هَذِهِ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ تَغَيَّرُ وَتِلْكَ لَا تَغَيَّرُ».[٢٥]

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ[٢٦] مُطَهَّرَةٌ﴾ يَعْنِي: وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾؛ فَإِنَّ تَأْوِيلَهُ: أَنَّهُنَّ طَهُرْنَ مِنْ كُلِّ أَذًى وَقَذًى وَرِيبَةٍ، مِمَّا يَكُونُ فِي نِسَاءِ أَهْلِ الدُّنْيَا؛ مِنَ الْحَيْضِ، وَالنِّفَاسِ، وَالْغَائِطِ، وَالْبَوْلِ، وَالْمُخَاطِ وَالْبُصَاقِ، وَالْمَنِيِّ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْأَذَى وَالْأَدْنَاسِ وَالرِّيَبِ وَالْمَكَارِهِ!.

---

[٢٣] قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: التَّبْشِيرُ: الْإِخْبَارُ بِمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ عَلَى الْبَشَرَةِ - وَهِيَ ظَاهِرُ الْجِلْدِ - لِتَغَيُّرِهَا بِأَوَّلِ خَبَرٍ يَرِدُ عَلَيْكَ، ثُمَّ الْغَالِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي السُّرُورِ مُقَيَّدًا بِالْخَيْرِ الْمُبَشَّرِ بِهِ، وَغَيْرَ مُقَيَّدٍ أَيْضًا. وَلَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْغَمِّ وَالشَّرِّ إِلَّا مُقَيَّدًا مَنْصُوصًا عَلَى الشَّرِّ الْمُبَشَّرِ بِهِ، قَالَ اللهُ - تَعَالَى -: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وَيُقَالُ: بَشَرْتُهُ، وَبَشَّرْتُهُ - مُخَفَّفٌ وَمُشَدَّدٌ - بِشَارَةً - بِكَسْرِ الْبَاءِ - فَأَبْشَرَ وَاسْتَبْشَرَ.

[٢٤] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: الْجَنَّاتُ: جَمْعُ جَنَّةٍ، وَالْجَنَّةُ: الْبُسْتَانُ.

[٢٥] صحيح موقوف: أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي، والبزار في مسنده، والبيهقي في البعث والنشور؛ وغيرهم، وقال الألباني في الضعيفة تحت الحديث(٣٦٧٥): صحيح موقوفًا.

[٢٦] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: الْأَزْوَاجُ: جَمْعُ زَوْجٍ، وَهِيَ امْرَأَةُ الرَّجُلِ، يُقَالُ: فُلَانَةٌ زَوْجُ فُلَانٍ وَزَوْجَتُهُ.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يَعْنِي: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي الْجَنَّاتِ خَالِدُونَ.

٢٦- ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أَيْ: أَنَّهُ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ فِي الْحَقِّ مِنَ الْأَمْثَالِ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا؛ ابْتِلَاءً بِذَلِكَ عِبَادَهُ وَاخْتِبَارًا مِنْهُ لَهُمْ؛ لِيَمِيزَ بِهِ أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ بِهِ، مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ بِهِ، إِضْلَالًا مِنْهُ بِهِ لِقَوْمٍ، وَهِدَايَةً مِنْهُ بِهِ لِآخَرِينَ.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يَعْنِي: فَأَمَّا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يَعْنِي: فَيَعْرِفُونَ أَنَّ الْمَثَلَ الَّذِي ضَرَبَهُ اللهُ لِمَا ضَرَبَهُ لَهُ مَثَلٌ. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ جَحَدُوا آيَاتِ اللهِ، وَأَنْكَرُوا مَا عَرَفُوا، وَسَتَرُوا مَا عَلِمُوا أَنَّهُ حَقٌّ ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أَيْ: مَا الَّذِي أَرَادَ اللهُ بِهَذَا الْمَثَلِ مَثَلًا؟.

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ يَعْنِي: أَنَّ اللهَ يُضِلُّ بِالْمَثَلِ الَّذِي يَضْرِبُهُ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالْكُفْرِ.

﴿وَيَهْدِي بِهِ﴾ يَعْنِي: بِالْمَثَلِ ﴿كَثِيرًا﴾ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ، فَيَزِيدُهُمْ هُدًى إِلَى هُدَاهُمْ، وَإِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ؛ لِتَصْدِيقِهِمْ بِمَا قَدْ عَلِمُوهُ حَقًّا يَقِينًا أَنَّهُ مُوَافِقٌ مَا ضَرَبَهُ اللهُ لَهُ مَثَلًا، وَإِقْرَارُهُمْ بِهِ؛ وَذَلِكَ هِدَايَةٌ مِنَ اللهِ لَهُمْ بِهِ.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ[٢٧]﴾ يَعْنِي: وَمَا يُضِلُّ اللهُ بِالْمَثَلِ الَّذِي يَضْرِبُهُ لِأَهْلِ الضَّلَالِ وَالنِّفَاقِ؛ إِلَّا الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ، وَالتَّارِكِينَ اتِّبَاعَ أَمْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَهْلِ الضَّلَالِ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ.

٢٧- ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ﴾ أَيْ: النَّاكِثِينَ عُهُودَ اللهِ الَّتِي عَهِدَهَا إِلَيْهِمْ، فِي الْكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا إِلَى رُسُلِهِ، وَعَلَى أَلْسُنِ أَنْبِيَائِهِ، بِاتِّبَاعِ أَمْرِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَا جَاءَ بِهِ، وَطَاعَةِ اللهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَاةِ مِنْ تَبْيِينِ أَمْرِهِ لِلنَّاسِ، وَإِخْبَارِهِمْ إِيَّاهُمْ أَنَّهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُفْتَرَضَةٌ طَاعَتُهُ.

---

[٢٧] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: أَصْلُ الْفِسْقِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْخُرُوجُ عَنِ الشَّيْءِ، يُقَالُ مِنْهُ: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ؛ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرِهَا، وَمِنْ ذَلِكَ سُمِّيَتِ الْفَأْرَةُ فُوَيْسِقَةً؛ لِخُرُوجِهَا عَنْ جُحْرِهَا، فَكَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ: سُمِّيَا فَاسِقَيْنِ؛ لِخُرُوجِهِمَا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمَا، وَلِذَلِكَ قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ فِي صِفَةِ إِبْلِيسَ: ﴿**إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**﴾ يَعْنِي بِهِ: خَرَجَ عَنْ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ أَمْرِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي: مِنْ بَعْدِ تَوَثُّقِ اللهِ فِيهِ بِأَخْذِ عُهُودِهِ بِالْوَفَاءِ لَهُ بِمَا عَهِدَ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾، الَّذِي رَغَّبَ اللهُ فِي وَصْلِهِ وَذَمَّ عَلَى قَطْعِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الرَّحِمُ، غَيْرَ أَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ كَذَلِكَ؛ فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى ذَمِّ اللهِ كُلَّ قَاطِعٍ قَطَعَ مَا أَمَرَ اللهُ بِوَصْلِهِ، رَحِمًا كَانَتْ أَوْ غَيْرَهَا.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾وَفَسَادُهُمْ فِي الْأَرْضِ: هُوَ مَا تَقَدَّمَ وَصَفْنَاهُ قَبْلُ، مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ رَبَّهُمْ، وَكُفْرِهِمْ بِهِ، وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ، وَجَحْدِهِمْ نُبُوَّتَهُ، وَإِنْكَارِهِمْ مَا أَتَاهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ أَنَّهُ حَقٌّ مِنْ عِنْدِهِ.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الْخَاسِرُونَ: النَّاقِصُونَ أَنْفُسَهُمْ حُظُوظَهَا بِمَعْصِيَتِهِمُ اللهَ مِنْ رَحْمَتِهِ، كَمَا يَخْسَرُ الرَّجُلُ فِي تِجَارَتِهِ؛ بِأَنْ يُوضَعَ مِنْ رَأْسِ مَالِهِ فِي بَيْعِهِ. فَكَذَلِكَ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ، خَسِرَ بِحِرْمَانِ اللهِ إِيَّاهُ رَحْمَتَهُ الَّتِي خَلَقَهَا لِعِبَادِهِ فِي الْقِيَامَةِ، أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَى رَحْمَتِهِ!!.

٢٨- ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ[٢٨] بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾يَعْنِي: أَمْوَاتَ الذِّكْرِ، خُمُولًا فِي أَصْلَابِ آبَائِكُمْ نُطَفًا، لَا تُعْرَفُونَ وَلَا تُذْكَرُونَ: فَأَحْيَاكُمْ بِإِنْشَائِكُمْ بَشَرًا سَوِيًّا حَتَّى ذُكِرْتُمْ وَعُرِفْتُمْ وَحَيِيتُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ بِقَبْضِ أَرْوَاحِكُمْ وَإِعَادَتِكُمْ رُفَاتًا لَا تُعْرَفُونَ وَلَا تُذْكَرُونَ فِي الْبَرْزَخِ إِلَى يَوْمِ تُبْعَثُونَ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِنَفْخِ الْأَرْوَاحِ فِيكُمْ لِبَعْثِ السَّاعَةِ وَصَيْحَةِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ إِلَى اللهِ تُرْجَعُونَ بَعْدَ ذَلِكَ.

٢٩- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يَعْنِي: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَقَدْ كُنْتُمْ نُطَفًا فِي أَصْلَابِ آبَائِكُمْ، فَجَعَلَكُمْ بَشَرًا أَحْيَاءً، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ، ثُمَّ هُوَ مُحْيِيكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَبَاعِثُكُمْ يَوْمَ الْحَشْرِ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَهُوَ الْمُنْعِمُ عَلَيْكُمْ بِمَا خَلَقَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَعَايِشِكُمْ وَأَدِلَّتِكُمْ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ رَبِّكُمْ؟!.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ عَلَا عَلَيْهِنَّ وَارْتَفَعَ ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ فَدَبَّرَهُنَّ بِقُدْرَتِهِ وَخَلَقَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ.

---

[٢٨] (**كَيْفَ**) بِمَعْنَى التَّعَجُّبِ وَالتَّوْبِيخِ؛ لَا بِمَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَيْحَكُمْ! كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ؟! كَمَا قَالَ: ﴿**فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ**﴾!.

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي: هَيَّأَهُنَّ وَخَلَقَهُنَّ وَدَبَّرَهُنَّ وَقَوَّمَهُنَّ، وَالتَّسْوِيَةُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: التَّقْوِيمُ وَالْإِصْلَاحُ وَالتَّوْطِئَةُ، كَمَا يُقَالُ: سَوَّى فُلَانٌ لِفُلَانٍ هَذَا الْأَمْرَ: إِذَا قَوَّمَهُ وَأَصْلَحَهُ وَوَطَّأَهُ لَهُ.

فَكَذَلِكَ تَسْوِيَةُ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – سَمَوَاتِهِ: تَقْوِيمُهُ إِيَّاهُنَّ عَلَى مَشِيئَتِهِ، وَتَدْبِيرُهُ لَهُنَّ عَلَى إِرَادَتِهِ، وَتَفْتِيقُهُنَّ بَعْدَ ارْتِتَاقِهِنَّ.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يَعْنِي: أَنَّ الَّذِيَ خَلَقَكُمْ، وَخَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَسَوَّى السَّمَوَاتِ السَّبْعَ بِمَا فِيهِنَّ، فَأَحْكَمَهُنَّ مِنْ دُخَانِ الْمَاءِ وَأَتْقَنَ صُنْعَهُنَّ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ – أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ وَالْمُلْحِدُونَ الْكَافِرُونَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ – مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ.

٣٠- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ[٢٩] إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً[٣٠]﴾ أَيْ: مُسْتَخْلِفٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً وَمُصَيِّرٌ فِيهَا خَلَفًا.

وَالْخَلِيفَةُ: الْفَعِيلَةُ، مِنْ قَوْلِكَ: خَلَفَ فُلَانٌ فُلَانًا فِي هَذَا الْأَمْرِ: إِذَا قَامَ مَقَامَهُ فِيهِ بَعْدَهُ؛ كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: أَنَّهُ أَبْدَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْهُمْ فَجَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ بَعْدَهُمْ، وَمِنْ ذَلِكَ قِيلَ لِلسُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ: خَلِيفَةً؛ لِأَنَّهُ خَلَفَ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ، فَقَامَ بِالْأَمْرِ مَقَامَهُ، فَكَانَ مِنْهُ خَلَفًا، يُقَالُ مِنْهُ: خَلَفَ الْخَلِيفَةُ يَخْلُفُ خِلَافَةً وَخَلِيفًا.

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ يَعْنِي: أَعْلِمْنَا يَا رَبَّنَا، أَجَاعِلٌ أَنْتَ فِي الْأَرْضِ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ وَتَارِكٌ أَنْ تَجْعَلَ خُلَفَاءَكَ مِنَّا، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ، وَنُقَدِّسُ لَكَ؟

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ يَعْنِي: نُنَزِّهُكَ وَنُبَرِّئُكَ مِمَّا يُضِيفُهُ إِلَيْكَ أَهْلُ الشِّرْكِ بِكَ، وَنُصَلِّي لَكَ.

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: نَنْسُبُكَ إِلَى مَا هُوَ مِنْ صِفَاتِكَ مِنَ الطَّهَارَةِ مِنَ الْأَدْنَاسِ وَمَا أَضَافَ إِلَيْكَ أَهْلُ الْكُفْرِ بِكَ.

---

[٢٩] قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ**﴾ أَيْ: وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ، وَاقْصُصْ عَلَى قَوْمِكَ ذَلِكَ.

[٣٠] قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرْضِ خَلِيفَةً**﴾ أَيْ: قَوْمًا يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا: قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ.

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ[31]﴾ يَعْنِي: إِنَّكُمْ لَتَعْجَبُونَ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَتَسْتَفْظِعُونَهُ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ فِي بَعْضِكُمْ، وَتَصِفُونَ أَنْفُسَكُمْ بِصِفَةٍ أَعْلَمُ خِلَافَهَا مِنْ بَعْضِكُمْ، وَتُعَرِّضُونَ بِأَمْرٍ قَدْ جَعَلْتُهُ لِغَيْرِكُمْ!.

وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمَّا أَخْبَرَهَا رَبُّهَا بِمَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ ذُرِّيَّةِ خَلِيفَتِهِ مِنَ الْفَسَادِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ؛ قَالَتْ لِرَبِّهَا: يَا رَبِّ! أَجَاعِلٌ أَنْتَ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً مِنْ غَيْرِنَا، يَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مَنْ يَعْصِيكَ؛ أَمْ مِنَّا؟ فَإِنَّا نُعَظِّمُكَ، وَنُصَلِّي لَكَ، وَنُطِيعُكَ وَلَا نَعْصِيكَ – وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهَا عِلْمٌ بِمَا قَدِ انْطَوَى عَلَيْهِ كَشْحًا إِبْلِيسُ مِن اسْتِكْبَارِهِ عَلَى رَبِّهِ –، فَقَالَ لَهُمْ رَبُّهُمْ: إِنِّي أَعْلَمُ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُونَ مِنْ بَعْضِكُمْ.

وَذَلِكَ هُوَ مَا كَانَ مَسْتُورًا عَنْهُمْ مِنْ أَمْرِ إِبْلِيسَ، وَانْطِوَائِهِ عَلَى مَا قَدْ كَانَ انْطَوَى عَلَيْهِ مِنَ الْكِبْرِ.

٣١- ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا[32]﴾ أَسْمَاءُ ذُرِّيَّتِهِ، وَأَسْمَاءُ الْمَلَائِكَةِ؛ دُونَ أَسْمَاءِ سَائِرِ أَجْنَاسِ الْخَلْقِ.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ ثُمَّ عَرَضَ أَهْلَ الْأَسْمَاءِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ.

﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي﴾ أَيْ: أَخْبِرُونِي ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ أَيْ: بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ الَّتِي حَدَّثْتُ بِهَا آدَمَ.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَنَّ بَنِي آدَمَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَيَسْفِكُونَ الدِّمَاءَ!.

٣٢- ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ[33] لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ أَيْ: تَنْزِيهًا لِلَّهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ، تُبْنَا إِلَيْكَ، لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا؛ تَبَرِّيًا مِنْهُمْ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا كَمَا عَلَّمْتَ آدَمَ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أَيْ: إِنَّكَ أَنْتَ – يَا رَبَّنَا – الْعَلِيمُ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ بِجَمِيعِ مَا قَدْ كَانَ، وَمَا وَهُوَ كَائِنٌ، وَالْعَالِمُ لِلْغُيُوبِ دُونَ جَمِيعِ خَلْقِكَ. وَالْحَكِيمُ: هُوَ ذُو الْحِكْمَةِ.

---

[31] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ أَيْ: إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ الْمَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ فِي خَلْقِ هَذَا الصِّنْفِ عَلَى الْمَفَاسِدِ الَّتِي ذَكَرْتُمُوهَا مَا لَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ؛ فَإِنِّي سَأَجْعَلُ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءَ، وَأُرْسِلُ فِيهِمُ الرُّسُلَ، وَيُوجَدُ فِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّالِحُونَ وَالْعُبَّادُ، وَالزُّهَّادُ وَالْأَوْلِيَاءُ، وَالْأَبْرَارُ وَالْمُقَرَّبُونَ، وَالْعُلَمَاءُ الْعَامِلُونَ وَالْخَاشِعُونَ، وَالْمُحِبُّونَ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمُتَّبِعُونَ رُسُلَهُ – صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ –.

[32] عَنْ أَنَسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا...**» [صحيح: رواه البخاري، وأحمد، وغيرهما].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: قَوْلُهُ: (**وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ**)، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ.

[33] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** سُبْحَانَ: مَصْدَرٌ لَا تَصَرُّفَ لَهُ، وَمَعْنَاهُ: نُسَبِّحُكَ، كَأَنَّهُمْ قَالُوا: نُسَبِّحُكَ تَسْبِيحًا، وَنُنَزِّهُكَ تَنْزِيهًا، وَنُبَرِّئُكَ مِنْ أَنْ نَعْلَمَ شَيْئًا غَيْرَ مَا عَلَّمْتَنَا.

٣٣- ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾أَيْ: أَخْبِرِ الْمَلَائِكَةَ بِأَسْمَاءِ الَّذِينَ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ.

﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ﴾أَيْ: فَلَمَّا أَخْبَرَ آدَمُ الْمَلَائِكَةَ بِأَسْمَاءِ الَّذِينَ عَرَضَهُمْ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَعْرِفُوا أَسْمَاءَهُمْ ﴿قَالَ﴾لَهُمْ رَبُّهُمْ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَالْغَيْبُ: هُوَ مَا غَابَ عَنْ أَبْصَارِهِمْ فَلَمْ يُعَايِنُوهُ.

﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ وَأَعْلَمُ – مَعَ عِلْمِي غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ – مَا تُظْهِرُونَ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وَمَا كُنْتُمْ تُخْفُونَهُ فِي أَنْفُسِكُمْ، فَلَا يَخْفَى عَلَيَّ شَيْءٌ، سَوَاءٌ عِنْدِي سَرَائِرُكُمْ وَعَلَانِيَتُكُمْ!.

٣٤- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ[٣٤] أَبَى﴾ يَعْنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِذَلِكَ: إِبْلِيسَ أَنَّهُ امْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ فَلَمْ يَسْجُدْ لَهُ.

﴿وَاسْتَكْبَرَ[٣٥]﴾يَعْنِي بِذَلِكَ: أَنَّهُ تَعَظَّمَ وَتَكَبَّرَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ فِي السُّجُودِ لِآدَمَ.

﴿وَكَانَ﴾يَعْنِي: إِبْلِيسَ، أَنَّهُ كَانَ حِينَ أَبَى عَنِ السُّجُودِ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾مِنَ الْجَاحِدِينَ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِ وَأَيَادِيهِ عِنْدَهُ بِخِلَافِهِ عَلَيْهِ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ.

وَكَانَ سُجُودُ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ: تَكْرِمَةً لِآدَمَ، وَطَاعَةً لِلَّهِ؛ لَا عِبَادَةَ لِآدَمَ!.

٣٥- ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا[٣٦] حَيْثُ شِئْتُمَا﴾يَعْنِي: وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ، وَكُلَا مِنَ الْجَنَّةِ رِزْقًا وَاسِعًا هَنِيئًا مِنَ الْعَيْشِ حَيْثُ شِئْتُمَا.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي عَيْنِ الشَّجَرَةِ الَّتِي نُهِيَ عَنْ أَكْلِ ثَمَرِهَا آدَمُ، وَالْقَوْلُ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا: أَنَّ اللهَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – أَخْبَرَ عِبَادَهُ أَنَّ آدَمَ وَزَوْجَتَهُ أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَاهُمَا رَبُّهُمَا عَنِ الْأَكْلِ مِنْهَا، فَأَتَيَا الْخَطِيئَةَ الَّتِي نَهَاهُمَا عَنْ إِتْيَانِهَا بِأَكْلِهِمَا مَا أَكَلَا مِنْهَا، بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللهُ

---

[٣٤] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: إِبْلِيسُ: إِفْعِيلٌ مِنَ الْإِبْلَاسِ؛ وَهُوَ الْإِيَاسُ مِنَ الْخَيْرِ، وَالنَّدَمِ وَالْحُزْنِ، وَكَمَا قَالَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ –: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ يَعْنِي بِهِ: أَنَّهُمْ آيِسُونَ مِنَ الْخَيْرِ، نَادِمُونَ حُزْنًا.

[٣٥] قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾، لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مُوجِبَ اسْتِكْبَارِهِ فِي زَعْمِهِ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَهُ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾.

[٣٦] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: الرَّغَدُ: الْوَاسِعُ مِنَ الْعَيْشِ، الْهَنِيءُ الَّذِي لَا يُعَنِّي صَاحِبَهُ، يُقَالُ: أَرْغَدَ فُلَانٌ: إِذَا أَصَابَ وَاسِعًا مِنَ الْعَيْشِ الْهَنِيءِ.

– جَلَّ ثَنَاؤُهُ – لَهُمَا عَيْنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَاهُمَا عَنِ الْأَكْلِ مِنْهَا، وَأَشَارَ لَهُمَا إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾وَلَمْ يَضَعِ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – لِعِبَادِهِ الْمُخَاطَبِينَ بِالْقُرْآنِ دَلَالَةً عَلَى أَيِّ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ كَانَ نَهْيُهُ آدَمَ أَنْ يَقْرَبَهَا، بِنَصٍّ عَلَيْهَا بِاسْمِهَا، وَلَا بِدَلَالَةٍ عَلَيْهَا.

وَلَوْ كَانَ لِلَّهِ فِي الْعِلْمِ بِأَيِّ ذَلِكَ مِنْ أَيٍّ رِضًا؛ لَمْ يُخْلِ عِبَادَهُ مِنْ نَصْبِ دَلَالَةٍ لَهُمْ عَلَيْهَا يَصِلُونَ بِهَا إِلَى مَعْرِفَةِ عَيْنِهَا؛ لِيُطِيعُوهُ بِعِلْمِهِمْ بِهَا، كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ فِي كُلِّ مَا بِالْعِلْمِ بِهِ لَهُ رِضًا.

فَالصَّوَابُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – نَهَى آدَمَ وَزَوْجَتَهُ عَنْ أَكْلِ شَجَرَةٍ بِعَيْنِهَا مِنْ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ دُونَ سَائِرِ أَشْجَارِهَا، فَخَالَفَا إِلَى مَا نَهَاهُمَا اللهُ عَنْهُ، فَأَكَلَا مِنْهَا كَمَا وَصَفَهُمَا اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – بِهِ، وَلَا عِلْمَ عِنْدَنَا أَيَّ شَجَرَةٍ كَانَتْ عَلَى التَّعْيِينِ؛ لِأَنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ لِعِبَادِهِ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، فَأَنَّى يَأْتِي ذَلِكَ؟!.[٣٧]

وَقَدْ قِيلَ: كَانَتْ شَجَرَةَ الْبُرِّ! وَقِيلَ: كَانَتْ شَجَرَةَ الْعِنَبِ! وَقِيلَ: كَانَتْ شَجَرَةَ التِّينِ! وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً مِنْهَا، وَذَلِكَ عِلْمٌ؛ إِذَا عُلِمَ لَمْ يَنْفَعِ الْعَالِمَ بِهِ عِلْمُهُ، وَإِنْ جَهِلَهُ جَاهِلٌ لَمْ يَضُرَّهُ جَهْلُهُ بِهِ!.

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ[٣٨]﴾يَعْنِي: أَنَّكُمَا إِنْ قَرُبْتُمَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ؛ كُنْتُمَا عَلَى مِنْهَاجِ مَنْ تَعَدَّى حُدُودِي ، وَعَصَى أَمْرِي، وَاسْتَحَلَّ مَحَارِمِي؛ لِأَنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ.

٣٦– ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا[٣٩]﴾يَعْنِي: اسْتَزَلَّهُمَا؛ مِنْ قَوْلِكَ: زَلَّ الرَّجُلُ فِي دِينِهِ: إِذَا هَفَا فِيهِ وَأَخْطَأَ فَأَتَى مَا لَيْسَ لَهُ إِتْيَانُهُ فِيهِ، وَأَزَلَّهُ غَيْرُهُ: إِذَا سَبَّبَ لَهُ مَا يَزِلُّ مِنْ أَجْلِهِ فِي دِينِهِ أَوْ دُنْيَاهُ.

وَلِذَلِكَ أَضَافَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – إِلَى إِبْلِيسَ خُرُوجَ آدَمَ وَزَوْجَتِهِ مِنَ الْجَنَّةِ؛ فَقَالَ: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾يَعْنِي: فَأَخْرَجَ الشَّيْطَانُ آدَمَ وَزَوْجَتَهُ مِمَّا كَانَا، يَعْنِي: مِمَّا كَانَ فِيهِ آدَمُ وَزَوْجَتُهُ مِنْ رَغَدِ الْعَيْشِ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعَةِ نَعِيمِهَا الَّذِي كَانَا فِيهِ.

---

[٣٧] لِلَّهِ دَرُّكَ يَا أَبَا جَعْفَرٍ!!.

[٣٨] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: أَصْلُ الظُّلْمِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

[٣٩] **قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ فِي التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ**: الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿**عَنْهَا**﴾ يَجُوزُ أَنْ يَعُودَ إِلَى الشَّجَرَةِ؛ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ، وَلِيَتَبَيَّنَ سَبَبُ الزَّلَّةِ، وَسَبَبُ الْخُرُوجِ مِنَ الْجَنَّةِ، إِذْ لَوْ لَمْ يُجْعَلِ الضَّمِيرُ عَائِدًا إِلَى الشَّجَرَةِ؛ لَخَلَتِ الْقِصَّةُ عَنْ ذِكْرِ سَبَبِ الْخُرُوجِ.

وَ(عَنْ) فِي أَصْلِ مَعْنَاهَا، أَيْ: أَزَلَّهُمَا إِزْلَالًا نَاشِئًا عَنِ الشَّجَرَةِ، أَيْ: عَنِ الْأَكْلِ مِنْهَا، وَتَقْدِيرُ الْمُضَافِ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿**وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ**﴾، وَلَيْسَتْ (عَنْ) لِلسَّبَبِيَّةِ، وَمَنْ ذَكَرَ السَّبَبِيَّةَ أَرَادَ حَاصِلَ الْمَعْنَى، كَمَا قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى**﴾أَنَّ مَعْنَاهُ: وَمَا يَنْطِقُ بِالْهَوَى، فَقَالَ الرَّضِيُّ: الْأَوْلَى أَنَّ(عَنْ) بِمَعْنَاهَا، وَأَنَّ الْجَارَّ وَالْمَجْرُورَ صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: نُطْقًا صَادِرًا عَنِ الْهَوَى. وَيَجُوزُ كَوْنُ الضَّمِيرِ لِلْجَنَّةِ، وَتَكُونُ (عَنْ) عَلَى ظَاهِرِهَا، وَالْإِزْلَالُ مَجَازًا فِي الْإِخْرَاجِ بِكُرْهٍ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ: الْهُبُوطُ مِنَ الْجَنَّةِ مُكْرَهَيْنِ؛ كَمَنْ يَزِلُّ عَنْ مَوْقِفِهِ فَيَسْقُطُ.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قَدْ أَبَانَ هَذَا الْقَوْلَ مِنَ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – عَنْ صِحَّةِ مَا قُلْنَا: مِنْ أَنَّ الْمُخْرِجَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ؛ هُوَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ –، وَأَنَّ إِضَافَةَ اللهِ إِلَى إِبْلِيسَ مَا أَضَافَ إِلَيْهِ مِنْ إِخْرَاجِهِمَا كَانَ عَلَى مَا وَصَفْنَا.

وَدَلَّ بِذَلِكَ أَيْضًا: عَلَى أَنَّ هُبُوطَ آدَمَ وَزَوْجَتِهِ وَعَدُوِّهِمَا إِبْلِيسَ، كَانَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، بِجَمْعِ اللهِ إِيَّاهُمْ فِي الْخَبَرِ عَنْ إِهْبَاطِهِمْ، بَعْدَ الَّذِي كَانَ مِنْ خَطِيئَةِ آدَمَ وَزَوْجَتِهِ، وَتَسَبُّبِ إِبْلِيسَ ذَلِكَ لَهُمَا، عَلَى مَا وَصَفَهُ رَبُّنَا – جَلَّ ذِكْرُهُ – عَنْهُمْ.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾يَعْنِي: وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَنَازِلُ وَمَسَاكِنُ، تَسْتَقِرُّونَ فِيهَا اسْتِقْرَارَكُمْ – كَانَ – فِي السَّمَوَاتِ، وَفِي الْجَنَّاتِ فِي مَنَازِلِكُمْ مِنْهَا، وَاسْتِمْتَاعٌ مِنْكُمْ بِهَا وَبِمَا أَخْرَجْتُ لَكُمْ مِنْهَا، وَبِمَا جَعَلْتُ لَكُمْ فِيهَا مِنَ الْمَعَاشِ وَالرِّيَاشِ[40] وَالزَّيْنِ[41] وَالْمَلَاذِ، وَبِمَا أَعْطَيْتُكُمْ عَلَى ظَهْرِهَا أَيَّامَ حَيَاتِكُمْ وَمِنْ بَعْدِ وَفَاتِكُمْ لِأَرْمَاسِكُمْ وَأَجْدَاثِكُمْ[42]، تُدْفَنُونَ فِيهَا، وَتَبْلُغُونَ بِاسْتِمْتَاعِكُمْ بِهَا إِلَى أَنْ أُبْدِلَكُمْ بِهَا غَيْرَهَا

٣٧– ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ[43]﴾أَيْ: أَنَّ اللهَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – لَقَّى آدَمَ كَلِمَاتٍ، فَتَلَقَّاهُنَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ فَقَبِلَهُنَّ وَعَمِلَ بِهِنَّ، وَتَابَ بِقِيلِهِ إِيَّاهُنَّ وَعَمَلِهِ بِهِنَّ إِلَى اللهِ مِنْ خَطِيئَتِهِ، مُعْتَرِفًا بِذَنْبِهِ، مُتَنَصِّلًا إِلَى رَبِّهِ مِنْ خَطِيئَتِهِ، نَادِمًا عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُ مِنْ خِلَافِ أَمْرِهِ، فَتَابَ اللهُ عَلَيْهِ بِقَبُولِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَلَقَّاهُنَّ مِنْهُ، وَنَدَمِهِ عَلَى سَالِفِ الذَّنْبِ مِنْهُ.

---

[40] **(الرِّيَاشُ)**: الرَّاءُ وَالْيَاءُ وَالشِّينُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الْحَالِ، وَمَا يَكْتَسِبُ الْإِنْسَانُ مِنْ خَيْرٍ. فَالرِّيشُ: الْخَيْرُ، وَالرِّيَاشُ: الْمَالُ [مقاييس اللغة].

[41] **(الزَّيْنُ)**: نَقِيضُ الشَّيْنِ [المصباح المنير].

[42] **(الرَّمْسُ)**: التُّرَابُ، تَسْمِيَةً بِالْمَصْدَرِ، ثُمَّ سُمِّيَ الْقَبْرُ بِهِ، وَالْجَمْعُ: رُمُوسٌ. وَالْجَدَثُ: الْقَبْرُ، وَالْجَمْعُ: أَجْدَاثٌ [المصباح المنير].

[43] **قَالَ الْإِمَامُ الْأَلْبَانِيُّ فِي كِتَابِهِ(التَّوَسُّل) صـ١١٣–١١٤**: "وَقَدْ جَاءَ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْكَلِمَات عَنْ تُرْجُمَانِ الْقُرْآنِ ابْن عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – ...فَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ "٥٤٥/٣" عَنْهُ: ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾ قَالَ: أَيْ رَبِّ! أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: أَيْ رَبِّ! أَلَمْ تَنْفُخْ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: أَيْ رَبِّ! أَلَمْ تُسْكِنِّي جَنَّتَكَ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: أَيْ رَبِّ! أَلَمْ تَسْبِقْ رَحْمَتُكَ غَضَبَكَ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ تُبْتُ وَأَصْلَحْتُ أَرَاجِعِي أَنْتَ إِلَى الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: فَهُوَ قَوْلُهُ ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ**﴾. وَقَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ؛ وَهُوَ كَمَا قَالَا.

قُلْتُ – الْأَلْبَانِيّ –: وَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ – هَذَا – فِي حُكْمِ الْمَرْفُوعِ مِنْ وَجْهَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ أَمْرٌ غَيْبِيٌّ، لَا يُقَالُ مِنْ مُجَرَّدِ الرَّأْيِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ وَرَدَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ، وَمَا كَانَ كَذَلِكَ؛ فَهُوَ فِي حُكْمِ الْمَرْفُوعِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي مَحَلِّهِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مِنْ قَوْلِ إِمَامِ الْمُفَسِّرِينَ عَبْد اللهِ بْن عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – الَّذِي دَعَا لَهُ رَسُول اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، بِقَوْلِهِ: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ» اهـ.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ كِتَابُ اللهِ: أَنَّ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَلَقَّاهُنَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ؛ هُنَّ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَهَا مُتَنَصِّلًا بِقِيلِهَا إِلَى رَبِّهِ مُعْتَرِفًا بِذَنبِهِ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.[٤٤]

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يَعْنِي: أَنَّ اللهَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – هُوَ التَّوَّابُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ – مِنْ عِبَادِهِ الْمُذْنِبِينَ – مِنْ ذُنُوبِهِ، التَّارِكُ مُجَازَاتِهِ بِإِنَابَتِهِ إِلَى طَاعَتِهِ بَعْدَ مَعْصِيَتِهِ بِمَا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِهِ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ مَعْنَى التَّوْبَةِ مِنَ الْعَبْدِ إِلَى رَبِّهِ: إِنَابَتُهُ إِلَى طَاعَتِهِ، وَأَوْبَتُهُ إِلَى مَا يُرْضِيهِ بِتَرْكِهِ مَا يَسْخَطُهُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا مُقِيمًا مِمَّا يَكْرَهُهُ رَبُّهُ.

فَكَذَلِكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَى عَبْدِهِ: هُوَ أَنْ يَرْزُقَهُ ذَلِكَ، وَيَؤُوبَ لَهُ مِنْ غَضَبِهِ عَلَيْهِ إِلَى الرِّضَا عَنْهُ، وَمِنَ الْعُقُوبَةِ إِلَى الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنْهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿الرَّحِيمُ﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي: أَنَّهُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَيْهِ مَعَ التَّوْبَةِ بِالرَّحْمَةِ.

وَرَحْمَتُهُ إِيَّاهُ: إِقَالَةُ عَثْرَتِهِ، وَصَفْحُهُ عَنْ عُقُوبَةِ جُرْمِهِ.

٣٨– ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ أَيْ: فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي يَا مَعْشَرَ مَنْ أُهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ مِنْ سَمَائِي، وَهُوَ آدَمُ وَزَوْجَتُهُ وَإِبْلِيسُ –كَمَا قَدْ ذَكَرْنَا قَبْلُ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا –: إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي بَيَانٌ مِنْ أَمْرِي وَطَاعَتِي وَرَشَادٌ إِلَى سَبِيلِي وَدِينِي.

﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ يَعْنِي: فَمَنِ اتَّبَعَ بَيَانِي الَّذِي آتَيْتُهُ عَلَى أَلْسُنِ رُسُلِي، أَوْ مَعَ رُسُلِي

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يَعْنِي: فَهُمْ آمِنُونَ فِي أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ مِنْ عِقَابِ اللهِ، غَيْرُ خَائِفِينَ عَذَابَهُ، بِمَا أَطَاعُوا اللهَ فِي الدُّنْيَا وَاتَّبَعُوا أَمْرَهُ وَهُدَاهُ وَسَبِيلَهُ. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يَوْمَئِذٍ عَلَى مَا خَلَّفُوا بَعْدَ وَفَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

٣٩– ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يَعْنِي: وَالَّذِينَ جَحَدُوا آيَاتِي وَكَذَّبُوا رُسُلِي.

وَآيَاتُ اللهِ: حُجَجُهُ وَأَدِلَّتُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الْأَعْلَامِ وَالشَّوَاهِدِ عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَى صِدْقِهَا فِيمَا أَنْبَأَتْ عَنْ رَبِّهَا.

---

[٤٤] ذكره البخاري في صحيحه عن أبي العالية، وقال الألباني في مختصر البخاري(٢/٤٠٣): وصله الطبري بإسناد حسن.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾يَعْنِي: أَهْلُهَا الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا دُونَ غَيْرِهِم، الْمُخَلَّدُونَ فِيهَا أَبَدًا إِلَى غَيْرِ أَمَدٍ وَلَا نِهَايَةٍ.

٤٠- ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ[٤٥]﴾يَعْنِي: يَا وَلَدَ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ.

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ[٤٦]﴾وَنِعْمَتُهُ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ - جَلَّ ذِكْرُهُ -: اصْطِفَاؤُهُ مِنْهُمُ الرُّسُلَ، وَإِنْزَالُهُ عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ، وَاسْتِنْقَاذُهُ إِيَّاهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَالضَّرَّاءِ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، إِلَى التَّمْكِينِ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَتَفْجِيرِ عُيُونِ الْمَاءِ مِنَ الْحَجَرِ، وَإِطْعَامِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى.

فَأَمَرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَعْقَابَهُمْ أَنْ يَكُونَ مَا سَلَفَ مِنْهُ إِلَى آبَائِهِمْ عَلَى ذُكْرٍ، وَأَنْ لَا يَنْسَوْا صَنِيعَهُ إِلَى أَسْلَافِهِمْ وَآبَائِهِمْ! فَيُحِلُّ بِهِمْ مِنَ النِّقَمِ مَا أَحَلَّ بِمَنْ نَسِيَ نِعَمَهُ عِنْدَهُ مِنْهُمْ وَكَفَرَهَا، وَجَحَدَ صَنَائِعَهُ عِنْدَهُ.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي[٤٧]﴾عَهْدُ اللهِ وَوَصِيَّتُهُ الَّتِي أَخَذَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي التَّوْرَاةِ: أَنْ يُبَيِّنُوا لِلنَّاسِ أَمْرَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ رَسُولٌ، وَأَنَّهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ، وَأَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ[٤٨]﴾وَعَهْدُهُ إِيَّاهُمْ: أَنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ.

﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾أَيْ: وَإِيَّايَ فَاخْشَوْا.

٤١- ﴿وَآمِنُوا﴾يَعْنِي: صَدِّقُوا ﴿بِمَا أَنْزَلْتُ﴾يَعْنِي: مَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْقُرْآنِ. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾يَعْنِي: أَنَّ الْقُرْآنَ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ التَّوْرَاةِ. فَأَمَرَهُمْ بِالتَّصْدِيقِ بِالْقُرْآنِ، وَأَخْبَرَهُمْ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - أَنَّ فِيَ تَصْدِيقِهِمْ بِالْقُرْآنِ تَصْدِيقًا مِنْهُمْ لِلتَّوْرَاةِ؛ لِأَنَّ الَّذِي فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْأَمْرِ بِالْإِقْرَارِ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَتَصْدِيقِهِ وَاتِّبَاعِهِ؛ نَظِيرُ الَّذِي مِنْ ذَلِكَ فِي

---

[٤٥] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَكَانَ يَعْقُوبُ يُدْعَى (إِسْرَائِيلَ)، بِمَعْنَى: عَبْدِ اللهِ وَصَفْوَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ؛ وَ(إِيلُ) هُوَ اللهُ؛ وَ(إِسْرَا): هُوَ الْعَبْدُ، كَمَا قِيلَ: (جِبْرِيلُ) بِمَعْنَى عَبْدِ اللهِ.

[٤٦] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَتَذْكِيرُ اللهِ الَّذِينَ ذَكَّرَهُمْ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - بِهَذِهِ الْآيَةِ مِنْ نِعَمِهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، نَظِيرُ تَذْكِيرِ مُوسَى - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ - أَسْلَافَهُمْ عَلَى عَهْدِهِ، الَّذِي أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

[٤٧] قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾أَي: ائْتُوا بِهِ وَافِيًا؛ وَعَهْدُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أَنَّهُ عَهِدَ إِلَيْهِمْ أَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَيُؤْمِنُوا بِرُسُلِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾. هَذَا عَهْدُ اللهِ.

[٤٨] قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾أَيْ: أُعْطِكُمْ مَا عَهِدْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَافِيًا؛ وَهُوَ الْجَزَاءُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، الْمَذْكُور فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فَلَوْ وَفُّوا بِعَهْدِ اللهِ؛ لَوَفَّى اللهُ بِعَهْدِهِمْ!.

التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ. فَفِي تَصْدِيقِهِمْ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ تَصْدِيقٌ مِنْهُمْ لِمَا مَعَهُمْ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَفِي تَكْذِيبِهِمْ بِهِ تَكْذِيبٌ مِنْهُمْ لِمَا مَعَهُمْ مِنَ التَّوْرَاةِ.

وَمَعْنَى الْكَلَامِ: وَآمِنُوا بِالَّذِي أَنْزَلْتُهُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ. وَالَّذِي مَعَهُمْ: هُوَ التَّوْرَاةُ، وَالْإِنْجِيلُ.

﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾يَعْنِي: وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ أُمَّتِكُمْ كَذَّبَ بِهِ، وَجَحَدَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِي، وَعِنْدَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِهِ مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِكُمْ. وَكُفْرُهُمْ بِهِ: جُحُودُهُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾أَيْ: لَا تَبِيعُوا مَا أَتَيْتُكُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِكِتَابِي وَآيَاتِهِ بِثَمَنٍ خَسِيسٍ وَعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ!.

وَبَيْعُهُمْ إِيَّاهُ – تَرْكُهُمْ إِبَانَةَ مَا فِي كِتَابِهِمْ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِلنَّاسِ، وَأَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِيهِ أَنَّهُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ – بِثَمَنٍ قَلِيلٍ، وَهُوَ رِضَاهُمْ بِالرِّيَاسَةِ عَلَى أَتْبَاعِهِمْ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهِمْ وَدِينِهِمْ، وَأَخْذِهِمُ الْأَجْرَ مِمَّنْ بَيَّنُوا لَهُ ذَلِكَ عَلَى مَا بَيَّنُوا لَهُ مِنْهُ.

﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾أَيْ: فَاتَّقُونِ – فِي بَيْعِكُمْ آيَاتِي بِالْخَسِيسِ مِنَ الثَّمَنِ، وَشِرَائِكُمْ بِهَا الْقَلِيلَ مِنَ الْعَرَضِ، وَكُفْرِكُمْ بِمَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي، وَجُحُودِكُمْ نُبُوَّةَ نَبِيِّهِ – أَنْ أُحِلَّ بِكُمْ مَا أَحْلَلْتُ بِأَسْلَافِكُمُ الَّذِينَ سَلَكُوا سَبِيلَكُمْ مِنَ الْمَثُلَاتِ وَالنَّقِمَاتِ.

٤٢– ﴿وَلَا تَلْبِسُوا[٤٩]﴾يَعْنِي: لَا تَخْلِطُوا ﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: وَكَيْفَ كَانُوا يَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَهُمْ كُفَّارٌ؟ وَأَيُّ حَقٍّ كَانُوا عَلَيْهِ مَعَ كُفْرِهِمْ بِاللهِ؟!.

قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ فِيهِمْ مُنَافِقُونَ مِنْهُمْ يُظْهِرُونَ التَّصْدِيقَ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَيَسْتَبْطِنُونَ الْكُفْرَ بِهِ، وَكَانَ عُظْمُهُمْ يَقُولُونَ: مُحَمَّدٌ نَبِيٌّ مَبْعُوثٌ؛ إِلَّا أَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى غَيْرِنَا!.

فَكَانَ لَبْسُ الْمُنَافِقِ مِنْهُمُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ: إِظْهَارَهُ الْحَقَّ بِلِسَانِهِ، وَإِقْرَارَهُ لِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَبِمَا جَاءَ بِهِ جِهَارًا، وَخلْطه ذَلِكَ الظَّاهِرِ مِنَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ الَّذِي يَسْتَبْطِنُهُ.

وَكَانَ لَبْسُ الْمُقِرِّ مِنْهُمْ بِأَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى غَيْرِهِمُ، الْجَاحِدُ أَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَيْهِمْ، إِقْرَارَهُ بِأَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَهُوَ الْحَقُّ، وَجُحُودَهُ أَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَيْهِمْ، وَهُوَ الْبَاطِلُ، وَقَدْ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً.

فَذَلِكَ خَلْطُهُمُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَلَبْسُهُمْ إِيَّاهُ بِهِ!.

﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾يَعْنِي: وَلَا تَخْلِطُوا عَلَى النَّاسِ – أَيُّهَا الْأَحْبَارُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ – فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ، وَتَزْعُمُوا أَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى بَعْضِ أَجْنَاسِ الْأُمَمِ دُونَ

---

[٤٩] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: اللَّبْسُ: هُوَ الْخَلْطُ، يُقَالُ مِنْهُ: لَبَسْتُ عَلَيْهِمُ الْأَمْرَ أَلْبِسُهُ لَبْسًا: إِذَا خَلَطْتُهُ عَلَيْهِمْ. وَأَمَّا اللُّبْسُ: فَإِنَّهُ يُقَالُ مِنْهُ: لَبِسْتُهُ أَلْبَسُهُ لُبْسًا وَمَلْبَسًا، وَذَلِكَ فِي الْكِسْوَةِ يَكْتَسِيهَا فَيَلْبَسُهَا.

بَعْضٍ، أَوْ تُنَافِقُوا فِي أَمْرِهِ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى جَمِيعِكُمْ وَجَمِيعِ الْأُمَمِ غَيْرِكُمْ، فَتَخْلِطُوا بِذَلِكَ الصِّدْقَ بِالْكَذِبِ، وَتَكْتُمُوا بِهِ مَا تَجِدُونَهُ فِي كِتَابِكُمْ مِنْ نَعْتِهِ وَصِفَتِهِ، وَأَنَّهُ رَسُولِي إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولِي، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ إِلَيْكُمْ فَمِنْ عِنْدِي، وَتَعْرِفُونَ أَنَّ مِنْ عَهْدِي – الَّذِي أَخَذْتُ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِكُمْ – الْإِيمَانَ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ وَالتَّصْدِيقَ بِهِ.

٤٣– ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ[٥٠] وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – لِمَنْ ذُكِرَ مِنْ أَحْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمُنَافِقِيهَا – بِالْإِنَابَةِ وَالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ، وَبِإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالدُّخُولِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْإِسْلَامِ، وَالْخُضُوعِ لَهُ بِالطَّاعَةِ؛ وَنَهْيٌ مِنْهُ لَهُمْ عَنْ كِتْمَانِ مَا قَدْ عَلِمُوهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، بَعْدَ تَظَاهُرِ حُجَجِهِ عَلَيْهِمْ.

٤٤– ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ[٥١]﴾يَعْنِي: أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِطَاعَةِ اللهِ وَتَتْرُكُونَ أَنْفُسَكُمْ تَعْصِيهِ؟! فَهَلَّا تَأْمُرُونَهَا بِمَا تَأْمُرُونَ بِهِ النَّاسَ مِنْ طَاعَةِ رَبِّكُمْ؟! مُعَيِّرُهُمْ بِذَلِكَ، وَمُقَبِّحًا إِلَيْهِمْ مَا أَتَوْا بِهِ.

---

[٥٠] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: إِيتَاءُ الزَّكَاةِ: هُوَ أَدَاءُ الصَّدَقَةِ الْمَفْرُوضَةِ، وَأَصْلُ الزَّكَاةِ: نَمَاءُ الْمَالِ وَتَثْمِيرُهُ وَزِيَادَتُهُ، وَمِنْ ذَلِكَ، قِيلَ: زَكَا الزَّرْعُ: إِذَا كَثُرَ مَا أَخْرَجَ اللهُ مِنْهُ، وَزَكَتِ النَّفَقَةُ: إِذَا كَثُرَتْ. وَإِيتَاؤُهَا: إِعْطَاؤُهَا أَهْلَهَا.

[٥١] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رِجَالًا تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِضَ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟**»، **فَقَالَ**: «**الْخُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ؟!**» [صحيح: رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب، والطبراني في الأوسط؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٢٩١)، وصحيح الجامع(١٢٩)، وصحيح الترغيب والترهيب(٢٣٢٧)].

وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، يَقُولُ: «**يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا [فِي النَّارِ] كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى! فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ! مَا لَكَ؟! [مَا أَصَابَكَ؟!] أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟! فَيَقُولُ: بَلَى! قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ! وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ!!**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم – واللفظ له –، وأحمد – وما بين المعقوفين له –].

قُلْتُ: فَإِنْ ظَنَّ ذُو غَبَاءٍ أَنَّ فِي هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا كَانَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَأْتِيهِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَأْتِيهِ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَأْمُرَ وَيَنْهَى؛ فَقَدْ ظَنَّ خَطَأً! وَذَلِكَ أَنَّ الْمُسْلِمَ مَأْمُورٌ بِأَمْرَيْنِ: فِعْلُ الْمَعْرُوفِ، وَالْأَمْرُ بِهِ، وَمَنْهِيٌّ عَنْ أَمْرَيْنِ: فِعْلُ الْمُنْكَرِ، وَتَرْكُ النَّهْيِ عَنْهُ.

فلا يَجْمَعُ بَيْنَ تَرْكِ الْمَأْمُورَيْنِ وَفِعْلِ الْمَنْهِيَّيْنِ! لِأَنَّهُ إِذَا تَرَكَ أَحَدَهُمَا لَا يَسْقُطُ عَنْهُ الْآخَرُ!!.

فَالصَّحِيحُ – بَعْدَ التَّحْقِيقِ –: أَنَّ الْعَالِمَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهُ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنِ ارْتَكَبَهُ؛ وَلَكِنَّ ذَلِكَ سَوْفَ يَكُونُ حُجَّةً عَلَيْهِ!!.

قِيلَ لِلْحَسَنِ: إِنَّ فُلَانًا لَا يَعِظُ، وَيَقُولُ: أَخَافُ أَنْ أَقُولَ مَا لَا أَفْعَلُ! فَقَالَ الْحَسَنُ: وَأَيُّنَا يَفْعَلُ مَا يَقُولُ؟! وَدَّ الشَّيْطَانُ لَوْ ظَفِرَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنْكُمْ؛ فَلَا يَأْمُرُ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ، وَلَا يَنْهَى عَنْ مُنْكَرٍ!!.

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ فِي الْأَخْلَاقِ وَالسِّيَرِ: وَلَوْ لَمْ يَنْهَ عَنِ الشَّرِّ إِلَّا مَنْ لَيْسَ فِيهِ مِنْهُ شَيْءٌ، وَلَا أَمَرَ بِالْخَيْرِ إِلَّا مَنِ اسْتَوْعَبَهُ؛ لَمَا نَهَى أَحَدٌ عَنْ شَرٍّ، وَلَا أَمَرَ بِخَيْرٍ بَعْدَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –!!.

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ: قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَلَا يُشْتَرَطُ فِي الْآمِرِ وَالنَّاهِي أَنْ يَكُونَ كَامِلَ الْحَالِ مُمْتَثِلًا مَا يَأْمُرُ بِهِ مُجْتَنِبًا مَا يَنْهَى عَنْهُ، بَلْ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَإِنْ كَانَ مُخِلًّا بِمَا يَأْمُرُ بِهِ، وَالنَّهْيُ وَإِنْ كَانَ مُتَلَبِّسًا بِمَا يَنْهَى عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْئَانِ: أَنْ يَأْمُرَ نَفْسَهُ وَيَنْهَاهَا، وَيَأْمُرَ غَيْرَهُ وَيَنْهَاهُ، فَإِذَا أَخَلَّ بِأَحَدِهِمَا كَيْفَ يُبَاحُ لَهُ الْإِخْلَالُ بِالْآخَرِ؟!.

وَمَعْنَى نِسْيَانِهِمْ أَنْفُسَهُمْ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: نَظِيرُ النِّسْيَانِ الَّذِي قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ بِمَعْنَى: تَرَكُوا طَاعَةَ اللهِ فَتَرَكَهُمُ اللهُ مِنْ ثَوَابِهِ.

﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ﴾ يَعْنِي: تَدْرُسُونَ وَتَقْرَءُونَ ﴿الْكِتَابَ﴾ وَيَعْنِي بِـ(الْكِتَابِ): التَّوْرَاةَ.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يَعْنِي: أَفَلَا تَفْقَهُونَ وَتَفْهَمُونَ قُبْحَ مَا تَأْتُونَ مِنْ مَعْصِيَتِكُمْ رَبَّكُمُ الَّتِي تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِخِلَافِهَا وَتَنْهَوْنَهُمْ عَنْ رُكُوبِهَا وَأَنْتُمْ رَاكِبُوهَا، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّ اللهِ وَطَاعَتِهِ فِي اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ، مِثْلُ الَّذِي عَلَى مَنْ تَأْمُرُونَهُ بِاتِّبَاعِهِ؟!.

٤٥ – ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ[٥٢] وَالصَّلَاةِ﴾ يَعْنِي: اسْتَعِينُوا عَلَى الْوَفَاءِ بِعَهْدِي الَّذِي عَاهَدْتُمُونِي فِي كِتَابِكُمْ – مِنْ طَاعَتِي وَاتِّبَاعِ أَمْرِي، وَتَرْكِ مَا تَهْوَوْنَهُ مِنَ الرِّيَاسَةِ وَحُبِّ الدُّنْيَا إِلَى مَا تَكْرَهُونَهُ مِنَ التَّسْلِيمِ لِأَمْرِي، وَاتِّبَاعِ رَسُولِي مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ وَالصَّلَاةِ.

﴿وَإِنَّهَا﴾ يَعْنِي: وَإِنَّ الصَّلَاةَ ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ يَعْنِي: لَشَدِيدَةٌ ثَقِيلَةٌ ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ[٥٣]﴾ يَعْنِي: إِلَّا عَلَى الْخَاضِعِينَ لِطَاعَتِهِ، الْخَائِفِينَ سَطَوَاتِهِ، الْمُصَدِّقِينَ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ.

فَمَعْنَى الْآيَةِ: وَاسْتَعِينُوا – أَيُّهَا الْأَحْبَارُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ – بِحَبْسِ أَنْفُسِكُمْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ، وَكَفِّهَا عَنْ مَعَاصِي اللهِ، وَبِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ الْمَانِعَةِ مِنَ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، الْمُقَرِّبَةِ مِنْ مَرَاضِي اللهِ، الْعَظِيمَةِ إِقَامَتُهَا إِلَّا عَلَى الْمُتَوَاضِعِينَ لِلَّهِ، الْمُسْتَكِينِينَ لِطَاعَتِهِ، الْمُتَذَلِّلِينَ مِنْ مَخَافَتِهِ.

٤٦ – ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ[٥٤] أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ يَعْنِي: وَاسْتَعِينُوا عَلَى الْوَفَاءِ بِعَهْدِي بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ وَالصَّلَاةِ، وَإِنَّ الصَّلَاةَ لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَائِفِينَ عِقَابِي، الْمُتَوَاضِعِينَ لِأَمْرِي، الْمُوقِنِينَ بِلِقَائِي وَالرُّجُوعِ إِلَيَّ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ.

---

[٥٢] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَصْلُ الصَّبْرِ: مَنْعُ النَّفْسِ مَحَابَّهَا، وَكَفُّهَا عَنْ هَوَاهَا؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ لِلصَّابِرِ عَلَى الْمُصِيبَةِ: صَابِرٌ؛ لِكَفِّهِ نَفْسَهُ عَنِ الْجَزَعِ، وَقِيلَ لِشَهْرِ رَمَضَانَ: شَهْرُ الصَّبْرِ؛ لِصَبْرِ صَائِمِيهِ عَنِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ نَهَارًا، وَصَبْرُهُ إِيَّاهُمْ عَنْ ذَلِكَ: حَبْسُهُ لَهُمْ، وَكَفُّهُ إِيَّاهُمْ عَنْهُ، كَمَا يُصْبَرُ الرَّجُلُ الْمُسِيءُ لِلْقَتْلِ، فَتَحْبِسُهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْتُلَهُ. وَلِذَلِكَ قِيلَ: قَتَلَ فُلَانٌ فُلَانًا صَبْرًا؛ يَعْنِي بِهِ: حَبَسَهُ عَلَيْهِ حَتَّى قَتَلَهُ، فَالْمَقْتُولُ: مَصْبُورٌ، وَالْقَاتِلُ: صَابِرٌ.

[٥٣] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: أَصْلُ الْخُشُوعِ: التَّوَاضُعُ، وَالتَّذَلُّلُ، وَالِاسْتِكَانَةُ.

[٥٤] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: إِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: وَكَيْفَ أَخْبَرَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – عَمَّنْ قَدْ وَصَفَهُ بِالْخُشُوعِ لَهُ بِالطَّاعَةِ أَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّهُ مُلَاقِيهِ، وَالظَّنُّ: شَكٌّ، وَالشَّاكُّ فِي لِقَاءِ اللهِ عِنْدَكَ بِاللهِ كَافِرٌ؟ قِيلَ لَهُ: إِنَّ الْعَرَبَ قَدْ تُسَمِّي الْيَقِينَ ظَنًّا، وَالشَّكَّ ظَنًّا، نَظِيرَ تَسْمِيَتِهِمُ الظُّلْمَةَ (سُدْفَةً)، وَالضِّيَاءَ (سُدْفَةً)، وَالْمُغِيثَ (صَارِخًا)، وَالْمُسْتَغِيثَ (صَارِخًا)، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي تُسَمِّي بِهَا الشَّيْءَ وَضِدَّهُ.

٤٧- ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾يَعْنِي: أَنِّي فَضَّلْتُ أَسْلَافَكُمْ، فَنَسَبَ نِعَمَهُ عَلَى آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ إِلَى أَنَّهَا نِعَمٌ مِنْهُ عَلَيْهِمْ؛ إِذْ كَانَتْ مَآثِرُ الْآبَاءِ مَآثِرَ لِلْأَبْنَاءِ، وَالنِّعَمُ عِنْدَ الْآبَاءِ نِعَمًا عِنْدَ الْأَبْنَاءِ؛ لِكَوْنِ الْأَبْنَاءِ مِنَ الْآبَاءِ.

وَأَخْرَجَ جَلَّ ذِكْرُهُ قَوْلَهُ: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾مَخْرَجَ الْعُمُومِ، وَهُوَ يُرِيدُ بِهِ خُصُوصًا؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى عَالَمِ مَنْ كُنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَيْهِ وَفِي زَمَانِهِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْنَا مِنْ أَنَّ تَأْوِيلَ ذَلِكَ عَلَى الْخُصُوصِ الَّذِي وَصَفْنَا: عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، يَقُولُ: «أَلَا إِنَّكُمْ وَفَّيْتُمْ سَبْعِينَ أُمَّةً» قَالَ يَعْقُوبُ فِي حَدِيثِهِ: «أَنْتُمْ آخِرُهَا» وَقَالَ الْحَسَنُ: «أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ».[٥٥]

فَقَدْ أَنْبَأَ هَذَا الْخَبَرُ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكُونُوا مُفَضَّلِينَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –، وَأَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾عَلَى مَا بَيَّنَّا مِنْ تَأْوِيلِهِ.

٤٨- ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي[٥٦] نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾يَعْنِي: وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَقْضِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا، وَلَا تُغْنِي عَنْهَا غِنًى.

فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: وَمَا مَعْنَى: لَا تَقْضِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ، وَلَا تُغْنِي عَنْهَا غِنًى؟

قِيلَ: هُوَ أَنَّ أَحَدَنَا الْيَوْمَ رُبَّمَا قَضَى عَنْ وَلَدِهِ أَوْ وَالِدِهِ أَوْ ذِي الصَّدَاقَةِ وَالْقَرَابَةِ دَيْنَهُ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ؛ فَإِنَّهُ فِيمَا أَتَتْنَا بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْهَا يَسُرُّ الرَّجُلَ أَنْ يَبْرُدَ لَهُ[٥٧] عَلَى وَلَدِهِ أَوْ وَالِدِهِ حَقٌّ، وَذَلِكَ أَنَّ قَضَاءَ الْحُقُوقِ فِي الْقِيَامَةِ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ[٥٨]﴾يَعْنِي: وَلَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهَا شَفَاعَةَ شَافِعٍ، فَيَتْرُكُ لَهَا مَا لَزِمَهَا مِنْ حَقٍّ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَ مَخْرَجُهَا عَامًّا فِي التِّلَاوَةِ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِهَا خَاصٌّ فِي التَّأْوِيلِ؛ لِتَظَاهُرِ الْأَخْبَارِ عَنْ

---

[٥٥] حديث حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجة، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي؛ وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي(٣٠٠١) ، وصحيح سنن ابن ماجة(٤٢٨٨)، والمشكاة(٦٢٩٤).

[٥٦] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** أَصْلُ الْجَزَاءِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْقَضَاءُ وَالتَّعْوِيضُ، يُقَالُ: جَزَيْتُهُ قَرْضَهُ وَدَيْنَهُ أَجْزِيهِ جَزَاءً؛ بِمَعْنَى: قَضَيْتُهُ دَيْنَهُ، وَمِنْ ذَلِكَ قِيلَ: جَزَى اللهُ فُلَانًا عَنِّي خَيْرًا أَوْ شَرًّا؛ بِمَعْنَى: أَثَابَهُ عَنِّي، وَقَضَاهُ عَنِّي مَا لَزِمَنِي لَهُ بِفِعْلِهِ الَّذِي سَلَفَ مِنْهُ إِلَيَّ.

[٥٧] يُقَالُ: بَرَدَ لِي عَلَى فُلَانٍ حَقٌّ؛ أَيْ: ثَبَتَ.

[٥٨] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** الشَّفَاعَةُ مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ الرَّجُلِ: شَفَعَ لِي فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ شَفَاعَةً، وَهُوَ طَلَبُهُ إِلَيْهِ فِي قَضَاءِ حَاجَتِهِ وَإِنَّمَا قِيلَ لِلشَّفِيعِ شَفِيعٌ وَشَافِعٌ لِأَنَّهُ ثَنَّى الْمُسْتَشْفَعُ بِهِ فَصَارَ لَهُ شَفْعًا، فَكَانَ ذُو الْحَاجَةِ قَبْلَ اسْتِشْفَاعِهِ بِهِ فِي حَاجَتِهِ فَرْدًا، فَصَارَ صَاحِبُهُ لَهُ فِيهَا شَافِعًا، وَطَلَبُهُ فِيهِ وَفِي حَاجَتِهِ شَفَاعَةً؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الشَّفِيعُ فِي الدَّارِ وَفِي الْأَرْضِ شَفِيعًا؛ لِمَصِيرِ الْبَائِعِ بِهِ شَفْعًا.

رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، أَنَّهُ قَالَ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي».[٥٩]
وَأَنَّهُ قَالَ: «لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ دَعْوَةً، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي، وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا».[٦٠]

فَقَدْ تَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ اللهَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – قَدْ يَصْفَحُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ – بِشَفَاعَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَهُمْ – عَنْ كَثِيرٍ مِنْ عُقُوبَةِ إِجْرَامِهِمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، وَأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ إِنَّمَا هِيَ لِمَنْ مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ غَيْرَ تَائِبٍ إِلَى اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –.

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ الْعَدْلُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ – بِفَتْحِ الْعَيْنِ –: الْفِدْيَةُ.

﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ لَا يَنْصُرُهُمْ نَاصِرٌ، كَمَا لَا يَشْفَعُ لَهُمْ شَافِعٌ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ عَدْلٌ وَلَا فِدْيَةٌ. بَطَلَتْ هُنَالِكَ الْمُحَابَاةُ! وَاضْمَحَلَّتِ الرُّشَى وَالشَّفَاعَاتُ! وَارْتَفَعَ بَيْنَ الْقَوْمِ التَّعَاوُنُ وَالتَّنَاصُرُ، وَصَارَ الْحُكْمُ إِلَى الْعَدْلِ الْجَبَّارِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ لَدَيْهِ الشُّفَعَاءُ وَالنُّصَرَاءُ، فَيَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا وَبِالْحَسَنَةِ أَضْعَافَهَا. وَذَلِكَ نَظِيرُ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾.

٤٩– ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ[٦١]﴾ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ فَكَأَنَّهُ قَالَ: اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، وَاذْكُرُوا إِنْعَامَنَا عَلَيْكُمْ إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ بِإِنْجَائِنَاكُمْ مِنْهُمْ.

وَإِنَّمَا جَازَ أَنْ يُقَالَ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وَالْخِطَابُ بِهِ لِمَنْ لَمْ يُدْرِكْ فِرْعَوْنَ وَلَا الْمُنَجِّينَ مِنْهُ؛ لِأَنَّ الْمُخَاطَبِينَ بِذَلِكَ كَانُوا أَبْنَاءَ مَنْ نَجَّاهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، فَأَضَافَ مَا كَانَ مِنْ نِعَمِهِ عَلَى آبَائِهِمْ إِلَيْهِمْ، وَكَذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ كُفْرَانِ آبَائِهِمْ عَلَى وَجْهِ الْإِضَافَةِ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ لِآخَرَ: فَعَلْنَا بِكُمْ

---

[٥٩] صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير والصغير والأوسط، والحاكم ؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٣٧١٤)، والمشكاة(٥٥٩٨)، وغيرهما.

[٦٠] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم.

[٦١] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَأَمَّا آلُ فِرْعَوْنَ: فَإِنَّهُمْ أَهْلُ دِينِهِ وَقَوْمُهُ وَأَشْيَاعُهُ. وَأَصْلُ آلِ: أَهْلُ؛ أُبْدِلَتِ الْهَاءُ هَمْزَةً.
وَأَمَّا فِرْعَوْنُ: فَإِنَّهُ يُقَالُ: إِنَّهُ اسْمٌ كَانَتْ مُلُوكُ الْعَمَالِقَةِ بِمِصْرَ تُسَمَّى بِهِ، كَمَا كَانَتْ مُلُوكُ الرُّومِ يُسَمِّي بَعْضُهُمْ: (قَيْصَرٌ)، وَبَعْضُهُمْ: (هِرَقْلٌ)، وَكَمَا كَانَتْ مُلُوكُ فَارِسَ تُسَمَّى (الْأَكَاسِرَةَ)، وَاحِدُهُمْ: كِسْرَى، وَمُلُوكُ الْيَمَنِ تُسَمَّى (التَّبَابِعَةَ)، وَاحِدُهُمْ: تُبَّعٌ.
وَأَمَّا فِرْعَوْنُ مُوسَى – الَّذِي أَخْبَرَ اللهُ – تَعَالَى – عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ نَجَّاهُمْ مِنْهُ –: فَإِنَّهُ يُقَالُ: إِنَّ اسْمَهُ الْوَلِيدُ بْنُ مُصْعَبِ بْنِ الرَّيَّانِ.

كَذَا، وَفَعَلْنَا بِكُمْ كَذَا، وَقَتَلْنَاكُمْ وَسَبَيْنَاكُمْ، وَالْمُخْبِرُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ يَعْنِي قَوْمَهُ وَعَشِيرَتَهُ بِذَلِكَ، أَوْ أَهْلَ بَلَدِهِ وَوَطَنِهِ كَانَ الْمَقُولُ لَهُ ذَلِكَ أَدْرَكَ مَا فُعِلَ بِهِمْ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لَمْ يُدْرِكْهُ.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أَيْ: يُورِدُونَكُمْ، وَيُذِيقُونَكُمْ ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يَعْنِي: مَا سَاءَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ.

فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: وَمَا ذَلِكَ الْعَذَابُ الَّذِي كَانُوا يَسُومُونَهُمُ الَّذِي كَانَ يَسُوؤُهُمْ؟

قِيلَ: هُوَ مَا وَصَفَهُ اللهُ – تَعَالَى – فِي كِتَابِهِ؛ فَقَالَ:

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ[٦٢]﴾ يَعْنِي: يَسْتَبْقُونَهُنَّ فَلَا يَقْتُلُونَهُنَّ.

يَعْنِي بِذَلِكَ: الْوَالِدَاتِ وَالْمَوْلُودَاتِ، كَمَا يُقَالُ: قَدْ أَقْبَلَ الرِّجَالُ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ صِبْيَانٌ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ وَأَمَّا مِنَ الذُّكُورِ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ يَذْبَحُ إِلَّا الْمَوْلُودُونَ، قِيلَ: يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ، وَلَمْ يَقُلْ: يُذَبِّحُونَ رِجَالَكُمْ.

﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ[٦٣] مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ يَعْنِي: وَفِي الَّذِي فَعَلْنَا بِكُمْ مِنْ إِنْجَائِنَاكُمْ – مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ عَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ إِيَّاكُمْ، عَلَى مَا وَصَفْتُ – بَلَاءٌ لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ.

وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ ﴿بَلَاءٌ﴾: نِعْمَةٌ.

٥٠- ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ﴾ عَطْفٌ عَلَى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ بِمَعْنَى: وَاذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، وَاذْكُرُوا إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ﴾: فَصَلْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ سِبْطًا، فَفَرَقَ الْبَحْرَ اثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا، فَسَلَكَ كُلُّ سِبْطٍ مِنْهُمْ طَرِيقًا مِنْهَا.

---

[٦٢] قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أَيْ: يَسْتَبْقُونَ نِسَاءَكُمْ؛ لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَ الرِّجَالُ، وَبَقِيَتِ النِّسَاءُ؛ ذَلَّ الشَّعْبُ، وَانْكَسَرَتْ شَوْكَتُهُ؛ لِأَنَّ النِّسَاءَ لَيْسَ عِنْدَهُنَّ مَنْ يُدَافِعُ، وَيَبْقِينَ خَدَمًا لِآلِ فِرْعَونَ؛ وَهَذَا – وَالْعِيَاذُ بِاللهِ – مِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ مِنَ الْإِذْلَالِ!!.

[٦٣] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: أَصْلُ الْبَلَاءِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الِاخْتِبَارُ وَالِامْتِحَانُ، ثُمَّ يُسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ؛ لِأَنَّ الِامْتِحَانَ وَالِاخْتِبَارَ قَدْ يَكُونُ بِالْخَيْرِ كَمَا يَكُونُ بِالشَّرِّ، كَمَا قَالَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ –: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يَقُولُ: اخْتَبَرْنَاهُمْ، وَكَمَا قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ ثُمَّ تُسَمِّي الْعَرَبُ الْخَيْرَ بَلَاءً وَالشَّرَّ بَلَاءً، غَيْرَ أَنَّ الْأَكْثَرَ فِي الشَّرِّ أَنْ يُقَالَ: بَلَوْتُهُ أَبْلُوهُ بَلَاءً، وَفِي الْخَيْرِ: أَبْلَيْتُهُ أُبْلِيهِ إِبْلَاءً وَبَلَاءً.

﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ[٦٤] وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾أَيْ: تَنْظُرُونَ إِلَى فَرْقِ اللهِ لَكُمُ الْبَحْرَ، وَإِهْلَاكِهِ آلَ فِرْعَوْنَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي نَجَّاكُمْ فِيهِ، وَإِلَى عَظِيمِ سُلْطَانِهِ فِي الَّذِي أَرَاكُمْ مِنْ طَاعَةِ الْبَحْرِ إِيَّاهُ مِنْ مَصِيرِهِ رُكَامًا فِلْقًا كَهَيْئَةِ الْأَطْوَادِ الشَّامِخَةِ غَيْرَ زَائِلٍ عَنْ حَدِّهِ، انْقِيَادًا لِأَمْرِ اللهِ وَإِذْعَانًا لِطَاعَتِهِ، وَهُوَ سَائِلٌ ذَائِبٌ قَبْلَ ذَلِكَ.

٥١- ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى[٦٥] أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾بِتَمَامِهَا. فَالْأَرْبَعُونَ لَيْلَةً كُلُّهَا دَاخِلَةٌ فِي الْمِيعَادِ.

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾يَعْنِي: ثُمَّ اتَّخَذْتُمْ فِي أَيَّامِ مُوَاعَدَةِ مُوسَى الْعِجْلَ إِلَهًا، مِنْ بَعْدِ أَنْ فَارَقَكُمْ مُوسَى مُتَوَجِّهًا إِلَى الْمَوْعِدِ.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾يَعْنِي: وَأَنْتُمْ وَاضِعُو الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِلَّهِ – عَزَّ وَجَلَّ –، وَعَبَدْتُمْ أَنْتُمُ الْعِجْلَ ظُلْمًا مِنْكُمْ، وَوَضْعًا لِلْعِبَادَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا.

٥٢- ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾يَقُولُ: تَرَكْنَا مُعَاجَلَتَكُمْ بِالْعُقُوبَةِ ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾أَيْ: مِنْ بَعْدِ اتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ إِلَهًا، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾يَعْنِي: لِتَشْكُرُوا. وَمَعْنَى لَعَلَّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَعْنَى كَيْ.

فَمَعْنَى الْكَلَامِ إِذًا: ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ اتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ إِلَهًا؛ لِتَشْكُرُونِي عَلَى عَفْوِي عَنْكُمْ، إِذْ كَانَ الْعَفْوُ يُوجِبُ الشُّكْرَ عَلَى أَهْلِ اللُّبِّ وَالْعَقْلِ.

٥٣- ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾يَعْنِي: وَاذْكُرُوا أَيْضًا إِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ.

وَيَعْنِي بِالْكِتَابِ: التَّوْرَاةَ، وَبِالْفُرْقَانِ: الْفَصْلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾يَعْنِي: لِتَهْتَدُوا. وَكَأَنَّهُ قَالَ: وَاذْكُرُوا أَيْضًا إِذْ آتَيْنَا مُوسَى التَّوْرَاةَ الَّتِي تُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ لِتَهْتَدُوا بِهَا، وَتَتَّبِعُوا الْحَقَّ الَّذِي فِيهَا؛ لِأَنِّي جَعَلْتُهَا كَذَلِكَ هُدًى لِمَنِ اهْتَدَى بِهَا وَاتَّبَعَ مَا فِيهَا.

٥٤- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾يَعْنِي: وَاذْكُرُوا أَيْضًا إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ.

---

[٦٤] **قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ فِي التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ**: قَوْلُهُ: ﴿**وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ**﴾ أَيْ: جُنْدَهُ وَأَنْصَارَهُ. وَلَمْ يَذْكُرْ فِي هَاتِهِ الْآيَةِ غَرَقَ فِرْعَوْنَ؛ لِأَنَّ مَحَلَّ الْمِنَّةِ هُوَ إِهْلَاكُ الَّذِينَ كَانُوا الْمُبَاشِرِينَ لِتَسْخِيرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَعْذِيبِهِمْ، وَالَّذِينَ هُمْ قُوَّةُ فِرْعَوْنَ، وَقَدْ ذُكِرَ غَرَقُ فِرْعَوْنَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى.

[٦٥] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: (مُوسَى) بِالْقِبْطِيَّةِ كَلِمَتَانِ، يَعْنِي بِهِمَا: مَاءٌ، وَشَجَرٌ؛ فَمُو: هُوَ الْمَاءُ، وَسَا: هُوَ الشَّجَرُ.

وَظُلْمُهُمْ إِيَّاهَا كَانَ فِعْلَهُمْ بِهَا مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوهُ بِهَا مِمَّا أَوْجَبَ لَهُمُ الْعُقُوبَةَ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – ، وَكَذَلِكَ كُلُّ فَاعِلٍ فِعْلًا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الْعُقُوبَةَ مِنَ اللهِ – تَعَالَى –، فَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ بِإِيجَابِهِ الْعُقُوبَةَ لَهَا مِنَ اللهِ – تَعَالَى –.

وَكَانَ الْفِعْلُ الَّذِي فَعَلُوهُ فَظَلَمُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ؛ هُوَ مَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ: مِنِ ارْتِدَادِهِمْ بِاتِّخَاذِهِمُ الْعِجْلَ رَبًّا بَعْدَ فِرَاقِ مُوسَى إِيَّاهُمْ.

ثُمَّ أَمَرَهُمْ مُوسَى بِالْمُرَاجَعَةِ مِنْ ذَنْبِهِمْ، وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللهِ مِنْ رِدَّتِهِمْ؛ بِالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ، وَالتَّسْلِيمِ لِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ تَوْبَتَهُمْ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي رَكِبُوهُ قَتْلُهُمْ أَنْفُسَهُمْ!!.

وَأَمَّا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي بِهِ: ارْجِعُوا إِلَى طَاعَةِ خَالِقِكُمْ، وَإِلَى مَا يُرْضِيهِ عَنْكُمْ.

﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾يَعْنِي: تَوْبَتَكُمْ بِقَتْلِكُمْ أَنْفُسَكُمْ وَطَاعَتِكُمْ رَبَّكُمْ، خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ؛ لِأَنَّكُمْ تَنْجَوْنَ بِذَلِكَ مِنْ عِقَابِ اللهِ فِي الْآخِرَةِ عَلَى ذَنْبِكُمْ، وَتَسْتَوْجِبُونَ بِهِ الثَّوَابَ مِنْهُ.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾أَيْ: بِمَا فَعَلْتُمْ مِمَّا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ قَتْلِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا.[٦٦]

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾يَعْنِي: الرَّاجِعَ لِمَنْ أَنَابَ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ إِلَى مَا يُحِبُّ مِنَ الْعَفْوِ عَنْهُ.

وَيَعْنِي بِـ(الرَّحِيمِ): الْعَائِدَ إِلَيْهِ بِرَحْمَتِهِ الْمُنْجِيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ.

٥٥– ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾يَعْنِي: وَاذْكُرُوا أَيْضًا إِذْ قُلْتُمْ: يَا مُوسَى لَنْ نُصَدِّقَكَ، وَلَنْ نُقِرَّ بِمَا جِئْتَنَا بِهِ، حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً عِيَانًا، بِرَفْعِ السَّاتِرِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، وَكَشْفِ الْغِطَاءِ دُونَنَا وَدُونَهُ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْهِ بِأَبْصَارِنَا.

فَذَكَّرَهُمْ بِذَلِكَ جَلَّ ذِكْرُهُ اخْتِلَافَ آبَائِهِمْ، وَسُوءَ اسْتِقَامَةِ أَسْلَافِهِمْ لِأَنْبِيَائِهِمْ، مَعَ كَثْرَةِ مُعَايَنَتِهِمْ مِنْ آيَاتِ اللهِ – جَلَّ وَعَزَّ – وَعِبَرِهِ مَا تُثْلَجُ بِأَقَلِّهَا الصُّدُورُ، وَتَطْمَئِنُّ بِالتَّصْدِيقِ مَعَهَا النُّفُوسُ.

وَذَلِكَ مَعَ تَتَابُعِ الْحُجَجِ عَلَيْهِمْ، وَسُبُوغِ النِّعَمِ مِنَ اللهِ لَدَيْهِمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ: مَرَّةً يَسْأَلُونَ نَبِيَّهُمْ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ إِلَهًا غَيْرَ اللهِ! وَمَرَّةً يَعْبُدُونَ الْعِجْلَ مِنْ دُونِ اللهِ! وَمَرَّةً يَقُولُونَ: لَا نُصَدِّقُكَ حَتَّى نَرَى اللهَ

---

[٦٦] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَهَذَا مِنَ الْمَحْذُوفِ الَّذِي اسْتَغْنَى بِالظَّاهِرِ مِنْهُ عَنِ الْمَتْرُوكِ؛ لِأَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ: فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ، فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ، فَتُبْتُمْ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ. فَتَرَكَ ذِكْرَ قَوْلِهِ فَتُبْتُمْ، إِذْ كَانَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**فَتَابَ عَلَيْكُمْ**﴾دَلَالَةٌ بَيِّنَةٌ عَلَى اقْتِضَاءِ الْكَلَامِ فَتُبْتُمْ.

جَهْرَةً!! وَأُخْرَى يَقُولُونَ لَهُ إِذَا دُعُوا إِلَى الْقِتَالِ: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾!! وَمَرَّةً يُقَالُ لَهُمْ: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾فَيَقُولُونَ: حِنْطَةٌ فِي شَعِيرَةٍ، وَيَدْخُلُونَ الْبَابَ مِنْ قِبَلِ أَسْتَاهِهِمْ!! مَعَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِهِمُ الَّتِي آذَوْا بِهَا نَبِيَّهُمْ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – الَّتِي يَكْثُرُ إِحْصَاؤُهَا.[٦٧]

فَأَعْلَمَ رَبُّنَا – تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرُهُ – الَّذِينَ خَاطَبَهُمْ بِهَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ يَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ ظَهْرَانَيْ مُهَاجَرِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، أَنَّهُمْ لَنْ يَعْدُوا أَنْ يَكُونُوا – فِي تَكْذِيبِهِمْ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَجُحُودِهِمْ نُبُوَّتَهُ، وَتَرْكِهِمُ الْإِقْرَارَ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِهِ، وَمَعْرِفَتِهِمْ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ – كَأَسْلَافِهِمْ وَآبَائِهِمُ الَّذِينَ فَصَّلَ عَلَيْهِمْ قَصَصَهُمْ فِي ارْتِدَادِهِمْ عَنْ دِينِهِمْ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَتَوَثُّبِهِمْ عَلَى نَبِيِّهِمْ مُوسَى – صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ – تَارَةً بَعْدَ أُخْرَى، مَعَ عَظِيمِ بَلَاءِ اللهِ – جَلَّ وَعَزَّ – عِنْدَهُمْ، وَسُبُوغِ آلَائِهِ عَلَيْهِمْ.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ[٦٨] وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾يَعْنِي: وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ إِلَى الصَّاعِقَةِ الَّتِي أَصَابَتْكُمْ، يَقُولُ: أَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ عِيَانًا جِهَارًا وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيْهَا.

٥٦- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ[٦٩]﴾يَعْنِي: ثُمَّ أَحْيَيْنَاكُمْ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾يَعْنِي: مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ بِالصَّاعِقَةِ الَّتِي أَهْلَكَتْكُمْ

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾يَقُولُ: فَعَلْنَا بِكُمْ ذَلِكَ لِتَشْكُرُونِي عَلَى مَا أَوْلَيْتُكُمْ مِنْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ، بِإِحْيَائِي إِيَّاكُمْ، اسْتِبْقَاءً مِنِّي لَكُمْ، لِتُرَاجِعُوا التَّوْبَةَ مِنْ عَظِيمِ ذَنْبِكُمْ، بَعْدَ إِحْلَالِي الْعُقُوبَةَ بِكُمْ بِالصَّاعِقَةِ الَّتِي أَحْلَلْتُهَا بِكُمْ، فَأَمَاتَتْكُمْ بِعَظِيمِ خَطَئِكُمُ الَّذِي كَانَ مِنْكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ.

---

[٦٧] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَسَمَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَسْمًا، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّهَا لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَسَارَرْتُهُ، فَغَضِبَ مِنْ ذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا! وَاحْمَرَّ وَجْهُهُ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَذْكُرْهُ لَهُ! قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «[**رَحِمَ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ!!**]» [صحيح: رواه البخاري – وما بين المعقوفين له –، ومسلم – واللفظ له –؛ وغيرهما].

[٦٨] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَصْلُ الصَّاعِقَةِ: كُلُّ أَمْرٍ هَائِلٍ رَآهُ أَوْ عَايَنَهُ أَوْ أَصَابَهُ – حَتَّى يَصِيرَ مِنْ هَوْلِهِ وَعَظِيمِ شَأْنِهِ إِلَى هَلَاكٍ وَعَطَبٍ، وَإِلَى ذَهَابِ عَقْلٍ وَغُمُورِ فَهْمٍ، أَوْ فَقْدِ بَعْضِ آلَاتِ الْجِسْمِ، – صَوْتًا كَانَ ذَلِكَ، أَوْ نَارًا، أَوْ زَلْزَلَةً، أَوْ رَجْفًا.

[٦٩] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَصْلُ الْبَعْثِ: إِثَارَةُ الشَّيْءِ مِنْ مَحَلِّهِ، وَمِنْهُ قِيلَ: بَعَثَ فُلَانٌ رَاحِلَتَهُ: إِذَا أَثَارَهَا مِنْ مَبْرَكِهَا لِلسَّيْرِ، وَمِنْ ذَلِكَ قِيلَ: بَعَثْتُ فُلَانًا لِحَاجَتِي: إِذَا أَقَمْتُهُ مِنْ مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ لِلتَّوَجُّهِ فِيهَا، وَمِنْ ذَلِكَ قِيلَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ: يَوْمُ الْبَعْثِ؛ لِأَنَّهُ يَوْمٌ يُثَارُ النَّاسُ فِيهِ مِنْ قُبُورِهِمْ لِمَوْقِفِ الْحِسَابِ.

٥٧- ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ[٧٠] وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَنُّ: صَمْغَةٌ.

وَقَالَ آخَرُونَ: الْمَنُّ: شَرَابٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِثْلَ الْعَسَلِ، فَيَمْزِجُونَهُ بِالْمَاءِ، ثُمَّ يَشْرَبُونَهُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: الْمَنُّ: عَسَلٌ كَانَ يَنْزِلُ لَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ.

وَالسَّلْوَى: اسْمُ طَائِرٍ يُشْبِهُ السُّمَانَى.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾يَعْنِي: كُلُوا مِنْ مُشْتَهِيَاتِ رِزْقِنَا الَّذِي رَزَقْنَاكُمُوهُ.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾يَعْنِي: وَمَا وَضَعُوا فِعْلَهُمْ ذَلِكَ وَعِصْيَانَهُمْ إِيَّانَا مَوْضِعَ مَضَرَّةٍ عَلَيْنَا وَمَنْقَصَةٍ لَنَا؛ وَلَكِنَّهُمْ وَضَعُوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَوْضِعَ مَضَرَّةٍ عَلَيْهَا وَمَنْقَصَةٍ لَهَا.

وَرَبُّنَا – جَلَّ ذِكْرُهُ – لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ عَاصٍ، وَلَا يَتَحَيَّفُ خَزَائِنَهُ ظُلْمُ ظَالِمٍ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مُطِيعٍ، وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِهِ عَدْلُ عَادِلٍ؛ بَلْ نَفْسَهُ يَظْلِمُ الظَّالِمُ، وَحَظَّهَا يَبْخَسُ الْعَاصِي، وَإِيَّاهَا يَنْفَعُ الْمُطِيعُ، وَحَظَّهَا يُصِيبُ الْعَادِلُ.

٥٨- ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ الْقَرْيَةُ الَّتِي أَمَرَهُمُ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – أَنْ يَدْخُلُوهَا: بَيْتُ الْمَقْدِسِ.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾يَعْنِي: فَكُلُوا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ حَيْثُ شِئْتُمْ عَيْشًا هَنِيًّا وَاسِعًا بِغَيْرِ حِسَابٍ.

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾يَعْنِي: وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ مُبَاحًا لَكُمْ كُلُّ مَا فِيهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ، مُوَسَّعًا عَلَيْكُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ؛ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا، وَقُولُوا: سُجُودُنَا هَذَا لِلَّهِ حِطَّةٌ مِنْ رَبِّنَا لِذُنُوبِنَا يَحُطُّ بِهِ آثَامَنَا، نَتَغَمَّدُ لَكُمْ ذُنُوبَ الْمُذْنِبِ مِنْكُمْ فَنَسْتُرُهَا عَلَيْهِ، وَنَحُطُّ أَوْزَارَهُ عَنْهُ، وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنَ مِنْكُمْ – إِلَى إِحْسَانِنَا السَّالِفِ عِنْدَهُ – إِحْسَانًا.

٥٩- ﴿فَبَدَّلَ﴾يَعْنِي: فَغَيَّرَ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾يَعْنِي: الَّذِينَ فَعَلُوا مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِعْلُهُ ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾يَعْنِي: بَدَّلُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي أُمِرُوا أَنْ يَقُولُوهُ فَقَالُوا خِلَافَهُ، وَذَلِكَ هُوَ التَّبْدِيلُ وَالتَّغْيِيرُ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ. وَكَانَ تَبْدِيلُهُمْ – بِالْقَوْلِ الَّذِي أُمِرُوا أَنْ يَقُولُوا – قَوْلًا غَيْرَهُ:

---

[٧٠] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَالْغَمَامُ: جَمْعُ غَمَامَةٍ كَمَا السَّحَابُ جَمْعُ سَحَابَةٍ، وَالْغَمَامُ هُوَ مَا غَمَّ السَّمَاءَ فَأَلْبَسَهَا مِنْ سَحَابٍ وَقَتَامٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَسْتُرُهَا عَنْ أَعْيُنِ النَّاظِرِينَ، وَكُلُّ مُغَطًّى فَإِنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّيهِ مَغْمُومًا اهـ. قُلْتُ: الْقَتَامُ: الْغُبَارُ الْأَسْوَدُ [المصباح المنير، مادة(ق ت م)].

عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «قَالَ اللهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾، فَبَدَّلُوا وَدَخَلُوا الْبَابَ يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ[71]، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعِيرَةٍ». [72]

﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾الرِّجْزُ: الْعَذَابُ.

وَعَذَابُ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – أَصْنَافٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – أَنَّهُ أَنْزَلَ عَلَى الَّذِينَ وَصَفْنَا أَمْرَهُمُ الرِّجْزَ مِنَ السَّمَاءِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ طَاعُونًا، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ غَيْرَهُ.

وَلَا دَلَالَةَ فِي ظَاهِرِ الْقُرْآنِ وَلَا فِي أَثَرٍ عَنِ الرَّسُولِ ثَابِتٍ، أَيُّ أَصْنَافِ ذَلِكَ كَانَ!.

فَالصَّوَابُ – مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ – أَنْ يُقَالَ كَمَا قَالَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾بِفِسْقِهِمْ.

غَيْرَ أَنَّهُ يَغْلِبُ عَلَى النَّفْسِ صِحَّةُ الَّذِي ذَكَرْتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي إِخْبَارِهِ عَنِ الطَّاعُونِ أَنَّهُ رِجْزٌ، وَأَنَّهُ عُذِّبَ بِهِ قَوْمٌ قَبْلَنَا، وَإِنْ كُنْتُ لَا أَقُولُ إِنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ يَقِينًا؛ لِأَنَّ الْخَبَرَ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَا بَيَانَ فِيهِ أَيُّ أُمَّةٍ عُذِّبَتْ بِذَلِكَ!.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾بِمَا كَانُوا يَتْرُكُونَ طَاعَةَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –، فَيَخْرُجُونَ عَنْهَا إِلَى مَعْصِيَتِهِ وَخِلَافِ أَمْرِهِ.

٦٠– ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾يَعْنِي: وَإِذِ اسْتَسْقَانَا مُوسَى لِقَوْمِهِ، أَيْ: سَأَلَنَا أَنْ نَسْقِيَ قَوْمَهُ مَاءً.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فَضَرَبَهُ ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ يَعْنِي: قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مِنْهُمْ مَشْرَبَهُمْ.

وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ كَانَ جَعَلَ لِكُلِّ سِبْطٍ مِنَ الْأَسْبَاطِ الِاثْنَيْ عَشَرَ، عَيْنًا مِنَ الْحَجَرِ الَّذِي وَصَفَ صِفَتَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، يَشْرَبُ مِنْهَا دُونَ سَائِرِ الْأَسْبَاطِ غَيْرِهِ، لَا يَدْخُلُ سِبْطٌ مِنْهُمْ فِي شِرْبِ سِبْطٍ غَيْرِهِ.

وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ لِكُلِّ عَيْنٍ مِنْ تِلْكَ الْعُيُونِ الِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ، مَوْضِعٌ مِنَ الْحَجَرِ قَدْ عَرَفَهُ السِّبْطُ الَّذِي مِنْهُ شِرْبُهُ.

فَلِذَلِكَ خَصَّ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – هَؤُلَاءِ بِالْخَبَرِ عَنْهُمْ: أَنَّ كُلَّ أُنَاسٍ مِنْهُمْ كَانُوا عَالِمِينَ بِمَشْرَبِهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ﴾أَيْ: فَقِيلَ لَهُمْ: كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ.

---

[71] قَوْلُهُ: (يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ) أَيْ: يَنْجَرُّونَ عَلَى أَلْيَاتِهِمْ، فِعْلَ الْمُقْعَدِ الَّذِي يَمْشِي عَلَى أَلْيَتِهِ، يُقَالُ: زَحَفَ الصَّبِيُّ؛ إِذَا مَشَى كَذَلِكَ. وَالْأَسْتَاهُ: جَمْعُ أَسْتٍ؛ وَهُوَ الدُّبُرُ [طرح التثريب في شرح التقريب؛ للحافظ زين الدين العراقي].

[72] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد؛ وغيرهم.

أَخْبَرَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – أَنَّهُ أَمَرَهُمْ بِأَكْلِ مَا رَزَقَهُمْ فِي التِّيهِ مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى، وَبِشُرْبِ مَا فَجَّرَ لَهُمْ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ مِنَ الْحَجَرِ.

﴿وَلَا تَعْثَوْا[٧٣] فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾يَعْنِي: لَا تَطْغَوْا، وَلَا تَسْعَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ.

٦١– ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ[٧٤]﴾يَعْنِي: وَاذْكُرُوا إِذْ قُلْتُمْ يَا مَعْشَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَنْ نُطِيقَ حَبْسَ أَنْفُسِنَا عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ، ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا[٧٥] وَقِثَّائِهَا[٧٦] وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾أَيْ: فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا بَعْضَ مَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا.

وَالْبَقْلُ، وَالْقِثَّاءُ، وَالْعَدَسُ، وَالْبَصَلُ؛ هُوَ مَا قَدْ عَرَفَهُ النَّاسُ بَيْنَهُمْ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ وَحَبِّهَا.

وَأَمَّا الْفُومُ[٧٧]، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْحِنْطَةُ وَالْخُبْزُ، وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ الثُّومُ.

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ[٧٨] الَّذِي هُوَ أَدْنَى[٧٩] بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾يَعْنِي: قَالَ لَهُمْ مُوسَى: أَتَأْخُذُونَ الَّذِي هُوَ أَخَسُّ خَطَرًا[٨٠] وَقِيمَةً وَقَدْرًا مِنَ الْعَيْشِ، بَدَلًا بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ خَطَرًا وَقِيمَةً وَقَدْرًا؟.

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنِ اسْتَبْدَلَ بِالْمَنِّ وَالسَّلْوَى الْبَقْلَ وَالْقِثَّاءَ وَالْعَدَسَ وَالْبَصَلَ وَالثُّومَ؛ فَقَدِ اسْتَبْدَلَ الْوَضِيعَ مِنَ الْعَيْشِ بِالرَّفِيعِ مِنْهُ!.

فَدَعَا لَهُمْ مُوسَى رَبَّهُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ مَا سَأَلُوهُ، فَاسْتَجَابَ اللهُ لَهُ دُعَاءَهُ[٨١]، فَأَعْطَاهُمْ مَا طَلَبُوا، وَقَالَ اللهُ لَهُمْ: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾يَعْنِي: اهْبِطُوا مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ؛ لِأَنَّكُمْ فِي الْبَدْوِ، وَالَّذِي طَلَبْتُمْ لَا يَكُونُ فِي الْبَوَادِي وَالْفَيَافِي، وَإِنَّمَا يَكُونُ فِي الْقُرَى وَالْأَمْصَارِ، فَإِنَّ لَكُمْ – إِذَا هَبَطْتُمُوهُ – مَا سَأَلْتُمْ مِنَ الْعَيْشِ.

---

[٧٣] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَصْلُ الْعَثَا: شِدَّةُ الْإِفْسَادِ؛ بَلْ هُوَ أَشَدُّ الْإِفْسَادِ! يُقَالُ مِنْهُ: عَثَى فُلَانٌ فِي الْأَرْضِ: إِذَا تَجَاوَزَ فِي الْإِفْسَادِ إِلَى غَايَتِهِ.

[٧٤] **فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ**: كَيْفَ يَقُولُونَ: طَعَامٌ وَاحِدٌ وَهُمَا طَعَامَانِ: الْمَنّ، وَالسَّلْوَى؟ **قُلْتُ**: أَرَادُوا بِالْوَاحِدِ مَا لَا يَخْتَلِفُ وَلَا يَتَبَدَّلُ، وَلَوْ كَانَ عَلَى مَائِدَةِ الرَّجُلِ أَلْوَانٌ عَدِيدَةٌ مِنَ الطَّعَامِ يُدَاوِمُ عَلَيْهَا كُلَّ يَوْمٍ لَا يُبَدِّلُهَا؛ كَانَتْ بِمَنْزِلَةِ الطَّعَامِ الْوَاحِدِ.

[٧٥] **قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ**: (**الْبَقْلُ**): كُلُّ نَبَاتٍ اخْضَرَّتْ بِهِ الْأَرْضُ.

[٧٦] **قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ**: (**الْقِثَّاءُ**): هُوَ اسْمٌ لِمَا يُسَمِّيهِ النَّاسُ الْخِيَارَ وَالْعَجُّورَ وَالْفَقُّوسَ، الْوَاحِدَةُ قِثَّاءَةٌ.

[٧٧] **قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ**: (**الْفُومُ**): الثُّومُ، وَيُقَالُ: الْحِنْطَةُ، وَفُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَفُومِهَا**﴾ بِالْقَوْلَيْنِ.

[٧٨] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَصْلُ الِاسْتِبْدَالِ: هُوَ تَرْكُ شَيْءٍ لِآخَرَ غَيْرِهِ مَكَانَ الْمَتْرُوكِ.

[٧٩] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿**أَدْنَى**﴾أَخَسُّ وَأَوْضَعُ وَأَصْغَرُ قَدْرًا وَخَطَرًا، وَأَصْلُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: هَذَا رَجُلٌ دَنِيٌّ بَيِّنُ الدَّنَاءَةِ، وَإِنَّهُ لَيُدْنِي فِي الْأُمُورِ؛ إِذَا كَانَ يَتَتَبَّعُ خَسِيسَهَا.

[٨٠] (**أَخَسُّ خَطَرًا**): أَخَسُّ مَنْزِلَةً، فَالْخَطَرُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الْمَنْزِلَةُ وَالْمَكَانَةُ.

[٨١] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ**: وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّهُ دَعَا، وَقِيلَ لَهُ: قُلْ لَهُمْ: يَهْبِطُونَ مِصْرًا فَإِنَّ لَهُمْ مَا سَأَلُوا؛ فَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لِأَنَّهُ كَيْفَ يُنْكِرُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَطْلُبُوا ذَلِكَ مِنْهُ، ثُمَّ هُوَ يَذْهَبُ وَيَدْعُو اللهَ بِهِ؟!!.

فَالصَّوَابُ: أَنَّ مُوسَى وَبَّخَهُمْ عَلَى مَا سَأَلُوا، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي طَلَبْتُمْ مَوْجُودٌ فِي كُلِّ مِصْرٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿**اهْبِطُوا مِصْرًا**﴾.

وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَأْوِيلِ الْكَلَامِ: اهْبِطُوا مِصْرًا الْبَلْدَةَ الَّتِي تُعْرَفُ بِهَذَا الِاسْمِ؛ وَهِيَ مِصْرُ الَّتِي خَرَجُوا عَنْهَا.[٨٢]

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾أَيْ: فُرِضَتْ.

وَالذِّلَّةُ: هِيَ الصَّغَارُ الَّذِي أَمَرَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يُعْطُوهُمْ أَمَانًا عَلَى الْقَرَارِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرِهِمْ بِهِ وَبِرَسُولِهِ إِلَّا أَنْ يَبْذُلُوا الْجِزْيَةَ عَلَيْهِ لَهُمْ.

وَالْمَسْكَنَةُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: مَسْكَنَةُ الْفَاقَةِ وَالْحَاجَةِ؛ وَهِيَ: خُشُوعُهَا وَذُلُّهَا.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ[٨٣]﴾يَعْنِي: وَرَجَعُوا مُنْصَرِفِينَ مُتَحَمِّلِينَ غَضَبَ اللهِ، قَدْ صَارَ عَلَيْهِمْ مِنَ اللهِ غَضَبٌ، وَوَجَبَ عَلَيْهِمْ مِنْهُ سَخَطٌ.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾يَعْنِي بِقَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿ذَلِكَ﴾ ضَرْبُ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ عَلَيْهِمْ، وَإِحْلَالُهُ غَضَبَهُ بِهِمْ.

﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾يَعْنِي: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ، يَقُولُ: فَعَلْنَا بِهِمْ – مِنْ إِحْلَالِ الذُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ وَالسَّخَطِ بِهِمْ – مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَجْحَدُونَ حُجَجَ اللهِ عَلَى تَوْحِيدِهِ، وَتَصْدِيقَ رُسُلِهِ وَيَدْفَعُونَ حَقِّيَّتَهَا، وَيُكَذِّبُونَ بِهَا. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾يَعْنِي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ رُسُلَ اللهِ بِغَيْرِ إِذْنِ اللهِ لَهُمْ بِقَتْلِهِمْ مُنْكِرِينَ رِسَالَتَهُمْ جَاحِدِينَ نُبُوَّتَهُمْ.

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾يَعْنِي: فَعَلْتُ بِهِمْ مَا فَعَلْتُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا أَمْرِي، وَتَجَاوَزُوا حَدِّي إِلَى مَا نَهَيْتُهُمْ عَنْهُ.

---

[٨٢] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:** وَ﴿**مِصْرًا**﴾ لَيْسَتِ الْبَلَد الْمَعْرُوف الْآن، وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ: أَيّ مِصْرٍ كَانَتْ؛ وَلِهَذَا نُكِّرَتْ، وَ(مِصْر) الْبَلَد لَا تُنَكَّرُ، وَلَا تَنْصَرِفُ؛ وَاقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا**﴾فَالْمَعْنَى: اهْبِطُوا أَيّ مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ تَجِدُونَ مَا سَأَلْتُمْ.

[٨٣] قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: غَضَبُ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ؛ وَهُوَ غَضَبٌ حَقِيقِيٌّ يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، لَا يُمَاثِلُ غَضَبَ الْمَخْلُوقِينَ؛ لِأَنَّ اللهَ – جَلَّ جَلَالُهُ –: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: "لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ غَضَبُ اللهِ – تَعَالَى – مِثْلَ غَضَبِنَا؛ كَمَا أَنَّ حَقِيقَةَ ذَاتِ اللهِ لَيْسَتْ مِثْلَ ذَاتِنَا، فَلَيْسَ هُوَ مُمَاثِلًا لَنَا: لَا لِذَاتِنَا، وَلَا لِأَرْوَاحِنَا؛ وَصِفَاتُهُ كَذَاتِهِ" اهـ. مِنْ مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى

٦٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى﴾ أَمَّا (الَّذِينَ آمَنُوا): فَهُمُ الْمُصَدِّقُونَ رَسُولَ اللهِ فِيمَا أَتَاهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

وَأَمَّا (الَّذِينَ هَادُوا): فَهُمُ الْيَهُودُ، وَمَعْنَى هَادُوا: تَابُوا، يُقَالُ مِنْهُ: هَادَ الْقَوْمُ يَهُودُونَ هَوْدًا وَهَادَةً.

وَقِيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَتِ الْيَهُودُ يَهُودَ؛ مِنْ أَجْلِ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾.

وَالنَّصَارَى جَمْعٌ، وَاحِدُهُمْ نَصْرَانُ، سُمُّوا نَصَارَى؛ لِنُصْرَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَتَنَاصُرِهِمْ بَيْنَهُمْ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُمْ سُمُّوا نَصَارَى؛ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ نَزَلُوا أَرْضًا يُقَالُ لَهَا: (نَاصِرَةٌ).

﴿وَالصَّابِئِينَ[٨٤]﴾ الصَّابِئُونَ: جَمْعُ صَابِئٍ؛ وَهُوَ الْمُسْتَحْدِثُ سِوَى دِينِهِ دِينًا، كَالْمُرْتَدِّ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ عَنْ دِينِهِ. وَكُلُّ خَارِجٍ مِنْ دِينٍ كَانَ عَلَيْهِ إِلَى آخَرَ غَيْرِهِ، تُسَمِّيهِ الْعَرَبُ: (صَابِئًا).

﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يَعْنِي: مَنْ صَدَّقَ وَأَقَرَّ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَمَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَمِلَ صَالِحًا فَأَطَاعَ اللهَ ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يَعْنِي: فَلَهُمْ ثَوَابُ عَمَلِهِمُ الصَّالِحِ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

وَمَعْنَى إِيمَانِ الْمُؤْمِنِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: ثَبَاتُهُ عَلَى إِيمَانِهِ، وَتَرْكُهُ تَبْدِيلَهُ.

وَأَمَّا إِيمَانُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ: فَالتَّصْدِيقُ بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَبِمَا جَاءَ بِهِ، فَمَنْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ بِمُحَمَّدٍ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَعْمَلْ صَالِحًا، فَلَمْ يُبَدِّلْ وَلَمْ يُغَيِّرْ، حَتَّى تُوُفِّيَ عَلَى ذَلِكَ؛ فَلَهُ ثَوَابُ عَمَلِهِ وَأَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ، كَمَا وَصَفَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فِيمَا قَدِمُوا عَلَيْهِ مِنْ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا خَلَّفُوا وَرَاءَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَعَيْشِهَا، عِنْدَ مُعَايَنَتِهِمْ مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ عِنْدَهُ.

---

[٨٤] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَأَظْهَرُ الْأَقْوَالِ - وَاللهُ أَعْلَمُ -: أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَيْسُوا عَلَى دِينِ الْيَهُودِ وَلَا النَّصَارَى وَلَا الْمَجُوسِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ، وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ بَاقُونَ عَلَى فِطْرَتِهِمْ وَلَا دِينٌ مُقَرَّرٌ لَهُمْ يَتْبَعُونَهُ وَيَقْتَفُونَهُ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَنْبِزُونَ مَنْ أَسْلَمَ بِالصَّابِئِيِّ، أَيْ: أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ عَنْ سَائِرِ أَدْيَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ.

٦٣- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ[٨٥]﴾يَعْنِي: الْمِيثَاقَ الَّذِي أَخْبَرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّهُ أَخَذَ مِنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الْآيَاتُ الَّذِي ذُكِرَ مَعَهَا.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ الطُّورُ: الْجَبَلُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ اسْمُ جَبَلٍ بِعَيْنِهِ. وَذُكِرَ أَنَّهُ الْجَبَلُ الَّذِي نَاجَى اللهُ عَلَيْهِ مُوسَى. وَقِيلَ: إِنَّهُ مِنَ الْجِبَالِ مَا أَنْبَتَ دُونَ مَا لَمْ يُنْبِتْ.

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾يَعْنِي: مَا أَمَرْنَاكُمْ بِهِ فِي التَّوْرَاةِ، وَأَصْلُ الْإِيتَاءِ: الْإِعْطَاءُ.

﴿بِقُوَّةٍ﴾يَعْنِي: بِجِدٍّ فِي تَأْدِيَةِ مَا أَمَرَكُمْ فِيهِ وَافْتَرَضَ عَلَيْكُمْ.

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ إِذًا: خُذُوا مَا افْتَرَضْنَاهُ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِنَا مِنَ الْفَرَائِضِ، فَاقْبَلُوهُ، وَاعْمَلُوا بِاجْتِهَادٍ مِنْكُمْ فِي أَدَائِهِ، مِنْ غَيْرِ تَقْصِيرٍ وَلَا تَوَانٍ. وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى أَخْذِهِمْ إِيَّاهُ بِقُوَّةٍ، بِجِدٍّ.

﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾يَعْنِي: وَاذْكُرُوا مَا فِيمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابِنَا مِنْ وَعْدٍ وَوَعِيدٍ شَدِيدٍ، وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيبٍ، فَاتْلُوهُ، وَاعْتَبِرُوا بِهِ، وَتَدَبَّرُوهُ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ؛ كَيْ تَتَّقُوا وَتَخَافُوا عِقَابِي، بِإِصْرَارِكُمْ عَلَى ضَلَالِكُمْ فَتَنْتَهُوا إِلَى طَاعَتِي، وَتَنْزِعُوا عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ مَعْصِيَتِي.

٦٤- ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾يَعْنِي: أَنَّكُمْ تَرَكْتُمُ الْعَمَلَ بِمَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَعُهُودَكُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ، بَعْدَ إِعْطَائِكُمْ رَبَّكُمُ الْمَوَاثِيقَ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ، وَالْقِيَامِ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ فِي كِتَابِكُمْ، فَنَبَذْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ.

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾يَعْنِي: فَلَوْلَا أَنَّ اللهَ تَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ بِالتَّوْبَةِ بَعْدَ نَكْثِكُمُ الْمِيثَاقَ الَّذِي وَاثَقْتُمُوهُ وَرَحْمَتِهِ الَّتِي رَحِمَكُمْ بِهَا، وَتَجَاوَزَ عَنْكُمْ خَطِيئَتَكُمُ الَّتِي رَكِبْتُمُوهَا بِمُرَاجَعَتِكُمْ طَاعَةَ رَبِّكُمْ؛ ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾يَعْنِي: فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ إِيَّاكُمْ - بِإِنْقَاذِهِ إِيَّاكُمْ بِالتَّوْبَةِ عَلَيْكُمْ مِنْ خَطِيئَتِكُمْ وَجُرْمِكُمْ - لَكُنْتُمُ الْبَاخِسِينَ أَنْفُسَكُمْ حُظُوظَهَا دَائِمًا، الْهَالِكِينَ بِمَا اجْتَرَمْتُمْ مِنْ نَقْضِ مِيثَاقِكُمْ، وَخِلَافِكُمْ أَمْرَهُ وَطَاعَتَهُ.

---

[٨٥] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: الْمِيثَاقُ: الْمِفْعَالُ، مِنَ الْوَثِيقَةِ، إِمَّا بِيَمِينٍ، وَإِمَّا بِعَهْدٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْوَثَائِقِ.

٦٥- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ[٨٦]﴾يَعْنِي: وَلَقَدْ عَرَفْتُمُ ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ[٨٧]﴾أَيِ: الَّذِينَ تَجَاوَزُوا حَدِّي، وَرَكِبُوا مَا نَهَيْتُهُمْ عَنْهُ فِي يَوْمِ السَّبْتِ، وَعَصَوْا أَمْرِي.

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ﴾أَيْ: فَقُلْنَا لِلَّذِينَ اعْتَدَوْا فِي السَّبْتِ؛ يَعْنِي: فِي يَوْمِ السَّبْتِ.

﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ[٨٨]﴾أَيْ: صِيرُوا كَذَلِكَ. وَالْخَاسِئُ: الْمُبْعَدُ الْمَطْرُودُ.

٦٦- ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا[٨٩]﴾يَعْنِي: فَجَعَلْنَا عُقُوبَتَنَا الَّتِي أَحْلَلْنَاهَا بِهِمْ عُقُوبَةً﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾مِنْ ذُنُوبِهِمُ السَّالِفَةِ مِنْهُمْ، بِمَسْخِنَا إِيَّاهُمْ وَعُقُوبَتِنَا لَهُمْ، وَلِمَا خَلَفَ عُقُوبَتَنَا لَهُمْ مِنْ أَمْثَالِ ذُنُوبِهِمْ: أَنْ يَعْمَلَ بِهَا عَامِلٌ، فَيُمْسَخُوا مِثْلَ مَا مُسِخُوا، وَأَنْ يَحِلَّ بِهِمْ مِثْلُ الَّذِي حَلَّ بِهِمْ؛ تَحْذِيرًا مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عِبَادَهُ: أَنْ يَأْتُوا مِنْ مَعَاصِيهِ مِثْلَ الَّذِي أَتَى الْمَمْسُوخُونَ، فَيُعَاقَبُوا عُقُوبَتَهُمْ!.

﴿وَمَوْعِظَةً[٩٠] لِلْمُتَّقِينَ﴾يَعْنِي: فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَتَذْكِرَةً لِلْمُتَّقِينَ؛ لِيَتَّعِظُوا بِهَا، وَيَعْتَبِرُوا، وَيَتَذَكَّرُوا بِهَا.

وَأَمَّا الْمُتَّقُونَ: فَهُمُ الَّذِينَ اتَّقَوْا؛ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ، وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ.

---

[٨٦] قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، مَا حَلَّ مِنَ الْبَأْسِ بِأَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي عَصَتْ أَمْرَ اللهِ وَخَالَفُوا عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ فِيمَا أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ السَّبْتِ وَالْقِيَامِ بِأَمْرِهِ – إِذْ كَانَ مَشْرُوعًا لَهُمْ –، فَتَحَيَّلُوا عَلَى اصْطِيَادِ الْحِيتَانِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ، بِمَا وَضَعُوا لَهَا مِنَ الشُّصُوصِ وَالْحَبَائِلِ وَالْبِرَكِ قَبْلَ يَوْمِ السَّبْتِ! فَلَمَّا جَاءَتْ يَوْمَ السَّبْتِ عَلَى عَادَتِهَا فِي الْكَثْرَةِ؛ نَشِبَتْ بِتِلْكَ الْحَبَائِلِ وَالْحِيَلِ، فَلَمْ تَخْلُصْ مِنْهَا يَوْمَهَا ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أَخَذُوهَا بَعْدَ انْقِضَاءِ السَّبْتِ. فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ؛ مَسَخَهُمُ اللهُ إِلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ، وَهِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْأَنَاسِيِّ فِي الشَّكْلِ الظَّاهِرِ، وَلَيْسَتْ بِإِنْسَانٍ حَقِيقَةً!.

[٨٧] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَأَصْلُ السَّبْتِ: الْهُدُوُّ وَالسُّكُونُ فِي رَاحَةٍ وَدَعَةٍ، وَلِذَلِكَ قِيلَ لِلنَّائِمِ: مَسْبُوتٌ؛ لِهُدُوِّهِ وَسُكُونِ جَسَدِهِ وَاسْتِرَاحَتِهِ، كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾أَيْ: رَاحَةً لِأَجْسَادِكُمْ.

[٨٨] قَالَ أَبُو حَيَّانَ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا﴾: أَمْرٌ مِنَ الْكَوْنِ، وَلَيْسَ بِأَمْرٍ حَقِيقَةً؛ لِأَنَّ صَيْرُورَتَهُمْ إِلَى مَا ذُكِرَ لَيْسَ فِيهِ تَكَسُّبٌ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا قَادِرِينَ عَلَى قَلْبِ أَعْيَانِهِمْ قِرَدَةً، بَلِ الْمُرَادُ مِنْهُ سُرْعَةُ الْكَوْنِ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

[٨٩] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: (النَّكَالُ): مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: نَكَّلَ فُلَانٌ بِفُلَانٍ تَنْكِيلًا وَنَكَالًا، وَأَصْلُ النَّكَالِ: الْعُقُوبَةُ.

[٩٠] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: (الْمَوْعِظَةُ): مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: وَعَظْتُ الرَّجُلَ أَعِظُهُ وَعْظًا وَمَوْعِظَةً: إِذَا ذَكَّرْتُهُ.

٦٧– ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾هَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا وَبَّخَ اللهُ بِهَا الْمُخَاطَبِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فِي نَقْضِ أَوَائِلِهِمُ الْمِيثَاقَ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ بِالطَّاعَةِ لِأَنْبِيَائِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: وَاذْكُرُوا – أَيْضًا – مِنْ نَكْثِكُمْ مِيثَاقِي، إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ – وَقَوْمُهُ: بَنُو إِسْرَائِيلَ –: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا[91]﴾وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ – فِيمَا أَخْبَرَتْ عَنِ اللهِ مِنْ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ – هُزُوٌ أَوْ لَعِبٌ.

فَظَنُّوا بِمُوسَى أَنَّهُ فِي أَمْرِهِ إِيَّاهُمْ – عَنْ أَمْرِ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِذِبْحِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ تَدَارُئِهِمْ فِي الْقَتِيلِ إِلَيْهِ – أَنَّهُ هَازِئٌ لَاعِبٌ.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يَظُنُّوا ذَلِكَ بِنَبِيِّ اللهِ، وَهُوَ يُخْبِرُهُمْ أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِذِبْحِ الْبَقَرَةِ.

فَأَخْبَرَهُمْ مُوسَى – إِذْ قَالُوا لَهُ مَا قَالُوا – إِنَّ الْمُخْبِرَ عَنِ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – بِالْهُزْءِ وَالسُّخْرِيَةِ، مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَبَرَّأَ نَفْسَهُ مِمَّا ظَنُّوا بِهِ مِنْ ذَلِكَ؛ فَقَالَ: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾يَعْنِي: مِنَ السُّفَهَاءِ الَّذِينَ يَرْوُونَ عَنِ اللهِ الْكَذِبَ وَالْبَاطِلَ.

٦٨– ﴿قَالُوا﴾يَعْنِي: قَالَ الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾بَعْدَ أَنْ عَلِمُوا وَاسْتَقَرَّ عِنْدَهُمْ ، أَنَّ الَّذِيَ أَمَرَهُمْ بِهِ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – مِنْ ذَلِكَ عَنْ أَمْرِ اللهِ مِنْ ذَبْحِ بَقَرَةٍ – جَدٌّ وَحَقٌّ: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ[92]﴾فَسَأَلُوا مُوسَى أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ لَهُمْ مَا كَانَ اللهُ قَدْ كَفَاهُمْ بِقَوْلِهِ لَهُمْ: اذْبَحُوا بَقَرَةً؛ لِأَنَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ إِنَّمَا أَمَرَهُمْ بِذِبْحِ بَقَرَةٍ مِنَ الْبَقَرِ – أَيِّ بَقَرَةٍ شَاءُوا ذَبْحَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْصُرَ لَهُمْ ذَلِكَ عَلَى نَوْعٍ مِنْهَا دُونَ نَوْعٍ أَوْ صِنْفٍ دُونَ صِنْفٍ –.

---

[91] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: (**الْهُزُوُ**): اللَّعِبُ وَالسُّخْرِيَةُ.

[92] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَعَنُّتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ لِرَسُولِهِمْ. وَلِهَذَا لَمَّا ضَيَّقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ؛ ضُيِّقَ عَلَيْهِمْ! وَلَوْ أَنَّهُمْ ذَبَحُوا أَيَّ بَقَرَةٍ كَانَتْ؛ لَوَقَعَتِ الْمَوْقِعَ عَنْهُمْ – كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعُبَيْدَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ –، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا؛ فَشُدِّدَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: ﴿**ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ**﴾ مَا هَذِهِ الْبَقَرَةُ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ صِفَتُهَا؟.

وَقَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ**﴾، لَمْ يُبَيِّنْ مَقْصُودَهُمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿**مَا هِيَ**﴾، إِلَّا أَنَّ جَوَابَ سُؤَالِهِمْ دَلَّ عَلَى أَنَّ مُرَادَهُمْ بِقَوْلِهِمْ فِي الْمَوْضِعِ الْأَوَّلِ ﴿**مَا هِيَ**﴾، أَيْ: مَا سِنُّهَا؟ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿**قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ**﴾ الْآيَةَ. وَأَنَّ مُرَادَهُمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿**مَا هِيَ**﴾ فِي الْمَوْضِعِ الْآخَرِ: هَلْ هِيَ عَامِلَةٌ أَوْ لَا؟ وَهَلْ فِيهَا عَيْبٌ أَوْ لَا؟ وَهَلْ فِيهَا وَشْيٌ مُخَالِفٌ لِلَوْنِهَا أَوْ لَا؟ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿**قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا**﴾.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾يَعْنِي: لَا مُسِنَّةٌ هَرِمَةٌ ﴿وَلَا بِكْرٌ[٩٣]﴾يَعْنِي: وَلَا صَغِيرَةٌ لَمْ تَلِدْ.

﴿عَوَانٌ﴾الْعَوَانُ: النِّصْفُ الَّتِي قَدْ وَلَدَتْ بَطْنًا بَعْدَ بَطْنٍ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾يَعْنِي: بَيْنَ الْبِكْرِ وَالْهَرِمَةِ.

فَمَعْنَى الْكَلَامِ: قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّمَا بَقَرَةٌ لَا مُسِنَّةٌ هَرِمَةٌ وَلَا صَغِيرَةٌ لَمْ تَلِدْ، وَلَكِنَّهَا بَقَرَةٌ نِصْفٌ؛ قَدْ وَلَدَتْ بَطْنًا بَعْدَ بَطْنٍ بَيْنَ الْهَرَمِ وَالشَّبَابِ.

﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾يَقُولُ اللهُ لَهُمْ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ –: افْعَلُوا مَا آمُرُكُمْ بِهِ؛ تُدْرِكُوا حَاجَاتِكُمْ وَطِلْبَاتِكُمْ عِنْدِي، وَاذْبَحُوا الْبَقَرَةَ الَّتِي أَمَرْتُكُمْ بِذَبْحِهَا؛ تَصِلُوا – بِانْتِهَائِكُمْ إِلَى طَاعَتِي بِذَبْحِهَا – إِلَى الْعِلْمِ بِقَاتِلِ قَتِيلِكُمْ.

٦٩– ﴿قَالُوا﴾يَعْنِي: قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾أَيْ: لَوْنُ الْبَقَرَةِ الَّتِي أَمَرْتَنَا بِذَبْحِهَا. يَعْنِي: أَيُّ شَيْءٍ لَوْنُهَا؟.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ[٩٤] فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾يَعْنِي: خَالِصٌ لَوْنُهَا.

وَالْفُقُوعُ فِي الصُّفْرِ، نَظِيرُ النُّصُوعِ فِي الْبَيَاضِ؛ وَهُوَ: شِدَّتُهُ وَصَفَاؤُهُ.

﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ[٩٥]﴾يَعْنِي: تُعْجِبُ هَذِهِ الْبَقَرَةُ – فِي حُسْنِ خَلْقِهَا وَمَنْظَرِهَا وَهَيْئَتِهَا – النَّاظِرَ إِلَيْهَا.

---

[٩٣] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** (**الْبِكْرُ**) مِنْ إِنَاثِ الْبَهَائِمِ وَبَنِي آدَمَ: مَا لَمْ يَفْتَحِلْهُ الْفَحْلُ. وَأَمَّا (**الْبَكْرُ**) – بِفَتْحِ الْبَاءِ –: فَهُوَ الْفَتَى مِنَ الْإِبِلِ.

[٩٤] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَأَحْسِبُ أَنَّ الَّذِيَ قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**صَفْرَاءُ**﴾يَعْنِي بِهِ سَوْدَاءَ؛ ذَهَبَ إِلَى قَوْلِهِ فِي نَعْتِ الْإِبِلِ السُّودِ: هَذِهِ إِبِلٌ صُفْرٌ، وَهَذِهِ نَاقَةٌ صَفْرَاءُ؛ يَعْنِي بِهَا: سَوْدَاءَ. وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ فِي الْإِبِلِ؛ لِأَنَّ سَوَادَهَا يَضْرِبُ إِلَى الصُّفْرَةِ. وَذَلِكَ إِنْ وُصِفَتِ الْإِبِلُ بِهِ فَلَيْسَ مِمَّا تُوصَفُ بِهِ الْبَقَرُ. مَعَ أَنَّ **الْعَرَبَ لَا تَصِفُ السَّوَادَ بِالْفُقُوعِ، وَإِنَّمَا تَصِفُ السَّوَادَ – إِذَا وَصَفَتْهُ – بِالشِّدَّةِ بِالْحُلُوكَةِ وَنَحْوِهَا**، فَتَقُولُ: هُوَ أَسْوَدُ حَالِكٌ وَحَانِكٌ وَحُلْكُوكٌ، وَأَسْوَدُ غِرْبِيبٌ وَدَجُوجِيٌّ، **وَلَا تَقُولُ: هُوَ أَسْوَدُ فَاقِعٌ، وَإِنَّمَا تَقُولُ: هُوَ أَصْفَرُ فَاقِعٌ**. فَوَصْفُهُ إِيَّاهُ بِالْفُقُوعِ؛ مِنَ الدَّلِيلِ الْبَيِّنِ عَلَى خِلَافِ التَّأْوِيلِ الَّذِي تَأَوَّلَ قَوْلَه: ﴿**إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ**﴾الْمُتَأَوِّلُ، بِأَنَّ مَعْنَاهُ: سَوْدَاءَ شَدِيدَةُ السَّوَادِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ: وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّ (**صَفْرَاءَ**) مَعْنَاهُ: سَوْدَاءُ؛ وَهَذَا مِنْ بِدَعِ التَّفَاسِيرِ وَمُنْكَرَاتِهَا! وَلَيْتَ شِعْرِي! كَيْفَ يَصْدُقُ عَلَى اللَّوْنِ الْأَسْوَدِ – الَّذِي هُوَ أَقْبَحُ الْأَلْوَانِ – أَنَّهُ يَسُرُّ النَّاظِرِينَ؟! وَكَيْفَ يَصِحُّ وَصْفُهُ بِالْفُقُوعِ الَّذِي يَعْلَمُ كُلُّ مَنْ يَعْرِفُ لُغَةَ الْعَرَبِ أَنَّهُ لَا يَجْرِي عَلَى الْأَسْوَدِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ؟!.

[٩٥] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ:** وَمَعْنَى ﴿**تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**﴾: تُدْخِلُ عَلَيْهِمُ السُّرُورَ إِذَا نَظَرُوا إِلَيْهَا؛ إِعْجَابًا بِهَا، وَاسْتِحْسَانًا لِلَوْنِهَا.

٧٠- ﴿قَالُوا﴾ يَعْنِي: قَالَ قَوْمُ مُوسَى – الَّذِينَ أُمِرُوا بِذِبْحِ الْبَقَرَةِ – لِمُوسَى: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا[٩٦]﴾ يَعْنِي: الْتَبَسَ عَلَيْنَا. ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ يَعْنِي: وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُبَيَّنٌ لَنَا مَا الْتَبَسَ عَلَيْنَا وَتَشَابَهَ مِنْ أَمْرِ الْبَقَرَةِ الَّتِي أُمِرْنَا بِذَبْحِهَا.

٧١- ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ يَعْنِي: قَالَ مُوسَى: إِنَّ اللهَ يَقُولُ: إِنَّ الْبَقَرَةَ الَّتِي أَمَرْتُكُمْ بِذَبْحِهَا، بَقَرَةٌ ﴿لَا ذَلُولٌ﴾ أَيْ: لَمْ يُذَلِّلْهَا الْعَمَلُ.

﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ يَعْنِي: تُقَلِّبُ الْأَرْضَ لِلْحَرْثِ. ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ مُفَعَّلَةٌ مِنَ السَّلَامَةِ.

فَمَعْنَى الْكَلَامِ: إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَمْ تُذَلِّلْهَا إِثَارَةُ الْأَرْضِ وَقَلْبِهَا لِلْحِرَاثَةِ، وَلَا السُّنُوُّ عَلَيْهَا لِلْمَزَارِعِ[٩٧]، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ صَحِيحَةٌ مُسَلَّمَةٌ مِنَ الْعُيُوبِ.

﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ يَعْنِي: لَا لَوْنَ فِيهَا يُخَالِفُ لَوْنَ جِلْدِهَا. ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ يَعْنِي: الْآنَ بَيَّنْتَ لَنَا الْحَقَّ فِي أَمْرِ الْبَقَرِ، فَعَرَفْنَا أَيَّهَا الْوَاجِبُ عَلَيْنَا ذَبْحُهَا مِنْهَا.

وَقَدْ كَانَ بَعْضُ مَنْ سَلَفَ يَزْعُمُ أَنَّ الْقَوْمَ ارْتَدُّوا عَنْ دِينِهِمْ، وَكَفَرُوا بِقَوْلِهِمْ لِمُوسَى: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ وَيَزْعُمُ أَنَّهُمْ نَفَوْا أَنْ يَكُونَ مُوسَى أَتَاهُمْ بِالْحَقِّ فِي أَمْرِ الْبَقَرَةِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ وَقِيلِهِمْ كُفْرٌ! وَلَيْسَ الَّذِي قَالَ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَنَا كَمَا قَالَ؛ لِأَنَّهُمْ أَذْعَنُوا بِالطَّاعَةِ بِذَبْحِهَا، وَإِنْ كَانَ قِيلُهُمُ الَّذِي قَالُوهُ لِمُوسَى جَهْلَةً مِنْهُمْ وَهَفْوَةً مِنْ هَفَوَاتِهِمْ!.

﴿فَذَبَحُوهَا﴾ يَعْنِي: فَذَبَحَ قَوْمُ مُوسَى الْبَقَرَةَ الَّتِي وَصَفَهَا اللهُ لَهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِذَبْحِهَا.

---

[٩٦] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ**: وَقَوْلُهُ: ﴿**إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا**﴾ أَيْ: لِكَثْرَتِهَا، فَمَيِّزْ لَنَا هَذِهِ الْبَقَرَةَ، وَصِفْهَا وحلّها لَنَا ﴿**وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ**﴾ إِذَا بَيَّنْتَهَا لَنَا ﴿**لَمُهْتَدُونَ**﴾ إِلَيْهَا.

وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ: ﴿**إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا**﴾ أَيْ: أَنَّ جِنْسَ الْبَقَرِ يَتَشَابَهُ عَلَيْهِمْ؛ لِكَثْرَةِ مَا يَتَّصِفُ مِنْهَا بِالْعَوَانِ الصَّفْرَاءِ الْفَاقِعَةِ.

[٩٧] (**السُّنُوُّ عَلَيْهَا لِلْمَزَارِعِ**): حَمْلُ الْمَاءِ عَلَيْهَا لِلْمَزَارِعِ.

﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ[98] ﴾أَيْ: قَارَبُوا أَنْ يَدَعُوا ذَبْحَهَا، وَيَتْرُكُوا فَرْضَ اللهِ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ.

٧٢- ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا[99] ﴾يَعْنِي: وَاذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴿ فَادَّارَأْتُمْ[100] فِيهَا ﴾يَعْنِي: فَاخْتَلَفْتُمْ، وَتَنَازَعْتُمْ. ﴿ وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾يَعْنِي: وَاللهُ مُعْلِنٌ مَا كُنْتُمْ تُسِرُّونَهُ مِنْ قَتْلِ الْقَتِيلِ الَّذِي قَتَلْتُمْ، ثُمَّ ادَّارَأْتُمْ فِيهِ.

وَمَعْنَى الْإِخْرَاجِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الْإِظْهَارُ وَالْإِعْلَانُ لِمَنْ خَفِيَ ذَلِكَ عَنْهُ، وَإِطْلَاعُهُمْ عَلَيْهِ.

وَالَّذِي كَانُوا يَكْتُمُونَهُ فَأَخْرَجَهُ؛ هُوَ قَتْلُ الْقَاتِلِ الْقَتِيلَ. لَمَّا كَتَمَ ذَلِكَ الْقَاتِلُ وَمَنْ عَلِمَهُ مِمَّنْ شَايَعَهُ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى أَظْهَرَهُ اللهُ وَأَخْرَجَهُ، فَأَعْلَنَ أَمْرَهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ أَمْرَهُ.

٧٣- ﴿ فَقُلْنَا ﴾يَعْنِي: لِقَوْمِ مُوسَى الَّذِينَ ادَّارَءُوا فِي الْقَتِيلِ﴿ اضْرِبُوهُ ﴾يَعْنِي: اضْرِبُوا الْقَتِيلَ.

﴿ بِبَعْضِهَا[101] ﴾أَيْ: بِبَعْضِ الْبَقَرَةِ الَّتِي أَمَرَهُمُ اللهُ بِذَبْحِهَا فَذَبَحُوهَا.

وَمَعْنَى الْكَلَامِ: فَقُلْنَا: اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا لِيَحْيَا، فَضَرَبُوهُ فَحَيِيَ. دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى ﴾مُخَاطَبَةٌ مِنَ اللهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَاحْتِجَاجٌ مِنْهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْبَعْثِ، وَأَمْرُهُمْ بِالِاعْتِبَارِ بِمَا كَانَ مِنْهُ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - مِنْ إِحْيَاءِ قَتِيلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مَمَاتِهِ فِي الدُّنْيَا. فَقَالَ لَهُمْ - تَعَالَى ذِكْرُهُ -: أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَمَاتِ، اعْتَبِرُوا بِإِحْيَائِي

---

[98] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** ﴿ **فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ يَعْنِي: أَنَّهم مَعَ هَذَا الْبَيَانِ، وَهَذِهِ الْأَسْئِلَةِ، وَالْأَجْوِبَةِ، وَالْإِيضَاحِ؛ مَا ذَبَحُوهَا إِلَّا بَعْدَ الْجُهْدِ! وَفِي هَذَا ذَمٌّ لَهُمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ غَرَضُهُمْ إِلَّا التَّعَنُّتَ، فَلِهَذَا مَا كَادُوا يَذْبَحُونَهَا.

[99] **قَالَ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ:** لَمْ يُصَرِّحْ هَلْ هَذِهِ النَّفْسُ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ وَقَدْ أَشَارَ إِلَى أَنَّهَا ذَكَرٌ، بِقَوْلِهِ: ﴿ **فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا** ﴾

[100] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** أَصْلُ ﴿ **فَادَّارَأْتُمْ** ﴾: فَتَدَارَأْتُمْ، وَلَكِنَّ التَّاءَ قَرِيبَةٌ مِنْ مَخْرَجِ الدَّالِ، فَأُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الدَّالِ، فَجُعِلَتْ دَالًا مُشَدَّدَةً.

[101] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** أَمَرَهُمُ اللهُ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - أَنْ يَضْرِبُوا الْقَتِيلَ بِبَعْضِ الْبَقَرَةِ لِيَحْيَا الْمَضْرُوبُ.

وَلَا دَلَالَةَ فِي الْآيَةِ، وَلَا[فِي]خَبَرٍ تَقُومُ بِهِ حُجَّةٌ، عَلَى أَيِّ أَبْعَاضِهَا الَّتِي أُمِرَ الْقَوْمُ أَنْ يَضْرِبُوا الْقَتِيلَ بِهِ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الَّذِي أُمِرُوا أَنْ يَضْرِبُوهُ بِهِ هُوَ الْفَخِذُ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الذَّنَبَ وَغُضْرُوفَ الْكَتِفِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَبْعَاضِهَا.

وَلَا يَضُرُّ الْجَهْلُ بِأَيِّ ذَلِكَ ضَرَبُوا الْقَتِيلَ، وَلَا يَنْفَعُ الْعِلْمُ بِهِ! مَعَ الْإِقْرَارِ بِأَنَّ الْقَوْمَ قَدْ ضَرَبُوا الْقَتِيلَ بِبَعْضِ الْبَقَرَةِ بَعْدَ ذَبْحِهَا فَأَحْيَاهُ اللهُ.

هَذَا الْقَتِيلَ بَعْدَ مَمَاتِهِ؛ فَإِنِّي كَمَا أَحْيَيْتَهُ فِي الدُّنْيَا، فَكَذَلِكَ أُحْيِي الْمَوْتَى بَعْدَ مَمَاتِهِمْ، فَأَبْعَثُهُمْ يَوْمَ الْبَعْثِ.

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يَعْنِي: وَيُرِيكُمْ اللهُ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ الْمُكَذِّبُونَ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ مِنْ آيَاتِهِ، وَآيَاتُهُ: أَعْلَامُهُ وَحُجَجُهُ الدَّالَّةُ عَلَى نُبُوَّتِهِ، لِتَعْقِلُوا وَتَفْهَمُوا أَنَّهُ مُحِقٌّ صَادِقٌ، فَتُؤْمِنُوا بِهِ وَتَتَّبِعُوهُ.

٧٤- ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾أَيْ: جَفَّتْ وَغَلُظَتْ وَعَستْ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾يَعْنِي: مِنْ بَعْدِ أَنْ أَحْيَا الْمَقْتُولَ لَهُمُ الَّذِي ادَّارَءُوا فِي قَتْلِهِ. فَأَخْبَرَهُمْ بِقَاتِلِهِ وَمَا وَبِالسَّبَبِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ قَتَلَهُ.

﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾يَعْنِي: قُلُوبُكُمْ. يَقُولُ: ثُمَّ صَلُبَتْ قُلُوبُكُمْ – بَعْدَ إِذْ رَأَيْتُمُ الْحَقَّ فَتَبَيَّنْتُمُوهُ وَعَرَفْتُمُوهُ – عَنِ الْخُضُوعِ لَهُ وَالْإِذْعَانِ لَوَاجِبِ حَقِّ اللهِ عَلَيْكُمْ، فَقُلُوبُكُمْ كَالْحِجَارَةِ صَلَابَةً وَيُبْسًا وَغِلَظًا وَشِدَّةً؛ أَوْ أَشَدُّ صَلَابَةً!.

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾يَعْنِي: وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ حِجَارَةً يَتَفَجَّرُ مِنْهَا الْمَاءُ الَّذِي تَكُونُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾يَعْنِي: وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَحِجَارَةً تَشَقَّقُ، فَيَكُونُ عَيْنًا نَابِعَةً وَأَنْهَارًا جَارِيَةً.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾يَعْنِي: وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَهْبِطُ – أَيْ: يَتَرَدَّى مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ إِلَى الْأَرْضِ وَالسَّفْحِ – مِنْ خَوْفِ اللهِ وَخَشْيَتِهِ.

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾يَعْنِي: وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ – يَا مَعْشَرَ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِهِ، وَالْجَاحِدِينَ نُبُوَّةَ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَالْمُتَقَوِّلِينَ عَلَيْهِ الْأَبَاطِيلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَحْبَارِ الْيَهُودِ – عَمَّا تَعْمَلُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمُ الْخَبِيثَةِ، وَأَفْعَالِكُمُ الرَّدِيئَةِ؛ وَلَكِنَّهُ مُحْصِيهَا عَلَيْكُمْ، فَمُجَازِيكُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ، أَوْ مُعَاقِبُكُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا.

٧٥- ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ يَعْنِي: يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ، أَيْ: أَفَتَرْجُونَ يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَالْمُصَدِّقِينَ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، أَنْ يُؤْمِنَ لَكُمْ يَهُودُ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟

﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ يَعْنِي: أَنْ يُصَدِّقُوكُمْ بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ نَبِيُّكُمْ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُحَمَّدٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ. ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي: مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ عَنَى بِذَلِكَ: مَنْ سَمِعَ كَلَامَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، سَمَاعَ مُوسَى إِيَّاهُ مِنْهُ، ثُمَّ حَرَّفَ ذَلِكَ وَبَدَّلَ، مِنْ بَعْدِ سَمَاعِهِ وَعِلْمِهِ بِهِ وَفَهْمِهِ إِيَّاهُ.

وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – إِنَّمَا أَخْبَرَ أَنَّ التَّحْرِيفَ كَانَ مِنْ فَرِيقٍ مِنْهُمْ كَانُوا يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –، اسْتِعْظَامًا مِنَ اللهِ لِمَا كَانُوا يَأْتُونَ مِنَ الْبُهْتَانِ، بَعْدَ تَوْكِيدِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَالْبُرْهَانِ، وَإِيذَانًا مِنْهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، قَطْعَ أَطْمَاعِهِمْ مِنْ إِيمَانِ بَقَايَا نَسْلِهِمْ بِمَا أَتَاهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنَ الْحَقِّ وَالنُّورِ وَالْهُدَى، فَقَالَ لَهُمْ: كَيْفَ تَطْمَعُونَ فِي تَصْدِيقِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ إِيَّاكُمْ وَإِنَّمَا تُخْبِرُونَهُمْ – بِالَّذِي تُخْبِرُونَهُمْ مِنَ الْإِنْبَاءِ عَنِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – عَنْ غَيْبٍ لَمْ يُشَاهِدُوهُ وَلَمْ يُعَايِنُوهُ؟ وَقَدْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَسْمَعُ مِنَ اللهِ كَلَامَهُ وَأَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، ثُمَّ يُبَدِّلُهُ وَيُحَرِّفُهُ وَيَجْحَدُهُ! فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مِنْ بَقَايَا نَسْلِهِمْ أَحْرَى أَنْ يَجْحَدُوا مَا أَتَيْتُمُوهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَهُ مِنَ اللهِ، وَإِنَّمَا يَسْمَعُونَهُ مِنْكُمْ، وَأَقْرَبُ إِلَى أَنْ يُحَرِّفُوا مَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ صِفَةِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَنَعْتِهِ وَيُبَدِّلُوهُ، وَهُمْ بِهِ عَالِمُونَ، فَيَجْحَدُوهُ وَيُكَذِّبُوا، مِنْ أَوَائِلِهِمُ الَّذِينَ بَاشَرُوا كَلَامَ اللهِ مِنَ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ –، ثُمَّ حَرَّفُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَعَلِمُوهُ مُتَعَمِّدِينَ التَّحْرِيفَ.

٧٦- قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ فَإِنَّهُ خَبَرٌ مِنَ اللهِ – جَلَّ ذِكْرُهُ – عَنِ الَّذِينَ أَيْأَسَ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ إِيمَانِهِمْ – مِنْ يَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ – وَهُمُ الَّذِينَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالُوا: آمَنَّا.

يَعْنِي بِذَلِكَ: أَنَّهُمْ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِاللهِ وَبِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، قَالُوا: آمَنَّا؛ أَيْ: صَدَّقْنَا بِمُحَمَّدٍ وَبِمَا صَدَّقْتُمْ بِهِ، وَأَقْرَرْنَا بِذَلِكَ.

﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾أَيْ: إِذَا خَلَا بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ – الَّذِينَ وَصَفَ اللهُ صِفَتَهُمْ – إِلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ، ﴿قَالُوا﴾يَعْنِي: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ[١٠٢] اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾يَعْنِي: أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا حَكَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكُمْ، وَقَضَاهُ فِيكُمْ؟ وَمِنْ حُكْمِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِمْ مَا أَخَذَ بِهِ مِيثَاقَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَبِمَا جَاءَ بِهِ فِي التَّوْرَاةِ.

وَمِنْ قَضَائِهِ فِيهِمْ أَنْ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ، وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِهِ وَقَضَائِهِ فِيهِمْ.

وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ، حُجَّةٌ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ مِنَ الْيَهُودِ الْمُقِرِّينَ بِحُكْمِ التَّوْرَاةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾يَعْنِي: أَفَلَا تَفْقَهُونَ – أَيُّهَا الْقَوْمُ – وَتَعْقِلُونَ، أَنَّ إِخْبَارَكُمْ أَصْحَابَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِمَا فِي كُتُبِكُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ مَبْعُوثٌ، حُجَّةٌ لَهُمْ عَلَيْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ، يَحْتَجُّونَ بِهَا عَلَيْكُمْ؟!

أَيْ: فَلَا تَفْعَلُوا ذَلِكَ، وَلَا تَقُولُوا لَهُمْ مِثْلَ مَا قُلْتُمْ، وَلَا تُخْبِرُوهُمْ بِمِثْلِ مَا أَخْبَرْتُمُوهُمْ بِهِ مِنْ ذَلِكَ.

فَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ:

٧٧– ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾يَعْنِي: أَوَلَا يَعْلَمُ هَؤُلَاءِ اللَّائِمُونَ مِنَ الْيَهُودِ إِخْوَانَهُمْ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهِمْ، أَنَّ اللهَ عَالِمٌ بِمَا يُسِرُّونَ، فَيُخْفُونَهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فِي خَلَائِهِمْ – مِنْ كُفْرِهِمْ، وَتَلَاوُمِهِمْ بَيْنَهُمْ عَلَى إِظْهَارِهِمْ مَا أَظْهَرُوا لِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ مِنَ الْإِقْرَارِ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَعَلَى قِيلِهِمْ لَهُمْ: آمَنَّا، وَنَهْيِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا أَنْ يُخْبِرُوا الْمُؤْمِنِينَ بِمَا فَتَحَ اللهُ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ، وَقَضَى لَهُمْ عَلَيْهِمْ فِي كُتُبِهِمْ مِنْ حَقِيقَةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَنَعْتِهِ وَمَبْعَثِهِ وَمَا يُعْلِنُونَ، فَيُظْهِرُونَهُ لِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلِأَصْحَابِهِ

---

[١٠٢] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: أَصْلُ الْفَتْحِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: النَّصْرُ وَالْقَضَاءُ وَالْحُكْمُ، يُقَالُ مِنْهُ: اللَّهُمَّ افْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَ فُلَانٍ: أَيِ احْكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ.

الْمُؤْمِنِينَ بِهِ إِذَا لَقُوهُمْ، مِنْ قِيلِهِمْ لَهُمْ: آمَنَّا بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَبِمَا جَاءَ بِهِ، نِفَاقًا وَخِدَاعًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.

٧٨- ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ[١٠٣]﴾ يَعْنِي: وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ قَصَّ اللهُ قَصَصَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، مَنْ لَا يُحْسِنُ أَنْ يَكْتُبَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ يَعْنِي: لَا يَعْلَمُونَ مَا فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ، وَلَا يَدْرُونَ مَا أَوْدَعَهُ اللهُ مِنْ حُدُودِهِ وَأَحْكَامِهِ وَفَرَائِضِهِ، كَهَيْئَةِ الْبَهَائِمِ. وَإِنَّمَا عُنِيَ بِالْكِتَابِ: التَّوْرَاةُ.

﴿إِلَّا أَمَانِيَّ[١٠٤]﴾ يَعْنِي: وَلَكِنَّهُمْ يَتَخَرَّصُونَ الْكَذِبَ وَيَتَقَوَّلُونَ الْأَبَاطِيلَ كَذِبًا وَزُورًا.

﴿وَإِنَّ هُمْ﴾ يَعْنِي: وَمَا هُمْ ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ يَعْنِي: إِلَّا يَشُكُّونَ، وَلَا يَعْلَمُونَ حَقِيقَتَهُ وَصِحَّتَهُ.

وَالظَّنُّ – فِي هَذَا الْمَوْضِعِ –: الشَّكُّ.

فَمَعْنَى الْآيَةِ: وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَخُطُّ وَلَا يَعْلَمُ كِتَابَ اللهِ وَلَا يَدْرِي مَا فِيهِ؛ إِلَّا تَخَرُّصًا وَتَقَوُّلًا عَلَى اللهِ الْبَاطِلَ، ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ مُحِقٌّ فِي تَخَرُّصِهِ وَتَقَوُّلِهِ الْبَاطِلَ.

٧٩- ﴿فَوَيْلٌ﴾ فَالْعَذَابُ الَّذِي هُوَ شُرْبُ صَدِيدِ أَهْلِ جَهَنَّمَ فِي أَسْفَلِ الْجَحِيمِ ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ حَرَّفُوا كِتَابَ اللهِ مِنْ يَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَتَبُوا كِتَابًا عَلَى مَا تَأَوَّلُوهُ مِنْ تَأْوِيلَاتِهِمْ، مُخَالِفًا لِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُوسَى – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، ثُمَّ بَاعُوهُ مِنْ قَوْمٍ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهَا، وَلَا بِمَا فِي التَّوْرَاةِ، جُهَّالٌ بِمَا فِي كُتُبِ اللهِ لِطَلَبِ عَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا خَسِيسٍ، فَقَالَ اللهُ لَهُمْ:

---

[١٠٣] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: الْأُمِّيُّ عِنْدَ الْعَرَبِ: هُوَ الَّذِي لَا يَكْتُبُ. وَأَرَى أَنَّهُ قِيلَ لِلْأُمِّيِّ (أُمِّيٌّ)؛ نِسْبَةً لَهُ بِأَنَّهُ لَا يَكْتُبُ إِلَى أُمِّهِ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَ كَانَ فِي الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ، فَنُسِبَ مَنْ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَخُطُّ مِنَ الرِّجَالِ إِلَى أُمِّهِ فِي جَهْلِهِ بِالْكِتَابَةِ دُونَ أَبِيهِ.

[١٠٤] **قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ**: اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ (**بِالْأَمَانِيِّ**) – هُنَا – عَلَى قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأُمْنِيَةِ الْقِرَاءَةُ؛ أَيْ: لَا يَعْلَمُونَ مِنَ الْكِتَابِ إِلَّا قِرَاءَةَ أَلْفَاظٍ دُونَ إِدْرَاكِ مَعَانِيهَا. وَهَذَا الْقَوْلُ لَا يَتَنَاسَبُ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ**﴾؛ لِأَنَّ الْأُمِّيَّ لَا يَقْرَأُ!.

الثَّانِي: أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ مُنْقَطِعٌ، وَالْمَعْنَى: لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ، لَكِنْ يَتَمَنَّوْنَ أَمَانِيَّ بَاطِلَةً، وَيَدُلُّ لِهَذَا الْقَوْلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ**﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾.

﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ﴾أَيْ: فَالْعَذَابُ – فِي الْوَادِي السَّائِلِ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ فِي أَسْفَلِ جَهَنَّمَ – لَهُمْ ﴿مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾يَقُولُ: مِنَ الَّذِي كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ﴾ – أَيْضًا – ﴿مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يَعْنِي: مِمَّا يَعْمَلُونَ مِنَ الْخَطَايَا، وَيَجْتَرِحُونَ مِنَ الْآثَامِ، وَيَكْسِبُونَ مِنَ الْحَرَامِ بِكِتَابِهِمُ الَّذِي يَكْتُبُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ، بِخِلَافِ مَا أَنْزَلَ اللهُ، ثُمَّ يَأْكُلُونَ ثَمَنَهُ وَقَدْ بَاعُوهُ مِمَّنْ بَاعُوهُ مِنْهُمْ عَلَى أَنَّهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ!.

٨٠– ﴿وَقَالُوا﴾يَعْنِي: الْيَهُودُ، يَقُولُ: وَقَالَتِ الْيَهُودُ: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾يَعْنِي: لَنْ تُلَاقِي أَجْسَامُنَا النَّارَ، وَلَنْ نَدْخُلَهَا ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً[١٠٥] قُلْ﴾يَا مُحَمَّدُ، لِمَعْشَرِ الْيَهُودِ: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾أَأَخَذْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ مِنْ ذَلِكَ مِنَ اللهِ مِيثَاقًا، فَاللهُ لَا يَنْقُضُ مِيثَاقَهُ، وَلَا يُبَدِّلُ وَعْدَهُ وَعَقْدَهُ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْبَاطِلَ جَهْلًا وَجَرَاءَةً عَلَيْهِ؟!.

٨١– قَوْلُهُ: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾تَكْذِيبٌ مِنَ اللهِ الْقَائِلِينَ مِنَ الْيَهُودِ: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾وَإِخْبَارٌ مِنْهُ لَهُمْ أَنَّهُ مُعَذِّبُ مَنْ أَشْرَكَ وَكَفَرَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ، وَأَحَاطَتْ بِهِ ذُنُوبُهُ، فَمُخَلِّدُهُ فِي النَّارِ؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَسْكُنُهَا إِلَّا أَهْلُ الْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَهْلُ الطَّاعَةِ لَهُ، وَالْقَائِمُونَ بِحُدُودِهِ.

وَأَمَّا (بَلَى): فَإِنَّهَا إِقْرَارٌ فِي كُلِّ كَلَامٍ فِي أَوَّلِهِ جَحْدٌ.

وَأَمَّا (السَّيِّئَةُ) الَّتِي ذَكَرَ اللهُ فِي هَذَا الْمَكَانِ؛ فَإِنَّهَا الشِّرْكُ بِاللهِ.

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾يَعْنِي: اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ فَمَاتَ عَلَيْهَا، قَبْلَ الْإِنَابَةِ وَالتَّوْبَةِ مِنْهَا.

---

[١٠٥] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ!» فَجُمِعُوا لَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «مَنْ أَبُوكُمْ؟»، قَالُوا: فُلَانٌ، فَقَالَ: «كَذَبْتُمْ! بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ»، قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالَ: «فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا؛ عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا! فَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟»، قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا!! فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «اخْسَئُوا فِيهَا! وَاللهِ لَا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا!!» [صحيح: رواه البخاري، وأحمد؛ وغيرهما].

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ إِذًا: مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ، وَاقْتَرَفَ ذُنُوبًا جَمَّةً فَمَاتَ عَلَيْهَا قَبْلَ الْإِنَابَةِ وَالتَّوْبَةِ؛ ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يَعْنِي: أَهْلَ النَّارِ ﴿هُمْ فِيهَا﴾ يَعْنِي: فِي النَّارِ ﴿خَالِدُونَ﴾ يَعْنِي: مُقِيمُونَ.

٨٢- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيْ: صَدَّقُوا بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يَعْنِي: أَطَاعُوا اللهَ فَأَقَامُوا حُدُودَهُ، وَأَدُّوا فَرَائِضَهُ، وَاجْتَنَبُوا مَحَارِمَهُ.

﴿أُولَئِكَ﴾ يَعْنِي: فَالَّذِينَ هُمْ كَذَلِكَ ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ يَعْنِي: أَهْلَهَا الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مُقِيمُونَ أَبَدًا.

٨٣- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ[١٠٦]﴾ يَعْنِي: وَاذْكُرُوا أَيْضًا يَا مَعْشَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَمَا ذَلِكَ الْإِحْسَانُ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ وَبِالْوَالِدَيْنِ الْمِيثَاقَ؟ قِيلَ: نَظِيرُ مَا فَرَضَ اللهُ عَلَى أُمَّتِنَا لَهُمَا مِنْ فِعْلِ الْمَعْرُوفِ لَهُمَا، وَالْقَوْلِ الْجَمِيلِ، وَخَفْضِ جَنَاحِ الذُّلِّ رَحْمَةً بِهِمَا، وَالتَّحَنُّنِ عَلَيْهِمَا، وَالرَّأْفَةِ بِهِمَا، وَالدُّعَاءِ بِالْخَيْرِ لَهُمَا، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي نَدَبَ اللهُ عِبَادَهُ أَنْ يَفْعَلُوا بِهِمَا.

﴿وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى[١٠٧] وَالْمَسَاكِينِ[١٠٨]﴾ وَمَعْنَى ذَلِكَ: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ دُونَ مَنْ سِوَاهُ مِنَ الْأَنْدَادِ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَبِذِي الْقُرْبَى: أَنْ تَصِلُوا رَحِمَهُ، وَتَعْرِفُوا حَقَّهُ، وَبِالْيَتَامَى: أَنْ تَتَعَطَّفُوا عَلَيْهِمْ بِالرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَبِالْمَسَاكِينِ: أَنْ تُؤْتُوهُمْ حُقُوقَهُمُ الَّتِي أَلْزَمَهَا اللهُ أَمْوَالَكُمْ.

---

١٠٦ **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ**: وَعِبَادَةُ اللهِ: إِثْبَاتُ تَوْحِيدِهِ، وَتَصْدِيقُ رُسُلِهِ، وَالْعَمَلُ بِمَا أَنْزَلَ فِي كُتُبِهِ.

١٠٧ **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ**: قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْيَتِيمُ فِي بَنِي آدَمَ: مِنَ الْآبَاءِ، وَفِي الْبَهَائِمِ: مِنَ الْأُمِّ، وَحَكَى الْمَاوَرْدِيُّ أَنَّ الْيَتِيمَ أُطْلِقَ فِي بَنِي آدَمَ مِنَ الْأُمِّ أَيْضًا..

١٠٨ **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ**: الْمَسَاكِينُ: جَمْعُ مِسْكِينٍ؛ وَهُوَ مَنْ أَسْكَنَتْهُ الْحَاجَةُ وَذَلَّلَتْهُ، وَهُوَ أَشَدُّ فَقْرًا مِنَ الْفَقِيرِ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ اللُّغَةِ وَكَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْفِقْهِ. وَرُوِيَ عَنِ الشَّافِعِيِّ: أَنَّ الْفَقِيرَ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْمِسْكِينِ.

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا[١٠٩]﴾وَأَمَّا تَأْوِيلُ الْقَوْلِ الْحَسَنِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ الَّذِينَ وَصَفَ أَمْرَهُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَقُولُوهُ لِلنَّاسِ، فَهُوَ:

أَنْ يَأْمُرُوا بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مَنْ لَمْ يَقُلْهَا وَرَغِبَ عَنْهَا حَتَّى يَقُولُوهَا كَمَا قَالُوهَا.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ[١١٠]﴾يَعْنِي: أَدُّوهَا بِحُقُوقِهَا الْوَاجِبَةِ عَلَيْكُمْ فِيهَا.

﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾وَهَذَا خَبَرٌ مِنَ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – عَنْ يَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَنَّهُمْ نَكَثُوا عَهْدَهُ وَنَقَضُوا مِيثَاقَهُ، بَعْدَمَا أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَهُمْ عَلَى الْوَفَاءِ لَهُ، بِأَنْ لَا يَعْبُدُوا غَيْرَهُ، وَأَنْ يُحْسِنُوا إِلَى الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، وَيَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَيَتَعَطَّفُوا عَلَى الْأَيْتَامِ، وَيُؤَدُّوا حُقُوقَ أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ إِلَيْهِمْ، وَيَأْمُرُوا عِبَادَ اللهِ بِمَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ وَيَحُثُّوهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ بِحُدُودِهَا وَفَرَائِضِهَا، وَيُؤْتُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ.

فَخَالَفُوا أَمْرَهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُعْرِضِينَ، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ مِنْهُمْ، فَوَفَى لِلَّهِ بِعَهْدِهِ وَمِيثَاقِهِ.

٨٤– ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾نُهُوا عَنْ أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

فَكَانَ فِي قَتْلِ الرَّجُلِ مِنْهُمْ الرَّجُلَ قَتْلُ نَفْسِهِ؛ إِذْ كَانَتْ مِلَّتُهُمَا بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ.

وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾أَيْ: لَا يَقْتُلُ الرَّجُلُ مِنْكُمُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ، فَيُقَادُ بِهِ قِصَاصًا، فَيَكُونَ بِذَلِكَ قَاتِلًا نَفْسَهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ الَّذِي سَبَّبَ لِنَفْسِهِ مَا اسْتَحَقَّتْ بِهِ الْقَتْلَ.

فَأُضِيفَ بِذَلِكَ إِلَيْهِ، قَتْلُ وَلِيِّ الْمَقْتُولِ إِيَّاهُ قِصَاصًا بِوَلِيِّهِ. كَمَا يُقَالُ لِلرَّجُلِ يَرْكَبُ فِعْلًا مِنَ الْأَفْعَالِ يَسْتَحِقُّ بِهِ الْعُقُوبَةَ، فَيُعَاقَبُ الْعُقُوبَةَ: (أَنْتَ جَنَيْتَ هَذَا عَلَى نَفْسِكَ!).

---

[١٠٩] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾أَيْ: كَلِّمُوهُمْ طَيِّبًا، ولينُوا لَهُمْ جانبًا، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ: الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ بِالْمَعْرُوفِ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾فالحُسْنُ مِنَ الْقَوْلِ: يأمُر بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَحْلُمُ، وَيَعْفُو، وَيَصْفَحُ، وَيَقُولُ لِلنَّاسِ حُسْنًا كَمَا قَالَ اللهُ، وَهُوَ كُلُّ خُلُقٍ حَسَنٍ رَضِيَهُ اللهُ.

[١١٠] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ:** وَقَوْلُهُ: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ؛ وَهُوَ خِطَابٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، فَالْمُرَادُ: الصَّلَاةُ الَّتِي كَانُوا يُصَلُّونَهَا، وَالزَّكَاةُ الَّتِي كَانُوا يُخْرِجُونَهَا.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾يَعْنِي: بِالْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذْنَا عَلَيْكُمْ: لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ.

٨٥- ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾يَعْنِي: ثُمَّ أَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ يَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ - بَعْدَ إِقْرَارِكُمْ بِالْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذْتُهُ عَلَيْكُمْ: لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ بَعْدَ شَهَادَتِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِأَنَّ ذَلِكَ حَقٌّ لِي عَلَيْكُمْ، لَازِمٌ لَكُمُ الْوَفَاءُ لِي بِهِ - ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾مُتَعَاوِنِينَ عَلَيْهِمْ، فِي إِخْرَاجِكُمْ إِيَّاهُمْ، بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ.

﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ﴾يَعْنِي: الْيَهُودَ. يُوَبِّخُهُمْ بِذَلِكَ، وَيُعَرِّفُهُمْ بِهِ قَبِيحَ أَفْعَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَفْعَلُونَهَا! فَقَالَ لَهُمْ: ثُمَّ أَنْتُمْ - بَعْدَ إِقْرَارِكُمْ بِالْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذْتُهُ عَلَيْكُمْ: أَنْ لَا تَسْفِكُوا دِمَاءَكُمْ، وَلَا تُخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ - ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾يَعْنِي: يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَأَنْتُمْ، مَعَ قَتْلِكُمْ مَنْ تَقْتُلُونَ مِنْكُمْ، إِذَا وَجَدْتُمُ الْأَسِيرَ مِنْكُمْ فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ مِنْ أَعْدَائِكُمْ، تَفْدُونَهُ، وَيُخْرِجُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا مِنْ دِيَارِهِ. وَقَتْلُكُمْ إِيَّاهُمْ وَإِخْرَاجُكُمُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، وَتَرْكُهُمْ أَسْرَى فِي أَيْدِي عَدُوِّكُمْ، فَكَيْفَ تَسْتَجِيزُونَ قَتْلَهُمْ، وَلَا تَسْتَجِيزُونَ تَرْكَ فِدَائِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ؟ أَمْ كَيْفَ لَا تَسْتَجِيزُونَ تَرْكَ فِدَائِهِمْ، وَتَسْتَجِيزُونَ قَتْلَهُمْ؟! وَهُمَا جَمِيعًا فِي اللَّازِمِ لَكُمْ مِنَ الْحُكْمِ فِيهِمْ سَوَاءٌ؛ لِأَنَّ الَّذِي حَرَّمْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ قَتْلِهِمْ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دُورِهِمْ، نَظِيرُ الَّذِي حَرَّمْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ تَرْكِهِمْ أَسْرَى فِي أَيْدِي عَدُوِّهِمْ!.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾- الَّذِي فَرَضْتُ عَلَيْكُمْ فِيهِ فَرَائِضِي، وَبَيَّنْتُ لَكُمْ فِيهِ حُدُودِي، وَأَخَذْتُ عَلَيْهِ بِالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ مِيثَاقِي - فَتُصَدِّقُونَ بِهِ، فَتُفَادُونَ أَسْرَاكُمْ مِنْ أَيْدِي عَدُوِّكُمْ؛ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِهِ، فَتَجْحَدُونَهُ، فَتَقْتُلُونَ مَنْ حَرَّمْتُ عَلَيْكُمْ قَتْلَهُ مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ وَمِنْ قَوْمِكُمْ، وَتُخْرِجُونَهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ؟! وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الْكُفْرَ مِنْكُمْ بِبَعْضِهِ نَقْضٌ مِنْكُمْ عَهْدِي وَمِيثَاقِي.

﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾يَعْنِي: فَلَيْسَ لِمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ قَتِيلًا فَكَفَرَ بِقَتْلِهِ إِيَّاهُ، بِنَقْضِ عَهْدِ اللهِ الَّذِي حَكَمَ بِهِ عَلَيْهِ فِي التَّوْرَاةِ، وَأَخْرَجَ مِنْكُمْ فَرِيقًا مِنْ دِيَارِهِمْ مُظَاهِرًا عَلَيْهِمْ أَعْدَاءَهُمْ مِنْ أَهْلِ

الشِّرْكِ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا وَخِلَافًا لِمَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَى مُوسَى، جَزَاءٌ – يَعْنِي بِالْجَزَاءِ: الثَّوَابَ؛ وَهُوَ الْعِوَضُ مِمَّا فَعَلَ مِنْ ذَلِكَ وَالْأَجْرُ عَلَيْهِ – ﴿إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾وَالْخِزْيُ: الذُّلُّ وَالصَّغَارُ، يُقَالُ مِنْهُ: خَزِيَ الرَّجُلُ يَخْزَى خِزْيًا﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾يَعْنِي: فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾يَعْنِي: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُرَدُّ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ – بَعْدَ الْخِزْيِ الَّذِي يَحِلُّ بِهِ فِي الدُّنْيَا جَزَاءً عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ – إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ الَّذِي أَعَدَّ اللهُ لِأَعْدَائِهِ.

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾وَمَا اللهُ بِسَاهٍ عَنْ أَعْمَالِهِمُ الْخَبِيثَةِ؛ بَلْ هُوَ مُحْصٍ لَهَا، وَحَافِظُهَا عَلَيْهِمْ ، حَتَّى يُجَازِيَهُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَيُخْزِيَهُمْ فِي الدُّنْيَا، فَيُذِلُّهُمْ وَيَفْضَحُهُمْ!.

٨٦– ﴿أُولَئِكَ﴾يَعْنِي: الَّذِينَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ، فَيُفَادُونَ أَسْرَاهُمْ مِنَ الْيَهُودِ، وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، فَيَقْتُلُونَ مَنْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَتْلَهُ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهِمْ، وَيُخْرِجُونَ مِنْ دَارِهِ مَنْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ إِخْرَاجَهُ مِنْ دَارِهِ، نَقْضًا لِعَهْدِ اللهِ وَمِيثَاقِهِ فِي التَّوْرَاةِ إِلَيْهِمْ.

فَأَخْبَرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ: ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾يَعْنِي: الَّذِينَ اشْتَرَوْا رِيَاسَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى الضُّعَفَاءِ وَأَهْلِ الْجَهْلِ وَالْغَبَاءِ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهِمْ، وَابْتَاعُوا الْمَآكِلَ الْخَسِيسَةَ الرَّدِيئَةَ فِيهَا بِالْإِيمَانِ، الَّذِي كَانَ يَكُونُ لَهُمْ بِهِ فِي الْآخِرَةِ – لَوْ كَانُوا أَتَوْا بِهِ مَكَانَ الْكُفْرِ – الْخُلُودَ فِي الْجِنَّانِ.

وَإِنَّمَا وَصَفَهُمُ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – بِأَنَّهُمُ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ رَضُوا بِالدُّنْيَا بِكُفْرِهِمْ بِاللهِ فِيهَا، عِوَضًا مِنْ نَعِيمِ الْآخِرَةِ الَّذِي أَعَدَّهُ اللهُ لِلْمُؤْمِنِينَ.

فَجَعَلَ حُظُوظَهُمْ مِنْ نَعِيمِ الْآخِرَةِ بِكُفْرِهِمْ بِاللهِ، ثَمَنًا لِمَا ابْتَاعُوهُ بِهِ مِنْ خَسِيسِ الدُّنْيَا!.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ لِأَنَّ الَّذِي يُخَفَّفُ عَنْهُ فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ، هُوَ الَّذِي لَهُ حَظٌّ فِي نَعِيمِهَا، وَلَا حَظَّ لِهَؤُلَاءِ، لِاشْتِرَائِهِمُ – الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا – دُنْيَاهُمْ بِآخِرَتِهِمْ.

﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾أَيْ: لَا يَنْصُرُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَحَدٌ، فَيَدْفَعُ عَنْهُمْ بِنُصْرَتِهِ عَذَابَ اللهِ: لَا بِقُوَّتِهِ، وَلَا بِشَفَاعَتِهِ، وَلَا غَيْرِهِمَا.

٨٧- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾يَعْنِي: أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْهِ. ﴿وَقَفَّيْنَا﴾يَعْنِي: وَأَرْدَفْنَا وَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ خَلْفَ بَعْضٍ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾يَعْنِي: مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴿بِالرُّسُلِ﴾يَعْنِي: الْأَنْبِيَاءَ.

وَإِنَّمَا يَعْنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾أَيْ: أَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا عَلَى مِنْهَاجٍ وَاحِدٍ وَشَرِيعَةٍ وَاحِدَةٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ بَعَثَهُ اللهُ نَبِيًّا بَعْدَ مُوسَى - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى زَمَانِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا بَعَثَهُ يَأْمُرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِإِقَامَةِ التَّوْرَاةِ، وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهَا، وَالدُّعَاءِ إِلَى مَا فِيهَا.

فَلِذَلِكَ قِيلَ: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾يَعْنِي: عَلَى مِنْهَاجِهِ وَشَرِيعَتِهِ، وَالْعَمَلِ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ بِهِ.

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾يَعْنِي: أَعْطَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾وَيَعْنِي بِالْبَيِّنَاتِ الَّتِي آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا: مَا أَظْهَرَ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالدَّلَالَةِ عَلَى نُبُوَّتِهِ: مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَإِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، الَّتِي أَبَانَتْ مَنْزِلَتَهُ مِنَ اللهِ، وَدَلَّتْ عَلَى صِدْقِهِ وَصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ.

﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾يَعْنِي: قَوَّيْنَاهُ فَأَعَنَّاهُ ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ هُوَ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -.

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ يَقُولُ اللهُ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ يَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ! لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى التَّوْرَاةَ، وَتَابَعْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ إِلَيْكُمْ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَالْحُجَجَ، إِذْ بَعَثْنَاهُ إِلَيْكُمْ، وَقَوَّيْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ، وَأَنْتُمْ كُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ رُسُلِي بِغَيْرِ الَّذِي تَهْوَاهُ نُفُوسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ عَلَيْهِمْ - تَجَبُّرًا وَبَغْيًا - اسْتِكْبَارَ إِمَامِكُمْ إِبْلِيسَ؛ فَكَذَّبْتُمْ بَعْضًا مِنْهُمْ، وَقَتَلْتُمْ بَعْضًا، فَهَذَا فِعْلُكُمْ أَبَدًا بِرُسُلِي.

٨٨- ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾يَعْنِي: أَنَّهَا فِي أَغْشِيَةٍ وَأَغْطِيَةٍ.

﴿بَلْ لَعَنَهُمُ[١١١] اللهُ﴾يَعْنِي: بَلْ أَقْصَاهُمُ اللهُ وَأَبْعَدَهُمْ وَطَرَدَهُمْ وَأَخْزَاهُمْ وَأَهْلَكَهُمْ بِكُفْرِهِمْ، وَجُحُودِهِمْ آيَاتِ اللهِ وَبَيِّنَاتِهِ، وَمَا ابْتَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ، وَتَكْذِيبِهِمْ أَنْبِيَاءَهُ.

[١١١] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَأَصْلُ اللَّعْنِ: الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ وَالْإِقْصَاءُ، يُقَالُ: لَعَنَ اللهُ فُلَانًا يَلْعَنُهُ لَعْنًا، وَهُوَ مَلْعُونٌ .

فَأَخْبَرَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَنَّهُ أَبْعَدَهُمْ مِنْهُ وَمِنْ رَحْمَتِهِ؛ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مِنْ ذَلِكَ.

فِي قَوْلِ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ﴾تَكْذِيبٌ مِنْهُ لِلْقَائِلِينَ مِنَ الْيَهُودِ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بَلْ﴾دَلَالَةٌ عَلَى جَحْدِهِ – جَلَّ ذِكْرُهُ –، وَإِنْكَارِهِ مَا ادَّعَوْا مِنْ ذَلِكَ؛ إِذْ كَانَتْ (بَلْ) لَا تَدْخُلُ فِي الْكَلَامِ إِلَّا نَقْضًا لِمَجْحُودٍ.

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَبَيِّنٌ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ: وَقَالَتِ الْيَهُودُ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ يَا مُحَمَّدُ. فَقَالَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: مَا ذَلِكَ كَمَا زَعَمُوا! وَلَكِنَّ اللهَ أَقْصَى الْيَهُودَ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَطَرَدَهُمْ عَنْهَا، وَأَخْزَاهُمْ؛ بِجُحُودِهِمْ لَهُ وَلِرُسُلِهِ.

﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾يَعْنِي: بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَإِيمَانًا قَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ.

٨٩– ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾يَعْنِي: وَلَمَّا جَاءَ الْيَهُودَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾يَعْنِي بِالْكِتَابِ: الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾يَعْنِي: مُصَدِّقٌ لِلَّذِي مَعَهُمْ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ.

﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾أَيْ: وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ، يَسْتَفْتِحُونَ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَمَعْنَى الِاسْتِفْتَاحِ: الِاسْتِنْصَارُ، يَسْتَنْصِرُونَ اللهَ بِهِ عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ مِنْ قَبْلِ مَبْعَثِهِ ؛ أَيْ: مِنْ قَبْلِ أَنْ يُبْعَثَ.

عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ أَشْيَاخٍ، مِنْهُمْ قَالُوا: فِينَا وَاللهِ وَفِيهِمْ – يَعْنِي فِي الْأَنْصَارِ، وَفِي الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا جِيرَانَهُمْ – نَزَلَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ، يَعْنِي: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾قَالُوا: كُنَّا قَدْ عَلَوْنَاهُمْ دَهْرًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ – وَنَحْنُ أَهْلُ الشِّرْكِ، وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ – فَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ نَبِيًّا الْآنَ مَبْعَثُهُ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ، يَقْتُلُكُمْ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ! فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – رَسُولَهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَاتَّبَعْنَاهُ، كَفَرُوا بِهِ.

يَقُولُ اللهُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.[١١٢]

فَفِي إِخْبَارِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – عَنِ الْيَهُودِ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾الْبَيَانُ الْوَاضِحُ أَنَّهُمْ تَعَمَّدُوا الْكُفْرَ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ بِنُبُوَّتِهِ عَلَيْهِمْ، وَقَطَعَ اللهُ عُذْرَهُمْ بِأَنَّهُ رَسُولُهُ إِلَيْهِمْ.[١١٣]

﴿فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾يَعْنِي: فَخِزْيُ اللهِ وَإِبْعَادُهُ عَلَى الْجَاحِدِينَ مَا قَدْ عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ عَلَيْهِمْ لِلَّهِ وَلِأَنْبِيَائِهِ، الْمُنْكِرِينَ لِمَا قَدْ ثَبَتَ عِنْدَهُمْ صِحَّتُهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

---

[١١٢] صحيح: انظر: صحيح السيرة النبوية؛ للألباني صـ٥٧، والصحيح المسند من أسباب النزول؛ للوادعي صـ١٩–٢٠.

[١١٣] فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ الطَّوِيلِ، وَفِيهِ: فَلَمَّا جَاءَ نَبِيُّ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ جَاءَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ [يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ؟ فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ وَمَا بَالُ الْوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ (وَفِي رِوَايَةٍ: وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى أَخْوَالِهِ؟) قَالَ: «**أَخْبَرَنِي بِهِ جِبْرِيلُ آنِفًا**»، قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: [نَعَمْ]؛ ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿**مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ**﴾؛ قَالَ: «**أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؛ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ (وَفِي رِوَايَةٍ: تَحْشُرُ النَّاسَ) مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؛ فَزِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ، وأَمَّا[الشَّبَهُ فِي] الْوَلَدِ؛ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ؛ نَزَعَ الْوَلَدَ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ؛ نَزَعَتِ الْوَلَدَ**» (**وَفِي رِوَايَةٍ: فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ الْمَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ؛ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا؛ كَانَ الشَّبَهُ لَهَا**)]، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، وَأَنَّكَ جِئْتَ بِحَقٍّ، [ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ؛ بَهَتُونِي عِنْدَكَ]، وَقَدْ عَلِمَتْ يَهُودُ أَنِّي سَيِّدُهُمْ، وَابْنُ سَيِّدِهِمْ، وَأَعْلَمُهُمْ، وَابْنُ أَعْلَمِهِمْ، فَادْعُهُمْ فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ؛ قَالُوا فِيَّ مَا لَيْسَ فِيَّ!! فَأَرْسَلَ نَبِيُّ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، [وَدَخَلَ عَبْدُ اللهِ الْبَيْتَ]، فَأَقْبَلُوا فَدَخَلُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، وَيْلَكُمْ! اتَّقُوا اللهَ!! فَوَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؛ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ حَقًّا، وَأَنِّي جِئْتُكُمْ بِحَقٍّ، فَأَسْلِمُوا**»، قَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ، قَالُوا لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَهَا ثَلَاثَ مِرَارٍ، قَالَ: «**فَأَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ؟**» قَالُوا: ذَاكَ سَيِّدُنَا، وَابْنُ سَيِّدِنَا، وَأَعْلَمُنَا، وَابْنُ أَعْلَمِنَا، [وَأَخْيَرُنَا، وَابْنُ أَخْيَرِنَا]، [وَأَفْضَلُنَا وَابْنُ أَفْضَلِنَا]، قَالَ: «**أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ؟**»، قَالُوا: حَاشَى لِلَّهِ؛ مَا كَانَ لِيُسْلِمَ، قَالَ: «**أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ؟**» قَالُوا: حَاشَى لِلَّهِ؛ مَا كَانَ لِيُسْلِمَ، قَالَ: «**أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ؟**»، قَالُوا: حَاشَى لِلَّهِ؛ مَا كَانَ لِيُسْلِمَ، (وَفِي رِوَايَةٍ: أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ.) قَالَ: «**يَا ابْنَ سَلَامٍ؛ اخْرُجْ عَلَيْهِمْ!**»، فَخَرَجَ [عَبْدُ اللهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَقَالُوا: شَرُّنَا، وَابْنُ شَرِّنَا، وَوَقَعُوا فِيهِ!]، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ اتَّقُوا اللهَ! فَوَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؛ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِحَقٍّ، فَقَالُوا: كَذَبْتَ! (وَفِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى: قَالُوا: شَرُّنَا، وَابْنُ شَرِّنَا؛ وَانْتَقَصُوهُ! قَالَ: فَهَذَا الَّذِي كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللهِ!)، فَأَخْرَجَهُمْ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – [مختصر صحيح البخاري؛ للألباني(٢/٥٦١–٥٦٣)].

٩٠- ﴿بِئْسَمَا اشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾يَعْنِي: بِئْسَ الشَّيْءُ بَاعَ الْيَهُودُ بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، كُفْرُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴿ بَغْيًا ﴾يَعْنِي: تَعَدِّيًا وَحَسَدًا﴿ أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾يَعْنِي: بِئْسَ الشَّيْءُ بَاعُوا بِهِ أَنْفُسَهُمُ، الْكُفْرُ بِالَّذِي أَنْزَلَ اللهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى مُوسَى – مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالْأَمْرِ بِتَصْدِيقِهِ وَاتِّبَاعِهِ – مِنْ أَجْلِ أَنْ أَنْزَلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ – وَفَضْلُهُ: حِكْمَتُهُ وَآيَاتُهُ وَنُبُوَّتُهُ – ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾يَعْنِي: عَلَى مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، بَغْيًا وَحَسَدًا لِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ كَانَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ!.

﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ﴾يَعْنِي: فَرَجَعَتِ الْيَهُودُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ – بَعْدَ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الِاسْتِنْصَارِ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالِاسْتِفْتَاحِ بِهِ، وَبَعْدَ الَّذِي كَانُوا يُخْبِرُونَ بِهِ النَّاسَ مِنْ قَبْلِ مَبْعَثِهِ أَنَّهُ نَبِيٌّ مَبْعُوثٌ – مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ حِينَ بَعَثَهُ اللهُ نَبِيًّا مُرْسَلًا، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ اسْتَحَقُّوهُ مِنْهُ بِكُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ حِينَ بُعِثَ، وَجُحُودِهِمْ نُبُوَّتَهُ، وَإِنْكَارِهِمْ إِيَّاهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَجِدُونَ صِفَتَهِ فِي كِتَابِهِمْ، عِنَادًا مِنْهُمْ لَهُ وَبَغْيًا وَحَسَدًا لَهُ وَلِلْعَرَبِ﴿ عَلَى غَضَبٍ ﴾سَالِفٍ، كَانَ مِنَ اللهِ عَلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ، سَابِقٍ غَضَبَهُ الثَّانِي؛ لِكُفْرِهِمُ الَّذِي كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، أَوْ لِعِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ، أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ ذُنُوبٍ كَانَتْ لَهُمْ سَلَفَتْ، يَسْتَحِقُّونَ بِهَا الْغَضَبَ مِنَ اللهِ!.[١١٤]

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ﴾يَعْنِي: وَلِلْجَاحِدِينَ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ، عَذَابٌ مِنَ اللهِ: إِمَّا فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿مُهِينٌ﴾هُوَ الْمُذِلُّ صَاحِبَهُ، الْمُخْزِي، الْمُلْبِسُهُ هَوَانًا وَذِلَّةً.

---

[١١٤] قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: غَضَبُ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ؛ وَهُوَ غَضَبٌ حَقِيقِيٌّ يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، لَا يُمَاثِلُ غَضَبَ الْمَخْلُوقِينَ؛ لِأَنَّ اللهَ – جَلَّ جَلَالُهُ –: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.
قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: "لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ غَضَبُ اللهِ – تَعَالَى – مِثْلَ غَضَبِنَا؛ كَمَا أَنَّ حَقِيقَةَ ذَاتِ اللهِ لَيْسَتْ مِثْلَ ذَاتِنَا، فَلَيْسَ هُوَ مُمَاثِلًا لَنَا: لَا لِذَاتِنَا، وَلَا لِأَرْوَاحِنَا؛ وَصِفَاتُهُ كَذَاتِهِ" اهـ. مِنْ مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى

٩١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يَعْنِي: وَإِذَا قِيلَ لِلْيَهُودِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ - لِلَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ ظَهْرَانَيْ مُهَاجَرِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ﴿آمِنُوا﴾ أَيْ: صَدِّقُوا ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ يَعْنِي: بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ﴾ أَيْ: نُصَدِّقُ ﴿بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا[١١٥]﴾ يَعْنِي: بِالتَّوْرَاةِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَى مُوسَى ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أَيْ: وَيَجْحَدُونَ بِمَا سِوَى التَّوْرَاةِ وَبِمَا بَعْدَهُ مِنْ كُتُبِ اللهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا إِلَى رُسُلِهِ.

﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ يَعْنِي: مَا وَرَاءَ الْكِتَابِ - الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ إِلَى أَنْبِيَائِهِ - الْحَقُّ.

وَإِنَّمَا يَعْنِي بِذَلِكَ - تَعَالَى ذِكْرُهُ -: الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

وَإِنَّمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾؛ لِأَنَّ كُتُبَ اللهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

فَفِي الْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ مِنَ الْأَمْرِ بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَالْإِيمَانِ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ، مِثْلُ الَّذِي مِنْ ذَلِكَ فِي تَوْرَاةِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -.

فَلِذَلِكَ قَالَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - لِلْيَهُودِ - إِذْ خَبَّرَهُمْ عَمَّا وَرَاءَ كِتَابِهِمُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُوسَى - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ -، مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا إِلَى أَنْبِيَائِهِ -: إِنَّهُ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِلْكِتَابِ الَّذِي مَعَهُمْ، يَعْنِي: أَنَّهُ لَهُ مُوَافِقٌ فِيمَا الْيَهُودُ بِهِ مُكَذِّبُونَ.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ[١١٦]﴾ يَعْنِي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِيَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ - الَّذِينَ إِذَا قُلْتَ لَهُمْ: ﴿آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ -: لِمَ تَقْتُلُونَ - إِنْ كُنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ مُؤْمِنِينَ

---

١١٥ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: قَوْلُهُ: ﴿**قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا**﴾ أَيْ: يَكْفِينَا الْإِيمَانُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَلَا نُقِرُّ إِلَّا بِذَلِكَ!.

١١٦ **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** قَوْلُهُ: ﴿**قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ أَيْ: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمُ الْإِيمَانَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، فَلِمَ قَتَلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ جَاؤُوكُمْ بِتَصْدِيقِ التَّوْرَاةِ الَّتِي بِأَيْدِيكُمْ وَالْحُكْمِ بِهَا وَعَدَمِ نَسْخِهَا، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقَهُمْ؟! قَتَلْتُمُوهُمْ بَغْيًا وَحَسَدًا وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا عَلَى رُسُلِ اللهِ، فَلَسْتُمْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا مُجَرَّدَ الْأَهْوَاءِ وَالْآرَاءِ وَالتَّشَهِّي؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**﴾.

بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ – أَنْبِيَاءَهُ، وَقَدْ حَرَّمَ اللهُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ قَتْلَهُمْ، بَلْ أَمَرَكُمْ فِيهِ بِاتِّبَاعِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ؟.

وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾أَيْ: مِنْ قَبْلِ الْيَوْمِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾يَعْنِي: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ كَمَا زَعَمْتُمْ.

٩٢– ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾أَيْ: جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ وَصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ؛ كَالْعَصَا الَّتِي تَحَوَّلَتْ ثُعْبَانًا مُبِينًا، وَيَدِهِ الَّتِي أَخْرَجَهَا بَيْضَاءَ لِلنَّاظِرِينَ، وَفَلْقِ الْبَحْرِ، وَمَصِيرِ أَرْضِهِ لَهُ طَرِيقًا يَبَسًا، وَالْجَرَادِ، وَالْقُمَّلِ، وَالضَّفَادِعِ، وَسَائِرِ الآيَاتِ الَّتِي بَيَّنَتْ صِدْقَهُ وَحَقِّيَّةَ نُبُوَّتِهِ.

وَإِنَّمَا سَمَّاهَا اللهُ بَيِّنَاتٍ؛ لِتَبَيُّنِهَا لِلنَّاظِرِينَ إِلَيْهَا أَنَّهَا مُعْجِزَةٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ بِهَا بَشَرٌ، إِلَّا بِتَسْخِيرِ اللهِ ذَلِكَ لَهُ.

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾يَعْنِي: ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِلَهًا.

وَإِنَّمَا قَالَ: مِنْ بَعْدِ مُوسَى؛ لِأَنَّهُمُ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ أَنْ فَارَقَهُمْ مُوسَى مَاضِيًا إِلَى رَبِّهِ لِمَوْعِدِهِ.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾يَعْنِي: أَنَّكُمْ فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ وَلَيْسَ ذَلِكَ لَكُمْ، وَعَبَدْتُمْ غَيْرَ الَّذِي كَانَ يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَنْبَغِي لِغَيْرِ اللهِ.

٩٣– ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾يَعْنِي: وَاذْكُرُوا إِذْ أَخَذْنَا عُهُودَكُمْ بِأَنْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ مِنَ التَّوْرَاةِ الَّتِي أَنْزَلْتُهَا إِلَيْكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا مِنْ أَمْرِي، وَتَنْتَهُوا عَمَّا نَهَيْتُكُمْ فِيهَا بِجِدٍّ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ وَنَشَاطٍ، فَأَعْطَيْتُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِذَلِكَ مِيثَاقَكُمْ، إِذْ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الْجَبَلَ.

أَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَاسْمَعُوا﴾فَإِنَّ مَعْنَاهُ: وَاسْمَعُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَتَقَبَّلُوهُ بِالطَّاعَةِ.

فَمَعْنَى الْآيَةِ: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ أَنْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ، وَاعْمَلُوا بِمَا سَمِعْتُمْ، وَأَطِيعُوا اللهَ، وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أَيْ: سَمِعْنَا قَوْلَكَ، وَعَصَيْنَا أَمْرَكَ!.

﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ[١١٧]﴾ يَعْنِي: وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمْ حُبَّ الْعِجْلِ.

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِيَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: بِئْسَ الشَّيْءُ يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كَانَ يَأْمُرُكُمْ بِقَتْلِ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَرُسُلِهِ، وَالتَّكْذِيبِ بِكُتُبِهِ، وَجُحُودِ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ!.

٩٤- ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وَهَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا احْتَجَّ اللهُ بِهَا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ ظَهْرَانَيْ مُهَاجَرِهِ، وَفَضَحَ بِهَا أَحْبَارَهُمْ وَعُلَمَاءَهُمْ.

وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – أَمَرَ نَبِيَّهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنْ يَدْعُوَهُمْ إِلَى قَضِيَّةٍ عَادِلَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فِيمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْخِلَافِ.

كَمَا أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَدْعُوَ الْفَرِيقَ الْآخَرَ مِنَ النَّصَارَى – إِذْ خَالَفُوهُ فِي عِيسَى – صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ – وَجَادَلُوا فِيهِ – إِلَى فَاصِلَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْمُبَاهَلَةِ.

وَقَالَ لِفَرِيقِ الْيَهُودِ: إِنْ كُنْتُمْ مُحِقِّينَ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ، فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ ضَارِّكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُحِقِّينَ فِيمَا تَدَّعُونَ مِنَ الْإِيمَانِ وَقُرْبِ الْمَنْزِلَةِ مِنَ اللهِ.

بَلْ إِنْ أُعْطِيتُمْ أُمْنِيَّتَكُمْ مِنَ الْمَوْتِ – إِذَا تَمَنَّيْتُمْ –؛ فَإِنَّمَا تَصِيرُونَ إِلَى الرَّاحَةِ مِنْ تَعَبِ الدُّنْيَا وَنَصَبِهَا وَكَدَرِ عَيْشِهَا! وَالْفَوْزِ بِجِوَارِ اللهِ فِي جِنَانِهِ، إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ: مِنْ أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَكُمْ خَالِصَةً دُونَنَا!!.

وَإِنْ لَمْ تُعْطَوْهَا؛ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّكُمُ الْمُبْطِلُونَ وَنَحْنُ الْمُحِقُّونَ فِي دَعْوَانَا، وَانْكَشَفَ أَمْرُنَا وَأَمْرُكُمْ لَهُمْ!.

فَامْتَنَعَتِ الْيَهُودُ مِنْ إِجَابَةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى ذَلِكَ؛ لِعِلْمِهَا أَنَّهَا إِنْ تَمَنَّتِ الْمَوْتَ هَلَكَتْ، فَذَهَبَتْ دُنْيَاهَا، وَصَارَتْ إِلَى خِزْيِ الْأَبَدِ فِي آخِرَتِهَا.

---

[١١٧] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ**: وَالْبَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿**بِكُفْرِهِمْ**﴾: سَبَبِيَّةٌ؛ أَيْ: كَانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ عُقُوبَةً لَهُمْ وَخِذْلَانًا.

كَمَا امْتَنَعَ فَرِيقُ النَّصَارَى – الَّذِينَ جَادَلُوا النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي عِيسَى، إِذْ دُعُوا إِلَى الْمُبَاهَلَةِ – مِنَ الْمُبَاهَلَةِ.[١١٨]

فَبَلَغَنَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «لَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوُا الْمَوْتَ؛ لَمَاتُوا، وَلَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا».[١١٩]

فَانْكَشَفَ – لِمَنْ كَانَ مُشْكِلًا عَلَيْهِ أَمْرُ الْيَهُودِ يَوْمَئِذٍ – كَذِبُهُمْ وَبُهْتُهُمْ وَبَغْيُهُمْ عَلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَظَهَرَتْ حُجَّةُ رَسُولِ اللهِ وَحُجَّةُ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ تَزَلْ – وَالْحَمْدُ لِلَّهِ – ظَاهِرَةً عَلَيْهِمْ وَعَلَى غَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْمِلَلِ.

---

[١١٨] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ – تَعْلِيقًا عَلَى كَلَامِ الطَّبَرِيِّ** –: فَهَذَا الْكَلَامُ مِنْهُ؛ أَوَّلُهُ حَسَنٌ، وَأَمَّا آخِرُهُ فِيهِ نَظَرٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا تَظْهَرُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، إِذْ يُقَالُ: إِنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ صَادِقُونَ فِي دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ يَتَمَنَّوا الْمَوْتَ، فَإِنَّهُ لَا مُلَازَمَةَ بَيْنَ وُجُودِ الصَّلَاحِ وَتَمَنِّي الْمَوْتِ! وَكَمْ مِنْ صَالِحٍ لَا يَتَمَنَّى الْمَوْتَ، بَلْ يَوَدُّ أَنْ يُعَمَّرَ لِيَزْدَادَ خَيْرًا وَتَرْتَفِعَ دَرَجَتُهُ فِي الْجَنَّةِ...

وَلَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَقُولُوا عَلَى هَذَا: فَهَا أَنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ – أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ – أَنَّكُمْ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ، وَأَنْتُمْ لَا تَتَمَنَّوْنَ فِي حَالِ الصِّحَّةِ الْمَوْتَ؛ فَكَيْفَ تُلْزِمُونَا بِمَا لَا نُلْزِمُكُمْ؟!

وَهَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا نَشَأَ مِنْ تَفْسِيرِ الْآيَةِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، فَأَمَّا عَلَى تَفْسِيرِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ فَلَا يَلْزَمُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ قِيلَ لَهُمْ كَلَامٌ نَصَفٌ: إِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ، وَأَنَّكُمْ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، وَأَنَّكُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَنْ عَدَاكُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ فَبَاهِلُوا عَلَى ذَلِكَ، وَادْعُوا عَلَى الْكَاذِبِينَ مِنْكُمْ أَوْ مِنْ غَيْرِكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْمُبَاهَلَةَ تَسْتَأْصِلُ الْكَاذِبَ لَا مَحَالَةَ!.

فَلَمَّا تيقَّنوا ذَلِكَ، وَعَرَفُوا صِدْقَهُ؛ نَكَلُوا عَنِ الْمُبَاهَلَةِ؛ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَذِبِهِمْ، وَافْتِرَائِهِمْ، وَكِتْمَانِهِمُ الْحَقَّ مِنْ صِفَةِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَنَعْتِهِ، وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَتَحَقَّقُونَهُ. فَعَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ بَاطِلَهُمْ، وَخِزْيَهُمْ، وَضَلَالَهُمْ وَعِنَادَهُمْ – عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ –.

وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْمُبَاهَلَةُ تَمَنِّيًا؛ لِأَنَّ كُلَّ مُحِقٍّ يَوَدُّ لَوْ أَهْلَكَ اللهُ الْمُبْطِلَ الْمُنَاظِرَ لَهُ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ لَهُ فِيهَا بَيَانُ حَقِّهِ وَظُهُورُهُ.

وَكَانَتِ الْمُبَاهَلَةُ بِالْمَوْتِ؛ لِأَنَّ الْحَيَاةَ عِنْدَهُمْ عَزِيزَةٌ عَظِيمَةٌ؛ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ سُوءِ مَآلِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ!! اهـ.

وَقَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي مَدَارِجِ السَّالِكِينَ: وَقَالَتْ طَائِفَةٌ – مِنْهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ –: هَذِهِ مِنْ جِنْسِ آيَةِ الْمُبَاهَلَةِ، وَأَنَّهُمْ لَمَّا عَانَدُوا، وَدَفَعُوا الْهُدَى عَيَانًا، وَكَتَمُوا الْحَقَّ: دَعَاهُمْ إِلَى أَمْرٍ يَحْكُم بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ؛ وَهُوَ: أَنْ يَدْعُوا بِالْمَوْتِ عَلَى الْكَاذِبِ الْمُفْتَرِي – وَالتَّمَنِّي: سُؤَالٌ، وَدُعَاءٌ –، فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ: أَيْ: سَلُوهُ، وَادْعُوا بِهِ عَلَى الْمُبْطِلِ الْكَاذِبِ الْمُفْتَرِي!.

وَعَلَى هَذَا؛ فَلَيْسَ الْمُرَادُ: تَمَنَّوْهُ لِأَنْفُسِكُمْ خَاصَّة – كَمَا قَالَهُ أَصْحَابُ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ –؛ بَلْ مَعْنَاهُ: ادْعُوا بِالْمَوْتِ وَتَمَنَّوْهُ لِلْمُبْطِلِ.

وَهَذَا أَبْلَغُ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَبُرْهَانِ الصِّدْقِ، وَأَسْلَمُ مِنْ أَنْ يُعَارِضُوا رَسُولَ اللهِ، بِقَوْلِهِمْ: فَتَمَنَّوْهُ أَنْتُمْ – أَيْضًا – إِنْ كُنْتُمْ مُحِقِّينَ فِي دَعْوَاكُمْ أَنَّكُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ؛ لِتَقْدمُوا عَلَى ثَوَابِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ – وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى مُعَارَضَتِهِ –، فَلَوْ فَهِمُوا مِنْهُ مَا ذَكَرَهُ أُولَئِكَ؛ لَعَارَضُوهُ بِمِثْلِهِ!!.

وَأَيْضًا: فَإِنَّا نُشَاهِدُ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَمَنَّى الْمَوْتَ لِضُرِّهِ وَبَلَائِهِ، وَشِدَّةِ حَالِهِ، وَيَدْعُو بِهِ! وَهَذَا بِخِلَافِ تَمَنِّيهِ وَالدُّعَاء بِهِ عَلَى الْفِرْقَةِ الْكَاذِبَةِ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يَكُونُ أَبَدًا! وَلَا وَقَعَ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَلْبَتَّةَ!! وَذَلِكَ لِعِلْمِهِمْ بِصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَصِدْقِهِ، وَكُفْرِهِمْ بِهِ حَسَدًا وَبَغْيًا، فَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ!. وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي نَخْتَارُهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ مِنْ كِتَابِهِ اهـ.

[١١٩] صحيح: رواه أحمد، والنسائي في الكبرى، وأورده الألباني في الصحيحة(٣٢٩٦).

وَأَمَّا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً﴾فَإِنَّهُ يَقُولُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: إِنْ كَانَ نَعِيمُ الدَّارِ الْآخِرَةِ وَلَذَّاتُهَا لَكُمْ – يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ – عِنْدَ اللهِ ﴿خَالِصَةً﴾يَعْنِي: صَافِيَةً.

﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾أَيْ: لَنَا الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ جَمِيعِ النَّاسِ؛ ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾يَعْنِي: تَشَهُّوهُ وَأَرِيدُوهُ.

٩٥– ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وَهَذَا خَبَرٌ مِنَ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – عَنِ الْيَهُودِ وَكَرَاهَتِهِمُ الْمَوْتَ، وَامْتِنَاعِهِمْ عَنِ الْإِجَابَةِ إِلَى مَا دُعُوا إِلَيْهِ مِنْ تَمَنِّي الْمَوْتِ؛ لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَالْوَعِيدُ بِهِمْ نَازِلٌ وَالْمَوْتُ بِهِمْ حَالٌّ؛ وَلِمَعْرِفَتِهِمْ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللهِ إِلَيْهِمْ مُرْسَلٌ، وَهُمْ بِهِ مُكَذِّبُونَ، وَأَنَّهُ لَمْ يُخْبِرْهُمْ خَبَرًا إِلَّا كَانَ حَقًّا كَمَا أَخْبَرَ.

فَهُمْ يَحْذَرُونَ أَنْ يَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ، خَوْفًا أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ عِقَابُ اللهِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ مِنَ الذُّنُوبِ.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾يَعْنِي: وَاللهُ ذُو عِلْمٍ بِظَلَمَةِ بَنِي آدَمَ – يَهُودِهَا وَنَصَارَاهَا وَسَائِرِ أَهْلِ الْمِلَلِ غَيْرِهَا – وَمَا يَعْمَلُونَ.

٩٦– ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ[١٢٠]﴾يَعْنِي: الْيَهُودَ، يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ! لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ حِرْصًا عَلَى الْحَيَاةِ فِي الدُّنْيَا، وَأَشَدَّهُمْ كَرَاهَةً لِلْمَوْتِ: الْيَهُودَ!.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾يَعْنِي: وَأَحْرَصَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا عَلَى الْحَيَاةِ.[١٢١]

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ هَذَا خَبَرٌ مِنَ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – بِقَوْلِهِ عَنِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا، الَّذِينَ أَخْبَرَ أَنَّ الْيَهُودَ أَحْرَصُ مِنْهُمْ عَلَى الْحَيَاةِ، يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: يَوَدُّ أَحَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ؛ حَتَّى جَعَلَ بَعْضُهُمْ تَحِيَّةَ بَعْضٍ: (عَشْرَةَ آلَافِ عَامٍ)؛ حِرْصًا مِنْهُمْ عَلَى الْحَيَاةِ!!.

---

[١٢٠] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ:** وَتَنْكِيرُ (**حَيَاةٍ**): لِلتَّحْقِيرِ، أَيْ: أَنَّهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى أَحْقَرِ حَيَاةٍ، وَأَقَلِّ لُبْثٍ فِي الدُّنْيَا؛ فَكَيْفَ بِحَيَاةٍ كَثِيرَةٍ، وَلُبْثٍ مُتَطَاوِلٍ؟!.

وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ فِي التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ: وَنَكَّرَ (**الْحَيَاةَ**): قَصْدًا لِلتَّنْوِيعِ، أَيْ: كَيْفَمَا كَانَتْ تِلْكَ الْحَيَاةُ! وَتَقُولُ يَهُودُ تُونُسَ – مَا مَعْنَاهُ –: (الْحَيَاةُ؛ وَكَفَى)!!

[١٢١] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَإِنَّمَا وَصَفَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – الْيَهُودَ بِأَنَّهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى الْحَيَاةِ؛ لِعِلْمِهِمْ بِمَا قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ بِمَا لَا يُقِرُّ بِهِ أَهْلُ الشِّرْكِ، فَهُمْ لِلْمَوْتِ أَكْرَهُ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ؛ لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ، وَيَعْلَمُونَ مَا لَهُمْ هُنَالِكَ مِنَ الْعَذَابِ!!.

وَالْمُشْرِكُونَ لَا يُصَدِّقُونَ بِالْبَعْثِ، وَلَا الْعِقَابِ، فَالْيَهُودُ أَحْرَصُ مِنْهُمْ عَلَى الْحَيَاةِ وَأَكْرَهُ لِلْمَوْتِ.

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾يَعْنِي: وَمَا التَّعْمِيرُ – وَهُوَ طُولُ الْبَقَاءِ – بِمُزَحْزِحِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ: وَمَا طُولُ الْعُمُرِ بِمُبْعِدِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَلَا مُنَحِّيهِ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْعُمُرِ مِنَ الْفِنَاءِ وَمَصِيرِهِ إِلَى اللهِ!.

﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾يَعْنِي: وَاللهُ ذُو إِبْصَارٍ بِمَا يَعْمَلُونَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، بَلْ هُوَ بِجَمِيعِهَا مُحِيطٌ، وَلَهَا حَافِظٌ ذَاكِرٌ، حَتَّى يُذِيقَهُمْ بِهَا الْعِقَابَ جَزَاءَهَا.

٩٧– ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ[١٢٢] فإنه نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ[١٢٣] بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالتَّأْوِيلِ جَمِيعًا عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ جَوَابًا لِلْيَهُودِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ زَعَمُوا أَنَّ جِبْرِيلَ عَدُوٌّ لَهُمْ، وَأَنَّ مِيكَائِيلَ وَلِيٌّ لَهُمْ.

---

[١٢٢] عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: سَمِعَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ، بِقُدُومِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهْوَ فِي أَرْضٍ يَخْتَرِفُ – فَأَتَى النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ: فَمَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ وَمَا يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ قَالَ: «**أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفًا**» قَالَ: جِبْرِيلُ؟! قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ!! فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿**مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ**﴾. [صحيح: رواه البخاري، والنسائي في الكبرى، والبيهقي في الدلائل، والبغوي في شرح السنة؛ وغيرهم].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ! إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أَنْبَأْتَنَا بِهِنَّ؛ عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَاتَّبَعْنَاكَ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ مَا أَخَذَ إِسْرَائِيلُ عَلَى بَنِيهِ، إِذْ قَالُوا: اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ، قَالَ: «**هَاتُوا**» قَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنْ عَلَامَةِ النَّبِيِّ، قَالَ: «**تَنَامُ عَيْنَاهُ، وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ**» قَالُوا: أَخْبِرْنَا كَيْفَ تُؤَنِّثُ الْمَرْأَةُ، وَكَيْفَ تُذْكِرُ؟ قَالَ: «**يَلْتَقِي الْمَاءَانِ، فَإِذَا عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ؛ أَذْكَرَتْ، وَإِذَا عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ؛ آنَثَتْ**» قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ قَالَ: «**كَانَ يَشْتَكِي عِرْقَ النَّسَا، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلَائِمُهُ إِلَّا لُحُومَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا؛ فَلِذَلِكَ حَرَّمَهَا**»، قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا هَذَا الرَّعْدُ؟ قَالَ: «**مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ بِيَدِهِ – أَوْ فِي يَدِهِ – مِخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ، يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ، يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ**» قَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ: «**صَوْتُهُ**» قَالُوا: صَدَقْتَ، إِنَّمَا بَقِيَتْ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الَّتِي نُبَايِعُكَ إِنْ أَخْبَرْتَنَا بِهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلا لَهُ مَلَكٌ يَأْتِيهِ بِالْخَبَرِ، فَأَخْبِرْنَا مَنْ صَاحِبُكَ؟ قَالَ: «**جِبْرِيلُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ –**» ، قَالُوا: جِبْرِيلُ؟! – ذَاكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْحَرْبِ وَالْقِتَالِ وَالْعَذَابِ – عَدُوُّنَا، لَوْ قُلْتَ: مِيكَائِيلَ – الَّذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّبَاتِ وَالْقَطْرِ –؛ لَكَانَ! فَأَنْزَلَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿**مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ**﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةَ. [صحيح: رواه أحمد، والنسائي في الكبرى، والطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة؛ وصححه المحدث أحمد شاكر في تعليقه على مسند الإمام أحمد (٢٤٨٣)، وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول صـ٢٠-٢٢ لمحدث اليمن مقبل الوادعي].

[١٢٣] **قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ**: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ**﴾ ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ جِبْرِيلَ أَلْقَى الْقُرْآنَ فِي قَلْبِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ غَيْرِ سَمَاعِ قِرَاءَةٍ، وَنَظِيرُهَا فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ**﴾ الْآيَةَ. وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ الْمَلَكَ يَقْرَؤُهُ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْمَعَهُ مِنْهُ، فَتَصِلُ مَعَانِيهِ إِلَى قَلْبِهِ بَعْدَ سَمَاعِهِ، وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى تَنْزِيلِهِ عَلَى قَلْبِهِ، وَذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿**وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾.

وَأَمَّا تَأْوِيلُ الْآيَةِ؛ فَهُوَ أَنَّ اللهَ يَقُولُ لِنَبِيِّهِ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ – لِمَعَاشِرِ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ جِبْرِيلَ لَهُمْ عَدُوٌّ، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ صَاحِبُ سَطَوَاتٍ وَعَذَابٍ وَعُقُوبَاتٍ، لَا صَاحِبَ وَحْيٍ وَتَنْزِيلٍ وَرَحْمَةٍ، فَأَبَوُا اتِّبَاعَكَ، وَجَحَدُوا نُبُوَّتَكَ، وَأَنْكَرُوا مَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ آيَاتِي وَبَيِّنَاتِ حُكْمِي، مِنْ أَجْلِ أَنَّ جِبْرِيلَ وَلِيُّكَ وَصَاحِبُ وَحْيِي إِلَيْكَ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ عَدُوٌّ لَهُمْ –: مَنْ يَكُنْ مِنَ النَّاسِ لِجِبْرِيلَ عَدُوًّا، وَمُنْكِرًا أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ وَحْيِ اللهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ، وَصَاحِبَ رَحْمَتِهِ، فَإِنِّي لَهُ وَلِيٌّ وَخَلِيلٌ، وَمُقِرٌّ بِأَنَّهُ صَاحِبُ وَحْيٍ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ وَحْيُ اللهِ عَلَى قَلْبِي مِنْ عِنْدِ رَبِّي، بِإِذْنِ رَبِّي لَهُ بِذَلِكَ، يَرْبِطُ بِهِ عَلَى قَلْبِي، وَيَشُدُّ فُؤَادِي.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ. فَمَعْنَى الْكَلَامِ: فَإِنَّ جِبْرِيلَ نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَى قَلْبِكَ – يَا مُحَمَّدُ – مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيِ الْقُرْآنِ. يَعْنِي بِذَلِكَ: مُصَدِّقًا لِمَا سَلَفَ مِنْ كُتُبِ اللهِ أَمَامَهُ، وَنَزَلَتْ عَلَى رُسُلِهِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

﴿وَهُدًى[١٢٤]﴾ يَعْنِي: وَدَلِيلٌ وَبُرْهَانٌ. ﴿وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَخْبَرَ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – ، أَنَّ الْقُرْآنَ لَهُمْ بُشْرَى مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ أَعْلَمَهُمْ بِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ فِي جَنَّاتِهِ، وَمَا هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ فِي مَعَادِهِمْ مِنْ ثَوَابِهِ؛ وَذَلِكَ هُوَ الْبُشْرَى الَّتِي بَشَّرَ اللهُ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ فِي كِتَابِهِ.

لِأَنَّ الْبِشَارَةَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ؛ هِيَ: إِعْلَامُ الرَّجُلِ بِمَا لَمْ يَكُنْ بِهِ عَالِمًا مِمَّا يَسُرُّهُ مِنَ الْخَبَرِ، قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِهِ، أَوْ يَعْلَمَهُ مِنْ قِبَلِ غَيْرِهِ.

٩٨– ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾؛ لِأَنَّ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ وَأَهْلُ طَاعَتِهِ، وَمَنْ عَادَى لِلَّهِ وَلِيًّا؛ فَقَدْ عَادَى اللهَ وَبَارَزَهُ بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَنْ عَادَى اللهَ؛ فَقَدْ عَادَى جَمِيعَ أَهْلِ طَاعَتِهِ وَوِلَايَتِهِ؛ لِأَنَّ الْعَدُوَّ لِلَّهِ عَدُوٌّ لِأَوْلِيَائِهِ، وَالْعَدُوَّ لِأَوْلِيَاءِ اللهِ عَدُوٌّ لَهُ.

---

[١٢٤] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَإِنَّمَا سَمَّاهُ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – هُدًى؛ لِاهْتِدَاءِ الْمُؤْمِنِ بِهِ، وَاهْتِدَاؤُهُ بِهِ: اتِّخَاذُهُ إِيَّاهُ هَادِيًا يَتْبَعُهُ، وَقَائِدًا يَنْقَادُ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ.

فَكَذَلِكَ قَالَ لِلْيَهُودِ – الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ جِبْرِيلَ عَدُوُّنَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمِيكَائِيلَ وَلِيُّنَا مِنْهُمْ –: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ مِنْ أَجْلِ أَنَّ عَدُوَّ جِبْرِيلَ عَدُوُّ كُلِّ وَلِيٍّ لِلَّهِ.

فَأَخْبَرَهُمْ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – أَنَّ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ؛ فَهُوَ لِكُلِّ مَنْ ذَكَرَهُ – مِنْ مَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَمِيكَالَ – عَدُوٌّ، وَكَذَلِكَ عَدُوُّ بَعْضِ رُسُلِ اللهِ؛ عَدُوٌّ لِلَّهِ وَلِكُلِّ وَلِيٍّ.

٩٩– ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ[١٢٥]﴾أَيْ: أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ عَلَامَاتٍ وَاضِحَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَى نُبُوَّتِكَ.

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾يَعْنِي: وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فِيمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ عَلَامَاتٍ وَاضِحَاتٍ تُبَيِّنُ لِعُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَحْبَارِهِمُ – الْجَاحِدِينَ نُبُوَّتَكَ وَالْمُكَذِّبِينَ رِسَالَتَكَ – أَنَّكَ لِي رَسُولٌ إِلَيْهِمْ، وَنَبِيٌّ مَبْعُوثٌ، وَمَا يَجْحَدُ تِلْكَ الْآيَاتِ – الدَّالَّاتِ عَلَى صِدْقِكَ وَنُبُوَّتِكَ، الَّتِي أَنْزَلْتُهَا إِلَيْكَ فِي كِتَابِي فَيُكَذِّبَ بِهَا مِنْهُمْ – إِلَّا الْخَارِجُ مِنْهُمْ مِنْ دِينِهِ، التَّارِكُ مِنْهُمْ فَرَائِضِي عَلَيْهِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي تَدِينُ بِتَصْدِيقِهِ.

١٠٠– ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾يَعْنِي: أَوَكُلَّمَا عَاهَدَ الْيَهُودُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ رَبَّهُمْ عَهْدًا وَأَوْثَقُوهُ مِيثَاقًا، ﴿نَبَذَهُ[١٢٦] فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾أَيْ: طَرَحَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، فَتَرَكَهُ وَرَفَضَهُ وَنَقَضَهُ؟!.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾يَعْنِي: بَلْ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ – الَّذِينَ كُلَّمَا عَاهَدُوا اللهَ عَهْدًا وَوَاثَقُوهُ مَوْثِقًا، نَقَضَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ – لَا يُؤْمِنُونَ.

١٠١– ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾يَعْنِي: أَحْبَارَ الْيَهُودِ وَعُلَمَاؤُهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾يَعْنِي بِالرَّسُولِ: مُحَمَّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

---

١٢٥ **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَتِلْكَ الْآيَاتُ: هِيَ مَا حَوَاهُ كِتَابُ اللهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَى مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ خَفَايَا عُلُومِ الْيَهُودِ وَمَكْنُونِ سَرَائِرِ أَخْبَارِهِمْ وَأَخْبَارِ أَوَائِلِهِمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالنَّبَأُ عَمَّا تَضَمَّنَتْهُ كُتُبُهُمُ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهَا إِلَّا أَحْبَارُهُمْ وَعُلَمَاؤُهُمْ، وَمَا حَرَّفَهُ أَوَائِلُهُمْ وَأَوَاخِرُهُمْ وَبَدَّلُوهُ، مِنْ أَحْكَامِهِمُ الَّتِي كَانَتْ فِي التَّوْرَاةِ. فَأَطْلَعَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

فَكَانَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ، الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ لِمَنْ أَنْصَفَ نَفْسَهُ، وَلَمْ يَدْعُهُ إِلَى إِهْلَاكِهَا الْحَسَدُ وَالْبَغْيُ.

إِذْ كَانَ فِي فِطْرَةِ كُلِّ ذِي فِطْرَةٍ صَحِيحَةٍ، تَصْدِيقُ مَنْ أَتَى بِمِثْلِ الَّذِي أَتَى بِهِ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي وَصَفْتُ مِنْ غَيْرِ تَعَلُّمٍ تَعَلَّمَهُ مِنْ بَشَرٍ، وَلَا أَخْذِ شَيْءٍ مِنْهُ عَنْ آدَمِيٍّ.

١٢٦ **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَمَّا النَّبْذُ: فَإِنَّ أَصْلَهُ – فِي كَلَامِ الْعَرَبِ –: الطَّرْحُ، وَلِذَلِكَ قِيلَ لِلْمَلْقُوطِ: الْمَنْبُوذُ؛ لِأَنَّهُ مَطْرُوحٌ مَرْمِيٌّ بِهِ. وَمِنْهُ سُمِّيَ النَّبِيذُ نَبِيذًا؛ لِأَنَّهُ زَبِيبٌ أَوْ تَمْرٌ يُطْرَحُ فِي وِعَاءٍ، ثُمَّ يُعَالَجُ بِالْمَاءِ.

﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾يَعْنِي: أَنَّ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُصَدِّقُ التَّوْرَاةَ وَالتَّوْرَاةُ تُصَدِّقُهُ، فِي أَنَّهُ لِلَّهِ نَبِيٌّ مَبْعُوثٌ إِلَى خَلْقِهِ.

فَأَخْبَرَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – أَنَّ الْيَهُودَ لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ اللهِ بِتَصْدِيقِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ التَّوْرَاةِ، أَنَّ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نَبِيٌّ لِلَّهِ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ[127]﴾يَعْنِي: أَنَّهُمْ جَحَدُوهُ وَرَفَضُوهُ بَعْدَ أَنْ كَانُوا بِهِ مُقِرِّينَ؛ حَسَدًا مِنْهُمْ لَهُ وَبَغْيًا عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وَهُمْ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ الَّذِينَ أَعْطَاهُمُ اللهُ الْعِلْمَ بِالتَّوْرَاةِ وَمَا فِيهَا.

وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿كِتَابَ اللهِ﴾: التَّوْرَاةَ.

وَقَوْلِهِ: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾جَعَلُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ. وَهَذَا مَثَلٌ يُقَالُ لِكُلِّ رَافِضٍ أَمْرًا كَانَ مِنْهُ عَلَى بَالٍ: قَدْ جَعَلَ فُلَانٌ هَذَا الْأَمْرَ مِنْهُ بِظَهْرٍ، وَجَعَلَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، يَعْنِي بِهِ: أَعْرَضَ عَنْهُ، وَصَدَّ وَانْصَرَفَ.

﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾يَعْنِي: كَأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَبَذُوا كِتَابَ اللهِ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ – فَنَقَضُوا عَهْدَ اللهِ بِتَرْكِهِمُ الْعَمَلَ بِمَا وَاثَقُوا اللهَ عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْعَمَلَ بِمَا فِيهِ – لَا يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّوْرَاةِ مِنَ الْأَمْرِ بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَتَصْدِيقِهِ.

وَهَذَا مِنَ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – إِخْبَارٌ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ جَحَدُوا الْحَقَّ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ بِهِ وَمَعْرِفَةٍ، وَأَنَّهُمْ عَانَدُوا أَمْرَ اللهِ فَخَالَفُوا عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ بِوُجُوبِهِ عَلَيْهِمْ.

١٠٢– ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ ذَلِكَ تَوْبِيخٌ مِنَ اللهِ لِأَحْبَارِ الْيَهُودِ الَّذِينَ أَدْرَكُوا رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَجَحَدُوا نُبُوَّتَهُ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لِلَّهِ رَسُولٌ مُرْسَلٌ، وَتَأْنِيبٌ مِنْهُ لَهُمْ فِي رَفْضِهِمْ تَنْزِيلَهُ، وَهَجْرِهِمُ الْعَمَلَ بِهِ، وَهُوَ فِي أَيْدِيهِمْ يَعْلَمُونَهُ وَيَعْرِفُونَ أَنَّهُ كِتَابُ اللهِ ، وَاتِّبَاعِهِمْ وَاتِّبَاعِ أَوَائِلِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ مَا تَلَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي عَهْدِ سُلَيْمَانَ.

---

[127] قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ الْآيَةَ، ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْيَهُودِ نَبَذُوا كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَبَيَّنَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْكِتَابِ هُمُ الْأَكْثَرُ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ يَعْنِي: وَاتَّبَعُوا الَّذِي تَتْلُو الشَّيَاطِينُ ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ يَعْنِي: فِي مُلْكِ سُلَيْمَانَ.

مَعْنَى الْكَلَامِ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ مِنَ السِّحْرِ ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ فَتُضِيفُهُ إِلَى سُلَيْمَانَ ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ فَيَعْمَلُ بِالسِّحْرِ ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ[128]﴾ يَعْنِي: وَاتَّبَعُوا السِّحْرَ الَّذِي تَتْلُو الشَّيَاطِينُ فِي مُلْكِ سُلَيْمَانَ، وَالتَّفْرِيقُ الَّذِي بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ.

فَإِنِ الْتَبَسَ عَلَى ذِي غَبَاءٍ مَا قُلْنَا، فَقَالَ: وَكَيْفَ يَجُوزُ لِمَلَائِكَةِ اللهِ أَنْ تُعَلِّمَ النَّاسَ التَّفْرِيقَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُضَافَ إِلَى اللهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – إِنْزَالُ ذَلِكَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ؟!.[129]

قِيلَ لَهُ: إِنَّ اللهَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – عَرَّفَ عِبَادَهُ جَمِيعَ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ وَجَمِيعَ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ بَعْدَ الْعِلْمِ مِنْهُمْ بِمَا يُؤْمَرُونَ بِهِ وَيُنْهَوْنَ عَنْهُ.

وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ؛ لَمَا كَانَ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مَعْنًى مَفْهُومٌ.

فَالسِّحْرُ مِمَّا قَدْ نَهَى عِبَادَهُ مِنْ بَنِي آدَمَ عَنْهُ، فَغَيْرُ مُنْكَرٍ أَنْ يَكُونَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – عَلَّمَهُ الْمَلَكَيْنِ اللَّذَيْنِ سَمَّاهُمَا فِي تَنْزِيلِهِ، وَجَعَلَهُمَا فِتْنَةً لِعِبَادِهِ مِنْ بَنِي آدَمَ – كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمَا أَنَّهُمَا يَقُولَانِ لِمَنْ يَتَعَلَّمُ ذَلِكَ

---

[128] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَقَدْ رُوِيَ فِي قِصَّةِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِيْنَ؛ كَمُجَاهِدٍ، وَالسُّدِّيِّ، وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَقَتَادَةَ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَالزُّهْرِيِّ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، وَغَيْرِهِمْ، وَقَصَّهَا خَلْقٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ.

وَحَاصِلُهَا رَاجِعٌ فِي تَفْصِيلِهَا إِلَى أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ! إِذْ لَيْسَ فِيهَا حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ صَحِيحٌ مُتَّصِلُ الْإِسْنَادِ إِلَى الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ الْمَعْصُومِ الذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى! وَظَاهِرُ سِيَاقِ الْقُرْآنِ إِجْمَالُ الْقِصَّةِ مِنْ غَيْرِ بَسْطٍ وَلَا إِطْنَابٍ فِيهَا، فَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى مَا أَرَادَهُ اللهُ – تَعَالَى –، وَاللهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ.

[129] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي (لِقَاءِ الْبَابِ الْمَفْتُوحِ):** فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ يَكُونُ مَلَكَانِ يَعْلَمَانِ السِّحْرَ وَيُعَلِّمَانِهِ النَّاسَ، وَتَعَلُّمُ السِّحْرِ حَرَامٌ كَمَا صَرَّحَا بِهِ: ﴿**وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ**﴾؟

فَيُقَالُ: مَنِ الَّذِي يُحَلِّلُ وَيُحَرِّمُ؟ اللهُ، وَاللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – قَدْ يَجْعَلُ الشَّيْءَ الْحَرَامَ حَلَالًا، بَلْ وَاجِبًا! فَاللهُ – تَعَالَى – أَذِنَ لِهَذَيْنِ الْمَلَكَيْنِ أَنْ يُعَلِّمَا النَّاسَ السِّحْر، فَتَعْلِيمُهُمَا السِّحْر بِإِذْنِ اللهِ، فَلَا يَكُونُ مَعْصِيَةً وَلَا كُفْرًا.

أَرَأَيْتُمُ السُّجُودَ لِغَيْرِ اللهِ! أَلَيْسَ شِرْكًا؟ بَلَى! وَمَعَ هَذَا لَمَّا امْتَنَعَ الشَّيْطَانُ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ – حِينَ أَمَرَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ بِهِ – صَارَ الشَّيْطَانُ كَافِرًا، وَصَارَتِ الْمَلَائِكَةُ مُؤْمِنَةً مُسْلِمَةً عِنْدَمَا سَجَدَتْ، مَعْنَاهُ: سَجَدَتْ لِغَيْرِ اللهِ! وَالسُّجُودُ لِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ! فَصَارَ فِي هَذِهِ الْحَالِ طَاعَةٌ وَعِبَادَةٌ.

قَتْلُ الْإِنْسَانِ وَلَدَهُ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ، أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَمَعَ ذَلِكَ صَارَ طَاعَةً يُحْمَدُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهَا حِينَمَا أَمَرَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – أَنْ يَقْتُلَ ابْنَهُ! كَذَلِكَ السِّحْرُ تَعَلُّمُهُ حَرَامٌ؛ لَكِنْ إِذَا كَانَ بِإِذْنِ اللهِ صَارَ حَلَالًا؛ فَلَا إِشْكَالَ فِي الْمَسْأَلَةِ! اهـ. [وانظر – للفائدة –: أحكام القرآن لابن العربي(٣٤/٤) سورة الصافات، آية١٠٢ (المسألة الخامسة)].

مِنْهُمَا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ – لِيَخْتَبِرَ بِهِمَا عِبَادَهُ الَّذِينَ نَهَاهُمْ عَنِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَعَنِ السِّحْرِ، فَيُمَحَّصُ الْمُؤْمِنَ بِتَرْكِهِ التَّعَلُّمَ مِنْهُمَا، وَيُخْزِي الْكَافِرَ بِتَعَلُّمِهِ السِّحْرَ وَالْكُفْرَ مِنْهُمَا، وَيَكُونُ الْمَلَكَانِ فِي تَعْلِيمِهِمَا مَنْ عَلَّمَا ذَلِكَ لِلَّهِ مُطِيعِينَ، إِذْ كَانَا عَنْ إِذْنِ اللهِ لَهُمَا بِتَعْلِيمِ ذَلِكَ مَنْ عَلَّمَاهُ يُعَلِّمَانِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿بِبَابِلَ﴾؛ فَإِنَّهُ اسْمُ قَرْيَةٍ، أَوْ مَوْضِعٌ مِنْ مَوَاضِعِ الْأَرْضِ.[١٣٠]

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾وَتَأْوِيلُ ذَلِكَ: وَمَا يُعَلِّمُ الْمَلَكَانِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِمَا مِنَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، حَتَّى يَقُولَا لَهُ: إِنَّمَا نَحْنُ بَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ لِبَنِي آدَمَ، فَلَا تَكْفُرْ بِرَبِّكَ.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ[١٣١]﴾يَعْنِي: وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا: إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ، فَيَأْبَوْنَ قَبُولَ ذَلِكَ مِنْهُمَا، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ.

وَالْهَاءُ وَالْمِيمُ وَالْأَلِفُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مِنْهُمَا﴾مِنْ ذِكْرِ الْمَلَكَيْنِ.

وَمَعْنَى ذَلِكَ: فَيَتَعَلَّمُ النَّاسُ مِنَ الْمَلَكَيْنِ الَّذِي يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَكَيْفَ يُفَرِّقُ السَّاحِرُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ؟ قِيلَ: تَفْرِيقُهُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ: تَخْيِيلُهُ بِسِحْرِهِ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا شَخْصَ الْآخَرِ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ بِهِ فِي حَقِيقَتِهِ؛ مِنْ حُسْنٍ وَجَمَالٍ، حَتَّى يُقَبِّحَهُ عِنْدَهُ، فَيَنْصَرِفَ بِوَجْهِهِ وَيُعْرِضَ عَنْهُ، حَتَّى يُحْدِثَ الزَّوْجُ لِامْرَأَتِهِ فِرَاقًا.

فَيَكُونُ السَّاحِرُ مُفَرِّقًا بَيْنَهُمَا بِإِحْدَاثِهِ السَّبَبَ الَّذِي كَانَ مِنْهُ فُرْقَةُ مَا بَيْنَهُمَا.

﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾يَعْنِي: وَمَا الْمُتَعَلِّمُونَ مِنَ الْمَلَكَيْنِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، بِضَارِّينَ – بِالَّذِي تَعَلَّمُوهُ مِنْهُمَا، مِنَ الْمَعْنَى الَّذِي يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ – مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، إِلَّا مَنْ قَدْ قَضَى اللهُ عَلَيْهِ أَنَّ ذَلِكَ يَضُرُّهُ.

فَأَمَّا مَنْ دَفَعَ اللهُ عَنْهُ ضُرَّهُ، وَحَفِظَهُ مِنْ مَكْرُوهِ السِّحْرِ وَالنَّفْثِ وَالرُّقَى؛ فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ ضَارِّهِ، وَلَا نَائِلُهُ أَذَاهُ.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾يَعْنِي: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾أَيْ: النَّاسُ الَّذِينَ يَتَعَلَّمُونَ مِنَ الْمَلَكَيْنِ، مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْمَعْنَى الَّذِي يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا السِّحْرَ الَّذِي يَضُرُّهُمْ فِي دِينِهِمْ، وَلَا

---

[١٣٠] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَقَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِيهَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهَا بَابِلُ دُنْبَاوَنْدَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ ذَلِكَ بَابِلُ الْعِرَاقِ.

[١٣١] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ**: وَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ لَهُ[يَعْنِي: السِّحْر]تَأْثِيرًا فِي نَفْسِهِ، وَحَقِيقَةً ثَابِتَةً، وَلَمْ يُخَالِفْ فِي ذَلِكَ إِلَّا الْمُعْتَزِلَةُ، وَأَبُو حَنِيفَةَ(!).

يَنْفَعُهُمْ فِي مَعَادِهِمْ. ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾يَعْنِي: لِمَنِ اشْتَرَى السِّحْرَ بِكِتَابِي الَّذِي أَنْزَلْتُهُ عَلَى رَسُولِي فَآثَرَهُ عَلَيْهِ ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾يَعْنِي: مَا لَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ حَظٌّ مِنَ الْجَنَّةِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِيمَانٌ وَلَا دِينٌ وَلَا عَمَلٌ صَالِحٌ يُجَازَى بِهِ فِي الْجَنَّةِ وَيُثَابُ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ لَهُ حَظٌّ وَنَصِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ.

وَأَمَّا مِنَ الشُّرُورِ؛ فَإِنَّ لَهُمْ فِيهَا نَصِيبًا!!.

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾يَعْنِي: وَلَبِئْسَ مَا بَاعَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ تَعَلُّمِ السِّحْرِ لَوْ كَانَ يَعْلَمُ سُوءَ عَاقِبَتِهِ.

١٠٣- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾يَعْنِي: لَوْ أَنَّ الَّذِينَ يَتَعَلَّمُونَ مِنَ الْمَلَكَيْنِ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴿آمَنُوا﴾، فَصَدَّقُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، ﴿وَاتَّقَوْا﴾ رَبَّهُمْ فَخَافُوهُ فَخَافُوا عِقَابَهُ، فَأَطَاعُوهُ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَتَجَنَّبُوا مَعَاصِيهِ؛ ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ﴾يَعْنِي: لَكَانَ جَزَاءُ اللهِ إِيَّاهُمْ وَثَوَابُهُ لَهُمْ عَلَى إِيمَانِهِمْ بِهِ وَتَقْوَاهُمْ إِيَّاهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنَ السِّحْرِ وَمَا اكْتَسَبُوا بِهِ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ ثَوَابَ اللهِ إِيَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنَ السِّحْرِ وَمِمَّا اكْتَسَبُوا بِهِ.

١٠٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا[١٣٢] وَقُولُوا انْظُرْنَا ﴾يَعْنِي: وَقُولُوا يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لِنَبِيِّكُمْ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: انْتَظِرْنَا وَارْقُبْنَا، نَفْهَمْ وَنَتَبَيَّنْ مَا تَقُولُ لَنَا، وَتُعَلِّمُنَا.

﴿وَاسْمَعُوا﴾يَعْنِي: وَاسْمَعُوا مَا يُقَالُ لَكُمْ وَيُتْلَى عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ رَبِّكُمْ، وَعُوهُ وَافْهَمُوهُ.

فَمَعْنَى الْآيَةِ إِذًا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا لِنَبِيِّكُمْ: رَاعِنَا سَمْعَكَ وَفَرِّغْهُ لَنَا نَفْهَمْكَ وَتَفْهَمْ عَنَّا مَا نَقُولُ. وَلَكِنْ قُولُوا: انْتَظِرْنَا وَتَرَقَّبْنَا حَتَّى نَفْهَمَ عَنْكَ مَا تُعَلِّمُنَا وَتُبَيِّنُهُ لَنَا.

وَاسْمَعُوا مِنْهُ مَا يَقُولُ لَكُمْ، فَعُوهُ وَاحْفَظُوهُ وَافْهَمُوهُ.

---

[١٣٢] قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي إِعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾نَهَاهُمْ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقُولُوا هَذِهِ الْكَلِمَة - مَعَ قَصْدِهِمْ بِهَا الْخَيْر -؛ لِئَلَّا يَكُونَ قَوْلُهُمْ ذَرِيعَةً إِلَى التَّشَبُّهِ بِالْيَهُودِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَخِطَابِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُخَاطِبُونَ بِهَا النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَيَقْصِدُونَ بِهَا السَّبَّ، وَيَقْصِدُونَ فَاعِلًا مِنَ الرُّعُونَةِ، فَنَهَى الْمُسْلِمُونَ عَنْ قَوْلِهَا؛ سَدًّا لِذَرِيعَةِ الْمُشَابَهَةِ؛ وَلِئَلَّا يَكُونَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً إِلَى أَنَّ يَقُولَهَا الْيَهُود لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَشَبُّهًا بِالْمُسْلِمِينَ، يَقْصِدُونَ بِهَا غير مَا يَقْصِدهُ الْمُسْلِمُونَ!.

ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّ لِمَنْ جحَدَ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ آيَاتِهِ، وَخَالَفَ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَكَذَّبَ رَسُولَهُ؛ الْعَذَابَ الْمُوجِعَ فِي الْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ بِي وَبِرَسُولِي ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يَعْنِي بِقَوْلِهِ الْـ(أَلِيمُ): الْمُوجِعُ.

١٠٥- ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ[١٣٣]﴾ يَعْنِي: مَا يُحِبُّ الْكَافِرُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ، أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي كَانَ عِنْدَ اللهِ فَنَزَّلَهُ عَلَيْكُمْ.

فَتَمَنَّى الْمُشْرِكُونَ وَكَفَرَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ لَا يُنَزِّلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْفُرْقَانَ وَمَا أَوْحَاهُ إِلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ حِكَمِهِ وَآيَاتِهِ، وَإِنَّمَا أَحَبَّتِ الْيَهُودُ وَأَتْبَاعُهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ذَلِكَ؛ حَسَدًا وَبَغْيًا مِنْهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. ﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يَعْنِي: وَاللهُ يَخْتَصُّ مَنْ يَشَاءُ بِنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ، فَيُرْسِلُهُ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، فَيَتَفَضَّلُ بِالْإِيمَانِ عَلَى مَنْ أَحَبَّ فَيَهْدِيهِ لَهُ.

﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فَإِنَّهُ خَبَرٌ مِنَ اللهِ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - عَنْ أَنَّ كُلَّ خَيْرٍ نَالَهُ عِبَادُهُ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؛ فَإِنَّهُ مِنْ عِنْدِهِ ابْتِدَاءً وَتَفَضُّلًا مِنْهُ عَلَيْهِمْ، مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ مِنْهُمْ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾؛ تَعْرِيضٌ مِنَ اللهِ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - بِأَهْلِ الْكِتَابِ: أَنَّ الَّذِيَ آتَى نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ مِنَ الْهِدَايَةِ، تَفَضُّلٌ مِنْهُ، وَأَنَّ نِعَمَهُ لَا تُدْرَكُ بِالْأَمَانِيِّ! وَلَكِنَّهَا مَوَاهِبُ مِنْهُ يَخْتَصُّ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ.

١٠٦- ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ يَعْنِي: إِلَى غَيْرِهِ، فَنُبَدِّلُهُ وَنُغَيِّرُهُ.

وَذَلِكَ أَنْ يُحَوِّلَ الْحَلَالَ حَرَامًا، وَالْحَرَامَ حَلَالًا، وَالْمُبَاحَ مَحْظُورًا، وَالْمَحْظُورَ مُبَاحًا.

وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْحَظْرِ وَالْإِطْلَاقِ، وَالْمَنْعِ وَالْإِبَاحَةِ.

فَأَمَّا الْأَخْبَارُ؛ فَلَا يَكُونُ فِيهَا نَاسِخٌ وَلَا مَنْسُوخٌ.

---

[١٣٣] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ بَيِّنَةٌ عَلَى أَنَّ اللهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - نَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الرُّكُونِ إِلَى أَعْدَائِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَالِاسْتِمَاعِ مِنْ قَوْلِهِمْ، وَقَبُولِ شَيْءٍ مِمَّا يَأْتُونَهُمْ بِهِ عَلَى وَجْهِ النَّصِيحَةِ لَهُمْ مِنْهُمْ؛ بِإِطْلَاعِهِ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - إِيَّاهُمْ عَلَى مَا يَسْتَبْطِنُهُ لَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكُونَ مِنَ الضَّغَنِ وَالْحَسَدِ، وَإِنْ أَظْهَرُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ خِلَافَ مَا هُمْ مُسْتَبْطِنُونَ!.

﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ يَعْنِي: نَتْرُكُهَا.

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ يَعْنِي: مَا نُبَدِّلُ مِنْ حُكْمِ آيَةٍ فَنُغَيِّرُهُ، أَوْ نَتْرُكُ تَبْدِيلَهُ فَنُقِرُّهُ بِحَالِهِ؛ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا لَكُمْ - مِنْ حُكْمِ الْآيَةِ الَّتِي نَسَخْنَا فَغَيَّرْنَا حُكْمَهَا - إِمَّا فِي الْعَاجِلِ لِخِفَّتِهِ عَلَيْكُمْ، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ وَضْعُ فَرْضٍ كَانَ عَلَيْكُمْ، فَأُسْقِطَ ثِقَلُهُ عَنْكُمْ، وَذَلِكَ كَالَّذِي كَانَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ فَرْضِ قِيَامِ اللَّيْلِ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ فَوُضِعَ عَنْهُمْ، فَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ فِي عَاجِلِهِمْ لِسُقُوطِ عِبْءِ ذَلِكَ وَثِقَلِ حِمْلِهِ عَنْهُمْ؛ وَإِمَّا فِي الْآجِلِ لِعِظَمِ ثَوَابِهِ، مِنْ أَجْلِ مَشَقَّةِ حَمْلِهِ وَثِقَلِ عِبْئِهِ عَلَى الْأَبْدَانِ.

كَالَّذِي كَانَ عَلَيْهِمْ مِنْ صِيَامِ أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فِي السَّنَةِ، فَنُسِخَ وَفُرِضَ عَلَيْهِمْ مَكَانَهُ صَوْمُ شَهْرٍ كَامِلٍ فِي كُلِّ حَوْلٍ، فَكَانَ فَرْضُ صَوْمِ شَهْرٍ كَامِلٍ كُلَّ سَنَةٍ أَثْقَلُ عَلَى الْأَبْدَانِ مِنْ صِيَامِ أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ.

غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ، فَالثَّوَابُ عَلَيْهِ أَجْزَلُ، وَالْأَجْرُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ؛ لِفَضْلِ مَشَقَّتِهِ عَلَى مُكَلَّفِيهِ مِنْ صَوْمِ أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ، فَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ عَلَى الْأَبْدَانِ أَشَقُّ، فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْأَوَّلِ فِي الْآجِلِ لِفَضْلِ ثَوَابِهِ وَعِظَمِ أَجْرِهِ، الَّذِي لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ لِصَوْمِ الْأَيَّامِ الْمَعْدُودَاتِ.

فَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾؛ لِأَنَّهُ إِمَّا بِخَيْرٍ مِنْهَا فِي الْعَاجِلِ لِخِفَّتِهِ عَلَى مَنْ كَلَّفَهُ، أَوْ فِي الْآجِلِ لِعِظَمِ ثَوَابِهِ وَكَثْرَةِ أَجْرِهِ.

أَوْ يَكُونُ مِثْلَهَا فِي الْمَشَقَّةِ عَلَى الْبَدَنِ وَاسْتِوَاءِ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ عَلَيْهِ، نَظِير نَسْخِ اللهِ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - فَرْضَ الصَّلَاةِ شَطْرَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، إِلَى فَرْضِهَا شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

فَالتَّوَجُّهُ شَطْرَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَإِنْ خَالَفَ التَّوَجُّهَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ، فَكُلْفَةُ التَّوَجُّهِ - شَطْرَ أَيِّهِمَا تَوَجَّهَ شَطْرَهُ - وَاحِدَةٌ؛ لِأَنَّ الَّذِي عَلَى الْمُتَوَجِّهِ شَطْرَ الْبَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ مُؤْنَةِ تَوَجُّهِهِ شَطْرَهُ، نَظِيرُ الَّذِي عَلَى بَدَنِهِ مُؤْنَةُ تَوَجُّهِهِ شَطْرَ الْكَعْبَةِ سَوَاءٌ. فَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى الْمِثْلِ الَّذِي قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾.

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ إِذًا: مَا نُغَيِّرُ مِنْ حُكْمِ آيَةٍ فَنُبَدِّلُهُ، أَوْ نَتْرُكُهُ فَلَا نُبَدِّلُهُ؛ نَأْتِ بِخَيْرٍ لَكُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - حُكْمًا مِنْهَا، أَوْ مِثْلِ حُكْمِهَا فِي الْخِفَّةِ وَالثِّقَلِ وَالْأَجْرِ وَالثَّوَابِ.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يَعْنِي: أَلَمْ تَعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ أَنِّي قَادِرٌ عَلَى تَعْوِيضِكَ مِمَّا نَسَخْتُ مِنْ أَحْكَامِي، وَغَيَّرْتُهُ مِنْ فَرَائِضِي الَّتِي كُنْتُ افْتَرَضْتُهَا عَلَيْكَ، مَا أَشَاءُ مِمَّا هُوَ خَيْرٌ لَكَ وَلِعِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَعَكَ، وَأَنْفَعُ لَكَ وَلَهُمْ، إِمَّا عَاجِلًا فِي الدُّنْيَا، وَإِمَّا آجِلًا فِي الْآخِرَةِ.

أَوْ بِأَنْ أُبَدِّلَ لَكَ وَلَهُمْ مَكَانَهُ مِثْلَهُ فِي النَّفْعِ لَهُمْ – عَاجِلًا فِي الدُّنْيَا وَآجِلًا فِي الْآخِرَةِ – وَشَبِيهُهُ فِي الْخِفَّةِ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ؟ فَاعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ أَنِّي عَلَى ذَلِكَ وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

١٠٧– ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يَعْنِي: أَلَمْ تَعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ لِيَ مُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسُلْطَانَهُمَا دُونَ غَيْرِي، أَحْكُمُ فِيهِمَا وَفِيمَا فِيهِمَا مَا أَشَاءُ، وَآمُرُ فِيهِمَا وَفِيمَا فِيهِمَا بِمَا أَشَاءُ، وَأَنْهَى عَمَّا أَشَاءُ، وَأَنْسَخُ وَأُبَدِّلُ وَأُغَيِّرُ مِنْ أَحْكَامِي الَّتِي أَحْكُمُ بِهَا فِي عِبَادِي مَا أَشَاءُ إِذَا أَشَاءُ، وَأُقِرُّ مِنْهَا مَا أَشَاءُ؟

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ يَعْنِي: وَلَيْسَ لَكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – بَعْدَ اللهِ مِنْ قَيِّمٍ بِأَمْرِكُمْ، وَلَا نُصَيْرٍ فَيُؤَيِّدُكُمْ وَيُقَوِّيكُمْ، فَيُعِينُكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ.

١٠٨– ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ[١٣٤]﴾ يَعْنِي: أَتُرِيدُونَ – أَيُّهَا الْقَوْمُ – أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ مِنَ الْأَشْيَاءِ نَظِيرَ مَا سَأَلَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ قِبَلِكُمْ، فَتَكْفُرُوا – إِنْ مُنِعْتُمُوهُ – فِي مَسْأَلَتِكُمْ مَا لَا يَجُوزُ فِي حِكْمَةِ اللهِ إِعْطَاؤُكُمُوهُ، أَوْ أَنْ تَهْلِكُوا إِنْ كَانَ مِمَّا يَجُوزُ فِي حِكْمَتِهِ عَطَاؤُكُمُوهُ، فَأَعْطَاكُمُوهُ، ثُمَّ كَفَرْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي سَأَلَتْ أَنْبِيَاءَهَا مَا لَمْ يَكُنْ لَهَا مَسْأَلَتُهَا إِيَّاهُمْ، فَلَمَّا أُعْطِيَتْ كَفَرَتْ، فَعُوجِلَتْ بِالْعُقُوبَاتِ لِكُفْرِهَا، بَعْدَ إِعْطَاءِ اللهِ إِيَّاهَا سُؤْلَهَا.

---

[١٣٤] قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا هَذَا الَّذِي سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ مَا هُوَ؟ وَلَكِنَّهُ بَيَّنَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾.

﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ﴾ يَعْنِي: وَمَنْ يَسْتَبْدِلِ الْكُفْرَ؛ وَيَعْنِي بِالْكُفْرِ: الْجُحُودَ بِاللهِ وَبِآيَاتِهِ ﴿بِالْإِيمَانِ﴾ يَعْنِي: بِالتَّصْدِيقِ بِاللهِ وَبِآيَاتِهِ وَالْإِقْرَارِ بِهِ؛ ﴿فَقَدْ ضَلَّ[١٣٥]﴾ يَعْنِي: ذَهَبَ وَحَادَ.

وَأَمَّا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي بِالسَّوَاءِ: الْقَصْدُ وَالْمَنْهَجُ. وَأَصْلُ السَّوَاءِ: الْوَسَطُ.

فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ إِذًا: وَمَنْ يَسْتَبْدِلِ بِالْإِيمَانَ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ الْكُفْرَ، فَيَرْتَدُّ عَنْ دِينِهِ؛ فَقَدْ حَادَ عَنْ مَنْهَجِ الطَّرِيقِ وَوَسَطِهِ الْوَاضِحِ الْمَسْبُولِ.

وَهَذِهِ السَّبِيلُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَهَا؛ هِيَ: الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، الَّذِي أَمَرَنَا بِمَسْأَلَتِهِ الْهِدَايَةِ لَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

١٠٩- ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ يَعْنِي: أَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَوَدُّونَ لِلْمُؤْمِنِينَ مَا أَخْبَرَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَودُّونَهُ لَهُمْ، مِنَ الرِّدَّةِ عَنْ إِيمَانِهِمْ إِلَى الْكُفْرِ، حَسَدًا مِنْهُمْ وَبَغْيًا عَلَيْهِمْ.

يَعْنِي: حَسَدَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ عَلَى مَا أَعْطَاكُمُ اللهُ مِنَ التَّوْفِيقِ، وَوَهَبَ لَكُمْ مِنَ الرَّشَادِ لِدِينِهِ وَالْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ، وَخَصَّكُمْ بِهِ مِنْ أَنْ جَعَلَ رَسُولَهُ إِلَيْكُمْ رَجُلًا مِنْكُمْ رَءُوفًا بِكُمْ رَحِيمًا، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِنْهُمْ، فَتَكُونُوا لَهُمْ تَبَعًا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ يَعْنِي: مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ.

وَإِنَّمَا أَخْبَرَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – عَنْهُمُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ وَدُّوا ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ، مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ؛ إِعْلَامًا مِنْهُ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِذَلِكَ فِي كِتَابِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَأْتُونَ مَا يَأْتُونَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ بِنَهْيِ اللهِ إِيَّاهُمْ عَنْهُ.

[١٣٥] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَأَصْلُ الضَّلَالِ عَنِ الشَّيْءِ: الذَّهَابُ عَنْهُ وَالْحَيْدُ. ثُمَّ يُسْتَعْمَلُ فِي الشَّيْءِ الْهَالِكِ، وَالشَّيْءِ الَّذِي لَا يُؤْبَهُ لَهُ.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾أَيْ: مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لِهَؤُلَاءِ الْكَثِيرَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ – الَّذِينَ يَوَدُّونَ أَنَّهُمْ يَرُدُّونَكُمْ كُفَّارًا مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ – الْحَقُّ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ، وَالْمِلَّةِ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا فَأَضَاءَ لَهُمْ: أَنَّ ذَلِكَ الْحَقَّ الَّذِي لَا يَمْتَرُونَ فِيهِ.

فَدَلَّ بِقَوْلِهِ ذَلِكَ: أَنَّ كُفْرَ الَّذِينَ قَصَّ قِصَّتَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، عِنَادٌ، وَعَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ وَمَعْرِفَةٍ بِأَنَّهُمْ عَلَى اللهِ مُفْتَرُونَ.

﴿فَاعْفُوا[136]﴾يَعْنِي: فَتَجَاوَزُوا عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ إِسَاءَةٍ وَخَطَأٍ فِي رَأْيٍ أَشَارُوا بِهِ عَلَيْكُمْ فِي دِينِكُمْ، إِرَادَةَ صَدِّكُمْ عَنْهُ، وَمُحَاوَلَةَ ارْتِدَادِكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ، وَعَمَّا سَلَفَ مِنْهُمْ مِنْ قِيلِهِمْ لِنَبِيِّكُمْ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾.

﴿وَاصْفَحُوا﴾ عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ جَهْلٍ فِي ذَلِكَ ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ[137]﴾، فَيُحْدِثُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِهِ فِيكُمْ مَا يَشَاءُ، وَيَقْضِي فِيهِمْ مَا يُرِيدُ.

---

[136] **الْعَفْوُ**: تَرْكُ الْمُؤَاخَذَةِ بِالذَّنْبِ. **وَالصَّفْحُ**: إِزَالَةُ أَثَرِهِ مِنَ النَّفْسِ؛ وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الْعَفْوِ.

[137] عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ:... وَكَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَهْلِ الكِتَابِ، كَمَا أَمَرَهُمُ اللهُ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى، قَالَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿**وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا**﴾ الآيَةَ، وَقَالَ اللهُ: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ**﴾إِلَى آخِرِ الآيَةِ، وَكَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَتَأَوَّلُ العَفْوَ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ، حَتَّى أَذِنَ اللهُ فِيهِمْ. [صحيح: رواه البخاري، وغيره].

قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ**﴾ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ مِنَ السِّيَاقِ، وَالْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ ﴿**بِأَمْرِهِ**﴾: قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: هُوَ وَاحِدُ الْأَوَامِرِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ وَاحِدُ الْأُمُورِ، فَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ: بِأَنَّهُ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ النَّهْيِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ الْمَذْكُورَ هُوَ الْمُصَرَّحُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾.

وَعَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُ وَاحِدُ الْأُمُورِ: فَهُوَ مَا صَرَّحَ اللهُ بِهِ فِي الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى مَا أَوْقَعَ بِالْيَهُودِ مِنَ الْقَتْلِ وَالتَّشْرِيدِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿**فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ**﴾ الْآيَةَ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، **وَالْآيَةُ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ عَلَى التَّحْقِيقِ** اهـ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي الصَّارِمِ الْمَسْلُولِ: فَمَنْ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَرْضٍ هُوَ فِيهَا مُسْتَضْعَف، أَوْ فِي وَقْتٍ هُوَ فِيهِ مُسْتَضْعَف؛ فَلْيَعْمَلْ بِآيَةِ الصَّبْرِ وَالصَّفْحِ عَمَّنْ يُؤْذِي اللهَ وَرَسُولَهُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُشْرِكِينَ، وَأَمَّا أَهْلُ الْقُوَّةِ فَإِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِآيَةِ قِتَالِ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ الَّذِينَ يَطْعَنُونَ فِي الدِّينِ، وَبِآيَةِ قِتَالِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ.

فَقَضَى فِيهِمْ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –، وَأَتَى بِأَمْرِهِ، فَقَالَ لِنَبِيِّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

فَنَسَخَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – الْعَفْوَ عَنْهُمْ وَالصَّفْحَ، بِفَرْضِ قِتَالِهِمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، حَتَّى تَصِيرَ كَلِمَتُهُمْ وَكَلِمَةَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةً، أَوْ يُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ صَغَارًا.

﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾يَعْنِي: إِنَّ اللهَ – عَلَى كُلِّ مَا يَشَاءُ بِالَّذِينَ وَصَفْتُ لَكُمْ أَمْرَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ – قَدِيرٌ: إِنْ شَاءَ انْتَقَمَ مِنْهُمْ بِعِنَادِهِمْ رَبَّهُمْ، وَإِنْ شَاءَ هَدَاهُمْ لِمَا هَدَاكُمُ اللهُ لَهُ مِنَ الْإِيمَانِ، لَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَرَادَهُ، وَلَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ أَمْرٌ شَاءَ قَضَاءَهُ؛ لِأَنَّ لَهُ الْخَلْق وَالْأَمْر.

١١٠– ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾مَعْنَى إِقَامَةِ الصَّلَاةِ: أَدَاؤُهَا بِحُدُودِهَا وَفُرُوضِهَا.

مَعْنَى إِيتَاءِ الزَّكَاةِ: إِعْطَاؤُهَا بِطِيبِ نَفْسٍ عَلَى مَا فُرِضَتْ وَوَجَبَتْ.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾يَعْنِي: وَمَهْمَا تَعْمَلُوا مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فِي أَيَّامِ حَيَاتِكُمْ، فَتُقَدِّمُوهُ قَبْلَ وَفَاتِكُمْ ذُخْرًا لِأَنْفُسِكُمْ فِي مَعَادِكُمْ، تَجِدُوا ثَوَابَهُ عِنْدَ رَبِّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. وَالْخَيْرُ: هُوَ الْعَمَلُ الَّذِي يَرْضَاهُ اللهُ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿تَجِدُوهُ﴾، وَالْمَعْنَى: تَجِدُوا ثَوَابَهُ.

﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وَهَذَا خَبَرٌ مِنَ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – لِلَّذِينَ خَاطَبَهُمْ بِهَذِهِ الْآيَاتِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّهُمْ مَهْمَا فَعَلُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، سِرًّا وَعَلَانِيَةً؛ فَهُوَ بِهِ بَصِيرٌ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ، فَيَجْزِيهِمْ بِالْإِحْسَانِ خَيْرًا، وَبِالْإِسَاءَةِ مِثْلَهَا.

١١١– ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾أَيْ: قَالَتِ الْيَهُودُ: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَهُودِيًّا، وَقَالَتِ النَّصَارَى: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾؛ فَإِنَّهُ خَبَرٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عَنْ قَوْلِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، أَنَّهُ أَمَانِيُّ مِنْهُمْ يَتَمَنَّوْنَهَا عَلَى اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَلَا حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ، وَلَا يَقِينِ عُلِمَ بِصِحَّةِ مَا يَدْعُونَ، وَلَكِنْ بِادِّعَاءِ الْأَبَاطِيلِ وَأَمَانِي النُّفُوسِ الْكَاذِبَةِ!.

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يَقُولُ اللهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: يَا مُحَمَّدُ، قُلْ لِلزَّاعِمِينَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْبَشَرِ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ، عَلَى مَا تَزْعُمُونَ مِنْ ذَلِكَ، فَنُسَلِّمُ لَكُمْ دَعْوَاكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فِي دَعْوَاكُمْ – مِنْ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى – مُحِقِّينَ.

وَالْبُرْهَانُ: هُوَ الْبَيَانُ وَالْحُجَّةُ وَالْبَيِّنَةُ.

وَأَمَّا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾؛ فَإِنَّهُ: أَحْضِرُوا وَأْتُوا بِهِ.

١١٢– ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ لَيْسَ كَمَا قَالَ الزَّاعِمُونَ: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وَلَكِنْ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ؛ فَهُوَ الَّذِي يَدْخُلُهَا وَيَنْعَمُ فِيهَا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي بِإِسْلَامِ الْوَجْهِ: التَّذَلُّل لِطَاعَتِهِ، وَالْإِذْعَان لِأَمْرِهِ.[١٣٨]

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ[١٣٩]﴾ يَعْنِي بِهِ: فِي حَالِ إِحْسَانِهِ.

---

[١٣٨] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَصْلُ الْإِسْلَامِ: الِاسْتِسْلَامُ؛ لِأَنَّهُ مِنِ (اسْتَسْلَمْتُ لِأَمْرِهِ)، وَهُوَ الْخُضُوعُ لِأَمْرِهِ. وَإِنَّمَا سُمِّيَ (الْمُسْلِمُ) مُسْلِمًا؛ بِخُضُوعِ جَوَارِحِهِ لِطَاعَةِ رَبِّهِ.

وَخَصَّ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – بِالْخَبَرِ عَمَّنْ أَخْبَرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿**بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ**﴾ بِإِسْلَامِ وَجْهِهِ لَهُ دُونَ سَائِرِ جَوَارِحِهِ؛ لِأَنَّ أَكْرَمَ أَعْضَاءِ ابْنِ آدَمَ وَجَوَارِحِهِ: وَجْهُهُ، وَهُوَ أَعْظَمُهَا عَلَيْهِ حُرْمَةً وَحَقًّا، فَإِذَا خَضَعَ لِشَيْءٍ وَجْهُهُ – الَّذِي هُوَ أَكْرَمُ أَجْزَاءِ جَسَدِهِ عَلَيْهِ –؛ فَغَيْرُهُ مِنْ أَجْزَاءِ جَسَدِهِ أَحْرَى أَنْ يَكُونَ أَخْضَعَ لَهُ. وَلِذَلِكَ تَذْكُرُ الْعَرَبُ فِي مَنْطِقِهَا الْخَبَرَ عَنِ الشَّيْءِ، فَتُضِيفُهُ إِلَى (وَجْهِهِ) وَهِيَ تَعْنِي بِذَلِكَ نَفْسَ الشَّيْءِ وَعَيْنَهُ.

[١٣٩] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ**: ﴿**وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾ أَيْ: مُتَّبِعٌ فِيهِ الرَّسُولَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

فَإِنَّ لِلْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ شَرْطَيْنِ، أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ – وَحْدَهُ –، وَالْآخَرُ: أَنْ يَكُونَ صَوَابًا مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ، فَمَتَى كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا؛ لَمْ يُتَقَبَّلْ؛ وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا؛ فَهُوَ رَدٌّ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ، عَنْهُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ...

وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْعَمَلُ مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ، وَلَكِنْ لَمْ يُخْلِصْ عَامِلُهُ الْقَصْدَ لِلَّهِ؛ فَهُوَ – أَيْضًا – مَرْدُودٌ عَلَى فَاعِلِهِ؛ وَهَذَا حَالُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُرَائِينَ!.

وَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: بَلَى مَنْ أَخْلَصَ طَاعَتَهُ لِلَّهِ وَعِبَادَتَهُ لَهُ، مُحْسِنًا فِي فِعْلِهِ ذَلِكَ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ يَعْنِي: فَلِلْمُسْلِمِ وَجْهَهُ لِلَّهِ مُحْسِنًا، جَزَاؤُهُ وَثَوَابُهُ عَلَى إِسْلَامِهِ وَطَاعَتِهِ رَبَّهُ، عِنْدَ اللهِ فِي مَعَادِهِ.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾يَعْنِي: عَلَى الْمُسْلِمِينَ وجُوهَهُمْ لِلَّهِ وَهُمْ مُحْسِنُونَ، الْمُخْلَصِينَ لَهُ الدِّينَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ عِقَابِهِ وَعَذَابِ جَحِيمِهِ، وَمَا قَدِمُوا عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾يَعْنِي: وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا خَلَّفُوا وَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَا أَنْ يُمْنَعُوا مَا قَدِمُوا عَلَيْهِ مِنْ نَعِيمِ مَا أَعَدَّ اللهُ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ.

١١٣- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ يَعْنِي: قَالَتِ الْيَهُودُ: لَيْسَتِ النَّصَارَى فِي دِينِهَا عَلَى صَوَابٍ! وَقَالَتِ النَّصَارَى: لَيْسَتِ الْيَهُودُ فِي دِينِهَا عَلَى صَوَابٍ!.

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ[١٤٠]﴾يَعْنِي: كِتَابَ اللهِ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَهُمَا شَاهِدَانِ عَلَى فَرِيقَيِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِالْكُفْرِ، وَخِلَافِهِمْ أَمْرَ اللهِ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِهِ فِيهِ.

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾يَعْنِي: مَا قَالَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بَعْضُهَا لِبَعْضٍ مِمَّا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونُوا هُمُ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونُوا أُمَّةً كَانَتْ قَبْلَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

وَهَذِهِ الْآيَةُ تُنْبِئُ عَنْ أَنَّ مَنْ أَتَى شَيْئًا مِنْ مَعَاصِي اللهِ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِنَهْيِ اللهِ عَنْهَا؛ فَمُصِيبَتُهُ فِي دِينِهِ أَعْظَمُ مِنْ مُصِيبَةِ مَنْ أَتَى ذَلِكَ جَاهِلًا بِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عَظَّمَ تَوْبِيخَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِمَا وَبَّخَهُمْ بِهِ،...مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ قَالُوا مَا قَالُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ مُبْطِلُونَ.

---

[١٤٠] قَالَ أَبُو حَيَّانَ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ﴾: جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، أَيْ: وَهُمْ عَالِمُونَ بِمَا فِي كُتُبِهِمْ، تَالُونَ لَهُ.

وَهَذَا نَعْيٌ عَلَيْهِمْ فِي مَقَالَتِهِمْ تِلْكَ، إِذِ الْكِتَابُ نَاطِقٌ بِخِلَافِ مَا يَقُولُونَهُ، شَاهِدَةٌ تَوْرَاتُهُمْ بِبِشَارَةِ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ – عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – ، وَصِحَّةُ نُبُوَّتِهِمَا. وَإِنْجِيلُهُمْ شَاهِدٌ بِصِحَّةِ نُبُوَّةِ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ –، إِذْ كُتُبُ اللهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

وَفِي هَذَا تَنْبِيهٌ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي أَنَّ مَنْ كَانَ عَالِمًا بِالْقُرْآنِ، يَكُونُ وَاقِفًا عِنْدَهُ، عَامِلًا بِمَا فِيهِ، قَائِلًا بِمَا تَضَمَّنَهُ؛ لَا أَنْ يُخَالِفَ قَوْلَهُ مَا هُوَ شَاهِدٌ عَلَى مُخَالَفَتِهِ مِنْهُ، فَيَكُونَ فِي ذَلِكَ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى!!.

﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾يَعْنِي: فَاللهُ يَقْضِي فَيَفْصِلُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْمُخْتَلِفِينَ الْقَائِلُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ يَوْمَ قِيَامِ الْخَلْقِ لِرَبِّهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ، فَيَتَبَيَّنَ الْمُحِقُّ مِنْهُمْ مِنَ الْمُبْطِلِ، بِإِثَابَةِ الْمُحِقِّ مَا وَعَدَ أَهْلَ طَاعَتِهِ عَلَى أَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ، وَمُجَازَاتِهِ الْمُبْطِلَ مِنْهُمْ بِمَا أَوْعَدَ أَهْلَ الْكُفْرِ بِهِ عَلَى كُفْرِهِمْ بِهِ ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِنْ أَدْيَانِهِمْ وَمِلَلِهِمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا.

١١٤- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ[١٤١]﴾يَعْنِي: وَأَيُّ امْرِئٍ أَشَدُّ تَعَدِّيًا وَجَرَاءَةً عَلَى اللهِ وَخِلَافًا لِأَمْرِهِ، مِنِ امْرِئٍ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُعْبَدَ اللهُ فِيهَا؟!.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾فَإِنَّ فِيهِ وَجْهَيْنِ مِنَ التَّأْوِيلِ، أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ مِنْ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ.

وَالْوَجْهُ الْآخَرُ: أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ أَنْ يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ فِي مَسَاجِدِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾فَإِنَّ مَعْنَاهُ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَمِمَّنْ سَعَى فِي خَرَابِ مَسَاجِدِ اللهِ.

﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾وَهَذَا خَبَرٌ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – عَمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ، أَنَّهُ قَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ دُخُولَ الْمَسَاجِدِ الَّتِي سَعَوْا فِي تَخْرِيبِهَا، وَمَنَعُوا عِبَادَ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – فِيهَا، مَا دَامُوا عَلَى مُنَاصَبَةِ الْحَرْبِ، إِلَّا عَلَى خَوْفٍ وَوَجَلٍ مِنَ الْعُقُوبَةِ عَلَى دُخُولِهِمُوهَا.

---

[١٤١] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَالْمَسَاجِدُ جَمْعُ مَسْجِدٍ: وَهُوَ كُلُّ مَوْضِعٍ عُبِدَ اللهُ فِيهِ. فَمَعْنَى الْمَسْجِدِ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يُسْجَدُ لِلَّهِ فِيهِ، كَمَا يُقَالُ لِلْمَوْضِعِ الَّذِي يُجْلَسُ فِيهِ: الْمَجْلِسُ، وَلِلْمَوْضِعِ الَّذِي يُنْزَلُ فِيهِ: مَنْزِلٌ، ثُمَّ يُجْمَعُ مَنَازِلُ وَمَجَالِسُ، نَظِيرُ مَسْجِدٍ وَمَسَاجِدَ.

قَالَ الْقَاضِي ابْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿**مَسَاجِدَ اللهِ**﴾ يَقْتَضِي أَنَّهَا لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً، الَّذِينَ يُعَظِّمُونَ اللهَ – تَعَالَى –، وَذَلِكَ حُكْمُهَا بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ؛ عَلَى أَنَّ الْبُقْعَةَ إِذَا عُيِّنَتْ لِلصَّلَاةِ خَرَجَتْ عَنْ جُمْلَةِ الْأَمْلَاكِ الْمُخْتَصَّةِ بِرَبِّهَا، فَصَارَتْ عَامَّةً لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ بِمَنْفَعَتِهَا وَمَسْجِدِيَّتِهَا، فَلَوْ بَنَى الرَّجُلُ فِي دَارِهِ مَسْجِدًا وَحَجَزَهُ عَنِ النَّاسِ، وَاخْتَصَّ بِهِ لِنَفْسِهِ؛ لَبَقِيَ عَلَى مِلْكِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى حَدِّ الْمَسْجِدِيَّةِ، وَلَوْ أَبَاحَهُ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ؛ لَكَانَ حُكْمُهُ حُكْمَ سَائِرِ الْمَسَاجِدِ الْعَامَّةِ، وَخَرَجَ عَنِ اخْتِصَاصِ الْأَمْلَاكِ.

قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ**﴾: هَذَا الِاسْتِفْهَامُ فِيهِ أَبْلَغُ دَلَالَةٍ عَلَى أَنَّ هَذَا الظُّلْمَ مُتَنَاهٍ، وَأَنَّهُ بِمَنْزِلَةٍ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَلْحَقَهُ سَائِرُ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ، أَيْ: لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ.

﴿لَهُمْ﴾يَعْنِي: الَّذِينَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ يَعْنِي بِالْخِزْيِ: الْعَارَ وَالشَّرَّ وَالذِّلَّةَ، إِمَّا الْقَتْلُ وَالسِّبَاءُ، وَإِمَّا الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ بِأَدَاءِ الْجِزْيَةِ.

وَتَأْوِيلُ الْآيَةِ: لَهُمْ فِي الدُّنْيَا الذِّلَّةُ وَالْهَوَانُ وَالْقَتْلُ وَالسَّبْيُ، عَلَى مَنْعِهِمْ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَسَعْيُهُمْ فِي خَرَابِهَا. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾يَعْنِي: وَلَهُمْ – عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ وَسَعْيِهِمْ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا – عَذَابُ جَهَنَّمَ؛ وَهُوَ الْعَذَابُ الْعَظِيمُ!.

١١٥- ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾يَعْنِي: لِلَّهِ مُلْكُهُمَا وَتَدْبِيرُهُمَا﴿فَأَيْنَمَا﴾يَعْنِي: حَيْثُمَا ﴿تُوَلُّوا﴾ يَعْنِي: تُوَلُّونَ نَحْوَهُ وَإِلَيْهِ؛ ﴿فَثَمَّ﴾يَعْنِي: هُنَالِكَ ﴿وَجْهُ اللهِ[١٤٢]﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: تَأْوِيلُ ذَلِكَ: فَثَمَّ قِبْلَةُ اللهِ، يَعْنِي بِذَلِكَ: وَجْهَهُ الَّذِي وَجَّهَهُمْ إِلَيْهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: فَثَمَّ اللهُ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى –.

وَقَالَ آخَرُونَ: فَثَمَّ تُدْرِكُونَ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ رِضا اللهِ الَّذِي لَهُ الْوَجْهُ الْكَرِيمُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: عَنَى بِالْوَجْهِ: ذَا الْوَجْهِ، وَقَالَ قَائِلُو هَذِهِ الْمَقَالَةِ: وَجْهُ اللهِ: صِفَةٌ لَهُ.

﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ﴾يَعْنِي: يَسَعُ خَلْقَهُ كُلَّهُمْ بِالْكِفَايَةِ وَالْأَفْضَالِ وَالْجُودِ وَالتَّدْبِيرِ. ﴿عَلِيمٌ﴾ بِأَفْعَالِهِمْ لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْهَا شَيْءٌ وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ، بَلْ هُوَ بِجَمِيعِهَا عَلِيمٌ.

---

[١٤٢] عَنِ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْا –، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُصَلِّي وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ، قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، والترمذي، والنسائي؛ وغيرهم].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي سَفَرٍ، فَتَغَيَّمَتِ السَّمَاءُ، وَأَشْكَلَتْ عَلَيْنَا الْقِبْلَةُ، فَصَلَّيْنَا، وَأَعْلَمْنَا،(وَفِي رِوَايَةٍ: فَصَلَّى كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا عَلَى حِيَالِهِ)، فَلَمَّا طَلَعَتِ الشَّمْسُ؛ إِذَا نَحْنُ قَدْ صَلَّيْنَا لِغَيْرِ الْقِبْلَةِ! فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾» [حديث حسن: رواه الترمذي، وابن ماجة، وغيرهما، وحسنه الألباني في الإرواء (٢٩١)، وغيره].

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي شَرْحِ الْعُمْدَةِ: اللهُ سُبْحَانَهُ قَالَ: ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ وهذه الآية تَدُلُّ عَلَى جَوَازِ اسْتِقْبَالِ جَمِيعِ الْجِهَاتِ[فِي الصَّلَاةِ، ثُمَّ] نُسِخَ ذَلِكَ فِي حَقِّ الْعَالِمِ الْقَادِرِ، فَيَبْقَى فِي حَقِّ الْجَاهِلِ بِالْقِبْلَةِ، وَالْعَاجِزِ عَنِ اسْتِقْبَالِهَا لِخَوْفٍ، وَنَحْوِه فِي حَقِّ الْمُتَنَفِّلِ فِي السَّفَرِ، لَمْ يُنْسَخْ.

١١٦- ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا[١٤٣]﴾يَعْنِي: الَّذِينَ مَنَعُوا مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ، ﴿وَقَالُوا﴾: مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾.

وَتَأْوِيلُ الْآيَةِ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا، وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَهُمُ النَّصَارَى الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ عِيسَى ابْنُ اللهِ؟ فَقَالَ اللهُ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - مُكَذِّبًا قِيلَهُمْ مَا قَالُوا مِنْ ذَلِكَ وَمُنْتَفِيًا مِمَّا نَحَلُوهُ وَأَضَافُوا إِلَيْهِ بِكَذِبِهِمْ وَفِرْيَتِهِمْ: ﴿سُبْحَانَهُ﴾يَعْنِي بِهَا: تَنْزِيهًا وَتَبْرِيئًا مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، وَعُلُوًّا وَارْتِفَاعًا عَنْ ذَلِكَ.

﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾أَخْبَرَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - أَنَّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مُلْكًا وَخَلْقًا.

وَمَعْنَى ذَلِكَ: وَكَيْفَ يَكُونُ الْمَسِيحُ لِلَّهِ وَلَدًا، وَهُوَ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْأَمَاكِنِ، إِمَّا فِي السَّمَوَاتِ، وَإِمَّا فِي الْأَرْضِ، وَلِلَّهِ مُلْكُ مَا فِيهِمَا؟

وَلَوْ كَانَ الْمَسِيحُ ابْنًا كَمَا زَعَمْتُمْ؛ لَمْ يَكُنْ كَسَائِرِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ خَلْقِهِ وَعَبِيدِهِ، فِي ظُهُورِ آيَاتِ الصَّنْعَةِ فِيهِ.

﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ[١٤٤]﴾ أَوْلَى مَعَانِي الْقُنُوتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾: الطَّاعَةُ وَالْإِقْرَارُ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِالْعُبُودِيَّةِ، بِشَهَادَةِ أَجْسَامِهِمْ بِمَا فِيهَا مِنْ آثَارِ الصَّنْعَةِ، وَالدَّلَالَةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَأَنَّ اللهَ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - بَارِئُهَا وَخَالِقُهَا.

---

[١٤٣] عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ [وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ] وَيَرْزُقُهُمْ» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم - واللفظ له -، وأحمد - وما بين المعقوفين له -؛ وغيرهم].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قَالَ: قَالَ اللهُ: «كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ؛ فَزَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ! وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ؛ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ! فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا» [صحيح: رواه البخاري، والطبراني في الكبير؛ وغيرهما].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قَالَ: «قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ؛ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي! وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ! وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ؛ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْئًا أَحَدٌ»[صحيح: رواه البخاري، والنسائي، وابن حبان؛ وغيرهم].

[١٤٤] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَلِلْقُنُوتِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مَعَانٍ: أَحَدُهَا: الطَّاعَةُ، وَالْآخَرُ: الْقِيَامُ، وَالثَّالِثُ: الْكَفُّ عَنِ الْكَلَامِ وَالْإِمْسَاكُ عَنْهُ.

١١٧- ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾يَعْنِي: مُبْدِعُهَا[١٤٥].

فَمَعْنَى الْكَلَامِ: سُبْحَانَ اللهِ! أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَهُوَ مَالِكُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، تَشْهَدُ لَهُ جَمِيعًا بِدَلَالَتِهَا عَلَيْهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَتُقِرُّ لَهُ بِالطَّاعَةِ؛ وَهُوَ بَارِئُهَا وَخَالِقُهَا، وَمُوجِدُهَا مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ، وَلَا مِثَالٍ احْتَذَاهَا عَلَيْهِ؟.

وَهَذَا إِعْلَامٌ مِنَ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – عِبَادَهُ، أَنَّ مِمَّا يَشْهَدُ لَهُ بِذَلِكَ: الْمَسِيحُ، الَّذِي أَضَافُوا إِلَى اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – بُنُوَّتَهُ، وَإِخْبَارٌ مِنْهُ لَهُمْ أَنَّ الَّذِيَ ابْتَدَعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ وَعَلَى غَيْرِ مِثَالٍ، هُوَ الَّذِي ابْتَدَعَ الْمَسِيحَ مِنْ غَيْرِ وَالِدٍ بِقُدْرَتِهِ.

﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾يَعْنِي: وَإِذَا أَحْكَمَ أَمْرًا وَحَتَمَهُ؛ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ[١٤٦]﴾يَعْنِي: فَإِنَّمَا يَقُولُ لِذَلِكَ الْأَمْرِ كُنْ؛ فَيَكُونُ ذَلِكَ الْأَمْرُ عَلَى مَا أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَكُونَ وَأَرَادَهُ.

فَكَذَلِكَ كَانَ ابْتِدَاعُهُ الْمَسِيحَ وَإِنْشَاءَهُ إِذْ أَرَادَ خَلْقَهُ مِنْ غَيْرِ وَالِدٍ.

١١٨- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾يَعْنِي: النَّصَارَى ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾يَعْنِي: هَلَّا يُكَلِّمُنَا اللهُ كَمَا يُكَلِّمُ رَسُولَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ كَمَا أَتَتْهُمْ؟.

وَلَا يَنْبَغِي لِلَّهِ أَنْ يُكَلِّمَ إِلَّا أَوْلِيَاءَهُ، وَلَا يُؤْتِي آيَةً مُعْجِزَةً عَلَى دَعْوَى مُدَّعٍ إِلَّا لِمَنْ كَانَ مُحِقًّا فِي دَعْوَاهُ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ وَتَوْحِيدِهِ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ كَاذِبًا فِي دَعْوَاهُ، وَدَاعِيًا إِلَى الْفِرْيَةِ عَلَيْهِ، وَادِّعَاءِ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ لَهُ؛ فَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ –، أَوْ يُؤْتِيَهُ آيَةً مُعْجِزَةً تَكُونُ مُؤَيِّدَةً كَذِبَهُ وَفِرْيَتَهُ عَلَيْهِ.

---

[١٤٥] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَمَعْنَى الْمُبْدِعِ: الْمُنْشِئُ وَالْمُحْدِثُ مَا لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَى إِنْشَاءِ مِثْلِهِ وَإِحْدَاثِهِ أَحَدٌ؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْمُبْتَدِعُ فِي الدِّينِ (مُبْتَدِعًا)؛ لِإِحْدَاثِهِ فِيهِ مَا لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مُحْدَثٍ فِعْلًا أَوْ قَوْلًا لَمْ يَتَقَدَّمْهُ فِيهِ مُتَقَدِّمٌ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّيهِ مُبْتَدِعًا.

[١٤٦] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي شَرْحِ الْأَرْبَعِينَ النَّوَوِيَّةِ**: وَبِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ أَوَدُّ أَنْ أُنَبِّهَ عَلَى كَلِمَةٍ دَارِجَةٍ عِنْدَ الْعَوَامِ، حَيْثُ يَقُولُونَ: (يَا مَنْ أَمْرُهُ بَيْنَ الْكَافِ وَالنُّونِ)؛ وَهَذَا غَلَطٌ عَظِيمٌ! وَالصَّوَابُ: (يَا مَنْ أَمْرُهُ بَعْدَ الْكَافِ وَالنُّونِ)؛ لِأَنَّ مَا بَيْنَ الْكَافِ وَالنُّونِ لَيْسَ أَمْرًا، فَالْأَمْرُ لَا يَتِمُّ إِلَّا إِذَا جَاءَتِ الْكَافُ وَالنُّونُ، لِأَنَّ الْكَافَ الْمَضْمُومَةَ لَيْسَتْ أَمْرًا، وَالنُّون كَذَلِكَ، لَكِنْ بِاجْتِمَاعِهِمَا تَكُون أَمْرًا.

فَالصَّوَابُ أَنْ تَقُولَ: (يَا مَنْ أَمْرُهُ – أَيْ: مَأْمُورُهُ – بَعْدَ الْكَافِ وَالنُّونِ)، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾.

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ هُمُ الْيَهُودُ.

﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾يَعْنِي: أَنَّ قَوْلَهُمُ الَّذِي قَالُوهُ مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا يُشَابِهُ قَوْلَ الْيَهُودِ مِنْ أَجْلِ تَشَابُهِ قُلُوبِهِمْ فِي الضَّلَالَةِ وَالْكُفْرِ بِاللهِ.

فَمَعْنَى الْآيَةِ: وَقَالَتِ النَّصَارَى الْجُهَّالُ بِاللهِ وَبِعَظَمَتِهِ: هَلَّا يُكَلِّمُنَا اللهُ رَبُّنَا، كَمَا كَلَّمَ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ، أَوْ تَجِيئُنَا عَلَامَةٌ مِنَ اللهِ نَعْرِفُ بِهَا صِدْقَ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ عَلَى مَا نَسْأَلُ وَنُرِيدُ؟ قَالَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ –: فَكَمَا قَالَ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالُ مِنَ النَّصَارَى وَتَمَنَّوْا عَلَى رَبِّهِمْ؛ قَالَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ، فَسَأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يُرِيَهُمُ اللهُ نَفْسَهُ جَهْرَةً، وَيُؤْتِيَهُمْ آيَةً، وَاحْتَكَمُوا عَلَيْهِ وَعَلَى رُسُلِهِ، وَتَمَنَّوُا الْأَمَانِيَّ.

فَاشْتَبَهَتْ قُلُوبُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي تَمَرُّدِهِمْ عَلَى اللهِ وَقِلَّةِ مَعْرِفَتِهِمْ بِعَظَمَتِهِ وَجَرْأَتِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ؛ كَمَا اشْتَبَهَتْ أَقْوَالُهُمُ الَّتِي قَالُوهَا.

﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾يَعْنِي: قَدْ بَيَّنَّا الْعَلَامَاتِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا غَضِبَ اللهُ عَلَى الْيَهُودِ، وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ، وَأَعَدَّ لَهُمُ الْعَذَابَ الْمُهِينَ فِي مَعَادِهِمْ، وَالَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أَخْزَى اللهُ النَّصَارَى فِي الدُّنْيَا، وَأَعَدَّ لَهُمُ الْخِزْيَ وَالْعَذَابَ الْأَلِيمَ فِي الْآخِرَةِ، وَالَّتِي مِنْ أَجْلِهَا جَعَلَ سُكَّانَ الْجِنَانِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا وجُوهَهُمْ لِلَّهِ وَهُمْ مُحْسِنُونَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا.

فَأُعْلِمُوا الْأَسْبَابَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا اسْتَحَقَّ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ مِنَ اللهِ مَا فَعَلَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ، وَخَصَّ اللهُ بِذَلِكَ الْقَوْمَ الَّذِينَ يُوقِنُونَ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ التَّثَبُّتِ فِي الْأُمُورِ، وَالطَّالِبُونَ مَعْرِفَةَ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ عَلَى يَقِينٍ وَصِحَّةٍ.

١١٩– ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾يَعْنِي: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِالْإِسْلَامِ الَّذِي لَا أَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ غَيْرَهُ مِنَ الْأَدْيَانِ – وَهُوَ الْحَقُّ –؛ مُبَشِّرًا مَنِ اتَّبَعَكَ فَأَطَاعَكَ، وَقَبِلَ مِنْكَ مَا دَعَوْتَهُ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ: بِالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا، وَالظَّفَرِ بِالثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِيهَا؛ وَمُنْذِرًا مَنْ عَصَاكَ فَخَالَفَكَ، وَرَدَّ عَلَيْكَ مَا دَعَوْتَهُ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ: بِالْخِزْيِ فِي الدُّنْيَا، وَالذُّلِّ فِيهَا، وَالْعَذَابِ الْمُهِينِ فِي الْآخِرَةِ!.

﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ[147]﴾يَعْنِي: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلِّغْتَ مَا أُرْسِلْتَ بِهِ، وَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَالْإِنْذَارُ، وَلَسْتَ مَسْئُولًا عَمَّنْ كَفَرَ بِمَا أَتَيْتَهُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَحِيمِ.

١٢٠- ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ[148]﴾يَعْنِي: وَلَيْسَتِ الْيَهُودُ - يَا مُحَمَّدُ - وَلَا النَّصَارَى بِرَاضِيَةٍ عَنْكَ أَبَدًا، فَدَعْ طَلَبَ مَا يُرْضِيهِمْ وَيُوَافِقُهُمْ، وَأَقْبِلْ عَلَى طَلَبِ رِضَا اللهِ فِي دُعَائِهِمْ إِلَى مَا بَعَثَكَ اللهُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ.

ثُمَّ قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ - لِهَؤُلَاءِ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ -: ﴿إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾يَعْنِي: أَنَّ بَيَانَ اللهِ هُوَ الْبَيَانُ الْمُقْنِعُ، وَالْقَضَاءُ الْفَاصِلُ بَيْنَنَا، فَهَلُمُّوا إِلَى كِتَابِ اللهِ وَبَيَانِهِ الَّذِي بَيَّنَ فِيهِ لِعِبَادِهِ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَهُوَ التَّوْرَاةُ الَّتِي تُقِرُّونَ جَمِيعًا بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، يَتَّضِحْ لَكُمْ فِيهَا الْمُحِقُّ مِنَّا مِنَ الْمُبْطِلِ، وَأَيُّنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَأَيُّنَا أَهْلُ النَّارِ، وَأَيُّنَا عَلَى الصَّوَابِ، وَأَيُّنَا عَلَى الْخَطَأِ!.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ﴾ - يَا مُحَمَّدُ - هَوَى هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى - فِيمَا يُرْضِيهِمْ عَنْكَ - مِنْ تَهَوُّدٍ وَتَنَصُّرٍ، فَصِرْتَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى إِرْضَائِهِمْ، وَوَافَقْتَ فِيهِ مَحَبَّتَهُمْ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ[149]﴾يَعْنِي: مِنْ بَعْدِ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ بِضَلَالَتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَمِنْ بَعْدِ الَّذِي اقْتَصَصْتُ عَلَيْكَ مِنْ نَبَئِهِمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ؛

---

[147] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَمَّا أَصْحَابُ الْجَحِيمِ؛ فَالْجَحِيمُ: هِيَ النَّارُ بِعَيْنِهَا إِذَا شَبَّتْ وَقُودُهَا.

[148] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَمَّا الْمِلَّةُ: فَإِنَّهَا الدِّينُ، وَجَمْعُهَا: الْمِلَلُ.

[149] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ**: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾؛ فِيهِ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ لِلْأُمَّةِ عَنِ اتِّبَاعِ طَرَائِقِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، بَعْدَ مَا عَلِموا مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْخِطَابَ مَعَ الرَّسُولِ، وَالْأَمْرَ لِأُمَّتِهِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ: وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ - الَّذِي تَرْجُفُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَتَتَصَدَّعُ مِنْهُ الْأَفْئِدَةُ -، مَا يُوجِبُ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ - الْحَامِلِينَ لِحُجَجِ اللهِ - سُبْحَانَهُ -، وَالْقَائِمِينَ بِبَيَانِ شَرَائِعِهِ -، تَرْكَ الدِّهَانَ لِأَهْلِ الْبِدَعِ الْمُتَمَذْهِبِينَ بِمَذَاهِبِ السُّوءِ! التَّارِكِينَ لِلْعَمَلِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ! الْمُؤْثِرِينَ لِمَحْضِ الرَّأْيِ عَلَيْهِمَا! فَإِنَّ غَالِبَ هَؤُلَاءِ - وَإِنْ أَظْهَرَ قَبُولًا وَأَبَانَ مِنْ أَخْلَاقِهِ لِينًا!! - لَا يُرْضِيهِ إِلَّا اتِّبَاعُ بِدْعَتِهِ، وَالدُّخُولُ فِي مَدَاخِلِهِ، وَالْوُقُوعُ فِي حَبَائِلِهِ!! فَإِنْ فَعَلَ الْعَالِمُ ذَلِكَ - بَعْدَ أَنْ عَلَّمَهُ اللهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَسْتَفِيدُ بِهِ أَنَّ هُدَى اللهِ هُوَ مَا فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، لَا مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْبِدَعِ الَّتِي هِيَ ضَلَالَةٌ مَحْضَةٌ، وَجَهَالَةٌ بَيِّنَةٌ، وَرَأْيٌ مُنْهَارٌ، وَتَقْلِيدٌ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ -؛ فَهُوَ إِذْ ذَاكَ مَا لَهُ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ! وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ؛ فَهُوَ مَخْذُولٌ لَا مَحَالَةَ، وَهَالِكٌ بِلَا شَكٍّ وَلَا شُبْهَةٍ!!.

﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾يَعْنِي: لَيْسَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ وَلِيٍّ يَلِي أَمْرَكَ، وَقَيِّمٍ يَقُومُ بِهِ، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يَنْصُرُكَ مِنَ اللهِ، فَيُدْفَعُ عَنْكَ مَا يَنْزِلُ بِكَ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَيَمْنَعُكَ مِنْ ذَلِكَ، إِنْ أَحَلَّ بِكَ ذَلِكَ رَبُّكَ.

١٢١- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾يَعْنِي: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ الَّذِي قَدْ عَرَفْتَهُ يَا مُحَمَّدُ – وَهُوَ التَّوْرَاةُ –، فَقَرَءُوهُ وَاتَّبَعُوا مَا فِيهِ، فَصَدَّقُوكَ وَآمَنُوا بِكَ، وَبِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ عِنْدِي، أُولَئِكَ ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾يَعْنِي: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ – يَا مُحَمَّدُ – مِنْ أَهْلِ التَّوْرَاةِ الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ وَبِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ مِنْ عِنْدِي، يَتَّبِعُونَ كِتَابِي الَّذِي أَنْزَلْتُهُ عَلَى رَسُولِي مُوسَى – صَلَوَاتُ اللَّه عَلَيْهِ –، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيُقِرُّونَ بِمَا فِيهِ مِنْ نَعْتِكَ وَصِفَتِكَ، وَأَنَّكَ رَسُولِي، فَرْضٌ عَلَيْهِمْ طَاعَتِي فِي الْإِيمَانِ بِكَ وَالتَّصْدِيقِ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِي، وَيَعْمَلُونَ بِمَا أَحْلَلْتَ لَهُمْ، وَيَجْتَنِبُونَ مَا حَرَّمْتَ عَلَيْهِمْ فِيهِ، وَلَا يُحَرِّفُونَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَلَا يُبَدِّلُونَهُ وَلَا يُغَيِّرُونَهُ –كَمَا أَنْزَلْتُهُ عَلَيْهِمْ – بِتَأْوِيلٍ وَلَا غَيْرِهِ.

﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾يَعْنِي: يُصَدِّقُونَ بِهِ.

فَأَخْبَرَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – أَنَّ الْمُؤْمِنَ بِالتَّوْرَاةِ، هُوَ الْمُتَّبِعُ مَا فِيهَا مِنْ حَلَالِهَا وَحَرَامِهَا، وَالْعَامِلُ بِمَا فِيهَا مِنْ فَرَائِضِ اللهِ الَّتِي فَرَضَهَا فِيهَا عَلَى أَهْلِهَا، وَأَنَّ أَهْلَهَا الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا مَنْ كَانَ ذَلِكَ صِفَتُهُ، دُونَ مَنْ كَانَ مُحَرِّفًا لَهَا مُبَدِّلًا تَأْوِيلَهَا، مُغَيِّرًا سُنَنَهَا تَارِكًا مَا فَرَضَ اللهُ فِيهَا عَلَيْهِ.

وَإِنَّمَا وَصَفَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مَنْ وُصِفَ بِمَا وَصَفَ بِهِ مِنْ مُتَّبِعِي التَّوْرَاةِ، وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ بِمَا أَثْنَى بِهِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ فِي اتِّبَاعِهَا اتِّبَاعُ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَتَصْدِيقِهِ؛ لِأَنَّ التَّوْرَاةَ تَأْمُرُ أَهْلَهَا بِذَلِكَ، وَتُخْبِرُهُمْ عَنِ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِنُبُوَّتِهِ، وَفَرْضِ طَاعَتِهِ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِ اللهِ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَإِنَّ فِي التَّكْذِيبِ بِمُحَمَّدٍ التَّكْذِيبَ لَهَا.

فَأَخْبَرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّ مُتَّبِعِي التَّوْرَاةَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَهُمُ الْعَامِلُونَ بِمَا فِيهَا.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾يعْنِي: وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْكِتَابِ الَّذِي أَخْبَرَ أَنَّهُ يَتْلُوهُ – مَنْ آتَاهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ – حَقَّ تِلَاوَتِهِ. وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿يَكْفُرْ﴾ يَجْحَدُ مَا فِيهِ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ وَنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَتَصْدِيقِهِ، وَيُبَدِّلُهُ فَيُحَرِّفُ تَأْوِيلَهُ؛ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾يَعْنِي: أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا عِلْمَهُمْ وَعَمَلَهُمْ! فَبَخَسُوا أَنْفُسَهُمْ حُظُوظَهَا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَاسْتَبْدَلُوا بِهَا سَخَطَ اللهِ وَغَضَبَهُ!!.

١٢٢– ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾وَهَذِهِ الْآيَةُ عِظَةٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – لِلْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ ظَهْرَانَيْ مُهَاجَرِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَتَذْكِيرٌ مِنْهُ لَهُمْ مَا سَلَفَ مِنْ أَيَادِيهِ إِلَيْهِمْ فِي صُنْعِهِ بِأَوَائِلِهِمْ، اسْتِعْطَافًا مِنْهُ لَهُمْ عَلَى دِينِهِ وَتَصْدِيقِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَقَالَ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا أَيَادِيَّ لَدَيْكُمْ، وَصَنَائِعِي عِنْدَكُمْ – وَاسْتِنْقَاذِي إِيَّاكُمْ مِنْ أَيْدِي عَدُوِّكُمْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَإِنْزَالِي عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى فِي تِيهِكُمْ، وَتَمْكِينِي لَكُمْ فِي الْبِلَادِ، بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ مُذَلَّلِينَ مَقْهُورِينَ، وَاخْتِصَاصِي الرُّسُلَ مِنْكُمْ، وَتَفْضِيلِي إِيَّاكُمْ عَلَى عَالَمِ مَنْ كُنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ، أَيَّامَ أَنْتُمْ فِي طَاعَتِي – بِاتِّبَاعِ رَسُولِي إِلَيْكُمْ، وَتَصْدِيقِهِ وَتَصْدِيقِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِي، وَدَعُوا التَّمَادِيَ فِي الضَّلَالِ وَالْغَيِّ!.

وَقَدْ ذَكَرْنَا فِيمَا مَضَى النِّعَمَ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالْمَعَانِيَ الَّتِي ذَكَّرَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ مِنْ آلَائِهِ عِنْدَهُمْ، وَالْعَالَمِ الَّذِي فُضِّلُوا عَلَيْهِ فِيمَا مَضَى قَبْلُ.[١٥٠]

١٢٣– ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ تَرْهِيبٌ مِنَ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – لِلَّذِينَ سَلَفَتْ عِظَتُهُ إِيَّاهُمْ بِمَا وَعَظَهُمْ بِهِ فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا.

يَقُولُ اللهُ لَهُمْ: وَاتَّقُوا – يَا مَعْشَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمُبَدِّلِينَ كِتَابِي وَتَنْزِيلِي، الْمُحَرِّفِينَ تَأْوِيلَهُ عَنْ وَجْهِهِ، الْمُكَذِّبِينَ بِرَسُولِي مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَذَابَ يَوْمٍ لَا تَقْضِي فِيهِ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا، وَلَا تُغْنِي عَنْهَا غِنَاءً، أَنْ تَهْلَكُوا عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرِكُمْ بِي، وَتَكْذِيبِكُمْ رَسُولِي، فَتَمُوتُوا عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يَوْمٌ

[١٥٠] انظر – غير مأمور – آية رقم (٤٠)و(٤٧) من هذه السورة.

لَا يُقْبَلُ مِنْ نَفْسٍ فِيمَا لَزِمَهَا فِدْيَةٌ، وَلَا يَشْفَعُ فِيمَا وَجَبَ عَلَيْهَا مِنْ حَقٍّ لَهَا شَافِعٌ، وَلَا هِيَ يَنْصُرُهَا نَاصِرٌ مِنَ اللهِ إِذَا انْتَقَمَ مِنْهَا بِمَعْصِيَتِهَا إِيَّاهُ.

وَقَدْ مَضَى الْبَيَانُ عَنْ كُلِّ مَعَانِي هَذِهِ الْآيَةِ فِي نَظِيرَتِهَا قَبْلُ، فَأَغْنَى ذَلِكَ عَنْ إِعَادَتِهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.[١٥١]

١٢٤- ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[١٥٢]﴾يَعْنِي: وَإِذَا اخْتَبَرَ.

وَكَانَ اخْتِبَارُ اللهِ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - إِبْرَاهِيمَ، اخْتِبَارًا بِفَرَائِضَ فَرَضَهَا عَلَيْهِ، وَأَمْرٍ أَمَرَهُ بِهِ.

وَذَلِكَ هُوَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَوْحَاهُنَّ إِلَيْهِ، وَكَلَّفَهُ الْعَمَلَ بِهِنَّ، امْتِحَانًا مِنْهُ لَهُ وَاخْتِبَارًا.

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾يَعْنِي: فَأَتَمَّ إِبْرَاهِيمُ الْكَلِمَاتِ.

وَإِتْمَامُهُ إِيَّاهُنَّ: إِكْمَالُهُ إِيَّاهُنَّ، بِالْقِيَامِ لِلَّهِ بِمَا أَوْجَبَ عَلَيْهِ فِيهِنَّ؛ وَهُوَ الْوَفَاءُ الَّذِي قَالَ اللهُ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ -: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾يَعْنِي: وَفَى بِمَا عُهِدَ إِلَيْهِ، بِالْكَلِمَاتِ، بما أَمَرَهُ بِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ وَمِحْنَته فِيهَا.[١٥٣]

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾يَعْنِي: فَقَالَ اللهُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، إِنِّي مُصَيِّرُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، يُؤْتَمُّ بِهِ وَيُقْتَدَى بِهِ.

وَإِنَّمَا أَرَادَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِقَوْلِهِ لِإِبْرَاهِيمَ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾: إِنِّي مُصَيِّرُكَ تَؤُمُّ مَنْ بَعْدَكَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِي وَبِرُسُلِي، تَتَقَدَّمَهُمْ أَنْتَ، وَيَتَّبِعُونَ هَدْيَكَ، وَيَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِكَ الَّتِي تَعْمَلُ بِهَا، بِأَمْرِي إِيَّاكَ وَوَحْيِي إِلَيْكَ.

﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾يَعْنِي: قَالَ إِبْرَاهِيمُ - لَمَّا رَفَعَ اللهُ مَنْزِلَتَهُ وَكَرَّمَهُ، فَأَعْلَمَهُ مَا هُوَ صَانِعٌ بِهِ، مِنْ تَصْيِيرِهِ إِمَامًا فِي الْخَيْرَاتِ لِمَنْ فِي عَصْرِهِ، وَلِمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَسَائِرِ النَّاسِ غَيْرِهِمْ، يُهْتَدَى

---

[١٥١] انظر - غير مأمور - آية رقم (٤٨) من هذه السورة.

[١٥٢] قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾أَيْ: بِشَرَائِعَ وَأَوَامِرَ وَنَوَاهٍ، فَإِنَّ الْكَلِمَاتِ تُطْلَقُ، وَيُرَادُ بِهَا الْكَلِمَاتُ الْقَدَرِيَّةُ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ مَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ -: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾. وَتُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا الشَّرْعِيَّةُ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾أَيْ: كَلِمَاتُهُ الشَّرْعِيَّةُ، وَهِيَ إِمَّا خَبَرُ صِدْقٍ، وَإِمَّا طَلَبُ عَدْلٍ، إِنْ كَانَ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا، وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ.

[١٥٣] قارن بطبعة محمود محمد شاكر.

بِهَدْيِهِ وَيُقْتَدَى بِأَفْعَالِهِ وَأَخْلَاقِهِ -: يَا رَبِّ! وَمِنْ ذُرِّيَّتِي فَاجْعَلْ أَئِمَّةً يُقْتَدَى بِهِمْ، كَالَّذِي جَعَلْتَنِي إِمَامًا يُؤْتَمُّ بِي وَيُقْتَدَى بِي.

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ هَذَا خَبَرٌ مِنَ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – عَنْ أَنَّ الظَّالِمَ لَا يَكُونُ إِمَامًا يَقْتَدِي بِهِ أَهْلُ الْخَيْرِ؛ لِأَنَّ الْإِمَامَةَ إِنَّمَا هِيَ لِأَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ، دُونَ أَعْدَائِهِ وَالْكَافِرِينَ بِهِ.

١٢٥- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ وَاذْكُرُوا إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ، وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً.

وَالْبَيْتُ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ مَثَابَةً لِلنَّاسِ: هُوَ الْبَيْتُ الْحَرَامُ.

فَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ[١٥٤]﴾: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَرْجِعًا لِلنَّاسِ وَمَعَاذًا، يَأْتُونَهُ كُلَّ عَامٍ وَيَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، فَلَا يَقْضُونَ مِنْهُ وَطَرًا.[١٥٥]

﴿وَأَمْنًا[١٥٦]﴾ وَإِنَّمَا سَمَّاهُ اللهُ (أَمْنًا)؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَعَاذًا لِمَنِ اسْتَعَاذَ بِهِ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لَوْ لَقِيَ بِهِ قَاتِلَ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ، لَمْ يَهِجْهُ وَلَمْ يَعْرِضْ لَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهُ! وَكَانَ كَمَا قَالَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ -: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى[١٥٧]﴾ يَعْنِي: اتَّخِذُوا أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى تُصَلُّونَ عِنْدَهُ،

---

[١٥٤] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي زَادِ الْمَعَادِ:** قَوْلُهُ: ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ أَيْ: يَثُوبُونَ إِلَيْهِ عَلَى تَعَاقُبِ الْأَعْوَامِ مِنْ جَمِيعِ الْأَقْطَارِ، وَلَا يَقْضُونَ مِنْهُ وَطَرًا، بَلْ كُلَّمَا ازْدَادُوا لَهُ زِيَارَةً؛ ازْدَادُوا لَهُ اشْتِيَاقًا:

لَا يَرْجِعُ الطَّرْفُ عَنْهَا حِينَ يَنْظُرُهَا ... حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهَا الطَّرْفُ مُشْتَاقًا

فَلِلَّهِ كَمْ لَهَا مِنْ قَتِيلٍ وَسَلِيبٍ وَجَرِيحٍ! وَكَمْ أُنْفِقَ فِي حُبِّهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَرْوَاحِ! وَرَضِيَ الْمُحِبُّ بِمُفَارَقَةِ فِلَذِ الْأَكْبَادِ، وَالْأَهْلِ وَالْأَحْبَابِ وَالْأَوْطَانِ، مُقَدِّمًا بَيْنَ يَدَيْهِ أَنْوَاعَ الْمَخَاوِفِ وَالْمَتَالِفِ وَالْمَعَاطِفِ وَالْمَشَاقِّ، وَهُوَ يَسْتَلِذُّ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيَسْتَطِيبُهُ وَيَرَاهُ – لَوْ ظَهَرَ سُلْطَانُ الْمَحَبَّةِ فِي قَلْبِهِ – أَطْيَبَ مِنْ نِعَمِ الْمُتَحَلِّيَةِ وَتَرَفِهِمْ وَلَذَّاتِهِمْ!! اهـ. بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ

[١٥٥] **قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ:** (**الْوَطَرُ**): الْحَاجَةُ، وَالْجَمْعُ: أَوْطَارٌ، وَقَضَيْتُ وَطَرِي: إِذَا نِلْتَ بُغْيَتَكَ وَحَاجَتَكَ.

[١٥٦] **قَالَ الْقَاضِي ابْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ:** وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – عَنْ مِنَّتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، حَيْثُ قَرَّرَ فِي قُلُوبِ الْعَرَبِ تَعْظِيمَ هَذَا الْبَيْتِ، وَتَأْمِينَ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ؛ إِجَابَةً لِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حِينَ أَنْزَلَ بِهِ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ، فَتَوَقَّعَ عَلَيْهِمُ الِاسْتِطَالَةَ، فَدَعَا أَنْ يَكُونَ أَمْنًا لَهُمْ؛ فَاسْتُجِيبَ دُعَاؤُهُ.

[١٥٧] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَوِ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى؟ فَنَزَلَتْ: ﴿**وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾ وَآيَةُ الْحِجَابِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَوْ أَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ؛ فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ؟ فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ، وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُنَّ: ﴿**عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ**﴾؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ» [صحيح: رواه البخاري – واللفظ له –، ومسلم، وأحمد؛ وغيرهم].

عِبَادَةً مِنْكُمْ، وَتَكْرِمَةً مِنِّي لِإِبْرَاهِيمَ.

مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ: هُوَ الْمَقَامُ الْمَعْرُوفُ بِهَذَا الِاسْمِ، الَّذِي هُوَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ[158]﴾ يَعْنِي: وَأَمَرْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ بِتَطْهِيرِ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ.

وَالتَّطْهِيرِ الَّذِي أَمَرَهُمَا اللهُ بِهِ فِي الْبَيْتِ: هُوَ تَطْهِيرُهُ مِنَ الْأَصْنَامِ، وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ فِيهِ، وَمِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ.

﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: إِذَا كَانَ طَائِفًا بِالْبَيْتِ؛ فَهُوَ مِنَ الطَّائِفِينَ.

﴿وَالْعَاكِفِينَ[159]﴾ الْعَاكِفُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الْمُقِيمُ فِي الْبَيْتِ مُجَاوِرًا فِيهِ بِغَيْرِ طَوَافٍ وَلَا صَلَاةٍ.

﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالرُّكَّعِ﴾ جَمَاعَةُ الْقَوْمِ الرَّاكِعِينَ فِيهِ لَهُ.

وَكَذَلِكَ السُّجُودُ: هُمْ جَمَاعَةُ الْقَوْمِ السَّاجِدِينَ فِيهِ لَهُ. وَقِيلَ: بَلْ عَنَى بِالرُّكَّعِ السُّجُودِ: الْمُصَلِّينَ.

١٢٦- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ يَعْنِي: وَاذْكُرُوا إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ بَلَدًا آمِنًا، يَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿آمِنًا﴾: آمِنًا مِنَ الْجَبَابِرَةِ وَغَيْرِهِمْ، أَنْ يُسَلَّطُوا عَلَيْهِ، وَمِنْ عُقُوبَةِ اللهِ أَنْ تَنَالَهُ، كَمَا تَنَالُ سَائِرَ الْبُلْدَانِ؛ مِنْ خَسْفٍ، وَائْتِفَاكٍ[160]، وَغَرَقٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَخَطِ اللهِ وَمَثُلَاتِهِ[161] الَّتِي تُصِيبُ سَائِرَ الْبِلَادَ غَيْرَهُ.

---

[158] **قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ:** لَا يَجُوزُ أَنْ يُتْرَكَ عِنْدَ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ قَذَرٌ مِنَ الْأَقْذَارِ، وَلَا نَجَسٌ مِنَ الْأَنْجَاسِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَلَا الْحِسِّيَّةِ، فَلَا يُتْرَكُ فِيهِ أَحَدٌ يَرْتَكِبُ مَا لَا يُرْضِي اللهَ، وَلَا أَحَدٌ يُلَوِّثُهُ بِقَذَرٍ مِنَ النَّجَاسَاتِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ دُخُولَ الْمُصَوِّرِينَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ – حَوْلَ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ، بِآلَاتِ التَّصْوِيرِ يُصَوِّرُونَ بِهَا الطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ – أَنَّ ذَلِكَ مُنَافٍ لِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنْ تَطْهِيرِ بَيْتِهِ الْحَرَامِ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، فَانْتِهَاكُ حُرْمَةِ بَيْتِ اللهِ بِارْتِكَابِ حُرْمَةِ التَّصْوِيرِ عِنْدَهُ لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ تَصْوِيرَ الْإِنْسَانِ دَلَّتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَلَى أَنَّهُ حَرَامٌ، وَظَاهِرُهَا الْعُمُومُ فِي كُلِّ أَنْوَاعِ التَّصْوِيرِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ ارْتِكَابَ أَيِّ شَيْءٍ حَرَّمَهُ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ مِنَ الْأَقْذَارِ وَالْأَنْجَاسِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي يَلْزَمُ تَطْهِيرُ بَيْتِ اللهِ مِنْهَا.

وَكَذَلِكَ مَا يَقَعُ فِي الْمَسْجِدِ مِنَ الْكَلَامِ الْمُخِلِّ بِالدِّينِ وَالتَّوْحِيدِ؛ لَا يَجُوزُ إِقْرَارُ شَيْءٍ مِنْهُ وَلَا تَرْكُهُ.

[159] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَالْعَاكِفُ عَلَى الشَّيْءِ: هُوَ الْمُقِيمُ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْمُعْتَكِفِ مُعْتَكِفٌ مِنْ أَجْلِ مُقَامِهِ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي حَبَسَ فِيهِ نَفْسَهُ لِلَّهِ – تَعَالَى –.

[160] **قَالَ فِي الْقَامُوسِ الْمُحِيطِ:** وَائْتَفَكَتِ الْبَلْدَةُ: انْقَلَبَتْ.

[161] **قَالَ فِي مُخْتَارِ الصِّحَاحِ:** (**الْمَثُلَةُ**) – بِفَتْحِ الْمِيمِ وَضَمِّ الثَّاءِ –: الْعُقُوبَةُ، وَالْجَمْعُ: (**الْمَثُلَاتُ**).

﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ[١٦٢] مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ[١٦٣] ﴾ وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ مِنْ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ: أَنْ يَرْزُقَ مُؤْمِنِي أَهْلِ مَكَّةَ مِنَ الثَّمَرَاتِ، دُونَ كَافِرِيهِمْ.

﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ يَعْنِي: قَالَ اللهُ: يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ، وَرَزَقْتُ مُؤْمِنِي أَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ مِنَ الثَّمَرَاتِ وَكُفَّارَهُمْ، مَتَاعًا لَهُمْ إِلَى بُلُوغِ آجَالِهِمْ، ثُمَّ أَضْطَرُّ كُفَّارَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى النَّارِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ يَعْنِي: فَأَجْعَلُ مَا أَرْزُقُهُ مِنْ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ مَتَاعًا يَتَمَتَّعُ بِهِ إِلَى وَقْتِ مَمَاتِهِ.

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾ يَعْنِي: ثُمَّ أَدْفَعُهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَأَسُوقُهُ إِلَيْهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ وَمَعْنَى الِاضْطِرَارِ: الْإِكْرَاهُ، يُقَالُ: اضْطَرَرْتُ فُلَانًا إِلَى هَذَا الْأَمْرِ: إِذَا أَلْجَأْتُهُ إِلَيْهِ وَحَمَلْتُهُ عَلَيْهِ.

فَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾: أَدْفَعُهُ إِلَيْهَا وَأَسُوقُهُ، سَحْبًا وَجَرًّا عَلَى وَجْهِهِ!.

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ يَعْنِي: وَسَاءَ الْمَصِيرُ عَذَابُ النَّارِ، بَعْدَ الَّذِي كَانُوا فِيهِ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا الَّذِي مَتَّعْتُهُمْ فِيهَا.

١٢٧- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ يَعْنِي: وَاذْكُرُوا إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ. وَقَوَاعِدُ الْبَيْتِ: إِسَاسُهُ.

---

[١٦٢] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّهُ قَالَ: كَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاءُوا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَإِذَا أَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ قَالَ: «**اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَمِثْلِهِ مَعَهُ**»، قَالَ: ثُمَّ يَدْعُو أَصْغَرَ وَلِيدٍ لَهُ، فَيُعْطِيهِ ذَلِكَ الثَّمَرَ [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، والترمذي، والنسائي في الكبرى، وابن حبان؛ وغيرهم].

[١٦٣] **قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ:** قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: سَبَبُ تَخْصِيصِ إِبْرَاهِيمَ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا الدُّعَاءِ بِالرِّزْقِ: أَنَّهُ دَعَا لِذُرِّيَّتِهِ أَوَّلًا أَنْ يَجْعَلَهُمُ اللهُ أَئِمَّةً، وَلَمْ يُخَصِّصْ بِالْمُؤْمِنِينَ، فَأَخْبَرَهُ اللهُ أَنَّ الظَّالِمِينَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ لَا يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ ... فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ لَهُمْ بِالرِّزْقِ، خَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بِسَبَبِ ذَلِكَ؛ فَقَالَ: ﴿**وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾، فَأَخْبَرَهُ اللهُ أَنَّ الرِّزْقَ لَيْسَ كَالْإِمَامَةِ، فَاللهُ يَرْزُقُ الْكَافِرَ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا يَجْعَلُهُ إِمَامًا؛ وَلِذَا قَالَ لَهُ فِي طَلَبِ الْإِمَامَةِ: ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾، وَلَمَّا خَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بِطَلَبِ الرِّزْقِ، قَالَ لَهُ: ﴿**وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا**﴾.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِذَلِكَ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾يَقُولَانِ: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا عَمَلَنَا وَطَاعَتَنَا إِيَّاكَ، وَعِبَادَتَنَا لَكَ، فِي انْتِهَائِنَا إِلَى أَمْرِكَ الَّذِي أَمَرْتَنَا بِهِ، فِي بِنَاءِ بَيْتِكَ الَّذِي أَمَرْتَنَا بِبِنَائِهِ، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ دُعَاءَنَا وَمَسْأَلَتَنَا إِيَّاكَ قَبُولَ مَا سَأَلْنَاكَ قَبُولَهُ مِنَّا، مِنْ طَاعَتِكَ فِي بِنَاءِ بَيْتِكَ الَّذِي أَمَرْتَنَا بِبِنَائِهِ؛ الْعَلِيمُ بِمَا فِي ضَمَائِرِ نُفُوسِنَا مِنَ الْإِذْعَانِ لَكَ فِي الطَّاعَةِ، وَالْمَصِيرِ إِلَى مَا فِيهِ لَكَ الرِّضَا وَالْمَحَبَّةُ، وَمَا نُبْدِي وَنُخْفِي مِنْ أَعْمَالِنَا.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: جَاءَ – يَعْنِي: إِبْرَاهِيمَ – فَوَجَدَ إِسْمَاعِيلَ يُصْلِحُ نَبْلًا مِنْ وَرَاءِ زَمْزَمَ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ: يَا إِسْمَاعِيلُ! إِنَّ اللهَ – رَبَّكَ – قَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا، فَقَالَ لَهُ إِسْمَاعِيلُ: فَأَطِعْ رَبَّكَ فِيمَا أَمَرَكَ، فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: قَدْ أَمَرَكَ أَنْ تُعِينَنِي عَلَيْهِ، قَالَ: إِذًا أَفْعَلُ، قَالَ: فَقَامَ مَعَهُ، فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِيهِ، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَيَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فَلَمَّا ارْتَفَعَ الْبُنْيَانُ، وَضَعُفَ الشَّيْخُ عَنْ رَفْعِ الْحِجَارَةِ، قَامَ عَلَى حَجَرٍ، فَهُوَ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ وَيَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.[١٦٤]

١٢٨– ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وَهَذَا أَيْضًا خَبَرٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّهُمَا كَانَا يَرْفَعَانِ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾يَعْنِيَانِ بِذَلِكَ: وَاجْعَلْنَا مُسْتَسْلِمَيْنِ لِأَمْرِكَ، خَاضِعَيْنِ لِطَاعَتِكَ، لَا نُشْرِكُ مَعَكَ فِي الطَّاعَةِ أَحَدًا سِوَاكَ، وَلَا فِي الْعِبَادَةِ غَيْرَكَ.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ فَإِنَّهُمَا خَصَّا بِذَلِكَ بَعْضَ الذُّرِّيَّةِ؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – قَدْ كَانَ أَعْلَمَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَبْلَ مَسْأَلَتِهِ هَذِهِ، أَنَّ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مَنْ لَا يَنَالُ عَهْدَهُ لِظُلْمِهِ وَفُجُورِهِ، فَخَصَّا بِالدَّعْوَةِ بَعْضَ ذُرِّيَّتِهِمَا.

[١٦٤] صحيح: رواه البخاري، والنسائي في الكبرى، وعبد الرزاق في مصنفه؛ وغيرهم.

وَقَدْ قِيلَ إِنَّهُمَا عَنَيَا بِذَلِكَ الْعَرَبَ؛ وَهَذَا قَوْلٌ يَدُلُّ ظَاهِرُ الْكِتَابِ عَلَى خِلَافِهِ.[١٦٥]

وَأَمَّا الْأُمَّةُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فَإِنَّهُ يَعْنِي بِهَا: الْجَمَاعَةَ مِنَ النَّاسِ.

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا[١٦٦]﴾ أَيْ: أَظْهِرْهَا لأَعْيُنِنَا حَتَّى نَرَاهَا.

قَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ مَنَاسِكُ الْحَجِّ وَمَعَالِمُهُ. عَنْ قَتَادَةَ: قَوْلُهُ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ فَأَرَاهُمَا اللهُ مَنَاسِكَهُمَا: الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ، وَالسَّعْيَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَالْإِفَاضَةَ مِنْ عَرَفَاتٍ، وَالْإِفَاضَةَ مِنْ جَمْعٍ، وَرَمْيَ الْجِمَارِ، حَتَّى أَكْمَلَ اللهُ الدِّينَ – أَوْ دِينَهُ –".

﴿وَتُبْ عَلَيْنَا[١٦٧]﴾ تَوْبَةُ الرَّبِّ عَلَى عَبْدِهِ: عَوْدُهُ عَلَيْهِ بِالْعَفْوِ لَهُ عَنْ جُرْمِهِ وَالصَّفْحِ لَهُ عَنْ عُقُوبَةِ ذَنْبِهِ، مَغْفِرَةً لَهُ مِنْهُ، وَتَفَضُّلًا عَلَيْهِ

---

[١٦٥] **قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ**﴾ لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مَنْ هَذِهِ الْأُمَّةُ الَّتِي أَجَابَ اللهُ بِهَا دُعَاءَ نَبِيِّهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، وَلَمْ يُبَيِّنْ هُنَا أَيْضًا هَذَا الرَّسُولَ الْمَسْؤُولَ بَعْثَهُ فِيهِمْ مَنْ هُوَ؟ وَلَكِنَّهُ يُبَيِّنُ فِي سُورَةِ الْجُمُعَةِ أَنَّ تِلْكَ الْأُمَّةَ الْعَرَبُ، وَالرَّسُولَ هُوَ سَيِّدُ الرُّسُلِ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِ**﴾؛ لِأَنَّ الْأُمِّيِّينَ: الْعَرَبُ بِالْإِجْمَاعِ، وَالرَّسُولَ الْمَذْكُورَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِجْمَاعًا، وَلَمْ يُبْعَثْ رَسُولٌ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ إِلَّا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَحْدَهُ.

[١٦٦] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَأَمَّا الْمَنَاسِكُ: فَإِنَّهَا جَمْعُ مَنْسَكٍ؛ وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُنْسَكُ لِلَّهِ فِيهِ، وَيُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ فِيهِ بِمَا يُرْضِيهِ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ؛ إِمَّا بِذِبْحِ ذَبِيحَةٍ لَهُ، وَإِمَّا بِصَلَاةٍ، أَوْ طَوَافٍ، أَوْ سَعْيٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ لِمَشَاعِرِ الْحَجِّ: مَنَاسِكُهُ؛ لِأَنَّهَا أَمَارَاتٌ وَعَلَامَاتٌ يَعْتَادُهَا النَّاسُ، وَيَتَرَدَّدُونَ إِلَيْهَا، وَأَصْلُ الْمَنْسَكِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْمَوْضِعُ الْمُعْتَادُ الَّذِي يَعْتَادُهُ الرَّجُلُ وَيَأْلَفُهُ، يُقَالُ: لِفُلَانٍ مَنْسَكٌ، وَذَلِكَ إِذَا كَانَ لَهُ مَوْضِعٌ يَعْتَادُهُ لِخَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتِ الْمَنَاسِكُ مَنَاسِكَ؛ لِأَنَّهَا تُعْتَادُ وَيُتَرَدَّدُ إِلَيْهَا بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَبِالْأَعْمَالِ الَّتِي يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللهِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى: فَأَرَى اللهُ إِبْرَاهِيمَ وَابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ الْمَوَاضِعَ الَّتِي تُقْصَدُ فِي الْحَجِّ وَالْأَفْعَالَ الَّتِي تُفْعَلُ هُنَاكَ: كَالطَّوَافِ، وَالسَّعْيِ، وَالْوُقُوفِ، وَالرَّمْيِ؛ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ.

[١٦٧] **فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ:** وَهَلْ كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ وَابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ ذُنُوبٌ فَاحْتَاجَا إِلَى مَسْأَلَةِ رَبِّهِمَا التَّوْبَةَ؟.

قِيلَ: إِنَّ سُؤَالَ التَّوْبَةِ عِبَادَةٌ كَالتَّسْبِيحِ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ وُجُودُ ذَنْبٍ! وَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ السُّنَّةِ، أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ**» [صحيح: رواه أحمد، والنسائي في الكبرى، وابن حبان؛ وصححه الألباني في الصحيحة(١٤٥٢)، والتعليقات الحسان(٩٢٥)]. وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ يَقُولُ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ**» [صحيح: رواه أحمد، وأبو داود ، وابن ماجة، والنسائي في الكبرى؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٥٥٦)، وصحيح أبي داود(١٥١٦)، وصحيح ابن ماجة(٣٨١٤)].

﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾يَعْنِي: إِنَّكَ أَنْتَ الْعَائِدُ عَلَى عِبَادِكَ بِالْفَضْلِ، وَالْمُتَفَضِّلُ عَلَيْهِمْ بِالْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ، الرَّحِيمُ بِهِمْ، الْمُسْتَنْقِذُ مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ بِرَحْمَتِكَ مِنْ هَلَكَتِهِ، الْمُنَجِّي مَنْ تُرِيدُ نَجَاتَهُ مِنْهُمْ بِرَأْفَتِكَ مِنْ سَخَطِكَ.

١٢٩- ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾وَهَذِهِ دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَاصَّةً، وَهِيَ الدَّعْوَةُ الَّتِي كَانَ نَبِيُّنَا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، يَقُولُ: «أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيسَى».[١٦٨]

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾يَعْنِي: يَقْرَأُ عَلَيْهِمْ كِتَابَكَ الَّذِي تُوحِيهِ إِلَيْهِ.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾وَيَعْنِي بِالْكِتَابِ: الْقُرْآنَ. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾الْحِكْمَةُ: الْعِلْمُ بِأَحْكَامِ اللهِ الَّتِي لَا يُدْرَكُ عِلْمُهَا إِلَّا بِبَيَانِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ نَظَائِرِهِ.

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ، وَيُعَلِّمُهُمْ كِتَابَكَ الَّذِي تُنَزِّلُهُ عَلَيْهِمْ، وَفَصْلَ قَضَائِكَ وَأَحْكَامَكَ الَّتِي تُعَلِّمُهُ إِيَّاهَا.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾يَعْنِي: وَيُطَهِّرُهُمْ مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ وَعُبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيُنَمِّيهِمْ وَيُكَثِّرُهُمْ بِطَاعَةِ اللهِ.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾يَعْنِي: إِنَّكَ يَا رَبُّ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْقَوِيُّ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَرَادَهُ، فَافْعَلْ بِنَا وَبِذُرِّيَّتِنَا مَا سَأَلْنَاهُ وَطَلَبْنَاهُ مِنْكَ؛ وَالْحَكِيمُ: الَّذِي لَا يَدْخُلُ تَدْبِيرَهُ خَلَلٌ وَلَا زَلَلٌ، فَأَعْطِنَا مَا يَنْفَعُنَا وَيَنْفَعُ ذُرِّيَّتَنَا، وَلَا يَنْقُصُكَ وَلَا يَنْقُصُ خَزَائِنَكَ.

١٣٠- ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾يَعْنِي: وَأَيُّ النَّاسِ يَزْهَدُ فِي مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَيَتْرُكُهَا رَغْبَةً عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا؟ وَإِنَّمَا عَنَى اللهُ بِذَلِكَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؛ لِاخْتِيَارِهِمْ مَا اخْتَارُوا مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ عَلَى

---

[١٦٨] صحيح: رواه الطبراني في مسند الشاميين، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وأورده الألباني في الصحيحة(١٥٤٥).

الْإِسْلَامِ. لِأَنَّ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ هِيَ الْحَنِيفِيَّةُ الْمُسْلِمَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ فَقَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ لَهُمْ: وَمَنْ يَزْهَدُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْحَنِيفِيَّةَ الْمُسْلِمَةَ ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ يَعْنِي: إِلَّا مَنْ سَفِهَتْ نَفْسُهُ.

فَمَعْنَى الْكَلَامِ: وَمَا يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْحَنِيفِيَّةِ، إِلَّا سَفِيهٌ جَاهِلٌ بِمَوْضِعِ حَظِّ نَفْسِهِ فِيمَا يَنْفَعُهَا، وَيَضُرُّهَا فِي مَعَادِهَا.

﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ يَعْنِي: وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَا إِبْرَاهِيمَ، يَعْنِي: اخْتَرْنَاهُ وَاجْتَبَيْنَاهُ لِلْخُلَّةِ، وَنُصَيِّرُهُ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ بَعْدَهُ إِمَامًا.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يَعْنِي: وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ.

وَالصَّالِحُ مِنْ بَنِي آدَمَ: هُوَ الْمُؤَدِّي حُقُوقَ اللهِ عَلَيْهِ.

١٣١- ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ يَعْنِي: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: أَخْلِصْ لِي الْعِبَادَةَ، وَاخْضَعْ لِي بِالطَّاعَةِ.

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يَعْنِي: قَالَ إِبْرَاهِيمُ مُجِيبًا لِرَبِّهِ: خَضَعْتُ بِالطَّاعَةِ، وَأَخْلَصْتُ بِالْعِبَادَةِ لِمَالِكِ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ وَمُدَبِّرِهَا دُونَ غَيْرِهِ.

١٣٢- ﴿وَوَصَّى بِهَا﴾ يَعْنِي: وَوَصَّى بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ؛ أَعْنِي بِالْكَلِمَةِ قَوْلَهُ: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَهِيَ الْإِسْلَامُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ نَبِيَّهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَهُوَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ وَالتَّوْحِيدُ لِلَّهِ، وَخُضُوعُ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ لَهُ.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ يَعْنِي: عَهِدَ إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَأَمَرَهُمْ بِهِ. ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ يَعْنِي: وَوَصَّى بِذَلِكَ أَيْضًا يَعْقُوبُ بَنِيهِ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ يَعْنِي: إِنَّ اللهَ اخْتَارَ لَكُمْ هَذَا الدِّينَ الَّذِي عَهِدَ

إِلَيْكُمْ فِيهِ، وَاجْتَبَاهُ لَكُمْ. ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ[١٦٩]﴾أَيْ: فَلَا تُفَارِقُوا هَذَا الدِّينَ – وَهُوَ الْإِسْلَامُ – أَيَّامَ حَيَاتِكُمْ. وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدًا لَا يَدْرِي مَتَى تَأْتِيهِ مَنِيَّتُهُ، فَلِذَلِكَ قَالَا لَهُمْ: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ لِأَنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَتَى تَأْتِيكُمْ مَنَايَاكُمْ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، فَلَا تُفَارِقُوا الْإِسْلَامَ، فَتَأْتِيَكُمْ مَنَايَاكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَى غَيْرِ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لَكُمْ رَبُّكُمْ فَتَمُوتُوا وَرَبُّكُمْ سَاخِطٌ عَلَيْكُمْ، فَتَهْلِكُوا.

١٣٣– ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾يَعْنِي: أَكُنْتُمْ – يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، الْمُكَذِّبِينَ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، الْجَاحِدِينَ نُبُوَّتَهُ – حُضُورَ يَعْقُوبَ وَشُهُودَهُ إِذْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ، أَيْ: أَنَّكُمْ لَمْ تَحْضُرُوا ذَلِكَ، فَلَا تَدَّعُوا عَلَى أَنْبِيَائِي وَرُسُلِي الْأَبَاطِيلَ، وَتُنْحِلُوهُمُ الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ، فَإِنِّي ابْتَعَثْتُ خَلِيلِي إِبْرَاهِيمَ – وَوَلَدَهُ إِسْحَاقَ وَإِسْمَاعِيلَ وَذُرِّيَّتَهُمْ – بِالْحَنِيفِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ، وَبِذَلِكَ وَصَّوْا بَنِيهِمْ، وَبِهِ عَهِدُوا إِلَى أَوْلَادِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ.

فَلَوْ حَضَرْتُمُوهُمْ فَسَمِعْتُمْ مِنْهُمْ؛ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ عَلَى غَيْرِ مَا نَحَلْتُمُوهُمْ مِنَ الْأَدْيَانِ وَالْمِلَلِ مِنْ بَعْدِهِمْ!.

وَهَذِهِ آيَاتٌ نَزَلَتْ، تَكْذِيبًا مِنَ اللهِ – تَعَالَى – لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي دَعْوَاهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ وَوَلَدِهِ يَعْقُوبَ: أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِلَّتِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ فَتَعْلَمُوا مَا قَالَ لِوَلَدِهِ وَقَالَ لَهُ وَلَدُهُ. ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ مَا قَالَ لَهُمْ وَمَا قَالُوا لَهُ:﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾يَعْنِي: أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ يَعْقُوبَ، إِذْ قَالَ يَعْقُوبُ لِبَنِيهِ حِينَ حُضُورِ مَوْتِهِ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾يَعْنِي: أَيَّ شَيْءٍ تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي؟ أَيْ: مِنْ بَعْدِ وَفَاتِي؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ[١٧٠] إِلَهًا وَاحِدًا﴾يَعْنِي: قَالَ بَنُوهُ لَهُ: نَعْبُدُ

---

[١٦٩] **قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** ﴿**فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ إِيجَازٌ بَلِيغٌ، وَالْمَعْنَى: الْزَمُوا الْإِسْلَامَ وَدُومُوا عَلَيْهِ وَلَا تُفَارِقُوهُ حَتَّى تَمُوتُوا.

فَأَتَى بِلَفْظٍ مُوجِزٍ يَتَضَمَّنُ الْمَقْصُودَ، وَيَتَضَمَّنُ وَعْظًا وَتَذْكِيرًا بِالْمَوْتِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَرْءَ يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ يَمُوتُ وَلَا يَدْرِي مَتَى؟ فَإِذَا أُمِرَ بِأَمْرٍ لَا يَأْتِيهِ الْمَوْتُ إِلَّا وَهُوَ عَلَيْهِ؛ فَقَدْ تَوَجَّهَ الْخِطَابُ مِنْ وَقْتِ الْأَمْرِ دَائِبًا لَازِمًا.

[١٧٠] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:** إِبْرَاهِيمُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى يَعْقُوبَ: جَدٌّ، وَإِسْمَاعِيلُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ: عَمٌّ، وَإِسْحَاقُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ: أَبٌ مُبَاشِر.

أَمَّا إِطْلَاقُ الْأُبُوَّةِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى إِسْحَاقَ؛ فَالْأَمْرُ فِيهِ ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّ إِسْحَاقَ أَبُوهُ، وَإِبْرَاهِيم جَدُّهُ؛ وَالْجَدُّ: أَبٌ، بَلْ قَالَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – لِهَذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿**مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ**﴾، وَهِيَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ إِبْرَاهِيمَ عَالَمٌ! لَكِنَّ الْإِشْكَالَ فِي عَدِّهِمْ إِسْمَاعِيل مِنْ آبَائِهِ مَعَ أَنَّهُ عَمُّهُمْ؟

فَيُقَالُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِعُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –: «**أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ**»[صحيح: رواه مسلم، وغيره].

وَ(الصِّنْوُ):الْغُصْنَانِ أَصْلُهُمَا وَاحِدٌ، فَذُكِرَ مَعَ الْآبَاءِ؛ لِأَنَّ الْعَمَّ صِنْوُ الْأَبِ؛ وَكَمَا قَالَ الرَّسُولُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وغيرهما]. كَذَلِكَ نَقُولُ: الْعَمُّ بِمَنْزِلَةِ الْأَبِ.

وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ، وَأَنَّ الْأَبَ لَا يُطْلَقُ حَقِيقَةً عَلَى الْعَمِّ إِلَّا مَقْرُونًا بِالْأَبِ الْحَقِيقِيِّ، وَعَلَى هَذَا فَلَا يَكُونُ فِيهَا إِشْكَالٌ إِطْلَاقًا؛ لِأَنَّ التَّغْلِيبَ سَائِغٌ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَيُقَالُ: (الْقَمَرَانِ)؛ وَالْمُرَادُ بِهِمَا: الشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَيُقَالُ: (الْعُمَرَانِ)؛ وَهُمَا: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ اهـ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَالْعَرَبُ لَا تَمْتَنِعُ مِنْ أَنْ تَجْعَلَ الْأَعْمَامَ بِمَعْنَى الْآبَاءِ، وَالْأَخْوَالَ بِمَعْنَى الْأُمَّهَاتِ، فَلِذَلِكَ دَخَلَ إِسْمَاعِيلُ فِيمَنْ تُرْجِمَ بِهِ عَنِ الْآبَاءِ.

مَعبُّودَكَ الَّذِي تَعْبُدُهُ، ومعَبُّودُ آبَائِكَ: إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، إِلَهًا وَاحِدًا، أَيْ: نُخْلِصُ لَهُ الْعِبَادَةَ، وَنُوَحِّدُ لَهُ الرُّبُوبِيَّةَ، فَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَلَا نَتَّخِذُ دُونَهُ رَبًّا. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ يَعْنِي: وَنَحْنُ لَهُ خَاضِعُونَ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالطَّاعَةِ.

١٣٤- ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يَعْنِي: إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَوَلَدَهُمْ.

يَقُولُ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، دَعُوا ذِكْرَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ أَوْلَادِهِمْ بِغَيْرِ مَا هُمْ أَهْلُهُ، وَلَا تَنْحِلُوهُمْ كُفْرَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ فَتُضِيفُونَهَا إِلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ أُمَّةٌ مَضَتْ لِسَبِيلِهَا، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أَيْ: مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ، ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أَيْ: وَلَكُمْ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِثْلُ ذَلِكَ مَا عَمِلْتُمْ.

﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ[١٧١]﴾ أَيْ: وَلَا تُؤَاخَذُونَ أَنْتُمْ – أَيُّهَا النَّاحِلُونَ مَا نَحَلْتُمُوهُمْ مِنَ الْمِلَلِ –، فَتُسْأَلُوا عَمَّا كَانَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ وَوَلَدُهُمْ يَعْمَلُونَ، فَيَكْسِبُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ؛ لِأَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ، وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ.

فَدَعُوا انْتِحَالَهُمْ وَانْتِحَالَ مِلَلِهِمْ، فَإِنَّ الدَّعَاوَى غَيْرُ مُغْنِيَتِكُمْ عِنْدَ اللهِ! وَإِنَّمَا يُغْنِي عَنْكُمْ عِنْدَهُ مَا سَلَفَ لَكُمْ مِنْ صَالِحِ أَعْمَالِكُمْ؛ إِنْ كُنْتُمْ عَمِلْتُمُوهَا وَقَدَّمْتُمُوهَا.

١٣٥- ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ يَعْنِي: وَقَالَتِ الْيَهُودُ لِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَصْحَابِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: كُونُوا هُودًا تَهْتَدُوا؛ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَهُمْ: كُونُوا نَصَارَى تَهْتَدُوا.

---

[١٧١] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ:** قَوْلُهُ: ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾؛ بَيَانٌ لِحَالِ تِلْكَ الْأُمَّةِ وَحَالِ الْمُخَاطَبِينَ: بِأَنَّ لِكُلٍّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ كَسْبَهُ، لَا يَنْفَعُهُ كَسْبُ غَيْرِهِ وَلَا يَنَالُهُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَضُرُّهُ ذَنْبُ غَيْرِهِ.

وَفِيهِ الرَّدُّ عَلَى مَنْ يَتَّكِلُ عَلَى عَمَلِ سَلَفِهِ، وَيُرَوِّحُ نَفْسَهُ بِالْأَمَانِي الْبَاطِلَةِ! وَمِنْهُ مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ؛ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**» [صحيح: رواه مسلم، وغيره]. وَالْمُرَادُ: أَنَّكُمْ لَا تَنْتَفِعُونَ بِحَسَنَاتِهِمْ، وَلَا تُؤَاخَذُونَ بِسَيِّئَاتِهِمْ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ، كَمَا لَا يُسْأَلُونَ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، وَمِثْلُهُ: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾، ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى**﴾ اهـ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ فِي جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ: قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ؛ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»، مَعْنَاهُ: أَنَّ الْعَمَلَ هُوَ الَّذِي يَبْلُغُ بِالْعَبْدِ دَرَجَاتِ الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا**﴾، فَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ أَنْ يَبْلُغَ بِهِ الْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ عِنْدَ اللهِ – تَعَالَى –؛ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ، فَيُبَلِّغَهُ تِلْكَ الدَّرَجَاتِ، فَإِنَّ اللهَ – تَعَالَى – رَتَّبَ الْجَزَاءَ عَلَى الْأَعْمَالِ، لَا عَلَى الْأَنْسَابِ!.

تَعْنِي بِقَوْلِهَا: ﴿تَهْتَدُوا﴾أَيْ: تُصِيبُوا طَرِيقَ الْحَقِّ.

﴿قُلْ﴾يَا مُحَمَّدُ، لَا نَتَّبِعُ الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ، وَلَا نَتَّخِذُهَا مِلَّةً، ﴿بَلْ﴾ نَتَّبِعُ ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ الْمِلَّةُ: الدِّينُ. الْحَنِيفُ: هُوَ الِاسْتِقَامَةُ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ وَاتِّبَاعُهُ عَلَى مِلَّتِهِ.

فَمَعْنَى الْكَلَامِ إِذًا: قُلْ يَا مُحَمَّدُ، بَلْ نَتَّبِعُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ مُسْتَقِيمًا.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾يَقُولُ: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ يَدِينُ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، وَلَا كَانَ مِنَ الْيَهُودِ وَلَا مِنَ النَّصَارَى؛ بَلْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا.

١٣٦- ﴿قُولُوا[١٧٢] ﴾يَعْنِي: قُولُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لِهَؤُلَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا لَكُمْ: كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا: ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾أَيْ: صَدَّقْنَا بِاللهِ. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾يَقُولُ أَيْضًا: صَدَّقْنَا بِالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ إِلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾يَعْنِي: صَدَّقْنَا - أَيْضًا - وَآمَنَّا بِمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴿وَالْأَسْبَاطِ[١٧٣] ﴾، وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ وَلَدِ يَعْقُوبَ.

﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾يَعْنِي: وَآمَنَّا - أَيْضًا - بِالتَّوْرَاةِ الَّتِي آتَاهَا اللهُ مُوسَى، وَبِالْإِنْجِيلِ الَّذِي آتَاهُ اللهُ عِيسَى، ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾وَالْكُتُبِ الَّتِي آتَى النَّبِيِّينَ كُلَّهُمْ، وَأَقْرَرْنَا وَصَدَّقْنَا أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ حَقٌّ وَهُدًى وَنُورٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَأَنَّ جَمِيعَ مَنْ ذَكَرَ اللهُ مِنْ أَنْبِيَائِهِ كَانُوا عَلَى حَقٍّ وَهُدًى، يُصَدِّقُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، عَلَى مِنْهَاجٍ وَاحِدٍ فِي الدُّعَاءِ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ، وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾يَقُولُ: لَا نُؤْمِنُ بِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ، وَنَتَبَرَّأُ مِنْ بَعْضٍ، وَنَتَوَلَّى بَعْضًا، كَمَا تَبَرَّأَتِ الْيَهُودُ مِنْ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَأَقَرَّتْ بِغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَكَمَا تَبَرَّأَتِ

---

[١٧٢] **قَالَ الْإِمَامُ السَّعْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَفِي قَوْلِهِ: ﴿**قُولُوا**﴾: إِشَارَةٌ إِلَى الْإِعْلَانِ بِالْعَقِيدَةِ، وَالصَّدْعِ بِهَا، وَالدَّعْوَةِ لَهَا؛ إِذْ هِيَ أَصْلُ الدِّينِ وَأَسَاسُهُ.

[١٧٣] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَأَمَّا الْأَسْبَاطُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ: فَهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنْ وَلَدِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَدَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ؛ فَسُمُّوا أَسْبَاطًا.

النَّصَارَى مِنْ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأُقِرَّتْ بِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ؛ بَلْ نَشْهَدُ لِجَمِيعِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا رُسُلَ اللهِ وَأَنْبِيَاءَهُ، بُعِثُوا بِالْحَقِّ وَالْهُدَى.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[١٧٤]﴾ يَعْنِي: وَنَحْنُ لَهُ خَاضِعُونَ بِالطَّاعَةِ، مُذْعِنُونَ لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ.

١٣٧- ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ يَعْنِي: فَإِنْ صَدَّقَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِاللهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، وَأَقَرُّوا بِذَلِكَ، مِثْلَ مَا صَدَّقْتُمْ أَنْتُمْ بِهِ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – وَأَقْرَرْتُمْ؛ فَقَدْ وُفِّقُوا وَرَشَدُوا، وَلَزِمُوا طَرِيقَ الْحَقِّ، وَاهْتَدَوْا، وَهُمْ حِينَئِذٍ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنْهُمْ، بِدُخُولِهِمْ فِي مِلَّتِكُمْ بِإِقْرَارِهِمْ بِذَلِكَ.

فَدلَّ تَعَالَى ذِكْرُهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ مِنْ أَحَدٍ عَمَلًا إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِهَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي عَدَّهَا قَبْلَهَا.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يَعْنِي: وَإِنْ تَوَلَّى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا لِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَصْحَابِهِ كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى، فَأَعْرَضُوا، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِمِثْلِ إِيمَانِكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – بِاللهِ، وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، وَابْتُعِثَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ رُسُلِ اللهِ وَبَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ، فَصَدَّقُوا بَعْضًا وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ؛ ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ[١٧٥]﴾ أَيْ: فَاعْلَمُوا – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – أَنَّهُمْ إِنَّمَا هُمْ فِي عِصْيَانٍ وَفِرَاقٍ وَحَرْبٍ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلَكُمْ.

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾ يَعْنِي: فَسَيَكْفِيكَ اللهُ يَا مُحَمَّدُ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا لَكَ وَلِأَصْحَابِكَ: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، إِنْ هُمْ تَوَلَّوْا عَنْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمِثْلِ إِيمَانِ أَصْحَابِكَ

---

[١٧٤] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ**: وَقَوْلُهُ: ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾؛ فِيهِ تَعْرِيضٌ بِالْيَهُودِ؛ لِقَوْلِهِمْ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ، وَبِالنَّصَارَى لِقَوْلِهِمْ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ، أَيْ: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ مَا كَانَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ، فَكَيْفَ تَدَّعُونَ عَلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ أَوِ النَّصْرَانِيَّةِ؟!.

[١٧٥] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَصْلُ الشِّقَاقِ عِنْدَنَا – وَاللهُ أَعْلَمُ –: مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: شَقَّ عَلَيْهِ هَذَا الْأَمْرُ: إِذَا كَرَبَهُ وَآذَاهُ، ثُمَّ قِيلَ: شَاقَّ فُلَانٌ فُلَانًا؛ بِمَعْنَى: نَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ مَا كَرَبَهُ وَآذَاهُ وَأَثْقَلَتْهُ مَسَاءَتُهُ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا**﴾ بِمَعْنَى: فِرَاقَ بَيْنِهِمَا.

بِاللهِ، وَبِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرِهِمْ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ، إِمَّا بِقَتْلِ السَّيْفِ، وَإِمَّا بِجَلَاءٍ عَنْ جِوَارِكَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعُقُوبَاتِ.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾يَعْنِي: فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ لِمَا يَقُولُونَ لَكَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَيُبْدُونَ لَكَ بِأَفْوَاهِهِمْ؛ مِنَ الْجَهْلِ وَالدُّعَاءِ إِلَى الْكُفْرِ وَالْمِلَلِ الضَّالَّةِ، الْعَلِيمُ بِمَا يُبْطِنُونَ لَكَ وَلِأَصْحَابِكَ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْحَسَدِ وَالْبَغْضَاءِ.

فَفَعَلَ اللهُ بِهِمْ ذَلِكَ عَاجِلًا وَأَنْجَزَ وَعْدَهُ، فَكَفَى نَبِيَّهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِتَسْلِيطِهِ إِيَّاهُ عَلَيْهِمْ، حَتَّى قَتَلَ بَعْضَهُمْ، وَأَجْلَى بَعْضًا، وَأَذَلَّ بَعْضًا وَأَخْزَاهُ بِالْجِزْيَةِ وَالصَّغَارِ!.

١٣٨– ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِالصِّبْغَةِ: صَبْغَةَ الْإِسْلَامِ.

وَذَلِكَ أَنَّ النَّصَارَى إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تُنَصِّرَ أَطْفَالَهُمْ، جَعَلَتْهُمْ فِي مَاءٍ لَهُمْ تَزْعُمُ أَنَّ ذَلِكَ لَهَا تَقْدِيسٌ، بِمَنْزِلَةِ غُسْلِ الْجَنَابَةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّهُ صِبْغَةٌ لَهُمْ فِي النَّصْرَانِيَّةِ!!.

فَقَالَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَصْحَابِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ – قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: أَيُّهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى! بَلِ اتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، صِبْغَةَ اللهِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الصِّبَغِ، فَإِنَّهَا هِيَ الْحَنِيفِيَّةُ الْمُسْلِمَةُ، وَدَعُوا الشِّرْكَ بِاللهِ، وَالضَّلَالَ عَنْ مَحَجَّةِ هَدَاهُ!.

﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ أَمْرٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – نَبِيَّهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنْ يَقُولَهُ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، الَّذِينَ قَالُوا لَهُ وَلِمَنْ تَبِعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾. فَقَالَ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: قُلْ: بَلْ نَتَّبِعُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، صِبْغَةَ اللهِ، وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ.

يَعْنِي: مِلَّةَ الْخَاضِعِينَ لِلَّهِ الْمُسْتَكِينِينَ لَهُ، فِي اتِّبَاعِنَا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، وَدَيْنُونَتِنَا لَهُ بِذَلِكَ، غَيْرَ مُسْتَكْبِرِينَ فِي اتِّبَاعِ أَمْرِهِ، وَالْإِقْرَارِ بِرِسَالَتِهِ رُسُلَهُ، كَمَا اسْتَكْبَرَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، فَكَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – اسْتِكْبَارًا وَبَغْيًا وَحَسَدًا.

١٣٩- ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ﴾يَعْنِي: قُلْ - يَا مُحَمَّدُ لِمَعَاشِرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، الَّذِينَ قَالُوا لَكَ وَلِأَصْحَابِكَ: كُونُوا هُودًا أَوْ نَصارَى تَهْتَدُوا، وَزَعَمُوا أَنَّ دِينَهُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِكُمْ، وَكِتَابَهُمْ خَيْرٌ مِنْ كِتَابِكُمْ؛ لِأَنَّهُ كَانَ قَبْلَ كِتَابِكُمْ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَوْلَى بِاللهِ مِنْكَ -: ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾يَعْنِي: أَتُخَاصِمُونَنَا وَتُجَادِلُونَنَا﴿فِي اللهِ﴾يَعْنِي: فِي دِينِ اللهِ الَّذِي أَمَرَنَا أَنْ نَدِينَهُ بِهِ ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ يَعْنِي: وَرَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَاحِدٌ، بِيَدِهِ الْخَيْرَاتِ، وَإِلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَالْجَزَاءُ عَلَى الْأَعْمَالِ الْحَسَنَاتِ مِنْهَا وَالسَّيِّئَاتِ، فَتَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ بِاللهِ أَوْلَى مِنَّا، مِنْ أَجْلِ أَنَّ نَبِيَّكُمْ قَبْلَ نَبِيِّنَا، وَكِتَابَكُمْ قَبْلَ كِتَابِنَا، وَرَبُّكُمْ وَرَبُّنَا وَاحِدٌ.

﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾يَعْنِي: وَأَنَّ لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنَّا مَا عَمِلَ وَاكْتَسَبَ مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ وَسَيِّئِهَا ، وَيُجَازَى فَيُثَابُ أَوْ يُعَاقَبُ، لَا عَلَى الْأَنْسَابِ وَقِدَمَ الدِّينِ وَالْكِتَابِ.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾يَعْنِي: وَنَحْنُ لِلَّهِ مُخْلِصُو الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَلَا نَعْبُدُ غَيْرَهُ أَحَدًا، كَمَا عَبَدَ أَهْلُ الْأَوْثَانِ مَعَهُ الْأَوْثَانَ، وَأَصْحَابُ الْعِجْلِ مَعَهُ الْعِجْلَ.

فَأَنَّى تَكُونُونَ خَيْرًا مِنَّا، وَأَوْلَى بِاللهِ مِنَّا؟!

١٤٠- ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾يَعْنِي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْقَائِلِينَ لَكَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾: أَتُجَادِلُونَنَا فِي دِينِ اللهِ، فَتَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ أَوْلَى مِنَّا، وَأَهْدَى مِنَّا سَبِيلًا، أَمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَمَنْ سَمَّى اللهُ، كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى عَلَى مِلَّتِكُمْ، فَيَصِحُّ لِلنَّاسِ بَهْتُكُمْ وَكَذِبُكُمْ؛ لِأَنَّ الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ حَدَثَتْ بَعْدَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللهُ مِنْ أَنْبِيَائِهِ!.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ – إِنِ ادَّعَوْا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى –: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ﴾ بِهِمْ وَبِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَدْيَانِ ﴿أَمِ اللهُ[176] ﴾؟.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ[177] ﴾يَعْنِي: فَإِنْ زَعَمَتْ يَا مُحَمَّدُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى – الَّذِينَ قَالُوا لَكَ وَلِأَصْحَابِكَ كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى – أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى، فَمَنْ أَظْلَمُ مِنْهُمْ؟ يَقُولُ: وَأَيُّ امْرِئٍ أَظْلَمُ مِنْهُمْ؟ وَقَدْ كَتَمُوا شَهَادَةً عِنْدَهُمْ مِنَ اللهِ بِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا مُسْلِمِينَ، فَكَتَمُوا ذَلِكَ، وَنَحَلُوهُمُ الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ!.

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مِنْ كِتْمَانِكُمُ الْحَقَّ فِيمَا أَلْزَمَكُمْ فِي كِتَابِهِ بَيَانَهُ لِلنَّاسِ مِنْ أَمْرِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ فِي أَمْرِ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا مُسْلِمِينَ، وَأَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ الْمُسْلِمَةَ دِينُ اللهِ الَّذِي عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ الدَّيْنُونَةُ بِهِ، دُونَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْمِلَلِ.

وَلَا هُوَ سَاهٍ عَنْ عِقَابِكُمْ عَلَى فِعْلِكُمْ ذَلِكَ، بَلْ هُوَ مُحْصٍ عَلَيْكُمْ حَتَّى يُجَازِيَكُمْ بِهِ مِنَ الْجَزَاءِ مَا أَنْتُمْ لَهُ أَهْلٌ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ!.

فَجَازَاهُمْ عَاجِلًا فِي الدُّنْيَا؛ بِقَتْلِ بَعْضِهِمْ، وَإِجْلَائِهِ عَنْ وَطَنِهِ وَدَارِهِ، وَهُوَ مُجَازِيهِمْ فِي الْآخِرَةِ الْعَذَابَ الْمُهِينَ!.

[176] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ:** وَقَوْلُهُ: ﴿**قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ**﴾، فِيهِ تَقْرِيعٌ وَتَوْبِيخٌ، أَيْ: أَنَّ اللهَ أَخْبَرَنَا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا هُودًا وَلَا نَصَارَى، وَأَنْتُمْ تَدَّعُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا هُودًا ونصارى، فَهَلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ سُبْحَانَهُ؟!!.

[177] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَأَيَّةُ شَهَادَةٍ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنَ اللهِ فِي أَمْرِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ؟
قِيلَ: الشَّهَادَةُ الَّتِي عِنْدَهُمْ مِنَ اللهِ فِي أَمْرِهِمْ، مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَأَمْرُهُمْ فِيهَا بِالِاسْتِنَانِ بِسُنَّتِهِمْ وَاتِّبَاعِ مِلَّتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا حُنَفَاءَ مُسْلِمِينَ. وَهِيَ الشَّهَادَةُ الَّتِي عِنْدَهُمْ مِنَ اللهِ الَّتِي كَتَمُوهَا، حِينَ دَعَاهُمْ نَبِيُّ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالُوا لَهُ: ﴿**لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى**﴾، وَقَالُوا لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ: ﴿**كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا**﴾.
فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَاتِ، فِي تَكْذِيبِهِمْ، وَكِتْمَانِهِمُ الْحَقَّ، وَافْتِرَائِهِمْ عَلَى أَنْبِيَاءِ اللهِ الْبَاطِلَ وَالزُّورَ.

١٤١- ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾: إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ.

وَقَدْ بَيَّنَّا فِيمَا مَضَى أَنَّ الْأُمَّةَ: الْجَمَاعَةُ.

فَمَعْنَى الْآيَةِ إِذًا: قُلْ يَا مُحَمَّدُ - لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُجَادِلُونَكَ فِي اللهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، إِنْ كَتَمُوا مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الشَّهَادَةِ فِي أَمْرِ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ سَمَّيْنَا مَعَهُ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا مُسْلِمِينَ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى، فَكَذَبُوا -: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ - أَيْ: مَضَتْ لِسَبِيلِهَا - فَصَارَتْ إِلَى رَبِّهَا، وَخَلَتْ بِأَعْمَالِهَا وَآمَالِهَا، لَهَا عِنْدَ اللهِ مَا كَسَبَتْ مِنْ خَيْرٍ فِي أَيَّامِ حَيَاتِهَا، وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ مِنْ شَرٍّ، لَا يَنْفَعُهَا غَيْرُ صَالِحِ أَعْمَالِهَا، وَلَا يَضُرُّهَا إِلَّا سَيِّئُهَا.

فَاعْلَمُوا أَيُّهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ذَلِكَ، فَإِنَّكُمْ، إِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ - وَهُمُ الَّذِينَ بِهِمْ تَفْتَخِرُونَ، وَتَزْعُمُونَ أَنَّ بِهِمْ تَرْجُونَ النَّجَاةَ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ، مَعَ سَيِّئَاتِكُمْ وَعَظِيمِ خَطِيئَاتِكُمْ - لَا يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللهِ غَيْرُ مَا قَدَّمُوا مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ، وَلَا يَضُرُّهُمْ غَيْرُ سَيِّئِهَا؛ فَأَنْتُمْ كَذَلِكَ أَحْرَى أَنْ لَا يَنْفَعَكُمْ عِنْدَ اللهِ غَيْرُ مَا قَدَّمْتُمْ مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ، وَلَا يَضُرَّكُمْ غَيْرُ سَيِّئِهَا.

فَاحْذَرُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَبَادِرُوا خُرُوجَهَا بِالتَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللهِ مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ وَالْفِرْيَةِ عَلَى اللهِ وَعَلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَدَعُوا الِاتِّكَالَ عَلَى فَضَائِلِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، فَإِنَّمَا لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ، وَعَلَيْكُمْ مَا اكْتَسَبْتُمْ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ وَالْأَسْبَاطُ يَعْمَلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ؛ لِأَنَّ كُلَّ نَفْسٍ قَدِمَتْ عَلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّمَا تُسْأَلُ عَمَّا كَسَبَتْ وَأَسْلَفَتْ، دُونَ مَا أَسْلَفَ غَيْرُهَا.

١٤٢- ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ يَعْنِي: سَيَقُولُ الْجُهَّالُ مِنَ النَّاسِ - وَهُمُ الْيَهُودُ، وَأَهْلُ النِّفَاقِ -: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.

تَأْوِيلُ الْكَلَامِ: سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ لَكُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ -، إِذَا حَوَّلْتُمْ وُجُوهَكُمْ عَنْ قِبْلَةِ الْيَهُودِ الَّتِي كَانَتْ لَكُمْ قِبْلَةً قَبْلَ أَمْرِي إِيَّاكُمْ بِتَحْوِيلِ وُجُوهِكُمْ عَنْهَا شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ:

﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾يَعْنِي: أَيُّ شَيْءٍ حَوَّلَ وُجُوهَ هَؤُلَاءِ، فَصَرَفَهَا عَنِ الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانُوا يَسْتَقْبِلُونَهُ بِوُجُوهِهِمْ فِي صَلَاتِهِمْ؟

فَأَعْلَمَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ نَبِيَّهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، مَا الْيَهُودُ وَالْمُنَافِقُونَ قَائِلُونَ مِنَ الْقَوْلِ عِنْدَ تَحْوِيلِ قِبْلَتِهِ وَقِبْلَةِ أَصْحَابِهِ عَنِ الشَّامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَعَلَّمَهُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنْ رَدِّهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْجَوَابِ؛ فَقَالَ لَهُ: إِذَا قَالُوا ذَلِكَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ، فَقُلْ لَهُمْ: ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ، أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مُدَّةً، ثُمَّ أَرَادَ اللهُ – تَعَالَى – صَرْفَ قِبْلَةِ نَبِيِّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَأَخْبَرَهُ عَمَّا الْيَهُودُ قَائِلُوهُ مِنَ الْقَوْلِ عِنْدَ صَرْفِهِ وَجْهَهُ وَوَجْهَ أَصْحَابِهِ شَطْرَهُ، وَمَا الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنْ رَدِّهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْجَوَابِ.

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا – شَكَّ سُفْيَانُ – ثُمَّ صُرِفْنَا إِلَى الْكَعْبَةِ».[١٧٨]

عَنِ الْبَرَاءِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ – أَوْ أَخْوَالِهِ – مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَمَعَهُ قَوْمٌ فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رُكُوعٌ، فَقَالَ: أَشْهَدُ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قِبَلَ مَكَّةَ؛ فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ يُحَوَّلَ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَكَانَ الْيَهُودُ أَعْجَبَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَأَهْلَ الْكِتَابِ، فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ الْبَيْتِ؛ أَنْكَرُوا ذَلِكَ.[١٧٩]

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾يَعْنِي بِذَلِكَ – عَزَّ وَجَلَّ –: قُلْ يَا مُحَمَّدُ – لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا لَكَ وَلِأَصْحَابِكَ: مَا وَلَّاكُمْ عَنْ قِبْلَتِكُمْ مِنَ

[١٧٨] صحيح: رواه مسلم، وأحمد، والنسائي؛ وغيرهم.

[١٧٩] صحيح: رواه البخاري، وأحمد؛ وغيرهما.

بَيْتِ الْمَقْدِسِ، الَّتِي كُنْتُمْ عَلَى التَّوَجُّهِ إِلَيْهَا، إِلَى التَّوَجُّهِ إِلَى شَطْرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؟ -: لِلَّهِ مُلْكُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ؛ يَعْنِي بِذَلِكَ: مُلْكَ مَا بَيْنَ قُطْرَيْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ، وَقُطْرَيْ مَغْرِبِهَا، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْعَالَمِ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ فَيُسَدِّدُهُ، وَيُوَفِّقُهُ إِلَى الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ.

وَإِنَّمَا عَنَى - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - بِقَوْلِهِ: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾قُلْ يَا مُحَمَّدُ: إِنَّ اللهَ هَدَانَا بِالتَّوَجُّهِ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لِقِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَأَضَلَّكُمْ - أَيُّهَا الْيَهُودُ، وَالْمُنَافِقُونَ، وَجَمَاعَةُ الشِّرْكِ بِاللهِ - فَخَذَلَكُمْ عَمَّا هَدَانَا لَهُ مِنْ ذَلِكَ.

١٤٣- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾يَعْنِي: كَمَا هَدَيْنَاكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وَبِمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَخَصَصْنَاكُمْ بِالتَّوْفِيقِ لِقِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ وَمِلَّتِهِ، وَفَضَّلْنَاكُمْ بِذَلِكَ عَلَى مَنْ سِوَاكُمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ؛ كَذَلِكَ خَصَصْنَاكُمْ فَفَضَّلْنَاكُمْ عَلَى غَيْرِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ، بِأَنْ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا.

وَأَمَّا الْوَسَطُ؛ فَإِنَّهُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْخِيَارُ.

وَأَرَى أَنَّ اللهَ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - إِنَّمَا وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ وَسَطٌ؛ لِتَوَسُّطِهِمْ فِي الدِّينِ، فَلَا هُمْ أَهْلُ غُلُوٍّ فِيهِ، غُلُوَّ النَّصَارَى الَّذِينَ غَلَوْا بِالتَّرَهُّبِ، وَقِيلُهُمْ فِي عِيسَى مَا قَالُوا فِيهِ! وَلَا هُمْ أَهْلُ تَقْصِيرٍ فِيهِ، تَقْصِيرَ الْيَهُودِ الَّذِينَ بَدَّلُوا كِتَابَ اللهِ، وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَهُمْ وَكَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، وَكَفَرُوا بِهِ؛ وَلَكِنَّهُمْ أَهْلُ تَوَسُّطٍ وَاعْتِدَالٍ فِيهِ. فَوَصَفَهُمُ اللهُ بِذَلِكَ؛ إِذْ كَانَ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَى اللهِ: أَوْسَطُهَا.

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾يَعْنِي: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا عُدُولًا؛ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ لِأَنْبِيَائِي وَرُسُلِي عَلَى أُمَمِهَا بِالْبَلَاغِ، أَنَّهَا قَدْ بَلَّغَتْ مَا أُمِرَتْ بِبَلَاغِهِ مِنْ رِسَالَاتِي إِلَى أُمَمِهَا، وَيَكُونُ رَسُولِي مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - شَهِيدًا عَلَيْكُمْ، بِإِيمَانِكُمْ بِهِ وَبِمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِي.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «يُدْعَى بِنُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ مَا أُرْسِلْتَ بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِقَوْمِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا

جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ!! فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ يَعْلَمُ ذَاكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَهُوَ قَوْلُهُ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾».[180]

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ يَعْنِي: وَلَمْ نَجْعَلْ صَرْفَكَ عَنِ الْقِبْلَةِ الَّتِي كُنْتَ عَلَى التَّوَجُّهِ إِلَيْهَا – يَا مُحَمَّدُ – فَصَرَفْنَاكَ عَنْهَا؛ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُكَ مِمَّنْ لَا يَتَّبِعُكَ، مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ.

وَالْقِبْلَةُ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَيْهَا، الَّتِي عَنَاهَا اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾، هِيَ الْقِبْلَةُ الَّتِي كُنْتَ تَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يَصْرِفَكَ إِلَى الْكَعْبَةِ.

وَإِنَّمَا تَرَكَ ذِكْرَ الصَّرْفِ عَنْهَا؛ اكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ مَا قَدْ ذُكِرَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى مَعْنَاهُ، كَسَائِرِ مَا قَدْ ذَكَرْنَا فِيمَا مَضَى مِنْ نَظَائِرِهِ.

وَإِنَّمَا قُلْنَا: ذَلِكَ مَعْنَاهُ؛ لِأَنَّ مِحْنَةَ اللهِ أَصْحَابَ رَسُولِهِ فِي الْقِبْلَةِ، إِنَّمَا كَانَتْ فِيمَا تَظَاهَرَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عِنْدَ التَّحْوِيلِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْكَعْبَةِ، حَتَّى ارْتَدَّ – فِيمَا ذُكِرَ – رِجَالٌ مِمَّنْ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ وَاتَّبَعَ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَأَظْهَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ نِفَاقَهُمْ، وَقَالُوا: مَا بَالُ مُحَمَّدٍ يُحَوِّلُنَا مَرَّةً إِلَى هَا هُنَا، وَمَرَّةً إِلَى هَا هُنَا؟! وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ، فِيمَا مَضَى مِنْ إِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ يُصَلُّونَ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ: بَطَلَتْ أَعْمَالُنَا وَأَعْمَالُهُمْ وَضَاعَتْ!! وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: تَحَيَّرَ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي دِينِهِ!! فَكَانَ ذَلِكَ: فِتْنَةً لِلنَّاسِ، وَتَمْحِيصًا لِلْمُؤْمِنِينَ!.

فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: أَوَمَا كَانَ اللهُ عَالِمًا بِمَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ، إِلَّا بَعْدَ اتِّبَاعِ الْمُتَّبِعِ، وَانْقِلَابِ الْمُنْقَلِبِ عَلَى عَقِبَيْهِ، حَتَّى قَالَ: مَا فَعَلْنَا الَّذِي فَعَلْنَا مِنْ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ إِلَّا لِنَعْلَمَ الْمُتَّبِعَ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ الْمُنْقَلِبِ عَلَى عَقِبَيْهِ؟.

---

[180] صحيح: رواه البخاري؛ وغيره.

قِيلَ: إِنَّ اللهَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – هُوَ الْعَالِمُ بِالْأَشْيَاءِ كُلِّهَا قَبْلَ كَوْنِهَا، وَلَيْسَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ يُخْبِرُ عَنْ أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ وُجُودِهِ.

فَإِنْ قَالَ: فَمَا مَعْنَى ذَلِكَ؟

قِيلَ لَهُ: أَمَّا مَعْنَاهُ عِنْدَنَا؛ فَإِنَّهُ: وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِيَعْلَمَ رَسُولِي وَحِزْبِي وَأَوْلِيَائِي مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ، فَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾، وَمَعْنَاهُ: لِيَعْلَمَ رَسُولِي وَأَوْلِيَائِي. إِذْ كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَوْلِيَاؤُهُ مِنْ حِزْبِهِ، وَكَانَ مِنْ شَأْنِ الْعَرَبِ إِضَافَةُ مَا فَعَلَتْهُ أَتْبَاعُ الرَّئِيسِ إِلَى الرَّئِيسِ، وَمَا فُعِلَ بِهِمْ إِلَيْهِ، نَحْوَ قَوْلِهِمْ: (فَتْحَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ سَوَادَ الْعِرَاقِ، وَجَبَى خَرَاجَهَا)، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ أَصْحَابُهُ، عَنْ سَبَبٍ كَانَ مِنْهُ فِي ذَلِكَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي: الَّذِي يَتَّبِعُ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِيمَا يَأْمُرُهُ اللهُ بِهِ، فَيُوَجَّهُ نَحْوَ الْوَجْهِ الَّذِي يَتَوَجَّهُ نَحْوَهُ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ[181]﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي: مَنِ الَّذِي يَرْتَدُّ عَنْ دِينِهِ، فَيُنَافِقُ، أَوْ يَكْفُرُ، أَوْ يُخَالِفُ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي ذَلِكَ، مِمَّنْ يُظْهِرُ اتِّبَاعُهُ.

﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾ يَعْنِي: وَمَا جَعَلْنَا تَحْوِيلَتَنَا إِيَّاكَ عَنِ الْقِبْلَةِ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا، وَتَوْلِيَتُنَاكَ عَنْهَا، إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَحْوِيلَتُنَا إِيَّاكَ عَنْهَا وَتَوْلِيتُنَاكَ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَكَبِيرَةً﴾: عَظِيمَةً.

---

[181] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَصْلُ الْمُرْتَدِّ عَلَى عَقِبَيْهِ، هُوَ: الْمُنْقَلَبُ عَلَى عَقِبَيْهِ، الرَّاجِعُ مُسْتَدْبِرًا فِي الطَّرِيقِ الَّذِي قَدْ كَانَ قَطَعَهُ، مُنْصَرِفًا عَنْهُ. فَقِيلَ ذَلِكَ لِكُلِّ رَاجِعٍ عَنْ أَمْرٍ كَانَ فِيهِ، مِنْ دِينٍ أَوْ خَيْرٍ. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلِهِ: ﴿**فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا**﴾، بِمَعْنَى: رَجَعَا فِي الطَّرِيقِ الَّذِي كَانَا سَلَكَاهُ، وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْمُرْتَدِّ مُرْتَدّ؛ لِرُجُوعِهِ عَنْ دِينِهِ وَمِلَّتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾فَإِنَّهُ يُعْنَى بِهِ: وَإِنْ كَانَ تَقْلِيبَتُنَاكَ عَنِ الْقِبْلَةِ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا، لَعَظِيمَةً إِلَّا عَلَى مَنْ وَفَقَّهُ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ –، فَهَدَاهُ لِتَصْدِيقِكَ وَالْإِيمَانِ بِكَ وَبِذَلِكَ، وَاتِّبَاعِكَ فِيهِ، وَفِيمَا أَنْزَلَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عَلَيْكَ.

﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ[١٨٢]﴾يَعْنِي: وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ تَصْدِيقَ رَسُولِهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – بِصَلَاتِكُمُ الَّتِي صَلَّيْتُمُوهَا نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ عَنْ أَمْرِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْكُمْ تَصْدِيقًا لِرَسُولِي، وَاتِّبَاعًا لِأَمْرِي، وَطَاعَةً مِنْكُمْ لِي.

وَإِضَاعَتُهُ إِيَّاهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ – لَوْ أَضَاعَهُ –: تَرْكُ إِثَابَةِ أَصْحَابِهِ وَعَامِلِيهِ عَلَيْهِ، فَيَذْهَبُ ضَيَاعًا، وَيَصِيرُ بَاطِلًا كَهَيْئَةِ إِضَاعَةِ الرَّجُلِ مَالَهُ؛ وَذَلِكَ إِهْلَاكُهُ إِيَّاهُ فِيمَا لَا يَعْتَاضُ مِنْهُ عِوَضًا فِي عَاجِلٍ وَلَا آجِلٍ.

فَأَخْبَرَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَبْطُلُ عَمَلُ عَامَلٍ عَمِلَ لَهُ عَمَلًا وَهُوَ لَهُ طَاعَةٌ، فَلَا يُثِيبُهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ نُسِخَ ذَلِكَ الْفَرْضُ بَعْدَ عَمَلِ الْعَامِلِ إِيَّاهُ عَلَى مَا كَلَّفَهُ مِنْ عَمَلِهِ.

﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾يَعْنِي: أَنَّ اللهَ بِجَمِيعِ عِبَادِهِ ذُو رَأْفَةٍ.

وَالرَّأْفَةُ: أَعْلَى مَعَانِي الرَّحْمَةِ، وَهِيَ عَامَّةٌ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ فِي الدُّنْيَا، وَلِبَعْضِهِمْ فِي الْآخِرَةِ.

وَأَمَّا الرَّحِيمُ: فَإِنَّهُ ذُو الرَّحْمَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَإِنَّمَا أَرَادَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِذَلِكَ: أَنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ أَنْ يُضَيِّعَ لَهُمْ طَاعَةً أَطَاعُوهُ بِهَا فَلَا يُثِيبُهُمْ عَلَيْهَا، وَأَرْأَفُ بِهِمْ مِنْ أَنْ يُؤَاخِذَهُمْ بِتَرْكِ مَا لَمْ يَفْرِضْهُ عَلَيْهِمْ.

---

[١٨٢] عَنِ البَرَاءِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –: أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى – أَوْ صَلَّاهَا – صَلَاةَ العَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ صَلَّى مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ، قَالَ: أَشْهَدُ بِاللهِ! لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قِبَلَ مَكَّةَ؛ فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ البَيْتِ! وَكَانَ الَّذِي مَاتَ عَلَى القِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ البَيْتِ رِجَالٌ قُتِلُوا، لَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [صحيح: رواه البخاري، وغيره].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا وُجِّهَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى الكَعْبَةِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ بِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾ [صحيح: رواه أحمد، وأبو داود ، والترمذي – واللفظ له –، وابن حبان، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في التعليقات الحسان(١٧١٤)، وصحيح أبي داود(٤٦٨٠)، وصحيح الترمذي(٢٩٦٤)].

أَيْ: وَلَا تَأْسَوْا عَلَى مَوْتَاكُمُ الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؛ فَإِنِّي لَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ إِيَّايَ بِصَلَاتِهِمُ الَّتِي صَلُّوهَا كَذَلِكَ مُثِيبٌ؛ لِأَنِّي أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْ أُضَيِّعَ لَهُمْ عَمَلًا عَمِلُوهُ لِي، وَلَا تَحْزَنُوا عَلَيْهِمْ؛ فَإِنِّي غَيْرُ مُؤَاخِذُهُمْ بِتَرْكِهِمُ الصَّلَاةَ إِلَى الْكَعْبَةِ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ فَرَضْتُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَا أَرْأَفُ بِخُلُقِي مِنْ أَنْ أُعَاقِبَهُمْ عَلَى تَرْكِهِمْ مَا لَمْ آمُرُهُمْ بِعَمَلِهِ.

١٤٤– ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ[١٨٣]﴾ يَعْنِي: قَدْ نَرَى – يَا مُحَمَّدُ – نَحْنُ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ. وَيَعْنِي بِالتَّقَلُّبِ: التَّحَوُّلِ وَالتَّصَرُّفِ. وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ نَحْوَ السَّمَاءِ وَقِبَلِهَا.

وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُ ذَلِكَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِيمَا بَلَغَنَا –؛ لِأَنَّهُ كَانَ قَبْلَ تَحْوِيلِ قِبْلَتِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْكَعْبَةِ يَرْفَعُ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – أَمْرَهُ بِالتَّحْوِيلِ نَحْوَ الْكَعْبَةِ.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ يَعْنِي: فَلَنَصْرِفَنَّكَ عَنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، إِلَى قِبْلَةٍ (تَرْضَاهَا): تَهْوَاهَا وَتُحِبُّهَا.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ يَعْنِي: اصْرِفْ وَجْهَكَ وَحَوِّلْهُ ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يَعْنِي بِالشَّطْرِ: النَّحْوَ وَالْقَصْدَ وَالتِّلْقَاءَ.

﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ يَعْنِي: فَأَيْنَمَا كُنْتُمْ مِنَ الْأَرْضِ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – فَحَوِّلُوا وُجُوهَكُمْ فِي صَلَاتِكُمْ نَحْوَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَتِلْقَاءَهُ.

فَأَوْجَبَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَرْضَ التَّوَجُّهِ نَحْوَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي صَلَاتِهِمْ حَيْثُ كَانُوا مِنْ أَرْضِ اللهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى –.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يَعْنِي: وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَحْبَارُ الْيَهُودِ وَعُلَمَاءُ النَّصَارَى[١٨٤] ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يَعْنِي: هَؤُلَاءِ الْأَحْبَارَ وَالْعُلَمَاءَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، يَعْلَمُونَ أَنَّ التَّوَجُّهَ نَحْوَ الْمَسْجِدِ، الْحَقُّ الَّذِي فَرَضَهُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَذُرِّيَّتِهِ وَسَائِرِ عِبَادِهِ بَعْدَهُ.

---

[١٨٣] عَنْ الْبَرَاءِ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْمَدِينَةَ، صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا**﴾، فَوُجِّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ [صحيح: رواه البخاري، وأحمد؛ وغيرهما].

[١٨٤] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَقَدْ قِيلَ: إِنَّمَا عَنَى بِذَلِكَ الْيَهُودَ خَاصَّةً.

وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾أَنَّهُ الْفَرْضُ الْوَاجِبُ عَلَى عِبَادِ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –، وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ فَرَضَهُ عَلَيْهِمْ.

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾يَعْنِي: وَلَيْسَ اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – فِي اتِّبَاعِكُمْ أَمْرَهُ، وَانْتِهَائِكُمْ إِلَى طَاعَتِهِ، فِيمَا أَلْزَمَكُمْ مِنْ فَرَائِضِهِ، وَإِيمَانِكُمْ بِهِ فِي صَلَاتِكُمْ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ صَلَاتِكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَلَا هُوَ سَاهٍ عَنْهُ، وَلَكِنَّهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – يُحْصِيه لَكُمْ وَيَدَّخِرُهُ لَكُمْ عِنْدَهُ، حَتَّى يُجَازِيَكُمْ بِهِ أَحْسَنَ جَزَاءٍ، وَيُثِيبُكُمْ عَلَيْهِ أَفْضَلَ ثَوَابٍ.

١٤٥– ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ[١٨٥]﴾يَعْنِي بِذَلِكَ تَبارَكَ اسْمُهُ: وَلَئِنْ جِئْتَ – يَا مُحَمَّدُ – الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، بِكُلِّ بُرْهَانٍ وَحُجَّةٍ – وَهِيَ الْآيَةُ – بِأَنَّ الْحَقَّ هُوَ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ، مِنْ فَرْضِ التَّحَوُّلِ مِنْ قِبْلَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي الصَّلَاةِ، إِلَى قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؛ مَا صَدَّقُوا بِهِ، وَلَا اتَّبَعُوا – مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ – قِبْلَتَكَ الَّتِي حَوَّلْتُكَ إِلَيْهَا؛ وَهِيَ التَّوَجُّهُ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ[١٨٦]﴾يَقُولُ: وَمَا لَكَ مِنْ سَبِيلٍ يَا مُحَمَّدُ إِلَى اتِّبَاعِ قِبْلَتِهِمْ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ تَسْتَقْبِلُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ بِصَلَاتِهَا، وَأَنَّ النَّصَارَى تَسْتَقْبِلُ الْمَشْرِقَ، فَأَنَّى يَكُونُ لَكَ السَّبِيلُ إِلَى اتِّبَاعِ قِبْلَتِهِمْ، مَعَ اخْتِلَافِ وجُوهِهَا؟.

يَقُولُ: فَالْزَمْ قِبْلَتَكَ الَّتِي أُمِرْتَ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهَا، وَدَعْ عَنْكَ مَا تَقُولُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَتَدْعُوكَ إِلَيْهِ مِنْ قِبْلَتِهِمْ وَاسْتِقْبَالِهَا.

---

[١٨٥] قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُبَالَغَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ التَّسْلِيَةَ لِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَتَرْوِيحِ خَاطِرِهِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لَا تُؤَثِّرُ فِيهِمْ كُلُّ آيَةٍ، وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَى الْحَقِّ وَإِنْ جَاءَهُمْ بِكُلِّ بُرْهَانٍ فَضْلًا عَنْ بُرْهَانٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَتْرُكُوا اتِّبَاعَ الْحَقِّ لِدَلِيلٍ عِنْدَهُمْ أَوْ لِشُبْهَةٍ طَرَأَتْ عَلَيْهِمْ، حَتَّى يُوَازِنُوا بَيْنَ مَا عِنْدَهُمْ، وَمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَيُقْلِعُوا عَنْ غَوَايَتِهِمْ عِنْدَ وُضُوحِ الْحَقِّ؛ بَلْ كَانَ تَرْكُهُمْ لِلْحَقِّ تَمَرُّدًا وَعِنَادًا، مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ! وَمَنْ كَانَ هَكَذَا؛ فَهُوَ لَا يَنْتَفِعُ بِالْبُرْهَانِ أَبَدًا!!.

[١٨٦] قَالَ أَحَدُهُمْ(!): فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَالَ: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾، وَلَهُمْ قِبْلَتَانِ: لِلْيَهُودِ قِبْلَةٌ، وَلِلنَّصَارَى قِبْلَةٌ؟.

قُلْتُ: كِلْتَا الْقِبْلَتَيْنِ بَاطِلَة مُخَالِفَة لِقِبْلَةِ الْحَقِّ؛ فَكَانَتَا بِحُكْمِ الِاتِّحَادِ فِي الْبُطْلَانِ، قِبْلَة وَاحِدَة.

﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾يَعْنِي: وَمَا الْيَهُودُ بِتَابِعَةٍ قِبْلَةَ النَّصَارَى، وَلَا النَّصَارَى بِتَابِعَةٍ قِبْلَةَ الْيَهُودِ فَمُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَهَا.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ[١٨٧] ﴾يَعْنِي: وَلَئِنِ الْتَمَسْتَ يَا مُحَمَّدُ رِضَا هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، الَّذِينَ قَالُوا لَكَ وَلِأَصْحَابِكَ: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، فَاتَّبَعْتَ قِبْلَتَهُمْ، يَعْنِي: فَرَجَعْتَ إِلَى قِبْلَتِهِمْ.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾يَعْنِي: مِنْ بَعْدِ مَا وَصَلَ إِلَيْكَ مِنَ الْعِلْمِ، بِإِعْلَامِي إِيَّاكَ أَنَّهُمْ مُقِيمُونَ عَلَى بَاطِلٍ، وَعَلَى عِنَادٍ مِنْهُمْ لِلْحَقِّ، وَمَعْرِفَةٍ مِنْهُمْ أَنَّ الْقِبْلَةَ الَّتِي وَجَّهْتُكَ إِلَيْهَا هِيَ الْقِبْلَةُ الَّتِي فَرَضْتُ عَلَى أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ –، وَسَائِرِ وَلَدِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الرُّسُلِ التَّوَجُّهَ نَحْوَهَا؛ ﴿إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾يَعْنِي: إِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ، مِنْ عِبَادِي الظَّلَمَةِ أَنْفُسَهُمُ، الْمُخَالِفِينَ أَمْرِي، وَالتَّارِكِينَ طَاعَتِي ، وَأَحَدُهُمْ وَفِي عِدَادِهِمْ.

١٤٦– ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾يَعْنِي: أَحْبَارَ الْيَهُودِ، وَعُلَمَاءَ النَّصَارَى.

---

[١٨٧] قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ: قَوْلُهُ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فِيهِ مِنَ التَّهْدِيدِ الْعَظِيمِ وَالزَّجْرِ الْبَلِيغِ مَا تَقْشَعِرُّ لَهُ الْجُلُودُ! وَتَرْجُفُ مِنْهُ الْأَفْئِدَةُ! وَإِذَا كَانَ الْمَيْلُ إِلَى أَهْوِيَةِ الْمُخَالِفِينَ لِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ الْغَرَّاءِ وَالْمِلَّةِ الشَّرِيفَةِ مِنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الَّذِي هُوَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يُوجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ – وَحَاشَاهُ – مِنَ الظَّالِمِينَ، فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهِ مِنْ أُمَّتِهِ؟! وَقَدْ صَانَ اللهُ هَذِهِ الْفِرْقَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ – بَعْدَ ثُبُوتِ قَدَمِ الْإِسْلَامِ، وَارْتِفَاعِ مَنَارِهِ – عَنْ أَنْ يَمِيلُوا إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَوَى أَهْلِ الْكِتَابِ، وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا دَسِيسَةٌ شَيْطَانِيَّةٌ! وَوَسِيلَةٌ طَاغُوتِيَّةٌ! وَهِيَ مَيْلُ بَعْضِ مَنْ تَحَمَّلَ حُجَجَ اللهِ إِلَى هَوَى بَعْضِ طَوَائِفِ الْمُبْتَدِعَةِ؛ لِمَا يَرْجُوهُ مِنَ الْحُطَامِ الْعَاجِلِ مِنْ أَيْدِيهِمْ! أَوِ الْجَاهِ لَدَيْهِمْ إِنْ كَانَ لَهُمْ فِي النَّاسِ دَوْلَةٌ، أَوْ كَانُوا مِنْ ذَوِي الصَّوْلَةِ! وَهَذَا الْمَيْلُ لَيْسَ بِدُونِ ذَلِكَ الْمَيْلِ، بَلِ اتِّبَاعُ أَهْوِيَةِ الْمُبْتَدِعَةِ تُشْبِهُ اتِّبَاعَ أَهْوِيَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ كَمَا يُشْبِهُ الْمَاءُ الْمَاءَ، وَالْبَيْضَةُ الْبَيْضَةَ، وَالتَّمْرَةُ التَّمْرَةَ! وَقَدْ تَكُونُ مَفْسَدَةُ اتِّبَاعِ أَهْوِيَةِ الْمُبْتَدِعَةِ أَشَدَّ عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ مِنْ مَفْسَدَةِ اتِّبَاعِ أَهْوِيَةِ أَهْلِ الْمِلَلِ؛ فَإِنَّ الْمُبْتَدِعَةَ يَنْتَمُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيُظْهِرُونَ لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ يَنْصُرُونَ الدِّينَ وَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ(!) وَهُمْ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، وَالضِّدُّ لِمَا هُنَالِكَ! فَلَا يَزَالُونَ يَنْقُلُونَ مَنْ يَمِيلُ إِلَى أَهْوِيَتِهِمْ مِنْ بِدْعَةٍ إِلَى بِدْعَةٍ! وَيَدْفَعُونَهُ مِنْ شُنْعَةٍ إِلَى شُنْعَةٍ!! حَتَّى يَسْلَخُوهُ مِنَ الدِّينِ وَيُخْرِجُونَهُ مِنْهُ!! وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ مِنْهُ فِي الصَّمِيمِ! وَأَنَّ الصِّرَاطَ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ!!.

هَذَا إِنْ كَانَ فِي عِدَادِ الْمُقَصِّرِينَ وَمِنْ جُمْلَةِ الْجَاهِلِينَ!. وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ الْمُمَيِّزِينَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ؛ كَانَ فِي اتِّبَاعِهِ لِأَهْوِيَتِهِمْ: مِمَّنْ أَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ! وَخَتَمَ عَلَى قَلْبِهِ! وَصَارَ نِقْمَةً عَلَى عِبَادِ اللهِ!! وَمُصِيبَةً صَبَّهَا اللهُ عَلَى الْمُقَصِّرِينَ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ فِي عِلْمِهِ وَفَهْمِهِ لَا يَمِيلُ إِلَّا إِلَى الْحَقِّ! وَلَا يَتَّبِعُ إِلَّا الصَّوَابَ!! فَيَضِلُّونَ بِضَلَالِهِ! فَيَكُونُ عَلَيْهِ إِثْمُهُ، وَإِثْمُ مَنِ اقْتَدَى بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ!!.

نَسْأَلُ اللهَ اللُّطْفَ وَالسَّلَامَةَ وَالْهِدَايَةَ!.

يَقُولُ: يَعْرِفُ هَؤُلَاءِ الْأَحْبَارُ مِنَ الْيَهُودِ، وَالْعُلَمَاءُ مِنَ النَّصَارَى: أَنَّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِبْلَتُهُمْ وَقِبْلَةُ إِبْرَاهِيمَ وَقِبْلَةُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ﴾ يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَإِنْ طَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ - وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى -.

﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[١٨٨]﴾ وَذَلِكَ الْحَقُّ هُوَ الْقِبْلَةُ الَّتِي وَجَّهَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلَيْهَا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

يَقُولُ: فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّتِي كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهَا.

فَكَتَمَتْهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، فَتَوَجَّهَ بَعْضُهُمْ شَرْقًا، وَبَعْضُهُمْ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَرَفَضُوا مَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ، وَكَتَمُوا مَعَ ذَلِكَ أَمْرَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ.

فَأَطْلَعَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مُحَمَّدًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأُمَّتَهُ عَلَى خِيَانَتِهِمُ اللهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -، وَخِيَانَتِهِمْ عِبَادَهُ، وَكِتْمَانِهِمْ ذَلِكَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ مَا يَفْعَلُونَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُمْ بِأَنَّ الْحَقَّ غَيْرُهُ، وَأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْهِمْ مِنَ اللهِ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - خِلَافُهُ، فَقَالَ: (لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)، أَنْ لَيْسَ لَهُمْ كِتْمَانُهُ، فَيَتَعَمَّدُونَ مَعْصِيَةَ اللهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -.

١٤٧- ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يَقُولُ اللهُ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ -: اعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ الْحَقَّ مَا أَعْلَمَكَ رَبُّكَ وَأَتَاكَ مِنْ عِنْدِهِ، لَا مَا يَقُولُ لَكَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى.

وَهَذَا مِنَ اللهِ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - خَبَرٌ لِنَبِيِّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: عَنْ أَنَّ الْقِبْلَةَ الَّتِي وَجَّهَهُ نَحْوَهَا، هِيَ الْقِبْلَةُ الْحَقُّ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، وَمنْ بَعْدَهُ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -.

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لَهُ: فَاعْمَلْ بِالْحَقِّ الَّذِي أَتَاكَ مِنْ رَبِّكَ - يَا مُحَمَّدُ - وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ.

---

[١٨٨] قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي شَرْحِ مَسَائِلِ الْجَاهِلِيَّةِ: وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ كَتَمَ حَقًّا وَهُوَ يَعْلَمُهُ مِنْ غَيْرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، حَتَّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ! مَنْ كَتَمَ الْحَقَّ وَلَمْ يُبَيِّنْهُ لِلنَّاسِ؛ فَإِنَّهُ عَلَى طَرِيقَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى!!.

يَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾أَيْ: فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِّينَ فِي أَنَّ الْقِبْلَةَ الَّتِي وَجَّهْتُكَ نَحْوَهَا قِبْلَةُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِي – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَقِبْلَةَ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرَهُ.

فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: أَوَكَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – شَاكًّا فِي أَنَّ الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِ، أَوْ فِي أَنَّ الْقِبْلَةَ الَّتِي وَجَّهَهُ اللهُ إِلَيْهَا حَقٌّ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –، حَتَّى نُهِيَ عَنِ الشَّكِّ فِي ذَلِكَ، فَقِيلَ لَهُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾؟.

قِيلَ: ذَلِكَ مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي تُخْرِجُهُ الْعَرَبُ مَخْرَجَ الْأَمْرِ أَوِ النَّهْيِ لِلْمُخَاطَبِ بِهِ، وَالْمُرَادُ بِهِ غَيْرُهُ؛ كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾فَخَرَجَ الْكَلَامُ مَخْرَجَ الْأَمْرِ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالنَّهْيِ لَهُ، وَالْمُرَادُ بِهِ أَصْحَابُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ.

١٤٨– ﴿وَلِكُلٍّ﴾يَعْنِي: وَلِكُلِّ أَهْلِ مِلَّةٍ ﴿وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾يَعْنِي: هُوَ مُوَلٍّ وَجْهَهُ إِلَيْهَا مُسْتَقْبِلُهَا.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾أَيْ: قَدْ بَيَّنْتُ لَكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – الْحَقَّ، وَهَدَيْتُكُمْ لِلْقِبْلَةِ الَّتِي ضَلَّتْ عَنْهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَسَائِرُ أَهْلِ الْمِلَلِ غَيْرُكُمْ، فَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، شُكْرًا لِرَبِّكُمْ، وَتَزَوَّدُوا فِي دُنْيَاكُمْ لِأُخْرَاكُمْ، فَإِنِّي قَدْ بَيَّنْتُ لَكُمْ سُبُلَ النَّجَاةِ، فَلَا عُذْرَ لَكُمْ فِي التَّفْرِيطِ، وَحَافِظُوا عَلَى قِبْلَتِكُمْ، فَلَا تُضَيِّعُوهَا كَمَا ضَيَّعَتْهَا الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ، فَتَضِلُّوا كَمَا ضَلَّتْ!.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا﴾يَعْنِي: فِي أَيِّ مَكَانٍ وَبُقْعَةٍ تَهْلِكُونَ فِيهِ، يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾يَعْنِي: إِنَّ اللهَ – تَعَالَى – عَلَى جَمْعِكُمْ – بَعْدَ مَمَاتِكُمْ – مِنْ قُبُورِكُمْ إِلَيْهِ، مِنْ حَيْثُ كُنْتُمْ وَعَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَشَاءُ: (قَدِيرٌ)، فَبَادِرُوا خُرُوجَ أَنْفُسِكُمْ بِالصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ قَبْلَ مَمَاتِكُمْ لِيَوْمَ بَعْثِكُمْ وَحَشْرِكُمْ.

١٤٩- ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾يَعْنِي: وَمَنْ أَيِّ مَوْضِعٍ خَرَجْتَ إِلَى أَيِّ مَوْضِعٍ وجَّهْتَ فَوَلِّ يَا مُحَمَّدُ وَجْهَكَ. يَقُولُ: حَوِّلْ وَجْهَكَ ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾التَّوْلِيَة فِي هَذَا الْمَوْضِعِ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، إِنَّمَا هِيَ: الْإِقْبَالُ بِالْوَجْهِ نَحْوَهُ.

﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾يَعْنِي: وَإِنَّ التَّوَجُّهَ شَطْرَهُ لِلْحَقِّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ، فَحَافِظُوا عَلَيْهِ، وَأَطِيعُوا اللهَ فِي تَوَجُّهِكُمْ قِبَلَهُ.

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾يَقُولُ: فَإِنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – لَيْسَ بِسَاهٍ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، وَلَا بِغَافِلٍ عَنْهَا، وَلَكِنَّهُ مُحْصِيهَا لَكُمْ، حَتَّى يُجَازِيَكُمْ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

١٥٠- ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾يَعْنِي: مِنْ أَيِّ مَكَانٍ وَبُقْعَةٍ شَخَصْتَ فَخَرَجْتَ – يَا مُحَمَّدُ –، فَوَلِّ وَجْهَكَ تِلْقَاءَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ – وَهُوَ شَطْرُهُ –.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾يَعْنِي: وَأَيْنَمَا كُنْتُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – مِنْ أَرْضِ اللهِ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ فِي صَلَاتِكُمْ تُجَاهَهُ وَقِبَلَهُ وَقَصْدَهُ.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾يَعْنِي: أَهْل الْكِتَابِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَأَيَّةُ حُجَّةٍ كَانَتْ لِأَهْلِ الْكِتَابِ بِصَلَاةِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَصْحَابِهِ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، عَلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَصْحَابِهِ؟

قِيلَ: إِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: مَا دَرَى مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ أَيْنَ قِبْلَتُهُمْ حَتَّى هَدَيْنَاهُمْ نَحْنُ! وَقَوْلُهُمْ: يُخَالِفُنَا مُحَمَّدٌ فِي دِينِنَا وَيَتَّبِعُ قِبْلَتَنَا!! فَهِيَ الْحُجَّةُ الَّتِي كَانُوا يَحْتَجُّونَ بِهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَصْحَابِهِ، عَلَى وَجْهِ الْخُصُومَةِ مِنْهُمْ لَهُمْ، وَالتَّمْوِيهِ مِنْهُمْ بِهَا عَلَى الْجُهَّالِ وَأَهْلِ الْغَبَاءِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

فَقَطَعَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – ذَلِكَ مِنْ حُجَّتِهِمْ وَحسمه، بِتَحْوِيلِ قِبْلَةِ نَبِيِّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ، مِنْ قِبْلَةِ الْيَهُودِ إِلَى قِبْلَةِ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ –.

وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى قَوْلِ اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ –: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ يَعْنِي بِالنَّاسِ: الَّذِينَ كَانُوا يَحْتَجُّونَ عَلَيْهِمْ بِمَا وَصَفْتُ.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ فَإِنَّهُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ مِنْ قُرَيْشٍ.

وَمَعْنَى الْكَلَامِ: لِئَلَّا يَكُونَ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ عَلَيْكُمْ خُصُومَةٌ وَدَعْوَى بَاطِلَةٌ غَيْرَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، فَإِنَّ لَهُمْ عَلَيْكُمْ دَعْوَى بَاطِلَةً وَخُصُومَةً بِغَيْرِ حَقٍّ، بِقِيلِهِمْ لَكُمْ: رَجَعَ مُحَمَّدٌ إِلَى قِبْلَتِنَا، وَسَيَرْجُعُ إِلَى دِينِنَا!!.

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ يَعْنِي: فَلَا تَخْشَوْا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَفْتُ لَكُمْ أَمْرَهُمْ مِنَ الظَّلَمَةِ فِي حُجَّتِهِمْ وَجِدَالِهِمْ، وَقَوْلُهُمْ مَا يَقُولُونَ فِي أَنَّ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَدْ رَجَعَ إِلَى قِبْلَتِنَا! وَسَيَرْجِعُ إِلَى دِينِنَا!! أَوْ أَنْ يَقْدِرُوا لَكُمْ عَلَى ضُرٍّ فِي دِينِكُمْ أَوْ صَدِّكُمْ عَمَّا هَدَاكُمُ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – لَهُ مِنَ الْحَقِّ؛ وَلَكِنِ اخْشَوْنِي، فَخَافُوا عِقَابِي فِي خِلَافِكُمْ أَمْرِي إِنْ خَالَفْتُمُوهُ.

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ يَعْنِي: وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَى أَيِّ بُقْعَةٍ شَخَصْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُ كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ فِي صَلَاتِكُمْ شَطْرَهُ، وَاتَّخِذُوهُ قِبْلَةً لَكُمْ، كَيْلَا يَكُونَ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ – سِوَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ – حُجَّةٌ، وَلِأُتِمَّ بِذَلِكَ – مِنْ هِدَايَتِي لَكُمْ إِلَى قِبْلَةِ خَلِيلِي إِبْرَاهِيمَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – الَّذِي جَعَلْتَهُ إِمَامًا لِلنَّاسِ – نِعْمَتِي، فَأُكْمِلَ لَكُمْ بِهِ فَضْلِي عَلَيْكُمْ، وَأُتَمِّمَ بِهِ شَرَائِعَ مِلَّتِكُمُ الْحَنِيفِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ الَّتِي وَصَّيْتُ بِهَا نُوحًا، وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَسَائِرَ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرَهُمْ.

وَذَلِكَ هُوَ نِعْمَتُهُ الَّتِي أَخْبَرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّهُ مُتِمُّهَا عَلَى رَسُولِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يَعْنِي: وَكَيْ تَرْشُدُوا لِلصَّوَابِ مِنَ الْقِبْلَةِ.

١٥١– قَوْله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي بِذَلِكَ الْعَرَبَ، قَالَ لَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: الْزَمُوا أَيُّهَا الْعَرَبُ طَاعَتِي، وَتَوَجَّهُوا إِلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي أَمَرْتُكُمْ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهَا، لِتَنْقَطِعَ حُجَّةُ الْيَهُودِ عَنْكُمْ، فَلَا

تَكُونُ لَهُمْ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ، وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَتَهْتَدُوا، كَمَا ابْتَدَأْتُكُمْ بِنِعْمَتِي، فَأَرْسَلْتُ فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ. وَذَلِكَ الرَّسُولُ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ: مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ يَعْنِي: آيَاتِ الْقُرْآنِ، ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يَعْنِي: وَيُطَهِّرُكُمْ مِنْ دَنَسِ الذُّنُوبِ، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ[189]﴾ وَهُوَ الْفُرْقَانُ، يَعْنِي: أَنَّهُ يُعَلِّمُهُمْ أَحْكَامَهُ، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ وَيَعْنِي بِالْحِكْمَةِ: السُّنَنَ وَالْفِقْهَ فِي الدِّينِ.

﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي: وَيُعَلِّمُكُمْ مِنْ أَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَصَصِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ، وَالْخَبَرُ عَمَّا هُوَ حَادِثٌ وَكَائِنٌ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَمْ تَكُنِ الْعَرَبُ تَعْلَمُهَا، فَعَلِمُوهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

فَأَخْبَرَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ إِنَّمَا يُدْرِكُونَهُ بِرَسُولِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

١٥٢– ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ يَعْنِي: فَاذْكُرُونِي – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – بِطَاعَتِكُمْ إِيَّايَ فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ وَفِيمَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ؛ أَذْكُرْكُمْ بِرَحْمَتِي إِيَّاكُمْ وَمَغْفِرَتِي لَكُمْ.

﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ يَعْنِي: اشْكُرُوا لِي – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – فِيمَا أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَالْهِدَايَةِ لِلدِّينِ الَّذِي شَرَعْتهُ لِأَنْبِيَائِي وَأَصْفِيَائِي، ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، يَقُولُ: وَلَا تَجْحَدُوا إِحْسَانِي إِلَيْكُمْ، فَأَسْلُبَكُمْ نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِ اشْكُرُوا لِي عَلَيْهَا، وَأَزِيدكُمْ فَأُتَمِّمَ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ، وَأَهْدِيَكُمْ لِمَا هَدَيْتُ لَهُ مَنْ رَضِيتُ عَنْهُ مِنْ عِبَادِي، فَإِنِّي وَعَدْتُ خَلْقِي أَنَّ مَنْ شَكَرَ لِي زِدْتُهُ، وَمَنْ كَفَرَنِي حَرَمْتُهُ وَسَلَبْتُهُ مَا أَعْطَيْتُهُ!!.

---

[189] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ**﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿**وَالْحِكْمَةَ**﴾ وَهِيَ السُّنَّةُ ﴿**وَيُعَلِّمُهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ**﴾ فَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْجَهْلَاءِ يُسَفَّهُونَ بِالْقَوْلِ الْفِرَى، فَانْتَقَلُوا بِبَرَكَةِ رِسَالَتِهِ، وَيُمْنِ سِفَارَتِهِ، إِلَى حَالِ الْأَوْلِيَاءِ، وَسَجَايَا الْعُلَمَاءِ، فَصَارُوا أَعْمَقَ النَّاسِ عِلْمًا، وَأَبَرَّهُمْ قُلُوبًا، وَأَقَلَّهُمْ تَكَلُّفًا، وَأَصْدَقَهُمْ لَهْجَةً.

١٥٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ حَضٌّ مِنَ اللهِ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - عَلَى طَاعَتِهِ، وَاحْتِمَالِ مَكْرُوهِهَا عَلَى الْأَبْدَانِ وَالْأَمْوَالِ؛ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ عَلَى الْقِيَامِ بِطَاعَتِي، وَأَدَاءِ فَرَائِضِي فِي نَاسِخِ أَحْكَامِي، وَالِانْصِرَافِ عَمَّا أَنْسَخُهُ مِنْهَا إِلَى الَّذِي أُحْدِثُهُ لَكُمْ مِنْ فَرَائِضِي، وَأَنْقُلُكُمْ إِلَيْهِ مِنْ أَحْكَامِي، وَالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِي فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ فِي حِينِ إِلْزَامِكُمْ حُكْمَهُ، وَالتَّحَوُّلِ عَنْهُ بَعْدَ تَحْوِيلِي إِيَّاكُمْ عَنْهُ - وَإِنْ لَحِقَكُمْ فِي ذَلِكَ مَكْرُوهٌ مِنْ مَقَالَةِ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ بِقَذْفِهِمْ لَكُمُ الْبَاطِلَ، أَوْ مَشَقَّةٌ عَلَى أَبْدَانِكُمْ فِي قِيَامِكُمْ بِهِ، أَوْ نَقْصٌ فِي أَمْوَالِكُمْ - وَعَلَى جِهَادِ أَعْدَائِكُمْ وَحَرْبِهِمْ فِي سَبِيلِي، بِالصَّبْرِ مِنْكُمْ لِي عَلَى مَكْرُوهِ ذَلِكَ وَمَشَقَّتِهِ عَلَيْكُمْ، وَاحْتِمَالِ عَنَائِهِ وَثِقَلِهِ، ثُمَّ بِالْفَزَعِ مِنْكُمْ فِيمَا يَنُوبُكُمْ مِنْ مُفَظَّعَاتِ الْأُمُورِ إِلَى الصَّلَاةِ لِي، فَإِنَّكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ تُدْرِكُونَ مَرْضَاتِي! وَبِالصَّلَاةِ لِي تَسْتَنْجِحُونَ طَلَبَاتِكُمْ قَبْلِي، وَتُدْرِكُونَ حَاجَاتِكُمْ عِنْدِي! فَإِنِّي مَعَ الصَّابِرِينَ عَلَى الْقِيَامِ بِأَدَاءِ فَرَائِضِي وَتَرْكِ مَعَاصِيَّ؛ أَنْصُرُهُمْ وَأَرْعَاهُمْ وَأَكْلَؤُهُمْ، حَتَّى يَظْفَرُوا بِمَا طَلَبُوا وَأَمَّلُوا قِبَلِي!.

﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يَعْنِي: فَإِنَّ اللهَ نَاصِرُهُ وَظَهِيرُهُ وَرَاضٍ بِفِعْلِهِ.

١٥٤- ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ يَعْنِي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِي فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ، وَتَرْكِ مَعَاصِيَّ، وَأَدَاءِ سَائِرِ فَرَائِضِي عَلَيْكُمْ، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ: هُوَ مَيِّتٌ؛ فَإِنَّ الْمَيِّتَ مِنْ خَلْقِي مَنْ سَلَبْتُهُ حَيَاتَهُ وَأَعْدَمْتُهُ حَوَاسَّهُ، فَلَا يَلْتَذُّ لَذَّةً وَلَا يُدْرِكُ نَعِيمًا؛ فَإِنَّ مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ وَمِنْ سَائِرِ خَلْقِي فِي سَبِيلِي، أَحْيَاءٌ عِنْدِي، فِي حَيَاةٍ وَنُعَيْمٍ، وَعَيْشٍ هَنِيٍّ، وَرُزْقٍ سَنِيٍّ، فَرِحِينَ بِمَا آتَيْتُهُمْ مِنْ فَضْلِي، وَحَبَوْتُهُمْ بِهِ مِنْ كَرَامَتِي!.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ – نَهْرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ – فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ» وَقَالَ عَبْدَةُ: فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ «يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا».[١٩٠]

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ فَإِنَّهُ يُعْنَى بِهِ: وَلَكِنَّكُمْ لَا تَرَوْنَهُمْ فَتَعْلَمُوا أَنَّهُمْ أَحْيَاءٌ، وَإِنَّمَا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ بِخَبَرِي إِيَّاكُمْ بِهِ.

١٥٥– ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ[١٩١] الصَّابِرِينَ﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَتْبَاعَ رَسُولِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، أَنَّهُ مُبْتَلِيهِمْ وَمُمْتَحِنُهُمْ بِشَدَائِدَ مِنَ الْأُمُورِ؛ لِيَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ، كَمَا ابْتَلَاهُمْ فَامْتَحَنَهُمْ بِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْكَعْبَةِ، وَكَمَا امْتَحَنَ أَصْفِيَاءَهُ قَبْلَهُمْ.

وَوَعَدَهُمْ ذَلِكَ فِي آيَةٍ أُخْرَى، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾: وَلَنَخْتَبِرَنَّكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ يَعْنِي: مِنَ الْخَوْفِ مِنَ الْعَدُوِّ، وَبِالْجُوعِ – وَهُوَ الْقَحْطُ –.

يَقُولُ: لَنَخْتَبِرَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ خَوْفٍ يَنَالُكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَبِسَنَةٍ تُصِيبُكُمْ يَنَالُكُمْ فِيهَا مَجَاعَةٌ وَشِدَّةٌ، وَتَتَعَذَّرُ الْمَطَالِبُ عَلَيْكُمْ، فَتَنْقُصُ لِذَلِكَ أَمْوَالُكُمْ، وَحُرُوبٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، فَيَنْقُصُ لَهَا عَدَدُكُمْ، وَمَوْتُ ذَرَارِيِّكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ، وَجُدُوبٌ تَحْدُثُ، فَتَنْقُصُ لَهَا ثِمَارُكُمْ.

---

[١٩٠] حسن: رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب، والطبراني في الكبير والأوسط، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وحسنه الألباني في صحيح الجامع(٣٧٤٢)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٣٧٨)، والتعليقات الحسان (٤٦٣٩).

[١٩١] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَأَصْلُ التَّبْشِيرِ: إِخْبَارُ الرَّجُلِ الرَّجُلَ الْخَبَرَ، يَسُرُّهُ أَوْ يَسُوءُهُ، لَمْ يَسْبِقْهُ بِهِ إِلَيْهِ غَيْرُهُ.

كُلُّ ذَلِكَ امْتِحَانٌ مِنِّي لَكُمْ، وَاخْتِبَارٌ مِنِّي لَكُمْ، فَيَتَبَيَّنُ صَادِقُوكُمْ فِي إِيمَانِهِمْ مِنْ كَاذِبِيكُمْ فِيهِ، وَيُعْرَفُ أَهْلُ الْبَصَائِرِ فِي دِينِهِمْ مِنْكُمْ، مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ فِيهِ وَالشَّكِّ وَالِارْتِيَابِ!.

كُلُّ ذَلِكَ خِطَابٌ مِنْهُ لِأَتْبَاعِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَصْحَابِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: يَا مُحَمَّدُ، بَشِّرِ الصَّابِرِينَ عَلَى امْتِحَانِي بِمَا أَمْتَحِنُهُمْ بِهِ، وَالْحَافِظِينَ أَنْفُسَهُمْ عَنِ التَّقَدُّمِ عَلَى نَهْيِي عَمَّا أَنْهَاهُمْ عَنْهُ، وَالْآخِذِينَ أَنْفُسهُمْ بِأَدَاءِ مَا أُكَلِّفُهُمْ مِنْ فَرَائِضِي ، مَعَ ابْتِلَائِي إِيَّاهُمْ بِمَا أَبْتَلِيهِمْ بِهِ، الْقَائِلِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

فَأَمَرَهُ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِأَنْ يَخُصَّ – بِالْبِشَارَةِ عَلَى مَا يَمْتَحِنُهُمْ بِهِ مِنَ الشَّدَائِدِ – أَهْلَ الصَّبْرِ الَّذِينَ وَصَفَ اللهُ صِفَتَهُمْ.

١٥٦– ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ يَعْنِي: وَبَشِّرِ – يَا مُحَمَّدُ – الصَّابِرِينَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ جَمِيعَ مَا بِهِمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنِّي، فَيُقِرُّونَ بِعُبُودِيَّتِي، وَيُوَحِّدُونَنِي بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَيُصَدِّقُونَ بِالْمَعَادِ وَالرُّجُوعِ إِلَيَّ فَيَسْتَسْلِمُونَ لِقَضَائِي، وَيَرْجُونَ ثَوَابِي، وَيَخَافُونَ عِقَابِي، وَيَقُولُونَ – عِنْدَ امْتِحَانِي إِيَّاهُمْ بِبَعْضِ مِحَنِي، وَابْتِلَائِي إِيَّاهُمْ بِمَا وَعَدْتُهُمْ أَنْ أَبْتَلِيَهُمْ بِهِ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصِ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَائِبِ الَّتِي أَنَا مُمْتَحِنُهُمْ بِهَا –: إِنَّا مَمَالِيكُ رَبِّنَا وَمَعْبُودِنَا أَحْيَاءً، وَنَحْنُ عَبِيدُهُ، وَإِنَّا إِلَيْهِ بَعْدَ مَمَاتِنَا صَائِرُونَ؛ تَسْلِيمًا لِقَضَائِي وَرِضًا بِأَحْكَامِي.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ﴾، هَؤُلَاءِ الصَّابِرُونَ – الَّذِينَ وَصَفَهُمْ وَنَعَتَهُمْ –، (عَلَيْهِمْ) يَعْنِي: لَهُمْ (صَلَوَاتٌ) يَعْنِي: مَغْفِرَةٌ.[١٩٢]

وَصَلَوَاتُ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ: غُفْرَانُهُ لِعِبَادِهِ؛ كَالَّذِي رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، أَنَّهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى»[١٩٣] يَعْنِي: اغْفِرْ لَهُمْ.

---

[١٩٢] قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: الْقَوْلُ بِأَنَّ الصَّلَاةَ مِنَ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ بِمَعْنَى: غُفْرَانُهُ وَرَحْمَتُهُ لِعِبَادِهِ؛ قَوْلٌ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ اللهَ – سُبْحَانَهُ – فَرَّقَ بَيْنَ صَلَاتِهِ عَلَى عِبَادِهِ وَرَحْمَتِهِ، فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾. فعطَفَ الرَّحْمَةَ عَلَى الصَّلَوَاتِ؛ فَاقْتَضَى ذَلِكَ تَغَايُرَهُمَا!. وَالصَّحِيحُ – إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى –: أَنَّ صَلَاةَ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِمْ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى؛ كَمَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: صَلَاةُ اللهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ: الدُّعَاءُ [علقه البخاري في صحيحه بصيغة الجزم].

وَلِذَلِكَ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أَيْ: ثَنَاءٌ مِنَ اللهِ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةٌ.

[١٩٣] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة؛ وغيرهم.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ يَعْنِي: وَلَهُمْ مَعَ الْمَغْفِرَةِ – الَّتِي بِهَا صَفَحَ عَنْ ذُنُوبِهِمْ وَتَغَمَّدَهَا – رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ وَرَأْفَةٌ.

ثُمَّ أَخْبَرَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – مَعَ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ مُعْطِيهِمْ عَلَى اصْطِبَارِهِمْ عَلَى مِحَنِهِ تَسْلِيمًا مِنْهُمْ لِقَضَائِهِ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ – أَنَّهُمْ هُمُ الْمُهْتَدُونَ، الْمُصِيبُونَ طَرِيقَ الْحَقِّ، وَالْقَائِلُونَ مَا يُرْضَى عَنْهُمْ، وَالْفَاعِلُونَ مَا اسْتَوْجَبُوا بِهِ مِنَ اللهِ الْجَزِيلَ مِنَ الثَّوَابِ.

١٥٨– ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ[١٩٤] مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا[١٩٥]﴾ وَإِنَّمَا عَنَى اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الْجَبَلَيْنِ الْمُسَمَّيَيْنِ بِهَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ اللَّذَيْنِ فِي حَرَمِهِ.

---

١٩٤ **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَالصَّفَا: جَمْعُ صَفَاةٍ، وَهِيَ الصَّخْرَةُ الْمَلْسَاءُ، وَأَمَّا الْمَرْوَةُ: فَإِنَّهَا الْحَصَاةُ الصَّغِيرَةُ، يُجْمَعُ قَلِيلُهَا (مَرْوَاتٍ)، وَكَثِيرُهَا (الْمَرْوُ) مِثْلُ تَمْرَةٍ وَتَمَرَاتٍ وَتَمْرٌ.

١٩٥ قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الطَّوَافِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ: هَلْ هُوَ رُكْنٌ، أَوْ وَاجِبٌ، أَوْ سُنَّةٌ؟ فَالْجُمْهُورُ قَالُوا: هُوَ رُكْنٌ لَا يَتِمُّ الْحَجُّ بِدُونِهِ. وَالْأَظْهَرُ وَالْأَقْوَى: أَنَّهُ رُكْنٌ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**اسْعَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ**» [صحيح: رواه أحمد، وابن خزيمة في صحيحه، والدارقطني في سننه، والطبراني في الكبير؛ وصححه الألباني في الإرواء(١٠٧٢)، وصحيح الجامع(٩٦٨)]. وَقَالَتْ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا –: «**مَا أَتَمَّ اللهُ حَجَّ امْرِئٍ وَلَا عُمْرَتَهُ لَمْ يَطُفْ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم؛ وغيرهما].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ تَقُولُونَ: إِنَّ السَّعْيَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ (رُكْنٌ)، وَقَدْ قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾، وَنَفْيُ الْجُنَاحِ لَا يَدُلُّ عَلَى مَا ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ! بَلْ يَدُلُّ عَلَى رَفْعِ الْإِثْمِ فَقَطْ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَهُ (رُكْنًا)؟!.

قُلْنَا: هَذِهِ الْآيَةُ اسْتَشْكَلَهَا عُرْوَةُ بْن الزُّبَيْرِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، فَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ – وَغَيْرُهُ – عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ عُرْوَةُ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا –، فَقُلْتُ لَهَا: أَرَأَيْتِ قَوْلَ اللهِ – تَعَالَى –: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾، فَوَاللهِ مَا عَلَى أَحَدٍ جُنَاحٌ أَنْ لَا يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ! قَالَتْ: بِئْسَ مَا قُلْتَ يَا ابْنَ أُخْتِي!! إِنَّ هَذِهِ لَوْ كَانَتْ كَمَا أَوَّلْتَهَا عَلَيْهِ؛ كَانَتْ: لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَتَطَوَّفَ بِهِمَا، وَلَكِنَّهَا أُنْزِلَتْ فِي الأَنْصَارِ، كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ، الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ الْمُشَلَّلِ، فَكَانَ مَنْ أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا، سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ**﴾.

قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ: قَوْلُهُ: (عَنْ عُرْوَةَ، أَنَّهُ قَالَ – مَا مَعْنَاهُ –: إِنَّ السَّعْيَ لَيْسَ بِوَاجِبٍ؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى – قَالَ: ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾، وَأَنَّ عَائِشَةَ أَنْكَرَتْ عَلَيْهِ، وَقَالَتْ: لَا يَتِمُّ الْحَجُّ إِلَّا بِهِ، وَلَوْ كَانَ كَمَا تَقُولُ يَا عُرْوَةُ؛ لَكَانَتْ: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا).

قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا مِنْ دَقِيقِ عِلْمِهَا، وَفَهْمِهَا الثَّاقِبِ! وَكَبِيرِ مَعْرِفَتِهَا بِدَقَائِقِ الألفاظ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ إِنَّمَا دَلَّ لَفْظُهَا عَلَى رَفْعِ الْجُنَاحِ عَمَّنْ يَطَّوَّفُ بِهِمَا، وَلَيْسَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى عَدَمِ وُجُوبِ السَّعْيِ وَلَا عَلَى وُجُوبِهِ، فَأَخْبَرَتْهُ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – أَنَّ الْآيَةَ لَيْسَتْ فِيهَا دَلَالَةٌ لِلْوُجُوبِ وَلَا لِعَدَمِهِ! وَبَيَّنَتِ السَّبَبَ فِي نُزُولِهَا، وَالْحِكْمَةَ فِي نَظْمِهَا، وَأَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْأَنْصَارِ، حِينَ تَحَرَّجُوا مِنَ السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ كَمَا يَقُولُ عُرْوَةُ؛ لَكَانَتْ: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا.

وَقَدْ يَكُونُ الْفِعْلُ وَاجِبًا، وَيَعْتَقِدُ إِنْسَانٌ أَنَّهُ يُمْنَعُ إِيقَاعُهُ عَلَى صِفَةٍ مَخْصُوصَةٍ؛ وَذَلِكَ كَمَنْ عَلَيْهِ صَلَاةُ الظُّهْرِ، وَظَنَّ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ فِعْلُهَا عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَسَأَلَ عَنْ ذَلِكَ؟ فَيُقَالُ فِي جَوَابِهِ: لَا جُنَاحَ عَلَيْكَ إِنْ صَلَّيْتَهَا فِي هَذَا الْوَقْتِ، فَيَكُونُ جَوَابًا صَحِيحًا، وَلَا يَقْتَضِي نَفْيَ وُجُوبِ صَلَاةِ الظُّهْرِ!.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: مِنْ مَعَالِمِ اللهِ الَّتِي جَعَلَهَا – تَعَالَى ذِكْرُهُ – لِعِبَادِهِ مَعْلَمًا وَمَشْعَرًا يَعْبُدُونَهُ عِنْدَهَا: إِمَّا بِالدُّعَاءِ، وَإِمَّا بِالذِّكْرِ، وَإِمَّا بِأَدَاءِ مَا فُرِضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَمَلِ عِنْدَهَا.

أَعْلَمَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –، بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ السَّعْيَ بَيْنَهُمَا مِنْ مَشَاعِرِ الْحَجِّ الَّتِي سَنَّهَا لَهُمْ، وَأَمَرَ بِهَا خَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، إِذْ سَأَلَهُ أَنْ يُرِيَهُ مَنَاسِكَ الْحَجِّ.

﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ[١٩٦]﴾يَعْنِي: فَمَنْ أَتَاهُ عَائِدًا إِلَيْهِ بَعْدَ بَدْءٍ، ﴿أَوِ اعْتَمَرَ﴾يَعْنِي: أَوِ اعْتَمَرَ الْبَيْتَ، وَيَعْنِي بِالِاعْتِمَارِ: الزِّيَارَةَ، فَكُلُّ قَاصِدٍ لِشَيْءٍ؛ فَهُوَ لَهُ مُعْتَمِرٌ.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾يَعْنِي: فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ وَلَا مَأْثَمَ فِي طَوَافِهِ بِهِمَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَمَا وَجْهُ هَذَا الْكَلَامِ، وَقَدْ قُلْتَ لَنَا: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ ظَاهِرَ الْخَبَرِ، فَإِنَّهُ فِي مَعْنَى الْأَمْرِ بِالطَّوَافِ بِهِمَا؟ فَكَيْفَ يَكُونُ أَمْرًا بِالطَّوَافِ، ثُمَّ يُقَالَ: لَا جُنَاحَ عَلَى مَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فِي الطَّوَافِ بِهِمَا؟ وَإِنَّمَا يُوضَعُ الْجُنَاحُ عَمَّنْ أَتَى مَا عَلَيْهِ بِإِتْيَانِهِ الْجُنَاحُ وَالْحَرَجُ؟ وَالْأَمْرُ بِالطَّوَافِ بِهِمَا، وَالتَّرْخِيصُ فِي الطَّوَافِ بِهِمَا، غَيْرُ جَائِزٍ اجْتِمَاعُهُمَا فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ؟ قِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ بِخِلَافِ مَا إِلَيْهِ ذَهَبْتَ! وَإِنَّمَا مَعْنَى ذَلِكَ – عِنْدَ أَقْوَامٍ –: أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَمَّا اعْتَمَرَ عُمْرَةَ الْقَضِيَّةِ، تَخَوَّفَ أَقْوَامٌ كَانُوا يَطُوفُونَ بِهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ لِصَنَمَيْنِ كَانَا عَلَيْهِمَا تَعْظِيمًا مِنْهُمْ لَهُمَا، فَقَالُوا: وَكَيْفَ نَطُوفُ بِهِمَا، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ تَعْظِيمَ الْأَصْنَامِ وَجَمِيعَ مَا كَانَ يُعْبَدُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ دُونِ اللهِ، شِرْكٌ؟ فَفِي طَوَافِنَا بِهَذَيْنِ الْحَجَرَيْنِ أَحْرَجُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الطَّوَافَ بِهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِنَّمَا كَانَ لِلصَّنَمَيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَا عَلَيْهِمَا، وَقَدْ جَاءَ اللهُ بِالْإِسْلَامِ الْيَوْمَ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَعْظِيمِ شَيْءٍ مَعَ اللهِ بِمَعْنَى الْعِبَادَةِ لَهُ.

[١٩٦] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْحَاجِّ حَاجٌّ؛ لِأَنَّهُ يَأْتِي الْبَيْتَ قَبْلَ التَّعْرِيفِ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْهِ لِطَوَافِ يَوْمِ النَّحْرِ بَعْدَ التَّعْرِيفِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ عَنْهُ إِلَى مِنًى، ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْهِ لِطَوَافِ الصَّدْرِ، فَلِتَكْرَارِهِ الْعُودَ إِلَيْهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، قِيلَ لَهُ: حَاجٌّ.

فَأَنْزَلَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – فِي ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾، يَعْنِي: إِنَّ الطَّوَافَ بِهِمَا، فَتَرَكَ ذِكْرَ الطَّوَافِ بِهِمَا اكْتِفَاءً بِذِكْرِهِمَا عَنْهُ.

وَإِذْ كَانَ مَعْلُومًا عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ بِهِ أَنَّ مَعْنَاهُ: مِنْ مَعَالِمِ اللهِ الَّتِي جَعَلَهَا عَلَمًا لِعِبَادِهِ يَعْبُدُونَهُ عِنْدَهُمَا بِالطَّوَافِ بَيْنَهُمَا، وَيَذْكُرُونَهُ عَلَيْهِمَا وَعِنْدَهُمَا بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ مِنَ الذِّكْرِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا يَتَخَوَّفَنَّ الطَّوَافَ بِهِمَا، مِنْ أَجْلِ مَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَطُوفُونَ بِهِمَا مِنْ أَجْلِ الصَّنَمَيْنِ اللَّذَيْنِ كَانَا عَلَيْهِمَا، فَإِنَّ أَهْلَ الشِّرْكِ كَانُوا يَطُوفُونَ بِهِمَا كُفْرًا، وَأَنْتُمْ تَطُوفُونَ بِهِمَا إِيمَانًا، وَتَصْدِيقًا لِرَسُولِي، وَطَاعَةً لِأَمْرِي، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي الطَّوَافِ بِهِمَا.[١٩٧]

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ يَعْنِي: وَمَنْ تَطَوَّعَ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ بَعْدَ قَضَاءِ حَجَّتِهِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْهِ، ﴿فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ﴾ لَهُ عَلَى تَطَوُّعِهِ لَهُ بِمَا تَطَوَّعَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ فَمُجَازِيهِ بِهِ، ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَا قَصَدَ وَأَرَادَ بِتَطَوُّعِهِ بِمَا تَطَوَّعَ بِهِ.

١٥٩ – ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾

يَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ[١٩٨] مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ[١٩٩]﴾: عُلَمَاءَ الْيَهُودِ وَأَحْبَارَهَا، وَعُلَمَاءَ النَّصَارَى، لِكِتْمَانِهِمُ النَّاسَ أَمْرَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَتَرْكِهِمُ اتِّبَاعَهُ وَهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ.

وَ(الْبَيِّنَات) الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ: مَا بَيَّنَ مِنْ أَمْرِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَمَبْعَثِهِ وَصِفَتِهِ، فِي الْكِتَابَيْنِ اللَّذَيْنِ أَخْبَرَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَنَّ أَهْلَهُمَا يَجِدُونَ صِفَتَهُ فِيهِمَا.

---

[١٩٧] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا: أَنَّ الطَّوَافَ بِهِمَا فَرْضٌ وَاجِبٌ، وَأَنَّ عَلَى مَنْ تَرَكَهُ الْعَوْدَ لِقَضَائِهِ، نَاسِيًا كَانَ أَوْ عَامِدًا؛ لِأَنَّهُ لَا يُجْزِيهِ غَيْرُ ذَلِكَ؛ لِتَظَاهُرِ الْأَخْبَارِ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ حَجَّ بِالنَّاسِ فَكَانَ مِمَّا عَلَّمَهُمْ مِنْ مَنَاسِكِ حَجِّهِمُ الطَّوَافُ بِهِمَا.

وَقَالَ: وَأَجْمَعَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ لَا تُجْزِي مِنْهُ فِدْيَةٌ وَلَا بَدَلٌ، وَلَا يُجْزِي تَارِكَهُ إِلَّا الْعَوْدُ لِقَضَائِهِ؛ كَانَ نَظِيرًا لَهُ الطَّوَافُ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَلَا تُجْزِي مِنْهُ فِدْيَةٌ وَلَا جَزَاءٌ، وَلَا يُجْزِي تَارِكَهُ إِلَّا الْعُودُ لِقَضَائِهِ، إِذْ كَانَا كِلَاهُمَا طَوَافَيْنِ: أَحَدُهُمَا: بِالْبَيْتِ، وَالْآخَرُ: بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ. وَمَنْ فَرَّقَ بَيْنَ حُكْمِهِمَا؛ عُكِسَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ فِيهِ، ثُمَّ سُئِلَ الْبُرْهَانَ عَلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَهُمَا!.

[١٩٨] (**الْكِتْمَانُ**): تَرْكُ إِظْهَارِ الشَّيْءِ مَعَ الْحَاجَةِ إِلَى بَيَانِهِ وَإِظْهَارِهِ ، فَمَنْ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدِّينِ؛ فَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيبَتُهُ!!.

[١٩٩] (**الْبَيِّنَاتُ**): جَمْعُ بَيِّنَةٍ؛ وَهِيَ الْأَدِلَّةُ وَالْبَرَاهِينُ الَّتِي هِيَ بَيِّنَةٌ فِي نَفْسِهَا، وَبِهَا يَتَبَيَّنُ غَيْرُهَا.

وَيَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِـ (الْهُدَى[200]): مَا أَوْضَحَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِ فِي الْكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَقَالَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ النَّاسَ الَّذِي أَنْزَلْنَا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الْبَيَانِ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَنُبُوَّتِهِ، وَصِحَّةِ الْمِلَّةِ الَّتِي أَرْسَلْتُهُ بِهَا وَحَقِّيَّتِهَا، فَلَا يُخْبِرُونَهُمْ بِهِ، وَلَا يُعْلِنُونَ مِنْ تَبْيِينِي ذَلِكَ لِلنَّاسِ وَإِيضَاحِيهِ لَهُمْ، فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلْتُهُ إِلَى أَنْبِيَائِهِمْ.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي: بَعْضَ النَّاسِ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَصِفَتِهِ وَمَبْعَثِهِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَإِيَّاهُمْ عَنَى تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ وَيَعْنِي بِذَلِكَ: التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي خَاصٍّ مِنَ النَّاسِ، فَإِنَّهَا مَعْنِيٌّ بِهَا كُلَّ كَاتِمٍ عِلْمًا فَرَضَ اللهُ – تَعَالَى – بَيَانَهُ لِلنَّاسِ. وَذَلِكَ نَظِيرُ الْخَبَرِ الَّذِي رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَهُ؛ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ!».[201]

﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ يَعْنِي: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَصِفَتِهِ وَأَمْرِ دِينِهِ، أَنَّهُ الْحَقُّ – مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَهُ اللهُ لَهُمْ فِي كُتُبِهِمْ –، يَلْعَنُهُمْ بِكِتْمَانِهِمْ ذَلِكَ، وَتَرْكِهِمْ تَبْيِينَهُ لِلنَّاسِ.

وَاللَّعْنَةُ: الْفَعْلَةُ، مِنْ لَعَنَهُ اللهُ، بِمَعْنَى: أَقْصَاهُ وَأَبْعَدَهُ وَأَسْحَقَهُ. وَأَصْلُ اللَّعْنِ: الطَّرْدُ.

فَمَعْنَى الْآيَةِ إِذًا: أُولَئِكَ يُبْعِدُهُمُ اللهُ مِنْهُ وَمِنْ رَحْمَتِهِ، وَيَسْأَلُ رَبَّهُمُ اللَّاعِنُونَ أَنْ يَلْعَنَهُمْ؛ لِأَنَّ لَعْنَةَ بَنِي آدَمَ وَسَائِرِ خَلْقِ اللهِ مَا لَعَنُوا أَنْ يَقُولُوا: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ!!.

﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ اللَّاعِنُونَ: الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – قَدْ وَصَفَ الْكُفَّارَ بِأَنَّ اللَّعْنَةَ الَّتِي تَحِلُّ بِهِمْ إِنَّمَا هِيَ مِنَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَقَالَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

---

[200] الْهُدَى: مَصْدَرُ هَدَاهُ هُدَى، وَالْهُدَى: هُوَ بَيَانُ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاس، وَيَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ؛ وَهُوَ ضِدُّ الضَّلَالَةِ.

[201] صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، والطبراني في الكبير والصغير والأوسط، والحاكم في المستدرك وصححه؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٦٢٨٤)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٢٠)، والمشكاة(٢٢٣).

١٦٠- ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا[٢٠٢] فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[٢٠٣]﴾.

---

[٢٠٢] **قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ تابوا**﴾: اسْتَثْنَى - تَعَالَى - التَّائِبِينَ الصَّالِحِينَ لِأَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمُ الْمُنِيبِينَ لِتَوْبَتِهِمْ، **وَلَا يَكْفِي فِي التَّوْبَةِ عِنْدَ عُلَمَائِنَا قَوْلُ الْقَائِلِ: قَدْ تُبْتُ؛ حَتَّى يَظْهَرَ مِنْهُ فِي الثَّانِي خِلَافُ الْأَوَّلِ:** فَإِنْ كَانَ مُرْتَدًّا؛ رَجَعَ إِلَى الْإِسْلَامِ مُظْهِرًا شَرَائِعَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْمَعَاصِي؛ ظَهَرَ مِنْهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَجَانَبَ أَهْلَ الْفَسَادِ وَالْأَحْوَالَ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْأَوْثَانِ؛ جَانَبَهُمْ وَخَالَطَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَهَكَذَا يُظْهِرُ عَكْسَ مَا كَانَ عَلَيْهِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي عُدَّةِ الصَّابِرِينَ: **وَلِهَذَا كَانَ مِنْ تَوْبَةِ الدَّاعِي إِلَى الْبِدْعَةِ: أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ بِدْعَةٌ وَضَلَالَةٌ، وَأَنَّ الْهُدَى فِي ضِدِّهِ.**

[٢٠٣] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي شَرْحِ مَسَائِلِ الْجَاهِلِيَّةِ:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ شَرَطَ فِي قَبُولِ تَوْبَتِهِمْ: الْبَيَانُ لِمَا كَتَمُوهُ، فَلَا تَكْفِي التَّوْبَةُ الْمُجْمَلَةُ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنَ الْبَيَانِ، فَيَجِبُ عَلَى مَنْ عَلِمَ الْحَقَّ أَنْ يُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ، وَلَا يَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَيَكْتُمهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَحْصُلَ عَلَى مَصْلَحَةٍ مِنْ مَصَالِحِ الدُّنْيَا! أَوْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُرْضِيَ النَّاسَ(!) فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ يَخْشَاهُ - عَزَّ وَجَلَّ - وَأَنْ يُرْضِيَهُ، فَلَا يَجُوزُ كِتْمَانُ الْحَقِّ لِمَنْ قَدَرَ عَلَى بَيَانِهِ وَإِظْهَارِهِ، أَمَّا مَنْ لَمْ يَقْدِرْ، أَوْ خَافَ بِالْبَيَانِ فِتْنَةً أَكْبَرَ؛ فَإِنَّهُ مَعْذُورٌ، لَكِنْ مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَانِعٌ مِنَ الْبَيَانِ، وَإِنَّمَا كَتَمَ الْحَقَّ مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِ هُوَ وَمَصْلَحَتِهِ هُوَ؛ فَهَذَا يَلْعَنُهُ اللهُ وَيَلْعَنُهُ اللَّاعِنُونَ!!!.

فَهَذِهِ صِفَةُ الْيَهُودِ! وَهِيَ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ كَتَمَ الْحَقَّ، مِنْ أَجْلِ اتِّبَاعِ الْهَوَى، وَلَمْ يُبَيِّنْهُ لِلنَّاسِ، وَإِذَا سُئِلَ عَنْ حُكْمِ مَسْأَلَةٍ أَجَابَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَهُوَ يَعْرِفُ الْجَوَابَ الصَّحِيحَ، فَهَذَا مِنْ كِتْمَانِ الْحَقِّ!! وَاللهُ - جَلَّ وَعَلَا - أَمَرَ بِقَوْلِ الْحَقِّ وَلَوْ عَلَى النَّفْسِ: ﴿**كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ**﴾، فَيَجِبُ بَيَانُ الْحَقِّ فِي الشَّهَادَاتِ وَفِي غَيْرِهَا.

وَأَشَدُّ مِنْ كِتْمَانِ الشَّهَادَةِ: كِتْمَانُ الْعِلْمِ؛ الَّذِي هُوَ حَيَاةُ النَّاسِ وَهِدَايَتُهُمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَالْوَاجِبُ بَيَانُ الْحَقِّ، وَعَدَمُ الْمُدَاهَنَةِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: إِذَا رَأَى النَّاسَ عَلَى بَاطِلٍ أَوْ خُرَافَاتٍ أَوْ شِرْكٍ؛ فَإِنَّهُ لَا يَسْكُتُ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُبَيِّنَ، وَلَا يَتْرُكُ النَّاسَ يَقَعُونَ فِي عِبَادَةِ الْقُبُورِ، وَعِبَادَةِ الْأَضْرِحَةِ، وَمُزَاوَلَةِ الْبِدَعِ الْمُضِلَّةِ، وَيَسْكُتُ وَيَقُولُ: لَيْسَ لِي شَأْنٌ بِالنَّاسِ(!!) أَوْ يَرَى النَّاسَ يَتَعَامَلُونَ بِالْمُعَامَلَاتِ الْمُحَرَّمَةِ وَيَسْكُتُ؛ فَهَذَا كِتْمَانٌ لِلْعِلْمِ، وَخِيَانَةٌ لِلنَّصِيحَةِ!! فَاللهُ لَمْ يُعْطِكَ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَسْكُتَ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا حَمَّلَكَ إِيَّاهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ، وَأَنْ تَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، وَأَنْ تُحَاوِلَ إِخْرَاجَ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

فَلَا يَسُوغُ لِلْعُلَمَاءِ أَنْ يَسْكُتُوا وَهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى الْبَيَانِ؛ لَا سِيَّمَا إِذَا رَأَوا النَّاسَ فِي ضَلَالٍ وَشِرْكٍ وَبِدَعٍ وَخُرَافَاتٍ، فَلَا يَسَعُهُمُ السُّكُوتُ، فَإِنْ سَكَتُوا؛ فَإِنَّ هَذَا مِنْ كِتْمَانِ الْعِلْمِ الَّذِي عَابَ اللهُ بِهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى!! فَكَيْفَ إِذَا قَالَ بِخِلَافِ الْحَقِّ وَهُوَ يَعْلَمُهُ!! وَأَفْتَى بِخِلَافِهِ مُتَعَمِّدًا؛ مِنْ أَجْلِ إِرْضَاءِ النَّاسِ!! أَوْ مِنْ أَجْلِ تَمْشِيَةِ الْأُمُورِ!! أَوْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُسَايِرَ النَّاسَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ؟!!.

وَقَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي مَدَارِجِ السَّالِكِينَ: وَلِهَذَا شَرَطَ اللهُ - تَعَالَى - فِي تَوْبَةِ الْكَاتِمِينَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى: الْبَيَانَ؛ لِأَنَّ ذَنْبَهُمْ لَمَّا كَانَ بِالْكِتْمَانِ، كَانَتْ تَوْبَتُهُمْ مِنْهُ بِالْبَيَانِ، قَالَ اللهُ - تَعَالَى - ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾**وَذَنْبُ الْمُبْتَدِعِ فَوْقَ ذَنْبِ الْكَاتِمِ؛ لِأَنَّ ذَاكَ كَتَمَ الْحَقَّ، وَهَذَا كَتَمَهُ وَدَعَا إِلَى خِلَافِهِ!! فَكُلُّ مُبْتَدِعٍ كَاتِمٌ؛ وَلَا يَنْعَكِسُ.**

وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ: وَقَوْلُهُ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ**﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ: فِيهِ الْإِخْبَارُ بِأَنَّ الَّذِي يَكْتُمُ ذَلِكَ مَلْعُونٌ! وَاخْتَلَفُوا مَنِ الْمُرَادُ بِذَلِكَ؟ فَقِيلَ: أَحْبَارُ الْيَهُودِ، وَرُهْبَانُ النَّصَارَى، الَّذِينَ كَتَمُوا أَمْرَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَقِيلَ: كُلُّ مَنْ كَتَمَ الْحَقَّ وَتَرَكَ بَيَانَ مَا أَوْجَبَ اللهُ بَيَانَهُ؛ وَهُوَ الرَّاجِحُ؛ لِأَنَّ الِاعْتِبَارَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ، فَعَلَى فَرْضِ أَنَّ سَبَبَ النُّزُولِ مَا وَقَعَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنَ الْكَتْمِ، فَلَا يُنَافِي ذَلِكَ تَنَاوُلَ هَذِهِ الْآيَةِ كُلَّ مَنْ كَتَمَ الْحَقَّ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ مَا لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ!! فَإِنَّ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ، وَلَعَنَهُ كُلُّ مَنْ يَتَأَتَّى مِنْهُ اللَّعْنُ مِنْ عِبَادِهِ؛ قَدْ بَلَغَ مِنَ الشَّقَاوَةِ وَالْخُسْرَانِ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي لَا تُلْحَقُ، وَلَا يُدْرَكُ كُنْهُهَا!!!.

يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِذَلِكَ: أَنَّ اللهَ وَاللَّاعِنِينَ يَلْعَنُونَ الْكَاتِمِينَ النَّاسَ مَا عَلِمُوا مِنْ أَمْرِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَصِفَتِهِ وَنَعْتِهِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ وَبَيَّنَهُ لِلنَّاسِ، إِلَّا مَنْ أَنَابَ مِنْ كِتْمَانِهِ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَرَاجَعَ التَّوْبَةَ بِالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَالْإِقْرَارِ بِهِ وَبِنُبُوَّتِهِ، وَتَصْدِيقِهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَبَيَانِ مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي كُتُبِهِ الَّتِي أَنْزَلَ إِلَى أَنْبِيَائِهِ، مِنَ الْأَمْرِ بِاتِّبَاعِهِ، وَأَصْلَحَ حَالَ نَفْسِهِ بِالتَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ بِمَا يُرْضِيَهُ عَنْهُ، وَبَيَّنَ الَّذِي عَلِمَ مِنْ وَحْيِ اللهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَى أَنْبِيَائِهِ وَعَهِدَ إِلَيْهِمْ فِي كُتُبِهِ فَلَمْ يَكْتُمْهُ، وَأَظْهَرَهُ فَلَمْ يُخْفِهِ (فَأُولَئِكَ)، يَعْنِي: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فَعَلُوا هَذَا الَّذِي وَصَفْتُ مِنْهُمْ، هُمُ الَّذِينَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ، فَأَجْعَلُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْإِيَابِ إِلَى طَاعَتِي، وَالْإِنَابَةِ إِلَى مَرْضَاتِي.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يَقُولُ: وَأَنَا الَّذِي أَرْجِعُ بِقُلُوبِ عَبِيدِي الْمُنْصَرِفَةِ عَنِّي إِلَيَّ، وَالرَّادُّهَا بَعْدَ إِدْبَارِهَا عَنْ طَاعَتِي إِلَى طَلَبِ مَحَبَّتِي، وَالرَّحِيمُ بِالْمُقْبِلِينَ بَعْدَ إِقْبَالِهِمْ إِلَيَّ، أَتَغَمَّدُهُمْ مِنِّي بِعَفْوٍ، وَأَصْفَحُ عَنْ عَظِيمِ مَا كَانُوا اجْتَرَمُوا فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، بِفَضْلِ رَحْمَتِي لَهُمْ.

١٦١ – ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَعْنِي: إِنَّ الَّذِينَ جَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَكَذَّبُوا بِهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَسَائِرِ أَهْلِ الْمِلَلِ وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يَعْنِي: وَمَاتُوا وَهُمْ عَلَى جُحُودِهِمْ ذَلِكَ وَتَكْذِيبِهِمْ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ﴾ يَعْنِي: فَأُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ؛ يَقُولُ: أَبْعَدَهُمُ اللهُ وَأَسْحَقَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يَعْنِي: وَلَعَنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ.

وَلَعْنَةُ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ إِيَّاهُمْ، قَوْلُهُمْ: عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ!.

١٦٢ – ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ الْمُرَادُ بِالْكَلَامِ: مَا صَارَ إِلَيْهِ الْكَافِرُ بِاللَّعْنَةِ مِنَ اللهِ وَمِنَ مَلَائِكَتِهِ وَمِنَ النَّاسِ، وَالَّذِي صَارَ إِلَيْهِ بِهَا: نَارَ جَهَنَّمَ!.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ فَإِنَّهُ خَبَرٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عَنْ دَوَامِ الْعَذَابِ أَبَدًا مِنْ غَيْرِ تَوْقِيتٍ وَلَا تَخْفِيفٍ؛ كَمَا قَالَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾، وَكَمَا قَالَ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ بِمَعْذِرَةٍ يَعْتَذِرُونَ.

١٦٢- ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ[٢٠٤] لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾يَعْنِي: وَالَّذِي يَسْتَحِقُّ عَلَيْكُمْ – أَيُّهَا النَّاسُ – الطَّاعَةَ لَهُ، وَيَسْتَوْجِبُ مِنْكُمُ الْعِبَادَةَ؛ مَعْبُودٌ وَاحِدٌ وَرَبٌّ وَاحِدٌ، فَلَا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا مَعَهُ سِوَاهُ، فَإِنَّ مَنْ تُشْرِكُونَهُ مَعَهُ فِي عِبَادَتِكُمْ إِيَّاهُ، هُوَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ إِلَهِكُمْ مِثْلُكُمْ، وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، لَا مِثْلَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ فَإِنَّهُ خَبَرٌ مِنْهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَنَّهُ لَا رَبَّ لِلْعَالَمِينَ غَيْرُهُ، وَلَا يَسْتَوْجِبُ عَلَى الْعِبَادِ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ، وَأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ فَهُمْ خَلْقُهُ، وَالْوَاجِبُ عَلَى جَمِيعِهِمْ طَاعَتُهُ وَالِانْقِيَادُ لِأَمْرِهِ، وَتَرْكُ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْآلِهَةِ، وَهَجْرِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ خَلْقُهُ، وَعَلَى جَمِيعِهِمُ الدَّيْنُونَةُ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ، وَلَا تَنْبَغِي الْأُلُوهِيَّةُ إِلَّا لَهُ، إِذْ كَانَ مَا بِهِمْ مِنْ نِعْمَةٍ فِي الدُّنْيَا فَمِنْهُ، دُونَ مَا يَعْبُدُونَهُ مِنَ الْأَوْثَانِ، وَيُشْرِكُونَ مَعَهُ مِنَ الْأَشْرَاكِ[٢٠٥]، وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ فِي

---

[٢٠٤] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ**: وَقَوْلُهُ: ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾: فِيهِ الْإِرْشَادُ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَقَطْعِ عَلَائِقِ الشِّرْكِ، وَالْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ أَوَّلَ مَا يَجِبُ بَيَانُهُ وَيَحْرُمُ كِتْمَانُهُ؛ هُوَ أَمْرُ التَّوْحِيدِ اهـ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي نُونِيَّتِهِ:

إِنْ كَانَ رَبُّكَ وَاحِدًا سُبْحَانَهُ ... فَاخْصُصْهُ بِالتَّوْحِيدِ مَعَ إِحْسَانِ

أَوْ كَانَ رَبُّكَ وَاحِدًا أَنْشَاكَ لَمْ ... يُشْرِكْهُ إِذْ أَنْشَأْكَ رَبٌّ ثَانِ

فَكَذَاكَ أَيْضًا وَحْدَهُ فَاعْبُدْهُ لَا ... تَعْبُدْ سِوَاهُ يَا أَخَا الْعِرْفَانِ

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ، أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾[البقرة: ١٦٣]، وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿**الم اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾» [حديث حسن: رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجة، وغيرهم؛ وحسنه الألباني في صحيح الجامع(٩٨٠)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٦٤٢)، وغيرهما].

[٢٠٥] **الْأَشْرَاكُ**: جَمْعُ الشَّرِيكِ، يُقَالُ: شَرِيكٌ وَأَشْرَاكٌ، كَمَا قَالُوا: يَتِيمٌ وَأَيْتَامٌ، وَنَصِيرٌ وَأَنْصَارٌ [تهذيب اللغة، مادة(شرك)، والمصباح المنير، مادة(ش ر ك)].

الْآخِرَةِ فَمِنْهُ، وَأَنَّ مَا أَشْرَكُوا مَعَهُ مِنَ الْأَشْرَاكِ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ فِي عَاجِلٍ وَلَا فِي آجِلٍ، وَلَا فِي دُنْيَا، وَلَا فِي آخِرَةٍ!.

وَهَذَا تَنْبِيهٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَهْلَ الشِّرْكِ بِهِ عَلَى ضَلَالِهِمْ، وَدُعَاءٌ مِنْهُ لَهُمْ إِلَى الْأَوْبَةِ مِنْ كُفْرِهِمْ ، وَالْإِنَابَةِ مِنْ شِرْكِهِمْ.

١٦٣– ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ[٢٠٦]﴾ يَعْنِي: إِنَّ فِي إِنْشَاءِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَابْتِدَاعِهِمَا.

وَمَعْنَى خَلْقِ اللهِ الْأَشْيَاءَ: ابْتِدَاعُهُ وَإِيجَادُهُ إِيَّاهَا، بَعْدِ أَنْ لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً.

﴿وَاخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يَعْنِي: وَتَعَاقُبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَيْكُمْ – أَيُّهَا النَّاسُ –.

وَإِنَّمَا الِاخْتِلَافُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الِافْتِعَالُ، مِنْ خُلُوفِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْآخَرَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ بِمَعْنَى: أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَخْلُفُ مَكَانَ صَاحِبِهِ: إِذَا ذَهَبَ اللَّيْلُ؛ جَاءَ النَّهَارُ بَعْدَهُ، وَإِذَا ذَهَبَ النَّهَارُ؛ جَاءَ اللَّيْلُ خَلْفَهُ.

﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ يَعْنِي: إِنَّ فِي الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ. والفلك: هو السُّفن.

﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ فَإِنَّ مَعْنَاهُ: يَنْفَعُ النَّاسَ فِي الْبَحْرِ.

﴿وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ﴾ يَعْنِي: وَفِيمَا أَنْزَلَهُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ، وَهُوَ الْمَطَرُ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ وَإِحْيَاؤُهَا: عِمَارَتُهَا وَإِخْرَاجُ نَبَاتِهَا ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وَمَوْتُ الْأَرْضِ: خَرَابُهَا، وَدُثُورُ[٢٠٧] عِمَارَتِهَا، وَانْقِطَاعُ نَبَاتِهَا، الَّذِي هُوَ لِلْعِبَادِ أَقْوَاتٌ، وَلِلْأَنَامِ أَرْزَاقٌ.

---

[٢٠٦] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ**: لَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ التَّوْحِيدَ بِقَوْلِهِ: ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾؛ عَقَّبَ ذَلِكَ بِالدَّلِيلِ الدَّالِّ عَلَيْهِ، وَهُوَ: هَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي هِيَ مِنْ أَعْظَمِ صَنْعَةِ الصَّانِعِ الْحَكِيمِ، مَعَ عِلْمِ كُلِّ عَاقِلٍ بِأَنَّهُ لَا يَتَهَيَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْآلِهَةِ الَّتِي أَثْبَتَهَا الْكُفَّارُ أَنْ يَأْتِيَ بِشَيْءٍ مِنْهَا، أَوْ يَقْتَدِرَ عَلَيْهِ، أَوْ عَلَى بَعْضِهِ، وَهِيَ خَلْقُ السَّمَوَاتِ، وَخَلْقُ الْأَرْضِ، وَتَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَجَرْيُ الْفُلْكِ فِي الْبَحْرِ، وَإِنْزَالُ الْمَطَرِ مِنَ السَّمَاءِ، وَإِحْيَاءُ الْأَرْضِ بِهِ، وَبَثّ الدَّوَابِّ مِنْهَا بِسَبَبِهِ، وَتَصْرِيفُ الرِّيَاحِ، فَإِنَّ مَنْ أَمْعَنَ نَظَرَهُ وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا؛ انْبَهَرَ لَهُ، وَضَاقَ ذِهْنُهُ عَنْ تَصَوُّرِ حَقِيقَتِهِ، وَتَحَتَّمَ عَلَيْهِ التَّصْدِيقُ بِأَنَّ صَانِعَهُ هُوَ اللهُ – سُبْحَانَهُ –.

[٢٠٧] (**الدُّثُورُ**): الدُّرُوسُ، كَالِانْدِثَارِ، يقال: دَثَرَ البِنَاءُ: اِنْهَدَمَ، وَأَصْلُ الدُّثُورِ: الدُّرُوسُ؛ وَهُوَ أَنْ تَهُبَّ الرِّيَاحُ عَلَى الْمَنْزِلِ فَتُغَشِّيَ رُسُومَهُ بِالرَّمْلِ وَتُغَطِّيَهَا بِالتُّرَابِ [النهاية في غريب الحديث والأثر، والقاموس المحيط، ومعجم الغني].

﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ يَعْنِي: وَفَرَّقَ فِيهَا ﴿مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ وَالدَّابَّةُ: اسْمٌ لِكُلِّ ذِي رُوحٍ كَانَ غَيْرَ طَائِرٍ بِجَنَاحَيْهِ ، لِدَبِيبِهِ عَلَى الْأَرْضِ.

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ يَعْنِي: وَفِي تَصْرِيفِهِ الرِّيَاحَ.

وَتَصْرِيفُ اللهِ إِيَّاهَا: أَنْ يُرْسِلَهَا مَرَّةً لَوَاقِحَ، وَمَرَّةً يَجْعَلُهَا عَقِيمًا، وَيَبْعَثُهَا عَذَابًا تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا.

﴿وَالسَّحَابِ[٢٠٨]﴾ يَعْنِي: وَفِي السَّحَابِ ﴿الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ﴾ يَعْنِي: عَلَامَاتٌ وَدَلَالَاتٌ عَلَى أَنَّ خَالِقَ ذَلِكَ كُلَّهُ وَمُنْشِئَهُ، إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لِمَنْ عَقَلَ مَوَاضِعَ الْحُجَجِ، وَفَهِمَ عَنِ اللهِ أَدِلَّتَهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ.

فَأَعْلَمَ تَعَالَى ذِكْرُهُ عِبَادَهُ، بِأَنَّ الْأَدِلَّةَ وَالْحُجَجَ إِنَّمَا وُضِعَتْ مُعْتَبَرًا لِذَوِي الْعُقُولِ وَالتَّمْيِيزِ، دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْخَلْقِ؛ إِذْ كَانُوا هُمُ الْمَخْصُوصِينَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْمُكَلَّفِينَ بِالطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، وَلَهُمُ الثَّوَابُ، وَعَلَيْهِمُ الْعِقَابُ.

١٦٥- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونَ اللهِ أَنْدَادًا[٢٠٩] يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِذَلِكَ: أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا لَهُ، وَأَنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا هَذِهِ الْأَنْدَادَ مِنْ دُونِ اللهِ، يُحِبُّونَ أَنْدَادَهُمْ كَحُبِّ الْمُؤْمِنِينَ اللهَ.

ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ، مِنْ مُتَّخِذِي هَذِهِ الْأَنْدَادَ لِأَنْدَادِهِمْ.

---

[٢٠٨] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَإِنَّمَا قِيلَ لِلسَّحَابِ (سَحَابٌ) - إِنْ شَاءَ اللهُ -: لِجَرِّ بَعْضِهِ بَعْضًا وَسَحْبِهِ إِيَّاهُ، مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: مَرَّ فُلَانٌ يَجُرُّ ذَيْلَهُ: يَعْنِي: يَسْحَبُهُ.

[٢٠٩] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»، قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ! قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «**وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ؛ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «**أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي؛ وغيرهم].

﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾يَعْنِي: وَلَوْ تَرَى[٢١٠] – يَا مُحَمَّدُ – الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِي أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّكُمْ إِيَّايَ، حِينَ يُعَايِنُونَ عَذَابِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي أَعْدَدْتُ لَهُمْ، لَعَلِمْتُمْ أَنَّ الْقُوَّةَ كُلَّهَا لِي دُونَ الْأَنْدَادِ وَالْآلِهَةِ! وَأَنَّ الْأَنْدَادَ وَالْآلِهَةَ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ هُنَالِكَ شَيْئًا، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابًا أَحْلَلْتُ بِهِمْ، وَأَيْقَنْتُمْ أَنِّي شَدِيدٌ عَذَابِي لِمَنْ كَفَرَ بِي، وَادَّعَى مَعِي إِلَهًا غَيْرِي!!.

١٦٦– ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا[٢١١] وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾الصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ عِنْدِي فِي ذَلِكَ: أَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَخْبَرَ أَنَّ الْمُتَّبَعِينَ عَلَى الشِّرْكِ بِاللهِ يَتَبَرَّءُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ حِينَ يُعَايِنُونَ عَذَابَ اللهِ. وَلَمْ يُخَصِّصْ بِذَلِكَ مِنْهُمْ بَعْضًا دُونَ بَعْضٍ، بَلْ عَمَّ جَمِيعَهُمْ، فَدَخَلَ فِي ذَلِكَ كُلُّ مَتْبُوعٍ عَلَى الْكُفْرِ بِاللهِ وَالضَّلَالِ أَنَّهُ يَتَبَرَّأُ مِنْ أَتْبَاعِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَّبِعُونَهُ عَلَى الضَّلَالِ فِي الدُّنْيَا، إِذَا عَايَنُوا عَذَابَ اللهِ فِي الْآخِرَةِ.

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ[٢١٢] ﴾أَيْ: إِنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَخْبَرَ أَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ – مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ – يَتَبَرَّأُ عِنْدَ مُعَايَنَتِهِمْ عَذَابَ اللهِ الْمَتْبُوعُ مِنَ التَّابِعِ، وَتَتَقَطَّعُ بِهِمُ

---

[٢١٠] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَالصَّوَابُ مِنَ الْقِرَاءَةِ عِنْدَنَا فِي ذَلِكَ: ﴿**وَلَوْ تَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ بِالتَّاءِ مِنْ (تَرَى)، وَإِنَّمَا اخْتَرْنَا ذَلِكَ عَلَى قِرَاءَةِ الْيَاءِ؛ لِأَنَّ الْقَوْمَ إِذَا رَأَوُا الْعَذَابَ، قَدْ أَيْقَنُوا أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ، فَلَا وَجْهَ أَنْ يُقَالَ: لَوْ يَرَوْنَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا – حِينَئِذٍ –؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُقَالُ: (لَوْ رَأَيْتَ) لِمَنْ لَمْ يَرَ! فَأَمَّا مَنْ قَدْ رَآهُ؛ فَلَا مَعْنَى لِأَنْ يُقَالَ لَهُ: (لَوْ رَأَيْتَ).

[٢١١] **قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا**﴾ الْآيَةَ، أَشَارَ هُنَا إِلَى تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ، وَقَدْ بَيَّنَ مِنْهُ غَيْرَ مَا ذُكِرَ هُنَا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا**﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

[٢١٢] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَالْأَسْبَابُ: الشَّيْءُ يُتَعَلَّقُ بِهِ، وَالسَّبَبُ: الْحَبْلُ، وَالْأَسْبَابُ: جَمْعُ سَبَبٍ؛ وَهُوَ كُلُّ مَا تَسَبَّبَ بِهِ الرَّجُلُ إِلَى طَلِبَتِهِ وَحَاجَتِهِ، فَيُقَالُ لِلْحَبْلِ: سَبَبٌ؛ لِأَنَّهُ يُتَسَبَّبُ بِالتَّعَلُّقِ بِهِ إِلَى الْحَاجَةِ الَّتِي لَا يُوصَلُ إِلَيْهَا إِلَّا بِالتَّعَلُّقِ بِهِ، وَيُقَالُ لِلطَّرِيقِ: سَبَبٌ؛ لِلتَّسَبُّبِ بِرُكُوبِهِ إِلَى مَا لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِقَطْعِهِ، وَلِلْمُصَاهَرَةِ: سَبَبٌ؛ لِأَنَّهَا سَبَبٌ لِلْحُرْمَةِ، وَلِلْوَسِيلَةِ: سَبَبٌ؛ لِلْوُصُولِ بِهَا إِلَى الْحَاجَةِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا كَانَ بِهِ إِدْرَاكُ الطَّلِبَةِ؛ فَهُوَ سَبَبٌ لِإِدْرَاكِهَا.

الْأَسْبَابُ. وَقَدْ أَخْبَرَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – فِي كِتَابِهِ أَنَّ بَعْضَهُمْ يَلْعَنُ بَعْضًا، وَأَخْبَرَ عَنِ الشَّيْطَانِ أَنَّهُ يَقُولُ لِأَوْلِيَائِهِ: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾، وَأَخْبَرَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَنَّ الْأَخِلَّاءَ، يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ، وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا يَنْصُرُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَقَالَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾وَأَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَا يَنْفَعُهُ نَسِيبُهُ وَلَا ذُو رَحِمَهُ، وَإِنْ كَانَ نَسِيبُهُ لِلَّهِ وَلِيًّا، فَقَالَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – فِي ذَلِكَ: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، وَأَخْبَرَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَنَّ أَعْمَالَهُمْ تَصِيرُ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ!.

وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي أَسْبَابٌ يُتَسَبَّبُ فِي الدُّنْيَا بِهَا إِلَى مَطَالِبَ، فَقَطَعَ اللهُ مَنَافِعَهَا فِي الْآخِرَةِ عَنِ الْكَافِرِينَ بِهِ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ بِخِلَافِ طَاعَتِهِ وَرِضَاهُ، فَهِيَ مُنْقَطِعَةٌ بِأَهْلِهَا، فَلَا خِلَالُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ وُرُودِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَلَا عِبَادَتُهُمْ أَنْدَادَهُمْ وَلَا طَاعَتُهُمْ شَيَاطِينَهُمْ، وَلَا دَافَعَتْ عَنْهُمْ أَرْحَامٌ فَنَصَرَتْهُمْ مِنَ انْتِقَامِ اللهِ مِنْهُمْ، وَلَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ أَعْمَالُهُمْ؛ بَلْ صَارَتْ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ!!.

فَكُلُّ أَسْبَابِ الْكُفَّارِ مُنْقَطِعَةٌ!.

١٦٧- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾يَعْنِي: وَقَالَ أَتْبَاعُ الرِّجَالِ – الَّذِينَ كَانُوا اتَّخَذُوهُمْ أَنْدَادًا مِنْ دُونِ اللهِ يُطِيعُونَهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَيَعْصَوْنَ رَبَّهُمْ فِي طَاعَتِهِمْ، إِذْ يَرَوْنَ عَذَابَ اللهِ فِي الْآخِرَةِ –: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾يَعْنِي بِالْكَرَّةِ: الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا.

وَقَوْلِهِ: ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾مَنْصُوبٌ لِأَنَّهُ جَوَّابٌ لِلتَّمَنِّي بِالْفَاءِ؛ لِأَنَّ الْقَوْمَ تَمَنَّوْا رَجْعَةً إِلَى الدُّنْيَا لِيَتَبَرَّءُوا مِنَ الَّذِينَ كَانُوا يُطِيعُونَهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، كَمَا تَبَرَّأَ مِنْهُمْ رُؤَسَاؤُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا، الْمَتْبُوعُونَ فِيهَا عَلَى الْكُفْرِ بِاللهِ، إِذْ عَايَنُوا عَظِيمَ النَّازِلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، فَقَالُوا: يَا لَيْتَ لَنَا كَرَّةً إِلَى الدُّنْيَا فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ! وَ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾!!.

﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ يَقُولُ: كَمَا أَرَاهُمُ الْعَذَابَ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾، الَّذِي كَانُوا يُكَذِّبُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، فَكَذَلِكَ يُرِيهِمْ أَيْضًا أَعْمَالَهُمُ الْخَبِيثَةَ الَّتِي اسْتَحَقُّوا بِهَا الْعُقُوبَةَ مِنَ اللهِ ﴿حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ يَعْنِي: نَدَامَاتٍ.

﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ يَعْنِي: وَمَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَفْتُهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَإِنْ نَدِمُوا بَعْدَ مُعَايَنَتِهِمْ مَا عَايَنُوا مِنْ عَذَابِ اللهِ – فَاشْتَدَّتْ نَدَامَتُهُمْ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْخَبِيثَةَ، وَتَمَنَّوا إِلَى الدُّنْيَا كَرَّةً لِيُنِيبُوا فِيهَا، وَيَتَبَرَّءُوا مِنْ مُضِلِّيهِمْ وَسَادَتِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا يُطِيعُونَهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ فِيهَا – بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ الَّتِي أَصْلَاهُمُوهَا اللهُ بِكُفْرِهِمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَلَا نَدَمُهُمْ فِيهَا بِمُنْجِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ حِينَئِذٍ، وَلَكِنَّهُمْ فِيهَا مُخَلَّدُونَ!!.

١٦٨– ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا[٢١٣]﴾ يَعْنِي: يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا أَحْلَلْتُ لَكُمْ مِنَ الْأَطْعِمَةِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِي مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَطَيَّبْتُهُ لَكُمْ.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ يَعْنِي: وَدَعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ – الَّذِي يُوبِقُكُمْ فَيُهْلِكُكُمْ، وَيُورِدُكُمْ مَوَارِدَ الْعَطَبِ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْكُمْ أَمْوَالَكُمْ – فَلَا تَتَّبِعُوهَا وَلَا تَعْمَلُوا بِهَا.

وَالْمَعْنَى فِي النَّهْيِ عَنِ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِهِ: النَّهْيِ عَنْ طَرِيقِهِ وَأَثَرِهِ فِيمَا دَعَا إِلَيْهِ مِمَّا هُوَ خِلَافُ طَاعَةِ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –.

﴿إِنَّهُ﴾ يَعْنِي: إِنَّ الشَّيْطَانَ ﴿لَكُمْ﴾ – أَيُّهَا النَّاسُ – ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ قَدْ أَبَانَ لَكُمْ عَدَاوَتَهُ، بِإِبَائِهِ عَنِ السُّجُودِ لِأَبِيكُمْ، وَغُرُورِهِ إِيَّاهُ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَاسْتَزَلَّهُ بِالْخَطِيئَةِ، وَأَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ!.

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَلَا تَنْتَصِحُوهُ – أَيُّهَا النَّاسُ – مَعَ إِبَانَتِهِ لَكُمُ الْعَدَاوَةَ، وَدَعُوا مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ، وَالْتَزِمُوا طَاعَتِي فِيمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَنَهَيْتُكُمْ عَنْهُ مِمَّا أَحْلَلْتُهُ لَكُمْ وَحَرَّمْتُهُ عَلَيْكُمْ، دُونَ مَا حَرَّمْتُمُوهُ أَنْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَحَلَّلْتُمُوهُ، طَاعَةً مِنْكُمْ لِلشَّيْطَانِ وَاتِّبَاعًا لِأَمْرِهِ.

---

[٢١٣] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﴿**حَلَالًا**﴾: طِلْقًا، وَهُوَ مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: قَدْ حَلَّ لَكَ هَذَا الشَّيْءُ، أَيْ: صَارَ لَكَ مُطْلَقًا، فَهُوَ يَحِلُّ لَكَ حَلَالًا وَحِلًّا، مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ: هُوَ لَكَ حِلٌّ، أَيْ: طِلْقٌ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿**طَيِّبًا**﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي بِهِ: طَاهِرًا غَيْرَ نَجِسٍ وَلَا مُحَرَّمٍ.

وَأَمَّا (الْخُطُوَاتُ): فَإِنَّهُ جَمْعُ خُطْوَةٍ، وَالْخُطْوَةُ: بُعْدُ مَا بَيْنَ قَدَمَي الْمَاشِي، وَ(الْخَطْوَةُ) بِفَتْحِ الْخَاءِ: الْفَعْلَةُ الْوَاحِدَةُ، مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: خَطَوْتُ خَطْوَةً وَاحِدَةً.

١٦٩- ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ﴾ يَعْنِي: الشَّيْطَانَ ﴿بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءُ﴾ وَالسُّوءُ: الْإِثْمُ.

وَأَمَّا الْفَحْشَاءِ: فَهِيَ مَصْدَرٌ، مِثْلُ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ؛ وَهِيَ كُلُّ مَا اسْتَفْحَشَ ذِكْرُهُ، وَقَبُحَ مَسْمُوعُهُ.

وَقِيلَ: إِنَّ السُّوءَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ هُوَ مَعَاصِي اللهِ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَإِنَّمَا سَمَّاهَا اللهُ سُوءًا؛ لِأَنَّهَا تَسُوءُ صَاحِبَهَا بِسُوءِ عَاقِبَتِهَا لَهُ عِنْدَ اللهِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْفَحْشَاءَ: الزِّنَا، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَإِنَّمَا يُسَمَّى لِقُبْحِ مَسْمُوعِهِ وَمَكْرُوهِ مَا يُذْكَرُ بِهِ فَاعِلُهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[٢١٤]﴾ فَهُوَ مَا كَانُوا يُحَرِّمُونَ مِنَ الْبَحَائِرِ، وَالسَّوَائِبِ، وَالْوَصَائِلِ،

---

[٢١٤] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي مَدَارِجِ السَّالِكِينَ:** وَأَمَّا الْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَهُوَ أَشَدُّ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ تَحْرِيمًا، وَأَعْظَمُهَا إِثْمًا، وَلِهَذَا ذُكِرَ فِي الْمَرْتَبَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهَا الشَّرَائِعُ وَالْأَدْيَانُ، وَلَا تُبَاحُ بِحَالٍ، بَلْ لَا تَكُونُ إِلَّا مُحَرَّمَةً، وَلَيْسَتْ كَالْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ، الَّذِي يُبَاحُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ!.

فَإِنَّ الْمُحَرَّمَاتِ نَوْعَانِ: مُحَرَّمٌ لِذَاتِهِ، لَا يُبَاحُ بِحَالٍ، وَمُحَرَّمٌ تَحْرِيمًا عَارِضًا فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، قَالَ اللهُ - تَعَالَى - فِي الْمُحَرَّمِ لِذَاتِهِ: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ؛ فَقَالَ: ﴿**وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ؛ فَقَالَ: ﴿**وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**﴾، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ؛ فَقَالَ: ﴿**وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾، فَهَذَا أَعْظَمُ الْمُحَرَّمَاتِ عِنْدَ اللهِ وَأَشَدُّهَا إِثْمًا!!!

فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ الْكَذِبَ عَلَى اللهِ، وَنِسْبَتِهِ إِلَى مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَتَغْيِيرِ دِينِهِ وَتَبْدِيلِهِ، وَنَفْيِ مَا أَثْبَتَهُ وَإِثْبَاتِ مَا نَفَاهُ، وَتَحْقِيقَ مَا أَبْطَلَهُ وَإِبْطَال مَا حَقَّقَهُ، وَعَدَاوَةَ مَنْ وَالاَهُ وَمُوالاةَ مَنْ عَادَاهُ، وَحُبَّ مَا أَبْغَضَهُ وَبُغْضَ مَا أَحَبَّهُ، وَوَصْفَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ.

فَلَيْسَ فِي أَجْنَاسِ الْمُحَرَّمَاتِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْهُ، وَلَا أَشَدُّ إِثْمًا، وَهُوَ أَصْلُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ، وَعَلَيْهِ أُسِّسَتِ الْبِدَعُ وَالضَّلَالَاتُ، فَكُلُّ بِدْعَةٍ مُضِلَّةٍ فِي الدِّينِ؛ أَسَاسُهَا: الْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ!.

وَلِهَذَا اشْتَدَّ نَكِيرُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ لَهَا، وَصَاحُوا بِأَهْلِهَا مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَحَذَّرُوا فِتْنَتَهُمْ أَشَدَّ التَّحْذِيرِ، وَبَالَغُوا فِي ذَلِكَ مَا لَمْ يُبَالِغُوا مِثْلَهُ فِي إِنْكَارِ الْفَوَاحِشِ، وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ؛ إِذْ مَضَرَّةُ الْبِدَعِ وَهَدْمُهَا لِلدِّينِ وَمُنَافَاتُهَا لَهُ أَشَدُّ!!.

وَقَدْ أَنْكَرَ تَعَالَى عَلَى مَنْ نَسَبَ إِلَى دِينِهِ تَحْلِيلَ شَيْءٍ أَوْ تَحْرِيمَهُ مِنْ عِنْدِهِ بِلَا بُرْهَانٍ مِنَ اللهِ؛ فَقَالَ ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ**﴾.

فَكَيْفَ بِمَنْ نَسَبَ إِلَى أَوْصَافِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مَا لَمْ يَصِفْ بِهِ نَفْسَهُ؟! أَوْ نَفَى عَنْهُ مِنْهَا مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ؟!!

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لِيَحْذَرَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقُولَ: أَحَلَّ اللهُ كَذَا، وَحَرَّمَ اللهُ كَذَا، فَيَقُولُ اللهُ: كَذَبْتَ! لَمْ أُحِلَّ هَذَا، وَلَمْ أُحَرِّمْ هَذَا!!.

يَعْنِي: التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ بِالرَّأْيِ الْمُجَرَّدِ، بِلَا بُرْهَانٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ.

وَأَصْلُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ، هُوَ: الْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ، فَإِنَّ الْمُشْرِكَ يَزْعُمُ أَنَّ مَنِ اتَّخَذَهُ مَعْبُودًا مِنْ دُونِ اللهِ؛ يُقَرِّبُهُ إِلَى اللهِ! وَيَشْفَعُ لَهُ عِنْدَهُ! وَيَقْضِي حَاجَتَهُ بِوَاسِطَتِهِ! كَمَا تَكُونُ الْوَسَائِطُ عِنْدَ الْمُلُوكِ(!) فَكُلُّ مُشْرِكٍ قَائِلٌ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ، دُونَ الْعَكْسِ، إِذِ الْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ قَدْ يَتَضَمَّنُ التَّعْطِيلَ وَالِابْتِدَاعَ فِي دِينِ اللهِ، فَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الشِّرْكِ، وَالشِّرْكُ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِهِ!!.

وَلِهَذَا كَانَ الْكَذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُوجِبًا لِدُخُولِ النَّارِ، وَاتِّخَاذِ مَنْزِلِه مِنْهَا مُبَوَّأً، وَهُوَ الْمَنْزِلُ اللَّازِمُ الَّذِي لَا يُفَارِقُهُ صَاحِبُهُ؛ لِأَنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِلْقَوْلِ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ، كَصَرِيحِ الْكَذِبِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ مَا انْضَافَ إِلَى الرَّسُولِ فَهُوَ مُضَافٌ إِلَى الْمُرْسِلِ، وَالْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ؛ صَرِيحُ افْتِرَاءِ الْكَذِبِ عَلَيْهِ: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا**﴾.

فَذُنُوبُ أَهْلِ الْبِدَعِ كُلُّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ هَذَا الْجِنْسِ، فَلَا تَتَحَقَّقُ التَّوْبَةُ مِنْهُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنَ الْبِدَعِ، وَأَنَّى بِالتَّوْبَةِ مِنْهَا لِمَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهَا بِدْعَةٌ، أَوْ يَظُنُّهَا سُنَّةً، فَهُوَ يَدْعُو إِلَيْهَا، وَيَحُضُّ عَلَيْهَا؟ فَلَا تَنْكَشِفُ لِهَذَا ذُنُوبُهُ - الَّتِي تَجِبُ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِنْهَا -؛ إِلَّا بِتَضَلُّعِهِ مِنَ السُّنَّةِ، وَكَثْرَةِ اطِّلَاعِهِ عَلَيْهَا، وَدَوَامِ الْبَحْثِ عَنْهَا وَالتَّفْتِيشِ عَلَيْهَا، وَلَا تَرَى صَاحِبَ بِدْعَةٍ كَذَلِكَ أَبَدًا!!.

فَإِنَّ السُّنَّةَ - بِالذَّاتِ - تَمْحَقُ الْبِدْعَة وَلَا تَقُوم لَهَا، وَإِذَا طَلَعَتْ شَمْسهَا فِي قَلْبِ الْعَبْدِ؛ قَطَعَتْ مِنْ قَلْبِهِ ضَبَاب كُلّ بِدْعَة، وَأَزَالَتْ ظُلْمَة كُلّ ضَلَالَة، إِذْ لَا سُلْطَان لِلظُّلْمَةِ مَعَ سُلْطَانِ الشَّمْسِ!.

وَالْحَوَامِي، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ لَهُمْ: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ[٢١٥] وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

وَأَخْبَرَهُمْ – تعَالَى ذِكْرُهُ – فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ قِيلَهُمْ: (إِنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا)؛ مِنَ الْكَذِبِ الَّذِي يَأْمُرُهُمْ بِهِ الشَّيْطَانُ، وَأَنَّهُ قَدْ أَحَلَّهُ لَهُمْ وَطَيَّبَهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْ أَكْلَهُ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ يَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ حَقِيقَتَهُ طَاعَةً مِنْهُمْ لِلشَّيْطَانِ، وَاتِّبَاعًا مِنْهُمْ خُطُوَاتِهِ، وَاقْتِفَاءً مِنْهُمْ آثَارَ أَسْلَافِهِمُ الضُّلَّالِ وَآبَائِهِمُ الْجُهَّالِ، الَّذِينَ كَانُوا بِاللهِ وَبِمَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ جُهَّالًا، وَعَنِ الْحَقِّ وَمِنْهَاجِهِ ضَلَالًا!.

---

٢١٥ (**الْبَحِيرَةُ**): هِيَ النَّاقَةُ الَّتِي كَانَتْ إِذَا وَلَدَتْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ بَحَرُوا أُذُنَهَا – أَيْ: شَقُّوهَا – وَتَرَكُوا الْحَمْلَ عَلَيْهَا وَرُكُوبَهَا، وَلَمْ يَجُزُّوا وَبَرَهَا، وَلَمْ يَمْنَعُوهَا الْمَاءَ وَالْكَلَأَ، ثُمَّ نَظَرُوا إِلَى خَامِسِ وَلَدِهَا: فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا؛ نَحَرُوهُ وَأَكَلَهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى؛ بَحَرُوا أُذُنَهَا – أَيْ: شَقُّوهَا – وَتَرَكُوهَا، وَحُرِّمَ عَلَى النِّسَاءِ لَبَنُهَا وَمَنَافِعُهَا، وَكَانَتْ مَنَافِعُهَا خَاصَّةً لِلرِّجَالِ، فَإِذَا مَاتَتْ حَلَّتْ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ!.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، قَالَ: البَحِيرَةُ: الَّتِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ، وَلاَ يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، وَالسَّائِبَةُ: الَّتِي كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِآلِهَتِهِمْ، فَلاَ يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ.

وَ(**السَّائِبَةُ**): الْبَعِيرُ الَّذِي يُسَيَّبُ، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ إِذَا مَرِضَ وَغَابَ لَهُ قَرِيبٌ، نَذَرَ فَقَالَ: إِنْ شَفَانِي اللهُ – تَعَالَى –، أَوْ شُفِيَ مَرِيضِي، أَوْ عَادَ غَائِبِي؛ فَنَاقَتِي هَذِهِ سَائِبَةٌ، ثُمَّ يُسَيِّبُهَا فَلَا تُحْبَسُ عَنْ رَعْيٍ وَلَا مَاءٍ، وَلَا يَرْكَبُهَا أَحَدٌ! فَكَانَتْ بِمَنْزِلَةِ الْبَحِيرَةِ.

وَقِيلَ: هِيَ الَّتِي تُسَيَّبُ لِلْأَصْنَامِ أَيْ تُعْتَقُ لَهَا، وَكَانَ الرَّجُلُ يُسَيِّبُ مِنْ مَالِهِ مَا يَشَاءُ، فَيَجِيءُ بِهِ إِلَى السَّدَنَةِ – وَهُمْ خَدَمُ آلِهَتِهِمْ – فَيُطْعِمُونَ مِنْ لَبَنِهَا أَبْنَاءَ السَّبِيلِ.

وَ(**الْوَصِيلَةُ**): قِيلَ: هِيَ النَّاقَةُ إِذَا وَلَدَتْ أُنْثَى بَعْدَ أُنْثَى، وَقِيلَ: هِيَ الشَّاةُ كَانَتْ إِذَا وَلَدَتْ أُنْثَى فَهِيَ لَهُمْ، وَإِنْ وَلَدَتْ ذَكَرًا فَهُوَ لِآلِهَتِهِمْ! وَإِنْ وَلَدَتْ ذَكَرًا وَأُنْثَى، قَالُوا: وَصَلَتْ أَخَاهَا فَلَمْ يَذْبَحُوا الذَّكَرَ لِآلِهَتِهِمْ! وَقِيلَ: كَانُوا إِذَا وَلَدَتِ الشَّاةُ سَبْعَةَ أَبْطُنٍ؛ نَظَرُوا: فَإِنْ كَانَ السَّابِعُ ذَكَرًا؛ ذُبِحَ فَأَكَلَ مِنْهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَإِنْ كَانَتْ أُنْثَى؛ تُرِكَتْ فِي الْغَنَمِ، وَإِنْ كَانَ ذَكَرًا وَأُنْثَى، قَالُوا: وَصَلَتْ أَخَاهَا؛ فَلَمْ يُذْبَحْ لِمَكَانِهَا، وَكَانَ لَحْمُهَا حَرَامًا عَلَى النِّسَاءِ؛ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ فَيَأْكُلُهَا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ!!.

وَ(**الْحَامُ**): الْفَحْلُ الْحَامِي ظَهْرَهُ عَنْ أَنْ يُرْكَبَ، وَكَانُوا إِذَا رُكِبَ وَلَدُ وَلَدِ الْفَحْلِ، قَالُوا: حَمَى ظَهْرَهُ فَلَا يُرْكَبُ.

وَقِيلَ: هُوَ الْفَحْلُ إِذَا نَتَجَ مِنْ صُلْبِهِ عَشْرَةُ أَبْطُنٍ، قَالُوا: حُمِيَ ظَهْرُهُ؛ فَلَا يُرْكَبُ، وَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ، وَلَا يُمْنَعُ مِنْ كَلَأٍ وَلَا مَاءٍ، فَإِذَا مَاتَ أَكَلَهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ!! [صحيح البخاري، تفسير البغوي، تفسير القرطبي، فتح القدير].

قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: هَذَا بَعْضُ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ! فَالْحَمْدُ للهِ حَمْدًا كَثِيرًا عَلَى نِعْمَةِ الْإِسْلَامِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ [آل عمران: ١٦٤].

١٧٠- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾أَيِ: اعْمَلُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى رَسُولِهِ، فَأَحِلُّوا حَلَالَهُ، وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ، وَاجْعَلُوهُ لَكُمْ إِمَامًا تَأْتَمُّونَ بِهِ، وَقَائِدًا تَتَّبِعُونَ أَحْكَامَهُ، ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا[٢١٦]﴾يَعْنِي: وَإِذَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ: كُلُوا مِمَّا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ، وَدَعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَطَرِيقَهُ، وَاعْمَلُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي كِتَابِهِ؛ اسْتَكْبَرُوا عَنِ الْإِذْعَانِ لِلْحَقِّ، وَقَالُوا: بَلْ نَأْتَمُّ بِآبَائِنَا فَنَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَاهُمْ عَلَيْهِ: مِنْ تَحْلِيلِ مَا كَانُوا يُحِلُّونَ، وَتَحْرِيمِ مَا كَانُوا يُحَرِّمُونَ!.

قَالَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾يَعْنِي: آبَاءَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ مَضَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ بِاللهِ الْعَظِيمِ ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾مِنْ دَيْنِ اللهِ وَفَرَائِضِهِ، وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَيُتَّبَعُونَ عَلَى مَا سَلَكُوا مِنَ الطَّرِيقِ، وَيُؤْتَمُّ بِهِمْ فِي أَفْعَالِهِمْ ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ لِرُشْدٍ، فَيَهْتَدِي بِهِمْ غَيْرُهُمْ، وَيَقْتَدِي بِهِمْ مَنْ طَلَبَ الدِّينَ، وَأَرَادَ الْحَقَّ وَالصَّوَابَ؟

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ: فَكَيْفَ – أَيُّهَا النَّاسُ – تَتَّبِعُونَ مَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ فَتَتْرُكُونَ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ! وَآبَاؤُكُمْ لَا يَعْقِلُونَ مِنْ أَمْرِ اللهِ شَيْئًا، وَلَا هُمْ مُصِيبُونَ حَقًّا، وَلَا مُدْرِكُونَ رُشْدًا؟!

وَإِنَّمَا يَتَّبِعُ الْمُتَّبِعُ ذَا الْمَعْرِفَةِ بِالشَّيْءِ الْمُسْتَعْمَلَ لَهُ فِي نَفْسِهِ، فَأَمَّا الْجَاهِلُ؛ فَلَا يَتَّبِعُهُ – فِيمَا هُوَ بِهِ جَاهِلٌ – إِلَّا مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ وَلَا تَمْيِيزَ!!.

١٧١- ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً[٢١٧]﴾يَعْنِي: مَثَلُ الْكَافِرِ

---

[٢١٦] قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ: وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الذَّمِّ لِلْمُقَلِّدِينَ وَالنِّدَاءِ بِجَهْلِهِمُ الْفَاحِشِ وَاعْتِقَادِهِمُ الْفَاسِدِ مَا لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ!! وَمِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾الْآيَةَ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى قُبْحِ التَّقْلِيدِ، وَالْمَنْعِ مِنْهُ!.

[٢١٧] قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾أَيْ: فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ وَالْجَهْلِ، كَالدَّوَابِّ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَفْقَهُ مَا يُقَالُ لَهَا، بَلْ إِذَا نَعَقَ بِهَا رَاعِيهَا – أَيْ: دَعَاهَا إِلَى مَا يُرْشِدُهَا –؛ لَا تَفْقَهُ مَا يَقُولُ وَلَا تَفْهَمُهُ، بَلْ إِنَّمَا تَسْمَعُ صَوْتَهُ فَقَطْ!. ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾أَيْ: لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَفْهَمُونَهُ!.

فِي قِلَّةِ فَهْمِهِ عَنِ اللهِ مَا يُتْلَى عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ، وَسُوءُ قَبُولِهِ لِمَا يُدْعَى إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ وَيُوعَظُ بِهِ، مَثَلُ الْبَهِيمَةِ الَّتِي تَسْمَعُ الصَّوْتَ إِذَا نُعِقَ بِهَا، وَلَا تَعْقِلُ مَا يُقَالُ لَهَا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿يَنْعِقُ﴾ فَإِنَّهُ: يُصَوِّتُ بِالْغَنَمِ.

﴿صُمٌّ﴾ يَعْنِي: هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ الَّذِينَ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً، (صُمٌّ) عَنِ الْحَقِّ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ، ﴿بُكْمٌ﴾ يَعْنِي: خُرْسٌ عَنْ قِيلِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَالْإِقْرَارِ بِمَا أَمَرَهُمُ اللهُ أَنْ يُقِرُّوا بِهِ، وَتَبْيِينِ مَا أَمَرَهُمُ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَنْ يُبَيِّنُوهُ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِلنَّاسِ، فَلَا يَنْطِقُونَ بِهِ وَلَا يَقُولُونَهُ، وَلَا يُبَيِّنُونَهُ لِلنَّاسِ، ﴿عُمْيٌ﴾ عَنِ الْهُدَى وَطَرِيقِ الْحَقِّ فَلَا يُبْصِرُونَهُ ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

١٧٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يَعْنِي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، وَأَقَرُّوا لِلَّهِ بِالْعُبُودِيَّةِ، وَأَذْعَنُوا لَهُ بِالطَّاعَةِ ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ[٢١٨]﴾ يَعْنِي: اطْعَمُوا مِنْ حَلَالِ الرِّزْقِ الَّذِي أَحْلَلْنَاهُ لَكُمْ، فَطَابَ لَكُمْ بِتَحْلِيلِي إِيَّاهُ لَكُمْ، مِمَّا كُنْتُمْ تُحَرِّمُونَ أَنْتُمْ، وَلَمْ أَكُنْ حَرَّمْتُهُ عَلَيْكُمْ، مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ.

﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ يَقُولُ: وَأَثْنُوا عَلَى اللهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ مِنْكُمْ، عَلَى النِّعَمِ الَّتِي رَزَقَكُمْ وَطَيَّبَهَا لَكُمْ.

﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يَقُولُ: إِنْ كُنْتُمْ مُنْقَادِينَ لِأَمْرِهِ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ؛ فَكُلُوا مِمَّا أَبَاحَ لَكُمْ أَكْلَهُ وَحَلَّلَهُ وَطَيَّبَهُ لَكُمْ، وَدَعُوا فِي تَحْرِيمِهِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ.

---

[٢١٨] قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى: قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ فَأَمَرَ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ ، فَمَنْ أَكَلَ وَلَمْ يَشْكُرْ؛ كَانَ مَذْمُومًا، وَمَنْ لَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْكُرْ؛ كَانَ مَذْمُومًا!.

وَقَالَ: قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فَأَمَرَ بِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ وَالشُّكْرِ لِلَّهِ، فَمَنْ حَرَّمَ الطَّيِّبَاتِ؛ كَانَ مُعْتَدِيًا، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ؛ كَانَ مُفَرِّطًا مُضَيِّعًا لِحَقِّ اللهِ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»، وَفِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، أَنَّهُ قَالَ: «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ؛ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ».

وَقَالَ: فَأَمَرَ بِالْأَكْلِ وَالشُّكْرِ، فَمَنْ حَرَّمَ الطَّيِّبَاتِ عَلَيْهِ، وَامْتَنَعَ مِنْ أَكْلِهَا بِدُونِ سَبَبٍ شَرْعِيٍّ: فَهُوَ مَذْمُومٌ مُبْتَدِعٌ، دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ وَمَنْ أَكَلَهَا بِدُونِ الشُّكْرِ الْوَاجِبِ فِيهَا؛ فَهُوَ مَذْمُومٌ، قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أَيْ: شُكْرِ النَّعِيمِ.

١٧٣- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ[٢١٩] **وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِذَلِكَ: لَا تُحَرِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَا لَمْ أُحَرِّمْهُ عَلَيْكُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ - مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، بَلْ كُلُوا ذَلِكَ، فَإِنِّي لَمْ أُحَرِّمْ عَلَيْكُمْ غَيْرَ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ، وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِي.**

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا الْمَيْتَةَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي بِهِ: وَمَا ذُبِحَ لِلْآلِهَةِ وَالْأَوْثَانِ يُسَمَّى عَلَيْهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، أَوْ قُصِدَ بِهِ غَيْرُهُ مِنَ الْأَصْنَامِ.

وَإِنَّمَا قِيلَ: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ﴾؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَرَادُوا ذَبْحَ مَا قَرَّبُوهُ لِآلِهَتِهِمْ، سَمَّوْا اسْمَ آلِهَتِهِمُ الَّتِي قَرَّبُوا ذَلِكَ لَهَا، وَجَهَرُوا بِذَلِكَ أَصْوَاتَهُمْ، فَجَرَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى قِيلَ لِكُلِّ ذَابِحٍ، سَمَّى أَوْ لَمْ يُسَمِّ، جَهَرَ بِالتَّسْمِيَةِ أَوْ لَمْ يَجْهَرْ: (مُهِلٌّ).

فَرَفْعُهُمْ أَصْوَاتَهُمْ بِذَلِكَ هُوَ (الْإِهْلَالُ) الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ - تَعَالَى -، فَقَالَ: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾. وَمِنْ ذَلِكَ قِيلَ لِلْمُلَبِّي فِي حَجَّةٍ أَوْ عُمْرَةٍ: مُهَلٌّ؛ لِرَفْعِهِ صَوْتَهُ بِالتَّلْبِيَةِ. وَمِنْهُ اسْتِهْلَالُ الصَّبِيِّ: إِذَا صَاحَ عِنْدَ سُقُوطِهِ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ، وَاسْتِهْلَالُ الْمَطَرِ: وَهُوَ صَوْتُ وُقُوعِهِ عَلَى الْأَرْضِ.[٢٢٠]

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾يَعْنِي: فَمَنْ حَلَّتْ بِهِ ضَرُورَةُ مَجَاعَةٍ إِلَى مَا حَرَّمْتُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ - وَهُوَ بِالصِّفَةِ الَّتِي وَصَفْنَا -، فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ فِي أَكْلِهِ إِنْ أَكَلَهُ.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ[٢٢١]**﴾بِأَكْلِهِ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِ مِنْ أَكْلِهِ، ﴿وَلَا عَادٍ﴾فِي أَكْلِهِ، وَلَهُ عَنْ تَرْكِ أَكْلِهِ - بِوُجُودِ**

---

[٢١٩] (**الْمَيْتَةُ**): هِيَ كُلُّ مَا مَاتَ بِغَيْرِ ذَكَاةٍ شَرْعِيَّةٍ، فَيَدْخُلُ فِي الْمَيْتَةِ مَا لَا يُؤْكَلُ إِذَا ذُبِحَ، وَكَذَا مَا يُؤْكَلُ إِذَا اخْتَلَّ فِيهِ شَرْطٌ مِنْ شُرُوطِ التَّذْكِيَةِ؛ كَذَبِيحَةِ الْمَجُوسِيِّ. وَالْجُزْءُ الْمُنْفَصِلُ مِنَ الْحَيِّ كَمَيْتَةِ ذَلِكَ الْحَيِّ: إِنْ كَانَ طَاهِرًا فَطَاهِرٌ، وَإِنْ كَانَ نَجِسًا فَنَجِسٌ؛ لِحَدِيثِ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**مَا قُطِعَ مِنَ الْبَهِيمَةِ وَهِيَ حَيَّةٌ؛ فَهُوَ مَيْتَةٌ**»[صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي؛ وغيرهم، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٥٦٥٢)]. فَالْمُنْفَصِلُ مِنَ الْآدَمِيِّ وَالسَّمَكِ وَالْجَرَادِ: طَاهِرٌ؛ لِأَنَّ مِيتَتَهُ طَاهِرَةٌ، وَالْمُنْفَصِلُ مِنَ الْبَقَرِ - مَثَلًا -: فَهُوَ نَجِسٌ؛ لِأَنَّ مَيْتَتَهُ نَجِسَةٌ.

[٢٢٠] انظر الحاشية (٢٧٣) فِي التَّعْلِيقِ عَلَى الْآيَةِ(١٨٩).

[٢٢١] **قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي الْفَتَاوَى الْكُبْرَى:** فَالْبَاغِي: الَّذِي يَبْغِي الْمُحَرَّمَ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْحَلَالِ، وَالْعَادِي: الَّذِي يَتَجَاوَزُ قَدْرَ الْحَاجَةِ؛ كَمَا قَالَ: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ**﴾، وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ السَّلَفِ، وَهُوَ الصَّوَابُ بِلَا رَيْبٍ.

وَقَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي إِعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ: فَالْبَاغِي: الَّذِي يَبْتَغِي الْمَيْتَةَ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى التَّوَصُّلِ إِلَى الْمُذَكَّى، وَالْعَادِي: الَّذِي يَتَعَدَّى قَدْرَ الْحَاجَةِ بِأَكْلِهَا.

غَيْرِهِ مِمَّا أَحَلَّهُ اللهُ لَهُ – مَنْدُوحَةٌ وَغِنًى؛ ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ[٢٢٢]﴾ يَقُولُ: مِنْ أَكْلِ ذَلِكَ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي وَصَفْنَا، فَلَا تَبِعَةَ عَلَيْهِ فِي أَكْلِهِ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَلَا حَرَجَ.

﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يَعْنِي: إِنَّ اللهَ غَفُورٌ إِنْ أَطَعْتُمُ اللهَ فِي إِسْلَامِكُمْ، فَاجْتَنَبْتُمْ أَكْلَ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، وَتَرَكْتُمُ اتِّبَاعَ الشَّيْطَانِ فِيمَا كُنْتُمْ تُحَرِّمُونَهُ فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ – طَاعَةً مِنْكُمْ لِلشَّيْطَانِ وَاقْتِفَاءً مِنْكُمْ خُطُوَاتِهِ – مِمَّا لَمْ أُحَرِّمْهُ عَلَيْكُمْ لِمَا سَلَفَ مِنْكُمْ، فِي كُفْرِكُمْ وَقَبْلَ إِسْلَامِكُمْ، فِي ذَلِكَ مِنْ خَطَأٍ وَذَنْبٍ وَمَعْصِيَةٍ ، فَصَافِحٌ عَنْكُمْ، وَتَارِكٌ عُقُوبَتَكُمْ عَلَيْهِ، رَحِيمٌ بِكُمْ إِنْ أَطَعْتُمُوهُ.

١٧٤– ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي: أَحْبَارَ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَتَمُوا النَّاسَ أَمْرَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَنُبُوَّتَهُ، وَهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ، بِرُشًى كَانُوا أُعْطُوهَا عَلَى ذَلِكَ.

﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا[٢٢٣]﴾ يَعْنِي: ابْتَاعُوا بِكِتْمَانِهِمْ مَا كَتَمُوا النَّاسَ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَمْرِ نُبُوَّتِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا.

وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِي كَانُوا يُعْطَوْنَ عَلَى تَحْرِيفِهِمْ كِتَابَ اللهِ وَتَأْوِيلِهِمُوهُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهِ، وَكِتْمَانِهِمُ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ الْيَسِيرَ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا.

﴿أُولَئِكَ﴾ يَعْنِي: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ فِي شَأْنِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالْخَسِيسِ مِنَ الرِّشْوَةِ يُعْطَوْنَهَا، فَيُحَرِّفُونَ لِذَلِكَ آيَاتِ اللهِ وَيُغَيِّرُونَ مَعَانِيهَا ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ بِأَكْلِهِمْ مَا أَكَلُوا مِنَ الرُّشَى عَلَى ذَلِكَ وَالْجِعَالَةِ، وَمَا أَخَذُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَجْرِ ﴿إِلَّا النَّارَ﴾ يَعْنِي: إِلَّا مَا يُورِدُهُمُ النَّارَ وَيُصْلِيهُمُوهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا

---

[٢٢٢] **قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى:** الْأَكْلُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ وَاجِبٌ، قَالَ مَسْرُوقٌ: مَنِ اضْطُرَّ إِلَى الْمَيْتَةِ، فَلَمْ يَأْكُلْ، فَمَاتَ؛ دَخَلَ النَّارَ!!.

[٢٢٣] **قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ فِي الْأَخْبَارِ؛ فَإِنَّهَا تَتَنَاوَلُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ كَتَمَ الْحَقَّ مُخْتَارًا لِذَلِكَ بِسَبَبِ دُنْيَا يُصِيبُهَا!.

إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾مَعْنَاهُ: مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا مَا يُورِدُهُمُ النَّارَ بِأَكْلِهِمْ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾يَقُولُ: وَلَا يُكَلِّمُهُمْ بِمَا يُحِبُّونَ وَيَشْتَهُونَ، فَأَمَّا بِمَا يَسُوءُهُمْ وَيَكْرَهُونَ؛ فَإِنَّهُ سَيُكَلِّمُهُمْ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَخْبَرَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ إِذَا قَالُوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾!!.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: وَلَا يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ ذُنُوبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يَعْنِي: مُوجِعٌ.

١٧٥– ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾يَعْنِي: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَخَذُوا الضَّلَالَةَ ، وَتَرَكُوا الْهُدَى، وَأَخَذُوا مَا يُوجِبُ لَهُمْ عَذَابَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتَرَكُوا مَا يُوجِبُ لَهُمْ غُفْرَانَهُ وَرِضْوَانَهُ.

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾يَعْنِي: مَا أَجْرَأَهُمْ عَلَى النَّارِ، بِمَعْنَى: مَا أَجْرَأَهُمْ عَلَى عَذَابِ النَّارِ وَأَعْمَلَهُمْ بِأَعْمَالِ أَهْلِهَا.

١٧٦– ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾يَعْنِي: هَذَا الَّذِي فَعَلَتْهُ هَؤُلَاءِ الْأَحْبَارُ مِنَ الْيَهُودِ بِكِتْمَانِهِمُ النَّاسَ مَا كَتَمُوا مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَنُبُوَّتِهِ مَعَ عِلْمِهِمْ بِهِ، طَلَبًا مِنْهُمْ لِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا خَسِيسٍ، وَبِخَلَافِهِمْ أَمْرِي وَطَاعَتِي، وَذَلِكَ مِنْ تَرْكِي تَطْهِيرَهُمْ وَتَزْكِيَتَهُمْ وَتَكْلِيمَهُمْ، وَإِعْدَادِي لَهُمُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، بِأَنِّي أَنْزَلْتُ كِتَابِي بِالْحَقِّ، فَكَفَرُوا بِهِ وَاخْتَلَفُوا فِيهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾يَعْنِي بِذَلِكَ: الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى.

اخْتَلَفُوا فِي كِتَابِ اللهِ؛ فَكَفَرَتِ الْيَهُودُ بِمَا قَصَّ اللهُ فِيهِ مِنْ قَصَصِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأُمِّهِ، وَصَدَّقَتِ النَّصَارَى بِبَعْضِ ذَلِكَ، وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ، وَكَفَرُوا جَمِيعًا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ مِنَ الْأَمْرِ بِتَصْدِيقِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

فَقَالَ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيمَا أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ لَفِي مُنَازَعَةٍ وَمُفَارَقَةٍ لِلْحَقِّ بَعِيدَةٍ مِنَ الرُّشْدِ وَالصَّوَابِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾.

١٧٧– ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ يَعْنِي: لَيْسَ الْبِرُّ – أَيُّهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى – أَنْ يُوَلِّيَ بَعْضُكُمْ وَجْهَهُ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَبَعْضَكُمْ قِبَلَ الْمَغْرِبِ ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ[٢٢٤]﴾.

﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ يَعْنِي: وَأَعْطَى مَالَهُ فِي حِينِ مَحَبَّتِهِ إِيَّاهُ، وَضَنِّهِ بِهِ، وَشُحِّهِ عَلَيْهِ.[٢٢٥]

﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ يَعْنِي: وَأَعْطَى الْمَالَ – وَهُوَ لَهُ مُحِبٌّ، حَرِيصٌ عَلَى جَمْعِهِ، شَحِيحٌ بِهِ – ذَوِي قَرَابَتِهِ فَوَصَلَ بِهِ أَرْحَامَهُمْ.

﴿وَالْيَتَامَى[٢٢٦] وَالْمَسَاكِينِ[٢٢٧]﴾، ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ[٢٢٨]﴾ يَعْنِي: الْمُجْتَازُ بِالرَّجُلِ.

---

[٢٢٤] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** قَالَ الثَّوْرِيُّ: ﴿**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ**﴾ الْآيَةَ، قَالَ: هَذِهِ أَنْوَاعُ الْبِرِّ كُلُّهَا. وَصَدَقَ – رَحِمَهُ اللهُ –؛ فَإِنَّ مَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَقَدْ دَخَلَ فِي عُرَى الْإِسْلَامِ كُلِّهَا، وَأَخَذَ بِمَجَامِعِ الْخَيْرِ كُلِّهِ؛ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللهِ: وَهُوَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَصَدَّقَ بِوُجُودِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ سَفَرَةٌ بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ، ﴿**وَالْكِتَابِ**﴾، وَهُوَ اسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ الْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، حَتَّى خُتِمَتْ بِأَشْرَفِهَا؛ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُهَيْمِنُ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ، الذِي انْتَهَى إِلَيْهِ كُلُّ خَيْرٍ، وَاشْتَمَلَ عَلَى كُلِّ سَعَادَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَنَسَخَ اللهُ بِهِ كُلَّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ قَبْلَهُ. وَآمَنَ بِأَنْبِيَاءِ اللهِ – كُلِّهِمْ – مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى خَاتَمِهِمْ مُحَمَّدٍ – صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ –.

[٢٢٥] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «**أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا! وَلِفُلَانٍ كَذَا! وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ!!**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد؛ وغيرهم].

[٢٢٦] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْيَتِيمُ فِي بَنِي آدَمَ: مِنَ الْآبَاءِ، وَفِي الْبَهَائِمِ: مِنَ الْأُمِّ، وَحَكَى الْمَاوَرْدِيُّ أَنَّ الْيَتِيمَ أُطْلِقَ فِي بَنِي آدَمَ مِنَ الْأُمِّ أَيْضًا.

[٢٢٧] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ:** الْمَسَاكِينُ: جَمْعُ مِسْكِينٍ؛ وَهُوَ مَنْ أَسْكَنَتْهُ الْحَاجَةُ وَذَلَّلَتْهُ، وَهُوَ أَشَدُّ فَقْرًا مِنَ الْفَقِيرِ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ اللُّغَةِ وَكَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْفِقْهِ. وَرُوِيَ عَنِ الشَّافِعِيِّ: أَنَّ الْفَقِيرَ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْمِسْكِينِ.

[٢٢٨] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** ﴿**وَابْنَ السَّبِيلِ**﴾ وَهُوَ: الْمُسَافِرُ الْمُجْتَازُ الذِي قَدْ فَرَغَتْ نَفَقَتُهُ، فَيُعْطَى مَا يُوصِلُهُ إِلَى بَلَدِهِ، وَكَذَا الذِي يُرِيدُ سَفَرًا فِي طَاعَةٍ، فَيُعْطَى مَا يَكْفِيهِ فِي ذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْمُسَافِرِ (ابْنُ السَّبِيلِ): لِمُلَازَمَتِهِ الطَّرِيقَ، وَالطَّرِيقُ: هُوَ السَّبِيلُ، فَقِيلَ لِمُلَازَمَتِهِ إِيَّاهُ فِي سَفَرِهِ: ابْنُهُ، كَمَا يُقَالُ لِطَيْرِ الْمَاءِ: ابْنُ الْمَاءِ؛ لِمُلَازَمَتِهِ إِيَّاهُ، وَلِلرَّجُلِ الَّذِي أَتَتْ عَلَيْهِ الدُّهُورُ: ابْنُ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي وَالْأَزْمِنَةِ!.

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ يَعْنِي: الْمُسْتَطْعِمِينَ الطَّالِبِينَ

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ يَعْنِي: وَفِي فَكِّ الرِّقَابِ مِنَ الْعُبُودَةِ؛ وَهُمُ الْمُكَاتَبُونَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي فَكِّ رِقَابِهِمْ مِنَ الْعُبُودَةِ، بِأَدَاءِ كِتَابَاتِهِمُ الَّتِي فَارَقُوا عَلَيْهَا سَادَاتِهِمْ.

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ[٢٢٩]﴾ يَعْنِي: أَدَامَ الْعَمَلَ بِهَا بِحُدُودِهَا، ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ يَعْنِي: أَعْطَاهَا عَلَى مَا فَرَضَهَا اللهُ عَلَيْهِ.

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ يَعْنِي: وَالَّذِينَ لَا يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ بَعْدَ الْمُعَاهَدَةِ، وَلَكِنْ يُوفُونَ بِهِ وَيُتِمُّونَهُ عَلَى مَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ مَنْ عَاهَدُوهُ عَلَيْهِ.

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ[٢٣٠]﴾ يَعْنِي: وَالْمَانِعِينَ أَنْفُسَهُمْ – فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ – مِمَّا يَكْرَهُهُ اللهُ لَهُمُ، الْحَابِسِيهَا عَلَى مَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ.

ثُمَّ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ: الْبَأْسَاءُ: الْفَقْرُ، وَالضَّرَّاءُ: الْمَرَضُ.

﴿وَحِينَ الْبَأْسِ[٢٣١]﴾ يَعْنِي: وَالصَّابِرِينَ فِي وَقْتِ الْبَأْسِ؛ وَذَلِكَ وَقْتُ شِدَّةِ الْقِتَالِ فِي الْحَرْبِ!.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ يَعْنِي: مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَنَعَتَهُمُ النَّعْتَ الَّذِي نَعَتَهُمْ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ. يَقُولُ: فَمَنْ فَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ، فَهُمُ الَّذِينَ صَدَقُوا اللهَ فِي إِيمَانِهِمْ، وَحَقَّقُوا قَوْلَهُمْ بِأَفْعَالِهِمْ، لَا مَنْ وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَهُوَ يُخَالِفُ اللهَ فِي أَمْرِهِ، وَيَنْقُضُ عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ، وَيَكْتُمُ النَّاسَ بَيَانَ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِبَيَانِهِ، وَيُكَذِّبُ رُسُلَهُ!!.

---

[٢٢٩] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَقَوْلُهُ: ﴿**وَأَقَامَ الصَّلَاةَ**﴾ أَيْ: وَأَتَمَّ أَفْعَالَ الصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا؛ بِرُكُوعِهَا، وَسُجُودِهَا، وَطُمَأْنِينَتِهَا، وَخُشُوعِهَا عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَرْضِيِّ.

[٢٣٠] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَقَوْلُهُ: ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ**﴾ أَيْ: فِي حَالِ الْفَقْرِ؛ وَهُوَ الْبَأْسَاءُ، وَفِي حَالِ الْمَرَضِ وَالْأَسْقَامِ؛ وَهُوَ الضَّرَّاءُ.

[٢٣١] **قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَحِينَ الْبَأْسِ**﴾، لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مَا الْمُرَادُ بِالْبَأْسِ؟ وَلَكِنَّهُ أَشَارَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ إِلَى أَنَّ الْبَأْسَ: الْقِتَالُ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿**قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ مِنْ سِيَاقِ الْكَلَامِ.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ يَعْنِي: وَأُولَئِكَ الَّذِينَ اتَّقُوا عِقَابَ اللهِ، فَتَجَنَّبُوا عِصْيَانَهُ، وَحَذِرُوا وَعْدَهُ، فَلَمْ يَتَعَدُّوا حُدُودَهُ، وَخَافُوهُ، فَقَامُوا بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ.

١٧٨- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى﴾ يَعْنِي: فُرِضَ عَلَيْكُمْ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَفَرْضٌ عَلَى وَلِيِّ الْقَتِيلِ الْقِصَاصُ مِنْ قَاتِلِ وَلِيِّهِ؟ قِيلَ: لَا؛ وَلَكِنَّهُ مُبَاحٌ لَهُ ذَلِكَ، وَالْعَفْوُ، وَأَخْذُ الدِّيَةِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَكَيْفَ قَالَ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾؟ قِيلَ: إِنَّ مَعْنَى ذَلِكَ عَلَى خِلَافِ مَا ذَهَبْتَ إِلَيْهِ! وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى: الْحُرُّ بِالْحُرِّ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ، وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى، أَيْ: أَنَّ الْحُرَّ إِذَا قَتَلَ الْحُرَّ، فَدَمُ الْقَاتِلِ كُفْءٌ لِدَمِ الْقَتِيلِ، وَالْقِصَاصُ مِنْهُ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ، فَلَا تَجَاوَزُوا بِالْقَتْلِ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ يَقْتُلْ؛ فَإِنَّهُ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا بِقَتِيلِكُمْ غَيْرَ قَاتِلِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَإِنَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ قَالَ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى﴾ فَمَا لَنَا أَنْ نَقْتَصَّ لِلْحُرِّ إِلَّا مِنَ الْحُرِّ، وَلَا لِلأُنْثَى إِلَّا مِنَ الأُنْثَى؟

قِيلَ: بَلْ لَنَا أَنْ نَقْتَصَّ لِلْحُرِّ مِنَ الْعَبْدِ وَلِلأُنْثَى مِنَ الذَّكَرِ؛ بِقَوْلِ اللهِ - تَعَالَى ذِكْرُهُ -: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾، وَبِالنَّقْلِ الْمُسْتَفِيضِ عَنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، أَنَّهُ قَالَ: «الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ».[٢٣٢]

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يَعْنِي: فَمَنْ صُفِحَ لَهُ - مِنَ الْوَاجِبِ كَانَ لِأَخِيهِ عَلَيْهِ مِنَ الْقَوَدِ - عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى دِيَةٍ يَأْخُذُهَا مِنْهُ، ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ مِنَ الْعَافِي عَنِ الدَّمِ، الرَّاضِي بِالدِّيَةِ مِنْ دَمِ وَلِيِّهِ، ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ﴾ - مِنَ الْقَاتِلِ - ذَلِكَ ﴿بِإِحْسَانٍ﴾.

---

[٢٣٢] صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم، وصححه الألباني في الإرواء(٢٢٠٨) ، والمشكاة(٣٤٧٥).

﴿ذَلِكَ﴾ يَعْنِي: هَذَا الَّذِي حَكَمْتَ بِهِ وَسَنَنْتُهُ لَكُمْ، مِنْ إِبَاحَتِي لَكُمْ – أَيَّتُهَا الْأُمَّةُ – الْعَفْوَ عَنِ الْقِصَاصِ مِنْ قَاتِلِ قَتِيلِكُمْ، عَلَى دِيَةٍ تَأْخُذُونَهَا فَتَمْلِكُونَهَا مُلْكَكُمْ سَائِرَ أَمْوَالِكُمْ الَّتِي كُنْتُ مَنَعْتُهَا مَنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ ﴿تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يَقُولُ: تَخْفِيفٌ مِنِّي لَكُمْ مِمَّا كُنْتُ ثَقَّلْتُهُ عَلَى غَيْرِكُمْ، بِتَحْرِيمِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةٌ مِنِّي لَكُمْ.

﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ[٢٣٣]﴾ يَعْنِي: فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ أَخْذِهِ الدِّيَةَ، فَقَتَلَ قَاتِلَ وَلِيِّهِ؛ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا وَهُوَ الْقَتْلُ؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى – جَعَلَ لِكُلِّ وَلِيِّ قَتِيلٍ قُتِلَ ظُلْمًا، سُلْطَانًا عَلَى قَاتِلِ وَلِيِّهِ، فَقَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾.

١٧٩- ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ[٢٣٤] حَيَاةٌ[٢٣٥] يَا أُولِي الْأَلْبَابِ[٢٣٦]﴾ يَعْنِي: وَلَكُمْ يَا أُولِي الْعُقُول، فِيمَا فَرَضْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْجَبْتُ لِبَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، مِنَ الْقِصَاصِ فِي النُّفُوسِ وَالْجِرَاحِ وَالشِّجَاجِ، مَا مَنَعَ بِهِ بَعْضَكُمْ مِنْ قَتْلِ بَعْضٍ، وَقَدَعَ[٢٣٧] بَعْضَكُمْ عَنْ بَعْضٍ، فَحَيِيتُمْ بِذَلِكَ، فَكَانَ لَكُمْ فِي حُكْمِي بَيْنَكُمْ بِذَلِكَ حَيَاةٌ.

---

٢٣٣ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ الْقِصَاصُ، وَلَمْ تَكُنْ فِيهِمُ الدِّيَةُ، فَقَالَ اللهُ – تَعَالَى – لِهَذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فَالْعَفْوُ: أَنْ يَقْبَلَ الدِّيَةَ فِي الْعَمْدِ ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾، يَتَّبِعُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُؤَدِّي بِإِحْسَانٍ. ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾، مِمَّا كُتِبَ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قَتَلَ بَعْدَ قَبُولِ الدِّيَةِ [صحيح: رواه البخاري، والنسائي، والدارقطني في سننه، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم].

٢٣٤ **الْقِصَاصُ**: الْمُسَاوَاةُ وَالْمُمَاثَلَةُ فِي الْجِرَاحَاتِ وَالدِّيَاتِ، وَأَصْلُهُ مِنْ (قَصَّ الْأَثَرَ)؛ إِذَا اتَّبَعَهُ، وَهُوَ: أَنْ يُفْعَلَ بِالْفَاعِلِ مِثْلُ مَا فَعَلَ.
فَلَوْ قَتَلَ رَجُلٌ رَجُلًا بِعَصًا، أَوْ خَنَقَهُ، أَوْ شَدَخَ رَأْسهُ بِحَجَرٍ، فَمَاتَ مِنْ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْعَمْدُ، وَفِيهِ الْقِصَاصُ، فَيُقْتَلُ بِمِثْلِ الَّذِي قَتَلَ بِهِ.
تَنْبِيهٌ: إِذَا كَانَتِ الْخَشَبَةُ وَالْحَجَرُ مِثْلُهُمَا يَقْتُلُ؛ فَعَلَى الْقَاتِلِ بِهَا الْقِصَاصُ، وَذَلِكَ عَمْدٌ، وَإِنْ كَانَ مِثْلُهُمَا لَا يَقْتُلُ؛ فَفِي ذَلِكَ الدِّيَةُ، وَذَلِكَ شِبْهُ الْعَمْدِ.

٢٣٥ **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ**: وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: وَفِي شَرْعِ الْقِصَاصِ لَكُمْ – وَهُوَ قَتْلُ الْقَاتِلِ – حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ لَكُمْ، وَهِيَ بَقَاءُ الْمُهَجِ وَصَوْنُهَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ الْقَاتِلُ أَنَّهُ يُقْتَلُ؛ انْكَفَّ عَنْ صَنِيعِهِ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ حَيَاةُ النُّفُوسِ!.
وَفِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ: (الْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ) فَجَاءَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ فِي الْقُرْآنِ؛ أَفْصَحُ، وَأَبْلَغُ، وَأَوْجَزُ!.

٢٣٦ **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَالْأَلْبَابُ: جَمْعُ اللُّبِّ، وَاللُّبُّ: الْعَقْلُ. وَخَصَّ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِالْخِطَابِ أَهْلَ الْعُقُولِ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَعْقِلُونَ عَنِ اللهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَيَتَدَبَّرُونَ آيَاتِهِ وَحُجَجَهُ دُونَ غَيْرِهِمْ.
فَائِدَةٌ: قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: اتَّفَقَ أَئِمَّةُ الْفَتْوَى عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقْتَصَّ مِنْ أَحَدٍ حَقَّهُ دُونَ السُّلْطَانِ، وَلَيْسَ لِلنَّاسِ أَنْ يَقْتَصَّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِسُلْطَانٍ أَوْ مَنْ نَصَّبَهُ السُّلْطَانُ لِذَلِكَ، وَلِهَذَا جَعَلَ اللهُ السُّلْطَانَ لِيَقْبِضَ أَيْدِيَ النَّاسِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ.

٢٣٧ قَالَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ: الْقَدْعُ: الْكَفُّ وَالْمَنْعُ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾أَيْ: تَتَّقُونَ الْقِصَاصَ، فَتَنْتَهُونَ عَنِ الْقَتْلِ.

١٨٠- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ[٢٣٨] إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يَعْنِي: فُرِضَ عَلَيْكُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - الْوَصِيَّةُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا - وَالْخَيْرُ: الْمَالُ - لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ الَّذِينَ لَا يَرِثُونَهُ[٢٣٩]، بِالْمَعْرُوفِ: وَهُوَ مَا أَذِنَ اللهُ فِيهِ وَأَجَازَهُ فِي الْوَصِيَّةِ مِمَّا لَمْ يُجَاوِزِ الثُّلُثَ، وَلَمْ يَتَعَمَّدِ الْمُوصِي ظُلْمَ وَرَثَتِهِ ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾يَعْنِي: فَرَضَ عَلَيْكُمْ هَذَا وَأَوْجَبَهُ، وَجَعَلَهُ حَقًّا وَاجِبًا عَلَى مَنِ اتَّقَى اللهَ فَأَطَاعَهُ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ.[٢٤٠]

١٨١- ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾يَعْنِي: فَمَنْ غَيَّرَ مَا أَوْصَى بِهِ الْمُوصِي - مِنْ وَصِيَّتِهِ بِالْمَعْرُوفِ لِوَالِدَيْهِ أَوِ أَقْرَبِيهِ الَّذِينَ لَا يَرِثُونَهُ - بَعْدَ مَا سَمِعَ الْوَصِيَّةَ؛ فَإِنَّمَا إِثْمُ التَّبْدِيلِ عَلَى مَنْ بَدَّلَ وَصِيَّتَهُ.

﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾يَعْنِي: إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ لِوَصِيَّتِكُمُ الَّتِي أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُوصُوا بِهَا لِآبَائِكُمْ وَأُمَّهَاتِكُمْ وَأَقْرِبَائِكُمْ حِينَ تُوصُونَ بِهَا:

---

[٢٣٨] مَعْنَى (حُضُورِ الْمَوْتِ) أَيْ: حُضُورُ مُقَدِّمَاتِهِ وَأَسْبَابِهِ؛ مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَمْرَاضِ وَالْأَعْرَاضِ الْمَخُوفَةِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ مُعَايَنَةَ الْمَوْتِ؛ لِأَنَّهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَعْجَزُ عَنِ الْإِيصَاءِ!.

[٢٣٩] الْمُرَادُ بـ (الْوَالِدَيْنِ الَّذِينَ لَا يَرِثُونَهُ): الْأَبَوَيْنِ الْكَافِرَيْنِ.

[٢٤٠] قُلْتُ - أَبُو حَمْزَةَ -: الصَّحِيحُ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْمِيرَاثِ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، قَالَ: «**كَانَ الْمَالُ لِلْوَلَدِ، وَكَانَتِ الوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ، [حَتَّى نَسَخَتْهَا آيَةُ الْمِيرَاثِ]، فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ، وَجَعَلَ لِلْأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسَ، وَجَعَلَ لِلْمَرْأَةِ الثُّمُنَ وَالرُّبُعَ، وَلِلزَّوْجِ الشَّطْرَ وَالرُّبُعَ**» [صحيح: رواه البخاري، وأبو داود، والدارمي في سننه - وما بين المعقوفين له ولأبي داود -؛ وغيرهم].

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - [يَقُولُ] فِي خُطْبَتِهِ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ؛ فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ...**»[صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة؛ وغيرهم، وصححه الألباني في الإرواء(١٦٥٥)، وصحيح الجامع(١٧٨٩)، والمشكاة(٣٠٧٣)].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: فَآيَةُ الْمِيرَاثِ حُكْمٌ مُسْتَقِلٌّ، وَوُجُوبٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ لِأَهْلِ الْفُرُوضِ وَلِلْعَصِبَاتِ، رَفَعَ بِهَا حُكْمَ هَذِهِ بِالْكُلِّيَّةِ. بَقِيَ الْأَقَارِبُ الَّذِينَ لَا مِيرَاثَ لَهُمْ، يُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يُوصَى لَهُمْ مِنَ الثُّلُثِ؛ اسْتِئْنَاسًا بِآيَةِ الْوَصِيَّةِ وَشُمُولِهَا، وَلِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ**» قَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَا مَرَّتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ ذَلِكَ إِلَّا وَعِنْدِي وَصِيَّتِي[صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم].

أَتَعْدِلُونَ فِيهَا عَلَى مَا أَذِنْتُ لَكُمْ مِنْ فِعْلِ ذَلِكَ بِالْمَعْرُوفِ، أَمْ تَحِيفُونَ فَتَمِيلُونَ عَنِ الْحَقِّ وَتَجُورُونَ عَنِ الْقَصْدِ؟ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَا تُخْفِيهِ صُدُورُكُمْ: مِنَ الْمَيلِ إِلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، أَمِ الْجَوْرِ وَالْحَيْفِ.

١٨٢- ﴿فَمَنْ خَافَ[٢٤١] مِنْ مُوصٍ جَنَفًا[٢٤٢] أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾يَعْنِي: فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا، أَوْ إِثْمًا؛ وَهُوَ أَنْ يَمِيلَ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ خَطَأً مِنْهُ، أَوْ يَتَعَمَّدُ إِثْمًا فِي وَصِيَّتِهِ، بِأَنْ يُوصِيَ لِوَالِدَيْهِ وَأَقْرَبِيهِ الَّذِينَ لَا يَرِثُونَهُ بِأَكْثَرَ مِمَّا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُوصِيَ لَهُمْ بِهِ مِنْ مَالِهِ، وَغَيْرِ مَا أَذِنَ اللهُ لَهُ بِهِ مِمَّا جَاوَزَ الثُّلُثَ أَوْ بِالثُّلُثِ كُلِّهِ، وَفِي الْمَالِ قِلَّةٌ، وَفِي الْوَرَثَةِ كَثْرَةٌ، فَلَا بَأْسَ عَلَى مَنْ حَضَرَهُ أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَ الَّذِينَ يُوصَى لَهُمْ، وَبَيْنَ وَرَثَةِ الْمَيِّتِ، وَبَيْنَ الْمَيِّتِ؛ بِأَنْ يَأْمُرَ الْمَيِّتَ فِي ذَلِكَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُعَرِّفَهُ مَا أَبَاحَ اللهُ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَأَذِنَ لَهُ فِيهِ مِنَ الْوَصِيَّةِ فِي مَالِهِ، وَيَنْهَاهُ أَنْ يُجَاوِزَ فِي وَصِيَّتِهِ الْمَعْرُوفَ الَّذِي قَالَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – فِي كِتَابِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وَذَلِكَ هُوَ الْإِصْلَاحُ الَّذِي قَالَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وَكَذَلِكَ لِمَنْ كَانَ فِي الْمَالِ فَضْلٌ وَكَثْرَةٌ وَفِي الْوَرَثَةِ قِلَّةٌ، فَأَرَادَ أَنْ يَقْصُرَ فِي وَصِيَّتِهِ لِوَالِدَيْهِ وَأَقْرَبِيهِ عَنْ ثُلُثِهِ، فَأَصْلَحَ مَنْ حَضَرَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَرَثَتِهِ وَبَيْنَ وَالِدَيْهِ وَأَقْرَبِيهِ الَّذِينَ يُرِيدُ أَنْ يُوصِيَ لَهُمْ، بِأَنْ يَأْمُرَ الْمَرِيضَ أَنْ يَزِيدَ فِي وَصِيَّتِهِ لَهُمْ، وَيَبْلُغَ بِهَا مَا رَخَّصَ اللهُ فِيهِ مِنَ الثُّلُثِ.

فَذَلِكَ أَيْضًا هُوَ مِنَ الْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ.

﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾يَعْنِي: وَاللهُ غَفُورٌ لِلْمُوصِي فِيمَا كَانَ حَدَّثَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْجَنَفِ وَالْإِثْمِ، إِذَا تَرَكَ أَنْ يَأْثَمَ وَيَجْنَفَ فِي وَصِيَّتِهِ، فَتَجَاوَزَ لَهُ عَمَّا كَانَ حَدَّثَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْجَوْرِ، إِذْ لَمْ يُمْضِ ذَلِكَ فَيُغْفِلَ أَنْ يُؤَاخِذَهُ بِهِ، ﴿رَحِيمٌ﴾ بِالْمُصْلِحِ بَيْنَ الْمُوصِي وَبَيْنَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَحِيفَ عَلَيْهِ لِغَيْرِهِ، أَوْ يَأْثَمَ فِيهِ لَهُ.

---

[٢٤١] **قَالَ الْقَاضِي ابْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ:** الْخِطَابُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَمَنْ خَافَ**﴾: لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، قِيلَ لَهُمْ: إِنْ خِفْتُمْ مِنْ مُوصٍ مَيْلًا فِي الْوَصِيَّةِ، وَعُدُولًا عَنِ الْحَقِّ، وَوُقُوعًا فِي إِثْمٍ، وَلَمْ يُخْرِجْهَا بِالْمَعْرُوفِ؛ فَبَادِرُوا إِلَى السَّعْيِ فِي الْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمْ، فَإِذَا وَقَعَ الصُّلْحُ، سَقَطَ الْإِثْمُ عَلَى الْمُصْلِحِ؛ لِأَنَّ إِصْلَاحَ الْفَسَادِ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ، فَإِذَا قَامَ بِهِ أَحَدُهُمْ؛ سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا؛ أَثِمَ الْكُلُّ **وَقَالَ ابْنُ عَاشُورٍ فِي التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ:** وَمَعْنَى (**خَافَ**) هُنَا: الظَّنُّ وَالتَّوَقُّعُ؛ لِأَنَّ ظَنَّ الْمَكْرُوهِ خَوْفٌ، فَأَطْلَقَ الْخَوْفَ عَلَى لَازِمِهِ، وَهُوَ الظَّنُّ وَالتَّوَقُّعُ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ مَا تَوَقَّعَهُ الْمُتَوَقِّعُ مِنْ قَبِيلِ الْمَكْرُوهِ، وَالْقَرِينَةُ هِيَ: أَنَّ الْجَنَفَ وَالْإِثْمَ لَا يُخِيفَانِ أَحَدًا؛ وَلَا سِيَّمَا مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْوَصِيَّةِ، وَهُوَ الْمُصْلِحُ بَيْنَ أَهْلِهَا.

[٢٤٢] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَأَمَّا الْجَنَفُ: فَهُوَ الْجَوْرُ وَالْعُدُولُ عَنِ الْحَقِّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ.

١٨٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾يَعْنِي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَصَدَّقُوا بِهِمَا وَأَقَرُّوا.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ[٢٤٣]﴾يَعْنِي: فُرِضَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾يَعْنِي: فُرِضَ عَلَيْكُمْ مِثْلُ الَّذِي فُرِضَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[٢٤٤]﴾يَعْنِي: لِتَتَّقُوا أَكْلَ الطَّعَامِ وَشُرْبَ الشَّرَابِ وَجِمَاعَ النِّسَاءِ فِيهِ.

يَقُولُ: فَرَضْتُ عَلَيْكُمُ الصَّوْمَ وَالْكَفَّ عَمَّا تَكُونُونَ بِتَرْكِ الْكَفِّ عَنْهُ مُفْطِرِينَ، لِتَتَّقُوا مَا يُفْطِرُكُمْ فِي وَقْتِ صَوْمِكُمْ.

١٨٤- ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ - أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا - الصِّيَامُ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ.

كَأَنَّهُ قِيلَ: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الَّذِي هُوَ مِثْلُ الَّذِي كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ: أَنْ تَصُومُوا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ؛ هِيَ شَهْرُ رَمَضَانَ.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا[٢٤٥] أَوْ عَلَى سَفَرٍ[٢٤٦] فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾يَعْنِي: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا، مِمَّنْ كُلِّفَ صَوْمَهُ، أَوْ كَانَ صَحِيحًا غَيْرَ مَرِيضٍ وَكَانَ عَلَى سَفَرٍ؛ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ.

---

[٢٤٣] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَالصِّيَامُ: مَصْدَرٌ، مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: صُمْتُ عَنْ كَذَا وَكَذَا - يَعْنِي: كَفَفْتُ عَنْهُ - أَصُومُ عَنْهُ صَوْمًا وَصِيَامًا، وَمَعْنَى الصِّيَامِ: الْكَفُّ عَمَّا أَمَرَ اللهُ بِالْكَفِّ عَنْهُ، وَمَنْ ذَلِكَ قِيلَ: صَامَتِ الْخَيْلُ؛ إِذَا كَفَّتْ عَنِ السَّيْرِ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللهِ - تَعَالَى ذِكْرُهُ -: ﴿**إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا**﴾يَعْنِي: صَمْتًا عَنِ الْكَلَامِ.

[٢٤٤] قَالَ الْقَاضِي ابْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾: فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ؛ الْأَوَّلُ: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ فِعْلَهُ.

الثَّانِي: لَعَلَّكُمْ تَضْعُفُونَ فَتَتَّقُونَ؛ فَإِنَّهُ كُلَّمَا قَلَّ الْأَكْلُ؛ ضَعُفَتِ الشَّهْوَةُ، وَكُلَّمَا ضَعُفَتِ الشَّهْوَةُ؛ قَلَّتِ الْمَعَاصِي!.

الثَّالِثُ: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ مَا فَعَلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اهـ.

وَقَالَ فِي تَفْسِيرِ الْمَنَارِ: قَوْلُهُ: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ هَذَا تَعْلِيلٌ لِكِتَابَةِ الصِّيَامِ بِبَيَانِ فَائِدَتِهِ الْكُبْرَى وَحِكْمَتِهِ الْعُلْيَا؛ وَهُوَ أَنَّهُ يُعِدُّ نَفْسَ الصَّائِمِ لِتَقْوَى اللهِ - تَعَالَى - بِتَرْكِ شَهَوَاتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ الْمُبَاحَةِ الْمَيْسُورَةِ؛ امْتِثَالًا لِأَمْرِهِ وَاحْتِسَابًا لِلْأَجْرِ عِنْدَهُ، فَتَتَرَبَّى بِذَلِكَ إِرَادَتُهُ عَلَى مَلَكَةِ تَرْكِ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ وَالصَّبْرِ عَنْهَا فَيَكُونُ اجْتِنَابُهَا أَيْسَرَ عَلَيْهِ، وَتَقْوَى عَلَى النُّهُوضِ بِالطَّاعَاتِ وَالْمَصَالِحِ وَالِاصْطِبَارِ عَلَيْهَا فَيَكُونُ الثَّبَاتُ عَلَيْهَا أَهْوَنَ عَلَيْهِ.

[٢٤٥] قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**مَرِيضًا**﴾ لِلْمَرِيضِ حَالَتَانِ: إِحْدَاهُمَا: أَلَّا يُطِيقَ الصَّوْمَ بِحَالٍ، فَعَلَيْهِ الْفِطْرُ وَاجِبًا.

الثَّانِيَةُ: أَنْ يَقْدِرَ عَلَى الصَّوْمِ بِضَرَرٍ وَمَشَقَّةٍ؛ فَهَذَا يُسْتَحَبُّ لَهُ الْفِطْرُ، وَلَا يَصُومُ إِلَّا جَاهِلٌ!! قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: مَتَى حَصَلَ الْإِنْسَانُ فِي حَالٍ يَسْتَحِقُّ بِهَا اسْمَ الْمَرَضِ؛ صَحَّ الْفِطْرُ؛ قِيَاسًا عَلَى الْمُسَافِرِ لِعِلَّةِ السَّفَرِ، وَإِنْ لَمْ تَدْعُ إِلَى الْفِطْرِ ضَرُورَة. قَالَ طَرِيفُ ابْنُ تَمَّامٍ الْعُطَارِدِيُّ: دَخَلْتُ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ فِي رَمَضَانَ وَهُوَ يَأْكُلُ، فَلَمَّا فَرَغَ، قَالَ: إِنَّهُ وَجِعَتْ أُصْبُعِي هَذِهِ... قُلْتُ: قَوْلُ ابْنِ سِيرِينَ أَعْدَل شَيْءٍ فِي هَذَا الْبَابِ - إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى -.

قَالَ الْبُخَارِيُّ: اعْتَلَلْتُ بِنَيْسَابُورَ عِلَّةً خَفِيفَةً، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، فَعَادَنِي إِسْحَاقُ بْنُ رَاهْوَيْهِ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ لِي: أَفْطَرْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ! فَقَالَ: خَشِيتَ أَنْ تَضْعُفَ عَنْ قَبُولِ الرُّخْصَةِ! قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: مِنْ أَيِّ الْمَرَضِ أُفْطِرُ؟ قَالَ: مِنْ أَيِّ مَرَضٍ كَانَ، كَمَا قَالَ اللهُ - تَعَالَى -: ﴿**فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا**﴾ قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَهَذَا الْحَدِيثُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ إِسْحَاقَ.

[٢٤٦] قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى: كُلُّ اسْمٍ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ فِي اللُّغَةِ وَلَا فِي الشَّرْعِ؛ فَالْمَرْجِعُ فِيهِ إِلَى الْعُرْفِ، فَمَا كَانَ سَفَرًا فِي عُرْفِ النَّاسِ؛ فَهُوَ السَّفَرُ الَّذِي عَلَّقَ بِهِ الشَّارِعُ الْحُكْمَ.

يَقُولُ: فَعَلَيْهِ صَوْمُ عِدَّةِ الْأَيَّامِ الَّتِي أَفْطَرَهَا فِي مَرَضِهِ أَوْ فِي سَفَرِهِ، مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، يَعْنِي: مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ غَيْرِ أَيَّامِ مَرَضِهِ أَوْ سَفَرِهِ.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ[٢٤٧]﴾يَعْنِي: وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ الصِّيَامَ جَزَاءُ طَعَامُ مِسْكِينٍ، لِكُلِّ يَوْمٍ أَفْطَرَهُ مِنْ أَيَّامِ صِيَامِهِ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِ.

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ مَعْنَى ذَلِكَ: فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَصَامَ مَعَ الْفِدْيَةِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَى ذَلِكَ: فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَزَادَ الْمِسْكِينُ عَلَى قَدْرِ طَعَامِهِ.

﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾يَعْنِي: وَأَنْ تَصُومُوا مَا كُتِبَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تُفْطِرُوهُ وَتَفْتَدُوا ﴿إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾يَعْنِي: إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَيْرَ الْأَمْرَيْنِ لَكُمْ – أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا – مِنَ الْإِفْطَارِ وَالْفِدْيَةِ، أَوِ الصَّوْمِ عَلَى مَا أَمَرَكُمُ اللهُ بِهِ.

١٨٥– ﴿شَهْرُ[٢٤٨] رَمَضَانَ﴾يَعْنِي: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ أَنْ تَصُومُوا شَهْرَ رَمَضَانَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿الَّذِيَ أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ فَإِنَّهُ ذكرَ أَنَّهُ نَزَلَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، ثُمَّ أُنْزِلَ إِلَى مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَى مَا أَرَادَ اللهُ إِنْزَالَهُ إِلَيْهِ.

عَنْ وَاثِلَةَ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «نَزَلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِستٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ، وَأُنْزِلَ الْقُرْآنُ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ».[٢٤٩]

---

٢٤٧ انْظُرْ – لِزَامًا – إِرْوَاءَ الْغَلِيلِ لِلْإِمَامِ الْأَلْبَانِيِّ تَحْتَ الْحَدِيثِ(٩١٢)، فَاحْرِصْ عَلَى قِرَاءَتِهِ؛ فَإِنَّهُ نَفِيسٌ مُهِمٌّ!.

٢٤٨ **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: الشَّهْرُ – فِيمَا قِيلَ –: أَصْلُهُ مِنَ الشُّهْرَةِ، يُقَالُ مِنْهُ: قَدْ شَهَرَ فُلَانٌ سَيْفَهُ: إِذَا أَخْرَجَهُ مِنْ غِمْدِهِ فَاعْتَرَضَ بِهِ مِنْ أَرَادَ ضَرْبَهُ، يُشْهِرُهُ شَهْرًا، وَكَذَلِكَ شَهَرَ الشَّهْرُ: إِذَا طَلَعَ هِلَالُهُ، وَأَشْهَرْنَا نَحْنُ: إِذَا دَخَلْنَا فِي الشَّهْرِ.

٢٤٩ صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب؛ وصححه الألباني في الصحيحة(١٥٧٥)، وصحيح الجامع (١٤٩٧)، وانظر: صحيح السيرة النبوية صـ٩٠، للألباني.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ لَهُ رَجُلٌ: إِنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي قَلْبِي الشَّكُّ مِنْ قَوْلِهِ:﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ فِي شَوَّالٍ، وَذِي الْقَعْدَةِ، وَغَيْرِهِ!! قَالَ: «إِنَّمَا أُنْزِلَ فِي رَمَضَانَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَلَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ جُمْلَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَى مَوَاقِعِ النُّجُومِ رَسَلًا فِي الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ».[٢٥٠]

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾يَعْنِي: رَشَادًا لِلنَّاسِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ، وَقَصْدِ الْمَنْهَجِ، ﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾يَعْنِي: وَوَاضِحَاتٍ ﴿مِنَ الْهُدَى﴾يَعْنِي: مِنَ الْبَيَانِ الدَّالِّ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَفَرَائِضِهِ وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ.

وَقَوْلِهِ: ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾يَعْنِي: وَالْفَصْلِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾يَعْنِي: جَمِيعَ مَا شَهِدَ مِنْهُ مُقِيمًا، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ.

﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ[٢٥١]﴾يَعْنِي: وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فِي الشَّهْرِ فَأَفْطَرَ؛ فَعَلَيْهِ صِيَامُ عِدَّةِ الْأَيَّامِ الَّتِي أَفْطَرَهَا، مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ غَيْرِ أَيَّامِ شَهْرِ رَمَضَانَ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْمَرَضِ الَّذِي أَبَاحَ اللهُ مَعَهُ الْإِفْطَارَ، وَأَوْجَبَ مَعَهُ عِدَّة مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ.

وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا: أَنَّ الْمَرَضَ الَّذِي أَذِنَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِالْإِفْطَارِ مَعَهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، مَنْ كَانَ الصَّوْمُ جَاهَدَهُ جَهْدًا غَيْرَ مُحْتَمَلٍ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَلَهُ الْإِفْطَارُ وَقَضَاءُ عِدَّةٍ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ.

---

[٢٥٠] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْفَتْحِ:** وَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُ نَزَلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ أُنْزِلَ بَعْدَ ذَلِكَ مُفَرَّقًا؛ **هُوَ الصَّحِيحُ الْمُعْتَمَدُ.**

[٢٥١] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾ هَذِهِ الْجُمْلَةُ سَبَقَتْ؛ لَكِنْ لَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾، وَكَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ نَاسِخَةً لِمَا قَبْلَهَا، قَدْ يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّهُ نَسَخَ حَتَّى فِطْرَ الْمَرِيضِ وَالْمُسَافِرِ؛ فَأَعَادَهَا – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – تَأْكِيدًا لِبَيَانِ الرُّخْصَةِ، وَأَنَّ الرُّخْصَةَ – حَتَّى بَعْدَ أَنْ تَعَيَّنَ الصِّيَامُ – بَاقِيَة؛ وَهَذَا مِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ. وَعَلَيْهِ: فَلَيْسَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنَ الْآيَةِ تَكْرَارًا مَحْضًا؛ بَلْ تَكْرار لِفَائِدَةٍ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَوْ قَالَ: ﴿**فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾ وَلَمْ يَقُلْ: ﴿**وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾؛ لَكَانَ نَاسِخًا عَامًّا.

وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا بَلَغَ ذَلِكَ الْأَمْرَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَأْذُونًا لَهُ فِي الْإِفْطَارِ؛ فَقَدْ كُلِّفَ عُسْرًا، وَمُنِعَ يُسْرًا.

وَذَلِكَ غَيْرُ الَّذِي أَخْبَرَ اللهُ أَنَّهُ أَرَادَهُ بِخَلْقِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

وَأَمَّا مَنْ كَانَ الصَّوْمُ غَيْرَ جَاهِدِهِ؛ فَهُوَ بِمَعْنَى الصَّحِيحِ الَّذِي يُطِيقُ الصَّوْمَ، فَعَلَيْهِ أَدَاءُ فَرْضِهِ.

﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾يَعْنِي: يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – بِتَرْخِيصِهِ لَكُمْ فِي حَالِ مَرَضِكُمْ وَسَفَرِكُمْ فِي الْإِفْطَارِ، وَقَضَاءِ عِدَّةِ أَيَّامٍ أُخَرَ مِنَ الْأَيَّامِ الَّتِي أَفْطَرْتُمُوهَا بَعْدَ إِقَامَتِكُمْ وَبَعْدَ بُرْئِكُمْ مِنْ مَرَضِكُمْ – التَّخْفِيفَ عَلَيْكُمْ، وَالتَّسْهِيلَ عَلَيْكُمْ؛ لِعِلْمِهِ بِمَشَقَّةِ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ، ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾يَقُولُ: وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الشِّدَّةَ وَالْمَشَقَّةَ عَلَيْكُمْ، فَيُكَلِّفُكُمْ صَوْمَ الشَّهْرِ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ ، مَعَ عِلْمِهِ شِدَّةَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ، وَثِقَلَ حَمْلِهِ عَلَيْكُمْ لَوْ حَمَّلَكُمْ صَوْمَهُ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾قَالَ: الْيُسْرُ: الْإِفْطَارُ فِي السَّفَرِ، وَالْعُسْرُ: الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ.[٢٥٢]

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾يَعْنِي: عِدَّةَ مَا أَفْطَرْتُمْ، مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، أَوْجَبْتُ عَلَيْكُمْ قَضَاءَ عِدَّةٍ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ بَعْدَ بُرْئِكُمْ مِنْ مَرَضِكُمْ، أَوْ إِقَامَتِكُمْ مِنْ سَفَرِكُمْ.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾يَعْنِي: وَلِتُعَظِّمُوا اللهَ بِالذِّكْرِ لَهُ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِهِ، مِنَ الْهِدَايَةِ الَّتِي خَذَلَ عَنْهَا غَيْرَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمْ مِنْ صَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ مِثْلُ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْكُمْ فِيهِ، فَضَلُّوا عَنْهُ بِإِضْلَالِ اللهِ إِيَّاهُمْ، وَخَصَّكُمْ بِكَرَامَتِهِ فَهَدَاكُمْ لَهُ، وَوَفَّقَكُمْ لِأَدَاءِ مَا كَتَبَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنْ صَوْمِهِ، وَتَشْكُرُوهُ عَلَى ذَلِكَ بِالْعِبَادَةِ لَهُ.

وَالذِّكْرُ الَّذِي خَصَّهُمُ اللهُ عَلَى تَعْظِيمِهِ بِهِ؛ التَّكْبِيرَ يَوْمَ الْفِطْرِ.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾يَعْنِي: وَلِتَشْكُرُوا اللهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ الْهِدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ، وَتَيْسِيرِ مَا لَوْ شَاءَ عُسِّرَ عَلَيْكُمْ.

---

[٢٥٢] اخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والبيهقي في الأسماء والصفات.

١٨٦- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ[٢٥٣] أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾يَعْنِي: وَإِذَا سَأَلَكَ يَا مُحَمَّدُ عِبَادِي عَنِّي: أَيْنَ أَنَا؟ فَإِنِّي قَرِيبٌ مِنْهُمْ أَسْمَعُ دُعَاءَهُمْ، وَأُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي مِنْهُمْ.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾يَعْنِي: فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي بِالطَّاعَةِ، ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾يَعْنِي: وَلْيُصَدِّقُوا، أَيْ: وَلْيُؤْمِنُوا بِي، إِذَا هُمُ اسْتَجَابُوا لِي بِالطَّاعَةِ، أَنِّي لَهُمْ مِنْ وَرَاءِ طَاعَتِهِمْ لِي فِي الثَّوَابِ عَلَيْهَا، وَإِجْزَالِي الْكَرَامَةَ لَهُمْ عَلَيْهَا.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾يَعْنِي: فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي بِالطَّاعَةِ، وَلْيُؤْمِنُوا بِي فَيُصَدِّقُوا عَلَى طَاعَتِهِمْ إِيَّايَ بِالثَّوَابِ مِنِّي لَهُمْ، وَلْيَهْتَدُوا بِذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ فَيَرْشُدُوا.

فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: وَمَا مَعْنَى هَذَا الْقَوْلِ مِنَ اللهِ - تَعَالَى ذِكْرُهُ -؟ فَأَنْتَ تَرَى كَثِيرًا مِنَ الْبَشَرِ يَدْعُونَ اللهَ فَلَا يُجَابُ لَهُمْ دُعَاءٌ! وَقَدْ قَالَ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾؟.

قِيلَ: إِنَّ لِذَلِكَ وَجْهَيْنِ مِنَ الْمَعْنَى: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونُ مَعْنِيًّا (بِالدَّعْوَةِ): الْعَمَلُ بِمَا نَدَبَ اللهُ إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ، فَيَكُونُ تَأْوِيلُ الْكَلَامِ: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ مِمَّنْ أَطَاعَنِي وَعَمِلَ بِمَا أَمَرْتُهُ بِهِ، أُجِيبُهُ بِالثَّوَابِ عَلَى طَاعَتِهِ إِيَّايَ إِذَا أَطَاعَنِي.

فَيَكُونُ مَعْنَى الدُّعَاءِ: مَسْأَلَةَ الْعَبْدِ رَبَّهُ وَمَا وَعَدَ أَوْلِيَاؤَهُ عَلَى طَاعَتِهِمْ بِعَمَلِهِمْ بِطَاعَتِهِ، وَمَعْنَى الْإِجَابَةِ مِنَ اللهِ الَّتِي ضَمِنَهَا لَهُ: الْوَفَاءُ لَهُ بِمَا وَعَدَ الْعَامِلِينَ لَهُ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ؛ كَمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، مِنْ قَوْلِهِ: «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ».

---

[٢٥٣] قُلْتُ - أَبُو حَمْزَةَ -: فَاللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - قَرِيبٌ مِنْ عِبَادِهِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَصْحَابِهِ لَمَّا كَانُوا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا [قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ]» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود؛ وغيرهم].

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى: وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ، لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ ؛ فَإِنَّهُ - سُبْحَانَهُ - لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ.

قَالَ حَافِظٌ الْحَكَمِيّ فِي سُلَّمِ الْوُصُولِ:

وَذِكْرُهُ لِلْقُرْبِ وَالْمَعِيَّةْ ... لَمْ يَنْفِ لِلْعُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّــةْ
فَإِنَّهُ الْعليُّ فِي دُنُــوِّهِ ... وَهُوَ الْقَرِيبُ جَلَّ فِي عُلُوِّهِ

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.[٢٥٤]

فَأَخْبَرَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّ دُعَاءَ اللهِ إِنَّمَا هُوَ عِبَادَتُهُ وَمَسْأَلَتُهُ، بِالْعَمَلِ لَهُ وَالطَّاعَةُ.

وَالْوَجْهُ الْآخَرُ: أَنْ يَكُونُ مَعْنَاهُ: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ إِنْ شِئْت[٢٥٥]، فَيَكُونُ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ عَامًّا مَخْرَجُهُ فِي التِّلَاوَةِ، خَاصًّا مَعْنَاهُ.

١٨٧- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾يَعْنِي: أُطْلِقَ لَكُمْ وَأُبِيحَ. ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾يَعْنِي: فِي لَيْلَةِ الصِّيَامِ ﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ فَأَمَّا الرَّفَثُ: فَإِنَّهُ كِنَايَةٌ عَنِ الْجِمَاعِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ[٢٥٦]﴾يَعْنِي: نِسَاؤُكُمْ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ.

---

[٢٥٤] صحيح: رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، والنسائي في الكبرى؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٣٤٠٧)، وصحيح الأدب المفرد(٥٥٣)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٦٢٧).

[٢٥٥] **قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ – جَلَّ وَعَلَا – قَرِيبٌ يُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي، وَبَيَّنَ فِي آيَةٍ أُخْرَى تَعْلِيقَ ذَلِكَ عَلَى مَشِيئَتِهِ – جَلَّ وَعَلَا –، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿**فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ**﴾.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: التَّعْلِيقُ بِالْمَشِيئَةِ فِي دُعَاءِ الْكُفَّارِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ سِيَاقِ الْآيَةِ، وَالْوَعْدُ الْمُطْلَقُ فِي دُعَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَلَيْهِ: فَدُعَاؤُهُمْ لَا يُرَدُّ: إِمَّا أَنْ يُعْطُوا مَا سَأَلُوا، أَوْ يُدَّخَرَ لَهُمْ خَيْرٌ مِنْهُ، أَوْ يُدْفَعَ عَنْهُمْ مِنَ السُّوءِ بِقَدْرِهِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الْمُرَادُ بِالدُّعَاءِ: الْعِبَادَةُ، وَبِالْإِجَابَةِ: الثَّوَابُ؛ وَعَلَيْهِ: فَلَا إِشْكَالَ!.

[٢٥٦] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَكَيْفَ يَكُونُ نِسَاؤُنَا لِبَاسًا لَنَا، وَنَحْنُ لَهُنَّ لِبَاسًا، وَاللِّبَاسُ إِنَّمَا هُوَ مَا لُبِسَ؟

قِيلَ: لِذَلِكَ وَجْهَانِ مِنَ الْمَعَانِي:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا جُعِلَ لِصَاحِبِهِ لِبَاسًا؛ لِتَجَرُّدِهِمَا عِنْدَ النَّوْمِ، وَاجْتِمَاعِهِمَا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَانْضِمَامِ جَسَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ، بِمَنْزِلَةِ مَا يَلْبَسُهُ عَلَى جَسَدِهِ مِنْ ثِيَابِهِ، فَقِيلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: هُوَ لِبَاسٌ لِصَاحِبِهِ!.

وَالْوَجْهُ الْآخَرُ: أَنْ يَكُونَ جَعَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ لِبَاسًا؛ لِأَنَّهُ سَكَنٌ لَهُ، كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿**جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا**﴾يَعْنِي بِذَلِكَ: سَكَنًا تَسْكُنُونَ فِيهِ. وَكَذَلِكَ زَوْجَةُ الرَّجُلِ سَكَنُهُ يَسْكُنُ إِلَيْهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾فَيَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِبَاسًا لِصَاحِبِهِ، بِمَعْنَى: سُكُونِهِ إِلَيْهِ.

وَقَدْ يُقَالُ: لِمَا سَتَرَ الشَّيْءَ وَوَارَاهُ عَنْ أَبْصَارِ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِ: هُوَ لِبَاسُهُ، وَغِشَاؤُهُ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قِيلَ: هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ، وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ؛ بِمَعْنَى: أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ سِتْرٌ لِصَاحِبِهِ – فِيمَا يَكُونُ بَيْنَكُمْ مِنَ الْجِمَاعِ – عَنْ أَبْصَارِ سَائِرِ النَّاسِ.

﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾إِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: وَمَا هَذِهِ الْخِيَانَةُ الَّتِي كَانَ الْقَوْمُ يَخْتَانُونَهَا أَنْفُسَهُمُ، الَّتِي تَابَ اللهُ مِنْهَا عَلَيْهِمْ فَعَفَا عَنْهُمْ؟ قِيلَ: كَانَتْ خِيَانَتُهُمْ أَنْفُسَهُمُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ فِي شَيْئَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: جِمَاعُ النِّسَاءِ، وَالآخَرُ: الْمَطْعَمُ وَالْمَشْرَبُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ حَرَامًا ذَلِكَ عَلَيْهِمْ.

حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي لَيْلَى: أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ إِذَا أَفْطَرَ فَنَامَ لَمْ يَأْتِهَا، وَإِذَا نَامَ لَمْ يَطْعَمْ، حَتَّى جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُرِيدُ امْرَأَتَهُ، فَقَالَتِ امْرَأَتهُ: قَدْ كُنْتَ نِمْتَ، فَظَنَّ أَنَّهَا تَعْتَلُّ؛ فَوَقَعَ بِهَا! قَالَ: وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَأَرَادَ أَنْ يَطْعَمَ، فَقَالُوا: نُسَخِّنُ لَكَ شَيْئًا؟ قَالَ: ثُمَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾.[257]

عَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ، لَمْ يَأْكُلْ إِلَى مِثْلِهَا، وَإِنَّ قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ الأَنْصَارِيَّ كَانَ صَائِمًا، وَكَانَ تَوَجَّهَ ذَلِكَ الْيَوْمَ فَعَمِلَ فِي أَرْضِهِ، فَلَمَّا حَضَرَ الإِفْطَارُ أَتَى امْرَأَتَهُ، فَقَالَ: هَلْ عِنْدَكُمْ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لاَ! وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ. فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ فَنَامَ! وَجَاءَتِ امْرَأَتُهُ، قَالَتْ: قَدْ نِمْتَ!! فَلَمْ يَنْتَصِفِ النَّهَارُ حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهِ! فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَنَزَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ إِلَى: ﴿مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾؛ فَفَرِحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا.[258]

فَأَمَّا الْمُبَاشَرَةُ فِي كَلاَمِ الْعَرَبِ: فَإِنَّهُ مُلاَقَاةُ بَشَرَةٍ بِبَشَرَةٍ، وَبَشَرَةُ الرَّجُلِ: جِلْدَتُهُ الظَّاهِرَةُ.

وَإِنَّمَا كَنَّى اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾عَنِ الْجِمَاعِ.

يَقُولُ: فَالآنَ إِذْ أَحْلَلْتُ لَكُمُ الرَّفَثَ إِلَى نِسَائِكُمْ، فَجَامِعُوهُنَّ فِي لَيَالِي شَهْرِ رَمَضَانَ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ؛ وَهُوَ تَبَيُّنُ الْخَيْطِ الأَبْيَضِ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ.

﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾يَعْنِي: وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ مِنَ الْوَلَدِ.

---

[257] صحيح: رواه أبو داود، والبيهقي في الكبرى؛ وغيرهما، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود(٥٠٦).

[258] صحيح: رواه البخاري، وأحمد، وأبو داود، والترمذي؛ وغيرهم.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾يَعْنِي بِقَوْلِهِ: الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ: ضَوْءَ النَّهَارِ، وَبِقَوْلِهِ: الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ: سَوَّادَ اللَّيْلِ.

يَعْنِي: وَكُلُوا بِاللَّيْلِ فِي شَهْرِ صَوْمِكُمْ، وَاشْرَبُوا، وَبَاشِرُوا نِسَاءَكُمْ، مُبْتَغِينَ مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ مِنَ الْوَلَدِ، مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى أَنْ يَقَعَ لَكُمْ ضَوْءُ النَّهَارِ بِطُلُوعِ الْفَجْرِ مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَسَوَادِهِ.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ فَلَمْ يَنْزِلْ ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، قَالَ: فَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ: رَبَطَ أَحَدُهُمْ فِي رِجْلَيْهِ الْخَيْطَ الْأَسْوَدَ وَالْخَيْطَ الْأَبْيَضَ، فَلَا يَزَالُ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فَعَلِمُوا إِنَّمَا يَعْنِي بِذَلِكَ: اللَّيْلَ، وَالنَّهَارَ.[٢٥٩]

صِفَةُ ذَلِكَ الْبَيَاضِ أَنْ يَكُونُ مُنْتَشِرًا مُسْتَفِيضًا فِي السَّمَاءِ يَمْلَأُ بَيَاضُهُ وَضَوْءُهُ الطُّرُقَ، فَأَمَّا الضَّوْءُ السَّاطِعُ فِي السَّمَاءِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ الَّذِي عَنَاهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾.

عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ مُسْلِمٍ، قَالَ «لَمْ يَكُونُوا يَعُدُّونَ الْفَجْرَ فَجْرَكُمْ هَذَا، كَانُوا يَعُدُّونَ الْفَجْرَ الَّذِي يَمْلَأُ الْبُيُوتَ وَالطُّرُقَ».[٢٦٠]

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «الْفَجْرُ فَجْرَانِ: فَالَّذِي كَأَنَّهُ ذَنَبُ السِّرْحَانِ؛ لَا يُحَرِّمُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْمُسْتَطِيرُ الَّذِي يَأْخُذُ الْأُفُقَ؛ فَإِنَّهُ يُحِلُّ الصَّلَاةَ، وَيُحَرِّمُ الصَّوْمَ».[٢٦١]

---

[٢٥٩] صحيح: رواه البخاري، ومسلم؛ وغيرهما.

[٢٦٠] أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، وابن حزم في المحلي.

[٢٦١] صحيح: رواه الدارقطني في سننه، وابن أبي شيبة في مصنفه، وابن خزيمة في صحيحه، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٢٠٠٢)، وصحيح الجامع(٤٢٧٨).

قلت: وانظر – للفائدة –: (الفجر الصادق وامتيازه عن الفجر الكاذب)؛ لتقي الدين الهلالي، و(السلسلة الصحيحة)؛ للألباني، تحت الحديث(٢٠٣١).

حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سَوَادَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ سَمُرَةَ بْنَ جُنْدُبٍ، يَذْكُرُ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، أَنَّهُ سَمِعَهُ وَهُوَ يَقُولُ: «لَا يَغُرَّنَّكُمْ نِدَاءُ بِلَالٍ، وَلَا هَذَا الْبَيَاضُ حَتَّى يَبْدُوَ الْفَجْرُ وَيُنْفَجِرُ».[٢٦٢]

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مِنَ الْفَجْرِ[٢٦٣]﴾فَإِنَّهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – يَعْنِي: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ الَّذِي هُوَ مِنَ الْفَجْرِ. وَلَيْسَ ذَلِكَ هُوَ جَمِيعُ الْفَجْرِ، وَلَكِنَّهُ إِذَا تَبَيَّنَ لَكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – مِنَ الْفَجْرِ ذَلِكَ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ الَّذِي يَكُونُ مِنْ تَحْتِ اللَّيْلِ الَّذِي فَوْقَهُ سَوَّادُ اللَّيْلِ؛ فَمَنْ حِينَئِذٍ فَصُومُوا[٢٦٤]، ثُمَّ أَتِمُّوا صِيَامَكُمْ مِنْ ذَلِكَ إِلَى اللَّيْلِ.

---

[٢٦٢] صحيح: رواه مسلم، وأحمد، والطحاوي في شرح معاني الآثار؛ وغيرهم. وَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا، وَلَا يَهِيدَنَّكُمُ السَّاطِعُ الْمُصْعِدُ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَعْتَرِضَ لَكُمُ الْأَحْمَرُ**» [حديث حسن: رواه أبو داود، والترمذي، والدارقطني في سننه، وابن خزيمة في صحيحه، والطبراني في الكبير، وغيرهم؛ وحسنه الألباني في الصحيحة(٢٠٣١)، وصحيح الجامع(٤٥٠٦)، وغيرهما].

قَوْلُهُ: (**وَلَا يَهِيدَنَّكُمُ السَّاطِعُ الْمُصْعِدُ**)، قَالَ فِي النِّهَايَةِ: أَيْ: لَا تَنْزَعِجُوا للفَجْرِ الْمُسْتَطِيلِ فَتَمْتَنِعُوا بِهِ عَنِ السُّحُورِ؛ فَإِنَّهُ الصُّبْحُ الْكَاذِبُ!. قَوْلُهُ: (**السَّاطِعُ الْمُصْعِدُ**)، قَالَ الْخَطَّابِيُّ فِي مَعَالِمِ السُّنَنِ: وَسُطُوعُهَا: ارْتِفَاعُهَا مُصْعَدًا قَبْلَ أَنْ يَعْتَرِضَ.

قَالَ الْقَحْطَانِيُّ فِي نُونِيَّتِهِ:

وَارْقُبْ طُلُوعَ الْفَجْرِ وَاسْتَيْقِنْ بِهِ   فَالْفَجْرُ عِنْدَ شُيُوخِنَا فَجْرَانِ

فَجْرٌ كَذُوبٌ ثُمَّ فَجْرٌ صَـــادِقٌ   وَلَرُبَّمَا فِي الْعَيْنِ يَشْتَبِهَـــانِ

[٢٦٣] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَمَّا الْفَجْرُ، فَإِنَّهُ مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: تَفَجَّرَ الْمَاءُ يَتَفَجَّرُ فَجْرًا: إِذَا انْبَعَثَ وَجَرَى، فَقِيلَ لِلطَّالِعِ مِنْ تَبَاشِيرِ ضِيَاءِ الشَّمْسِ مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ: فَجْرٌ؛ لِانْبِعَاثِ ضَوْئِهِ عَلَيْهِمْ، وَتَوَرُّدِهِ عَلَيْهِمْ بِطُرُقِهِمْ وَمَحَاجِّهِمْ، تَفَجُّرَ الْمَاءِ الْمُتَفَجِّرِ مِنْ مَنْبَعِهِ.

[٢٦٤] **قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي الْمَجْمُوعِ**: وَلَوْ شَكَّ فِي طُلُوعِ الْفَجْرِ؛ جَازَ لَهُ الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَالْجِمَاعُ وَغَيْرُهَا بِلَا خِلَافٍ، حَتَّى يَتَحَقَّقَ الْفَجْرُ؛ لِلْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿**حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ**﴾؛ وَلِمَا صَحَّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، أَنَّهُ قَالَ: «**كُلْ مَا شَكَكْتَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ**». رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ حَبِيبِ ابْنِ أَبِي ثَابِتٍ، قَالَ: أَرْسَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَجُلَيْنِ يَنْظُرَانِ الْفَجْرَ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَصْبَحْتُ، وَقَالَ الْآخَرُ: لَا، قَالَ: «**اخْتَلَفْتُمَا! أَرِنِي شَرَابِي**». قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: وَرُوِيَ[فِي]هَذَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَعُمَرَ، وَابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ –.

وَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَرِنِي شَرَابِي»؛ جَارٍ عَلَى الْقَاعِدَةِ: أَنَّهُ يَحِلُّ الشُّرْبُ وَالْأَكْلُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ الْفَجْرُ، وَلَوْ كَانَ قَدْ تَبَيَّنَ؛ لَمَا اخْتَلَفَ الرَّجُلَانِ فِيهِ؛ لِأَنَّ خَبَرَيْهِمَا تَعَارَضَا، وَالْأَصْلُ بَقَاءُ اللَّيْلِ؛ وَلِأَنَّ قَوْلَهُ: (أَصْبَحْتُ) لَيْسَ صَرِيحًا فِي طُلُوعِ الْفَجْرِ! فَقَدْ تُطْلَقُ هَذِهِ اللَّفْظَةُ لِمُقَارَبَةِ الْفَجْرِ، وَاللهُ أَعْلَمُ اهـ.

قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: فَقَدْ تَبَيَّنَ – مِمَّا تَقَدَّمَ – أَنَّ الْمُسْلِمَ مَأْمُورٌ بِالْأَكْلِ، وَالشُّرْبِ، وَالْجِمَاعِ؛ إِلَى أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ الْفَجْرُ الصَّادِقُ، فَهُوَ مَعَ الشَّكِّ فِي طُلُوعِهِ؛ مَأْمُورٌ: بِالْأَكْلِ، وَالشُّرْبِ، وَالْجِمَاعِ. وَعِنْدَ الْمُتَعَمِّقِينَ، يَقُولُونَ: إِذَا شَكَكْتَ فِي الْفَجْرِ؛ وَجَبَ عَلَيْكَ الْإِمْسَاكُ!! وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ مِنَ التَّعَمُّقِ الْمَذْمُومِ؛ لِأَنَّ الرَّبَّ – عَزَّ وَجَلَّ – هُوَ الَّذِي يَتَعَبَّدُ عِبَادَهُ، وَقَدْ قَالَ: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ**﴾، وَلَمْ يَقُلْ: حَتَّى تَشُكُّوا فِي الْفَجْرِ! بَلْ قَالَ – جَلَّ ذِكْرُهُ –: ﴿**حَتَّى يَتَبَيَّنَ**﴾؛ لِأَنَّ التَّبَيُّنَ مِنَ الشَّيْءِ: هُوَ التَّأَكُّدُ مِنْهُ.

فَالْآيَةُ صَرِيحَةٌ فِي إِبَاحَةِ اسْتِمْرَارِ الْمُتَسَحِّرِ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَجِمَاعِهِ حَتَّى يَتَأَكَّدَ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ الصَّادِقِ، فَإِذَا تَأَكَّدَ؛ أَمْسَكَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ فَإِنَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ حَدَّ الصَّوْمَ بِأَنَّ آخِرَ وَقْتِهِ إِقْبَالُ اللَّيْلِ، كَمَا حَدَّ الْإِفْطَارَ وَإِبَاحَةَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجِمَاعِ وَأَوَّلَ الصَّوْمِ بِمَجِيءِ أَوَّلِ النَّهَارِ وَأَوَّلِ إِدْبَارِ آخِرِ اللَّيْلِ، فَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنْ لَا صَوْمَ بِاللَّيْلِ، كَمَا لَا فِطْرَ بِالنَّهَارِ فِي أَيَّامِ الصَّوْمِ، وَعَلَى أَنَّ الْمُوَاصِلَ مُجَوِّعٌ نَفْسَهُ فِي غَيْرِ طَاعَةِ رَبِّهِ.[٢٦٥]

عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ عُمَرَ، قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ، وَغَابَتِ الشَّمْسُ؛ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ».[٢٦٦]

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ إِذًا: ثُمَّ أَتِمُّوا الْكَفَّ عَمَّا أَمَرَكُمُ اللهُ بِالْكَفِّ عَنْهُ، مِنْ حِينَ يَتَبَيَّنُ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ إِلَى اللَّيْلِ، ثُمَّ حَلَّ لَكُمْ ذَلِكَ بَعْدَهُ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ الْوَقْتِ.

﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ﴾ يَعْنِي: لَا تُجَامِعُوا نِسَاءَكُمْ ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ[٢٦٧] فِي الْمَسَاجِدِ[٢٦٨]﴾ يَقُولُ: فِي حَالِ عُكُوفِكُمْ فِي الْمَسَاجِدِ؛ وَتِلْكَ حَالُ حَبْسِهِمْ أَنْفُسَهُمْ عَلَى عُبَادَةِ اللهِ فِي مَسَاجِدِهِمْ.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِذَلِكَ: هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي بَيَّنْتُهَا: مِنَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ

---

[٢٦٥] **وَيُسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ:** مَنْ وَاصَلَ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى وَقْتِ السَّحَرِ؛ لِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، يَقُولُ: «**لَا تُوَاصِلُوا! فَأَيُّكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ؛ فَلْيُوَاصِلْ حَتَّى السَّحَرِ**»، قَالُوا: فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: «**إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ! إِنِّي أَبِيتُ لِي مُطْعِمٌ يُطْعِمُنِي، وَسَاقٍ يَسْقِينِ**» [صحيح: رواه البخاري، وأحمد، وأبو داود؛ وغيرهم].

وَ(**الْوِصَالُ**): هُوَ أَنْ يَصِلَ صَوْمَ يَوْمٍ بِيَوْمٍ آخَرَ، وَلَا يَأْكُلَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا.

[٢٦٦] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي؛ وغيرهم.

[٢٦٧] الِاعْتِكَافُ فِي اللُّغَةِ: الْمُلَازَمَةُ، وَالْمُوَاظَبَةُ، يُقَالُ: عَكَفَ عَلَى الشَّيْءِ عُكُوفًا؛ إِذَا لَازَمَهُ وَوَاظَبَهُ.

وَفِي الشَّرْعِ: الْمُكْثُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى سَبِيلِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –.

فَلَمَّا كَانَ الْمُعْتَكِفُ يُلَازِمُ الْمَسْجِدَ، قِيلَ لَهُ: عَاكِفٌ فِي الْمَسْجِدِ، وَمُعْتَكِفٌ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ يَحْبِسُ نَفْسَهُ لِهَذِهِ الْعِبَادَةِ فِي الْمَسْجِدِ.

[٢٦٨] وَظَاهِرُ قَوْلِهِ: ﴿**فِي الْمَسَاجِدِ**﴾ يُبِيحُ الِاعْتِكَافَ فِي سَائِرِ الْمَسَاجِدِ؛ لِعُمُومِ اللَّفْظِ، وَلَكِنَّ هَذَا الْعُمُومَ قَدْ خَصَّصَتْهُ السُّنَّةُ بِالْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَالْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى؛ فَعَنْ أَبِي وَائِلٍ، قَالَ: قَالَ حُذَيْفَةُ لِعَبْدِ اللهِ: عُكُوفٌ بَيْنَ دَارِكَ وَدَارِ أَبِي مُوسَى لَا تُغَيِّرُ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**لَا اعْتِكَافَ إِلَّا فِي الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَمَسْجِدِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ**» قَالَ عَبْدُ اللهِ: لَعَلَّكَ نَسِيتَ وَحَفِظُوا ، وَأَخْطَأْتَ وَأَصَابُوا[صحيح: رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، وعبد الرزاق في مصنفه، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الكبرى، والطحاوي في شرح مشكل الآثار، والهيثمي في المجمع؛ وقال: رواه الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٢٧٨٦)].

وَقِيلَ: قَوْلُهُ: «**لَا اعْتِكَافَ إِلَّا فِي الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ**» لَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الِاعْتِكَافِ فِي غَيْرِهَا، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: لَا اعْتِكَافَ أَتَمَّ وَأَكْمَلَ إِلَّا فِيهَا!.

وَالْجِمَاعِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ نَهَارًا فِي غَيْرِ عُذْرٍ، وَجِمَاعِ النِّسَاءِ فِي الِاعْتِكَافِ فِي الْمَسَاجِدِ، يَقُولُ: هَذِهِ الْأَشْيَاءَ حَدَّدْتُهَا لَكُمْ، وَأَمَرْتُكُمْ أَنْ تَجْتَنِبُوهَا فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي أَمَرْتُكُمْ أَنْ تَجْتَنِبُوهَا، وَحَرَّمْتُهَا فِيهَا عَلَيْكُمْ، فَلَا تَقْرَبُوهَا، وَابْعُدُوا مِنْهَا أَنْ تَرْكَبُوهَا، فَتَسْتَحِقُّوا بِهَا مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مَنْ تَعَدَّى حُدُودِي، وَخَالَفَ أَمْرِي وَرَكِبَ مَعَاصِيَّ.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾يَعْنِي: كَمَا بَيَّنْتُ لَكُمْ – أَيُّهَا النَّاسُ – وَاجِبَ فَرَائِضِي عَلَيْكُمْ مِنَ الصَّوْمِ، وَعَرَّفْتُكُمْ حُدُودَهُ وَأَوْقَاتَهُ، وَمَا عَلَيْكُمْ مِنْهُ فِي الْحَضَرِ، وَمَا لَكُمْ فِيهِ فِي السَّفَرِ وَالْمَرَضِ، وَمَا اللَّازِمُ لَكُمْ تَجَنُّبُهُ فِي حَالِ اعْتِكَافِكُمْ فِي مَسَاجِدِكُمْ، فَأَوْضَحْتُ جَمِيعَ ذَلِكَ لَكُمْ؛ فَكَذَلِكَ أُبَيِّنُ أَحْكَامِي، وَحَلَالِي وَحَرَامِي، وَحُدُودِي، وَأَمْرِي وَنَهْيِي، فِي كِتَابِي وَتَنْزِيلِي، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِلنَّاسِ.

ويعني بِقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾يَقُولُ: أُبَيِّنُ ذَلِكَ لَهُمْ لِيَتَّقُوا مَحَارِمِي وَمَعَاصِيَّ، وَيَتَجَنَّبُوا سَخَطِي وَغَضَبِي، بِتَرْكِهِمْ رُكُوبَ مَا أُبَيِّنُ لَهُمْ فِي آيَاتِي أَنِّي قَدْ حَرَّمْتُهُ عَلَيْهِمْ، وَأَمَرْتُهُمْ بِهَجْرِهِ وَتَرْكِهِ.

١٨٨– ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾يَعْنِي: وَلَا يَأْكُلْ بَعْضُكُمْ مَالَ بَعْضٍ بِالْبَاطِلِ.

فَجَعَلَ تَعَالَى ذِكْرُهُ بِذَلِكَ آكِلَ مَالِ أَخِيهِ بِالْبَاطِلِ، كَالْآكِلِ مَالَ نَفْسِهِ بِالْبَاطِلِ.

وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾بِمَعْنَى: لَا يَلْمِزْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – جَعَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِخْوَةً، فَقَاتِلُ أَخِيهِ: كَقَاتِلِ نَفْسِهِ، وَلَامِزُهُ: كَلَامِزِ نَفْسِهِ.[٢٦٩]

فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: وَلَا يَأْكُلْ بَعْضُكُمْ أَمْوَالَ بَعْضٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ.

وَأَكْلُهُ بِالْبَاطِلِ: أَكْلُهُ مِنْ غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي أَبَاحَهُ اللهُ لِآكِلِيهِ.[٢٧٠]

---

[٢٦٩] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ الْعَرَبُ: تُكَنِّي عَنْ نَفْسِهَا بِأَخَوَاتِهَا، وَعَنْ أَخَوَاتِهَا بِأَنْفُسِهَا، فَتَقُولُ: (أَخِي وَأَخُوكَ أَيُّنَا أَبْطَشُ) تَعْنِي: أَنَا وَأَنْتَ نَصْطَرِعُ، فَنَنْظُرُ أَيُّنَا أَشَدُّ! فَيُكَنِّي الْمُتَكَلِّمُ عَنْ نَفْسِهِ بِأَخِيهِ؛ لِأَنَّ أَخَا الرَّجُلِ عِنْدَهَا كَنَفْسِهِ.

[٢٧٠] **قَالَ الْإِمَامُ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَالْأَكْلُ بِالْبَاطِلِ أَنْوَاعٌ: قَدْ يَكُونُ بِطَرِيقِ الْغَصْبِ وَالنَّهْبِ، وَقَدْ يَكُونُ بِطَرِيقِ اللَّهْوِ؛ كَالْقِمَارِ، وَأُجْرَةِ الْمُغَنِّي، وَنَحْوِهِمَا، وَقَدْ يَكُونُ بِطَرِيقِ الرِّشْوَةِ وَالْخِيَانَةِ!.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَتُدْلُوا[271] بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ[272]﴾يَعْنِي: وَتُخَاصِمُوا بِهَا – يَعْنِي: بِأَمْوَالِكُمْ – إِلَى الْحُكَّامِ ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا﴾، طَائِفَةً ﴿مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾يَعْنِي: بِالْحَرَامِ الَّذِي قَدْ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ[273]﴾أَيْ: وَأَنْتُمْ تَتَعَمَّدُونَ أَكْلَ ذَلِكَ بِالْإِثْمِ، عَلَى قَصْدٍ مِنْكُمْ إِلَى مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْكُمْ مِنْهُ، وَمَعْرِفَةٍ بِأَنَّ فِعْلَكُمْ ذَلِكَ مَعْصِيَةٌ لِلَّهِ وَإِثْمٌ.

١٨٩- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ[274] قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾يَعْنِي: يَسْأَلُونَكَ يَا مُحَمَّدُ عَنِ الْأَهِلَّةِ وَمِحَاقِهَا وَسِرَارِهَا وَتَمَامِهَا وَاسْتِوَائِهَا، وَتَغَيُّرِ أَحْوَالِهَا بِزِيَادَةٍ وَنُقْصَانٍ وَمِحَاقٍ وَاسْتِسْرَارٍ، وَمَا الْمَعْنَى الَّذِي

---

[271] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَأَصْلُ الْإِدْلَاءِ: إِرْسَالُ الرَّجُلِ الدَّلْوَ فِي سَبَبٍ مُتَعَلِّقًا بِهِ فِي الْبِئْرِ، فَقِيلَ لِلْمُحْتَجِّ لِدَعْوَاهُ: (أَدْلَى بِحُجَّةٍ كَيْتَ وَكَيْتَ) إِذَا كَانَ حُجَّتُهُ الَّتِي يَحْتَجُّ بِهَا سَبَبًا لَهُ، هُوَ بِهِ مُتَعَلِّقٌ فِي خُصُومَتِهِ، كَتَعَلُّقِ الْمُسْتَقِي مِنْ بِئْرٍ بِدَلْوٍ قَدْ أَرْسَلَهَا فِيهَا بِسَبَبِهَا الَّذِي الدَّلْوُ بِهِ مُتَعَلِّقَةٌ، يُقَالُ فِيهِمَا جَمِيعًا – أَعْنِي: مِنَ الِاحْتِجَاجِ، وَمِنْ إِرْسَالِ الدَّلْوِ فِي الْبِئْرِ بِسَبَبٍ –: أَدْلَى فُلَانٌ بِحُجَّتِهِ، فَهُوَ يُدْلِي بِهَا إِدْلَاءً، وَأَدْلَى دَلْوَهُ فِي الْبِئْرِ، فَهُوَ يُدْلِيهَا إِدْلَاءً.

[272] عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا –، عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، أَنَّهُ سَمِعَ خُصُومَةً بِبَابِ حُجْرَتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ! وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ [أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ]، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ! فَأَقْضِي لَهُ[عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ]، [فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ بِقَوْلِهِ]؛ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ: فَلْيَأْخُذْهَا، أَوْ لِيَتْرُكْهَا!!**» [رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم].

قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ: وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ لَا يُحَلِّلُ الْحَرَامَ، وَلَا يُحَرِّمُ الْحَلَالَ، مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ الْأَمْوَالِ وَالْفُرُوجِ، فَمَنْ حَكَمَ لَهُ الْقَاضِي بِشَيْءٍ، مُسْتَنِدًا فِي حُكْمِهِ إِلَى شَهَادَةِ زُورٍ أَوْ يَمِينِ فُجُورٍ؛ فَلَا يَحِلُّ لَهُ أَكْلُهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ!! وَهَكَذَا إِذَا رَشَى الْحَاكِمَ فَحَكَمَ لَهُ بِغَيْرِ الْحَقِّ؛ فَإِنَّهُ مِنْ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ!.

وَلَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ لَا يُحَلِّلُ الْحَرَامَ، وَلَا يُحَرِّمُ الْحَلَالَ.

[273] قَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾الْمَعْنَى: وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ مُبْطِلُونَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِقْدَامَ عَلَى الْقَبِيحِ مَعَ الْعِلْمِ بِقُبْحِهِ أَقْبَحُ! وَصَاحِبُهُ بِالتَّوْبِيخِ أَحَقُّ!.

[274] الْأَهِلَّةُ: جَمْعُ هِلَالٍ، وسمي (هِلَالًا): لِظُهُورِهِ، وَمِنْهُ (الْإِهْلَالُ بِالْحَجِّ): وَهُوَ إِظْهَارُ التَّلْبِيَةِ، وَ(اسْتِهْلَالُ الصَّبِيِّ): ظُهُورُ حَيَاتِهِ بِصَوْتٍ أَوْ حَرَكَةٍ. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْإِهْلَالَ هُوَ رَفْعُ الصَّوْتِ، وَإِنَّ إِهْلَالَ الْهِلَالِ مِنْ ذَلِكَ لِرَفْعِ الصَّوْتِ بِذِكْرِهِ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ.

وَالْأَوَّلُ أَبْيَنُ وَأَظْهَرُ، أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: (تَهَلَّلَ وَجْهُهُ) إِذَا ظَهَرَ مِنْهُ الْبِشْرُ وَالسُّرُورُ؛ وَلَيْسَ هُنَاكَ صَوْتٌ مَرْفُوعٌ!!.

وَقَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ اللُّغَةِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُسَمَّى هِلَالًا: فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يُسَمَّى هِلَالًا لِلَيْلَتَيْنِ مِنَ الشَّهْرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يُسَمَّى لِثَلَاثِ لَيَالٍ ثُمَّ يُسَمَّى قَمَرًا، وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: يُسَمَّى هِلَالًا حَتَّى يُحَجِّرَ، وَتَحْجِيرُهُ: أَنْ يَسْتَدِيرَ بِخُطَّةٍ دَقِيقَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: يُسَمَّى هِلَالًا حَتَّى يُبْهِرَ ضَوْءُهُ سَوَادَ اللَّيْلِ، فَإِذَا غَلَبَ ضَوْءُهُ؛ سُمِّيَ قَمَرًا، قَالُوا: وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي اللَّيْلَةِ السَّابِعَةِ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الْأَكْثَرُ يُسَمُّونَهُ هِلَالًا لِابْنِ لَيْلَتَيْنِ.

فَائِدَةٌ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**مِن اقْتِرَابِ السَّاعَةِ (وَفِي رِوَايَةٍ: مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ): انْتِفَاخُ الْأَهِلَّةِ، وَأَنْ يُرَى الْهِلَالُ لِلَيْلَةٍ، فَيُقَالُ: هُوَ ابْنُ لَيْلَتَيْنِ!**» [صحيح: أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط وفي مسند الشاميين؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٢٢٩٢)].

خَالَفَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّمْسِ الَّتِي هِيَ دَائِمَةٌ أَبَدًا عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ لَا تَتَغَيَّرُ بِزِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ؟ فَقُلْ يَا مُحَمَّدُ: خَالَفَ بَيْنَ ذَلِكَ رَبُّكُمْ لِتَصْيِيرِهِ الْأَهِلَّةَ الَّتِي سَأَلْتُمْ عَنْ أَمْرِهَا، وَمَخَالَفَةِ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ غَيْرِهَا فِيمَا خَالَفَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ، مَوَاقِيتُ لَكُمْ وَلِغَيْرِكُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ فِي مَعَايِشِهِمْ، تَرْقُبُونَ بِزِيَادَتِهَا وَنُقْصَانِهَا وَمَحَاقِهَا وَاسْتِسْرَارِهَا وَإِهْلَالِكُمْ إِيَّاهَا، أَوْقَاتَ حَلِّ دُيُونِكُمْ، وَانْقِضَاءَ مُدَّةِ إِجَارَةِ مَنِ اسْتَأْجَرْتُمُوهُ، وَتَصَرُّمَ[٢٧٥] عِدَّةِ نِسَائِكُمْ، وَوَقْتَ صَوْمِكُمْ وَإِفْطَارِكُمْ، فَجَعَلَهَا مَوَاقِيتَ لِلنَّاسِ.[٢٧٦]

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَالْحَجِّ﴾ يَعْنِي: وَلِلْحَجِّ، يَقُولُ: وَجَعَلَهَا أَيْضًا مِيقَاتًا لِحَجِّكُمْ، تَعْرِفُونَ بِهَا وَقْتَ مَنَاسِكِكُمْ وَحَجِّكُمْ.

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قِيلَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي قَوْمٍ كَانُوا لَا يَدْخُلُونَ إِذَا أَحْرَمُوا بُيُوتَهُمْ مِنْ قِبَلِ أَبْوَابِهَا.

عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ الْبَرَاءَ، يَقُولُ: كَانَتِ الْأَنْصَارُ إِذَا حَجُّوا وَرَجَعُوا لَمْ يَدْخُلُوا الْبُيُوتَ إِلَّا مِنْ ظُهُورِهَا، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَدَخَلَ مِنْ بَابِهِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾.[٢٧٧]

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ إِذًا: وَلَيْسَ الْبِرُّ – أَيُّهَا النَّاسُ – بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ فِي حَالِ إِحْرَامِكُمْ مِنْ ظُهُورِهَا، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى اللهَ فَخَافَهُ وَتَجَنَّبَ مَحَارِمَهُ، وَأَطَاعَهُ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ الَّتِي أَمَرَهُ بِهَا، فَأَمَّا إِتْيَانُ الْبُيُوتِ مِنْ

---

٢٧٥ تَصَرُّمُ الْعِدَّةِ: انْقِضَاؤُهَا.

٢٧٦ **فَائِدَةٌ: قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي الشَّرْحِ الْمُمْتِعِ:** السَّنَةُ الْهِلَالِيَّةُ: هِيَ السَّنَةُ الْحَقِيقِيَّةُ الَّتِي وَقَّتَهَا اللهُ لِعِبَادِهِ، قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ**﴾ وَهَذِهِ التَّوَارِيخُ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَى أَشْهُرٍ غَيْرِ هِلَالِيَّة، هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ أَوْهَامٌ! غَيْر مُنْضَبِطَة بِشَيْءٍ مُعَيَّنٍ، وَلِهَذَا تَجِدُ بَعْضَهَا يَصِلُ إِلَى وَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ يَوْمًا، وَالثَّانِي إِلَى ثَمَانِيَةٍ وَعِشْرِينَ يَوْمًا – مَثَلًا –، فَهَذِهِ لَيْسَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى أَصْلٍ، لَكِنَّ الْأَشْهُرَ الْهِلَالِيَّة مَبْنِيَّة عَلَى أَصْلٍ جَعَلَهُ اللهُ – تَعَالَى – لِلنَّاسِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ**﴾ فَكُلَّمَا رَأَيْتَ فِي كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ حَوْلًا، أَوْ سَنَةً، أَوْ عَامًا؛ فَالْمُرَادُ: بِالْهِلَالِ.

٢٧٧ صحيح: رواه البخاري، ومسلم؛ وغيرهما.

ظُهُورِهَا؛ فَلَا بِرَّ لِلَّهِ فِيهِ! فَأْتُوهَا مِنْ حَيْثِ شِئْتُمْ: مِنْ أَبْوَابِهَا، وَغَيْرِ أَبْوَابِهَا؛ مَا لَمْ تَعْتَقِدُوا تَحْرِيمَ إِتْيَانِهَا مِنْ أَبْوَابِهَا فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ لَكُمُ اعْتِقَادُهُ؛ لِأَنَّهُ مِمَّا لَمْ أُحَرِّمْهُ عَلَيْكُمْ.

﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يَعْنِي: وَاتَّقُوا اللهَ – أَيُّهَا النَّاسُ – فَاحْذَرُوهُ وَارْهَبُوهُ بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَكُمْ مِنْ فَرَائِضِهِ، وَاجْتِنَابِ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ؛ لِتُفْلِحُوا فَتَنْجَحُوا فِي طَلَبَاتِكُمْ لَدَيْهِ، وَتُدْرِكُوا بِهِ الْبَقَاءَ فِي جَنَّاتِهِ وَالْخُلُودَ فِي نَعِيمِهِ.

١٩٠ – ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ[٢٧٨] الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذِهِ الْآيَةُ هِيَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ بِقِتَالِ أَهْلِ الشِّرْكِ، وَقَالُوا: أُمِرَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ بِقِتَالِ مَنْ قَاتَلَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَالْكَفِّ عَمَّنْ كَفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ نُسِخَتْ بِـ (بَرَاءَةَ).

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ ذَلِكَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – لِلْمُسْلِمِينَ بِقِتَالِ الْكُفَّارِ، لَمْ يُنْسَخْ.

وَإِنَّمَا الِاعْتِدَاءُ الَّذِي نَهَاهُمُ اللهُ عَنْهُ؛ هُوَ نَهْيُهُ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ.

عَنْ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى الْغَسَّانِيِّ، قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، أَسْأَلُهُ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ قَالَ: فَكَتَبَ إِلَيَّ: أَنَّ ذَلِكَ فِي النِّسَاءِ وَالذُّرِّيَّةِ، وَمَنْ لَمْ يَنْصِبْ لَكَ الْحَرْبَ مِنْهُمْ.

---

[٢٧٨] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ أَي: فِي دِينِهِ، وَشَرْعِهِ، وَلِأَجْلِهِ.

فَسَبِيلُ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –: يَتَنَاوَلُ الدِّينَ، وَأَنْ يَكُونَ الْقِتَالُ فِي حُدُودِ الدِّينِ، وَعَلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ، وَلِلَّهِ وَحْدَهُ؛ فَهُوَ يَتَضَمَّنُ: الْإِخْلَاصَ، وَالْمُتَابَعَةَ؛ وَلِهَذَا قَدَّمَ الْمُقَاتَلَ مِنْ أَجْلِهِ قَبْلَ الْمُقَاتَلِ، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي الْإِخْلَاصُ فِي هَذَا الْقِتَالِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْهَيِّنِ؛ فَإِنَّ الْمُقَاتِلَ يَعْرِضُ رَقَبَتَهُ لِسُيُوفِ الْأَعْدَاءِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مُخْلِصًا لِلَّهِ؛ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ: قُتِلَ، وَلَمْ تَحْصُلْ لَهُ الشَّهَادَةُ!!! فَنَبَّهَ بِتَقْدِيمِ الْمُرَادِ: ﴿**فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾؛ لِيَكُونَ قِتَالُهُ مَبْنِيًّا عَلَى الْإِخْلَاصِ اهـ.

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا؛ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**» [رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم].

وَأَوْلَى هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ بِالصَّوَابِ: الْقَوْلُ الَّذِي قَالَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ؛ لِأَنَّ دَعْوَى الْمُدَّعِي نَسْخَ آيَةٍ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ غَيْرَ مَنْسُوخَةٍ، بِغَيْرِ دَلَالَةٍ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاهُ: تَحَكُّمٌ! وَالتَّحَكُّمُ لَا يَعْجِزُ عَنْهُ أَحَدٌ!!.

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ: ﴿وَقَاتِلُوا﴾ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، وَسَبِيلُهُ: طَرِيقُهُ الَّذِي أَوْضَحَهُ، وَدِينُهُ الَّذِي شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ، يَقُولُ لَهُمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ: قَاتِلُوا فِي طَاعَتِي وَعَلَى مَا شَرَعْتُ لَكُمْ مِنْ دِينِي، وَادْعُوا إِلَيْهِ مَنْ وَلَّى عَنْهُ وَاسْتَكْبَرَ بِالْأَيْدِي وَالْأَلْسُنِ، حَتَّى يُنِيبُوا إِلَى طَاعَتِي، أَوْ يُعْطُوكُمُ الْجِزْيَةَ صَغَارًا إِنْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ.

﴿وَلَا تَعْتَدُوا[٢٧٩]﴾ يَعْنِي: لَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَلَا امْرَأَةً، وَلَا مَنْ أَعْطَاكُمُ الْجِزْيَةَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ وَالْمَجُوسِ ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الَّذِينَ يُجَاوِزُونَ حُدُودَهُ، فَيَسْتَحِلُّونَ مَا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ قَتْلِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ حَرَّمَ قَتْلَهُمْ مِنْ نِسَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَذَرَارِيِّهِمْ.

١٩١- ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ[٢٨٠]﴾ يَعْنِي: وَاقْتُلُوا – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ أَصَبْتُمْ مَقَاتِلَهُمْ وَأَمْكَنَكُمْ قَتْلُهُمْ.

﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثِ أَخْرَجُوكُمْ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ بِمَكَّةَ، فَقَالَ لَهُمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ: أَخْرِجُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ – وَقَدِ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ – مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَدِيَارِهِمْ كَمَا أَخْرَجُوكُمْ مِنْهَا.

---

[٢٧٩] عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ؛ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «**اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم].

قَوْلُهُ: (**وَلَا تَمْثُلُوا**)، قَالَ فِي النِّهَايَةِ: يُقَالُ: مَثَلْتُ بِالْحَيَوَانِ أَمْثُلُ بِهِ مَثْلًا: إِذَا قَطَعْتَ أَطْرَافَهُ وَشَوَّهْتَ بِهِ، وَمَثَلْتُ بِالْقَتِيلِ: إِذَا جَدَعْتَ أَنْفَهُ، أَوْ أُذُنَهُ، أَوْ مَذَاكِيرَهُ، أَوْ شَيْئًا مِنْ أَطْرَافِهِ، وَالِاسْمُ: الْمُثْلَةُ، فَأَمَّا (مَثَّلَ) بِالتَّشْدِيدِ؛ فَهُوَ لِلْمُبَالَغَةِ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ «**فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ذَلِكَ، وَنَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم].

[٢٨٠] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَمَعْنَى الثِّقْفَةِ بِالْأَمْرِ: الْحِذْقُ بِهِ وَالْبَصَرُ، يُقَالُ: إِنَّهُ لَثَقِفٌ لَقْفٌ؛ إِذَا كَانَ جَيِّدَ الْحَذَرِ فِي الْقِتَالِ، بَصِيرًا بِمَوَاقِعِ الْقَتْلِ.

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾يَعْنِي: وَالشِّرْكِ بِاللهِ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ.

وَقَدْ بَيَّنْتُ فِيمَا مَضَى أَنَّ أَصْلَ الْفِتْنَةِ: الِابْتِلَاءُ وَالِاخْتِبَارُ، فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ:

وَابْتِلَاءُ الْمُؤْمِنِ فِي دِينِهِ حَتَّى يَرْجِعَ عَنْهُ فَيَصِيرُ مُشْرِكًا بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِسْلَامِهِ؛ أَشَدُّ عَلَيْهِ وَأَضَرُّ مِنْ أَنْ يُقْتَلَ مُقِيمًا عَلَى دِينِهِ مُتَمَسِّكًا عَلَيْهِ، مُحِقًّا فِيهِ.

﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يَعْنِي: وَلَا تَبْتَدِئُوا – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – الْمُشْرِكِينَ بِالْقِتَالِ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ بِهِ، فَإِنْ بَدَأُوكُمْ بِهِ هُنَاكَ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الْحَرَمِ؛ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَ ثَوَابَ الْكَافِرِينَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةَ: الْقَتْلُ فِي الدُّنْيَا، وَالْخِزْيُ الطَّوِيل فِي الْآخِرَةِ.

١٩٢– ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾يَعْنِي: فَإِنِ انْتَهَى الْكَافِرُونَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ عَنْ قِتَالِكُمْ وَكُفْرِهِمْ بِاللهِ، فَتَرَكُوا ذَلِكَ وَتَابُوا، ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لِذُنُوبِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَتَابَ مِنْ شِرْكِهِ، وَأَنَابَ إِلَى اللهِ مِنْ مَعَاصِيهِ الَّتِي سَلَفَتْ مِنْهُ وَأَيَّامِهِ الَّتِي مَضَتْ، ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِ فِي آخِرَتِهِ بِفَضْلِهِ عَلَيْهِ، وَإِعْطَائِهِ مَا يُعْطى أَهْل طَاعَتِهِ مِنَ الثَّوَابِ بِإِنَابَتِهِ إِلَى مَحَبَّتِهِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ.

١٩٣– ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ[٢٨١]وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ[٢٨٢]فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ، يَعْنِي: حَتَّى لَا يَكُونَ شِرْكٌ بِاللهِ، وَحَتَّى لَا يُعْبَدُ دُونَهُ أَحَدٌ، وَتَضْمَحِلَّ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ وَالْآلِهَةِ وَالْأَنْدَادِ، وَتَكُونَ الْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ.

---

[٢٨١] عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، فَرَجَوْنَا أَنْ يُحَدِّثَنَا حَدِيثًا حَسَنًا، قَالَ: فَبَادَرَنَا إِلَيْهِ رَجُلٌ؛ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! حَدِّثْنَا عَنِ الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ؟ وَاللهُ يَقُولُ: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ، ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ؟! إِنَّمَا كَانَ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ الدُّخُولُ فِي دِينِهِمْ فِتْنَةً، وَلَيْس كَقِتَالِكُمْ عَلَى الْمُلْكِ!! [صحيح: رواه البخاري، وأحمد، والنسائي في الكبرى، والبغوي في شرح السنة؛ وغيرهم].

[٢٨٢] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي شَرْحِ مَسَائِلِ الْجَاهِلِيَّةِ:** الْمَقْصُودُ بِالْقِتَالِ فِي الْإِسْلَامِ: نَشْرُ الدَّعْوَةِ، وَنَشْرُ الدِّينِ، وَإِزَالَةُ الشِّرْكِ: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾؛ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ.

وَأَمَّا الدِّينُ – الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ –: فَهُوَ الْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ لِلَّهِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يَعْنِي: فَإِنِ انْتَهَى الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْ قِتَالِكُمْ، وَدَخَلُوا فِي مِلَّتِكُمْ، وَأَقَرُّوا بِمَا أَلْزَمَكُمُ اللهُ مِنْ فَرَائِضِهِ، وَتَرَكُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عُبَادَةِ الْأَوْثَانِ؛ فَدَعُوا الِاعْتِدَاءَ عَلَيْهِمْ وَقِتَالَهُمْ وَجِهَادَهُمْ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَدَى إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ – وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ بِاللهِ، وَالَّذِينَ تَرَكُوا عِبَادَتَهُ وَعَبَدُوا غَيْرَ خَالِقِهِمْ –.[٢٨٣]

١٩٤– ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ[٢٨٤]﴾ يَعْنِي: ذَا الْقَعْدَةِ[٢٨٥]؛ وَهُوَ الشَّهْرُ الَّذِي كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – اعْتَمَرَ فِيهِ عُمْرَةَ الْحُدَيْبِيَةِ، فَصَدَّهُ مُشْرِكُو أَهْلِ مَكَّةَ عَنِ الْبَيْتِ وَدُخُولِ مَكَّةَ، وَكُلُّ ذَلِكَ سَنَةَ سِتٍّ مِنْ هِجْرَتِهِ، وَصَالَحَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْمُشْرِكِينَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ، عَلَى أَنْ يَعُودَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَيَدْخُلُ مَكَّةَ وَيُقِيمُ ثَلَاثًا، فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ – وَذَلِكَ سَنَةَ سَبْعٍ مِنْ هِجْرَتِهِ – خَرَجَ مُعْتَمِرًا وَأَصْحَابُهُ فِي ذِي الْقَعْدَةِ – وَهُوَ الشَّهْرُ الَّذِي كَانَ الْمُشْرِكُونَ صَدُّوهُ عَنِ الْبَيْتِ فِيهِ فِي سَنَةِ سِتٍّ – وَأَخْلَى لَهُ أَهْلُ مَكَّةَ الْبَلَدِ حَتَّى دَخَلَهَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَضَى حَاجَتَهُ مِنْهَا، وَأَتَمَّ عُمْرَتَهُ، وَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثًا، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا مُنْصَرِفًا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – لِنَبِيِّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلِلْمُسْلِمِينَ مَعَهُ: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ يَعْنِي: ذَا الْقَعْدَةِ الَّذِي أَوْصَلَكُمُ اللهُ فِيهِ إِلَى حَرَمِهِ وَبَيْتِهِ، عَلَى كَرَاهَةِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ذَلِكَ، حَتَّى قَضَيْتُمْ مِنْهُ

---

[٢٨٣] عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؛ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد؛ وغيرهم].

[٢٨٤] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ**: قَوْلُهُ: ﴿**الشَّهْرُ الْحرامُ بِالشَّهْرِ الْحرامِ**﴾ أَيْ: إِذَا قَاتَلُوكُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَهَتَكُوا حُرْمَتَهُ؛ قَاتَلْتُمُوهُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ مُكَافَأَةً لَهُمْ وَمُجَازَاةً عَلَى فِعْلِهِمْ.

وَ(**الْحُرْمَةُ**): مَا مَنَعَ الشَّرْعُ مِنَ انْتِهَاكِهِ، وَ(**الْقِصَاصُ**): الْمُسَاوَاةُ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ كُلَّ حُرْمَةٍ يَجْرِي فِيهَا الْقِصَاصُ: فَمَنْ هَتَكَ حُرْمَةً عَلَيْكُمْ؛ فَلَكُمْ أَنْ تَهْتِكُوا حُرْمَةً عَلَيْهِ قِصَاصًا.

[٢٨٥] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَإِنَّمَا سَمَّى اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – ذَا الْقَعْدَةَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَتْ تُحَرِّمُ فِيهِ الْقِتَالَ وَالْقَتْلَ، وَتَضَعُ فِيهِ السِّلَاحَ، وَلَا يَقْتُلُ فِيهِ أَحَدٌ أَحَدًا؛ وَلَوْ لَقِيَ الرَّجُلُ قَاتِلَ أَبِيهِ أَوِ ابْنِهِ! وَإِنَّمَا كَانُوا سَمَّوْهُ ذَا الْقَعْدَةِ؛ لِقُعُودِهِمْ فِيهِ عَنِ الْمَغَازِي وَالْحُرُوبِ، فَسَمَّاهُ اللهُ بِالِاسْمِ الَّذِي كَانَتِ الْعَرَبُ تُسَمِّيهِ بِهِ.

وَطَرَكُمْ ﴿بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾الَّذِي صَدَّكُمْ مُشْرِكُو قُرَيْش الْعَامَ الْمَاضِيَ قَبْلَهُ فِيهِ حَتَّى انصَرَفْتُمْ عَنْ كُرْهٍ مِنْكُمْ عَنِ الْحَرَمِ، فَلَمْ تَدْخُلُوهُ، وَلَمْ تَصِلُوا إِلَى بَيْتِ اللهِ، فَأَقَصَّكُمُ اللهُ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِإِدْخَالِكُمُ الْحَرَمَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ عَلَى كُرْهٍ مِنْهُمْ لِذَلِكَ، بِمَا كَانَ مِنْهُمْ إِلَيْكُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ مِنَ الصَّدِّ وَالْمَنْعِ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ.

﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ[٢٨٦] ﴾الْحُرُمَاتُ: جَمْعُ حُرْمَةٍ، كَالظُّلُمَاتِ: جَمْعُ ظُلْمَةٍ، وَالْحُجُرَاتُ: جَمْعُ حُجْرَةٍ.

وَإِنَّمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾فَجَمع؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ: الشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَالْبَلَدَ الْحَرَامَ، وَحُرْمَةَ الْإِحْرَامِ.

فَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ: دُخُولُكُمُ الْحَرَمَ، بِإِحْرَامِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا الْحَرَامِ؛ قِصَاصٌ مِمَّا مُنِعْتُمْ مِنْ مِثْلِهِ عَامَكُمُ الْمَاضِي، وَذَلِكَ هُوَ الْحُرُمَاتُ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ قِصَاصًا.

---

[٢٨٦] **قَالَ الْقَاضِي ابْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ**: قَالَ عُلَمَاؤُنَا: وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لَكَ أَنْ تُبِيحَ دَمَ مَنْ أَبَاحَ دَمَكَ، وَتَحِلَّ مَالُ مَنْ اسْتَحَلَّ مَالَكَ، وَمَنْ أَخَذَ عِرْضَكَ فَخُذْ عِرْضَهُ بِمِقْدَارِ مَا قَالَ فِيكَ، وَلِذَلِكَ كُلِّهِ تَفْصِيلٌ:

أَمَّا مَنْ أَبَاحَ دَمَكَ؛ فَمُبَاحٌ دَمُهُ لَكَ، لَكِنْ بِحُكْمِ الْحَاكِمِ لَا بِاسْتِطَالَتِك وَأَخْذٍ لِثَأْرِكَ بِيَدِكَ! وَلَا خِلَافَ فِيهِ.

وَأَمَّا مَنْ أَخَذَ مَالَكَ؛ فَخُذْ مَالَهُ إِذَا تَمَكَّنْتَ مِنْهُ، إِذَا كَانَ مِنْ جِنْسِ مَالِكَ: طَعَامًا بِطَعَامٍ، وَذَهَبًا بِذَهَبٍ، وَقَدْ أَمِنْتَ مِنْ أَنْ تُعَدَّ سَارِقًا!.

وَأَمَّا إِنْ تَمَكَّنْتَ مِنْ مَالِهِ بِمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِ مَالِكَ؛ فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ: فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا يُؤْخَذُ إِلَّا بِحُكْمِ حَاكِمٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يَتَحَرَّى قِيمَتَهُ وَيَأْخُذُ مِقْدَارَ ذَلِكَ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ عِنْدِي!.

وَأَمَّا إِنْ أَخَذَ عِرْضَكَ؛ فَخُذْ عِرْضَهُ لَا تَتَعَدَّاهُ إِلَى أَبَوَيْهِ، وَلَا إِلَى ابْنِهِ أَوْ قَرِيبِهِ.

لَكِنْ لَيْسَ لَكَ أَنْ تَكْذِبَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَذَبَ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ لَا تُقَابَلُ بِالْمَعْصِيَةِ! فَلَوْ قَالَ لَكَ مَثَلًا: يَا كَافِرُ؛ جَازَ لَكَ أَنْ تَقُولَ لَهُ: أَنْتَ الْكَافِرُ! وَإِنْ قَالَ لَكَ: يَا زَانٍ؛ فَقِصَاصُكَ أَنْ تَقُولَ: يَا كَذَّابُ، يَا شَاهِدَ زُورٍ!.

وَلَوْ قُلْتَ لَهُ: يَا زَانٍ؛ كُنْتَ كَاذِبًا فَأَثِمْتَ فِي الْكَذِبِ، وَأَخَذْتَ فِيمَا نُسِبَ إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمْ تَرْبَحْ شَيْئًا، وَرُبَّمَا خَسِرْتَ!.

وَإِنْ مَطَلَكَ وَهُوَ غَنِيٌّ – دُونَ عُذْرٍ –؛ قُلْ: يَا ظَالِمُ، يَا آكِلَ أَمْوَالِ النَّاسِ!.

قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الصَّحِيحِ: «**لَيُّ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ**» أَمَّا عِرْضُهُ: فَبِمَا فَسَّرْنَاهُ، وَأَمَّا عُقُوبَتُهُ: فَبِالسَّجْنِ حَتَّى يُؤَدِّيَ. وَعِنْدِي أَنَّ الْعُقُوبَةَ هِيَ أَخْذُ الْمَالِ كَمَا أَخَذَ مَالَهُ اهـ.

قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: الْحَدِيثُ الَّذِي ذَكَرَهُ (ابْنُ الْعَرَبِيِّ)، وَهُوَ قَوْلُهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**لَيُّ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ**»؛ هُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والطحاوي في شرح مشكل الآثار، والطبراني في الكبير والأوسط، والبيهقي في الكبرى، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وحسنه الألباني في الإرواء(١٤٣٤)، وصحيح الجامع(٥٤٨٧)، والمشكاة(٢٩١٩).

وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْقِصَاصَ هُوَ الْمُجَازَاةُ مِنْ جِهَةِ الْفِعْلِ أَوِ الْقَوْلِ أَوِ الْبُدْنِ، وَهُوَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ جِهَةِ الْفِعْلِ.

﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾يَعْنِي: فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فِي الْحَرَمِ فَقَاتَلَكُمْ؛ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِالْقِتَالِ نَحْوَ اعْتِدَائِهِ عَلَيْكُمْ بِقِتَالِهِ إِيَّاكُمْ، لِأَنِّي قَدْ جَعَلْتُ الْحُرُمَاتِ قِصَاصًا، فَمَنِ اسْتَحَلَّ مِنْكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – مِنَ الْمُشْرِكِينَ حُرْمَةً فِي حَرَمِي؛ فَاسْتَحِلُّوا مِنْهُ مِثْلَهُ فِيهِ.

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾يَعْنِي: وَاتَّقُوا اللهَ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – فِي حُرُمَاتِهِ وَحُدُودِهِ أَنْ تَعْتَدُوا فِيهَا، فَتَتَجَاوَزُوا فِيهَا مَا بَيَّنَهُ وَحَدَّهُ لَكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يَتَّقُونَهُ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَتَجَنُّبِ مَحَارِمِهِ.

١٩٥– ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَمَنْ عَنَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾فَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَنَى بِذَلِكَ: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾وَسَبِيلُ اللهِ: طَرِيقُهُ الَّذِي أُمِرَ أَنْ يَسْلُكَ فِيهِ إِلَى عَدُوِّهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِجِهَادِهِمْ وَحَرْبِهِمْ ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾يَقُولُ: وَلَا تَتْرُكُوا النَّفَقَةَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ يُعَوِّضُكُمْ مِنْهَا أَجْرًا وَيَرْزُقُكُمْ عَاجِلًا.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَاهُ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ – فِيمَا أَصَبْتُمْ مِنَ الْآثَامِ – إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَتَيْأَسُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلَكِنِ ارْجُوا رَحْمَتَهُ وَاعْمَلُوا الْخَيْرَاتِ.

عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ الْبَرَاءَ، وَسَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا عُمَارَةَ! أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللهِ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾أَهُوَ الرَّجُلُ يَتَقَدَّمُ فَيُقَاتِلُ حَتَّى يُقْتَلَ؟ قَالَ: «لَا؛ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي، ثُمَّ يُلْقِي بِيَدِهِ وَلَا يَتُوبُ».[٢٨٧]

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا تَتْرُكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ.

---

[٢٨٧] صحيح موقوف: أخرجه البيهقي في الشعب، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(١٦٢٤).

عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ، قَالَ: غَزَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ نُرِيدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَعَلَى الْجَمَاعَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، قَالَ: فَصَفَفْنَا صَفَّيْنِ؛ لَمْ أَرَ صَفَّيْنِ قَطُّ أَعْرَضَ وَلَا أَطْوَلَ مِنْهُمَا، وَالرُّومُ مُلْصِقُونَ ظُهُورهمْ بِحَائِطِ الْمَدِينَةِ، قَالَ: فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَّا عَلَى الْعَدُوِّ، فَقَالَ النَّاسُ: مَهْ! لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يُلْقِي بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ!! قَالَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ: إِنَّمَا تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ هَكَذَا(!) أَنْ حَمَلَ رَجُلٌ يُقَاتِلُ يَلْتَمِسُ الشَّهَادَةَ، أَوْ يُبْلِي مِنْ نَفْسِهِ! إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ! إِنَّا لَمَّا نَصَرَ اللهُ نَبِيَّهُ وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ، قُلْنَا بَيْنَنَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ خَفِيًّا مِنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: إِنَّا قَدْ كُنَّا تَرَكْنَا أَهْلَنَا وَأَمْوَالَنَا أَنْ نُقِيمَ فِيهَا وَنُصْلِحَهَا حَتَّى نَصَرَ اللهُ نَبِيَّهُ، هَلُمَّ نُقِيمُ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا!! فَأَنْزَلَ اللهُ الْخَبَرَ مِنَ السَّمَاءِ: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، فَالْإِلْقَاءُ بِالْأَيْدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ: أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا، وَنَدَعُ الْجِهَادَ.

قَالَ أَبُو عِمْرَانَ: فَلَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى دُفِنَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ.[٢٨٨]

وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي أَنْ يُقَالَ: إِنِ اللهَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – أَمَرَ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾وَسَبِيلُهُ: طَرِيقُهُ الَّذِي شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ وَأَوْضَحَهُ لَهُمْ.

وَمَعْنَى ذَلِكَ: وَأَنْفِقُوا فِي إِعْزَازِ دِينِي الَّذِي شَرَعْتُهُ لَكُمْ، بِجِهَادِ عَدُوِّكُمُ النَّاصِبِينَ لَكُمُ الْحَرْبَ عَلَى الْكُفْرِ بِي، وَنَهَاهُمْ أَنْ يُلْقُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وَذَلِكَ مَثَلٌ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلْمُسْتَسْلِمِ لِلْأَمْرِ: أَعْطَى فُلَانٌ بِيَدَيْهِ، وَكَذَلِكَ يُقَالُ لِلْمُمَكِّنِ مِنْ نَفْسِهِ مِمَّا أُرِيدَ بِهِ: أَعْطَى بِيَدَيْهِ.

فَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: وَلَا تَسْتَسْلِمُوا لِلْهَلَكَةِ، فَتُعْطُوهَا أَزِمَّتَكُمْ فَتَهْلِكُوا. وَالتَّارِكُ النَّفَقَةَ فِي سَبِيلِ اللهِ عِنْدَ وُجُوبِ ذَلِكَ عَلَيْهِ، مُسْتَسْلِمٌ لِلْهَلَكَةِ بِتَرْكِهِ أَدَاءَ فَرْضِ اللهِ عَلَيْهِ فِي مَالِهِ. وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – جَعَلَ أَحَدَ سِهَامِ الصَّدَقَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ الثَّمَانِيَةِ (فِي سَبِيلِهِ)، فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فَمَنْ تَرَكَ إِنْفَاقَ مَا لَزِمَهُ مِنْ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَلَى مَا لَزِمَهُ؛ كَانَ لِلْهَلَكَةِ مُسْتَسْلِمًا وَبِيَدَيْهِ لِلتَّهْلُكَةِ مُلْقِيًا!!.

---

[٢٨٨] صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي في الكبرى، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في الصحيحة(١٣)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٣٨٨)، والتعليقات الحسان(٤٦٩١).

وَكَذَلِكَ الْآيِسُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ لِذَنْبٍ سَلَفَ مِنْهُ، مُلْقٍ بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ؛ لِأَنَّ اللهَ قَدْ نَهَى عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

وَكَذَلِكَ التَّارِكُ غَزْوَ الْمُشْرِكِينَ وَجِهَادَهُمْ، فِي حَالِ وُجُوبِ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فِي حَالِ حَاجَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ، مُضَيِّعٌ فَرْضًا، مُلْقٍ بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ.

فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا يَحْتَمِلُهَا قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وَلَمْ يَكُنِ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – خَصَّ مِنْهَا شَيْئًا دُونَ شَيْءٍ، فَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالُ: إِنَّ اللهَ نَهَى عَنِ الْإِلْقَاءِ بِأَيْدِينَا لِمَا فِيهِ هَلَاكُنَا، وَالِاسْتِسْلَامِ لِلْهَلَكَةِ – وَهِيَ الْعَذَابُ – بِتَرْكِ مَا لَزِمَنَا مِنْ فَرَائِضِهِ، فَغَيْرُ جَائِزٍ لِأَحَدٍ مِنَّا الدُّخُولُ فِي شَيْءٍ يَكْرَهُ اللهُ مِنَّا، مِمَّا نَسْتَوْجِبُ بِدُخُولِنَا فِيهِ عَذَابَهُ.

غَيْرَ أَنَّ الْأَمْرَ وَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ الْأَغْلَبَ مِنْ تَأْوِيلِ الْآيَةِ: وَأَنْفِقُوا – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا تَتْرُكُوا النَّفَقَةَ فِيهَا، فَتَهْلَكُوا بِاسْتِحْقَاقِكُمْ – بِتَرْكِكُمْ ذَلِكَ – عَذَابِي.

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يَعْنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾: أَحْسِنُوا – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – فِي أَدَاءِ مَا أَلْزَمْتُكُمْ مِنْ فَرَائِضِي، وَتَجَنَّبْ مَا أَمَرْتُكُمْ بِتَجَنُّبِهِ مِنْ مَعَاصِيَّ، وَمَن الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِي، وَعَوْدُ الْقَوِيِّ مِنْكُمْ عَلَى الضَّعِيفِ ذِي الْخَلَّةِ، فَإِنِّي أُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ فِي ذَلِكَ.

١٩٦ – ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ[289] لِلَّهِ﴾ يَعْنِي: وَأَتِمُّوا – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ بَعْدَ دُخُولِكُمْ

---

[289] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي الشَّرْحِ الْمُمْتِعِ:** وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْعُمْرَةِ: هَلْ هِيَ وَاجِبَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ؟
وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهَا وَاجِبَةٌ؛ لِأَنَّ أَصَحَّ حَدِيثٍ يَحْكُمُ فِي النِّزَاعِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؛ هُوَ حَدِيثُ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا –، حِينَ قَالَتْ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: هَلْ عَلَى النِّسَاءِ جِهَادٌ؟ قال: «**نَعَمْ، عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ: الْحَجُّ، وَالْعُمْرَةُ**»، فَقَوْلُهُ: «**عَلَيْهِنَّ**» ظَاهِرٌ فِي الْوُجُوبِ؛ لِأَنَّ (عَلَى) مِنْ صِيَغِ الْوُجُوبِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَهْلُ أُصُولِ الْفِقْهِ، وَعَلَى هَذَا: فَالْعُمْرَةُ وَاجِبَةٌ اهـ.

قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: بَوَّبَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: (بَابُ وُجُوبِ العُمْرَةِ وَفَضْلِهَا)، قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –: لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَعَلَيْهِ حَجَّةٌ وَعُمْرَةٌ [قَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي مُخْتَصَرِ الْبُخَارِيِّ(١/٥١٢): وَصَلَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ، وَالدَّارَقُطْنِيُّ (ص ٢٨٢)، وَالْحَاكِمُ (١/ ٤٧١)، وَالْبَيْهَقِيُّ (٤/ ٣٥١) عَنْهُ بِلَفْظِ: «**لَيْسَ مِنْ خَلْقِ اللهِ أَحَدٌ إِلَّا عَلَيْهِ حَجَّةٌ وَعُمْرَةٌ وَاجِبَتَانِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، فَمَنْ زَادَ بَعْدَهُمَا شَيْئًا؛ فَهُوَ خَيْرٌ وَتَطَوُّعٌ**». وَقَالَ الْحَاكِمُ: "صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ"، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ؛ وَهُوَ كَمَا قَالَا. وَسَكَتَ عَلَيْهِ الْحَافِظُ فِي "الْفَتْحِ". وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ أَيْضًا عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: «**الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ فَرِيضَتَانِ**»].

قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –: إِنَّهَا لَقَرِينَتُهَا فِي كِتَابِ اللهِ: ﴿**وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ لِلَّهِ**﴾ [قَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي مُخْتَصَرِ الْبُخَارِيِّ (١/٥١٢): وَصَلَهُ الشَّافِعِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْهُ].

قَالَ الْإِمَامُ الْبَغَوِيُّ فِي شَرْحِ السُّنَّةِ: وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي وُجُوبِ الْعُمْرَةِ، فَذَهَبَ أَكْثَرُهُمْ إِلَى وُجُوبِهَا كَوُجُوبِ الْحَجِّ؛ وَهُوَ قَوْلُ عُمَرَ، وَابْنِ عُمَرَ، وَابْنِ عَبَّاسٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّهَا لَقَرِينَتُهَا فِي كِتَابِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿**وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ لِلَّهِ**﴾، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ عَطَاءٌ، وَطَاوُسٌ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالْحَسَنُ، وَابْنُ سِيرِينَ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَبِهِ قَالَ الثَّوْرِيُّ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ.

فِيهِمَا، وَإِيجَابِكُمُوهِمَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، عَلَى مَا أَمَرَكُمُ اللهُ مِنْ حُدُودِهِمَا.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ يَعْنِي: فَإِنْ أَحْصَرَكُمْ خَوْفُ عَدُوٍّ، أَوْ مَرَضٍ، أَوْ عِلَّةٍ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ، أَيْ: صَيَّرَكُمْ خَوْفُكُمْ، أَوْ مَرَضُكُمْ تُحْصِرُونَ أَنْفُسَكُمْ، فَتَحْبِسُونَهَا عَنِ النُّفُوذِ لِمَا أَوْجَبْتُمُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مِنْ عَمَلِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ[290]﴾، مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ: شَاةٌ.

تَأْوِيل الْكَلَامِ: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – لِلَّهِ، فَإِنْ حَبَسَكُمْ عَنْ إِتْمَامِ ذَلِكَ حَابِسٌ؛ مِنْ مَرَضٍ أَوْ كَسْرٍ أَوْ خَوْفِ عَدُوٍّ؛ فَعَلَيْكُمْ – لِإِحْلَالِكُمْ، إِنْ أَرَدْتُمُ الْإِحْلَالَ مِنْ إِحْرَامِكُمْ – مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ يَعْنِي: فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ، فَأَرَدْتُمُ الْإِحْلَالَ مِنْ إِحْرَامِكُمْ؛ فَعَلَيْكُمْ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، وَلَا تُحِلُّوا مِنْ إِحْرَامِكُمْ إِذَا أُحْصِرْتُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْي – الَّذِي أَوْجَبْتُهُ عَلَيْكُمْ لِإِحْلَالِكُمْ مِنْ إِحْرَامِكُمُ الَّذِي أُحْصِرْتُمْ فِيهِ، قَبْلَ تَمَامِهِ وَانْقِضَاءِ مَشَاعِرِهِ وَمَنَاسِكِهِ – مَحِلَّهُ.

وَذَلِكَ أَنَّ حَلْقَ الرَّأْسِ إِحْلَالٌ مِنَ الْإِحْرَامِ الَّذِي كَانَ الْمُحْرِمُ قَدِ أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَنَهَاهُ اللهُ عَنِ الْإِحْلَالِ مِنْ إِحْرَامِهِ بِحِلَاقِهِ، حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيِ الَّذِي أَبَاحَ اللهُ لَهُ الْإِحْلَالَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – بِإِهْدَائِهِ مَحِلَّهُ.

عَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، قَالَا: لَمَّا كَتَبَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْقَضِيَّةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ – وَذَلِكَ بِالْحُدَيْبِيَةِ، عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ –، قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «قُومُوا فَانْحَرُوا وَاحْلِقُوا». قَالَ: فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ! حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ!! فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ؛ قَامَ فَدَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهَا، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللهِ! اخْرُجْ؛ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِكَلِمَةٍ حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَلَّاقَكَ فَتَحْلِقَ! فَقَامَ فَخَرَجَ؛ فَلَمْ يُكَلِّمْ مِنْهُمْ أَحَدًا حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ؛ قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا!!.[291]

[290] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَالْهَدْيِ عِنْدِي إِنَّمَا سُمِّيَ هَدْيًا؛ لِأَنَّهُ تَقَرَّبَ بِهِ إِلَى اللهِ – جَلَّ وَعَزَّ – مُهْدِيهِ، بِمَنْزِلَةِ الْهَدِيَّةِ يُهْدِيهَا الرَّجُلُ إِلَى غَيْرِهِ مُتَقَرِّبًا بِهَا إِلَيْهِ، يُقَالُ مِنْهُ: أَهْدَيْتُ الْهَدْيَ إِلَى بَيْتِ اللهِ فَأَنَا أُهْدِيهِ إِهْدَاءً، كَمَا يُقَالُ فِي الْهَدِيَّةِ يُهْدِيهَا الرَّجُلَ إِلَى غَيْرِهِ: أَهْدَيْتُ إِلَى فُلَانٍ هَدِيَّةً، وَأَنَا أُهْدِيهَا.

[291] صحيح: رواه البخاري، وأحمد؛ وغيرهما.

قَالُوا: فَنَحَرَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هَدْيَهُ حِينَ صَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الْبَيْتِ بِالْحُدَيْبِيَةِ، وَحَلَّ هُوَ وَأَصْحَابُهُ.

قَالُوا: وَالْحُدَيْبِيَةُ لَيْسَتْ مِنَ الْحَرَمِ. قَالُوا: فَفِي مِثْلِ ذَلِكَ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيِ مَحِلَّهُ﴾: حَتَّى يَبْلُغَ بِالذَّبْحِ أَوِ النَّحْرِ مَحِلَّ أَكْلِهِ، وَالِانْتِفَاعُ بِهِ فِي مَحِلِّ ذَبْحِهِ وَنَحْرِهِ؛ كَمَا رُوِيَ عَنْ نَبِيِّ اللهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – فِي نَظِيرِهِ إِذْ أُتِيَ بِلَحْمٍ أَتَتْهُ بَرِيرَةُ مِنْ صَدَقَةٍ كَانَ تَصَدَّقَ بِهَا عَلَيْهَا، فَقَالَ: «قَرِّبُوهُ؛ فَقَدْ بَلَغَ مَحِلَّهُ»[٢٩٢] يَعْنِي: فَقَدْ بَلَغَ مَحِلَّ طِيبِهِ وَحَلَالِهِ لَهُ بِالْهَدِيَّةِ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ صَدَقَةً عَلَى بَرِيرَةَ.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ[٢٩٣]﴾ يَعْنِي: فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ؛ إِلَّا أَنْ يُضْطَرَّ إِلَى حَلْقِهِ مِنْكُمْ مُضْطَرٌّ؛ إِمَّا لِمَرَضٍ، وَإِمَّا لِأَذًى بِرَأْسِهِ – مِنْ هَوَامٍّ أَوْ غَيْرِهَا –، فَيَحْلِقُ هُنَالِكَ لِلضَّرُورَةِ النَّازِلَةِ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَبْلُغِ الْهَدْيِ مَحِلَّهُ، فَيَلْزَمُهُ بِحَلَاقِ رَأْسِهِ وَهُوَ كَذَلِكَ: فِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ، أَوْ صَدَقَةٍ، أَوْ نُسُكٍ.

عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، قَالَ: مَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَنَا أُوقِدُ تَحْتَ قِدْرٍ، وَالْقَمْلُ يَتَنَاثَرُ عَلَى وَجْهِي! فَقَالَ: «أَتُؤْذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ! قَالَ: «احْلِقْهُ؛ وَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوِ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، أَوِ اذْبَحْ شَاةً».[٢٩٤]

---

[٢٩٢] صححه الألباني في الصحيحة(٢٥٤٦). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، وَغَيْرِهِمَا، عَنْ عَائِشَةَ – زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَتْ: كَانَ فِي بَرِيرَةَ ثَلَاثُ سُنَنٍ، إِحْدَى السُّنَنِ: أَنَّهَا أُعْتِقَتْ، فَخُيِّرَتْ فِي زَوْجِهَا، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ**».
وَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالْبُرْمَةُ تَفُورُ بِلَحْمٍ، فَقُرِّبَ إِلَيْهِ خُبْزٌ وَأُدْمٌ مِنْ أُدْمِ الْبَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**أَلَمْ أَرَ بُرْمَةً فِيهَا لَحْمٌ؟!**» فَقَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! ذَلِكَ لَحْمٌ تُصُدِّقَ بِهِ عَلَى بَرِيرَةَ، وَأَنْتَ لَا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**هُوَ عَلَيْهَا صَدَقَةٌ، وَهُوَ لَنَا هَدِيَّةٌ**».

[٢٩٣] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَمَعْنَى النُّسُكِ: الذَّبْحُ لِلَّهِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، يُقَالُ: نَسَكَ فُلَانٌ لِلَّهِ نَسِيكَةً، بِمَعْنَى: ذَبَحَ لِلَّهِ ذَبِيحَةً يَنْسُكُهَا نُسُكًا.

[٢٩٤] عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: أَتَى عَلَيَّ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَالْقَمْلُ يَتَنَاثَرُ عَلَى وَجْهِي! فَقَالَ: «**أَيُؤْذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكَ؟**» قُلْتُ: نَعَمْ! قَالَ: «**[احْلِقْ رَأْسَكَ، ثُمَّ اذْبَحْ شَاةً نُسُكًا، أَوْ صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ ثَلَاثَةَ آصُعٍ مِنْ تَمْرٍ، عَلَى سِتَّةِ مَسَاكِينَ][لِكُلِّ مِسْكِينَيْنِ صَاعٌ]، [أَيَّ ذَلِكَ فَعَلْتَ أَجْزَأَ عَنْكَ]**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم – وما بين المعقوفين الأول والثاني له –، وأحمد ، وأبو داود، والترمذي، والنسائي – وما بين المعقوفين الثالث له –، وابن ماجة؛ وغيرهم].

وَلِلْمُفْتَدِي الْخِيَارُ بَيْنَ أَيِّ ذَلِكَ شَاءَ؛ لِأَنَّ اللهَ لَمْ يَحْصُرْهُ عَلَى وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بِعَيْنِهَا، فَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَعْدُوهَا إِلَى غَيْرِهَا؛ بَلْ جَعَلَ إِلَيْهِ فِعْلَ أَيِّ الثَّلَاثِ شَاءَ.

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ يَعْنِي: إِذَا أَمِنَ مِنْ خَوْفِهِ، وَبَرَأَ مِنْ مَرَضِهِ ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ يَعْنِي: فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَزَالَ عَنْكُمْ خَوْفُكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ أَوْ هَلَاكِكُمْ مِنْ مَرَضِكُمْ فَتَمَتَّعْتُمْ بِعُمْرَتِكُمْ إِلَى حَجِّكُمْ؛ فَعَلَيْكُمْ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ يَعْنِي: فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، فَهَدْيُهُ جَزَاءٌ لِاسْتِمْتَاعِهِ بِإِحْلَالِهِ مِنْ إِحْرَامِهِ الَّذِي حَلَّ مِنْهُ حِينَ عَادَ لِقَضَاءِ حَجَّتِهِ الَّتِي أُحْصِرَ فِيهَا، وَعُمْرَتِهِ الَّتِي كَانَتْ لَزِمَتْهُ بِفَوْتِ حَجَّتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا فَعَلَيْهِ صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ فِي حَجِّهِ، وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ.

﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ يَعْنِي: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ؛ فَعَلَيْهِ صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي حَجِّهِ وَصِيَامِ سَبْعَةِ أَيَّامٍ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ وَمِصْرِهِ. [٢٩٥]

﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ يَعْنِي: تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ عَلَيْكُمْ فَرَضْنَا إِكْمَالَهَا.

﴿ذَلِكَ﴾ يَعْنِي: التَّمَتُّعُ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِيمَنْ عَنَى بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بَعْدَ إِجْمَاعِ جَمِيعِهِمْ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْحَرَمِ مَعْنِيُّونَ بِهِ، وَأَنَّهُ لَا مُتْعَةَ لَهُمْ.

وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصِّحَّةِ عِنْدَنَا قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ حَاضِرِي الْحَرَامِ مَنْ هُوَ حَوْلَهُ مِمَّنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مِنَ الْمَسَافَةِ مَا لَا تُقْصَرُ إِلَيْهِ الصَّلَوَاتُ؛ لِأَنَّ حَاضِرَ الشَّيْءِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: هُوَ الشَّاهِدُ لَهُ بِنَفْسِهِ.

---

[٢٩٥] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: أَوَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ صَوْمُ السَّبْعَةِ الْأَيَّامِ بَعْدَ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي يَصُومُهُنَّ فِي الْحَجِّ إِلَّا بَعْدَ رُجُوعِهِ إِلَى مِصْرِهِ وَأَهْلِهِ؟ قِيلَ: بَلْ قَدْ أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ صَوْمَ الْأَيَّامِ الْعَشَرَةِ بِعَدَمِ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ لِمُتْعَتِهِ، وَلَكِنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – رَأْفَةً مِنْهُ بِعِبَادِهِ رَخَّصَ لِمَنْ أَوْجَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، كَمَا رَخَّصَ لِلْمُسَافِرِ وَالْمَرِيضِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ الْإِفْطَارَ وَقَضَاءَ عِدَّةٍ مَا أَفْطَرَ مِنَ الْأَيَّامِ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ.

وَلَوْ تَحَمَّلَ الْمُتَمَتِّعُ فَصَامَ الْأَيَّامَ السَّبْعَةَ فِي سَفَرِهِ قَبْلَ رُجُوعِهِ إِلَى وَطَنِهِ، أَوْ صَامَهُنَّ بِمَكَّةَ؛ كَانَ مُؤَدِّيًا مَا عَلَيْهِ مِنْ فَرْضِ الصَّوْمِ فِي ذَلِكَ، وَكَانَ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ شَهْرَ رَمَضَانَ فِي سَفَرِهِ أَوْ مَرَضِهِ، مُخْتَارًا لِلْعُسْرِ عَلَى الْيُسْرِ.

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ اسْمُهُ: وَاتَّقُوا اللهَ بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَلْزَمَكُمْ مِنْ فَرَائِضِهِ وَحُدُودِهِ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَعْتَدُوا فِي ذَلِكَ وَتَتَجَاوَزُوا فِيمَا بَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَنَاسِكِكُمْ، فَتَسْتَحِلُّوا مَا حَرَّمَ فِيهَا عَلَيْكُمْ. ﴿وَاعْلَمُوا﴾: تَيَقَّنُوا أَنَّهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – شَدِيدٌ عِقَابُهُ لِمَنْ عَاقَبَهُ عَلَى مَا انْتَهَكَ مِنْ مَحَارِمِهِ وَرَكِبَ مِنْ مَعَاصِيهِ!.

١٩٧– ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾يَعْنِي: وَقْتُ الْحَجِّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾قَالَ: «شَوَّالٌ، وَذُو الْقَعْدَةِ، وَعَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ».[٢٩٦]

فَمَعْنَى الْآيَةِ إِذًا: مِيقَاتُ حَجِّكُمْ – أَيُّهَا النَّاسُ – شَهْرَانِ وَبَعْضُ الثَّالِثِ، وَهُوَ: شَوَّالٌ، وَذُو الْقَعْدَةِ، وَعَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ.

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾يَعْنِي: فَمَنْ أَوْجَبَ الْحَجَّ عَلَى نَفْسِهِ وَأَلْزَمَهَا إِيَّاهُ فِيهِنَّ، يَعْنِي: فِي الْأَشْهُرِ الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي بَيَّنَهَا. وَإِيجَابُهُ إِيَّاهُ عَلَى نَفْسِهِ: الْعَزْمُ عَلَى عَمَلِ جَمِيعِ مَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَى الْحَاجِّ عَمَلُهُ، وَتَرْكُ جَمِيعِ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِتَرْكِهِ.

﴿فَلَا رَفَثَ﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى الرَّفَثِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْإِفْحَاشُ لِلْمَرْأَةِ فِي الْكَلَامِ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَقُولُ: إِذَا حَلَلْنَا فَعَلْتُ بِكِ كَذَا وَكَذَا(!) لَا يُكَنِّي عَنْهُ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ!.

قَالَ عَطَاءٌ: الرَّفَثُ: الْجِمَاعُ، وَمَا دُونَهُ مِنْ قَوْلِ الْفُحْشُ.

عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: قَوْلُ الرَّجُلِ لِامْرَأَتِهِ: إِذَا حَلَلْتُ أَصَبْتُكِ، قَالَ: ذَاكَ الرَّفَثُ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾قَالَ: الرَّفَثُ: غِشْيَانُ النِّسَاءِ وَالْقُبَلُ وَالْغَمْزُ، وَأَنْ يُعَرِّضَ لَهَا بِالْفُحْشِ مِنَ الْكَلَامِ وَنَحْوَ ذَلِكَ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: الرَّفَثُ: هُوَ الْجِمَاعُ، وَلَكِنَّ اللهَ كَرِيمٌ يُكَنِّي عَمَّا شَاءَ.

---

[٢٩٦] صحيح: قال الألباني في مختصر البخاري(٤٦٢/١): وصله الطبري، والدارقطني بسند صحيح عنه.

وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي: أَنَّ اللهَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – نَهَى – مَنْ فَرَضَ الْحَجَ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ – عَنِ الرَّفَثِ، فَقَالَ: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ﴾.

وَالرَّفَثُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: أَصْلُهُ الْإِفْحَاشُ فِي الْمِنْطَقِ...، ثُمَّ تَسْتَعْمِلُهُ فِي الْكِنَايَةِ عَنِ الْجِمَاعِ.

فَإِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَكَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ مُخْتَلِفِينَ فِي تَأْوِيلِهِ، وَفِي هَذَا النَّهْيِ مِنَ اللهِ عَنْ بَعْضِ مَعَانِي (الرَّفَثِ) أَمْ عَنْ جَمِيعِ مَعَانِيهِ؟ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ عَلَى جَمِيعِ مَعَانِيهِ، إِذْ لَمْ يَأْتِ خَبَرٌ بِخُصُوصِ الرَّفَثِ الَّذِي هُوَ بِالْمَنْطَقِ عِنْدَ النِّسَاءِ مِنْ سَائِرِ مَعَانِي الرَّفَثَ يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ، إِذْ كَانَ غَيْرَ جَائِزٍ نَقْلُ حُكْمِ ظَاهِرِ آيَةٍ إِلَى تَأْوِيلِ بَاطِنٍ إِلَّا بِحُجَّةٍ ثَابِتَةٍ.

﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى (الْفُسُوقِ) الَّتِي نَهَى اللهُ عَنْهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ الْمَعَاصِي كُلُّهَا.[٢٩٧]

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْفُسُوقُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: مَا عُصِيَ اللهُ بِهِ فِي الْإِحْرَامِ مِمَّا نَهَى عَنْهُ فِيهِ؛ مِنْ قَتْلِ صَيْدٍ، وَأَخْذِ شَعْرٍ، وَقَلْمِ ظُفُرٍ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا خَصَّ اللهُ بِهِ الْإِحْرَامَ، وَأَمَرَ بِالتَّجَنُّبِ مِنْهُ فِي خِلَالِ الْإِحْرَامِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْفُسُوقُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: السِّبَابُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: الْفُسُوقُ: الذَّبْحُ لِلْأَصْنَامِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: الْفُسُوقُ: التَّنَابُزُ بِالْأَلْقَابِ.

وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ الَّتِي ذَكَرْنَا بِتَأْوِيلِ الْآيَةِ فِي ذَلِكَ، قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾النَّهْيِ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ فِي إِصَابَةِ الصَّيْدِ، وَفِعْلِ مَا نَهَى اللهُ الْمُحْرِمَ عَنْ فِعْلِهِ فِي حَالِ إِحْرَامِهِ.

وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ –، قَالَ: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾يَعْنِي بِذَلِكَ: فَلَا يَرْفُثُ، وَلَا يَفْسُقُ، أَيْ: لَا يَفْعَلُ مَا نَهَاهُ اللهُ عَنْ فِعْلِهِ فِي حَالِ إِحْرَامِهِ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ طَاعَةِ اللهِ فِي إِحْرَامِهِ.

---

[٢٩٧] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَالَّذِينَ قَالُوا: الْفُسُوقُ هَاهُنَا هُوَ جَمِيعُ الْمَعَاصِي؛ مَعَهُمُ الصَّوَابُ، كَمَا نَهَى تَعَالَى عَنِ الظُّلْمِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ، وَإِنْ كَانَ فِي جَمِيعِ السَّنَةِ مَنْهِيًّا عَنْهُ، إِلَّا أَنَّهُ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ آكَدُ... وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْفُسُوقَ هَاهُنَا: هُوَ ارْتِكَابُ مَا نُهِيَ عَنْهُ فِي الْإِحْرَامِ؛ مِنْ قَتْلِ الصَّيْدِ، وَحَلْقِ الشَّعْرِ، وَقَلْمِ الْأَظْفَارِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ... وَمَا ذَكَرْنَاهُ أَوْلَى، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ اللهَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – قَدْ حَرَّمَ مَعَاصِيَهُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، مُحْرِمًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُحْرِمٍ، وَكَذَلِكَ حَرَّمَ التَّنَابُزَ بِالْأَلْقَابِ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ وَغَيْرِهَا؛ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ وَحَرَّمَ عَلَى الْمُسْلِمِ سِبَابَ أَخِيهِ فِي كُلِّ حَالٍ، فَرَضَ الْحَجَّ، أَوْ لَمْ يَفْرِضْهُ.

فَإِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ فَلَا شَكَّ أَنَّ الَّذِيَ نَهَى اللهُ عَنْهُ الْعَبْدَ مِنَ الْفُسُوقِ فِي حَالِ إِحْرَامِهِ وَفَرْضِهِ الْحَجَّ؛ هُوَ مَا لَمْ يَكُنْ فُسُوقًا فِي حَالِ إِحْلَالِهِ وَقَبْلَ إِحْرَامِهِ بِحجّة؛ كَمَا أَنَّ الرَّفَثَ الَّذِي نَهَاهُ عَنْهُ فِي حَالِ فَرْضِهِ الْحَجَّ، هُوَ الَّذِي كَانَ لَهُ مُطْلَقًا قَبْلَ إِحْرَامِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِأَنْ يُقَالَ فِيمَا قَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ: لَا يَفْعَلَنَّ أَحَدُكُمْ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ مَا هُوَ حَرَامٌ عَلَيْهِ فِعْلُهُ فِي كُلِّ حَالٍ؛ لِأَنَّ خُصُوصَ حَالِ الْإِحْرَامِ بِهِ لَا وَجْهَ لَهُ، وَقَدْ عَمَّ بِهِ جَمِيعَ الْأَحْوَالِ مِنَ الْإِحْلَالِ وَالْإِحْرَامِ.

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ إِذًا: فَمَنْ فَرَضَ الْحَجَّ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ فَأَحْرَمَ فِيهِنَّ؛ فَلَا يَرْفُثْ عِنْدَ النِّسَاءِ فَيُصَرِّحُ لَهُنَّ بِجِمَاعِهِنَّ، وَلَا يُجَامِعُهُنَّ، وَلَا يَفْسُقُ بِإِتْيَانِ مَا نَهَاهُ اللهُ فِي حَالِ إِحْرَامِهِ بِحَجِّهِ؛ مِنْ قَتْلِ صَيْدٍ، وَأَخْذِ شَعْرٍ، وَقَلْمِ ظُفُرٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ فِعْلَهُ وَهُوَ مُحْرِمٌ.[٢٩٨]

﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ذَلِكَ: النَّهْيَ عَنْ أَنْ يَجَادِلَ الْمُحْرِمُ أَحَدًا.

ثُمَّ اخْتَلَفَ قَائِلُو هَذَا الْقَوْلِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَهَى عَنْ أَنَ يُجَادِلَ صَاحِبَهُ حَتَّى يُغْضِبَهُ.

وَقَالَ آخَرُونَ مِنْهُمْ: الْجِدَالُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، مَعْنَاهُ: السِّبَابُ.

---

[٢٩٨] (كَلَامٌ مُهِمٌّ جِدًّا) قَالَ ابْنُ حَزْمٍ فِي الْمُحَلَّى: وَكُلُّ مَنْ تَعَمَّدَ مَعْصِيَةً – أَيَّ مَعْصِيَةٍ كَانَتْ – وَهُوَ ذَاكِرٌ لِحَجِّهِ مُذْ يُحْرِمُ إِلَى أَنْ يُتِمَّ طَوَافَهُ بِالْبَيْتِ لِلْإِفَاضَةِ وَيَرْمِيَ الْجَمْرَةَ؛ فَقَدْ بَطَلَ حَجُّهُ، فَإِنْ أَتَاهَا نَاسِيًا لَهَا، أَوْ نَاسِيًا لِإِحْرَامِهِ وَدُخُولِهِ فِي الْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ؛ فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ فِي نِسْيَانِهَا، وَحَجُّهُ وَعُمْرَتُهُ تَامَّانِ فِي نِسْيَانِهِ كَوْنَهُ فِيهِمَا، وَذَلِكَ لِقَوْلِ اللهِ – تَعَالَى –: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ فَكَانَ مِنْ شَرْطِ اللهِ – تَعَالَى – فِي الْحَجِّ: بَرَاءَتُهُ مِنَ الرَّفَثِ وَالْفُسُوقِ، فَمَنْ لَمْ يَتَبَرَّأْ مِنْهُمَا؛ فَلَمْ يَحُجَّ كَمَا أُمِرَ، وَمَنْ لَمْ يَحُجَّ كَمَا أُمِرَ؛ فَلَا حَجَّ لَهُ!.

وَقَالَ: وَكُلُّ فُسُوقٍ تَعَمَّدَهُ الْمُحْرِمُ ذَاكِرًا لِإِحْرَامِهِ: فَقَدْ بَطَلَ إِحْرَامُهُ، وَحَجُّهُ، وَعُمْرَتُهُ؛ لِقَوْلِ اللهِ – تَعَالَى –: ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾...وَمِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا(!): أَنَّ الْآيَةَ وَرَدَتْ كَمَا تَلَوْنَا، فَأَبْطَلُوا الْحَجَّ بِالرَّفَثِ وَلَمْ يُبْطِلُوهُ بِالْفُسُوقِ!!.

وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا: أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ(!) قَالَ: مَنْ وَطِئَ فِي إِحْرَامِهِ – نَاسِيًا غَيْرَ عَامِدٍ وَلَا ذَاكِرٍ لِأَنَّهُ مُحْرِمٌ – امْرَأَتَهُ الَّتِي أَبَاحَ اللهُ – تَعَالَى – لَهُ وَطْأَهَا قَبْلَ الْإِحْرَامِ أَوْ بَعْدَهُ؛ فَقَدْ بَطَلَ حَجُّهُ! فَلَوْ تَعَمَّدَ اللِّيَاطَةَ بِذَكَرٍ، أَوْ أَنْ يُلَاطَ بِهِ ذَاكِرًا لِإِحْرَامِهِ؛ فَحَجُّهُ تَامٌّ، وَإِحْرَامُهُ مَبْرُورٌ!!!

فَأُفٍّ لِهَذَا الْقَوْلِ: عَدَدَ الرَّمْلِ، وَالْحَصَى، وَالتُّرَابِ!!! اهـ.

وَقَالَ آخَرُونَ مِنْهُمْ: بَلْ عَنَى بِذَلِكَ خَاصًّا مِنَ الْجِدَالِ وَالْمِرَاءِ، وَإِنَّمَا عَنَى: الِاخْتِلَافَ فِيمَنْ هُوَ أَتَمّ حَجًّا مِنَ الْحُجَّاجِ!.

وَقَالَ آخَرُونَ مِنْهُمْ: بَلْ ذَلِكَ اخْتِلَافٌ كَانَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ فِي الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ الْحَجُّ، فَنُهُوا عَنْ ذَلِكَ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ اخْتِلَافُهُمْ ذَلِكَ فِي أَمْرِ مَوَاقِفِ الْحَجِّ أَيُّهُمُ الْمُصِيبُ مَوْقِفَ إِبْرَاهِيمَ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ قَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ خَبَرٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى – عَنِ اسْتِقَامَةِ وَقْتِ الْحَجِّ عَلَى مِيقَاتٍ وَاحِدٍ لَا يَتَقَدَّمُهُ وَلَا يَتَأَخَّرُهُ، وَبُطُولِ[٢٩٩] فِعْلِ النَّسِيءِ.

وَأَوْلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ بِالصَّوَابِ، قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ: قَدْ بَطَلَ الْجِدَالُ فِي الْحَجِّ وَوَقْتِهِ، وَاسْتَقَامَ أَمْرُهُ وَوَقْتُهُ عَلَى وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَمَنَاسِكَ مُتَّفِقَةٌ غَيْرٌ مُخْتَلِفَةٍ، وَلَا تَنَازُعَ فِيهِ وَلَا مِرَاءَ. وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَخْبَرَ أَنَّ وَقْتَ الْحَجِّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ، ثُمَّ نَفَى عَنْ وَقْتِهِ الِاخْتِلَافَ الَّذِي كَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ فِي شِرْكِهَا تَخْتَلِفُ فِيهِ.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾ يَعْنِي: افْعَلُوا – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فِي حَجِّكُمْ، مِنْ إِتْمَامِ مَنَاسِكِكُمْ فِيهِ، وَأَدَاءِ فَرْضِكُمُ الْوَاجِبِ عَلَيْكُمْ فِي إِحْرَامِكُمْ، وَتَجَنُّبِ مَا أَمَرْتُكُمْ بِتَجَنُّبِهِ مِنَ الرَّفَثِ وَالْفُسُوقِ فِي حَجِّكُمْ؛ لِتَسْتَوْجِبُوا بِهِ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ، فَإِنَّكُمْ مَهْمَا تَفْعَلُوا مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ مِنْ خَيْرٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي وَطَلَبَ ثَوَابِي، فَأَنَا بِهِ عَالِمٌ، وَلِجَمِيعِهِ مُحْصٍ، حَتَّى أُوَفِّيَكُمْ أَجْرَهُ، وَأُجَازِيَكُمْ عَلَيْهِ، فَإِنِّي لَا تَخْفَى عَلَيَّ خَافِيَةٌ، وَلَا يَنْكَتِمُ عَنِّي مَا أَرَدْتُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ لِأَنِّي مُطَّلِعٌ عَلَى سَرَائِرِكُمْ، وَعَالِمٌ بِضَمَائِرِ نُفُوسِكُمْ.

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى[٣٠٠]﴾ يَعْنِي: وَتَزَوَّدُوا مِنْ أَقْوَاتِكُمْ مَا فِيهِ بَلَاغُكُمْ إِلَى أَدَاءِ فَرْضِ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ فِي حَجِّكُمْ وَمَنَاسِكِكُمْ؛ فَإِنَّهُ لَا بِرّ لِلَّهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – فِي تَرْكِكُمُ التَّزَوُّدَ لِأَنْفُسِكُمْ وَمَسْأَلَتِكُمُ

---

[٢٩٩] مِنَ (الْبُطْلَانِ)، قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ: بَطَلَ الشَّيْءُ يَبْطُلُ بُطْلًا وَبُطُولًا وَبُطْلَانًا: فَسَدَ أَوْ سَقَطَ حُكْمُهُ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَجَمْعُهُ: بَوَاطِلُ.

[٣٠٠] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ! وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ! فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ!! فَأَنْزَلَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [صحيح: رواه البخاري، وأبو داود، والنسائي في الكبرى؛ وغيرهم].

النَّاسَ وَلَا فِي تَضْيِيعِ أَقْوَاتِكُمْ وَإِفْسَادِهَا، وَلَكِنَّ الْبِرَّ فِي تَقْوَى رَبِّكُمْ بِاجْتِنَابِ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فِي سَفَرِكُمْ لِحَجِّكُمْ وَفِعْلِ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ؛ فَإِنَّهُ خَيْرُ التَّزَوُّدِ، فَمِنْهُ تَزَوَّدُوا.

﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يَعْنِي: وَاتَّقُونِ يَا أَهْلَ الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ بِأَدَاءِ فَرَائِضِي عَلَيْكُمُ الَّتِي أَوْجَبْتُهَا عَلَيْكُمْ فِي حَجِّكُمْ وَمَنَاسِكِكُمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ دِينِي الَّذِي شَرَعْتُهُ لَكُمْ، وَخَافُوا عِقَابِي بِاجْتِنَابِ مَحَارِمِي الَّتِي حَرَّمْتُهَا عَلَيْكُمْ؛ تَنْجُوا بِذَلِكَ مِمَّا تَخَافُونَ مِنْ غَضَبِي عَلَيْكُمْ وَعِقَابِي، وَتُدْرِكُوا مَا تَطْلُبُونَ مِنَ الْفَوْزِ بِجَنَّاتِي.

وَخَصَّ جَلَّ ذِكْرُهُ بِالْخِطَابِ بِذَلِكَ أُولِي الْأَلْبَابِ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَأَهْلُ الْفِكْرِ الصَّحِيحِ وَالْمَعْرِفَةِ بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي بِالْعُقُولِ تُدْرَكُ وَبِالْأَلْبَابِ تُفْهَمُ، وَلَمْ يَجْعَلْ لِغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ فِي الْخِطَابِ بِذَلِكَ حَظًّا؛ إِذْ كَانُوا أَشْبَاحًا كَالْأَنْعَامِ! وَصِوَرًا كَالْبَهَائِمِ! بَلْ هُمْ مِنْهَا أَضَلُّ سَبِيلًا!!.

١٩٨- ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ يَعْنِي: لَيْسَ عَلَيْكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – جُنَاحٌ. وَالْجَنَاحُ: الْحَرَجُ.

﴿أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يَعْنِي: أَنْ تَلْتَمِسُوا فَضْلًا مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ.[٣٠١]

وَقِيلَ: إِنَّ مَعْنَى ابْتِغَاءِ الْفَضْلِ مِنَ اللهِ: الْتِمَاسُ رِزْقِ اللهِ بِالتِّجَارَةِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانُوا لَا يَرَوْنَ أَنْ يَتَّجِرُوا إِذَا أَحْرَمُوا يَلْتَمِسُونَ الْبِرَّ بِذَلِكَ، فَأَعْلَمَهُمْ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – أَنْ لَا بِرَّ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّ لَهُمُ الْتِمَاسَ فَضْلِهِ بِالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَتْ عُكَاظٌ، وَمَجَنَّةُ، وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَانُوا يَتَّجِرُونَ فِيهَا، فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ، كَأَنَّهُمْ تَأَثَّمُوا مِنْهَا، فَسَأَلُوا النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ.[٣٠٢]

---

[٣٠١] قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مَا هَذَا الْفَضْلُ الَّذِي لَا جُنَاحَ فِي ابْتِغَائِهِ أَثْنَاءَ الْحَجِّ. وَأَشَارَ فِي آيَاتٍ أُخَرَ إِلَى أَنَّهُ رِبْحُ التِّجَارَةِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾؛ لِأَنَّ الضَّرْبَ فِي الْأَرْضِ عِبَارَةٌ عَنِ السَّفَرِ لِلتِّجَارَةِ، فَمَعْنَى الْآيَةِ: يُسَافِرُونَ يَطْلُبُونَ رِبْحَ التِّجَارَةِ. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ أَيْ: بِالْبَيْعِ وَالتِّجَارَةِ؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ قَبْلَهُ: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أَيْ: فَإِذَا انْقَضَتْ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ؛ فَاطْلُبُوا الرِّبْحَ الَّذِي كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْكُمْ عِنْدَ النِّدَاءِ لَهَا.

[٣٠٢] صحيح: رواه البخاري، وأبو داود، وابن حبان في صحيحه، وابن خزيمة في صحيحه؛ وغيرهم.

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ[٣٠٣]﴾ يَعْنِي: فَإِذَا رَجَعْتُمْ مِنْ حَيْثِ بَدَأْتُمْ، ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ يَعْنِي: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ﴾ فَكَرَرْتُمْ رَاجِعِينَ مِنْ عَرَفَةَ إِلَى حَيْثُ بَدَأْتُمُ الشُّخُوصَ إِلَيْهَا مِنْهُ، ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: الصَّلَاةَ، وَالدُّعَاءَ ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ[٣٠٤]﴾ وَقَدْ بَيَّنَّا قَبْلُ أَنَّ الْمَشَاعِرَ هِيَ الْمَعَالِمُ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: شَعَرْتُ بِهَذَا الْأَمْرِ: أَيْ عَلِمْتُ، فَالْمَشْعَرُ هُوَ الْمَعْلَمُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ عِنْدَهُ وَالْمَقَامَ وَالْمَبِيتَ وَالدُّعَاءَ مِنْ مَعَالِمِ الْحَجِّ، وَفُرُوضِهِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ.

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ[٣٠٥]﴾ يَعْنِي: وَاذْكُرُوا اللهَ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالشُّكْرِ لَهُ عَلَى أَيَادِيهِ عِنْدَكُمْ، وَلْيَكُنْ ذِكْرُكُمْ إِيَّاهُ بِالْخُضُوعِ لِأَمْرِهِ، وَالطَّاعَةِ لَهُ وَالشُّكْرِ عَلَى مَا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ مِنَ التَّوْفِيقِ، لِمَا وَفَّقَكُمْ لَهُ مِنْ سُنَنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِهِ بَعْدَ الَّذِي كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْحِيرَةِ وَالْعَمَى عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَبُعْدِ الضَّلَالَةِ – كَذِكْرِهِ إِيَّاكُمْ بِالْهُدَى، حَتَّى اسْتَنْقَذَكُمْ مِنَ النَّارِ بِهِ بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْهَا، فَنَجَّاكُمْ مِنْهَا.

وَاذْكُرُوا اللهَ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – كَمَا ذَكَرَكُمْ بِالْهُدَى، فَهَدَاكُمْ لِمَا رَضِيَهُ مِنَ الْأَدْيَانِ وَالْمِلَلِ، وَقَدْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ مِنَ الضَّالِّينَ.

١٩٩– ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الْمَعْنِيُّ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾: قُرَيْشٌ؛ وَمَنْ وَلَدَتْهُ قُرَيْشٌ، الَّذِينَ كَانُوا يُسَمَّوْنَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ: (الْحُمْسَ) أُمِرُوا فِي الْإِسْلَامِ

---

[٣٠٣] **قَالَ الْقَاضِي ابْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**مِنْ عَرَفَاتٍ**﴾: مَوْضِعٌ مَعْلُومُ الْحُدُودِ، مَشْهُورٌ عَظِيمُ الْقَدْرِ.

[٣٠٤] فِي حَدِيثِ جَابِرٍ الطَّوِيلِ: أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – «أَتَى الْمُزْدَلِفَةَ، فَصَلَّى بِهَا الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ، [وَلَمْ يُصَلِّ بَيْنَهُمَا شَيْئًا]، ثُمَّ اضْطَجَعَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، وَصَلَّى الْفَجْرَ، حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبْحُ، بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ، ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ، حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ، [فَرَقِيَ عَلَيْهِ]، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، [فَحَمِدَ اللهَ] وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى أَسْفَرَ جِدًّا، فَدَفَعَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ» [صحيح: رواه مسلم – واللفظ له –، وأبو داود، وابن ماجة – وما بين المعقوفين له –].

[٣٠٥] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:** وَمِنْ فَوَائِدِ الْآيَةِ: تَذْكِيرُ الْإِنْسَانِ بِحَالِهِ قَبْلَ كَمَالِهِ؛ لِيَعْرِفَ بِذَلِكَ قَدْرَ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ**﴾ وَمِنْ هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِلْأَنْصَارِ: «**أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟**»[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ] وَمِنْهُ قَوْلُ الْمَلَكِ لِلْأَبْرَصِ وَالْأَقْرَعِ: «**أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ؟ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ؟**»[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

فَالتَّذْكِيرُ بِالنِّعَمِ بِذِكْرِ الْحَالِ وَبِذِكْرِ الْكَمَالِ بَعْدَ النَّقْصِ؛ مِمَّا يُوجِبُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَزْدَادَ مِنْ شُكْرِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ.

أَنْ يُفِيضُوا مِنْ عَرَفَاتٍ، وَهِيَ الَّتِي أَفَاضَ مِنْهَا سَائِرُ النَّاسِ غَيْرَ الْحُمْسِ. وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا وَمَنْ وَلَدَتْهُ قُرَيْشٌ، كَانُوا يَقُولُونَ: لَا نَخْرُجُ مِنَ الْحَرَمِ، فَكَانُوا لَا يَشْهَدُونَ مَوْقِفَ النَّاسِ بِعَرَفَةَ مَعَهُمْ، فَأَمَرَهُمُ اللهُ بِالْوقُوفِ مَعَهُمْ. عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ كَانَ عَلَى دِينِهَا – وَهُمُ الْحُمْسُ –، يَقِفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ يَقُولُونَ: نَحْنُ قَطِينُ اللهِ[٣٠٦]، وَكَانَ مَنْ سِوَاهُمْ يَقِفُونَ بِعَرَفَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾.[٣٠٧]

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يَعْنِي: وَسَلُونِي الْمَغْفِرَةَ لِذُنُوبِكُمْ؛ فَإِنِّي لَهَا غَفُورٌ، وَبِكُمْ رَحِيمٌ.

٢٠٠– ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ يَعْنِي: فَإِذَا فَرَغْتُمْ مِنْ حَجِّكُمْ فَذَبَحْتُمْ نَسَائِكَكُمْ ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ الذِّكْرُ: هُوَ التَّكْبِيرُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – بِقَوْلِهِ: ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَى مَنْ قَضَى نُسُكَهُ بَعْدَ قَضَائِهِ نُسُكِهِ، فَأَلْزَمَهُ حِينَئِذٍ مِنْ ذِكْرِهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ لَازِمًا قَبْلَ ذَلِكَ، وَحَثَّ عَلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ مُحَافَظَةَ الْأَبْنَاءِ عَلَى ذِكْرِ الْآبَاءِ، فِي الْإِكْثَارِ مِنْهُ بِالِاسْتِكَانَةِ لَهُ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ بِالرَّغْبَةِ مِنْهُمْ إِلَيْهِ فِي حَوَائِجِهِمْ كَتَضَرُّعِ الْوَلَدِ لِوَالِدِهِ، وَالصَّبِيِّ لِأُمِّهِ وَأَبِيهِ، أَوْ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ؛ إِذْ كَانَ مَا كَانَ بِهِمْ وَبِآبَائِهِمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْهُ، وَهُوَ وَلِيُّهُ.

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ[٣٠٨]﴾ يَعْنِي: فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا، وَارْغَبُوا إِلَيْهِ فِيمَا لَدَيْهِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِابْتِهَالٍ وَتَمَسْكُنٍ، وَاجْعَلُوا أَعْمَالَكُمْ لِوَجْهِهِ خَالِصًا وَلِطَلَبِ مَرْضَاتِهِ، وَقُولُوا: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً،

---

[٣٠٦] (**نَحْنُ قَطِينُ اللهِ**)، أَيْ: سُكَّانُ حَرَمِهِ [النهاية في غريب الحديث والأثر؛ لابن الأثير].

[٣٠٧] صحيح: رواه البخاري، ومسلم؛ وغيرهما. عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، قَالَ عُرْوَةُ: «كَانَ النَّاسُ يَطُوفُونَ فِي الجَاهِلِيَّةِ عُرَاةً إِلَّا الحُمْسَ – وَالحُمْسُ: قُرَيْشٌ؛ وَمَا وَلَدَتْ –، وَكَانَتِ الحُمْسُ يَحْتَسِبُونَ عَلَى النَّاسِ، يُعْطِي الرَّجُلُ الرَّجُلَ الثِّيَابَ يَطُوفُ فِيهَا، وَتُعْطِي الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ الثِّيَابَ تَطُوفُ فِيهَا، فَمَنْ لَمْ يُعْطِهِ الحُمْسُ؛ طَافَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا! [وَكَانَتِ الْحُمْسُ لَا يَخْرُجُونَ مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ، وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ يَبْلُغُونَ عَرَفَاتٍ، قَالَ هِشَامٌ: فَحَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا –، قَالَتْ: الْحُمْسُ هُمُ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – فِيهِمْ: ﴿**ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ**﴾ قَالَتْ: كَانَ النَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ عَرَفَاتٍ، وَكَانَ الْحُمْسُ يُفِيضُونَ مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ، يَقُولُونَ: لَا نُفِيضُ إِلَّا مِنَ الحَرَمِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿**أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ**﴾؛ رَجَعُوا إِلَى عَرَفَاتٍ]» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم؛ وغيرهما].

[٣٠٨] فَطَالِبُ الدُّنْيَا: لَيْسَ لَهُ نَصِيبٌ فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا: فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ؛ فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ!!...**» [صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٩٥٠)، وصحيح الجامع(٦٥١٦)، وصحيح الترغيب والترهيب(٣١٦٨)].

وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ؛ وَلَا تَكُونُوا كَمَنِ اشْتَرَى الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ، فَكَانَتْ أَعْمَالُهُمْ لِلدُّنْيَا وَزِينَتِهَا![309] فَلَا يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ إِلَّا مَتَاعَهَا! وَلَا حَظَّ لَهُمْ فِي ثَوَابِ اللهِ، وَلَا نَصِيبَ لَهُمْ فِي جَنَّاتِهِ وَكَرِيمِ مَا أَعَدَّ لِأَوْلِيَائِهِ.

٢٠١- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً[310]﴾ الْحَسَنَةُ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – : الْعَافِيَةُ فِي الْجِسْمِ وَالْمَعَاشِ وَالرِّزْقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ.

وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ: فَلَا شَكَّ أَنَّهَا الْجَنَّةُ؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَنَلْهَا يَوْمَئِذٍ فَقَدْ حُرِمَ جَمِيعَ الْحَسَنَاتِ وَفَارَقَ جَمِيعَ مَعَانِي الْعَافِيَةِ!!. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ يَعْنِي: اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ النَّارِ.

٢٠٢- ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يَعْنِي: أُولَئِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ بَعْدَ قَضَاءِ مَنَاسِكِهِمْ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ رَغْبَةً مِنْهُمْ إِلَى اللهِ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – فِيمَا عِنْدَهُ، وَعِلْمًا مِنْهُمْ بِأَنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ مِنْ عِنْدِهِ، وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

فَأَعْلَمَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – أَنَّ لَهُمْ نَصِيبًا وَحَظًّا مِنْ حَجِّهِمْ وَمَنَاسِكِهِمْ، وَثَوَابًا جَزِيلًا عَلَى عَمَلِهِمُ الَّذِي كَسَبُوهُ، وَبَاشَرُوا مُعَانَاتِهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، خَاصًّا ذَلِكَ لَهُمْ دُونَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ، الَّذِينَ عَانُوا مَا عَانُوا مِنْ نَصَبِ أَعْمَالِهِمْ وَتَعَبِهَا، وَتَكَلَّفُوا مَا تَكَلَّفُوا مِنْ أَسْفَارِهِمْ، بِغَيْرِ رَغْبَةٍ مِنْهُمْ فِيمَا عِنْدَ رَبِّهِمْ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ! وَلَكِنْ رَجَاء خَسِيس مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا وَابْتِغَاءُ عَاجِلِ حُطَامِهَا!!.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ مُحِيطٌ بِعَمَلِ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا اللَّذَيْنِ مِنْ مَسْأَلَةِ أَحَدِهِمَا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾؛ وَمَنْ مَسْأَلَةِ الْآخَرِ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾؛ فَمُحْصٍ لَهُ بِأَسْرَعِ الْحِسَابِ، ثُمَّ إِنَّهُ مُجَازٍ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ عَلَى عَمَلِهِ.

---

[309] قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْفَوَائِدِ: وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ أَحْوَالَ النَّاسِ: وَجَدْتَ هَذَا الضَّرْبَ هُوَ الْغَالِبَ عَلَى النَّاسِ! وَهُمْ عُمَّارُ الدُّنْيَا!!.
وَأَقَلُّ النَّاسِ عَدَدًا؛ مَنْ هُوَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ! وَهُوَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ غُرْبَةً بَيْنَهُمْ! لَهُمْ شَأْنٌ؛ وَلَهُ شَأْنٌ! عِلْمُهُ غَيْرُ عُلُومِهِمْ، وَإِرَادَتُهُ غَيْرُ إِرَادَتِهِمْ، وَطَرِيقُهُ غَيْرُ طَرِيقِهِمْ! فَهُوَ فِي وَادٍ؛ وَهُمْ فِي وَادٍ!! قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

[310] عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ، قَالَ: سَأَلَ قَتَادَةُ أَنَسًا: أَيُّ دَعْوَةٍ كَانَ يَدْعُو بِهَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَكْثَرُ؟ قَالَ: كَانَ أَكْثَرُ دَعْوَةٍ يَدْعُو بِهَا: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»، وَزَادَ زِيَادٌ: وَكَانَ أَنَسٌ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدَعْوَةٍ؛ دَعَا بِهَا، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدُعَاءٍ؛ دَعَا بِهَا فِيهَا [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود – واللفظ له –؛ وغيرهم].

وَإِنَّمَا وَصَفَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – نَفْسَهُ بِسُرْعَةِ الْحِسَابِ؛ لِأَنَّهُ – جَلَّ ذِكْرُهُ – يُحْصِي مَا يُحْصَى مِنْ أَعْمَالِ عِبَادِهِ بِغَيْرِ عَقْدِ أَصَابِعٍ، وَلَا فِكْرٍ وَلَا رَوِيَّةٍ، فِعْلَ الْعَجَزَةِ الضَّعَفَةِ مِنَ الْخَلْقِ! وَلَكِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِيهِمَا، ثُمَّ هُوَ مُجَازٍ عِبَادَهُ عَلَى كُلِّ ذَلِكَ؛ فَلِذَلِكَ امْتَدَحَ نَفْسَهُ – جَلَّ ذِكْرُهُ – بِسُرْعَةِ الْحِسَابِ، وَأَخْبَرَ خَلْقَهُ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ بِمِثْلٍ، فَيَحْتَاجُ فِي حِسَابِهِ إِلَى عَقْدِ كَفٍّ أَوْ وَعْيِ صَدْرٍ!!.

٢٠٣– ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾يَعْنِي: اذْكُرُوا اللهَ بِالتَّوْحِيدِ وَالتَّعْظِيمِ فِي أَيَّامٍ مُحْصَيَاتٍ، وَهِيَ أَيَّامُ رَمْيِ الْجِمَارِ. أَمَرَ عِبَادَهُ يَوْمَئِذٍ بِالتَّكْبِيرِ أَدْبَارَ الصَّلَوَاتِ، وَعِنْدَ الرَّمْيِ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ مِنْ حَصَى الْجِمَارِ يَرْمِي بِهَا جَمْرَةً مِنَ الْجِمَارِ.

وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ الْأَيَّامَ الْمَعْدُودَاتِ، هِيَ: أَيَّامُ مِنًى وَأَيَّامُ رَمْيِ الْجِمَارِ؛ لِتَظَاهُرِ الْأَخْبَارِ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِيهَا: إِنَّهَا أَيَّامُ ذِكْرِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –.

عَنْ مَسْعُودِ بْنِ الْحَكَمِ الزُّرَقِيُّ، عَنْ أُمِّهِ، قَالَتْ: لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَلِيٍّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – عَلَى بَغْلَةِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْبَيْضَاءِ حِينَ وَقَفَ عَلَى شِعْبِ الْأَنْصَارِ، وَهُوَ يَقُولُ: «أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّهَا لَيْسَتْ بِأَيَّامِ صِيَامٍ، إِنَّمَا هِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرٍ».[٣١١]

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ[٣١٢] وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾يَعْنِي: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ مِنْ أَيَّامِ مِنًى الثَّلَاثَةِ فَنَفَرَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، لِحَطِّ اللهِ ذُنُوبَهُ، إِنْ كَانَ قَدِ اتَّقَى اللهَ فِي حَجِّهِ، فَاجْتَنَبَ فِيهِ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِاجْتِنَابِهِ، وَفَعَلَ فِيهِ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِفِعْلِهِ، وَأَطَاعَهُ بِأَدَائِهِ عَلَى مَا كَلَّفَهُ مِنْ

---

[٣١١] صحيح: رواه أحمد، والنسائي في الكبرى، وقال أحمد شاكر في تعليقه على المسند: إسناده صحيح.

[٣١٢] **قَالَ الْإِمَامُ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾ أَرَادَ أَنَّ مَنْ نَفَرَ مِنَ الْحَاجِّ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ﴿**فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾؛ وَذَلِكَ أَنَّ عَلَى الْحَاجِّ أَنْ يَبِيتَ بِمِنًى اللَّيْلَةَ الْأُولَى وَالثَّانِيَةَ مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، وَيَرْمِي كُلَّ يَوْمٍ بَعْدَ الزَّوَالِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ حَصَاةً، عِنْدَ كُلِّ جَمْرَةٍ سَبْعَ حَصَيَاتٍ، وَرُخِّصَ فِي تَرْكِ الْبَيْتُوتَةِ لِرِعَاءِ الْإِبِلِ وَأَهْلِ سِقَايَةِ الْحَاجِّ، ثُمَّ كُلُّ مَنْ رَمَى الْيَوْمَ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ وَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَ فَيَدَعَ الْبَيْتُوتَةَ اللَّيْلَةَ الثَّالِثَةَ وَرَمَى يَوْمَهَا فَذَلِكَ لَهُ وَاسِعٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾ وَمَنْ لَمْ يَنْفِرْ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَبِيتَ حَتَّى يَرْمِيَ الْيَوْمَ الثَّالِثَ ثُمَّ يَنْفِرَ.

حُدُودِهِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ إِلَى الْيَوْمِ الثَّالِثِ مِنْهُنَّ، فَلَمْ يَنْفِرْ إِلَى النَّفْرِ الثَّانِي، حَتَّى نَفَرَ مِنْ غَدِ النَّفْرِ الْأَوَّلِ، فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، لِتَكْفِيرِ اللهِ لَهُ مَا سَلَفَ مِنْ آثَامِهِ وَأَجْرَامِهِ، وَإِنْ كَانَ اتَّقَى اللهَ فِي حَجِّهِ بِأَدَائِهِ بِحُدُودِهِ.

﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ يَعْنِي: وَاتَّقُوا اللهَ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – فِيمَا فَرَضَ عَلَيْكُمَا مِنْ فَرَائِضِهِ، فَخَافُوهُ فِي تَضْيِيعِهَا وَالتَّفْرِيطِ فِيهَا، وَفِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فِي حَجِّكُمْ وَمَنَاسِكِكُمَا أَنْ تَرْتَكِبُوهُ أَوْ تَأْتُوهُ وَفِيمَا كَلَّفَكُمْ فِي إِحْرَامِكُمْ لِحَجِّكُمْ أَنْ تُقَصِّرُوا فِي أَدَائِهِ وَالْقِيَامِ بِهِ، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فَمُجَازِيكُمْ هُوَ بِأَعْمَالِكُمْ – الْمُحْسِنُ مِنْكُمْ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءُ بِإِسَاءَتِهِ – وَمُوَفٍّ كُلَّ نَفْسٍ مِنْكُمْ مَا عَمِلَتْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ.

٢٠٤- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ وَهَذَا نَعْتٌ مِنَ اللهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – لِلْمُنَافِقِينَ، يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ – يَا مُحَمَّدُ – ظَاهِرُ قَوْلِهِ وَعَلَانِيَتِهِ، وَيَسْتَشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، جَدِلٌ بِالْبَاطِلِ.

﴿وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ يَعْنِي: أَنَّ الْمُنَافِقَ الَّذِي يُعْجِبُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَوْلُهُ، يَسْتَشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ، أَنَّ قَوْلَهُ مُوَافِقٌ اعْتِقَادَهُ، وَأَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؛ وَهُوَ كَاذِبٌ!.

﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ[٣١٣]﴾ الْأَلَدُّ مِنَ الرِّجَالِ: الشَّدِيدُ الْخُصُومَةِ.

---

[٣١٣] عَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا –، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ: الْأَلَدُّ الْخَصِمُ**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد؛ وغيرهم].

قَوْلُهُ: (**الْأَلَدُّ الْخَصِمُ**): الدَّائِمُ فِي الْخُصُومَةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: الشَّدِيدُ الْخُصُومَةِ؛ فَإِنَّ الْخَصِمَ مِنْ صِيَغِ الْمُبَالَغَةِ، فَيَحْتَمِلُ الشِّدَّةَ، وَيَحْتَمِلُ الْكَثْرَةَ [فتح الباري؛ لابن حجر، بتصرف يسير].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ فِي جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ: فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ ذَا قُدْرَةٍ عِنْدَ الْخُصُومَةِ – سَوَاءٌ كَانَتْ خُصُومَتُهُ فِي الدِّينِ أَوْ فِي الدُّنْيَا – عَلَى أَنْ يَنْتَصِرَ لِلْبَاطِلِ، وَيُخَيِّلَ لِلسَّامِعِ أَنَّهُ حَقٌّ، وَيُوهِنَ الْحَقَّ، وَيُخْرِجَهُ فِي صُورَةِ الْبَاطِلِ؛ كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَقْبَحِ الْمُحَرَّمَاتِ! وَمِنْ أَخْبَثِ خِصَالِ النِّفَاقِ!! اهـ.

فَأَمَّا مَنِ اشْتَدَّتْ خُصُومَتُهُ فِي حَقٍّ حَتَّى يُظْهِرَهُ وَيُبْدِيهِ، وَيُزِيحَ الْبَاطِلَ وَيُخْفِيهِ؛ فَهِيَ حَالَةُ الْقَائِمِينَ بِالْحَقِّ، النَّاصِرِينَ لَهُ، الَّذِينَ لَا يَزَالُونَ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ [قاله القرطبي في المفهم].

وَهَذَا خَبَرٌ مِنَ اللهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – عَنِ الْمُنَافِقِ الَّذِي أَخْبَرَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ يُعْجِبُهُ إِذَا تَكَلَّمَ قِيلُهُ وَمِنْطِقُهُ، وَيَسْتَشْهِدُ اللهَ عَلَى أَنَّهُ مُحِقٌّ فِي قِيلِهِ ذَلِكَ؛ لِشِدَّةِ خُصُومَتِهِ وَجِدَالِهِ بِالْبَاطِلِ وَالزُّورِ مِنَ الْقَوْلِ!.

٢٠٥- ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ يَعْنِي: وَإِذَا أَدْبَرَ هَذَا الْمُنَافِقُ مِنْ عِنْدِكَ – يَا مُحَمَّدُ – مُنْصَرِفًا عَنْكَ، ﴿سَعَى[٣١٤] فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ قَدْ يَدْخُلُ فِي الْإِفْسَادِ: جَمِيعُ الْمَعَاصِي؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَمَلَ بِالْمَعَاصِي إِفْسَادٌ فِي الْأَرْضِ، فَلَمْ يُخَصِّصِ اللهُ وَصْفَهُ بِبَعْضِ مَعَانِي الْإِفْسَادِ دُونَ بَعْضٍ.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْإِفْسَادُ مِنْهُ كَانَ بِمَعْنَى قَطْعِ الطَّرِيقِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ ذَلِكَ.

وَأَيُّ ذَلِكَ كَانَ مِنْهُ؛ فَقَدْ كَانَ إِفْسَادًا فِي الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْهُ لِلَّهِ – عَزَّ وَجَلَّ – مَعْصِيَةٌ.

غَيْرَ أَنَّ الْأَشْبَهَ بِظَاهِرِ التَّنْزِيلِ أَنْ يَكُونَ: كَانَ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ، وَيُخِيفُ السَّبِيلَ.

﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ أَمَّا الْحَرْثُ: فَإِنَّهُ الزَّرْعُ، وَالنَّسْلُ: الْعَقِبُ وَالْوَلَدُ، وَإِهْلَاكُهُ الزَّرْعَ: إِحْرَاقُهُ.

﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ يَعْنِي: وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمَعَاصِيَ، وَقَطْعَ السَّبِيلِ، وَإِخَافَةَ الطَّرِيقِ.

٢٠٦- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ يَعْنِي: وَإِذَا قِيلَ لِهَذَا الْمُنَافِقِ – الَّذِي نَعَتَ نَعْتَهُ لِنَبِيِّهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ يُعْجِبُهُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا –: اتَّقِ اللهَ وَخَفْهُ فِي إِفْسَادِكَ فِي أَرْضِ اللهِ، وَسَعْيِكَ فِيهَا بِمَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْكَ مِنْ مَعَاصِيهِ، وَإِهْلَاكِكَ حُرُوثَ الْمُسْلِمِينَ وَنَسْلِهِمْ؛ اسْتَكْبَرَ وَدَخَلَتْهُ عِزَّةٌ وَحَمِيَّةٌ بِمَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ، وَتَمَادَى فِي غَيِّهِ وَضَلَالِهِ!!.

قَالَ اللهُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ –: فَكَفَاهُ عُقُوبَةً مِنْ غَيِّهِ وَضَلَالِهِ، صِلِيُّ نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ لِصَالِيهَا!!.

٢٠٧- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ يَعْنِي: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبِيعُ نَفْسَهُ بِمَا وَعَدَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ وَابْتَاعَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي: أَنَّ هَذَا الشَّارِيَ يَشْرِي إِذَا اشْتَرَى طَلَبَ مَرْضَاةِ اللهِ.

---

[٣١٤] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَالسَّعْيُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْعَمَلُ، يُقَالُ مِنْهُ: فُلَانٌ يَسْعَى عَلَى أَهْلِهِ، يَعْنِي بِهِ: يَعْمَلُ فِيمَا يَعُودُ عَلَيْهِمْ نَفْعُهُ.

﴿وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾الرَّأْفَةُ: رِقَّةُ الرَّحْمَةِ.

فَمَعْنَى ذَلِكَ: وَاللهُ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ بِعَبْدِهِ الَّذِي يَشْرِي نَفْسَهُ لَهُ فِي جِهَادِ مَنْ حَادَّهُ فِي أَمْرِهِ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالْفُسُوقِ وَبِغَيْرِهِ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي عَاجِلِهِمْ وَآجِلِ مَعَادِهِمْ، فَيُنْجِزُ لَهُمُ الثَّوَابَ عَلَى مَا أَبْلَوْا فِي طَاعَتِهِ فِي الدُّنْيَا، وَيُسْكِنُهُمْ جَنَّاتَهُ عَلَى مَا عَمِلُوا فِيهَا مِنْ مَرْضَاتِهِ.

٢٠٨- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً[٣١٥]﴾ الصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي، أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – أَمَرَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالدُّخُولِ فِي الْعَمَلِ بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ كُلِّهَا، وَقَدْ يَدْخُلُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا: الْمُصَدِّقُونَ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَبِمَا جَاءَ بِهِ، وَالْمُصَدِّقُونَ بِمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَمَا جَاءُوا بِهِ، وَقَدْ دَعَا اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – كِلَا الْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْعَمَلِ بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَحُدُودِهِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى فَرَائِضِهِ الَّتِي فَرَضَهَا، وَنَهَاهُمْ عَنْ تَضْيِيعِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَالْآيَةُ عَامَّةٌ لِكُلِّ مَنْ شَمِلَهُ اسْمُ الْإِيمَانِ.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾يَعْنِي: اعْمَلُوا – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ كُلِّهَا، وَادْخُلُوا فِي التَّصْدِيقِ بِهِ قَوْلًا وَعَمَلًا، وَدَعُوا طَرَائِقَ الشَّيْطَانِ وَآثَارَهُ أَنْ تَتَّبِعُوهَا؛ فَإِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ لَكُمْ عَدَاوَتَهُ.

وَطَرِيقُ الشَّيْطَانِ – الَّذِي نَهَاهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ –: هُوَ مَا خَالَفَ حُكْمَ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعَهُ.

٢٠٩- ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾يَعْنِي: فَإِنْ أَخْطَأْتُمُ الْحَقَّ، فَضَلَلْتُمْ عَنْهُ، وَخَالَفْتُمُ الْإِسْلَامَ وَشَرَائِعَهُ، مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ حُجَجِي وَبَيِّنَاتُ هُدَايَ، وَاتَّضَحَتْ لَكُمْ صِحَّةُ أَمْرِ الْإِسْلَامِ بِالْأَدِلَّةِ الَّتِي قَطَعَتْ عُذْرَكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ –؛ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ ذُو عِزَّةٍ، لَا يَمْنَعُهُ مِنَ الِانْتِقَامِ مِنْكُمْ مَانِعٌ، وَلَا يَدْفَعُهُ عَنْ عُقُوبَتِكُمْ عَلَى مُخَالَفَتِكُمْ أَمْرَهُ وَمَعْصِيَتِكُمْ إِيَّاهُ دَافِعٌ! حَكِيمٌ فِيمَا يَفْعَلُ بِكُمْ مِنْ عُقُوبَتِهِ عَلَى مَعْصِيَتِكُمْ إِيَّاهُ، بَعْدَ إِقَامَتِهِ الْحُجَّةَ عَلَيْكُمْ، وَفِي غَيْرِهِ مِنْ أُمُورِهِ.

---

[٣١٥] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: يَعْنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ ﴿كَافَّةً﴾: عَامَّةً جَمِيعًا.

٢١٠- ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ[٣١٦] وَالْمَلَائِكَةُ﴾يَعْنِي: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ، وَتَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ.

فَمَعْنَى الْكَلَامِ إِذًا: هَلْ يَنْظُرُ التَّارِكُونَ الدُّخُولَ فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَالْمُتَّبِعُونَ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ، فَيَقْضِي فِي أَمْرِهِمْ مَا هُوَ قَاضٍ.

---

[٣١٦] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ قِيَامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً، شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، يَنْتَظِرُونَ فَصْلَ الْقَضَاءِ، وَيَنْزِلُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْكُرْسِيِّ ...**» [صحيح: أخرجه الدارقطني في رؤية الله، وابن منده في التوحيد، والطبراني في الكبير، وعبد الله بن أحمد في السنة؛ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٣٥٩١)، ومختصر العلو(٦٩)].

وَإِتْيَانُ اللهِ – تَعَالَى – إِتْيَانٌ حَقِيقِيٌّ يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، لَا تُعْلَمُ كَيْفِيَّتُهُ، وَلَا يُسْأَلُ عَنْهَا – كَسَائِرِ صِفَاتِهِ –؛ قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ – رَحِمَهُ اللهُ – وَقَدْ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ كَيْفَ اسْتَوَى؟ فقال: الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ!.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ – قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ – فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى: وَمَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا: أَنْ يُوصَفَ اللهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ؛ وَلَا تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

فَلَا يَجُوزُ نَفْيُ صِفَاتِ اللهِ – تَعَالَى – الَّتِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ؛ وَلَا يَجُوزُ تَمْثِيلُهَا بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ؛ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ: لَا فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ.

وَقَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الْخُزَاعِيُّ: مَنْ شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِهِ؛ فَقَدْ كَفَرَ! وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ؛ فَقَدْ كَفَرَ! وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَرَسُولُهُ تَشْبِيهًا. وَمَذْهَبُ السَّلَفِ بَيْنَ مَذْهَبَيْنِ، وَهُدًى بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ: إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ، وَنَفْيُ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾؛ رَدٌّ عَلَى أَهْلِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ، وَقَوْلُهُ: ﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾؛ رَدٌّ عَلَى أَهْلِ النَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ، فَالْمُمَثِّلُ: أَعْشَى! وَالْمُعَطِّلُ: أَعْمَى! الْمُمَثِّلُ: يَعْبُدُ صَنَمًا! وَالْمُعَطِّلُ: يَعْبُدُ عَدَمًا!! اهـ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ الْمُعَلِّمِيُّ فِي التَّنْكِيلِ: وَعِنْدَ هَؤُلَاءِ الْمَخَانِيثِ! فُرُوخِ الْمُعَطِّلَةِ والْجَهْمِيَّةِ: أَنَّ وَصْفَ اللهِ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ؛ تَشْبِيهٌ وَتَجْسِيمٌ وَتَجْسِيدٌ!! وَيَضْرِبُونَ لِذَلِكَ الْأَمْثَال مُخَالِفِينَ قَوْله تَعَالَى: ﴿**فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ وَإِذَا سُئِلُوا: هَلْ تُؤْمِنُونَ أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَخَالِق الْخَلْقِ مَوْجُودٌ حَيٌّ عَلِيمٌ قَادِرٌ مُرِيدٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ؟ فَيَقُولُ مَنْ لَمْ يُكَابِرْ مِنْهُمْ: نَعَمْ! فَإِذَا سُئِلَ: عَنِ الْمَجِيءِ لِفَصْلِ الْحِسَابِ، وَإِشْرَاقِ الْأَرْضِ بِنُورِ رَبِّهَا، وَإِتْيَانِهِ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ، وَنُزُولِهِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَنِدَائِهِ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ، إِلَى آخِرِ مَا جَاءَ فِي النُّصُوصِ؛ امْتَعَضَ وَانْتَفَضَ! وَقَالَ: هَذِهِ صِفَاتُ الْمَخْلُوقَاتِ! وَتَدُلُّ عَلَى التَّجْسِيمِ! فَيَجِبُ أَنْ نُنَزِّهَ الْخَالِقَ عَنْهَا بِزَعْمِهِمْ!!.

فَإِذَا قِيلَ لَهُ: وَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ؛ وَبَيْنَ هَذِهِ؟! أَلَيْسَتْ كُلُّهَا مَوْجُودَة فِي الْمَخْلُوقَاتِ وَنَصِف بِهَا الْخَالِق عَلَى وَجْهٍ لَا يُشْبِهُ وَصْفَ الْمَخْلُوقَاتِ؟ فَنَقُولُ: حَيَاتُهُ غَيْر حَيَاةِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَكَذَلِكَ عِلْمُهُ، وَسَمْعُهُ، وَبَصَرُهُ؛ وَكَذَلِكَ مَجِيئُهُ، وَنُزُولُهُ. فَنَصِفُهُ بِالْكَمَالِ، وَنُنَزِّهُهُ عَنْ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقَاتِ بِهَا، فَلِمَاذَا لَا تَقُولُ فِيمَا أَنْكَرْتَ مِنَ النُّصُوصِ كَمَا قُلْتَ فِيمَا اعْتَرَفْتَ بِهِ مِنْهَا؟!!

وَالْكُلُّ مِنْ وَادٍ وَاحِدٍ، وَمِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ: نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ وَأَحَادِيثُ نَبَوِيَّةٌ، كُلُّهَا نُورٌ وَإِيمَانٌ، وَالتَّنْزِيهُ فِي الْجَمِيعِ حَتْمٌ لَا بُدَّ مِنْهُ، وَالْإِقْرَارُ فِي الْجَمِيعِ وَاحِدٌ، وَنَفْيُ مُشَابَهَةِ صِفَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ بِصِفَاتِ الْخَالِقِ؛ إِيمَانٌ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ.

وَإِذَا طُولِبَ الْمُفَرِّقُونَ بِفُرْقَانٍ بَيِّنٍ، وَسُئِلُوا عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ مَا قَبِلُوا وَمَا رَفَضُوا؛ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ إِلَّا تَقْلِيدُ الْجَعْدِ وَالْجَهْمِ وَبِشْرٍ الْمَرِيسِيِّ!! اهـ.

﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾يَعْنِي: وَفُصِلَ الْقَضَاءُ بِالْعَدْلِ بَيْنَ الْخَلْقِ، عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ قَبْلُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: مِنْ أَخْذِ الْحَقِّ لِكُلِّ مَظْلُومٍ مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ، حَتَّى الْقِصَاص لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ مِنَ الْبَهَائِمِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: وَإِلَى اللهِ يَئُولُ الْقَضَاءُ بَيْنَ خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْحُكْمُ بَيْنَهُمْ فِي أُمُورِهِمُ الَّتِي جَرَتْ فِي الدُّنْيَا مِنْ ظُلْمِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَاعْتِدَاءِ الْمُعْتَدِي مِنْهُمْ حُدُودَ اللهِ، وَخِلَافِ أَمْرِهِ، وَإِحْسَانِ الْمُحْسِنِ مِنْهُمْ، وَطَاعَتِهِ إِيَّاهُ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ، فَيَفْصِلُ بَيْنَ الْمُتَظَالِمِيْنِ، وَيُجَازِي أَهْلَ الْإِحْسَانِ بِالْإِحْسَانِ، وَأَهْلَ الْإِسَاءَةِ بِمَا رَأَى، وَيَتَفَضَّلُ عَلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ كَافِرًا فَيَعْفُو.

٢١١– ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾يَعْنِي: سَلْ يَا مُحَمَّدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ لَا يَنْتَظِرُونَ – بِالْإِنَابَةِ إِلَى طَاعَتِي، وَالتَّوْبَةِ إِلَيَّ بِالْإِقْرَارِ بِنُبُوَّتِكَ وَتَصْدِيقِكَ فِيمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِي – إِلَّا أَنْ آتِيَهُمْ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَمَلَائِكَتِي، فَأَفْصِلُ الْقَضَاءِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَنْ آمَنَ بِكَ وَصَدَّقَكَ بِمَا أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ مِنْ كُتُبِي، وَفَرَضْتُ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ مِنْ شَرَائِعِ دِينِي، وَبَيْنَهُمْ، كَمْ جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ آيَةٍ وَعَلَامَةٍ، عَلَى مَا فَرَضْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ فَرَائِضِي، فَأَمَرْتُهُمْ بِهِ مِنْ طَاعَتِي، وَتَابَعْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ حُجَجِي عَلَى أَيْدِي أَنْبِيَائِي وَرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ، مُؤَيِّدَةً لَهُمْ عَلَى صِدْقِهِمْ، بَيِّنَةً أَنَّهَا مِنْ عِنْدِي، وَاضِحَةً أَنَّهَا مِنْ أَدِلَّتِي عَلَى صِدْقِ نُذُرِي وَرُسُلِي فِيمَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ تَصْدِيقِهِمْ وَتَصْدِيقِكَ؛ فَكَفَرُوا حُجَجِي، وَكَذَّبُوا رُسُلِي، وَغَيَّرُوا نِعَمِي قِبَلَهُمْ، وَبَدَّلُوا عَهْدِي وَوَصِيَّتِي إِلَيْهِمْ!!.

﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾يَعْنِي: وَمَنْ يُغَيِّرْ مَا عَاهَدَ اللهَ فِي نِعْمَتِهِ الَّتِي هِيَ الْإِسْلَامُ، مِنَ الْعَمَلِ وَالدُّخُولِ فِيهِ فَيَكْفُرُ بِهِ؛ فَإِنَّهُ مُعَاقِبُهُ بِمَا أَوْعَدَ عَلَى الْكُفْرِ بِهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَاللهُ شَدِيدٌ عِقَابُهُ، أَلِيمٌ عَذَابُهُ!.

٢١٢– ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يَعْنِي: زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا حُبُّ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةِ اللَّذَّاتِ، فَهُمْ يَبْتَغُونَ فِيهَا الْمُكَاثَرَةِ وَالْمُفَاخَرَةِ، وَيَطْلُبُونَ فِيهَا الرِّيَاسَاتِ وَالْمُبَاهَاة، وَيَسْتَكْبِرُونَ عَنِ اتِّبَاعِكَ يَا مُحَمَّدُ، وَالْإِقْرَارِ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ عِنْدِي،

تَعَظُّمًا مِنْهُمْ عَلَى مَنْ صَدَّقَكَ وَاتَّبَعَكَ، وَيَسْخَرُونَ بِمَنْ تَبِعَكَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَالتَّصْدِيقِ بِكَ، فِي تَرْكِهِمُ الْمُكَاثَرَةِ وَالْمُفَاخَرَةِ بِالدُّنْيَا وَزِينَتِهَا مِنَ الرِّيَاشِ وَالْأَمْوَالِ، بِطَلَبِ الرِّيَاسَاتِ وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى طَلَبِهِمْ مَا عِنْدِي بِرَفْضِ الدُّنْيَا وَتَرْكِ زِينَتِهَا، وَالَّذِينَ عَمِلُوا لِي وَأَقْبَلُوا عَلَى طَاعَتِي، وَرَفَضُوا لَذَّاتِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا، اتِّبَاعًا لَكَ، وَطَلَبًا لِمَا عِنْدِي، وَاتِّقَاءً مِنْهُمْ بِأَدَاءِ فَرَائِضِي، وَتَجَنُّبِ مَعَاصِيَّ، فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ بِإِدْخَالِ الْمُتَّقِينَ الْجَنَّةَ، وَإِدْخَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا النَّارَ!.

﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾يَعْنِي: وَاللهُ يُعْطِي الَّذِينَ اتَّقَوْا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نِعَمِهِ وَكَرَامَاتِهِ وَجَزِيلِ عَطَايَاهُ، بِغَيْرِ مُحَاسَبَةٍ مِنْهُ لَهُمْ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ كَرَامَتِهِ.

١١٣- ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً[٣١٧]﴾عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ وَمِلَّةٍ وَاحِدَةٍ؛ كَمَا حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ هَارُونَ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ حَمَّادٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَسْبَاطٌ، عَنِ السُّدِّيِّ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾يَقُولُ: دِينًا وَاحِدًا عَلَى دِيْنِ آدَمَ، فَاخْتَلَفُوا، ﴿فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.

وَكَانَ الدِّينُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ دَيْنَ الْحَقِّ.

﴿فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ﴾يَعْنِي: أَنَّهُ أَرْسَلَ رُسُلًا يُبَشِّرُونَ مَنْ أَطَاعَ اللهَ بِجَزِيلِ الثَّوَابِ، وَكَرِيمِ الْمَآبِ، ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾يَعْنِي: يُنْذِرُونَ مَنْ عَصَى اللهَ فَكَفَرَ بِهِ، بِشِدَّةِ الْعِقَابِ، وَسُوءِ الْحِسَابِ، وَالْخُلُودِ فِي النَّارِ! ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾يَعْنِي بِذَلِكَ: لِيَحْكُمَ الْكِتَابَ - وَهُوَ التَّوْرَاةُ - بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفَ الْمُخْتَلِفُونَ فِيهِ.

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾يَعْنِي: وَمَا اخْتَلَفَ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ - وَهُوَ التَّوْرَاةُ - ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: الْيَهُودَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُمُ الَّذِينَ أُوتُوا التَّوْرَاةَ وَالْعِلْمَ بِهَا.

---

[٣١٧] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، قَالَ: «**كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشَرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، فَاخْتَلَفُوا، [فَلَمَّا اخْتَلَفُوا بَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ]مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ[وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ فَكَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً]**». قَالَ: وَكَذَلِكَ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللهِ: «**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا**» [صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة، تحت الحديث (٣٢٨٩)].

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾يَعْنِي: مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ حِجَجُ اللهِ وَأَدِلَّتُهُ أَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَفِي أَحْكَامِهِ عِنْدَ اللهِ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَسَعُهُمُ الِاخْتِلَافُ فِيهِ، وَلَا الْعَمَلُ بِخِلَافِ مَا فِيهِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ – جَلَّ ذِكْرُهُ – أَنَّ تَعَمُّدَهُمُ الْخَطِيئَةَ الَّتِي أَتَوْهَا، وَرُكُوبهمُ الْمَعْصِيَةَ الَّتِي رَكِبُوهَا مِنْ خِلَافِهِمْ أَمْرَهُ؛ إِنَّمَا كَانَ مِنْهُمْ ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.

فَمَعْنَى قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ يَقُولُ: لَمْ يَكُنِ اخْتِلَافُ هَؤُلَاءِ الْمُخْتَلِفِينَ مِنَ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي كِتَابِي الَّذِي أَنْزَلْتُهُ مَعَ نَبِيِّ عَنْ جَهْلٍ مِنْهُمْ بِهِ، بَلْ كَانَ اخْتِلَافُهُمْ فِيهِ، وَخِلَافُ حُكْمِهِ، مِنْ بَعْدِ مَا ثَبَتَتْ حُجَّتُهُ عَلَيْهِمْ، بَغْيًا بَيْنَهُمْ، طَلَبَ الرِّيَاسَةِ مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَاسْتِذْلَالًا مِنْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ.

﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾يَعْنِي: فَوَفَّقَ اللهُ الَّذِي آمَنُوا – وَهُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْمُصَدِّقِينَ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ – لِمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ فِيهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿بِإِذْنِهِ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: بِعِلْمِهِ بِمَا هَدَاهُمْ لَهُ.

﴿وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[٣١٨]﴾يَعْنِي: وَاللهُ يُسَدِّدُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ وَيُرْشِدُهُ إِلَى الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ، كَمَا هَدَى الَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، لِمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ فِيهِ بَغْيًا بَيْنَهُمْ، فَسَدَّدَهُمْ لِإِصَابَةِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ فِيهِ.

---

[٣١٨] عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ – أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ –: بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ، قَالَ: «**اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة؛ وغيرهم].

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الصَّوَاعِقِ الْمُرْسَلَةِ: فَمَنْ هَدَاهُ اللهُ – سُبْحَانَهُ – إِلَى الْأَخْذِ بِالْحَقِّ حَيْثُ كَانَ وَمَعَ مَنْ كَانَ، وَلَوْ كَانَ مَعَ مَنْ يُبْغِضُهُ وَيُعَادِيهِ، وَرَدَّ الْبَاطِلَ مَعَ مَنْ كَانَ، وَلَوْ كَانَ مَعَ مَنْ يُحِبُّهُ وَيُوَالِيهِ؛ فَهُوَ مِمَّنْ هُدِيَ لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْبَيَانُ الْوَاضِحُ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ أَهْلُ الْحَقِّ: مِنْ أَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ عَلَى الْعِبَادِ فِي دِينِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ؛ فَمِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –.

١١٤– ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾يَعْنِي: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ – تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَلَمْ يُصِبْكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ وَالِاخْتِبَارِ، فَتُبْتَلُوا بِمَا ابْتُلُوا وَاخْتُبِرُوا بِهِ مِنَ الْبَأْسَاءِ – وَهُوَ شِدَّةُ الْحَاجَةِ وَالْفَاقَةِ –، وَالضَّرَّاءِ – وَهِيَ الْعِلَلُ وَالْأَوْصَابُ[٣١٩] –، وَلَمْ تُزَلْزَلُوا زِلْزَالَهُمْ، يَعْنِي: وَلَمْ يُصِبْهُمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ مِنَ الْخَوْفِ وَالرُّعْبِ شِدَّةٌ وَجَهْدٌ حَتَّى يَسْتَبْطِئَ الْقَوْمُ نَصْرَ اللهِ إِيَّاهُمْ، فَيَقُولُونَ: مَتَى اللهُ نَاصِرُنَا؟

ثُمَّ أَخْبَرَهُمُ اللهُ أَنَّ نَصْرَهُ مِنْهُمْ قَرِيبٌ، وَأَنَّهُ مُعْلِيهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَمُظْهِرُهُمْ عَلَيْهِ، فَنَجَّزَ لَهُمْ مَا وَعَدَهُمْ، وَأَعْلَى كَلِمَتَهُمْ، وَأَطْفَأَ نَارَ حَرْبِ الَّذِينَ كَفَرُوا.

١١٥– ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾يَعْنِي: يَسْأَلُكَ أَصْحَابُكَ – يَا مُحَمَّدُ – أَيُّ شَيْءٍ يُنْفِقُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَيَتَصَدَّقُونَ بِهِ، وَعَلَى مَنْ يُنْفِقُونَهُ فِيمَا يُنْفِقُونَهُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِهِ؟

فَقُلْ لَهُمْ: مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَتَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَأَنْفِقُوهُ وَتَصَدَّقُوا بِهِ وَاجْعَلُوهُ لِآبَائِكُمْ وَأُمَّهَاتِكُمْ وَأَقْرَبِيكُمْ، وَلِلْيَتَامَى مِنْكُمْ[٣٢٠]، وَالْمَسَاكِينِ[٣٢١]، وَابْنِ السَّبِيلِ[٣٢٢]، فَإِنَّكُمْ مَا تَأْتُوا مِنْ خَيْرٍ وَتَصْنَعُوهُ إِلَيْهِمْ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ، وَهُوَ مُحْصِيهِ لَكُمْ حَتَّى يُوَفِّيَكُمْ أُجُورَكُمْ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُثِيبَكُمْ عَلَى مَا أَطْعَمْتُمُوهُ بِإِحْسَانِكُمْ عَلَيْهِ.

---

[٣١٩] (**الْوَصَبُ**): الْوَجَعُ [المصباح المنير].

[٣٢٠] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْيَتِيمُ فِي بَنِي آدَمَ: مِنَ الْآبَاءِ، وَفِي الْبَهَائِمِ: مِنَ الْأُمِّ، وَحَكَى الْمَاوَرْدِيُّ أَنَّ الْيَتِيمَ أُطْلِقَ فِي بَنِي آدَمَ مِنَ الْأُمِّ أَيْضًا..

[٣٢١] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ:** الْمَسَاكِينُ: جَمْعُ مِسْكِينٍ؛ وَهُوَ مَنْ أَسْكَنَتْهُ الْحَاجَةُ وَذَلَّلَتْهُ، وَهُوَ أَشَدُّ فَقْرًا مِنَ الْفَقِيرِ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ اللُّغَةِ وَكَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْفِقْهِ. وَرُوِيَ عَنِ الشَّافِعِيِّ: أَنَّ الْفَقِيرَ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْمِسْكِينِ.

[٣٢٢] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** ﴿**وَابْنَ السَّبِيلِ**﴾ وَهُوَ: الْمُسَافِرُ الْمُجْتَازُ الذِي قَدْ فَرَغَتْ نَفَقَتُهُ، فَيُعْطَى مَا يُوصِلُهُ إِلَى بَلَدِهِ، وَكَذَا الذِي يُرِيدُ سَفَرًا فِي طَاعَةٍ، فَيُعْطَى مَا يَكْفِيهِ فِي ذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْمُسَافِرِ (ابْنُ السَّبِيلِ): لِمُلَازَمَتِهِ الطَّرِيقَ، وَالطَّرِيقُ: هُوَ السَّبِيلُ، فَقِيلَ لِمُلَازَمَتِهِ إِيَّاهُ فِي سَفَرِهِ ابْنُهُ، كَمَا يُقَالُ لِطَيْرِ الْمَاءِ: ابْنُ الْمَاءِ؛ لِمُلَازَمَتِهِ إِيَّاهُ، وَلِلرَّجُلِ الَّذِي أَتَتْ عَلَيْهِ الدُّهُورُ: ابْنُ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي وَالْأَزْمِنَةِ.

وَالْخَيْرُ الَّذِي قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾: هُوَ الْمَالُ.

٢١٦- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾يَعْنِي: فُرِضَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ، يَعْنِي: قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ، ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ[٣٢٣]﴾يَعْنِي: وَهُوَ ذُو كُرْهٍ لَكُمْ، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾يَعْنِي: وَلَا تَكْرَهُوا الْقِتَالَ، فَإِنَّكُمْ لَعَلَّكُمْ أَنْ تَكْرَهُوهُ وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَلَا تُحِبُّوا تَرْكَ الْجِهَادِ، فَلَعَلَّكُمْ أَنْ تُحِبُّوهُ وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ.

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾يَعْنِي: وَاللهُ يَعْلَمُ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، مِمَّا هُوَ شَرٌّ لَكُمْ، فَلَا تَكْرَهُوا مَا كَتَبْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ جِهَادِ عَدُوِّكُمْ، وَقِتَالِ مِنْ أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالِهِ، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ قِتَالَكُمْ إِيَّاهُمْ، هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ فِي عَاجِلِكُمْ وَمَعَادِكُمْ، وَتَرْكِكُمْ قِتَالَهُمْ شَرٌّ لَكُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مِنْ ذَلِكَ مَا أَعْلَمُ؛ يَحُضُّهُمْ – جَلَّ ذِكْرُهُ – بِذَلِكَ عَلَى جِهَادِ أَعْدَائِهِ، وَيُرَغِّبُهُمْ فِي قِتَالِ مَنْ كَفَرَ بِهِ.

٢١٧- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾يَعْنِي: يَسْأَلُكَ يَا مُحَمَّدُ أَصْحَابُكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ – وَذَلِكَ رَجَبٌ – عَنْ قِتَالٍ فِيهِ، ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ: ﴿قِتَالٌ فِيهِ﴾يَعْنِي: فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴿كَبِيرٌ﴾ أَيْ: عَظِيمٌ عِنْدَ اللهِ اسْتِحْلَالُهُ، وَسَفْكُ الدِّمَاءِ فِيهِ.وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿قِتَالٌ فِيهِ﴾: قُلِ الْقِتَالُ فِيهِ كَبِيرٌ.[٣٢٤]

وَقَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾وَمَعْنَى الصَّدِّ عَنِ الشَّيْءِ: الْمَنْعُ مِنْهُ، وَالدَّفْعُ عَنْهُ، وَمِنْهُ قِيلَ: صَدَّ فُلَانٌ بِوَجْهِهِ عَنْ فُلَانٍ: إِذَا أَعْرَضَ عَنْهُ فَمَنَعَهُ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾يَعْنِي: وَكُفْرٌ بِاللهِ. وَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وَكُفْرٌ بِهِ، وَعَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِخْرَاجِ أَهْلِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ – وَهُمْ أَهْلُهُ وَوُلَاتُهُ –﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ﴾مِنَ الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ. ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾يَعْنِي: الشِّرْكُ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ.

---

[٣٢٣] **قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَإِنَّمَا كَانَ الْجِهَادُ كُرْهًا؛ لِأَنَّ فِيهِ إِخْرَاجَ الْمَالِ، وَمُفَارَقَةَ الْوَطَنِ وَالْأَهْلِ، وَالتَّعَرُّضَ بِالْجَسَدِ لِلشِّجَاجِ وَالْجِرَاحِ وَقَطْعِ الْأَطْرَافِ وَذَهَابِ النَّفْسِ! فَكَانَتْ كَرَاهِيَتُهُمْ لِذَلِكَ؛ لَا أَنَّهُمْ كَرِهُوا فَرْضَ اللهِ – تَعَالَى –.

[٣٢٤] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ لَا تَقْرَعُ فِيهِ الْأَسِنَّةَ، فَيَلْقَى الرَّجُلُ قَاتِلَ أَبِيهِ أَوِ أَخِيهِ فِيهِ فَلَا يَهِيجُهُ تَعْظِيمًا لَهُ! وَتُسَمِّيهِ مُضَرُ (الْأَصَمَّ)؛ لِسُكُونِ أَصْوَاتِ السِّلَاحِ وَقَعْقَعَتِهِ فِيهِ.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾يَعْنِي: وَلَا يَزَالُ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ.

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾يَعْنِي: مَنْ يَرْجِعْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ، يَقُولُ: مِنْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ دَيْنِ الْإِسْلَامِ، ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾فَيَمُتْ قَبْلَ أَنْ يَتُوبَ مِنْ كُفْرِهِ؛ ﴿فَأُولَئِكَ﴾يَعْنِي: فَهُمُ الَّذِينَ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾يَعْنِي: بَطَلَتْ وَذَهَبَتْ.

﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾يَعْنِي: الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَنْ دِينَهُمْ فَمَاتُوا عَلَى كُفْرِهِمْ، هُمْ أَهْلُ النَّارِ الْمُخَلَّدُونَ فِيهَا.

وَإِنَّمَا جَعَلَهُمْ أَهْلَهَا؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا، فَهُمْ سُكَّانُهَا الْمُقِيمُونَ فِيهَا، كَمَا يُقَالُ: هَؤُلَاءِ أَهْلُ مَحَلَّةِ كَذَا؛ يَعْنِي: سُكَّانَهَا الْمُقِيمُونَ فِيهَا.

وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: هُمْ فِيهَا لَابِثُونَ لَبْثًا، مِنْ غَيْرِ أَمَدٍ وَلَا نِهَايَةٍ.

٢١٨- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾يَعْنِي: إِنَّ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ، ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا[٣٢٥]﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ هَجَرُوا مُسَاكَنَةَ الْمُشْرِكِينَ فِي أَمْصَارِهِمْ، وَمُجَاوَرَتَهُمْ فِي دِيَارِهِمْ، فَتَحَوَّلُوا عَنْهُمْ وَعَنْ جِوَارِهِمْ وَبِلَادِهِمْ إِلَى غَيْرِهَا.

---

٣٢٥ **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي زَادِ الْمَعَادِ:** وَلَا يَتِمُّ الْجِهَادُ إِلَّا بِالْهِجْرَةِ، وَلَا الْهِجْرَةُ وَالْجِهَادُ إِلَّا بِالْإِيمَانِ، وَالرَّاجُونَ رَحْمَةَ اللهِ هُمُ الَّذِينَ قَامُوا بِهَذِهِ الثَّلَاثَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ وَكَمَا أَنَّ الْإِيمَانَ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ؛ فَفَرْضٌ عَلَيْهِ هِجْرَتَانِ فِي كُلِّ وَقْتٍ: هِجْرَةٌ إِلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِالتَّوْحِيدِ، وَالْإِخْلَاصِ، وَالْإِنَابَةِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَالْخَوْفِ، وَالرَّجَاءِ، وَالْمَحَبَّةِ، وَالتَّوْبَةِ؛ وَهِجْرَةٌ إِلَى رَسُولِهِ بِالْمُتَابَعَةِ، وَالِانْقِيَادِ لِأَمْرِهِ، وَالتَّصْدِيقِ بِخَبَرِهِ، وَتَقْدِيمِ أَمْرِهِ وَخَبَرِهِ عَلَى أَمْرِ غَيْرِهِ وَخَبَرِهِ: «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ؛ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا؛ فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**» اهـ.

﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ[٣٢٦]﴾ يَعْنِي: وَقَاتَلُوا وَحَارَبُوا.

وَأَمَّا سَبِيلُ اللهِ: فَطَرِيقُهُ وَدِينُهُ.

فَمَعْنَى قَوْلِهِ إِذًا: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ وَالَّذِينَ تَحَوَّلُوا مِنْ سُلْطَانِ أَهْلِ الشِّرْكِ هِجْرَةً لَهُمْ، وَخَوْفَ فِتْنَتِهِمْ عَلَى أَدْيَانِهِمْ، وَحَارَبُوهُمْ فِي دَيْنِ اللهِ لِيُدْخِلُوهُمْ فِيهِ وَفِيمَا يُرْضِي اللهَ ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ﴾ أَيْ: يَطْمَعُونَ أَنْ يَرْحَمَهُمُ اللهُ فَيُدْخِلَهُمْ جَنَّتَهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ.

﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيْ: سَاتِرٌ ذُنُوبَ عِبَادِهِ بِعَفْوِهِ عَنْهَا، مُتَفَضِّلٌ عَلَيْهِمْ بِالرَّحْمَةِ.

٢١٩ - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ[٣٢٧] وَالْمَيْسِرِ﴾ يَعْنِي: يَسْأَلُكَ أَصْحَابُكَ يَا مُحَمَّدُ عَنِ الْخَمْرِ وَشُرْبِهَا.

---

[٣٢٦] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي زَادِ الْمَعَادِ: الْجِهَادُ أَرْبَعُ مَرَاتِب:** جِهَادُ النَّفْسِ، وَجِهَادُ الشَّيْطَانِ، وَجِهَادُ الْكُفَّارِ، وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ.

فَجِهَادُ النَّفْسِ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ أَيْضًا:

إِحْدَاهَا: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى تَعَلُّمِ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ الَّذِي لَا فَلَاحَ لَهَا وَلَا سَعَادَةَ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إِلَّا بِهِ، وَمَتَى فَاتَهَا عِلْمُهُ؛ شَقِيَتْ فِي الدَّارَيْنِ!.

الثَّانِيَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الْعَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَإِلَّا: فَمُجَرَّدُ الْعِلْمِ بِلَا عَمَلٍ؛ إِنْ لَمْ يَضُرَّهَا لَمْ يَنْفَعْهَا!.

الثَّالِثَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَتَعْلِيمِهِ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ، وَإِلَّا كَانَ مِنَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ، وَلَا يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ، وَلَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ!.

الرَّابِعَةُ: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ وَأَذَى الْخَلْقِ، وَيَتَحَمَّلُ ذَلِكَ كُلَّهُ لِلَّهِ.

فَإِذَا اسْتَكْمَلَ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ؛ صَارَ مِنَ الرَّبَّانِيِّينَ، فَإِنَّ السَّلَفَ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ الْعَالِمَ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى رَبَّانِيًّا حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ وَيَعْمَلَ بِهِ وَيُعَلِّمَهُ، فَمَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ؛ فَذَاكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ!.

وَأَمَّا جِهَادُ الشَّيْطَانِ فَمَرْتَبَتَانِ، إِحْدَاهُمَا: جِهَادُهُ عَلَى دَفْعِ مَا يُلْقِي إِلَى الْعَبْدِ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكِ الْقَادِحَةِ فِي الْإِيمَانِ.

الثَّانِيَةُ: جِهَادُهُ عَلَى دَفْعِ مَا يُلْقِي إِلَيْهِ مِنَ الْإِرَادَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالشَّهَوَاتِ، فَالْجِهَادُ الْأَوَّلُ: يَكُونُ بَعْدَهُ الْيَقِينُ، وَالثَّانِي: يَكُونُ بَعْدَهُ الصَّبْرُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ إِمَامَةَ الدِّينِ إِنَّمَا تُنَالُ بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ.

فَالصَّبْرُ: يَدْفَعُ الشَّهَوَاتِ وَالْإِرَادَاتِ الْفَاسِدَةَ، وَالْيَقِينُ: يَدْفَعُ الشُّكُوكَ وَالشُّبُهَاتِ.

وَأَمَّا جِهَادُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ؛ فَأَرْبَعُ مَرَاتِب: بِالْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْمَالِ، وَالنَّفْسِ، وَجِهَادُ الْكُفَّارِ أَخَصُّ بِالْيَدِ، وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ أَخَصُّ بِاللِّسَانِ.

وَأَمَّا جِهَادُ أَرْبَابِ الظُّلْمِ وَالْبِدَعِ وَالْمُنْكَرَاتِ؛ فَثَلَاثُ مَرَاتِبَ، الْأُولَى: بِالْيَدِ إِذَا قَدَرَ، فَإِنْ عَجَزَ انْتَقَلَ إِلَى اللِّسَانِ، فَإِنْ عَجَزَ جَاهَدَ بِقَلْبِهِ، **فَهَذِهِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ مَرْتَبَةً مِنَ الْجِهَادِ،** وَ«**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ؛ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ!!**» اهـ.

[٣٢٧] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَالْخَمْرُ: كُلُّ شَرَابٍ خَامَرَ الْعَقْلَ فَسَتَرَهُ وَغَطَّى عَلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: خَمَرْتَ الْإِنَاءَ: إِذَا غَطَّيْتَهُ، وَخَمِرَ الرَّجُلُ: إِذَا دَخَلَ فِي الْخَمْرِ.

وَأَمَّا الْمَيْسِرُ[٣٢٨] فَإِنَّهَا مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: يَسَرَ لِي هَذَا الْأَمْرَ: إِذَا وَجَبَ لِي، فَهُوَ يَيْسِرُ لِي يَسَرًا وَمَيْسِرًا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ[٣٢٩]﴾ يَعْنِي: قُلْ – يَا مُحَمَّدُ – لَهُمْ: ﴿فِيهِمَا﴾ يَعْنِي: فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فَالْإِثْمُ الْكَبِيرُ الَّذِي فِيهِمَا:

فَالْخَمْرُ: زَوَالُ عَقْلِ شَارِبِ الْخَمْرِ إِذَا سَكِرَ مِنْ شُرْبِهِ إِيَّاهَا حَتَّى يَعْزُبَ عَنْهُ مَعْرِفَةُ رَبِّهِ؛ وَذَلِكَ أَعْظَمُ الْآثَامِ!.

وَأَمَّا فِي الْمَيْسِرِ: فَمَا فِيهِ مِنَ الشُّغْلِ بِهِ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، وَعَنِ الصَّلَاةِ، وَوُقُوعِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ الْمُتَيَاسِرِيْن بِسَبَبِهِ، كَمَا وَصَفَ ذَلِكَ بِهِ رَبُّنَا – جَلَّ ثَنَاؤُهُ – بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ فَإِنَّ مَنَافِعَ الْخَمْرِ كَانَتْ أَثْمَانَهَا قَبْلَ تَحْرِيمِهَا، وَمَا يَصِلُونَ إِلَيْهِ بِشُرْبِهَا مِنَ اللَّذَّةِ!.[٣٣٠]

وَأَمَّا مَنَافِعُ الْمَيْسِرِ: فَمَا يُصِيبُونَ فِيهِ مِنْ أَنْصِبَاءِ الْجَزُورِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُيَاسِرُونَ عَلَى الْجَزُورِ، وَإِذَا أَفْلَجَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ صَاحِبَهُ نَحَرَهُ، ثُمَّ اقْتَسَمُوا أَعْشَارًا عَلَى عَدَدِ الْقِدَاحِ.

---

[٣٢٨] (**الْمَيْسِرُ**): القِمَارُ؛ وَهُوَ كُلُّ كَسْبٍ عَنْ طَرِيقِ الْمُخَاطَرَةِ وَالْمُغَالَبَةِ؛ وَضَابِطُهُ: أَنْ يَكُونَ فِيهِ بَيْنَ غَانِمٍ وَغَارِمٍ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ قِمَارٌ فَهُوَ مِنَ الْمَيْسِرِ؛ حَتَّى لَعِبُ الصِّبْيَانِ بِالْجَوْزِ. وَالقِمَارُ: رِهَانٌ قَائِمٌ عَلَى الصّدْفَةِ وَالْحَظِّ بِأَدَوَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، يَأْخُذُ بِمُقْتَضَاهُ الْغَالِبُ مِنَ الْمَغْلُوبِ الْقَدْرَ الْمُتَّفَقَ عَلَيْهِ [لسان العرب- معجم الغني- ابن عثيمين].

[٣٢٩] **قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**قُلْ فِيهِمَا**﴾ يَعْنِي: الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ ﴿**إِثْمٌ كَبِيرٌ**﴾ إِثْمُ الْخَمْرِ: مَا يَصْدُرُ عَنِ الشَّارِبِ مِنَ الْمُخَاصَمَةِ وَالْمُشَاتَمَةِ وَقَوْلِ الْفُحْشِ وَالزُّورِ، وَزَوَالِ الْعَقْلِ الَّذِي يَعْرِفُ بِهِ مَا يَجِبُ لِخَالِقِهِ، وَتَعْطِيلِ الصَّلَوَاتِ وَالتَّعَوُّقِ عَنْ ذِكْرِ اللهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ...ثُمَّ إِنَّ الشَّارِبَ يَصِيرُ ضُحْكَةً لِلْعُقَلَاءِ! فَيَلْعَبُ بِبَوْلِهِ وَعَذِرَتِهِ! وَرُبَّمَا يَمْسَحُ وَجْهَهُ، حَتَّى رُئِيَ بَعْضُهُمْ يَمْسَحُ وَجْهَهُ بِبَوْلِهِ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ(!!)...

وَأَمَّا الْقِمَارُ: فَيُورِثُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ؛ لِأَنَّهُ أَكْلُ مَالِ الْغَيْرِ بِالْبَاطِلِ.

[٣٣٠] **قَالَ الْقَاضِي ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ:** وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمَنْفَعَةَ هِيَ الرِّبْحُ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْلِبُونَهَا مِنَ الشَّامِ بِرُخْصٍ فَيَبِيعُونَهَا فِي الْحِجَازِ بِرِبْحٍ كَثِيرٍ!.

وَأَمَّا اللَّذَّةُ: فَهِيَ مُضِرَّةٌ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ؛ لِأَنَّ مَا تَجْلِبُهُ مِنَ اللَّذَّةِ لَا يَفِي بِمَا تُذْهِبُهُ مِنَ التَّحْصِيلِ وَالْعَقْلِ! حَتَّى إِنَّ الْعَبِيدَ الْأَدْنِيَاءَ وَأَهْلَ النَّقْصِ، كَانُوا يَتَنَزَّهُونَ عَنْ شُرْبِهَا؛ لِمَا فِيهَا مِنْ إِذْهَابِ شَرِيفِ الْعَقْلِ، وَإِعْدَامُهَا فَائِدَةُ التَّحْصِيلِ وَالتَّمْيِيزِ!.

﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا[٣٣١]﴾يَعْنِي: وَالْإِثْمُ بِشُرْبِ الْخَمْرِ هَذِهِ وَالْقِمَارُ هَذَا، أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ مَضَرَّةً عَلَيْهِمْ مِنَ النَّفْعِ الَّذِي يَتَنَاوَلُونَ بِهِمَا.

وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَكِرُوا وَثَبَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَقَاتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَإِذَا يَاسَرُوا وَقَعَ بَيْنَهُمْ فِيهِ بِسَبَبِهِ الشَّرُّ؛ فَأَدَّاهُمْ ذَلِكَ إِلَى مَا يَأْثَمُونَ بِهِ!.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾يَعْنِي: وَيَسْأَلُكَ يَا مُحَمَّدُ أَصْحَابُكَ: أَيُّ شَيْءٍ يُنْفِقُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَيَتَصَدَّقُونَ بِهِ، فَقُلْ لَهُمْ – يَا مُحَمَّدُ –: أَنْفِقُوا مِنْهَا الْعَفْوَ.

مَعْنَى الْعَفْوِ[٣٣٢]: الْفَضْلُ مِنْ مَالِ الرَّجُلِ عَنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ فِي مُؤُونَتِهِمْ وَمَا لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! عِنْدِي دِينَارٌ، قَالَ: «أَنْفِقْهُ عَلَى نَفْسِكَ»، قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، قَالَ: «أَنْفِقْهُ عَلَى أَهْلِكَ»، قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، قَالَ: «أَنْفِقْهُ عَلَى وَلَدِكَ»، قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبْصَرُ».[٣٣٣]

قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فَقِيرًا؛ فَلْيَبْدَأْ بِنَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ؛ فَلْيَبْدَأْ مَعَ نَفْسِهِ بِمَنْ يَعُولُ، ثُمَّ إِنْ وَجَدَ فَضْلًا بَعْدَ ذَلِكَ؛ فَلْيَتَصَدَّقْ عَلَى غَيْرِهِمْ».[٣٣٤]

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾يَعْنِي: هَكَذَا يُبَيِّنُ، أَيْ: مَا بَيَّنْتُ لَكُمْ أَعْلَامِي وَحُجَجِي – وَهِيَ آيَاتُهُ – فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَعَرَّفْتُكُمْ فِيهَا مَا فِيهِ خَلَاصُكُمْ مِنْ عِقَابِي، وَبَيَّنْتُ لَكُمْ حُدُودِي وَفَرَائِضِي، وَنَبَّهْتُكُمْ فِيهَا عَلَى الْأَدِلَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِي، ثُمَّ عَلَى حُجَجِ رَسُولِي إِلَيْكُمْ،

---

[٣٣١] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ**: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما**﴾ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ: بِأَنَّ الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ وَإِنْ كَانَ فِيهِمَا نَفْعٌ؛ فَالْإِثْمُ الَّذِي يَلْحَقُ مُتَعَاطِيَهُمَا أَكْثَرُ مِنْ هَذَا النَّفْعِ؛ لِأَنَّهُ لَا خَيْرَ يُسَاوِي فَسَادَ الْعَقْلِ الْحَاصِلَ بِالْخَمْرِ، فَإِنَّهُ يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الشُّرُورِ مَا لَا يَأْتِي عَلَيْهِ الْحَصْرُ! وَكَذَلِكَ لَا خَيْرَ فِي الْمَيْسِرِ يُسَاوِي مَا فِيهَا مِنَ الْمُخَاطَرَةِ بِالْمَالِ وَالتَّعَرُّضِ لِلْفَقْرِ، وَاسْتِجْلَابِ الْعَدَاوَاتِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى سَفْكِ الدِّمَاءِ وَهَتْكِ الْحُرَمِ!.

[٣٣٢] **قَالَ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ**: الْمُرَادُ بِالْعَفْوِ: الزَّائِدُ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ الَّتِي لَابُدَّ مِنْهَا عَلَى أَصَحِّ التَّفْسِيرَاتِ؛ وَهُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ.

[٣٣٣] حديث حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، والبخاري في الأدب المفرد، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم، وحسنه الألباني في الإرواء(٨٩٥)، وصحيح الأدب المفرد(١٤٥)، وقال في صحيح الترغيب والترهيب(١٩٥٨)، والمشكاة(١٩٤٠): صحيح.

[٣٣٤] صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن خزيمة في صحيحه، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم، وصححه الألباني في الإرواء (٢١٦٥)، وصحيح الجامع(٧٤٧).

فَأَرْشَدْتُكُمْ إِلَى ظُهُورِ الْهُدَى؛ فَكَذَلِكَ أُبَيِّنُ لَكُمْ فِي سَائِرِ كِتَابِي الَّذِي أَنْزَلْتُهُ عَلَى نَبِيِّي مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – آيَاتِي وَحُجَجِي وَأُوَضِّحُهَا لَكُمْ، لِتَتَفَكَّرُوا فِي وَعْدِي وَوَعِيدِي، وَثَوَابِي وَعِقَابِي، فَتَخْتَارُوا طَاعَتِي الَّتِي تَنَالُونَ بِهَا ثَوَابِي فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَالْفَوْزَ بِنَعِيمِ الْأَبَدِ، عَلَى الْقَلِيلِ مِنَ اللَّذَّاتِ وَالْيَسِيرِ مِنَ الشَّهَوَاتِ، بِرُكُوبِ مَعْصِيَتِي فِي الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ، الَّتِي مَنْ رَكِبَهَا كَانَ مَعَادُهُ إِلَيَّ! وَمَصِيرُهُ إِلَى مَا لَا قِبَلَ لَهُ بِهِ مِنْ عِقَابِي وَعَذَابِي!!.

٢٢٠– ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ[٣٣٥] وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِيمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ عَزَلُوا أَمْوَالَ الْيَتَامَى حِينَ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾؛ انْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ، فَجَعَلَ يَفْضُلُ الشَّيْءُ مِنْ طَعَامِهِ، فَيُحْبَسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ. فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ! فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَأَنْزَلَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾؛ فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِمْ، وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِمْ.[٣٣٦]

---

[٣٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي: فِي زَوَالِ الدُّنْيَا وَفَنَائِهَا، وَإِقْبَالِ الْآخِرَةِ وَبَقَائِهَا.

قَالَ بَعْضُهُمْ: الْعَاقِلُ لَا يَغْفُلُ عَنْ ذِكْرِ الْآخِرَةِ فِي لَحْظَةٍ؛ فَإِنَّهَا مَصِيرُهُ وَمُسْتَقَرُّهُ، فَيَكُونُ لَهُ فِي كُلِّ مَا يَرَاهُ مِنْ مَاءٍ، أَوْ نَارٍ، أَوْ غَيْرِهِمَا عِبْرَةٌ! فَإِنْ نَظَرَ إِلَى سَوَادٍ؛ تَذَكَّرَ ظُلْمَةَ اللَّحْدِ! وَإِنْ نَظَرَ إِلَى صُورَةٍ مُرَوِّعَةٍ؛ تَذَكَّرَ مُنْكَرًا وَنَكِيرًا وَالزَّبَانِيَةَ!! وَإِنْ سَمِعَ صَوْتًا هَائِلًا؛ تَذَكَّرَ نَفْخَةَ الصُّورِ! وَإِنْ رَأَى شَيْئًا حَسَنًا؛ تَذَكَّرَ نَعِيمَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ سَمِعَ كَلِمَةَ رَدٍّ أَوْ قَبُولٍ؛ تَذَكَّرَ مَا يَنْكَشِفُ لَهُ مِنْ آخِرِ أَمْرِهِ بَعْدَ الْحِسَابِ مِنْ رَدٍّ أَوْ قَبُولٍ!! مَا أَجْدَرَ أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ الْغَالِبَ عَلَى قَلْبِ الْعَاقِلِ! لَا يَصْرِفُهُ عَنْهُ إِلَّا مُهِمَّاتُ الدُّنْيَا، فَإِذَا نَسَبَ مُدَّةَ مُقَامِهِ فِي الدُّنْيَا إِلَى مُدَّةِ مُقَامِهِ فِي الْآخِرَةِ؛ اسْتَحْقَرَ الدُّنْيَا إِنْ لَمْ يَكُنْ أَغْفَلَ قَلْبَهُ، وَأُعْمِيَتْ بَصِيرَتُهُ!!.

[٣٣٦] حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، والبيهقي في الكبرى، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وحسنه الألباني في صحيح أبي داود(٢٨٧١)، وصحيح النسائي(٣٦٧٠).

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ إِذًا: وَيَسْأَلُكَ – يَا مُحَمَّدُ – أَصْحَابُكَ عَنْ مَالِ الْيَتَامَى، وَخَلْطِهِمْ أَمْوَالَهُمْ بِهِ فِي النَّفَقَةِ وَالْمُطَاعَمَةِ وَالْمُشَارَبَةِ وَالْمُسَاكَنَةِ وَالْخِدْمَةِ، فَقُلْ لَهُمْ: تَفَضُّلُكُمْ عَلَيْهِمْ بِإِصْلَاحِكُمْ أَمْوَالَهُمْ مِنْ غَيْرِ مَرْزِئَةِ شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ[٣٣٧]، وَغَيْرِ أَخْذِ عِوَضٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ عَلَى إِصْلَاحِكُمْ ذَلِكَ لَهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ وَأَعْظَمُ لَكُمْ أَجْرًا؛ لِمَا لَكُمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ، وَخَيْرٌ لَهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ فِي عَاجِلِ دُنْيَاهُمْ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَوَفُّرِ أَمْوَالِهِمْ عَلَيْهِمْ.

وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَتُشَارِكُوهُمْ بِأَمْوَالِكُمْ أَمْوَالَهُمْ فِي نَفَقَاتِكُمْ وَمَطَاعِمِكُمْ وَمَشَارِبِكُمْ وَمَسَاكِنِكُمْ، فَتَضُمُّوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ عِوَضًا مِنْ قِيَامِكُمْ بِأُمُورِهِمْ وَأَسْبَابِهِمْ وَإِصْلَاحِ أَمْوَالِهِمْ، فَهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَالْإِخْوَانُ يُعِينُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَكْنُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ فَذُو الْمَالِ يُعِينُ ذَا الْفَاقَةِ، وَذُو الْقُوَّةِ فِي الْجِسْمِ يُعِينُ ذَا الضَّعْفِ.

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ وَأَيْتَامُكُمْ كَذَلِكَ، إِنْ خَالَطْتُمُوهُمْ بِأَمْوَالِكُمْ فَخَلَطْتُمْ طَعَامَكُمْ بِطَعَامِهِمْ، وَشَرَابَكُمْ بِشَرَابِهِمْ، وَسَائِرَ أَمْوَالِكُمْ بِأَمْوَالِهِمْ، فَأَصَبْتُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَضْلَ مَرْفَقٍ بِمَا كَانَ مِنْكُمْ مِنْ قِيَامِكُمْ بِأَمْوَالِهِمْ وَوَلَائِهِمْ، وَمَعَانَاةِ أَسْبَابِهِمْ، عَلَى النَّظَرِ مِنْكُمْ لَهُمْ نَظَرَ الْأَخِ الشَّفِيقِ لِأَخِيهِ، الْعَامِلِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ بِمَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَلْزَمَهُ، فَذَلِكَ لَكُمْ حَلَالٌ؛ لِأَنَّكُمْ إِخْوَان بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ.

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ يَعْنِي: إِنَّ رَبَّكُمْ وَإِنْ أَذِنَ لَكُمْ فِي مُخَالَطَتِكُمُ الْيَتَامَى عَلَى مَا أَذِنَ لَكُمْ بِهِ، فَاتَّقُوا اللهَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَنْ تُخَالِطُوهُمْ وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَكْلَ أَمْوَالِهِمْ بِالْبَاطِلِ، وَتَجْعَلُونَ مُخَالَطَتَكُمْ إِيَّاهُمْ ذَرِيعَةً لَكُمْ إِلَى إِفْسَادِ أَمْوَالِهِمْ، وَأَكْلِهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا، فَتَسْتَوْجِبُوا بِذَلِكَ مِنْهُ الْعُقُوبَةَ الَّتِي لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهَا، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ مَنْ خَالَطَ مِنْكُمْ يَتِيمَهُ – فَشَارَكَهُ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَمَسْكَنِهِ وَخَدَمِهِ وَرُعَاتِهِ فِي حَالِ مُخَالَطَتِهِ إِيَّاهُ – مَا الَّذِي يَقْصِدُ بِمُخَالَطَتِهِ إِيَّاهُ: إِفْسَادَ مَالِهِ وَأَكْلَهُ بِالْبَاطِلِ، أَمْ إِصْلَاحَهُ وَتَثْمِيرَهُ؟ لِأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ، وَيَعْلَمُ أَيُّكُمُ الْمُرِيدُ إِصْلَاحَ مَالِهِ، مِنَ الْمُرِيدِ إِفْسَادَهُ.

---

[٣٣٧] قَوْلُهُ: (مِنْ غَيْرِ مَرْزِئَةِ شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ) أَيْ: مِنْ غَيْرِ نَقْصِ شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ فِي مَقَايِيسِ اللُّغَةِ: (رَزَأَ): الرَّاءُ وَالزَّاءُ وَالْهَمْزَةُ؛ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى إِصَابَةِ الشَّيْءِ وَالذَّهَابِ بِهِ.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ[٣٣٨]﴾يَعْنِي: وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَحَرَّمَ مَا أَحَلَّهُ لَكُمْ مِنْ مُخَالَطَةِ أَيْتَامِكُمْ بِأَمْوَالِكُمْ أَمْوَالَهُمْ، فَجَهَدَكُمْ ذَلِكَ وَشَقَّ عَلَيْكُمْ، وَلَمْ تَقْدِرُوا عَلَى الْقِيَامِ بِاللَّازِمِ لَكُمْ مِنْ حَقِّ اللهِ – تَعَالَى – وَالْوَاجِبُ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ فَرْضِهِ، وَلَكِنَّهُ رَخَّصَ لَكُمْ فِيهِ وَسَهَّلَهُ عَلَيْكُمْ؛ رَحْمَةً بِكُمْ وَرَأْفَةً.

﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾يَعْنِي: إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ فِي سُلْطَانِهِ، لَا يَمْنَعُهُ مَانِعٌ مِمَّا أَحَلَّ بِكُمْ مِنْ عُقُوبَةٍ لَوْ أَعْنَتَكُمْ بِمَا يُجْهِدُكُمُ الْقِيَامُ بِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ فَقَصَّرْتُمْ فِي الْقِيَامِ بِهِ، وَلَا يَقْدِرُ دَافِعٌ أَنْ يَدْفَعَهُ عَنْ ذَلِكَ وَلَا عَنْ غَيْرِهِ مِمَّا يَفْعَلُهُ بِكُمْ وَبِغَيْرِكُمْ مِنْ ذَلِكَ لَوْ فَعَلَهُ، وَلَكِنَّهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ مَنَّ عَلَيْكُمْ بِتَرْكِ تَكْلِيفِهِ إِيَّاكُمْ ذَلِكَ، وَهُوَ حَكِيمٌ فِي ذَلِكَ لَوْ فَعَلَهُ بِكُمْ وَفِي غَيْرِهِ مِنْ أَحْكَامِهِ وَتَدْبِيرِهِ، لَا يَدْخُلُ أَفْعَالَهُ خَلَلٌ وَلَا نَقْصٌ وَلَا وَهْيٌ وَلَا عَيْبٌ؛ لِأَنَّهُ فِعْلُ ذِي الْحِكْمَةِ الَّذِي لَا يَجْهَلُ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ فَيَدْخُلُ تَدْبِيرَهُ مَذَمَّةُ عَاقِبَةٍ، كَمَا يَدْخُلُ ذَلِكَ أَفْعَالَ الْخَلْقِ لِجَهْلِهِمْ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ؛ لِسُوءِ اخْتِيَارِهِمْ فِيهَا ابْتِدَاءً.

٢٢١- ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ[٣٣٩]حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: هَلْ نَزَلَتْ مُرَادًا بِهَا كُلُّ مُشْرِكَةٍ، أَمْ مُرَادٌ بِحُكْمِهَا بَعْضَ الْمُشْرِكَاتِ دُونَ بَعْضٍ؟ وَهَلْ نُسِخَ مِنْهَا بَعْدَ وُجُوبِ الْحُكْمِ بِهَا شَيْءٌ أَمْ لَا؟

وَأَوْلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِتَأْوِيلِ الْآيَةِ: أَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عَنَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْمُشْرِكَاتِ، وَأَنَّ الْآيَةَ عَامٌّ ظَاهِرُهَا خَاصٌّ بَاطِنُهَا، لَمْ يُنْسَخْ مِنْهَا شَيْءٌ، وَأَنَّ نِسَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ غَيْرُ دَاخِلَاتٍ فِيهَا.

وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَحَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ نِكَاحِ مُحْصَنَاتِهِنَّ، مِثْلَ الَّذِي أَبَاحَ لَهُمْ مِنْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ.

---

[٣٣٨] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** عَنِتَ فُلَانٌ: إِذَا شَقَّ عَلَيْهِ وَجَهَدَهُ فَهُوَ يَعْنَتُ عَنَتًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ**﴾يَعْنِي: مَا شَقَّ عَلَيْكُمْ وَآذَاكُمْ وَجَهَدَكُمْ.

[٣٣٩] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:** الْمُشْرِكَات: جَمْعُ مُشْرِكَةٍ؛ وَالْمُشْرِكَةُ، أَوِ الْمُشْرِكُ: هُوَ مَنْ جَعَلَ للهِ شَرِيكًا فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِ؛ سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، أَوْ فِي الْأُلُوهِيَّةِ، أَوْ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، فَمَنِ اتَّخَذَ إِلَهًا يَعْبُدُهُ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ – وَلَوْ آمَنَ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ لِلْكَوْنِ –، وَمَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ مَعَ اللهِ خَالِقًا لِلْكَوْنِ، أَوْ مُنْفَرِدًا بِشَيْءٍ فِي الْكَوْنِ، أَوْ مُعِينًا لِلَّهِ – تَعَالَى – فِي خَلْقِ شَيْءٍ مِنَ الْكَوْنِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ!.

﴿وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ﴾يَعْنِي: وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدَ اللهِ، خَيْرٌ عِنْدَ اللهِ وَأَفْضَلُ مِنْ حُرَّةٍ مُشْرِكَةٍ كَافِرَةٍ، وَإِنْ شَرُفَ نَسَبُهَا وَكَرُمَ أَصْلُهَا.

يَقُولُ: وَلَا تَبْتَغُوا الْمُنَاكِحَ فِي ذَوَاتِ الشَّرَفِ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ بِاللهِ، فَإِنَّ الْإِمَاءَ الْمُسْلِمَاتِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُ مَنْكَحًا مِنْهُنَّ.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾يَعْنِي: وَإِنْ أَعْجَبَتْكُمُ الْمُشْرِكَةُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْجَمَالِ وَالْحَسَبِ وَالْمَالِ، فَلَا تَنْكِحُوهَا؛ فَإِنَّ الْأُمَّةَ الْمُؤْمِنَةَ خَيْرٌ عِنْدَ اللهِ مِنْهَا.

﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ[٣٤٠] حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾يَعْنِي: أَنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى الْمُؤْمِنَاتِ أَنْ يَنْكِحْنَ مُشْرِكًا كَائِنًا مَنْ كَانَ الْمُشْرِكُ، مِنْ أَيِّ أَصْنَافِ الشِّرْكِ كَانَ، فَلَا تُنْكِحُوهُنَّ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – مِنْهُمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، وَلَأَنْ تُزَوِّجُوهُنَّ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ مُصَدِّقٍ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تُزَوِّجُوهُنَّ مِنْ حُرٍّ مُشْرِكٍ، وَلَوْ شَرُفَ نَسَبُهُ وَكَرُمَ أَصْلُهُ، وَإِنْ أَعْجَبَكُمْ حَسَبُهُ وَنَسَبُهُ.

﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ﴾: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – مُنَاكَحَتُهُمْ مِنْ رِجَالِ أَهْلِ الشِّرْكِ وَنِسَائِهِمْ، يَدْعُونَكُمْ إِلَى النَّارِ، يَعْنِي: يَدْعُونَكُمْ إِلَى الْعَمَلِ بِمَا يُدْخِلُكُمُ النَّارَ، وَذَلِكَ هُوَ الْعَمَلُ الَّذِي هُمْ بِهِ عَامِلُونَ مِنَ الْكُفْرِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ.

يَقُولُ: وَلَا تَقْبَلُوا مِنْهُمْ مَا يَقُولُونَ، وَلَا تَسْتَنْصِحُوهُمْ، وَلَا تنكِحُوهُمْ وَلَا تُنْكِحُوا إِلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَلَكِنِ اقْبَلُوا مِنَ اللهِ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَانْتَهُوا عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ، فَإِنَّهُ يَدْعُوكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، يَعْنِي بِذَلِكَ: يَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَمَلِ بِمَا يُدْخِلُكُمُ الْجَنَّةَ، وَيُوجِبُ لَكُمُ النَّجَاةَ – إِنْ عَمِلْتُمْ بِهِ – مِنَ النَّارِ، وَإِلَى مَا يَمْحُو خَطَايَاكُمْ أَوْ ذُنُوبَكُمْ، فَيَعْفُو عَنْهَا وَيَسْتُرُهَا عَلَيْكُمْ.

---

[٣٤٠] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَكَانَ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، يَقُولُ: هَذَا الْقَوْلُ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ أَوْلِيَاءَ الْمَرْأَةِ أَحَقُّ بِتَزْوِيجِهَا مِنَ الْمَرْأَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿بِإِذْنِهِ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: أَنَّهُ يَدْعُوكُمْ إِلَى ذَلِكَ بِإِعْلَامِهِ إِيَّاكُمْ سَبِيلَهُ وَطَرِيقَهُ الَّذِي بِهِ الْوُصُولُ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾يَقُولُ: وَيُوضِّحُ حُجَجَهُ وَأَدِلَّتَهُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ لِعِبَادِهِ، لِيَتَذَكَّرُوا فَيَعْتَبِرُوا، وَيُمَيِّزُوا بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ أَحَدُهُمَا دَعَّاءٌ إِلَى النَّارِ وَالْخُلُودِ فِيهَا، وَالْآخَرُ دَعَّاءٌ إِلَى الْجَنَّةِ وَغُفْرَانِ الذُّنُوبِ، فَيَخْتَارُوا خَيْرَهُمَا لَهُمْ.

وَلَمْ يَجْهَلِ التَّمْيِيزَ بَيْنَ هَاتَيْنِ؛ إِلَّا غَبِيُّ الرَّأْيِ مَدْخُولُ الْعَقْلِ!.

٢٢٢- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾يَعْنِي: وَيَسْأَلُكَ يَا مُحَمَّدُ أَصْحَابُكَ عَنِ الْحَيْضِ.[٣٤١]

وَإِنَّمَا كَانَ الْقَوْمُ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِيمَا ذُكِرَ لَنَا – عَنِ الْحَيْضِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ بَيَانِ اللهِ لَهُمْ مَا يَتَبَيَّنُونَ مِنْ أَمْرِهِ، لَا يُسَاكِنُونَ حَائِضًا فِي بَيْتٍ، وَلَا يُؤَاكِلُونَهُنَّ فِي إِنَاءٍ، وَلَا يُشَارِبُونَهُنَّ! فَعَرَّفَهُمُ اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الَّذِي عَلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ حِيَضِ نِسَائِهِمْ: أَنْ يَجْتَنِبُوا جِمَاعَهُنَّ فَقَطْ ، دُونَ مَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ مُضَاجَعَتِهِنَّ وَمُؤَاكَلَتِهِنَّ وَمُشَارَبَتِهِنَّ.

---

[٣٤١] **الْحَيْضُ لُغَةً**: السَّيَلَانُ، يُقَالُ: حَاضَ الْوَادِي: إِذَا سَالَ مَاؤُهُ، وَحَاضَتِ الشَّجَرَةُ: إِذَا سَالَ مِنْهَا شِبْهُ الدَّمِ؛ وَهُوَ الصَّمْغُ الْأَحْمَرُ.
قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ: "قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: يُقَالُ: حَاضَتِ الْمَرْأَةُ تَحِيضُ حَيْضًا وَمَحِيضًا وَمَحَاضًا؛ فَهِيَ حَائِضٌ – بِلَا هَاءٍ – هَذِهِ اللُّغَةُ الْفَصِيحَةُ الْمَشْهُورَةُ، وَحَكَى الْجَوْهَرِيُّ عَنِ الْفَرَّاءِ: حَائِضَةٌ بِالْهَاءِ" اهـ.
وَجَمْعُ الْحَائِضِ: حَوَائِضُ، وَحُيَّضٌ. وَالْحِيضَةُ – بِكَسْرِ الْحَاءِ –: خِرْقَةٌ تَضَعُهَا الْمَرْأَةُ لِتَتَلَقَّى دَمَ الْحَيْضِ. أَمَّا الْحَيْضَةُ – بِفَتْحِ الْحَاءِ –: فَالْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْحَيْضِ؛ أَوِ الدُّفْعَةُ مِنَ الدَّمِ.
وَالْحَيْضُ شَرْعًا: دَمُ جِبِلَّةٍ يَخْرُجُ مِنْ أَقْصَى رَحِمِ الْمَرْأَةِ بَعْدَ بُلُوغِهَا فِي أَوْقَاتٍ مَخْصُوصَةٍ.
وَكَانَ سَبَبُ سُؤَالِ الصَّحَابَةِ عَنِ الْحَيْضِ: أَنَّ الْعَرَبَ فِي الْمَدِينَةِ وَمَا وَالَاهَا كَانُوا قَدِ اسْتَنُّوا بِسُنَّةِ الْيَهُودِ فِي تَجَنُّبِ مُؤَاكَلَةِ الْحَائِضِ وَمُسَاكَنَتِهَا؛ فَعَنْ أَنَسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ [أَخْرَجُوهَا مِنَ الْبُيُوتِ، وَلَمْ يَأْكُلُوا مَعَهَا وَلَمْ يُشَارِبُوهَا، وَلَمْ يُجَامِعُوهَا فِي الْبُيُوتِ]، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَأَنْزَلَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ**﴾إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ**»، (وَفِي رِوَايَةٍ: **فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنْ يُؤَاكِلُوهُنَّ وَيُشَارِبُوهُنَّ وَيُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ، وَأَنْ يَصْنَعُوا بِهِنَّ كُلَّ شَيْءٍ؛ مَا خَلَا الْجِمَاعَ!**)، فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ، فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ!! [صحيح: رواه مسلم – واللفظ له –، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه – وما بين المعقوفين له –؛ وغيرهم].

﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾يَعْنِي: قُلْ لِمَنْ سَأَلَكَ مِنْ أَصْحَابِكَ – يَا مُحَمَّدُ – عَنِ الْمَحِيضِ: هُوَ أَذًى.

وَالْأَذَى: هُوَ مَا يُؤْذَى بِهِ مِنْ مَكْرُوهٍ فِيهِ، وَهُوَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ يُسَمَّى أَذًى؛ لِنَتْنِ رِيحِهِ وَقَذَرِهِ وَنَجَاسَتِهِ!.

﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾يَعْنِي: فَاعْتَزِلُوا جِمَاعَ النِّسَاءِ وَنِكَاحَهُنَّ فِي مَحِيضِهِنَّ.

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ، فَقَرَأَهُ بَعْضُهُمْ: ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾بِضَمِّ الْهَاءِ وَتَخْفِيفِهَا، وَقَرَأَهُ آخَرُونَ: بِتَشْدِيدِ الْهَاءِ وَفَتْحِهَا.

وَأَمَّا الَّذِينَ قَرَءُوهُ بِتَخْفِيفِ الْهَاءِ وَضَمِّهَا؛ فَإِنَّهُمْ وَجَّهُوا مَعْنَاهُ إِلَى: وَلَا تَقْرَبُوا النِّسَاءَ فِي حَالِ حَيْضِهِنَّ حَتَّى يَنْقَطِعَ عَنْهُنَّ دَمُ الْحَيْضِ وَيَطْهُرْنَ.

وَأَمَّا الَّذِينَ قَرَءُوا ذَلِكَ بِتَشْدِيدِ الْهَاءِ وَفَتْحِهَا؛ فَإِنَّهُمْ عَنَوْا بِهِ: حَتَّى يَغْتَسِلْنَ بِالْمَاءِ، وَشَدَّدُوا الطَّاءَ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: مَعْنَى الْكَلِمَةِ: حَتَّى يَتَطَهَّرْنَ، أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الطَّاءِ لِتَقَارُبِ مَخْرَجَيْهِمَا.

وَأَوْلَى الْقِرَاءَتَيْنِ بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ؛ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: ﴿حَتَّى يَطَّهَّرْنَ﴾ بِتَشْدِيدِهَا وَفَتْحِهَا، بِمَعْنَى: حَتَّى يَغْتَسِلْنَ؛ لِإِجْمَاعِ الْجَمِيعِ عَلَى أَنَّ حَرَامًا عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَقْرَبَ امْرَأَتَهُ بَعْدَ انْقِطَاعِ دَمِ حَيْضِهَا حَتَّى تَطْهُرَ.

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ إِذًا: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى، فَاعْتَزِلُوا جِمَاعَ نِسَائِكُمْ فِي وَقْتِ حَيْضِهِنَّ، وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَغْتَسِلْنَ فَيَتَطَهَّرْنَ مِنْ حَيْضِهِنَّ بَعْدَ انْقِطَاعِهِ.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ[٣٤٢]﴾يَعْنِي: فَإِذَا اغْتَسَلْنَ فَتَطَهَّرْنَ بِالْمَاءِ فَجَامِعُوهُنَّ.

فَإِذَا اغْتَسَلْنَ فَصِرْنَ طَوَاهِرَ الطُّهْرَ الَّذِي يَجْزِيهِنَّ بِهِ الصَّلَاةُ؛ ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾يَعْنِي: فَأْتُوهُنَّ فِي فُرُوجِهُنَّ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي أَذِنَ اللهُ لَكُمْ بِإِتْيَانِهِنَّ؛ وَذَلِكَ حَالَ طُهْرِهِنَّ وَتَطَهُّرِهِنَّ دُونَ حَالِ حَيْضِهِنَّ

[٣٤٢] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَفَفَرْضٌ جِمَاعِهِنَّ حِينَئِذٍ؟ قِيلَ: لَا! فَإِنْ قَالَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ إِذًا: ﴿**فَأْتُوهُنَّ**﴾؟ قِيلَ: ذَلِكَ إِبَاحَةُ مَا كَانَ مُنِعَ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ جِمَاعِهِنَّ، وَإِطْلَاق لِمَا كَانَ حُظِرَ فِي حَالِ الْحَيْضِ؛ وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿**وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا**﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ**﴾وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ[٣٤٣]﴾ يَعْنِي: الْمُنِيبِينَ مِنَ الْإِدْبَارِ عَنِ اللهِ وَعَنْ طَاعَتِهِ، إِلَيْهِ وَإِلَى طَاعَتِهِ.

﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ بِالْمَاءِ لِلصَّلَاةِ.

١٢٣- ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ يَعْنِي: نِسَاؤُكُمْ مُزْدَرَعُ[٣٤٤] أَوْلَادِكُمْ، فَأْتُوا مُزْدَرَعَكُمْ كَيْفَ شِئْتُمْ، وَأَيْنَ شِئْتُمْ.

وَإِنَّمَا عَنَى (بِالْحَرْثِ) الْمُزْدَرَعِ، وَالْحَرْثُ: هُوَ الزَّرْعُ، وَلَكِنَّهُنَّ لَمَّا كُنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْحَرْثِ؛ جُعِلْنَ حَرْثًا، إِذْ كَانَ مَفْهُومًا مَعْنَى الْكَلَامِ.

﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِذَلِكَ: فَانْكِحُوا مُزْدَرَعَ أَوْلَادِكُمْ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ مِنْ وُجُوهِ الْمَأْتَى. وَالْإِتْيَانُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: كِنَايَةٌ عَنِ اسْمِ الْجِمَاعِ!.

عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا، حَتَّى انْتَهَى إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنْ قُرَيْشٍ، كَانُوا يَشْرَحُونَ النِّسَاءَ بِمَكَّةَ، وَيَتَلَذَّذُونَ بِهِنَّ مُقْبِلَاتٍ

---

[٣٤٣] **قَالَ الْعَلَّامَةُ الْأَزْهَرِيُّ السَّلَفِيُّ مُحَمَّد خَلِيل هَرَّاس فِي شَرْحِ الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ:** تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ إِثْبَاتَ أَفْعَالٍ لَهُ تَعَالَى نَاشِئَةٍ عَنْ صِفَةِ الْمَحَبَّةِ، وَمَحَبَّةُ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لِبَعْضِ الْأَشْخَاصِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ؛ صِفَةٌ لَهُ قَائِمَةٌ بِهِ، وَهِيَ مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ الِاخْتِيَارِيَّةِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ، فَهُوَ يُحِبُّ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ دُونَ بَعْضٍ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ.

وَيَنْفِي الْأَشَاعِرَةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ صِفَةَ الْمَحَبَّةِ؛ بِدَعْوَى أَنَّهَا تُوهِمُ نَقْصًا؛ إِذِ الْمَحَبَّةُ فِي الْمَخْلُوقِ مَعْنَاهَا مَيْلُهُ إِلَى مَا يُنَاسِبُهُ أَوْ يَسْتَلِذُّهُ!!.

فَأَمَّا الْأَشَاعِرَةُ؛ فَيُرْجِعُونَهَا إِلَى صِفَةِ الْإِرَادَةِ، فَيَقُولُونَ: إِنَّ مَحَبَّةَ اللهِ لِعَبْدِهِ لَا مَعْنَى لَهَا إِلَّا إِرَادَتُهُ لِإِكْرَامِهِ وَمَثُوبَتِهِ!!.

وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ فِي صِفَاتِ الرِّضَا وَالْغَضَبِ وَالْكَرَاهِيَةِ وَالسَّخَطِ؛ كُلُّهَا عِنْدَهُمْ بِمَعْنَى إِرَادَةِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ(!).

وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ؛ فَلِأَنَّهُمْ لَا يُثْبِتُونَ إِرَادَةً قَائِمَةً بِهِ، فَيُفَسِّرُونَ الْمَحَبَّةَ بِأَنَّهَا نَفْسُ الثَّوَابِ الْوَاجِبِ عِنْدَهُمْ عَلَى اللهِ لِهَؤُلَاءِ؛ بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي وُجُوبِ إِثَابَةِ الْمُطِيعِ وَعِقَابِ الْعَاصِي!!!.

وَأَمَّا أَهْلُ الْحَقِّ؛ فَيُثْبِتُونَ الْمَحَبَّةَ صِفَةً حَقِيقِيَّةً لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ، فَلَا تَقْتَضِي عِنْدَهُمْ نَقْصًا وَلَا تَشْبِيهًا!.

كَمَا يُثْبِتُونَ لَازِمَ تِلْكَ الْمَحَبَّةِ؛ وَهِيَ إِرَادَتُهُ سُبْحَانَهُ إِكْرَامَ مَنْ يُحِبُّهُ وَإِثَابَتَهُ.

وَلَيْتَ شِعْرِي! بِمَاذَا يُجِيبُ النَّافُونَ لِلْمَحَبَّةِ عَنْ مِثْلِ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أحبَّ عَبْدًا؛ قَالَ لِجِبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيَقُولُ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِأَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ رَبَّكُمْ - عَزَّ وَجَلَّ - يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَهُ فَمِثْلُ ذَلِكَ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ؟!.

[٣٤٤] (**الْمُزْدَرَعُ**): الْمَكَانُ الَّذِي يُزْرَعُ فِيهِ.

وَمُدْبِرَاتٍ، فَلَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ تَزَوَّجُوا فِي الْأَنْصَارِ، فَذَهَبُوا لِيَفْعَلُوا بِهِنَّ كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ بِالنِّسَاءِ بِمَكَّةَ! فَأَنْكَرْنَ ذَلِكَ، وَقُلْنَ: هَذَا شَيْءٌ لَمْ نَكُنْ نُؤْتَى عَلَيْهِ!! فَانْتَشَرَ الْحَدِيثُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ فَأَنْزَلَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – فِي ذَلِكَ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ إِنْ شِئْتَ فَمُقْبِلَةً، وَإِنْ شِئْتَ فَمُدْبِرَةً، وَإِنْ شِئْتَ فَبَارِكَةً!! وَإِنَّمَا يَعْنِي بِذَلِكَ: مَوْضِعَ الْوَلَدِ لِلْحَرْثِ، يَقُولُ: ائْتِ الْحَرْثَ مِنْ حَيْثُ شِئْتَ.[٣٤٥]

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَتِ الْيَهُودُ: إِذَا أَتَى الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ فِي قُبُلِهَا مِنْ دُبُرِهَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ كَانَ أَحْوَلَ!! فَأَنْزَلَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾.[٣٤٦]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: جَاءَ عُمَرُ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكْتُ!!» قَالَ: «وَمَا الَّذِي أَهْلَكَكَ؟»، قَالَ: حَوَّلْتُ رَحْلِي[٣٤٧] اللَّيْلَةَ! قَالَ: فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ شَيْئًا، قَالَ: فَأَوْحَى اللهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ «أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ، وَاتَّقِ الدُّبُرَ وَالْحَيْضَةَ!».[٣٤٨]

﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أَمْرٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عِبَادَهُ بِتَقْدِيمِ الْخَيْرِ وَالصَّالِحِ مِنَ الْأَعْمَالِ لِيَوْمِ مَعَادِهِمْ إِلَى رَبِّهِمْ، عُدَّةً مِنْهُمْ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ عِنْدَ لِقَائِهِ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ.

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾وَهَذَا تَحْذِيرٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عِبَادَهُ: أَنْ يَأْتُوا شَيْئًا مِمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ مِنْ مَعَاصِيهِ، وَتَخْوِيفٌ لَهُمْ عِقَابَهُ عِنْدَ لِقَائِهِ – كَمَا قَدْ بَيَّنَّا قَبْلُ –، وَأَمْرٌ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنْ يُبَشِّرَ مِنْ عِبَادِهِ بِالْفَوْزِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبِكَرَامَةِ الْآخِرَةِ، وَبِالْخُلُودِ فِي

---

[٣٤٥] حديث حسن: رواه أبو داود، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير – واللفظ له –، والضياء المقدسي في المختارة، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي؛ وحسنه الألباني في صحيح أبي داود(٢١٦٤)، وصحيح الجامع(٧٤٧).

[٣٤٦] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي؛ وغيرهم.

[٣٤٧] قَوْلُهُ (**حَوَّلْتَ رَحْلِي**) كَنَّى بِرَحْلِهِ عَنْ زَوْجَتِهِ، أَرَادَ بِهِ غِشْيَانَهَا فِي قُبُلِهَا مِنْ جِهَةِ ظَهْرِهَا؛ لِأَنَّ الْمُجَامِعَ يَعْلُو الْمَرْأَةَ وَيَرْكَبُهَا مِمَّا يَلِي وَجْهَهَا، فَحَيْثُ رَكِبَهَا مِنْ جِهَةِ ظَهْرِهَا؛ كَنَّى عَنْهُ بِتَحْوِيلِ رَحْلِهِ! [النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (رَحَلَ)].

[٣٤٨] حديث حسن: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي في الكبرى، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الكبير، وابن حبان في صحيحه؛ وحسنه الألباني في صحيح الترمذي(٢٩٨٠)، وغاية المرام(٢٣٦)، والتعليقات الحسان(٤١٩٠).

الْجَنَّةِ، مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُحْسِنًا مُؤْمِنًا بِكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَبِلِقَائِهِ، مُصَدِّقًا إِيمَانَهُ قَوْلًا بِعَمَلِهِ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ، وَافْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ فَرَائِضِهِ فِيمَا أَلْزَمَهُ مِنْ حُقُوقِهِ، وَبِتَجَنُّبِهِ مَا أَمَرَهُ بِتَجَنُّبِهِ مِنْ مَعَاصِيهِ.

٢٢٤- ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ[٣٤٩]﴾يَعْنِي: لَا تَجْعَلُوا الْحَلِفَ بِاللهِ حُجَّةً لَكُمْ فِي تَرْكِ فِعْلِ الْخَيْرِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ النَّاسِ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْعُرْضَةَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْقُوَّةُ وَالشِّدَّةُ، يُقَالُ مِنْهُ: هَذَا الْأَمْرُ عُرْضَةٌ لَهُ، يَعْنِي بِذَلِكَ: قُوَّةٌ لَكَ عَلَى أَسْبَابِكَ، وَيُقَالُ: فُلَانَةٌ عُرْضَةٌ لِلنِّكَاحِ: أَيْ قُوَّةٌ

فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾إِذًا: لَا تَجْعَلُوا اللهَ قُوَّةً لِأَيْمَانِكُمْ فِي أَنْ لَا تَبَرُّوا وَلَا تَتَّقُوا وَلَا تُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ إِذَا حَلَفَ أَحَدُكُمْ فَرَأَى الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِمَّا حَلَفَ عَلَيْهِ مِنْ تَرْكِ الْبِرِّ وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَلْيَحْنَثْ فِي يَمِينِهِ، وَلْيَبَرَّ، وَلْيَتَّقِ اللهَ، وَلْيُصْلِحْ بَيْنَ النَّاسِ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ.[٣٥٠]

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَنْ تَبَرُّوا﴾ هُوَ فِعْلُ الْخَيْرِ كُلِّهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ أَفْعَالَ الْخَيْرِ كُلَّهَا مِنَ الْبِرِّ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَتَتَّقُوا﴾فَإِنَّ مَعْنَاهُ: أَنْ تَتَّقُوا رَبَّكُمْ فَتَحْذَرُوهُ وَتَحْذَرُوا عِقَابَهُ فِي فَرَائِضِهِ وَحُدُودِهِ أَنْ تُضَيِّعُوهَا أَوْ تَتَعَدُّوهَا.

---

[٣٤٩] **قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى:** وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْآثَارُ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَغَيْرِهِمْ، بِأَنَّ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّهُ لَا يَحْلِفُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَنَّهُ لَا يَبَرُّ وَلَا يَتَّقِي اللهَ وَلَا يَصِلُ رَحِمَهُ، فَإِذَا أُمِرَ بِذَلِكَ، قَالَ: أَنَا قَدْ حَلَفْتُ بِاللهِ!! فَيَجْعَلُ الْحَلِفَ بِاللهِ مَانِعًا لَهُ مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ.

[٣٥٠] عَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا –، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**مَنْ حَلَفَ فِي قَطِيعَةِ رَحِمٍ، أَوْ فِيمَا لَا يَصْلُحُ؛ فَبِرُّهُ أَنْ لَا يُتِمَّ عَلَى ذَلِكَ**» [صحيح: رواه ابن ماجة، وغيره؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٦٢١٥)، والصحيحة(٢٣٣٤)].

وَعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْجُشَمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ ابْنَ عَمٍّ لِي أَتَيْتُهُ أَسْأَلُهُ فَلَا يُعْطِينِي وَلَا يَصِلُنِي، ثُمَّ يَحْتَاجُ إِلَيَّ فَيَأْتِينِي فَيَسْأَلُنِي، وَقَدْ حَلَفْتُ أَنْ لَا أُعْطِيَهُ وَلَا أَصِلَهُ! «**فَأَمَرَنِي أَنْ آتِيَ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَأُكَفِّرَ عَنْ يَمِينِي**» [صحيح: رواه أحمد، النسائي، وابن ماجة ، وغيرهم؛ وصححه الألباني في الإرواء، تحت الحديث(٢٠٨٤)، والمشكاة(٣٤٢٥)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: أَعْتَمَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ فَوَجَدَ الصِّبْيَةَ قَدْ نَامُوا، فَأَتَاهُ أَهْلُهُ بِطَعَامِهِ، فَحَلَفَ لَا يَأْكُلُ مِنْ أَجْلِ صِبْيَتِهِ، ثُمَّ بَدَا لَهُ فَأَكَلَ! فَأَتَى رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ فَلْيَأْتِهَا، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ**» [صحيح: رواه مسلم، وغيره].

(**أَعْتَمَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ**) أَيْ: تَأَخَّرَ عِنْدَهُ إِلَى عَتَمَةِ اللَّيْلِ؛ وَهِيَ شِدَّةُ ظُلْمَتِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾فَهُوَ الْإِصْلَاحُ بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ فِيمَا لَا مَأْثَمَ فِيهِ، وَفِيمَا يُحِبُّهُ اللهُ دُونَ مَا يَكْرَهُهُ.

﴿وَاللهُ سُمَيْعٌ﴾ لِمَا يَقُولُهُ الْحَالِفُ مِنْكُمْ بِاللهِ إِذَا حَلَفَ، فَقَالَ: وَاللهُ لا أَبَرُّ وَلَا أَتَّقِي وَلَا أُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ! وَلِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ قِيلِكُمْ وَأَيْمَانِكُمْ، ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَا تَقْصِدُونَ وَتَبْتَغُونَ بِحَلِفِكُمْ ذَلِكَ، أَلْخَيْرَ تُرِيدُونَ أَمْ غَيْرَهُ؟ لِأَنِّي عَلَّامُ الْغُيُوبِ وَمَا تُضْمِرُهُ الصُّدُور، لَا تَخْفَى عَلَيَّ خَافِيَةٌ، وَلَا يَنْكَتِمُ عَنِّي أَمْرٌ عَلَنَ فَظَهَرَ، أَوْ خَفِيَ فَبَطَنَ. وَهَذَا مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – تَهَدُّدٌ وَوَعِيدٌ!!.

٢٢٥- ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ[٣٥١] وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾وَفِي مَعْنَى اللَّغْوِ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي مَعْنَاهُ: لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِمَا سَبَقَتْكُمْ بِهِ أَلْسِنَتُكُمْ مِنَ الْأَيْمَانِ عَلَى عَجَلَةٍ وَسُرْعَةٍ، فَيُوجِبُ عَلَيْكُمْ بِهِ كَفَّارَةً إِذَا لَمْ تَقْصِدُوا الْحَلِفَ وَالْيَمِينَ.

---

[٣٥١] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي زَادِ الْمَعَادِ: وَاللَّغْوُ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا:** أَنْ يَحْلِفَ عَلَى الشَّيْءِ يَظُنُّهُ كَمَا حَلَفَ عَلَيْهِ؛ فَيَتَبَيَّنُ بِخِلَافِهِ!.

وَالثَّانِي: أَنْ تَجْرِيَ الْيَمِينُ عَلَى لِسَانِهِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لِلْحَلِفِ: (كَلَّا وَاللهِ)، وَ: (بَلَى وَاللهِ) فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ؛ وَكِلَاهُمَا رَفَعَ اللهُ الْمُؤَاخَذَةَ بِهِ لِعَدَمِ قَصْدِ الْحَالِفِ إِلَى عَقْدِ الْيَمِينِ وَحَقِيقَتِهَا، وَهَذَا تَشْرِيعٌ مِنْهُ – سُبْحَانَهُ – لِعِبَادِهِ أَلَّا يُرَتِّبُوا الْأَحْكَامَ عَلَى الْأَلْفَاظِ الَّتِي لَمْ يَقْصِدِ الْمُتَكَلِّمُ بِهَا حَقَائِقَهَا وَمَعَانِيَهَا، وَهَذَا غَيْرُ الْهَازِلِ حَقِيقَةً وَحُكْمًا!.

فَائِدَةٌ: قَالَ الْإِمَامُ السَّعْدِيُّ فِي مَنْهَجِ السَّالِكِينَ: لَا تَنْعَقِدُ الْيَمِينُ إِلَّا بِاللهِ أَوِ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ، أَوْ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ.

وَالْحَلِفُ بِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ؛ لَا تَنْعَقِدُ بِهِ الْيَمِينُ!.

وَقَالَ الْإِمَامُ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَمِينَ لَا تَنْعَقِدُ إِلَّا بِاللهِ، أَوْ بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ، أَوْ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ: فَالْيَمِينُ بِاللهِ؛ أَنْ يَقُولَ: وَالَّذِي أَعْبُدُهُ، وَالَّذِي أُصَلِّي لَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَالْيَمِينُ بِأَسْمَائِهِ؛ كَقَوْلِهِ: وَاللهِ، وَالرَّحْمَنِ، وَالرَّحِيمِ، وَنَحْوَهُ، وَالْيَمِينُ بِصِفَاتِهِ؛ كَقَوْلِهِ: وَعِزَّةِ اللهِ، وَعَظَمَةِ اللهِ، وَجَلَالِ اللهِ، وَقُدْرَةِ اللهِ، وَنَحْوِهَا، فَإِذَا حَلَفَ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَى أَمْرٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَحَنِثَ؛ تَجِبُ عَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ اهـ.

قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: الْحَلِفُ بِغَيْرِ اللهِ: شِرْكٌ؛ لَا يَنْعَقِدُ بِهِ الْيَمِينُ، وَلَا تَجِبُ فِيهِ الْكَفَّارَةُ، مِثْلَ أَنْ يَقُولَ: وَالْكَعْبَةِ، وَبَيْتِ اللهِ، وَالنَّبِيِّ، أَوْ: وَحَيَاتِي، وَشَرَفِي، وَشَرَف أُمِّي، وَشَرَف أُخْتِي! أَوْ: وَحَيَاةِ فُلَانٍ، وَرَأْسِ فُلَانٍ، وَتُرْبَةِ فُلَانٍ!! أَوْ: حَلَفَ بِأَبِيهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، قَالَ: سَمِعَ ابْنُ عُمَرَ، رَجُلًا يَحْلِفُ: لَا وَالْكَعْبَةِ! فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: [وَيْحَكَ لَا تَفْعَلْ!]، [لَا تَحْلِفْ بِغَيْرِ اللهِ!!]، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، يَقُولُ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ!!**» [صحيح: رواه أحمد – وما بين المعقوفين الثاني له –، وأبو داود، والترمذي، وابن حبان في صحيحه – وما بين المعقوفين الأول له –، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في الإرواء(٢٥٦١)، وصحيح الجامع(٦٢٠٤)].

قُلْتُ: وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ. وَقَدْ دَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ الْحَلِفَ بِغَيْرِ اللهِ يَضُرُّ بِالْإِيمَانِ وَالْعَقِيدَةِ، فَإِذَا صَدَرَ هَذَا مِنْ مُسْلِمٍ؛ فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**مَنْ حَلَفَ مِنْكُمْ، فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى؛ فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِرْكَ؛ فَلْيَتَصَدَّقْ بِشَيْءٍ**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة؛ وغيرهم].

وَذَلِكَ كَقَوْلِ الْقَائِلِ: فَعَلْتُ هَذَا وَاللهِ، أَوْ: أفْعَلُهُ وَاللهِ، أَوْ: لَا أَفْعَلُهُ وَاللهِ، عَلَى سُبُوقِ الْمُتَكَلِّمِ بِذَلِكَ لِسَانُهُ بِمَا وَصَلَ بِهِ كَلَامهُ مِنَ الْيَمِينِ.

عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، فِي قَوْلِ اللهِ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ قَالَتْ: لَا وَاللهِ، وَبَلَى وَاللهِ.[٣٥٢]

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ اللَّغْوُ فِي الْيَمِينِ: الْيَمِينُ الَّتِي يَحْلِفُ بِهَا الْحَالِفُ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَمَا يَحْلِفُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَتَبَيَّنُ غَيْرُ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ بِخِلَافِ الَّذِي حَلَفَ عَلَيْهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ اللَّغْوُ مِنَ الْأَيْمَانِ: الَّتِي يَحْلِفُ بِهَا صَاحِبهَا فِي حَالِ الْغَضَبِ، عَلَى غَيْرِ عَقْدِ قَلْبٍ وَلَا عَزْمٍ، وَلَكِنْ وُصْلَةً لِلْكَلَامِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: اللَّغْوُ مِنَ الْأَيْمَانِ: كُلُّ يَمِينٍ وَصَلَ الرَّجُلُ بِهَا كَلَامَهُ، عَلَى غَيْرِ قَصْدٍ مِنْهُ إِيجَابَهَا عَلَى نَفْسِهِ.

وَاللَّغْوُ مِنَ الْكَلَامِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: كُلُّ كَلَامٍ كَانَ مَذْمُومًا وَسَقَطًا لَا مَعْنَى لَهُ مَهْجُورًا، يُقَالُ مِنْهُ: لَغَا فُلَانٌ فِي كَلَامِهِ يَلْغُو لَغْوًا: إِذَا قَالَ قَبِيحًا مِنَ الْكَلَامِ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ وَمَسْمُوعٌ مِنَ الْعَرَبِ: لَغَيْتُ بِاسْمِ فُلَانٍ، بِمَعْنَى: أُولِعْتُ بِذِكْرِهِ بِالْقَبِيحِ.

فَإِذَا كَانَ اللَّغْوُ مَا وَصَفْتُ، وَكَانَ الْحَالِفُ بِاللهِ: (مَا فَعَلْتُ كَذَا) وَقَدْ فَعَلَ؛ وَ: (لَقَدْ فَعَلْتُ كَذَا) وَمَا فَعَلَ، وَاصِلًا بِذَلِكَ كَلَامَهُ عَلَى سَبِيلِ سُبُوقِ لِسَانِهِ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدِ إِثْمٍ فِي يَمِينِهِ، وَلَكِنْ لِعَادَةٍ قَدْ جَرَتْ لَهُ عِنْدَ عَجَلَةِ الْكَلَامِ، وَالْقَائِلُ: (وَاللهِ إِنَّ هَذَا لَفُلَانٌ) وَهُوَ يَرَاهُ كَمَا قَالَ، أَوْ: (وَاللهِ مَا هَذَا فُلَانٌ) وَهُوَ يَرَاهُ لَيْسَ بِهِ، وَالْقَائِلُ: (لَيَفْعَلَنَّ كَذَا وَاللهِ)، أَوْ: (لَا يَفْعَلُ كَذَا وَاللهِ)، عَلَى سَبِيلِ مَا وَصَفْنَا مِنْ عَجَلَةِ الْكَلَامِ، وَسُبُوقِ اللِّسَانِ لِلْعَادَةِ، عَلَى غَيْرِ تَعَمُّدِ حَلِفٍ عَلَى بَاطِلٍ، وَالْقَائِلُ: (هُوَ مُشْرِكٌ) أَوْ: (هُوَ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ) إِنْ لَمْ يَفْعَلْ كَذَا، أَوْ إِنْ فَعَلَ كَذَا مِنْ غَيْرِ عَزْمٍ عَلَى كُفْرٍ، أَوْ يَهُودِيَّة أَوْ نَصْرَانِيَّة؛ جَمِيعُهُمْ قَائِلُونَ

[٣٥٢] صحيح: رواه البخاري، وأبو داود، والبيهقي في الكبرى، وابن حبان في صحيحه، وانظر – للفائدة –: الإرواء(٢٥٦٧).

هُجْرًا مِنَ الْقَوْلِ وَذَمِيمًا مِنَ الْمَنْطِقِ، وَحَالِفُونَ مِنَ الْأَيْمَانِ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَمْ تَتَعَمَّدْ فِيهِ الْإِثْمَ قُلُوبُهُمْ، كَانَ مَعْلُومًا أَنَّهُمْ لُغَاةٌ فِي أَيْمَانِهِمْ، لَا تَلْزَمُهُمْ كَفَّارَةٌ فِي الْعَاجِلِ، وَلَا عُقُوبَةٌ فِي الْآجِلِ؛ لِإِخْبَارِ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَنَّهُ غَيْرُ مُؤَاخِذٍ عِبَادَهُ بِمَا لَغَوْا مِنْ أَيْمَانِهِمْ، وَأَنَّ الَّذِي هُوَ مُؤَاخِذُهُمْ بِهِ مَا تَعَمَّدَتْ فِيهِ الْإِثْمَ قُلُوبُهُمْ.

فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ إِذًا: لَا تَجْعَلُوا اللهَ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – قُوَّةً لِأَيْمَانِكُمْ، وَحُجَّةً لِأَنْفُسِكُمْ فِي إِقْسَامِكُمْ، فِي أَنْ لَا تَبَرُّوا وَلَا تَتَّقُوا وَلَا تُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا لَغَتْهُ أَلْسِنَتُكُمْ مِنْ أَيْمَانِكُمْ فَنَطَقَتْ بِهِ مِنْ قَبِيحِ الْأَيْمَانِ وَذَمِيمِهَا، عَلَى غَيْرِ تَعَمُّدِكُمُ الْإِثْمَ، وَقَصْدِكُمْ بِعَزَائِمِ صُدُورِكُمْ إِلَى إِيجَابِ عَقْدِ الْأَيْمَانِ الَّتِي حَلَفْتُمْ بِهَا، وَلَكِنَّهُ إِنَّمَا يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا تَعَمَّدْتُمْ فِيهِ عَقْدَ الْيَمِينِ وَإِيجَابِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَعَزَمْتُمْ عَلَى الْإِتْمَامِ عَلَى مَا حَلَفْتُمْ عَلَيْهِ بِقَصْدٍ مِنْكُمْ وَإِرَادَةٍ، فَيَلْزَمُكُمْ حِينَئِذٍ: إِمَّا كَفَّارَةٌ فِي الْعَاجِلِ، وَإِمَّا عُقُوبَةٌ فِي الْآجِلِ!.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ[٣٥٣]﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الْمَعْنَى الَّذِي أَوْعَدَ اللهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ عِبَادَهُ أَنَّهُ مُؤَاخِذُهُمْ بِهِ بَعْدَ إِجْمَاعِ جَمِيعِهِمْ عَلَى أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ مَا تَعَمَّدَتْ.

[٣٥٣] **قَالَ الْإِمَامُ السَّعْدِيُّ فِي مَنْهَجِ السَّالِكِينَ:** قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ**﴾ يَعْنِي: بِالْيَمِينِ الَّتِي يَحْلِفُهَا، وَيَعْقِدُ عَلَيْهَا، وَتَكُونُ عَلَى أَمْرٍ مُسْتَقْبَلٍ، فَهَذِهِ فِيهَا كَفَّارَةٌ، فَإِذَا حَلَفَ لَا يُكَلِّمُ فُلَانًا، قَدْ عَقَدَ قَلْبُهُ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنْ كَلَّمَهُ، فَعَلَيْهِ كَفَّارَةٌ، وَإِذَا حَلَفَ لَا يَأْكُلُ مِنْ هَذَا الطَّعَامِ، أَوْ لَا يَرْكَبُ هَذِهِ السَّيَّارَةَ، أَوْ لَا يَدْخُلُ هَذَا الْبَيْتَ – مَثَلًا –، أَوْ لَا يَلْبَسُ هَذَا الثَّوْبَ، أَوْ لَا يُسَافِرُ فِي هَذَا الشَّهْرِ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، وَاحْتَاجَ إِلَى فِعْلِ ذَلِكَ، فَإِنَّ هَذِهِ يَمِينٌ مُنْعَقِدَةٌ تَدْخُلُهَا الْكَفَّارَةُ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُكَفِّرَ، إِذَا فَعَلَ مَا حَلَفَ عَلَيْهِ؛ وَجَبَتْ عَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ**﴾ هَذِهِ الثَّلَاثُ مُخَيَّرٌ فِيهَا، إِمَّا أَنْ يُعْتِقَ رَقَبَةً، وَإِمَّا أَنْ يُطْعِمَ عَشَرَةَ مَسَاكِينَ، وَإِمَّا أَنْ يَكْسُوهُمْ، أَمَّا الْإِطْعَامُ: فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْ أَوْسَطِ الطَّعَامِ، مِنْ أَوْسَطِ طَعَامِ أَهْلِهِ، إِذَا كَانَ – مَثَلًا – أَكْثَرُ طَعَامِ أَهْلِهِ الْأُرْزَ وَاللَّحْمَ؛ أَطْعَمَ مِنْهُ، إِذَا كَانَ أَكْثَرُ طَعَامِ أَهْلِهِ الْبُرَّ؛ أَطْعَمَ مِنْهُ، إِذَا كَانَ أَكْثَرُ طَعَامِ أَهْلِهِ اللَّحْمَ؛ أَطْعَمَ مِنْهُ، ﴿**مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ**﴾ لَا مِنَ الْأَعْلَى وَلَا مِنَ الْأَرْدَأِ، يُخَيَّرُ بَيْنَ الْعِتْقِ وَالْإِطْعَامِ وَالْكِسْوَةِ، ﴿**فَمَنْ لَمْ يَجِدْ**﴾ – لِفَقْرِهِ – ﴿**فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ**﴾ اهـ.

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ فِي الْمُحَلَّى: وَصِفَةُ الْكَفَّارَةِ: هِيَ أَنَّ مَنْ حَنِثَ، أَوْ أَرَادَ الْحِنْثَ وَإِنْ لَمْ يَحْنَثْ بَعْدُ، فَهُوَ مُخَيَّرٌ بَيْنَ مَا جَاءَ بِهِ النَّصُّ: وَهُوَ: إِمَّا أَنْ يُعْتِقَ رَقَبَةً، وَإِمَّا أَنْ يَكْسُوَ عَشَرَةَ مَسَاكِينَ، وَإِمَّا أَنْ يُطْعِمَهُمْ، أَيُّ ذَلِكَ فَعَلَ فَهُوَ فَرْضٌ، وَيُجْزِيهِ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ: فَفَرْضُهُ صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَلَا يُجْزِئُهُ الصَّوْمُ مَا دَامَ يَقْدِرُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا: مِنَ الْعِتْقِ، أَوِ الْكِسْوَةِ، أَوِ الْإِطْعَامِ.

بُرْهَانُ ذَلِكَ: قَوْلُ اللهِ – تَعَالَى –: ﴿**فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**﴾؛ وَمَا نَعْلَمُ فِي هَذَا خِلَافًا.

وَقَالَ: وَلَا يُجْزِيهِ بَدَلَ مَا ذَكَرْنَا: صَدَقَةٌ، وَلَا هَدْيٌ، وَلَا قِيمَةٌ، وَلَا شَيْءٌ سِوَاهُ أَصْلًا؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى – لَمْ يُوجِبْ غَيْرَ مَا ذَكَرْنَا، فَمَنْ أَوْجَبَ فِي ذَلِكَ قِيمَةً؛ فَقَدْ تَعَدَّى حُدُودَ اللهِ: ﴿**وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**﴾ وَقَدْ شَرَعَ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ تَعَالَى، ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾ اهـ.

وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ، أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَوْعَدَ عِبَادَهُ أَنْ يُؤَاخِذَهُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْأَيْمَانِ، فَالَّذِي تَكْسِبُهُ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْأَيْمَانِ هُوَ مَا قَصَدَتْهُ وَعَزَمَتْ عَلَيْهِ عَلَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ مِنْهَا بِمَا تَقْصِدُهُ وَتُرِيدُهُ.

﴿وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يَعْنِي: وَاللهُ غَفُورٌ لِعِبَادِهِ فِيمَا لَغَوْا مِنْ أَيْمَانِهِمْ، فَسَاتِرٌ عَلَيْهِمْ فِيهَا، وَصَافِحٌ لَهُمْ بِعَفْوِهِ عَنِ الْعُقُوبَةِ فِيهَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، حَلِيمٌ فِي تَرْكِهِ مُعَاجَلَةَ أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ الْعُقُوبَةَ عَلَى مَعَاصِيهِمْ.

٢٢٦– ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ[٣٥٤] مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ يَقْسِمُونَ أَلِيَّةً، وَالْأَلِيَّةُ: الْحَلِفُ.

وَالتَّرَبُّصُ: النَّظَرُ وَالتَّوَقُّفُ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ: لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ أَنْ يَعْتَزِلُوا مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ.[٣٥٥]

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي صِفَةِ الْيَمِينِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الرَّجُلُ مُولِيًا مِنَ امْرَأَتِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْيَمِينُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الرَّجُلُ مُولِيًا مِنَ امْرَأَتِهِ: أَنْ يَحْلِفَ عَلَيْهَا فِي حَالِ غَضَبٍ عَلَى وَجْهِ الْإِضْرَارِ لَهَا أَنْ لَا يُجَامِعَهَا فِي فَرْجِهَا، فَأَمَّا إِنْ حَلَفَ عَلَى غَيْرِ وَجْهِ الْإِضْرَارِ، وَعَلَى غَيْرِ غَضَبٍ؛ فَلَيْسَ هُوَ مُولِيًا مِنْهَا.

---

[٣٥٤] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ:** ﴿**يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ**﴾: يَحْلِفُونَ. يُقَالُ : آلَيْتُ مِنِ امْرَأَتِي أُولِي إِيلَاءً؛ إِذَا حَلَفَ أَنْ لَا يُجَامِعَهَا، وَالِاسْمُ الْأَلِيَّةُ.

وَقَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ: آلَى إِيلَاءً، مِثْلُ آتَى إِيتَاءً: إِذَا حَلَفَ، فَهُوَ مُؤْلٍ، وَتَأَلَّى وَائْتَلَى كَذَلِكَ.

[٣٥٥] **قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ:** وَاعْلَمْ أَنَّ أَهْلَ كُلِّ مَذْهَبٍ قَدْ فَسَّرُوا هَذِهِ الْآيَةَ بِمَا يُطَابِقُ مَذْهَبَهُمْ، وَتَكَلَّفُوا بِمَا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ، وَلَا دَلِيلَ آخَرَ، وَمَعْنَاهَا ظَاهِرٌ وَاضِحٌ؛ وَهُوَ: أَنَّ اللهَ جَعَلَ الْأَجَلَ لِمَنْ يُولِي– أَيْ: يَحْلِفُ مِنِ امْرَأَتِهِ– أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ.

ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا لِعِبَادِهِ بِحُكْمِ هَذَا الْمُولِي بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ: ﴿**فَإِنْ فَاءُوا**﴾ رَجَعُوا إِلَى بَقَاءِ الزَّوْجِيَّةِ وَاسْتِدَامَةِ النِّكَاحِ ﴿**فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ أَيْ: لَا يُؤَاخِذُهُمْ بِتِلْكَ الْيَمِينِ بَلْ يَغْفِرُ لَهُمْ وَيَرْحَمُهُمْ ﴿**وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ**﴾ أَيْ: وَقَعَ الْعَزْمُ مِنْهُمْ عَلَيْهِ، وَالْقَصْدُ لَهُ ﴿**فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ**﴾ لِذَلِكَ مِنْهُمْ، ﴿**عَلِيمٌ**﴾ بِهِ. فَهَذَا مَعْنَى الْآيَةِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا شُبْهَةَ، فَمَنْ حَلَفَ أَنْ لَا يَطَأَ امْرَأَتَهُ وَلَمْ يُقَيِّدْ بِمُدَّةٍ، أَوْ قَيَّدَ بِزِيَادَةٍ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ؛ كَانَ عَلَيْنَا إِمْهَالُهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، فَإِذَا مَضَتْ، فَهُوَ بِالْخِيَارِ: إِمَّا رَجَعَ إِلَى نِكَاحِ امْرَأَتِهِ – وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ بَعْدَ مُضِيِّ الْمُدَّةِ كَمَا كَانَتْ زَوْجَتُهُ قَبْلَهَا – أَوْ طَلَّقَهَا وَكَانَ لَهُ حُكْمُ الْمُطَلِّقِ لِامْرَأَتِهِ ابْتِدَاءً اهـ.

قُلْتُ: وَمَنْ حَلَفَ مِنْ زَوْجَتِهِ لِدُونِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، كَأَنْ يَقُولَ: وَاللهِ! لَا أَقْرَبُكِ شَهْرًا، أَوْ شَهْرَينِ، أَوْ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ؛ فَهَذَا مِثْلُ سَائِرِ الْأَيْمَانِ، إِنْ رَجَعَ عَنْ يَمِينِهِ وَجَامَعَ زَوْجَتَهُ؛ كَفَّرَ عَنْ يَمِينِهِ – وَهَذَا هُوَ الْمُتَعَيِّنُ؛ لِعَدَمِ الْإِضْرَارِ بِالزَّوْجَةِ! –، وَإِنْ لَمْ يَرْجِعْ؛ أَتَمَّ الْمُدَّةَ.

وَقَالَ آخَرُونَ: سَوَاءٌ إِذَا حَلَفَ الرَّجُلُ عَلَى امْرَأَتِهِ أَنْ لَا يُجَامِعَهَا فِي فَرْجِهَا، كَانَ حَلِفُهُ فِي غَضَبٍ أَوْ غَيْرِ غَضَبٍ؛ كُلُّ ذَلِكَ إِيلَاءٌ.

وَقَالَ آخَرُونَ: كُلُّ يَمِينٍ حَلَفَ بِهَا الرَّجُلُ فِي مَسَاءَةِ امْرَأَتِهِ؛ فَهِيَ إِيلَاءٌ مِنْهُ مِنْهَا، عَلَى الْجِمَاعِ حلف أَو غَيْره، فِي رِضًا حَلَفَ أَوْ سَخَطٍ.

وَأَوْلَى التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ؛ قَوْلُ مَنْ قَالَ: كُلُّ يَمِينٍ مَنَعَتِ الْمُقْسِمَ الْجِمَاعَ أَكْثَرَ مِنَ الْمُدَّةِ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لِلْمُولِي تَرَبُّصَهَا، قَائِلًا فِي غَضَبٍ كَانَ ذَلِكَ أَوْ رِضًا.

﴿فَإِنْ فَاءُوا[٣٥٦]﴾ يَعْنِي: فَإِنْ رَجَعُوا إِلَى تَرْكِ مَا حَلَفُوا عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلُوهُ بِهِنَّ مِنْ تَرْكِ جِمَاعِهِنَّ فَجَامَعُوهُنَّ وَحَنِثُوا فِي أَيْمَانِهِمْ؛ ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْكَذِبِ فِي أَيْمَانِهِمْ بِأَنْ لَا يَأْتُوهُنَّ ثُمَّ أَتَوْهُنَّ، وَلِمَا سَلَفَ مِنْهُمْ إِلَيْهِنَّ مِنَ الْيَمِينِ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يَحْلِفُوا عَلَيْهِ، فَحَلَفُوا عَلَيْهِ، ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِمْ وَبِغَيْرِهِمْ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

---

[٣٥٦] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَصْلُ الْفَيْءِ: الرُّجُوعُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ**﴾ يَعْنِي: حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى أَمْرِ اللهِ اهـ.

فَائِدَةٌ: قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ فِي الْإِجْمَاعِ: وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْفَيْءَ: الْجِمَاعُ؛ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ عُذْرٌ اهـ.

قَوْلُهُ: ﴿**فَإِنْ فَاءُوا**﴾ يَعْنِي: فَإِنْ رَجَعَ عَنْ يَمِينِهِ وَجَامَعَ زَوْجَتَهُ فِي الْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ؛ كَفَّرَ عَنْ يَمِينِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْمَطْلُوبُ مِنْهُ، فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ؛ ﴿**فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ**﴾ يَغْفِر لَهُمْ مَا حَصَلَ مِنْهُمْ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِنَّ بِسَبَبِ الْيَمِينِ، ﴿**رَّحِيمٌ**﴾ حَيْثُ جَعَلَ لِأَيْمَانِهِمْ كَفَّارَة وَتَحِلَّة، وَلَمْ يَجْعَلْهَا لَازِمَة لَهُمْ غَيْر قَابِلَة لِلانْفِكَاكِ.

وَإِنْ أَبَى وَامْتَنَعَ، وَمَضَتِ الْأَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى عَدَمِ وَطْئِهَا، وَهِيَ مُقِيمَةٌ عَلَى طَلَبِ حَقِّهَا؛ يُقَالُ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ يَمِينِكَ، أَوْ طَلِّق! فَإِنْ أَبَى الرُّجُوعَ لِزَوْجَتِهِ، وَأَبَى الطَّلَاقَ؛ طَلَّقَ عَلَيْهِ الْقَاضِي أَوْ فَسَخَهَا مِنْهُ؛ إِذَا طَلَبَتِ الزَّوْجَةُ ذَلِكَ.

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ نَافِعٍ، أَنَّ ابْنَ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، كَانَ يَقُولُ فِي الْإِيلَاءِ الَّذِي سَمَّى اللهُ: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدَ الأَجَلِ إِلَّا أَنْ يُمْسِكَ بِالْمَعْرُوفِ، أَوْ يَعْزِمَ بِالطَّلَاقِ كَمَا أَمَرَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –».

وقَالَ لِي إِسْمَاعِيلُ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ: إِذَا مَضَتْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ: يُوقَفُ حَتَّى يُطَلِّقَ، وَلَا يَقَعُ عَلَيْهِ الطَّلَاقُ حَتَّى يُطَلِّقَ. وَيُذْكَرُ ذَلِكَ عَنْ: عُثْمَانَ، وَعَلِيٍّ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، وَعَائِشَةَ، وَاثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – اهـ.

قُلْتُ: وَانْظُرْ – لِلْفَائِدَةِ –: الْإِرْوَاء تَحْتَ الْحَدِيثِ(٢٠٨٥) و(٢٠٨٦).

٢٢٧- ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيْعٌ عَلِيمٌ﴾يَعْنِي: فَإِنْ فَاءُوا بَعْدَ وَقْفِ الْإِمَامِ إِيَّاهُمْ مِنْ بَعْدِ انْقِضَاءِ الْأَشْهُرِ الْأَرْبَعَةِ، فَرَجَعُوا إِلَى أَدَاءِ حَقِّ اللهِ عَلَيْهِمْ لِنِسَائِهِمُ اللَّائِي آلَوْا مِنْهُنَّ؛ فَإِنَّ اللهَ لَهُمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَطَلَّقُوهُنَّ؛ فَإِنَّ اللهَ سَمِيْعٌ لِطَلَاقِهِمْ إِذَا طَلَّقُوا، عَلِيمٌ بِمَا أَتَوْا إِلَيْهِنَّ.

٢٢٨- ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ[٣٥٧]﴾يَعْنِي: وَالْمُطَلَّقَاتُ اللَّوَاتِي طُلِّقْنَ بَعْدَ ابْتِنَاءِ أَزْوَاجِهِنَّ بِهِنَّ، وَإِفْضَائِهِمْ إِلَيْهِنَّ - إِذَا كُنَّ ذَوَاتِ حَيْضٍ وَطُهْرٍ -، يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ عَنْ نِكَاحِ الْأَزْوَاجِ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ.

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ (الْقُرْءِ) الَّذِي عَنَاهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الْحَيْضُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْقُرْءُ الَّذِي أَمَرَ اللهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - الْمُطَلَّقَاتِ أَنْ يَعْتَدِدْنَ بِهِ: الطُّهْرُ.

وَالْقُرُوءُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: جَمْعُهُ قَرْءٌ، وَقَدْ تَجْمَعُهُ الْعَرَبُ أَقْرَاءً.

وَأَصْلُ الْقَرْءِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْوَقْتُ لِمَجِيءِ الشَّيْءِ الْمُعْتَادِ مَجِيئُهُ لِوَقْتٍ مَعْلُومٍ، وَلِإِدْبَارِ الشَّيْءِ الْمُعْتَادِ إِدْبَارُهُ لِوَقْتٍ مَعْلُومٍ؛ وَلِذَلِكَ قَالَتِ الْعَرَبُ: أَقْرَأَتْ حَاجَةُ فُلَانٍ عِنْدِي، بِمَعْنَى دَنَا قَضَاؤُهَا، وَحَانَ وَقْتُ قَضَائِهَا؛ وَأَقْرَأَ النَّجْمُ: إِذَا جَاءَ وَقْتُ أُفُولِهِ، وَأَقْرَأَ: إِذَا جَاءَ وَقْتُ طُلُوعِهِ.[٣٥٨]

وَلِذَلِكَ سَمَّى بَعْضُ الْعَرَبِ وَقْتَ مَجِيءِ الْحَيْضِ قُرْءًا، إِذَا كَانَ دَمًا يُعْتَادُ ظُهُورُهُ مِنْ فَرْجِ الْمَرْأَةِ فِي وَقْتٍ، وَكُمُونُهُ فِي آخَرَ، فَسُمِّيَ وَقْتُ مَجِيئِهِ قُرْءًا، كَمَا سَمَّى الَّذِينَ سَمُّوا وَقْتَ مَجِيءِ الرِّيحِ لِوَقْتِهَا

---

[٣٥٧] **قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ**﴾ ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ شُمُولُهَا لِجَمِيعِ الْمُطَلَّقَاتِ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَ فِي آيَاتٍ أُخَرَ خُرُوجَ بَعْضِ الْمُطَلَّقَاتِ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ؛ كَالْحَوَامِلِ الْمَنْصُوصِ عَلَى أَنَّ عِدَّتَهُنَّ وَضْعُ الْحَمْلِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿**وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ**﴾ وَكَالْمُطَلَّقَاتِ قَبْلَ الدُّخُولِ الْمَنْصُوصِ عَلَى أَنَّهُنَّ لَا عِدَّةَ عَلَيْهِنَّ أَصْلًا؛ بِقَوْلِهِ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا**﴾.

أَمَّا اللَّوَاتِي لَا يَحِضْنَ، لِكِبَرٍ أَوْ صِغَرٍ؛ فَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ عِدَّتَهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿**وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ**﴾.

[٣٥٨] (**الْقَرْءُ**) وَ(**الْقُرْءُ**) - بِفَتْحِ الْقَافِ وَبِضَمِّهَا -: الْحَيْضُ، وَالطُّهْرُ، ضِدّ؛ وَإِنَّمَا جُعِلَ الْحَيْضُ قُرْءًا وَالطُّهْرُ قُرْءًا؛ لِأَنَّ أَصْلَ الْقُرْءِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْوَقْتُ، يُقَالُ: رَجَعَ فُلَانٌ لِقُرْئِهِ، أَيْ: لِوَقْتِهِ [غريب القرآن؛ لابن قتيبة- ولسان العرب].

قُرْءًا، وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِفَاطِمَةَ بِنْتِ أَبِي حُبَيْشٍ: «دَعِي الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكِ» بِمَعْنَى: دَعِي الصَّلَاةَ أَيَّامَ إِقْبَالِ حَيْضِكِ.

وَسَمَّى آخَرُونَ مِنَ الْعَرَبِ وَقْتَ مَجِيءِ الطُّهْرِ قُرْءًا؛ إِذْ كَانَ وَقْتُ مَجِيئِهِ وَقْتًا لِإِدْبَارِ الدَّمِ – دَمِ الْحَيْضِ –، وَإِقْبَالِ الطُّهْرِ الْمُعْتَادِ مَجِيئُهُ لِوَقْتٍ مَعْلُومٍ.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾الَّذِي نُهِيَتِ الْمَرْأَةُ الْمُطَلَّقَةُ عَنْ كِتْمَانِهِ زَوْجَهَا الْمُطَلِّقَهَا تَطْلِيقَةً أَوْ تَطْلِيقَتَيْنِ مِمَّا خَلَقَ اللهُ فِي رَحِمِهَا: الْحَيْضُ وَالْحَبَلُ.[٣٥٩]

﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾يَعْنِي: أَنَّ كِتْمَانَ الْمَرْأَةِ الْمُطَلَّقَةِ زَوْجَهَا الْمُطَلِّقَهَا مَا خَلَقَ اللهُ – تَعَالَى – فِي رَحِمِهَا مِنْ حَيْضٍ وَوَلَدٍ فِي أَيَّامِ عِدَّتِهَا مِنْ طَلَاقِهِ ضِرَارًا لَهُ، لَيْسَ مِنْ فِعْلِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا مِنْ أَخْلَاقِهِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَخْلَاقِهِنَّ مِنَ النِّسَاءِ الْكَوَافِرِ، فَلَا تَتَخَلَّقْنَ – أَيَّتُهَا الْمُؤْمِنَاتُ – بِأَخْلَاقِهِنَّ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَحِلُّ لَكُنَّ إِنْ كُنْتُنَّ تُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَكُنْتُنَّ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ!.

---

٣٥٩ **قَالَ الْإِمَامُ السَّعْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَحَرَّمَ عَلَيْهِنَّ كِتْمَان ذَلِكَ، مِنْ حَمْلٍ أَوْ حَيْضٍ؛ لِأَنَّ كِتْمَانَ ذَلِكَ يُفْضِي إِلَى مَفَاسِدَ كَثِيرَةٍ:
فَكِتْمَانُ الْحَمْلِ: مُوجِبٌ أَنْ تُلْحِقَهُ بِغَيْرِ مَنْ هُوَ لَهُ؛ رَغْبَةً فِيهِ، وَاسْتِعْجَالًا لِانْقِضَاءِ الْعِدَّةِ، فَإِذَا أَلْحَقَتْهُ بِغَيْرِ أَبِيهِ؛ حَصَلَ مِنْ قَطْعِ الرَّحِمِ، وَالْإِرْثِ، وَاحْتِجَابِ مَحَارِمِهِ وَأَقَارِبِهِ عَنْهُ، وَرُبَّمَا تَزَوَّجَ ذَوَات مَحَارِمِهِ!! وَحَصَلَ فِي مُقَابَلَةِ ذَلِكَ: إِلْحَاقُهُ بِغَيْرِ أَبِيهِ! وَثُبُوت تَوَابع ذَلِكَ؛ مِنَ الْإِرْثِ مِنْهُ وَلَهُ، وَمِنْ جَعْلِ أَقَارِبِ الْمُلْحَق بِهِ أَقَارِبٌ لَهُ!! وَفِي ذَلِكَ مِنَ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا رَبُّ الْعِبَادِ!!! وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ إِلَّا إِقَامَتُهَا مَعَ مَنْ نِكَاحها بَاطِلٌ فِي حَقِّهِ، وَفِيهِ الْإِصْرَارُ عَلَى الْكَبِيرَةِ الْعَظِيمَةِ – وَهِيَ الزِّنَا –؛ لَكَفَى بِذَلِكَ شَرًّا!!!.
وَأَمَّا كِتْمَانُ الْحَيْضِ: بِأَنِ اسْتَعْجَلَتْ وَأَخْبَرَتْ بِهِ وَهِيَ كَاذِبَةٌ؛ فَفِيهِ: مِنِ انْقِطَاعِ حَقِّ الزَّوْجِ عَنْهَا، وَإِبَاحَتِهَا لِغَيْرِهِ، وَمَا يَتَفَرَّعُ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الشَّرِّ – كَمَا ذَكَرْنَا –، وَإِنْ كَذَبَتْ وَأَخْبَرَتْ بِعَدَمِ وُجُودِ الْحَيْضِ؛ لِتَطُول الْعِدَّةِ، فَتَأْخُذ مِنْهُ نَفَقَةً غَيْر وَاجِبَة عَلَيْهِ، بَلْ هِيَ سُحْتٌ عَلَيْهَا مُحَرَّمَةٌ مِنْ جِهَتَيْنِ:
مِنْ كَوْنِهَا لَا تَسْتَحِقُّهُ، وَمِنْ كَوْنِهَا نَسَبَتْهُ إِلَى حُكْمِ الشَّرْعِ وَهِيَ كَاذِبَةٌ! وَرُبَّمَا رَاجَعَهَا بَعْدَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سِفَاحًا؛ لِكَوْنِهَا أَجْنَبِيَّة عَنْهُ، فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾.
فَصُدُورُ الْكِتْمَانِ مِنْهُنَّ؛ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ إِيمَانِهِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَإِلَّا: فَلَوْ آمَنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَعَرَفْنَ أَنَّهُنَّ مُجْزِيَّات عَنْ أَعْمَالِهِنَّ؛ لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُنَّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ.
وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى قَبُولِ خَبَرِ الْمَرْأَةِ عَمَّا تُخْبِر بِهِ عَنْ نَفْسِهَا مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ غَيْرُهَا؛ كَالْحَيْضِ وَالْحَمْلِ وَنَحْوِهِ.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ[٣٦٠] إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾يعْنِي: وَأَزْوَاجُ الْمُطَلَّقَاتِ اللَّاتِي فَرَضْنَا عَلَيْهِنَّ أَنْ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ، وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ، أَحَقُّ وَأَوْلَى بِرَدِّهِنَّ إِلَى أَنْفُسِهِمْ فِي حَالِ تَرَبُّصِهِنَّ إِلَى الْأَقْرَاءِ الثَّلَاثَةِ، وَأَيَّامِ الْحَبَلِ، وَارْتِجَاعِهِنَّ إِلَى حِبَالِهِمْ مِنْهُمْ بِأَنْفُسِهِنَّ أَنْ يَمْنَعَهُنَّ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ ذَلِكَ.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ[٣٦١]﴾اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: تَأْوِيلُهُ: وَلَهُنَّ

---

[٣٦٠] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَفِي قَوْلِهِ: ﴿**وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ**﴾أَبْيَنُ الدَّلَالَةِ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُولِيَ إِذَا عَزَمَ الطَّلَاقَ فَطَلَّقَ امْرَأَتَهُ الَّتِي آلَى مِنْهَا أَنَّ لَهُ عَلَيْهَا الرَّجْعَةَ فِي طَلَاقِهِ ذَلِكَ، وَعَلَى فَسَادِ قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ مُضِيَّ الْأَشْهُرِ الْأَرْبَعَةِ عَزْمُ الطَّلَاقِ، وَأَنَّهُ تَطْلِيقَةٌ بَائِنَةٌ؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – إِنَّمَا أَعْلَمَ عِبَادَهُ مَا يَلْزَمُهُمْ إِذَا آلَوْا مِنْ نِسَائِهِمْ وَمَا يَلْزَمُ النِّسَاءَ مِنَ الْأَحْكَامِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِإِيلَاءِ الرِّجَالِ وَطَلَاقِهِمْ، إِذَا عَزَمُوا ذَلِكَ وَتَرَكُوا الْفَيْءَ اهـ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جُعِلُوا أَحَقَّ بِالرَّجْعَةِ، كَأَنَّ لِلنِّسَاءِ حَقًّا فِيهَا؟ قُلْتُ: الْمَعْنَى: أَنَّ الرَّجُلَ إِنْ أَرَادَ الرَّجْعَةَ وَأَبَتْهَا الْمَرْأَةُ؛ وَجَبَ إِيثَارُ قَوْلِهِ عَلَى قَوْلِهَا وَكَانَ هُوَ أَحَقَّ مِنْهَا، لَا أَنَّ لَهَا حَقًّا فِي الرَّجْعَةِ!.

فَائِدَةٌ: قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: قَوْلُهُ: ﴿**وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ**﴾ حُكْمٌ خَاصٌّ فِيمَنْ كَانَ طَلَاقُهَا دُونَ الثَّلَاثِ. وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْحُرَّ إِذَا طَلَّقَ زَوْجَتَهُ الْحُرَّةَ، وَكَانَتْ مَدْخُولًا بِهَا، تَطْلِيقَةً أَوْ تَطْلِيقَتَيْنِ؛ أَنَّهُ أَحَقُّ بِرَجْعَتِهَا مَا لَمْ تَنْقَضِ عِدَّتُهَا وَإِنْ كَرِهَتِ الْمَرْأَةُ! فَإِنْ لَمْ يُرَاجِعْهَا الْمُطَلِّقُ حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا؛ فَهِيَ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا، وَتَصِيرُ أَجْنَبِيَّةً مِنْهُ، لَا تَحِلُّ لَهُ إِلَّا بِخِطْبَةٍ وَنِكَاحٍ مُسْتَأْنَفٍ بِوَلِيٍّ وَإِشْهَادٍ، لَيْسَ عَلَى سُنَّةِ الْمُرَاجَعَةِ؛ وَهَذَا إِجْمَاعٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

قَالَ الْمُهَلَّبُ: وَكُلُّ مَنْ رَاجَعَ فِي الْعِدَّةِ فَإِنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ شَيْءٌ مِنْ أَحْكَامِ النِّكَاحِ غَيْرَ الْإِشْهَادِ عَلَى الْمُرَاجَعَةِ فَقَطْ، وَهَذَا إِجْمَاعٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ**﴾ اهـ.

[٣٦١] قَوْلُهُ: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ**﴾ أَيْ: وَلِلنِّسَاءِ عَلَى الرِّجَالِ – مِنَ الْحُقُوقِ – مِثْلُ مَا لِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ، فَلْيُؤَدِّ كُلُّ واحد مِنْهُمَا إِلَى الْآخَرِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ ﴿**بِالْمَعْرُوفِ**﴾أي: بِالْوَجْهِ الَّذِي لَا يُنْكَرُ فِي الشَّرْعِ وَعَادَاتِ النَّاسِ.

فَكَمَا أَنَّ عَلَى الزَّوْجَةِ أَنْ تَتَّقِي اللهَ – تَعَالَى – فِي حُقُوقِ زَوْجِهَا، وَأَنْ تَقُومَ بِمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهَا؛ فَلَهَا – أَيْضًا – مِثْلُ الَّذِي لَهُ فِي أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الزَّوْجِ أَنْ يُعَاشِرَهَا بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْ يَقُومَ بِحَقِّهَا الَّذِي أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ. وَمِنْ تِلْكُمُ الْحُقُوقِ:

١– النَّفَقَةُ: مِنَ الطَّعَامِ، وَالشَّرَابِ، وَالْكِسْوَةِ، وَالْمَسْكَنِ، وَتَوَابِعِ ذَلِكَ؛ لِحَدِيثِ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْقُشَيْرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: «**أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ**» قَالَ أَبُو دَاوُدَ: (وَلَا تُقَبِّحْ) أَنْ تَقُولَ: قَبَّحَكِ اللهُ! [صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجة، والنسائي في الكبرى؛ وغيرهم، وصححه الألباني في الإرواء(٢٠٣٣)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٩٢٩)].

وَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي حَدِيثِ جَابِرٍ الطَّوِيلِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «...**وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**...» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، وأبو داود، وابن ماجة، والنسائي في الكبرى، وابن خزيمة في صحيحه، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم].

٢– الْجِمَاعُ: لِقَوْلِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – حِينَمَا كَفَّ عَنْ جِمَاعِ زَوْجَتِهِ مِنْ أَجْلِ الْعِبَادَةِ: «**فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**» [صحيح: رواه البخاري، مسلم، وأحمد؛ وغيرهم].

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى: يَجِبُ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَطَأَ زَوْجَتَهُ بِالْمَعْرُوفِ؛ وَهُوَ مِنْ أَوْكَدِ حَقِّهَا عَلَيْهِ؛ أَعْظَمُ مِنْ إِطْعَامِهَا!!.

وَالْوَطْءُ الْوَاجِبُ: قِيلَ: إِنَّهُ وَاجِبٌ فِي كُلِّ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ مَرَّةً!! وَقِيلَ: بِقَدَرِ حَاجَتِهَا وَقُدْرَتِهِ؛ كَمَا يُطْعِمُهَا بِقَدَرِ حَاجَتِهَا وَقُدْرَتِهِ؛ وَهَذَا أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ.

وَقَالَ فِي الْفَتَاوَى الْكُبْرَى: وَيَجِبُ عَلَى الزَّوْجِ وَطْءُ امْرَأَتِهِ بِقَدْرِ كِفَايَتِهَا مَا لَمْ يُنْهِكْ بَدَنَهُ أَوْ تَشْغَلْهُ عَنْ مَعِيشَتِهِ، غَيْرَ مُقَدَّرٍ بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ – كَالْأَمَةِ –، فَإِنْ تَنَازَعَا؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَفْرِضَهُ الْحَاكِمُ، كَالنَّفَقَةِ، وَكَوَطْئِهِ إِذَا زَادَ اهـ.

وَقَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي رَوْضَةِ الْمُحِبِّينَ: وَقَدْ أَمَرَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – أَنْ يُعَاشِرَهَا بِالْمَعْرُوفِ، فَالْوَطْءُ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْمُعَاشَرَةِ – وَلَا بُدَّ –! قَالُوا: **وَعَلَيْهِ أَنْ يُشْبِعَهَا وَطْئًا – إِذَا أَمْكَنَهُ ذَلِكَ – كَمَا عَلَيْهِ أَنْ يُشْبِعَهَا قُوتًا**؛ وَكَانَ شَيْخُنَا [يَعْنِي ابْنَ تَيْمِيَّةَ] – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى – يُرَجِّحُ هَذَا الْقَوْلَ وَيَخْتَارُهُ اهـ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: ثُمَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَوَخَّى أَوْقَاتَ حَاجَتِهَا إِلَى الرَّجُلِ، فَيُعِفَّهَا وَيُغْنِيهَا عَنِ التَّطَلُّعِ إِلَى غَيْرِهِ! وَإِنْ رَأَى الرَّجُلُ مِنْ نَفْسِهِ عَجْزًا عَنْ إِقَامَةِ حَقِّهَا فِي مَضْجَعِهَا؛ أَخَذَ مِنَ الْأَدْوِيَةِ الَّتِي تَزِيدُ فِي بَاهِهِ وَتُقَوِّي شَهْوَتَهُ حَتَّى يُعِفَّهَا اهـ.

مِنْ حُسْنِ الصُّحْبَةِ وَالْعِشْرَةِ بِالْمَعْرُوفِ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ لَهُمْ مِنَ الطَّاعَةِ فِيمَا أَوْجَبَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – لَهُ عَلَيْهَا.

وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَى ذَلِكَ: وَلَهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ التَّصَنُّعِ وَالْمُوَاتَاةِ، مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ لَهُمْ فِي ذَلِكَ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِلْمَرْأَةِ كَمَا أُحِبُّ أَنْ تَتَزَيَّنَ لِي؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –، يَقُولُ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.[٣٦٢]

وَالَّذِي هُوَ أَوْلَى بِتَأْوِيلِ الْآيَةِ عِنْدِي: أَنَّ الَّذِيَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ مِنْ تَرْكِ مُضَارَّتِهِ، مِثْلُ الَّذِي لَهُ عَلَى صَاحِبِهِ مِنْ ذَلِكَ.

فَهَذَا التَّأْوِيلُ هُوَ أَشْبَهُ بِدَلَالَةِ ظَاهِرِ التَّنْزِيلِ مِنْ غَيْرِهِ.

وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ دَاخِلًا فِي ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِيمَا وَصَفْنَا؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ حَقًّا، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ إِلَيْهِ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى الدَّرَجَةِ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لِلرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ: الْفَضْلُ الَّذِي فَضَّلَهُمُ اللهُ عَلَيْهِنَّ فِي الْمِيرَاثِ وَالْجِهَادِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ تِلْكَ الدَّرَجَةُ: الْإِمْرَةُ وَالطَّاعَةُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: تِلْكَ الدَّرَجَةُ لَهُ عَلَيْهَا: بِمَا سَاقَ إِلَيْهَا مِنَ الصَّدَاقِ، وَإِنَّهَا إِذَا قَذَفَتْهُ حُدَّتْ، وَإِذَا قَذَفَهَا لَاعَنَ.

وَقَالَ آخَرُونَ: تِلْكَ الدَّرَجَةُ الَّتِي لَهُ عَلَيْهَا: إِفْضَالُهُ عَلَيْهَا، وَأَدَاءُ حَقِّهَا إِلَيْهَا، وَصَفْحُهُ عَنِ الْوَاجِبِ لَهُ عَلَيْهَا، أَوْ عَنْ بَعْضِهِ.

---

[٣٦٢] أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، والبيهقي في الكبرى، وابن أبي حاتم في تفسيره.

وَأَوْلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِتَأْوِيلِ الْآيَةِ: هُوَ أَنَّ الدَّرَجَةَ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الصَّفْحُ مِنَ الرَّجُلِ لِامْرَأَتِهِ عَنْ بَعْضِ الْوَاجِبِ عَلَيْهَا، وَإِغْضَاؤُهُ لَهَا عَنْهُ، وَأَدَاءُ كُلِّ الْوَاجِبِ لَهَا عَلَيْهِ.[٣٦٣]

وَمَعْنَى الدَّرَجَةِ: الرُّتْبَةُ وَالْمَنْزِلَةُ.

وَهَذَا الْقَوْلُ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ ظَاهِرَ الْخَبَرِ، فَمَعْنَاهُ مَعْنَى ندب الرِّجَال إِلَى الْأَخْذِ عَلَى النِّسَاءِ بِالْفَضْلِ؛ لِيَكُونَ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ فَضْلُ دَرَجَةٍ.

﴿وَاللهُ عَزِيزٌ﴾ فِي انْتِقَامِهِ مِمَّنْ خَالَفَ أَمْرَهُ، وَتَعَدَّى حُدُودَهُ، فَأَتَى النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ، وَجَعَلَ اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِهِ أَنْ يَبَرَّ وَيَتَّقِيَ، وَيُصْلِح بَيْنَ النَّاسِ، وَعَضَلَ امْرَأَتَهُ بِإِيلَائِهِ، وَضَارَّهَا فِي مُرَاجَعَتِهِ بَعْدَ طَلَاقِهِ، وَلِمَنْ كَتَمَ مِنَ النِّسَاءِ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ أَزْوَاجَهُنَّ، وَنَكَحْنَ فِي عِدَدِهِنَّ، وَتَرَكْنَ التَّرَبُّصَ بِأَنْفُسِهِنَّ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي حَدَّهُ اللهُ لَهُنَّ، وَرَكِبْنَ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعَاصِيهِ، ﴿حَكِيمٌ﴾ فِيمَا دَبَّرَ فِي خَلْقِهِ، وَفِيمَا حَكَمَ وَقَضَى بَيْنَهُمْ مِنْ أَحْكَامِهِ.

---

[٣٦٣] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِين فِي(حُقُوق دَعَتْ إِلَيْهَا الْفِطْرَةُ وَقَرَّرَتْهَا الشَّرِيعَةُ)**: فَيَجِبُ عَلَى الزَّوْجَيْنِ: أَنْ يُعَاشِرَ كُلٌّ مِنْهُمَا الْآخَرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْ يَبْذُلَ الحَقَّ الْوَاجِبَ لَهُ بِكُلِّ سَمَاحَةٍ وَسُهُولَةٍ، مِنْ غَيْرِ تَكَرُّهٍ لِبَذْلِهِ وَلَا مُمَاطَلَةٍ!.

قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**﴾.

كَمَا يَجِبُ عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تَبْذُلَ لِزَوْجِهَا مَا يَجِبُ عَلَيْهَا بَذْلُهُ.

وَمَتَى قَامَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الزَّوْجَيْنِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ لِلْآخَرِ: كَانَتْ حَيَاتُهُمَا سَعِيدَةً، وَدَامَتِ الْعِشْرَةُ بَيْنَهُمَا، وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ؛ حَصَلَ الشِّقَاقُ وَالنِّزَاعُ! وَتَنَكَّدَتْ حَيَاة كُلّ مِنْهُمَا!!.

وَلَقَدْ جَاءَتِ النُّصُوصُ الْكَثِيرَةُ بِالْوَصِيَّةِ بِالْمَرْأَةِ وَمُرَاعَاةِ حَالِهَا، وَأَنَّ كَمَالَ الحَالِ مِنَ الْمُحَالِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ مَا فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ؛ كَسَرْتَهُ! وَإِنْ تَرَكْتَهُ؛ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ! فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ! فَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا؛ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ! وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا؛ كَسَرْتَهَا! وَكَسْرُهَا: طَلَاقُهَا!!**»[متفق عليه].

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ**». وَمَعْنَى لَا يَفْرَكْ: لَا يُبْغِضُ.

فَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ: إِرْشَادُ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أُمَّتَهُ كَيْفَ يُعَامِلُ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ؟ وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا مَا تَيَسَّرَ؛ لِأَنَّ طَبِيعَتَهَا الَّتِي مِنْهَا خُلِقَتْ: أَنْ لَا تَكُونَ عَلَى الْوَجْهِ الْكَامِلِ، بَلْ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ عِوَجٍ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَمْتِعَ بِهَا الرَّجَال إِلَّا عَلَى الطَّبِيعَةِ الَّتِي خُلِقَتْ عَلَيْهَا!!.

وَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُقَارِنَ بَيْنَ الْمَحَاسِنِ وَالْمَسَاوِئِ فِي الْمَرْأَةِ، فَإِنَّهُ إِذَا كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا فَلْيُقَارِنْهُ بِالْخُلُقِ الثَّانِي الَّذِي يَرْضَاهُ مِنْهَا، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا بِمِنْظَارِ السَّخَطِ وَالْكَرَاهَةِ وَحْدَهُ!!.

وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَزْوَاجِ يُرِيدُونَ الحَالَةَ الْكَامِلَةَ مِنْ زَوْجَاتِهِمْ! وَهَذَا شَيْءٌ غَيْر مُمْكِن!! وَبِذَلِكَ يَقَعُونَ فِي النَّكَدِ! وَلَا يَتَمَكَّنُونَ مِنَ الاِسْتِمْتَاعِ وَالْمُتْعَةِ بِزَوْجَاتِهِمْ!! وَرُبَّمَا أَدَّى ذَلِكَ إِلَى الطَّلَاقِ؛ كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا؛ كَسَرْتَهَا؛ وَكَسْرُهَا: طَلَاقُهَا!!**».

فَيَنْبَغِي لِلزَّوْجِ أَنْ يَتَسَاهَلَ وَيَتَغَاضَى عَنْ كُلِّ مَا تَفْعَلُهُ الزَّوْجَةُ إِذَا كَانَ لَا يَخِلُّ بِالدِّينِ وَالشَّرَفِ! اهـ.

قُلْتُ: وَلِلْإِمَامِ السَّعْدِيِّ فِي كِتَابِ (بَهْجَةِ قُلُوبِ الْأَبْرَارِ) كَلَامٌ رَائِقٌ عِنْدَ شَرْحِ الحَدِيثِ (الْخَمْسِينَ): «**لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً**»، فَاقْرَأْهُ؛ فَإِنَّهُ نَفِيسٌ مُهِمٌّ!.

٢٢٩- ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾يَعْنِي: عَدَدُ الطَّلَاقِ الَّذِي لَكُمْ – أَيُّهَا النَّاسُ – فِيهِ عَلَى أَزْوَاجِكُمُ الرَّجْعَةُ إِذَا كُنَّ مَدْخُولًا بِهِنَّ: تَطْلِيقَتَانِ. ثُمَّ الْوَاجِبُ عَلَى مَنْ رَاجَعَ مِنْكُمْ بَعْدَ التَّطْلِيقَتَيْنِ إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ؛ لِأَنَّهُ لَا رَجْعَةَ لَهُ بَعْدَ التَّطْلِيقَتَيْنِ إِنْ سَرَّحَهَا فَطَلَّقَهَا الثَّالِثَةَ.

﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ دَلَالَةٌ عَلَى عَدَدِ الطَّلَاقِ الَّذِي يَكُونُ لِلرَّجُلِ فِيهِ الرَّجْعَةُ عَلَى زَوْجَتِهِ، وَالْعَدَدُ الَّذِي تَبِينُ بِهِ زَوْجَتُهُ مِنْهُ. ذِكْرُ مَنْ قَالَ إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أُنْزِلَتْ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَهْلَ الْإِسْلَامِ قَبْلَ نُزُولِهَا لَمْ يَكُنْ لِطَلَاقِهِمْ نِهَايَةٌ تَبِينُ بِالِانْتِهَاءِ إِلَيْهَا امْرَأَتُهُ مِنْهُ مَا رَاجَعَهَا فِي عِدَّتِهَا مِنْهُ، فَجَعَلَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – لِذَلِكَ حَدًّا، حَرَّمَ بِانْتِهَاءِ الطَّلَاقِ إِلَيْهِ عَلَى الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ الْمُطَلَّقَةَ إِلَّا بَعْدَ زَوْجٍ، وَجَعَلَهَا حِينَئِذٍ أَمْلَكَ بِنَفْسِهَا مِنْهُ.

عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ مَا شَاءَ ثُمَّ إِنْ رَاجَعَ امْرَأَتَهُ قَبْلَ أَنْ تَنْقَضِيَ عِدَّتُهَا كَانَتِ امْرَأَتُهُ، فَغَضِبَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ لَهَا: لَا أَقْرَبُكِ وَلَا تَحَلِّينَ مِنِّي! قَالَتْ لَهُ: كَيْفَ؟ قَالَ: أُطَلِّقُكِ؛ حَتَّى إِذَا دَنَا أَجَلُكِ رَاجَعْتُكِ، ثُمَّ أُطَلِّقُكِ، فَإِذَا دَنَا أَجَلُكِ رَاجَعْتُكِ!! قَالَ: فَشَكَتْ ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَأَنْزَلَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾.[٣٦٤]

يَعْنِي: الطَّلَاقُ الَّذِي لِأَزْوَاجِ النِّسَاءِ عَلَى نِسَائِهِمْ فِيهِ الرَّجْعَةُ: مَرَّتَانِ، ثُمَّ الْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا رَاجَعُوهُنَّ فِي الثَّانِيَةِ: إِمَّا إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ، وَإِمَّا تَسْرِيحٌ مِنْهُمْ لَهُنَّ بِإِحْسَانٍ بِالتَّطْلِيقَةِ الثَّالِثَةِ حَتَّى تَبِينَ مِنْهُمْ، فَيَبْطُلَ مَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الرَّجْعَةِ، وَيَصِرْنَ أَمْلَكَ بِأَنْفُسِهِنَّ مِنْهُنَّ.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾يَعْنِي: وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ – أَيُّهَا الرِّجَالُ – أَنْ تَأْخُذُوا مِنْ نِسَائِكُمْ، إِذَا أَنْتُمْ أَرَدْتُمْ طَلَاقَهُنَّ لِطَلَاقِكُمْ وَفِرَاقِكُمْ إِيَّاهُنَّ، شَيْئًا مِمَّا أَعْطَيْتُمُوهُنَّ مِنَ الصَّدَاقِ، وَسُقْتُمْ إِلَيْهِنَّ، بَلِ الْوَاجِبُ عَلَيْكُمْ تَسْرِيحُهُنَّ بِإِحْسَانٍ، وَذَلِكَ إِيفَاؤُهُنَّ حُقُوقَهُنَّ مِنَ الصَّدَاقِ وَالْمُتْعَةِ وَغَيْرِ

---

[٣٦٤] صححه الألباني في الإرواء، تحت الحديث(٢٠٨٠).

ذَلِكَ مِمَّا يَجِبُ لَهُنَّ عَلَيْكُمْ؛ ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾يَعْنِي: إِلَّا أَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَأَيَّةُ حَالٍ الْحَالُ الَّتِي يخَافُ عَلَيْهِمَا أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ، حَتَّى يَجُوزَ لِلرَّجُلِ أَنْ يَأْخُذَ حِينَئِذٍ مِنْهَا مَا آتَاهَا؟ قِيلَ: حَالُ نُشُوزِهَا وَإِظْهَارِهَا لَهُ بُغْضَتَهُ، حَتَّى يخَافَ عَلَيْهَا تَرْكَ طَاعَةِ اللهِ فِيمَا لَزِمَهَا لِزَوْجِهَا مِنَ الْحَقِّ، وَيخَاف عَلَى زَوْجِهَا – بِتَقْصِيرِهَا فِي أَدَاءِ حُقُوقِهِ الَّتِي أَلْزَمَهَا اللهُ لَهُ – تَرْكَهُ أَدَاءِ الْوَاجِبِ لَهَا عَلَيْهِ. فَذَلِكَ حِينَ الْخَوْفِ عَلَيْهِمَا أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَيُطِيعَاهُ فِيمَا أَلْزَمَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ، وَالْحَالُ الَّتِي أَبَاحَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ أَخْذَ مَا كَانَ آتَى زَوْجَتُهُ إِذْ نَشَزَتْ عَلَيْهِ، بُغْضًا مِنْهَا لَهُ.

عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ سَهْلٍ، كَانَتْ تَحْتَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، فَضَرَبَهَا فَكَسَرَ بَعْضَهَا! فَأَتَتْ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَعْدَ الصُّبْحِ، فَاشْتَكَتْهُ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ثَابِتًا، فَقَالَ: «خُذْ بَعْضَ مَالِهَا وَفَارِقْهَا»، قَالَ: وَيَصْلُحُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَإِنِّي أَصْدَقْتُهَا حَدِيقَتَيْنِ وَهُمَا بِيَدِهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «خُذْهُمَا وَفَارِقْهَا» ؛ فَفَعَلَ.[٣٦٥]

وَأَمَّا أَهْلُ التَّأْوِيلِ فَإِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الْخَوْفِ مِنْهُمَا أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ هُوَ أَنْ يَظْهَرَ مِنَ الْمَرْأَةِ سُوءُ الْخُلُقِ وَالْعِشْرَةِ لِزَوْجِهَا، فَإِذَا ظَهَرَ ذَلِكَ مِنْهَا لَهُ؛ حَلَّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَا أَعْطَتْهُ مِنْ فِدْيَةٍ عَلَى فِرَاقِهَا.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْخَوْفُ مِنْ ذَلِكَ: أَنْ لَا تَبَرَّ لَهُ قَسَمًا، وَلَا تُطِيعُ لَهُ أَمْرًا، وَتَقُولُ: لَا أَغْتَسِلُ لَكَ مِنْ جَنَابَةٍ، وَلَا أُطِيعُ لَكَ أَمْرًا، فَحِينَئِذٍ يَحِلُّ لَهُ عِنْدَهُمْ أَخْذُ مَا آتَاهَا عَلَى فِرَاقِهِ إِيَّاهَا.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْخَوْفُ مِنْ ذَلِكَ: أَنْ تَبْتَدِئَ لَهُ بِلِسَانِهَا قَوْلًا أَنَّهَا لَهُ كَارِهَةٌ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الَّذِي يُبِيحُ لَهُ أَخْذَ الْفِدْيَةِ: أَنْ يَكُونَ خَوْفَ أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ مِنْهُمَا جَمِيعًا لِكَرَاهَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صُحْبَةَ الْآخَرِ.

---

[٣٦٥] صحيح: رواه أبو داود، والبغوي في شرح السنة؛ وغيرهما، وصححه الألباني في صحيح أبي داود(٢٢٢٨).

وَأَوْلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِالصِّحَّةِ، قَوْلُ مَنْ قَالَ: لَا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَخْذُ الْفِدْيَةِ مِنَ امْرَأَتِهِ عَلَى فِرَاقِهِ إِيَّاهَا، حَتَّى يَكُونَ خَوْفُ مَعْصِيَةِ اللهِ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى نَفْسِهِ – فِي تَفْرِيطِهِ فِي الْوَاجِبِ عَلَيْهِ لِصَاحِبِهِ – مِنْهُمَا جَمِيعًا؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – إِنَّمَا أَبَاحَ لِلزَّوْجِ أَخْذَ الْفِدْيَةِ مِنَ امْرَأَتِهِ، عِنْدَ خَوْفِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمَا أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا وَصَفْت، فَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ حَرَامًا عَلَى الرَّجُلِ قَبُولُ الْفِدْيَةِ مِنْهَا إِذَا كَانَ النُّشُوزُ مِنْهَا دُونَهُ، حَتَّى يَكُونَ مِنْهُ مِنَ الْكَرَاهَةِ لَهَا مِثْلُ الَّذِي يَكُونُ مِنْهَا؟

قِيلَ لَهُ: إِنَّ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ بِخِلَافِ مَا ظَنَنْت! وَذَلِكَ أَنَّ فِيَ نُشُوزِهَا عَلَيْهِ دَاعِيَةً لَهُ إِلَى التَّقْصِيرِ فِي وَاجِبِهَا وَمُجَازَاتِهَا بِسُوءِ فِعْلِهَا بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي يُوجِبُ لِلْمُسْلِمِينَ الْخَوْفَ عَلَيْهِمَا أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ[٣٦٦]﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ مَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَرَائِضِ، فِيمَا أَلْزَمَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنَ الْحَقِّ لِصَاحِبِهِ، مِنَ الْعِشْرَةِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالصُّحْبَةِ بِالْجَمِيلِ، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ[٣٦٧]﴾ يَعْنِي: فَإِنْ خِفْتُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – أَلَّا يُقِيمَ الزَّوْجَانِ مَا حَدَّ اللهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى

---

[٣٦٦] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَمَّا مَعْنَى إِقَامَةِ حُدُودِ اللهِ؛ فَإِنَّهُ: الْعَمَلُ بِهَا، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا، وَتَرْكُ تَضْيِيعِهَا.

[٣٦٧] هَذَا هُوَ الْخُلْعُ، سَمَّاهُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – (افْتِدَاءً)؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ تَفْتَدِي نَفْسَهَا مِنْ أَسْرِ زَوْجِهَا، كَمَا يَفْتَدِي الْأَسِيرُ وَالْعَبْدُ نَفْسَهُ مِنْ سَيِّدِهِ بِمَا يَبْذُلُهُ!.

فَإِنْ كَانَ (طَلَبُ الْفُرْقَةِ) مِنْ قِبَلِ الرَّجُلِ: بِأَنْ أَبْغَضَ الْمَرْأَةَ، أَوْ فُتِنَ بِغَيْرِهَا! وَأَحَبَّ فِرَاقَهَا لِغَيْرِ ذَنْبٍ مِنْهَا أَوْجَبَ ذَلِكَ، وَخَافَ أَلَّا يُعَامِلَهَا بِمَا يَجِبُ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَأَنْ تُقَابِلَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ؛ فَلَهُ أَنْ يُسَرِّحَهَا بِإِحْسَانٍ؛ لِأَنَّ عُقْدَةَ الزَّوْجِيَّةِ بِيَدِهِ، **وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ مِمَّا كَانَ أَعْطَاهَا شَيْئًا بِالنَّصِّ، وَهُوَ**: ﴿**وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ**﴾ الْآيَةَ، فَإِنَّ التَّحْرِيمَ فِيهَا مَبْنِيٌّ عَلَى مَا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي أَرَادَ الطَّلَاقَ.

وَإِنْ كَانَ (طَلَبُ الْفُرْقَةِ) مِنْ قِبَلِهَا: كَأَنْ أَبْغَضَتْهُ بُغْضًا لَا تَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ عَلَيْهِ وَالْقِيَامَ مَعَهُ بِحُقُوقِ الزَّوْجِيَّةِ، وَخَافَتْ أَنْ تَقَعَ فِي النُّشُوزِ، وَيُسْرِفَ هُوَ فِي الْعُقُوبَةِ؛ **فَمِنَ الْعَدْلِ أَنْ تُعْطِيَهُ مَا كَانَتْ أَخَذَتْ مِنْهُ بِاسْمِ الزَّوْجِيَّةِ لِيَحِلَّ عُقْدَتَهَا، فَلَا يَخْسَرُ مَالَهُ وَزَوْجَتَهُ مَعًا!!.**

مَسْأَلَةٌ مُهِمَّةٌ جِدًّا: اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْخُلْعِ: هَلْ هُوَ طَلَاقٌ، أَمْ فَسْخٌ؟ وَالصَّحِيحُ: أَنَّ الْخُلْعَ فَسْخٌ وَلَيْسَ بِطَلَاقٍ؛ وَلَوْ كَانَ بِلَفْظِ الطَّلَاقِ وَنِيَّتِهِ!.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي الشَّرْحِ الْمُمْتِعِ: وَيَتَرَتَّبُ عَلَى هَذَا مَسْأَلَةٌ مُهِمَّةٌ: لَوْ طَلَّقَ الْإِنْسَانُ زَوْجَتَهُ مَرَّتَيْنِ مُتَفَرِّقَتَيْنِ، ثُمَّ حَصَلَ الْخُلْعُ بِلَفْظِ الطَّلَاقِ، فَعَلَى قُولِ مَنْ يَرَى أَنَّ الْخُلْعَ بِلَفْظِ الطَّلَاقِ طَلَاقٌ؛ تَكُونُ بَانَتْ مِنْهُ! لَا تَحِلُّ لَهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ!! وَعَلَى قُولِ مَنْ يَرَى أَنَّ الْخُلْعَ فَسْخٌ وَلَوْ بِلَفْظِ الطَّلَاقِ؛ تَحِلُّ لَهُ بِعَقْدٍ جَدِيدٍ حَتَّى فِي الْعِدَّةِ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الرَّاجِحُ اهـ. قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ -: وَهُوَ اخْتِيَارُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ بْن تَيْمِيَّةَ؛ كَمَا فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى، وَابْن الْقَيِّمِ؛ كَمَا فِي زَادِ الْمَعَادِ.

مَسْأَلَةٌ فِي عِدَّةِ الْمُخْتَلِعَةِ: ثَبَتَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ – كَمَا فِي صَحِيحِ أَبِي دَاوُدَ(٢٢٢٩) –، وَابْنِ عَبَّاسٍ – كَمَا فِي صَحِيحِ ابْنِ مَاجَةَ(٢٠٥٨) –، وَابْنِ عُمَرَ – كَمَا فِي صَحِيحِ أَبِي دَاوُدَ(٢٢٣٠) – أَنَّ الْمُخْتَلَعَةَ تَعْتَدُّ بِحَيْضَةٍ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى: وَقَدْ ثَبَتَ بِدَلَالَةِ الْكِتَابِ وَصَرِيحِ السُّنَّةِ وَأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ: أَنَّ (الْمُخْتَلِعَةَ) لَيْسَ عَلَيْهَا إِلَّا الِاسْتِبْرَاءُ بِحَيْضَةٍ؛ لَا عِدَّةٍ كَعِدَّةِ الْمُطَلَّقَةِ؛ وَهُوَ إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَدَ، وَقَوْلُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ عُمَرَ فِي آخِرِ قَوْلَيْهِ.

وَذَكَرَ مَكِّيٌّ: أَنَّهُ إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ، وَهُوَ قَوْلُ قَبِيصَةَ بْنِ ذُؤَيْبٍ، وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْه، وَابْنِ الْمُنْذِرِ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ فُقَهَاءِ الْحَدِيثِ؛ **وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ** اهـ.

صَاحِبِهِ مِنْ حَقٍّ، وَأَلْزَمَهُ لَهُ مِنْ فَرْضٍ، وَخَشِيتُمْ عَلَيْهِمَا تَضْيِيعَ فَرْضِ اللهِ وَتَعَدِّيَ حُدُودِهِ فِي ذَلِكَ؛ فَلَا جُنَاحَ – حِينَئِذٍ – عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا مِنْ زَوْجِهَا، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِمَا فِيمَا أَعْطَتْ هَذِهِ عَلَى فِرَاقِ زَوْجِهَا إِيَّاهَا وَلَا عَلَى هَذَا فِيمَا أَخَذَ مِنْهَا مِنَ الْجُعْلِ وَالْعِوَضِ عَلَيْهِ.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾يَعْنِي: هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي بَيَّنْتُ لَكُمْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي مَضَتْ: مِنْ نِكَاحِ الْمُشْرِكَاتِ الْوَثَنِيَّاتِ، وَإِنْكَاحِ الْمُشْرِكِينَ الْمُسْلِمَاتِ، وَإِتْيَانِ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ ، وَمَا قَدْ بُيِّنَ فِي الْآيَاتِ الْمَاضِيَةِ قَبْلَ قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾مِمَّا أَحَلَّ لِعِبَادِهِ وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ، وَمَا أَمَرَ وَنَهَى.

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: هَذِهِ الْأَشْيَاءُ – الَّتِي بَيَّنْتُ لَكُمْ حَلَالَهَا مِنْ حَرَامِهَا – حُدُودِي، يَعْنِي بِهِ: مَعَالِمَ فُصُولِ مَا بَيْنَ طَاعَتِي وَمَعْصِيَتِي، فَلَا تَعْتَدُوهَا؛ يَقُولُ: فَلَا تَتَجَاوَزُوا مَا أَحْلَلْتُهُ لَكُمْ إِلَى مَا حَرَّمْتُهُ عَلَيْكُمْ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ إِلَى مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وَلَا طَاعَتِي إِلَى مَعْصِيَتِي؛ فَإِنَّ مَنْ تَعَدَّى ذَلِكَ – يَعْنِي: مَنْ تَخَطَّاهُ وَتَجَاوَزَهُ – إِلَى مَا حَرَّمْتُ عَلَيْهِ أَوْ نَهَيْتُهُ، فَإِنَّهُ هُوَ الظَّالِمُ، وَهُوَ الَّذِي فَعَلَ مَا لَيْسَ لَهُ فِعْلُهُ، وَوَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ!.

٢٣٠– ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تُنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ[٣٦٨]﴾نِكَاحًا صَحِيحًا، ثُمَّ يُجَامِعُهَا فِيهِ، ثُمَّ يُطَلِّقُهَا

---

[٣٦٨] قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: وَفِي قَوْلِهِ – تَعَالَى –: ﴿**حَتَّى تُنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**﴾: دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ نِكَاحِ التَّحْلِيلِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِنِكَاحٍ شَرْعِيٍّ!.

وَنِكَاحُ التَّحْلِيلِ: هُوَ أَنْ يَعْمَدَ رَجُلٌ إِلَى امْرَأَةٍ طَلَّقَهَا زَوْجُهَا ثَلَاثَ تَطْلِيقَاتٍ – أَيْ: طَلَّقَهَا ثُمَّ رَاجَعَهَا، ثُمَّ طَلَّقَهَا ثُمَّ رَاجَعَهَا، ثُمَّ طَلَّقَهَا الثَّالِثَة – فَيَتَزَوَّجَهَا بِنِيَّةِ أَنَّهُ إِذَا جَامَعَهَا طَلَّقَهَا؛ لِيُحِلَّهَا لِزَوْجِهَا الْأَوَّلِ!!.

فَإِذَا تَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ بِشَرْطِ التَّحْلِيلِ، أَوْ نَوَاهُ، أَوِ اتَّفَقَا عَلَيْهِ؛ فَالْعَقْدُ بَاطِلٌ! وَالنِّكَاحُ غَيْرُ صَحِيحٍ، وَلَا تَحِلُّ بِهِ الْمَرْأَةُ لِلزَّوْجِ الْأَوَّلِ!!.

فَمَنْ تَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ مُطَلَّقَةٍ ثَلَاثًا، بِقَصْدِ إِحْلَالِهَا لِزَوْجِهَا الْأَوَّلِ؛ فَهَذَا هُوَ الْمُحَلِّلُ الَّذِي وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِذَمِّهِ وَلَعْنِهِ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**لَعَنَ اللهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ**» [صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي؛ وغيرهم عن جمع من الصحابة – رضي الله عنهم –، وصححه الألباني في الإرواء(١٨٩٧)، وصحيح الجامع(٥١٠١)].

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ؟**» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: «**هُوَ الْمُحَلِّلُ؛ لَعَنَ اللهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ**» [حسن: رواه ابن ماجة، والدارقطني في سننه، والطبراني في الكبير، والبيهقي في الكبرى، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وحسنه الألباني في الإرواء تحت الحديث(١٨٩٧)، وصحيح الجامع(٢٥٩٦)].

(**الْمُحَلِّلُ**): هُوَ الَّذِي يَتَزَوَّجُ الْمَرْأَةَ لِيُحَلِّلَهَا لِزَوْجِهَا الَّذِي طَلَّقَهَا ثَلَاثًا دُونَ أَنْ يَكُونَ رَاغِبًا فِي بَقَائِهَا. وَسُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ حَلَّلَ مَا حَرَّمَ اللهُ بِتَدْلِيسِهِ وَتَلْبِيسِهِ!. وَسُمِّيَ الْمُحَلِّلُ بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ؛ لِأَنَّهُ كَالتَّيْسِ يَسْتَعِيرُهُ صَاحِبُ الْغَنَمِ لِمُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَى مَالِكِهِ!.

عَنْ عُمَرَ بْنِ نَافِعٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، فَسَأَلَهُ عَنْ رَجُلٍ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا، فَتَزَوَّجَهَا أَخٌ لَهُ، مِنْ غَيْرِ مُؤَامَرَةٍ مِنْهُ، لِيُحِلَّهَا لِأَخِيهِ، هَلْ تَحِلُّ لِلْأَوَّلِ؟ قَالَ: «**لَا!! إِلَّا نِكَاحَ رَغْبَةٍ، كُنَّا نَعُدُّ هَذَا سِفَاحًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –**» [صحيح: أخرجه الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الكبرى، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي ؛ وصححه الألباني في الإرواء(١٨٩٨)، وصحيح الجامع(٥١٠١)].

قُلْتُ: وَلِلْإِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ فِي كِتَابِ (إِعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ) كَلَامٌ يُكْتَبُ بِمَاءِ الذَّهَبِ عَنْ (نِكَاحِ التَّحْلِيلِ)، فَاقْرَأْهُ بِتَمَعُّنٍ؛ فَإِنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ!.

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَنْ رَجُلٍ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فَتَزَوَّجَتْ رَجُلًا غَيْرَهُ فَدَخَلَ بِهَا ثُمَّ طَلَّقَهَا قَبْلَ أَنْ يُوَاقِعَهَا، أَتَحِلُّ لِزَوْجِهَا الْأَوَّلِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «لَا تَحِلُّ لِزَوْجِهَا الْأَوَّلِ حَتَّى يَذُوقَ الْآخَرُ عُسَيْلَتَهَا وَتَذُوقَ عُسَيْلَتَهُ[٣٦٩]».[٣٧٠]

عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَ: سَمِعْتُهَا تَقُولُ: جَاءَتِ امْرَأَةُ رِفَاعَةَ الْقُرَظِيِّ، إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَ رِفَاعَةَ فَطَلَّقَنِي، فَبَتَّ طَلَاقِي[٣٧١]، فَتَزَوَّجْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزَّبِيرِ، وَإِنَّمَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ[٣٧٢]، فَقَالَ لَهَا: «تُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟! لَا؛ حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ».[٣٧٣]

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾يَعْنِي: فَإِنْ طَلَّقَ الْمَرْأَةَ – الَّتِي بَانَتْ مِنْ زَوْجِهَا بِآخِرِ التَّطْلِيقَاتِ الثَّلَاثِ بَعْدَ مَا نَكَحَهَا مُطَلِّقُهَا الثَّانِي – زَوْجُهَا الَّذِي نَكَحَهَا بَعْدَ بَيْنُونَتِهَا مِنَ الْأَوَّلِ؛ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَلَا حَرَجَ عَلَى الْمَرْأَةِ الَّتِي طَلَّقَهَا هَذَا الثَّانِي مِنْ بَعْدِ بَيْنُونَتِهَا مِنَ الْأَوَّلِ، وَبَعْدَ نِكَاحِهِ إِيَّاهَا، وَعَلَى الزَّوْجِ الْأَوَّلِ الَّذِي كَانَتْ حُرِّمَتْ عَلَيْهِ بِبَيْنُونَتِهَا مِنْهُ بِآخِرِ التَّطْلِيقَاتِ ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ بِنِكَاحٍ جَدِيدٍ.[٣٧٤]

---

[٣٦٩] **قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ:** قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ «**لَا؛ حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ**» تَصْغِيرُ عَسَلَةٍ؛ وَهِيَ كِنَايَةٌ عَنِ الْجِمَاعِ، شَبَّهَ لَذَّتَهُ بِلَذَّةِ الْعَسَلِ وَحَلَاوَتِهِ!...وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ الْمُطَلَّقَةَ ثَلَاثًا لَا تَحِلُّ لِمُطَلِّقِهَا حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ وَيَطَأَهَا، ثُمَّ يُفَارِقَهَا، وَتَنْقَضِيَ عِدَّتُهَا، فَأَمَّا مُجَرَّدُ عَقْدِهِ عَلَيْهَا؛ فَلَا يُبِيحُهَا لِلْأَوَّلِ، وَبِهِ قَالَ جَمِيعُ الْعُلَمَاءِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ اهـ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْعُسَيْلَةُ: لَذَّةُ الْجِمَاعِ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ شَيْءٍ تَسْتَلِذُّهُ: عَسَلًا!! [عون المعبود].

قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**الْعُسَيْلَةُ: هِيَ الْجِمَاعُ**» [حديث حسن: رواه أحمد، وأبو نعيم في الحلية، والدارقطني في سننه؛ وحسنه الألباني في صحيح الجامع(٤١٢٩)، وقال في الإرواء(٢٠٨٣): صحيح].

[٣٧٠] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم.

[٣٧١] قَوْلُهَا: (**فَبَتَّ طَلَاقِي**) أَيْ: طَلَّقَنِي ثَلَاثًا.

[٣٧٢] قَوْلُهَا: (**وَإِنَّمَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ**): أَيْ: طَرَفُهُ؛ وَهُوَ طَرَفُ الثَّوْبِ الْغَيْرِ الْمَنْسُوجِ، أَرَادَتْ أَنَّ ذَكَرَهُ يُشْبِهُ طَرَفَ الثَّوْبِ فِي الِاسْتِرْخَاءِ وَعَدَمِ الِانْتِشَارِ!!.

قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: هَذَا قَوْلُهَا(!) فَلَمَّا سَمِعَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الزَّبِيرِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – كَلَامَهَا؛ تَعَجَّبَ مِنْهُ! فَقَالَ – كَمَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، وَغَيْرِهِ –: كَذَبَتْ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ!! إِنِّي لَأَنْفُضُهَا نَفْضَ الْأَدِيمِ! وَلَكِنَّهَا نَاشِزٌ؛ تُرِيدُ رِفَاعَةَ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**فَإِنْ كَانَ ذَلِكِ؛ لَمْ تَحِلِّي لَهُ – أَوْ: لَمْ تَصْلُحِي لَهُ – حَتَّى يَذُوقَ مِنْ عُسَيْلَتِكِ**» قَالَ: وَأَبْصَرَ مَعَهُ ابْنَيْنِ لَهُ، فَقَالَ: «**بَنُوكَ هَؤُلَاءِ؟**» قَالَ: نَعَمْ! قَالَ: «**هَذَا الَّذِي تَزْعُمِينَ مَا تَزْعُمِينَ! فَوَاللهِ! لَهُمْ أَشْبَهُ بِهِ مِنَ الْغُرَابِ بِالْغُرَابِ!!**».

[٣٧٣] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة؛ وغيرهم.

[٣٧٤] يَعْنِي: ﴿**فَإِنْ طَلَّقَهَا**﴾الزَّوْجُ الثَّانِي بَعْدَ جِمَاعِهَا، وَانْقَضَتْ عِدَّتُهَا مِنْهُ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا**﴾أَيْ: فَلَا إِثْمَ عَلَى الزَّوْجِ الْأَوَّلِ، وَزَوْجَته الْمُطَلَّقَة مِنَ الزَّوْجِ الثَّانِي﴿**أَنْ يَتَرَاجَعَا**﴾أَيْ: أَنْ يَرْجِعَ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ بِعَقْدٍ جَدِيدٍ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ[٣٧٥]﴾ فَإِنَّ مَعْنَاهُ: إِنْ رَجُوا مَطْمَعًا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ.

وَإِقَامَتُهُمَا حُدُودَ اللهِ: الْعَمَلُ بِهَا. وَحُدُودُ اللهِ: مَا أَمَرَهُمَا بِهِ، وَأَوْجَبَ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ، وَأَلْزَمَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِسَبَبِ النِّكَاحِ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَهُمَا.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾ يَعْنِي: هَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي بَيَّنَهَا لِعِبَادِهِ فِي الطَّلَاقِ وَالرَّجْعَةِ وَالْفِدْيَةِ وَالْعِدَّةِ وَالْإِيلَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُبَيِّنُهُ لَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، (حُدُودُ اللهِ) مَعَالِمُ فُصُولِ حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، وَطَاعَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يُفَصِّلُهَا، فَيُمَيِّزُ بَيْنَهَا، وَيُعَرِّفُهُمْ أَحْكَامَهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَهَا إِذَا بَيَّنَهَا اللهُ لَهُمْ، فَيَعْرِفُونَ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيُصَدِّقُونَ بِهَا، وَيَعْمَلُونَ بِمَا أَوْدَعَهُمُ اللهُ مِنْ عِلْمِهِ، دُونَ الَّذِينَ قَدْ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَقَضَى عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَلَا يُصَدِّقُونَ بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَهُمْ يَجْهَلُونَ أَنَّهَا مِنَ اللهِ، وَأَنَّهَا تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حُمَيْدٍ.

١٣١- ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ يَعْنِي: وَإِذَا طَلَّقْتُمْ – أَيُّهَا الرِّجَالُ – نِسَاءَكُمْ ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ[٣٧٦]﴾ يَعْنِي: مِيقَاتَهُنَّ الَّذِي وَقَّتَهُ لَهُنَّ مِنَ انْقِضَاءِ الْأَقْرَاءِ الثَّلَاثَةِ؛ إِنْ كَانَتْ مِنْ أَهْلِ الْأَقْرَاءِ، وَانْقِضَاءِ الْأَشْهُرِ ؛ إِنْ كَانَتْ مِنْ أَهْلِ الشُّهُورِ، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ يَقُولُ: فَرَاجِعُوهُنَّ إِنْ أَرَدْتُمْ رَجْعَتَهُنَّ فِي الطَّلْقَةِ الَّتِي فِيهَا رَجْعَةٌ: وَذَلِكَ إِمَّا فِي التَّطْلِيقَةِ الْوَاحِدَةِ، أَوِ التَّطْلِيقَتَيْنِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ فَإِنَّهُ عَنَى بِمَا أَذِنَ بِهِ مِنَ الرَّجْعَةِ؛ مِنَ الْإِشْهَادِ عَلَى الرَّجْعَةِ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ، دُونَ الرَّجْعَةِ بِالْوَطْءِ وَالْجِمَاعِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَجُوزُ لِلرَّجُلِ بَعْدَ الرَّجْعَةِ، وَعَلَى الصُّحْبَةِ مَعَ ذَلِكَ وَالْعِشْرَةِ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَبَيَّنَهُ لَكُمْ – أَيُّهَا النَّاسُ – ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يَقُولُ: أَوْ خَلُّوهُنَّ يَقْضِينَ

[٣٧٥] قَالَ فِي تَفْسِيرِ الْمَنَارِ: قَوْلُهُ: ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾ أَيْ: تَرَجَّحَ عِنْدَ كُلٍّ مِنْهُمَا أَنَّهُ يَقُومُ بِحَقِّ الْآخَرِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي حَدَّهُ سُبْحَانَهُ تَعَالَى، فَلَا بُدَّ مِنْ حُسْنِ الْقَصْدِ وَسَلَامَةِ النِّيَّةِ مِنْ كِلَا الزَّوْجَيْنِ؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى – مَا وَضَعَ هَذِهِ الْحُدُودَ لِلزَّوْجَيْنِ إِلَّا لِيَصْلُحَ حَالُهُمَا وَيَسْتَقِيمَ عَمَلُهُمَا.

[٣٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أَيْ: قَارَبْنَ انْقِضَاءَ الْعِدَّةِ، وَأَشْرَفْنَ عَلَى بُلُوغِ مُنْتَهَاهَا، وَلَمْ يُرِدْ حَقِيقَةَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ؛ لِأَنَّ الْعِدَّةَ إِذَا انْقَضَتْ لَمْ يَكُنْ لِلزَّوْجِ إِمْسَاكُهَا! فَلِهَذِهِ الضَّرُورَةِ جُعِلَ لَفْظُ: (بَلَغَ)، بِمَعْنَى: قَارَبَ، كَمَا يُقَالُ: بَلَغَ فُلَانٌ الْبَلَدَ: إِذَا قَرُبَ مِنْهُ؛ وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْهُ بَعْدُ. فَالْبُلُوغُ هَاهُنَا: بُلُوغُ مُقَارَبَةٍ بِإِجْمَاعٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

تَمَامَ عِدَّتِهِنَّ وَيَنْقَضِي بَقِيَّةُ أَجَلِهِنَّ الَّذِي أَجَّلْتُهُ لَهُنَّ لِعِدَدِهِنَّ، بِمَعْرُوفٍ، يَقُولُ: بِإِيفَائِهِنَّ تَمَامَ حُقُوقِهِنَّ عَلَيْكُمْ عَلَى مَا أَلْزَمْتُكُمْ لَهُنَّ مِنْ مَهْرٍ وَمُتْعَةٍ وَنَفَقَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ حُقُوقِهِنَّ قبلَكُمْ.[٣٧٧]

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾يَقُولُ: وَلَا تُرَاجِعُوهُنَّ، إِنْ رَاجَعْتُمُوهُنَّ فِي عِدَدِهِنَّ، مُضَارَّةً لَهُنَّ؛ لِتُطَوِّلُوا عَلَيْهِنَّ مُدَّةَ انْقِضَاءِ عِدَدِهِنَّ، أَوْ لِتَأْخُذُوا مِنْهُنَّ بَعْضَ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ بِطَلَبِهِنَّ الْخُلْعَ مِنْكُمْ، لِمُضَارَّتِكُمْ إِيَّاهُنَّ، بِإِمْسَاكِكُمْ إِيَّاهُنَّ، وَمُرَاجَعَتِكُمُوهُنَّ ضِرَارًا وَاعْتِدَاءً.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَعْتَدُوا﴾يَقُولُ: لِتَظْلِمُوهُنَّ بِمُجَاوَزَتِكُمْ فِي أَمْرِهِنَّ حُدُودِي الَّتِي بَيَّنْتُهَا لَكُمْ.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾يَعْنِي: وَمَنْ يُرَاجِعِ امْرَأَتَهُ – بَعْدَ طَلَاقِهِ إِيَّاهَا فِي الطَّلَاقِ الَّذِي لَهُ فِيهِ عَلَيْهَا الرَّجْعَةُ – ضِرَارًا بِهَا لِيَتَعَدَّى حَدَّ اللهِ فِي أَمْرِهَا؛ ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ[٣٧٨]﴾يَعْنِي: فَأَكْسَبَهَا بِذَلِكَ إِثْمًا، وَأَوْجَبَ لَهَا مِنَ اللهِ عُقُوبَةً بِذَلِكَ.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا﴾يَعْنِي: وَلَا تَتَّخِذُوا أَعْلَامَ اللهِ وَفُصُولَهُ بَيْنَ حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فِي وَحْيِهِ وَتَنْزِيلِهِ اسْتِهْزَاءً وَلَعِبًا، فَإِنَّهُ قَدْ بَيَّنَ لَكُمْ فِي تَنْزِيلِهِ وَآيِ كِتَابِهِ، مَا لَكُمْ مِنَ الرَّجْعَةِ عَلَى نِسَائِكُمْ، فِي الطَّلَاقِ الَّذِي جُعِلَ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ فِيهِ الرَّجْعَةُ، وَمَا لَيْسَ لَكُمْ مِنْهَا، وَمَا الْوَجْهُ الْجَائِزُ لَكُمْ مِنْهَا، وَمَا الَّذِي لَا يَجُوزُ، وَمَا الطَّلَاقُ الَّذِي لَكُمْ عَلَيْهِنَّ فِيهِ الرَّجْعَةُ، وَمَا لَيْسَ لَكُمْ ذَلِكَ فِيهِ، وَكَيْفَ وُجُوهُ ذَلِكَ؛ رَحْمَةً مِنْهُ بِكُمْ، وَنِعْمَةً مِنْهُ عَلَيْكُمْ، لِيَجْعَلَ بِذَلِكَ لِبَعْضِكُمْ – مِنْ مَكْرُوهٍ، إِنْ كَانَ فِيهِ مِنْ صَاحِبِهِ مَا يُؤْذِيهِ – الْمَخْرَجُ وَالْمخلصُ بِالطَّلَاقِ وَالْفِرَاقِ، وَجُعِلَ مَا جُعِلَ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الرَّجْعَةِ سَبِيلًا لَكُمْ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى مَا نَازَعَهُ إِلَيْهِ وَدَعَاهُ إِلَيْهِ هَوَاهُ، بَعْدَ فِرَاقِهِ إِيَّاهُنَّ مِنْهُنَّ، لِتُدْرِكُوا بِذَلِكَ قَضَاءَ

---

[٣٧٧] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – لِلرِّجَالِ، إِذَا طَلَّقَ أَحَدُهُمُ الْمَرْأَةَ طَلَاقًا لَهُ عَلَيْهَا فِيهِ رَجْعَةٌ، أَنْ يُحْسِنَ فِي أَمْرِهَا إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا مِقْدَارَ مَا يُمْكِنُهُ فِيهِ رَجْعَتُهَا، فَإِمَّا أَنْ يُمْسِكَهَا؛ أَيْ: يَرْتَجِعَهَا إِلَى عِصْمَةِ نِكَاحِهِ بِمَعْرُوفٍ؛ وَهُوَ أَنْ يُشْهِدَ عَلَى رَجْعَتِهَا، وَيَنْوِيَ عِشْرَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ، أَوْ يُسَرِّحَهَا؛ أَيْ: يَتْرُكُهَا حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهَا وَيُخْرِجُهَا مِنْ مَنْزِلِهِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ: مِنْ غَيْرِ شِقَاقٍ، وَلَا مُخَاصَمَةٍ، وَلَا تَقَابُحٍ!!.

[٣٧٨] قَالَ فِي تَفْسِيرِ الْمَنَارِ: قَوْلُهُ: ﴿**وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**﴾فِي الدُّنْيَا: بِسُلُوكِ طُرُقِ الشَّرِّ وَالِاعْتِدَاءِ الَّتِي لَا رَاحَةَ لِضَمِيرِ صَاحِبِهَا، وَيَجْعَلُ الْمَرْأَةَ وَعُصْبَتَهَا أَعْدَاءً لَهُ: يُنَاصِبُونَهُ، وَيُنَاوِئُونَهُ! وَالْعَدُوُّ الْقَرِيبُ أَقْدَرُ عَلَى الْإِيذَاءِ مِنَ الْعَدُوِّ الْبَعِيدِ!!. وَبِتَنْفِيرِ النَّاسِ مِنْهُ؛ حَتَّى يُوشِكَ أَلَّا يُصَاهِرَهُ أَحَدٌ!! وَظَلَمَ نَفْسَهُ فِي الْأُخْرَى – أَيْضًا –: بِمَا خَالَفَ أَمْرَ اللهِ وَتَعَرَّضَ لِسَخَطِهِ!.

أَوْطَارِكُمْ مِنْهُنَّ، إِنْعَامًا مِنْهُ بِذَلِكَ عَلَيْكُمْ، لَا لِتَتَّخِذُوا مَا بَيَّنْتُ لَكُمْ مِنْ ذَلِكَ فِي آيِ كِتَابِي وَتَنْزِيلِي – تَفَضُّلًا مِنِّي بِبَيَانِهِ عَلَيْكُمْ، وَإِنْعَامًا وَرَحْمَةً مِنِّي بِكُمْ – لَعِبًا وَسُخْرِيًّا.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾يَعْنِي: وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالْإِسْلَامِ، الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِهِ فَهَدَاكُمْ لَهُ، وَسَائِرِ نِعَمِهِ الَّتِي خَصَّكُمْ بِهَا دُونَ غَيْرِكُمْ مِنْ سَائِرِ خَلْقِهِ، فَاشْكُرُوهُ عَلَى ذَلِكَ بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ، وَاذْكُرُوا أَيْضًا مَعَ ذَلِكَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِهِ، وَذَلِكَ: الْقُرْآن الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَاذْكُرُوا ذَلِكَ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَاحْفَظُوا حُدُودَهُ فِيهِ. وَالْحِكْمَةُ: يَعْنِي: وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْحِكْمَةِ؛ وَهِيَ السُّنَنُ الَّتِي عَلَّمَكُمُوهَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَسَنَّهَا لَكُمْ.

﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾يَعْنِي: يَعِظُكُمْ بِالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾يَقُولُ: وَخَافُوا اللهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَفِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْكُمْ، وَفِيمَا أَنْزَلَهُ فَبَيَّنَهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَكُمْ أَنْ تُضَيِّعُوهُ وَتَتَعَدُّوا حُدُودَهُ، فَتَسْتَوْجِبُوا مَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ مِنْ أَلِيمِ عِقَابِهِ وَنَكَالِ عَذَابِهِ!!.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾يَقُولُ: وَاعْلَمُوا – أَيُّهَا النَّاسُ – أَنَّ رَبَّكُمُ – الَّذِي حَدَّ لَكُمْ هَذِهِ الْحُدُودَ ، وَشَرَعَ لَكُمْ هَذِهِ الشَّرَائِعَ، وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ هَذِهِ الْفَرَائِضَ، فِي كِتَابِهِ وَفِي تَنْزِيلِهِ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِكُلِّ مَا أَنْتُمْ عَامِلُوهُ – مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَحَسَنٍ وَسَيِّئٍ، وَطَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ – عَالِمٌ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ظَاهِرِ ذَلِكَ وَخَفِيِّهِ وَسِرِّهِ وَجَهْرِهِ، شَيْءٌ، وَهُوَ مُجَازِيكُمْ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا، وَبِالسَّيِّئِ سَيِّئًا، إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ وَيَصْفَحَ؛ فَلَا تَتَعَرَّضُوا لِعِقَابِهِ، وَتَظْلِمُوا أَنْفُسَكُمْ!.

٢٣٢– ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ[٣٧٩] فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا

---

[٣٧٩] قَوْلُهُ: ﴿**فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ**﴾أَيِ: انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ. فَبُلُوغُ الْأَجَلِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مَحْمُولٌ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى – قَالَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿**فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**﴾، وَلَوْ كَانَتْ عِدَّتُهَا قَدِ انْقَضَتْ؛ لَمَا قَالَ: ﴿**فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**﴾؛ لِأَنَّ إِمْسَاكَهَا بَعْدَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ لَا يَجُوزُ! وَلَما قَالَ: ﴿**أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**﴾؛ لِأَنَّهَا بَعْدَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ تَكُونُ مُسَرَّحَةً، فَلَا حَاجَةَ إِلَى تَسْرِيحِهَا!.
وَأَمَّا هَذِهِ الْآيَةُ – الَّتِي نَحْنُ فِيهَا –: فَاللهُ – تَعَالَى – نَهَى عَنْ عَضْلِهِنَّ عَنِ التَّزَوُّجِ بِالْأَزْوَاجِ، وَهَذَا النَّهْيُ إِنَّمَا يَحْسُنُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُمْكِنُهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ فِيهِ بِالْأَزْوَاجِ؛ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ!.

تَعْلَمُونَ﴾ ذكر أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ أُخْتٌ كَانَ زَوَّجَهَا مِن ابْنِ عَمٍّ لَهَا فَطَلَّقَهَا، وَتَرَكَهَا فَلَمْ يُرَاجِعْهَا حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا، ثُمَّ خَطَبَهَا مِنْهُ! فَأَبَى أَنْ يُزَوِّجَهَا إِيَّاهُ وَمَنَعَهَا مِنْهُ، وَهِيَ فِيهِ رَاغِبَةٌ!.

قَالَ الْحَسَنُ: حَدَّثَنِي مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ، قَالَ: زَوَّجَتُ أُخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا، حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا! فَقُلْتُ لَهُ: زَوَّجْتُكَ وَفَرَشْتُكَ أُخْتِي وَأَكْرَمْتُكَ، ثُمَّ طَلَّقْتَهَا، ثُمَّ جِئْتَ تَخْطُبُهَا؟! لَا تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا!! قَالَ: وَكَانَ رَجُلَ صِدْقٍ لَا بَأْسَ بِهِ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تُحِبُّ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ! قَالَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قَالَ: فَقُلْتُ: الْآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ! فَزَوَّجَهَا مِنْهُ.[٣٨٠]

﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ[٣٨١]﴾ يَعْنِي: لَا تُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ بِمَنْعِكُمْ إِيَّاهُنَّ – أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ – مِنْ مُرَاجَعَةِ أَزْوَاجِهِنَّ بِنِكَاحٍ جَدِيدٍ، تَبْتَغُونَ بِذَلِكَ مُضَارَّتَهُنَّ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾: إِذَا تَرَاضَى الْأَزْوَاجُ وَالنِّسَاءُ بِمَا يَحِلُّ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عِوَضًا مِنْ أَبْضَاعِهِنَّ مِنَ الْمُهُورِ، وَنِكَاحٍ جَدِيدٍ مُسْتَأْنَفٍ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الدَّلَالَةُ الْوَاضِحَةُ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِ مَنْ قَالَ: (لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ مِنَ الْعَصَبَةِ).

وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – مَنَعَ الْوَلِيَّ مِنْ عَضْلِ الْمَرْأَةِ إِنْ أَرَادَتِ النِّكَاحَ وَنَهَاهُ عَنْ ذَلِكَ، فَلَوْ كَانَ لِلْمَرْأَةِ إِنْكَاحُ نَفْسِهَا – بِغَيْرِ إِنْكَاحِ وَلِيِّهَا إِيَّاهَا، أَوْ كَانَ لَهَا تَوْلِيَةُ مَنْ أَرَادَتْ تَوْلِيَتَهُ فِي إِنْكَاحِهَا –؛ لَمْ يَكُنْ لِنَهْيِ وَلِيِّهَا عَنْ عَضْلِهَا مَعْنًى مَفْهُومٌ!.[٣٨٢]

﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ﴾ يَقُولُ: فَهَذَا الَّذِي نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ مِنْ عَضْلِهِنَّ عَنِ النِّكَاحِ، عِظَةٌ مِنِّي ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ – أَيُّهَا النَّاسُ – ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ يَعْنِي: يُصَدِّقُ بِاللهِ، فَيُوَحِّدُهُ، وَيَقِرُّ بِرُبُوبِيَّتِهِ، ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يَقُولُ:

---

[٣٨٠] صحيح: رواه البخاري، وأبو داود، وزاد: «فَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ»، والترمذي، والنسائي في الكبرى، والدارقطني في سننه؛ وغيرهم.

[٣٨١] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَصْلُ الْعَضْلِ: الضِّيقُ، وَمِنْهُ قَوْلُ عُمَرَ – رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ –: «وَقَدْ أَعْضَلَ بِي أَهْلُ الْعِرَاقِ، لَا يَرْضَوْنَ عَنْ وَالٍ، وَلَا يَرْضَى عَنْهُمْ وَالٍ» يَعْنِي بِذَلِكَ: حَمَلُونِي عَلَى أَمْرٍ ضَيِّقٍ شَدِيدٍ لَا أُطِيقُ الْقِيَامَ بِهِ، وَمِنْهُ أَيْضًا: الدَّاءُ الْعُضَالُ؛ وَهُوَ الدَّاءُ الَّذِي لَا يُطَاقُ عِلَاجُهُ لِضِيقِهِ عَنِ الْعِلَاجِ، وَتَجَاوُزِهِ حَدَّ الْأَدْوَاءِ الَّتِي يَكُونُ لَهَا عِلَاجٌ.

[٣٨٢] لِلَّهِ دَرُّكَ يَا أَبَا جَعْفَرٍ مَا أَفْقَهَكَ!!.

وَمَنْ يُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَيُصَدِّقُ بِالْبَعْثِ لِلْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، لِيَتَّقِيَ اللهَ فِي نَفْسِهِ، فَلَا يَظْلِمُهَا بِضرَارِ وَلِيَّتِهِ، وَمَنْعِهَا مِنْ نِكَاحِ مَنْ رَضِيتَهُ لِنَفْسِهَا، مِمَّنْ أَذِنت لَهَا فِي نِكَاحِهِ.

﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكُمْ﴾: نِكَاحُهُنَّ أَزْوَاجهنَّ، وَمُرَاجَعَةُ أَزْوَاجِهِنَّ إِيَّاهُنَّ، بِمَا أَبَاحَ لَهُنَّ مِنْ نِكَاحٍ وَمَهْرٍ جَدِيدٍ، أَزْكَى لَكُمْ – أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ – وَالْأَزْوَاجُ وَالزَّوْجَاتُ.

وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿أَزْكَى لَكُمْ﴾: أَفْضَلُ وَخَيْرٌ عِنْدَ اللهِ مِنْ فُرْقَتِهِنَّ أَزْوَاجَهُنَّ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿وَأَطْهَرُ﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي بِذَلِكَ: أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَقُلُوب أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الرِّيبَةِ.

وَذَلِك أَنَّهُمَا إِذَا كَانَ فِي نَفْسِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا – أَعْنِي الزَّوْجَ وَالْمَرْأَةَ – عَلَاقَةُ حُبٍّ؛ لَمْ يُؤْمَنْ أَنْ يَتَجَاوَزَا ذَلِكَ إِلَى غَيْرِ مَا أَحَلَّهُ اللهُ لَهُمَا! وَلَمْ يُؤْمَنْ مِنْ أَوْلِيَائِهِمَا أَنْ يَسْبِقَ إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنْهُمَا مَا لَعَلَّهُمَا أَنْ يَكُونَا مِنْهُ بَرِيئَيْنِ!!.

فَأَمَرَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – الْأَوْلِيَاءَ – إِذَا أَرَادَ الْأَزْوَاجُ التَّرَاجُعَ بَعْدَ الْبَيْنُونَةِ، بِنِكَاحٍ مُسْتَأْنَفٍ، فِي الْحَالِ الَّتِي أَذِنَ اللهُ لَهُمَا بِالتَّرَاجُعِ – أَنْ لَا يَعْضُلَ وَلِيَّتَهُ عَمَّا أَرَادَتْ مِنْ ذَلِكَ، وَأَنْ يُزَوِّجَهَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَفْضَلُ لِجَمِيعِهِمْ، وَأَطْهَرُ لِقُلُوبِهِمْ مِمَّا يُخَافُ سُبُوقُهُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَعَانِي الْمَكْرُوهَةِ!.

ثُمَّ أَخْبَرَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عِبَادَهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ مِنْ سَرَائِرِهِمْ وَخَفِيَّاتِ أُمُورِهِمْ مَا لَا يَعْلَمُهُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَدَلَّهُمْ بِقَوْلِهِ لَهُمْ ذَلِكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، أَنَّهُ إِنَّمَا أَمَرَ أَوْلِيَاءَ النِّسَاءِ بِإِنْكَاحِ مَنْ كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ مِنَ النِّسَاءِ إِذَا تَرَاضَتِ الْمَرْأَةُ وَالزَّوْجُ الْخَاطِبُ بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ عَضْلِهِنَّ عَنْ ذَلِكَ لِمَا عُلِمَ مِمَّا فِي قَلْبِ الْخَاطِبِ وَالْمَخْطُوبِ مِنْ غَلَبَةِ الْهَوَى وَالْمَيْلِ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى صَاحِبِهِ بِالْمَوَدَّةِ وَالْمَحَبَّةِ، فَقَالَ لَهُمْ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: افْعَلُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِي، وَبِثَوَابِي وَبِعِقَابِي فِي مَعَادِكُمْ فِي الْآخِرَةِ، فَإِنِّي أَعْلَمُ مِنْ قَلْبِ الْخَاطِبِ وَالْمَخْطُوبَةِ مَا لَا تَعْلَمُونَهُ مِنَ الْهَوَى وَالْمَحَبَّةِ!.

وَفِعْلُكُمْ ذَلِكَ أَفْضَلُ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَهُمْ، وَأَزْكَى وَأَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ فِي الْعَاجِلِ.

٢٣٣- ﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾ يَعْنِي: وَالنِّسَاءُ اللَّوَاتِي بِنَّ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ وَلَهُنَّ أَوْلَادٌ قَدْ وَلَدْنَهُمْ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ قَبْلَ بَيْنُونَتِهِنَّ مِنْهُمْ بِطَلَاقٍ، أَوْ وَلَدْنَهُمْ مِنْهُمْ بَعْدَ فِرَاقِهِمْ إِيَّاهُنَّ مِنْ وَطْءٍ كَانَ مِنْهُمْ لَهُنَّ قَبْلَ الْبَيْنُونَةِ ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُنَّ أَحَقُّ بِرَضَاعِهِمْ مِنْ غَيْرِهِنَّ.[٣٨٣]

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿حَوْلَيْنِ[٣٨٤]﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي بِهِ: سَنَتَيْنِ

فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: وَمَا مَعْنَى ذِكْرِ كَامِلَيْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ﴾ وَفِي ذِكْرِ الْحَوْلَيْنِ مُسْتَغْنًى عَنْ ذِكْرِ الْكَامِلَيْنِ؟.

قِيلَ: إِنَّ الْعَرَبَ قَدْ تَقُولُ: أَقَامَ فُلَانٌ بِمَكَانِ كَذَا حَوْلَيْنِ، أَوْ يَوْمَيْنِ، أَوْ شَهْرَيْنِ، وَإِنَّمَا أَقَامَ بِهِ يَوْمًا وَبَعْضَ آخَرَ، أَوْ شَهْرًا وَبَعْضَ آخَرَ، أَوْ حَوْلًا وَبَعْضَ آخَرَ، فَقِيلَ: حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ؛ لِيَعْرِفَ سَامِعُو ذَلِكَ أَنَّ الَّذِيَ أُرِيدَ بِهِ حَوْلَانِ تَامَّانِ، لَا حَوْلٌ وَبَعْضُ آخَرَ.

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ يَعْنِي: لِمَنْ أَرَادَ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ أَنْ يُتِمَّ رَضَاعَ وَلَدِهِ.

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ يَعْنِي: وَعَلَى آبَاءِ الصِّبْيَانِ لِلْمَرَاضِعِ ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ يَعْنِي: رِزْقَ وَالِدَتِهِنَّ.

وَيَعْنِي بِالرِّزْقِ: مَا يَقُوتُهُنَّ مِنْ طَعَامٍ، وَمَا لَا بُدَّ لَهُنَّ مِنْ غِذَاءٍ وَمَطْعَمٍ. ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ وَيَعْنِي بِالْكِسْوَةِ: الْمَلْبَسِ. وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بِمَا يَجِبُ لِمِثْلِهَا عَلَى مِثْلِهِ، إِذْ كَانَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – قَدْ عَلِمَ تَفَاوَتَ أَحْوَالِ خَلْقِهِ بِالْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَأَنَّ مِنْهُمُ الْمُوسِعُ وَالْمُقْتِرُ وَبَيْنَ ذَلِكَ.

فَأَمَرَ كُلًّا أَنْ يُنْفِقَ عَلَى مَنْ لَزِمَتْهُ نَفَقَتُهُ مِنْ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ عَلَى قَدْرِ مَيْسَرَتِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾.

---

[٣٨٣] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَلَيْسَ ذَلِكَ بِإِيجَابٍ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عَلَيْهِنَّ رَضَاعَهُمْ، إِذَا كَانَ الْمَوْلُودُ لَهُ وَالِدًا حَيًّا مُوسِرًا؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – قَالَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ الْقُصْرَى[يَعْنِي سُورَةَ الطَّلَاقِ]: ﴿**وَإِنَّ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى**﴾ وَأَخْبَرَ – تَعَالَى – أَنَّ الْوَالِدَةَ وَالْمَوْلُودِ لَهُ إِنْ تَعَاسَرَا فِي الْأُجْرَةِ الَّتِي تُرْضِعُ بِهَا الْمَرْأَةُ وَلَدَهَا، أَنَّ أُخْرَى سِوَاهَا تُرْضِعُهُ، فَلَمْ يُوجِبْ عَلَيْهَا فَرْضًا رَضَاعَ وَلَدِهَا. فَكَانَ مَعْلُومًا بِذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ**﴾ دَلَالَةٌ عَلَى مَبْلَغِ غَايَةِ الرَّضَاعِ الَّتِي مَتَى اخْتَلَفَ الْوَالِدَانِ فِي رَضَاعِ الْمَوْلُودِ بَعْدَهَا، جُعِلَ حَدًّا يُفْصَلُ بِهِ بَيْنَهُمَا، لَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ فَرْضًا عَلَى الْوَالِدَاتِ رَضَاعُ أَوْلَادِهِنَّ اهـ.وَمَا بَيْنَ الْمَعْقُوفَيْنِ زِيَادَة مِنِّي، وَانْظُرْ – لِلْفَائِدَةِ –: النِّهَايَة فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ، مَادَّة(قصر)، وَالْمُغْرِب فِي تَرْتِيبِ الْمُعْرِبِ، مَادَّة(ق ص ر).

[٣٨٤] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَصْلُ الْحَوْلِ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: حَالَ هَذَا الشَّيْءُ: إِذَا انْتَقَلَ، وَمِنْهُ قِيلَ: تَحَوَّلَ فُلَانٌ مِنْ مَكَانِ كَذَا: إِذَا انْتَقَلَ عَنْهُ.

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾يَعْنِي: لَا تُحَمَّلُ نَفْسٌ مِنَ الْأُمُورِ إِلَّا مَا لَا يَضِيقُ عَلَيْهَا، وَلَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهَا وُجُودُهُ إِذَا أَرَادَتْ. وَإِنَّمَا عَنَى اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِذَلِكَ: لَا يُوجِبُ اللهُ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ نَفَقَةِ مَنْ أَرْضَعَ أَوْلَادَهُمْ مِنْ نِسَائِهِمُ الْبَائِنَاتِ مِنْهُمْ، إِلَّا مَا أَطَاقُوهُ وَوَجَدُوا إِلَيْهِ السَّبِيلَ؛ كَمَا قَالَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ﴾.

﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾تَرْمِي بِهِ إِلَى أَبِيهِ ضِرَارًا ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾يَقُولُ: وَلَا الْوَلَدُ، فَيَنْتَزِعُهُ مِنْهَا ضِرَارًا، إِذَا رَضِيَتْ مِنْ أَجْرِ الرَّضَاعِ مَا رَضِيَ بِهِ غَيْرُهَا، فَهِيَ أَحَقُّ بِهِ إِذَا رَضِيتْ بِذَلِكَ.

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾الْمَعْنِيُّ بِالْوَارِثِ: الْمَوْلُودُ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾مَعْنِيًّا بِهِ: مِثْلَ الَّذِي كَانَ عَلَى وَالِدِهِ مِنْ رِزْقِ وَالِدَتِهِ وَكِسْوَتِهَا بِالْمَعْرُوفِ، إِنْ كَانَتْ مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ، وَمَنْ هِيَ ذَاتُ زَمَانَةٍ وَعَاهَةٍ، وَمَنْ لَا احْتَرَافَ فِيهَا، وَلَا زَوْجَ لَهَا تَسْتَغْنِي بِهِ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى وَالصِّحَّةِ؛ فَمِثْلُ الَّذِي كَانَ عَلَى وَالِدِهِ لَهَا مِنْ أَجْرِ رَضَاعِهِ.

﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾يَعْنِي: إِنْ أَرَادَ وَالِدُ الْمَوْلُودِ وَوَالِدَتُهُ ﴿فِصَالًا﴾يَعْنِي: فِصَالَ وَلَدِهِمَا مِنَ اللَّبَنِ.

وَيَعْنِي بِالْفِصَالِ: الْفِطَامَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي بِذَلِكَ: عَنْ تَرَاضٍ مِنْ وَالِدِي الْمَوْلُودِ وَتَشَاوُرٍ مِنْهُمَا.

عَنْ سُفْيَانَ، قَالَ: التَّشَاوُرُ مَا دُونَ الْحَوْلَيْنِ، إِذَا اصْطَلَحَا دُونَ ذَلِكَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾فَإِنْ قَالَتِ الْمَرْأَةُ: أَنَا أَفْطِمُهُ قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ، وَقَالَ الْأَبُ: لَا؛ فَلَيْسَ لَهَا أَنْ تَفْطِمَهُ قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ، وَإِنْ لَمْ تَرْضَ الْأُمُّ؛ فَلَيْسَ لَهُ ذَلِكَ، حَتَّى يَجْتَمِعَا، فَإِنِ اجْتَمَعَا قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ؛ فَطَمَاهُ، وَإِذَا اخْتَلَفَا؛ لَمْ يَفْطِمَاهُ قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾.

وَأَمَّا الْجُنَاحُ: فَالْحَرَجُ.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾يَعْنِي: وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ مَرَاضِعَ غَيْرَ أُمَّهَاتِهِمْ – إِذَا أَبَتْ أُمَّهَاتُهُمْ أَنْ يُرْضِعْنَهُمْ بِالَّذِي يُرْضِعْنَهُمْ بِهِ غَيْرُهُنَّ مِنَ

الْأَجْرِ، أَوْ مِنْ خِيفَةِ ضَيْعَةٍ مِنْكُمْ عَلَى أَوْلَادِكُمْ بِانْقِطَاعِ أَلْبَانِ أُمَّهَاتِهِمْ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ – فَلَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ فِي اسْتِرْضَاعِهِنَّ، إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ.

وَأَمَّا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾فَإِنَّ مَعْنَاهُ: بِالْإِجْمَالِ وَالْإِحْسَانِ، وَتَرْكِ الْبَخْسِ وَالظُّلْمِ فِيمَا وَجَبَ لِلْمَرَاضِعِ.

﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾يَعْنِي: وَخَافُوا اللهَ فِيمَا فَرَضَ لِبَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْحُقُوقِ، وَفِيمَا أَلْزَمَ نِسَاءَكُمْ لِرِجَالِكُمْ وَرِجَالَكُمْ لِنِسَائِكُمْ، وَفِيمَا أَوْجَبَ عَلَيْكُمْ لِأَوْلَادِكُمْ؛ فَاحْذَرُوهُ أَنْ تُخَالِفُوهُ فَتَعْتَدُوا – فِي ذَلِكَ وَفِي غَيْرِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ وَحُقُوقِهِ – حُدُودَهُ، فَتَسْتَوْجِبُوا بِذَلِكَ عُقُوبَتَهُ!!.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾مِنَ الْأَعْمَالِ – أَيُّهَا النَّاسُ –: سِرَّهَا وَعَلَانِيَتَهَا، وَخَفِيَّهَا وَظَاهِرَهَا، وَخَيْرَهَا وَشَرَّهَا؛ ﴿بَصِيرٌ﴾ يَرَاهُ وَيَعْلَمُهُ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَا يَتَغَيَّبُ عَنْهُ مِنْهُ شَيْءٌ، فَهُوَ يُحْصِي ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَيْكُمْ، حَتَّى يُجَازِيَكُمْ بِخَيْرِ ذَلِكَ وَشَرِّهِ.

وَمَعْنَى (بَصِيرٍ): ذُو إِبْصَارٍ؛ وَهُوَ فِي مَعْنَى مُبْصِرٍ.

٢٣٤– ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا[٣٨٥]﴾يَعْنِي: وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ، مِنَ الرِّجَالِ – أَيُّهَا النَّاسُ – فَيَمُوتُونَ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾يَعْنِي: يَحْتَبِسْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ مُعْتَدَّاتٍ عَنِ الْأَزْوَاجِ،

---

[٣٨٥] **فَائِدَةٌ مُهِمَّةٌ**: اعْلَمْ – رَحِمَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ – أَنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا بَعْدَ الْعَقْدِ وَقَبْلَ الدُّخُولِ، تَلْزَمُهَا الْعِدَّةُ وَالْإِحْدَادُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا**﴾؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ تَكُونُ زَوْجَةً بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، [سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً وَلَمْ يَفْرِضْ لَهَا صَدَاقًا وَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا حَتَّى مَاتَ؟]، قَالَ: فَاخْتَلَفُوا إِلَيْهِ شَهْرًا – أَوْ قَالَ: مَرَّاتٍ –، قَالَ: فَإِنِّي أَقُولُ فِيهَا: إِنَّ لَهَا صَدَاقًا كَصَدَاقِ نِسَائِهَا – لَا وَكْسَ، وَلَا شَطَطَ –، وَإِنَّ لَهَا الْمِيرَاثَ، وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ[أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا]، فَإِنْ يَكُ صَوَابًا؛ فَمِنَ اللهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً؛ فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ، وَاللهُ وَرَسُولُهُ بَرِيئَانِ! فَقَامَ نَاسٌ مِنْ أَشْجَعَ – فِيهِمُ الْجَرَّاحُ، وَأَبُو سِنَانٍ –، فَقَالُوا: يَا ابْنَ مَسْعُودٍ! نَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَضَاهَا فِينَا فِي بِرْوَعَ بِنْتِ وَاشِقٍ – وَإِنَّ زَوْجَهَا هِلَالُ بْنُ مُرَّةَ الْأَشْجَعِيُّ – كَمَا قَضَيْتَ، قَالَ: فَفَرِحَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ فَرَحًا شَدِيدًا؛ حِينَ وَافَقَ قَضَاؤُهُ قَضَاءَ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – [صحيح: رواه أحمد، وأبو داود – واللفظ له –، والترمذي، والنسائي – وما بين المعقوفين الأول له وللترمذي –، وابن ماجة، والطبراني في الكبير والأوسط، وابن أبي شيبة في مصنفه، وابن حبان في صحيحه – وما بين المعقوفين الثاني له وللنسائي والحاكم–، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في الإرواء(١٩٣٩)، وصحيح أبي داود(٢١١٦)، وصحيح الترمذي (١١٤٥)، وصحيح النسائي(٣٣٥٤)، وصحيح ابن ماجة(١٨٩١)، والتعليقات الحسان(٤٠٨٩)].

مِنْ فَضَائِلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**رَضِيتُ لِأُمَّتِي مَا رَضِيَ لَهَا ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ!**» [صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي، والطبراني في الأوسط؛ وغيرهما، وصححه الألباني في الصحيحة(١٢٢٥)، وصحيح الجامع(٣٥٠٩)].

وَالطِّيبِ وَالزِّينَةِ[٣٨٦]، وَالنُّقْلَةِ عَنِ الْمَسْكَنِ الَّذِي كُنَّ يَسْكُنَّهُ فِي حَيَاةِ أَزْوَاجِهِنَّ[٣٨٧] ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ إِلَّا أَنْ يَكُنَّ حَوَامِلَ، فَيَكُونُ عَلَيْهِنَّ مِنَ التَّرَبُّصِ كَذَلِكَ إِلَى حِينَ وَضْعِ حَمْلِهِنَّ، فَإِذَا وَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ؛ انْقَضَتْ عِدَدُهُنَّ حِينَئِذٍ.

وَإِنَّمَا قُلْنَا: عَنَى بِالتَّرَبُّصِ مَا وَصَفْنَا؛ لِتَظَاهُرِ الْأَخْبَارِ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –:

عَنْ صَفِيَّةَ ابْنَةِ أَبِي عُبَيْدٍ، أَنَّهَا سَمِعَتْ حَفْصَةَ ابْنَةَ عُمَرَ – زَوْجَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – تُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحِدَّ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ؛ فَإِنَّهَا تُحِدُّ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا» قَالَ يَحْيَى: «وَالْإِحْدَادُ عِنْدَنَا: أَنْ لَا تَطَيَّبَ وَلَا تَلْبَسَ ثَوْبًا مَصْبُوغًا بِوَرْسٍ وَلَا زَعْفَرَانٍ، وَلَا تَكْتَحِلَ، وَلَا تَزَيَّنَ».[٣٨٨]

عَنْ زَيْنَبَ ابْنَةِ أُمِّ سَلَمَةَ، عَنْ أُمِّهَا أُمِّ سَلَمَةَ، وَأُمِّ حَبِيبَةَ – زَوْجَيِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: أَنَّ امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَتْ: إِنَّ ابْنَتِي تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا، وَقَدْ خِفْتُ

---

[٣٨٦] عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَتْ: **«كُنَّا نُنْهَى أَنْ نُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ؛ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، وَلَا نَكْتَحِلَ، وَلَا نَتَطَيَّبَ، وَلَا نَلْبَسَ ثَوْبًا مَصْبُوغًا؛ إِلَّا ثَوْبَ عَصْبٍ، وَقَدْ رُخِّصَ لَنَا عِنْدَ الطُّهْرِ إِذَا اغْتَسَلَتْ إِحْدَانَا مِنْ مَحِيضِهَا فِي نُبْذَةٍ مِنْ قُسْطٍ أَوْ أَظْفَارٍ، وَكُنَّا نُنْهَى عَنِ اتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ»** [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة].

قَوْلُهُ: (إِلَّا ثَوْبَ عَصْبٍ) قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ: الْعَصْبُ: بُرْدٌ يُصْبَغُ غَزْلُهُ ثُمَّ يُنْسَجُ، وَقَالَ السُّهَيْلِيُّ: الْعَصْبُ: صِبْغٌ لَا يَنْبُتُ إِلَّا بِالْيَمَنِ اهـ.

وَقَوْلُهُ: (فِي نُبْذَةٍ) النُّبْذَةُ: الْقِطْعَةُ وَالشَّيْءُ الْيَسِيرُ، وَقَوْلُهُ: (مِنْ قُسْطٍ أَوْ أَظْفَارٍ) الْقُسْطُ وَالْأَظْفَارُ: نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ مِنَ الْبَخُورِ وَلَيْسَا مِنْ مَقْصُودِ الطِّيبِ، رَخَّصَ فِيهِ لِلْمُغْتَسِلَةِ مِنَ الْحَيْضِ لِإِزَالَةِ الرَّائِحَةِ الْكَرِيهَةِ تَتْبَعُ بِهِ أَثَرَ الدَّمِ، لَا لِلتَّطَيُّبِ، وَاللهُ – تَعَالَى – أَعْلَمُ [قاله النووي في شرح مسلم].

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ – زَوْجِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، أَنَّهُ قَالَ: **«الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا لَا تَلْبَسُ الْمُعَصْفَرَ مِنَ الثِّيَابِ، وَلَا الْمُمَشَّقَةَ، وَلَا الْحُلِيَّ، وَلَا تَخْتَضِبُ، وَلَا تَكْتَحِلُ»** [صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان في صحيحه؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٦٦٧٧)].

قَوْلُهُ: (لَا تَلْبَسُ الْمُعَصْفَرَ)أَيِ: الْمَصْبُوغُ بِالْمُعَصْفَرِ (وَلَا الْمُمَشَّقَةَ)أَيِ: الْمَصْبُوغَة بِالْمِشْقِ – بِكَسْرِ الْمِيمِ –؛ وَهُوَ الطِّينُ الْأَحْمَرُ [عون المعبود؛ للعظيم آبادي].

[٣٨٧] عَنْ سَعْدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، عَنْ عَمَّتِهِ زَيْنَبَ بِنْتِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، أَنَّ الْفُرَيْعَةَ بِنْتَ مَالِكِ بْنِ سِنَانَ – وَهِيَ أُخْتُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – أَخْبَرَتْهَا: أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – تَسْأَلُهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهَا فِي بَنِي خُدْرَةَ؛ فَإِنَّ زَوْجَهَا خَرَجَ فِي طَلَبِ أَعْبُدٍ لَهُ أَبَقُوا، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِطَرَفِ الْقَدُومِ لَحِقَهُمْ، فَقَتَلُوهُ!! فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنْ أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، فَإِنَّ زَوْجِي لَمْ يَتْرُكْنِي فِي مَنْزِلٍ يَمْلِكُهُ، وَلَا نَفَقَةَ، فَقَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: **«نَعَمْ»**، فَانْصَرَفْتُ[مَسْرُورَةً بِذَلِكَ]، حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي الْحُجْرَةِ – أَوْ فِي الْمَسْجِدِ – دَعَانِي – أَوْ أَمَرَنِي – رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَدُعِيتُ لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: **«كَيْفَ قُلْتِ؟»**، قَالَتْ: فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ الَّتِي ذَكَرْتُ مِنْ شَأْنِ زَوْجِي! فَقَالَ: **«امْكُثِي فِي بَيْتِكِ[الَّذِي جَاءَكِ فِيهِ نَعْيُهُ]حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ»** (وفي رواية: **«اعْتَدِّي حَيْثُ بَلَغَكِ الْخَبَرُ»**)، قَالَتْ: فَاعْتَدَدْتُ فِيهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، قَالَتْ: فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، أَرْسَلَ إِلَيَّ، فَسَأَلَنِي عَنْ ذَلِكَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ؛ فَاتَّبَعَهُ، وَقَضَى بِهِ [صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، والطبراني في الكبير والأوسط، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في صحيح أبي داود(٢٣٠٠)، والتعليقات الحسان(٤٢٧٨)، وغيرهما، وانظر – للأهمية –: الضعيفة تحت الحديث(٥٥٩٧)].

[٣٨٨] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود عن جمع من الصحابيات ليس فيهن حفصة، ورواه أحمد، والنسائي، وابن ماجة عن حفصة.

عَلَى عَيْنِهَا، وَهِيَ تُرِيدُ الْكُحْلَ، قَالَ: «قَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ، وَإِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ!» قَالَ حُمَيْدٌ: فَقُلْتُ لِزَيْنَبَ: «وَمَا رَأْسُ الْحَوْلِ»؟ قَالَتْ زَيْنَبُ: «كَانَتِ الْمَرْأَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا هَلَكَ زَوْجُهَا، عَمَدَتْ إِلَى أَشَرِّ بَيْتٍ لَهَا فَجَلَسَتْ فِيهِ، حَتَّى إِذَا مَرَّتْ بِهَا سَنَةٌ، خَرَجَتْ، ثُمَّ رَمَتْ بِبَعْرَةٍ وَرَاءَهَا».[٣٨٩]

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾يَعْنِي: فَإِذَا بَلَغْنَ الْأَجَلَ الَّذِي أُبِيحَ لَهُنَّ فِيهِ مَا كَانَ حُظِرَ عَلَيْهِنَّ فِي عِدَدِهِنَّ مِنْ وَفَاةِ أَزْوَاجِهِنَّ – وَذَلِكَ بَعْدَ انْقِضَاءِ عِدَدِهِنَّ، وَمُضِيِّ الْأَشْهُرِ الْأَرْبَعَةِ وَالْأَيَّامِ الْعَشْرَةِ – ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾يَقُولُ: فَلَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ – أَوْلِيَاءُ الْمَرْأَةِ – فِيمَا فَعَلَ الْمُتَوَفَّى عَنْهُنَّ حِينَئِذٍ فِي أَنْفُسِهِنَّ؛ مِنْ تَطَيُّبٍ وَتَزَيُّنٍ وَنُقْلَةٍ مِنَ الْمَسْكَنِ الَّذِي كُنَّ يَعْتَدِدْنَ فِيهِ، وَنِكَاحِ مَنْ يَجُوزُ لَهُنَّ نِكَاحُهُ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾يَعْنِي: عَلَى مَا أَذِنَ اللهُ لَهُنَّ فِيهِ وَأَبَاحَهُ لَهُنَّ.

﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ، فِي أَمْرِ مَنْ أَنْتُمْ وَلِيُّهُ مِنْ نِسَائِكُمْ، مِنْ عَضْلِهِنَّ وَإِنْكَاحِهِنَّ مِمَّنْ أَرَدْنَ نِكَاحَهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَلِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِكُمْ وَأُمُورِهِمْ ﴿خَبِيرٌ﴾يَعْنِي: ذُو خَبْرَةٍ وَعِلْمٍ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ.

---

[٣٨٩] صحيح: رواه البخاري، ومسلم؛ بِلَفْظِ: قَالَتْ زَيْنَبُ: سَمِعْتُ أُمِّي – أُمَّ سَلَمَةَ –، تَقُولُ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ ابْنَتِي تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا، وَقَدِ اشْتَكَتْ عَيْنُهَا، أَفَنَكْحُلُهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: **«لَا»** – مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يَقُولُ: لَا – ثُمَّ قَالَ: **«إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ، وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ»**.

قَالَ حُمَيْدٌ: فَقُلْتُ لِزَيْنَبَ: وَمَا تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ؟ فَقَالَتْ زَيْنَبُ: «كَانَتِ الْمَرْأَةُ إِذَا تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا دَخَلَتْ حِفْشًا، وَلَبِسَتْ شَرَّ ثِيَابِهَا، وَلَمْ تَمَسَّ طِيبًا، وَلَا شَيْئًا حَتَّى تَمُرَّ بِهَا سَنَةٌ، ثُمَّ تُؤْتَى بِدَابَّةٍ – حِمَارٍ، أَوْ شَاةٍ، أَوْ طَيْرٍ – فَتَفْتَضُّ بِهِ، فَقَلَّمَا تَفْتَضُّ بِشَيْءٍ إِلَّا مَاتَ! ثُمَّ تَخْرُجُ، فَتُعْطَى بَعْرَةً، فَتَرْمِي بِهَا، ثُمَّ تُرَاجِعُ بَعْدُ مَا شَاءَتْ مِنْ طِيبٍ أَوْ غَيْرِهِ».

قُلْتُ: فَانْظُرْ كَيْفَ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ: تَبْقَى الْمَرْأَةُ سَنَةً كَامِلَةً فِي الْعِدَّةِ بَعْدَ مَوْتِ زَوْجِهَا، وَتَبْقَى فِي بَيْتٍ صَغِيرٍ – وَهُوَ الْحِفْشُ –، لَا تَمَسُّ مَاءً وَلَا تُقَلِّمُ ظُفُرًا وَلَا تُزِيلُ شَعْرًا! تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ حَتَّى لَا تَمُوت؛ وَتَبْقَى بِعَرَقِهَا وَرَائِحَتِهَا وَحَيْضِهَا وَنَتْنِهَا لِمُدَّةِ سَنَةٍ كَامِلَةٍ!! فَإِذَا تَمَّتِ السَّنَةُ؛ أَتَوْا لَهَا بِدَابَّةٍ – حِمَارٍ، أَوْ شَاةٍ، أَوْ طَيْرٍ –، فَقَالُوا لَهَا: (امْسَحِي بِهِ فَرْجَكِ!)؛ فَقَلَّمَا تَتَمَسَّحُ بِشَيْءٍ إِلَّا مَاتَ مِنَ الرَّائِحَةِ الْكَرِيهَةِ!! ثُمَّ إِذَا تَمَّ الْحَوْلُ أَتَوْا لَهَا بِبَعْرَةٍ؛ فَتَرْمِي بِهَا، كَأَنَّهَا تَقُولُ: كَانَ جُلُوسِي بِالْبَيْتِ، وَحَبْسِي سَنَة؛ كَالرَّمْيَةِ بِالْبَعْرَةِ فِي جَنْبِ مَا كَانَ يَجِبُ فِي حَقِّ زَوْجِي!!.

إِذَا عَلِمْتَ هَذَا وَأَمْثَالَهُ – مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ الْعَرَبُ مِنَ الْعَادَاتِ السَّخِيفَةِ وَالْخُرَافَاتِ الشَّائِنَةِ الْمُهِينَةِ لِلْمَرْأَةِ –؛ يَظْهَرُ لَكَ شَأْنُ مَا جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ مِنَ الْإِصْلَاحِ فِي ذَلِكَ: إِذْ جَعَلَ الْعِدَّةَ عَلَى نَحْوِ الثُّلُثِ مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُحَرِّمْ فِيهَا إِلَّا الزِّينَةَ وَالطِّيبَ وَالتَّعَرُّضَ لِأَنْظَارِ الْخَاطِبِينَ مِنْ مُرِيدِي التَّزَوُّجِ، دُونَ النَّظَافَةِ وَالْجُلُوسِ فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنَ الْبَيْتِ مَعَ النِّسَاءِ وَالْمَحَارِمِ مِنَ الرِّجَالِ.

وَهَذَا الَّذِي أَمَرَ بِهِ الْإِسْلَامُ: يَلِيقُ وَيَحْسُنُ فِي كُلِّ شَعْبٍ وَجِيلٍ، فِي كُلِّ زَمَنٍ وَعَصْرٍ، لَا يَشُقُّ عَلَى بَدْوٍ وَلَا حَضَرٍ.

٢٣٥- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ[٣٩٠]﴾يَعْنِي: وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ – أَيُّهَا الرِّجَالُ – فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ، لِلنِّسَاءِ الْمُعْتَدَّاتِ، مِنْ وَفَاةِ أَزْوَاجِهِنَّ فِي عِدَدِهِنَّ، وَلَمْ تُصَرِّحُوا بِعَقْدِ نِكَاحٍ.

وَالتَّعْرِيضُ الَّذِي أُبِيحَ فِي ذَلِكَ؛ هُوَ مَا حَدَّثَنَا بِهِ ابْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾قَالَ: التَّعْرِيضُ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي أُرِيدُ التَّزْوِيجَ، وَإِنِّي لَأُحِبُّ امْرَأَةً مِنْ أَمْرِهَا وَأَمْرِهَا، يُعَرِّضُ لَهَا بِالْقَوْلِ بِالْمَعْرُوفِ.[٣٩١]

عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: كَيْفَ يَقُولُ الْخَاطِبُ؟ قَالَ: يُعَرِّضُ تَعْرِيضًا وَلَا يَبُوحُ بِشَيْءٍ؛ يَقُولُ: إِنَّ لِي حَاجَةً، وَأَبْشِرِي! وَأَنْتِ بِحَمْدِ اللهِ نَافِقَةٌ، وَلَا يَبُوحُ بِشَيْءٍ.[٣٩٢]

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي قَوْلِ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِلْمَرْأَةِ وَهِيَ فِي عِدَّةٍ مِنْ وَفَاةِ زَوْجِهَا: إِنَّكِ عَلَيَّ لَكَرِيمَةٌ، وَإِنِّي فِيكِ لَرَاغِبٌ، وَإِنَّ اللهَ سَائِقٌ إِلَيْكِ خَيْرًا وَرِزْقًا؛ وَنَحْوَ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ.[٣٩٣]

﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ[٣٩٤] فِي أَنْفُسِكُمْ﴾يَعْنِي: أَوْ أَخْفَيْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ، فَأَسْرَرْتُمُوهُ؛ مِنْ خِطْبَتِهِنَّ، وَعَزْمِ نِكَاحِهِنَّ وَهُنَّ فِي عِدَدِهِنَّ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ – أَيْضًا – فِي ذَلِكَ، إِذَا لَمْ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ.

---

[٣٩٠] **فَائِدَةٌ مُهِمَّةٌ: النِّسَاءُ فِي حُكْمِ الْخِطْبَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:**

أَحَدُهَا: الَّتِي تَجُوزُ خِطْبَتُهَا تَعْرِيضًا وَتَصْرِيحًا؛ وَهِيَ الَّتِي لَيْسَتْ فِي عِصْمَةِ أَحَدٍ مِنَ الْأَزْوَاجِ، وَلَيْسَتْ فِي الْعِدَّةِ، لِأَنَّهُ لَمَّا جَازَ نِكَاحُهَا؛ جَازَتْ خِطْبَتُهَا!.

الثَّانِي: الَّتِي لَا تَجُوزُ خِطْبَتُهَا؛ لَا تَصْرِيحًا وَلَا تَعْرِيضًا؛ وَهِيَ الَّتِي فِي عِصْمَةِ الزَّوْجِيَّةِ، وَكَذَلِكَ الْمُطَلَّقَةُ طَلَاقًا رَجْعِيًّا – وَهِيَ الْمُعْتَدَّةُ الَّتِي يَجُوزُ لِزَوْجِهَا أَنْ يُرَاجِعَهَا بِغَيْرِ عَقْدٍ – لَا تَجُوزُ خِطْبَتُهَا؛ لَا تَصْرِيحًا وَلَا تَعْرِيضًا؛ لِأَنَّهَا زَوْجَتُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ**﴾.

الثَّالِثُ: الَّتِي تَجُوزُ خِطْبَتُهَا تَعْرِيضًا لَا تَصْرِيحًا –كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ –؛ وَهِيَ الْمُعْتَدَّةُ مِنَ الْوَفَاةِ، وَمِثْلُهَا الْمُعْتَدَّةُ الْبَائِنَةُ بِالطَّلَقَاتِ الثَّلَاثِ، يَجُوزُ التَّعْرِيضُ لَهَا دُونَ التَّصْرِيحِ.

[٣٩١] صحيح: رواه البخاري، والبيهقي في الكبرى والصغرى، والبغوي في شرح السنة، والضياء المقدسي في المختارة؛ وغيرهم.

[٣٩٢] صحيح: رواه البخاري، وعبد الرزاق في مصنفه، والبيهقي في الكبرى، والبغوي في شرح السنة؛ وقال الألباني في مختصر البخاري(٣/٣٦٣): وصله عبد الرزاق بسند صحيح عنه مفرقًا.

[٣٩٣] صحيح: رواه البخاري، ومالك في الموطأ، والشافعي في مسنده، والبيهقي في الكبرى والصغرى، والبغوي في شرح السنة؛ وقال الألباني في مختصر البخاري(٣/٣٦٣): وصله مالك بسند صحيح عنه.

[٣٩٤] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** يُقَالُ: أَكَنَّ فُلَانٌ هَذَا الْأَمْرَ فِي نَفْسِهِ، فَهُوَ يُكِنُّهُ إِكْنَانًا، وَكَنَّهُ: إِذَا سَتَرَهُ، يَكُنُّهُ كَنًّا وَكُنُونًا. وَيُقَالُ: كَنَنْتُهُ فِي الْبَيْتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ: إِذَا خَبَّأْتُهُ فِيهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿ **كَأَنَّهُنَّ بَيضٌ مَكْنُونٌ**﴾أَيْ: مَخْبُوءٌ.

﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾يَعْنِي: عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَ الْمُعْتَدَّاتِ فِي عِدَدِهِنَّ بِالْخِطْبَةِ فِي أَنْفُسِكُمْ وَبِأَلْسِنَتِكُمْ.[٣٩٥]

﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى السِّرِّ الَّذِي نَهَى اللهُ – تَعَالَى – عِبَادَهُ عَنْ مُوَاعَدَةِ الْمُعْتَدَّاتِ بِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ الزِّنَا.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: لَا تَأْخُذُوا مِيثَاقَهَنَّ وَعُهُودَهُنَّ فِي عِدَدِهِنَّ أَنْ لَا يَنْكِحْنَ غَيْرَكُمْ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: أَنْ يَقُولَ لَهَا الرَّجُلُ: لَا تَسْبِقِينِي بِنَفْسِكِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: وَلَا تَنْكِحُوهُنَّ فِي عِدَّتِهِنَّ سِرًّا.

وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ؛ تَأْوِيلُ مَنْ قَالَ: السِّرُّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الزِّنَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي الْجِمَاعَ وَغِشْيَانَ الرَّجُلِ الْمَرْأَةَ: (سِرًّا)؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَكُونُ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي خَفَاءٍ غَيْرِ ظَاهِرٍ مُطَّلَعٍ عَلَيْهِ، فَيُسَمَّى لِخَفَائِهِ: (سِرًّا).

وَكَذَلِكَ يُقَالُ لِكُلِّ مَا أَخْفَاهُ الْمَرْءُ فِي نَفْسِهِ: سِرًّا، وَيُقَالُ: هُوَ فِي سِرِّ قَوْمِهِ، يَعْنِي: فِي خِيَارِهِمْ وَشَرَفِهِمْ.

فَلَمَّا كَانَ السِّرُّ إِنَّمَا يُوَجَّهُ فِي كَلَامِهَا إِلَى أَحَدِ هَذِهِ الْأَوْجُهِ الثَّلَاثَةِ، وَكَانَ مَعْلُومًا أَنَّ أَحَدَهُنَّ غَيْرُ مَعْنِيٍّ بِهِ قَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾وَهُوَ السِّرُّ الَّذِي هُوَ مَعْنَى الْخِيَارِ وَالشَّرَفِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْوَجْهَانِ الْآخَرَانِ: وَهُوَ (السِّرُّ) الَّذِي بِمَعْنَى مَا أَخْفَتْهُ نَفْسُ الْمُوَاعِدِ بَيْنَ الْمُتَوَاعِدِينَ، وَ(السِّرُّ) الَّذِي بِمَعْنَى الْغِشْيَانِ وَالْجِمَاعِ.

فَلَمَّا لَمْ يَبْقَ غَيْرُهُمَا، وَكَانَتِ الدَّلَالَةُ وَاضِحَةً عَلَى أَنَّ أَحَدَهُمَا غَيْرُ مَعْنِيٍّ بِهِ؛ صَحَّ أَنَّ الْآخَرَ هُوَ الْمَعْنِيُّ بِهِ.

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ: وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ – أَيُّهَا النَّاسُ – فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ لِلْمُعْتَدَّاتِ، مِنْ وَفَاةِ أَزْوَاجِهِنَّ، مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ، وَذَلِكَ حَاجَتُكُمْ إِلَيْهِنَّ، فَلَمْ تُصَرِّحُوا لَهُنَّ بِالنِّكَاحِ وَالْحَاجَةِ إِلَيْهِنَّ، إِذَا أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ، فَأَسْرَرْتُمْ حَاجَتَكُمْ إِلَيْهِنَّ وَخِطْبَتَكُنَّ إِيَّاهُنَّ فِي أَنْفُسِكُمْ، مَا دُمْنَ فِي عِدَدِهِنَّ؛ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَ خِطْبَتَهُنَّ وَهُنَّ فِي عِدَدِهِنَّ، فَأَبَاحَ لَكُمُ التَّعْرِيضَ بِذَلِكَ لَهُنَّ، وَأَسْقَطَ الْحَرَجَ عَمَّا أَضْمَرَتْهُ نُفُوسُكُمْ حُكْمٌ مِنْهُ، وَلَكِنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُوَاعِدُوهُنَّ جِمَاعًا فِي عِدَدِهِنَّ، بِأَنْ يَقُولَ أَحَدُكُمْ لِإِحْدَاهُنَّ فِي عِدَّتِهَا: قَدْ تَزَوَّجْتُكِ فِي نَفْسِي!

---

[٣٩٥] فَتَتَكَلَّمُونَ فِي نِكَاحِهِنَّ حِرْصًا وَتَمَنِّيًا! مِثْلَ أَنْ يَذْكُرَ لِأَخِيهِ، أَوْ لِأَبِيهِ، أَوْ لِابْنِهِ، أَوْ لِصَدِيقِهِ؛ بِأَنَّهُ يَرْغَبُ أَنْ يَتَزَوَّجَ فُلَانَةَ!.

وَإِنَّمَا أَنْتَظِرُ انْقِضَاءَ عِدَّتِكِ! فَيَسْأَلُهَا بِذَلِكَ الْقَوْلِ إِمْكَانَهُ مِنْ نَفْسِهَا الْجِمَاعَ وَالْمُبَاضَعَةِ!! فَحَرَّمَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – ذَلِكَ!.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾فَاسْتَثْنَى الْقَوْلَ الْمَعْرُوفَ مِمَّا نُهِيَ عَنْهُ، مِنْ مُوَاعَدَةِ الرَّجُلِ الْمَرْأَةَ السِّرَّ، وَمَعْنَاهُ: وَلَكِنْ قُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا.

فَأَبَاحَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَنْ يَقُولَ لَهَا الْمَعْرُوفَ مِنَ الْقَوْلِ فِي عِدَّتِهَا، وَذَلِكَ هُوَ مَا أَذِنَ لَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾.

﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾يَعْنِي: وَلَا تُصَحِّحُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ فِي عِدَّةِ الْمَرْأَةِ الْمُعْتَدَّةِ، فَتُوجِبُوهَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُنَّ، وَتَعْقِدُوهَا قَبْلَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾يَعْنِي: يَبْلُغْنَ أَجْلَ الْكِتَابِ الَّذِي بَيَّنَهُ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –، بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، فَجَعَلَ بُلُوغَ الْأَجَلِ لِلْكِتَابِ، وَالْمَعْنَى لِلْمُتَنَاكِحَيْنِ، أَنْ لَا يَنْكِحَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ الْمُعْتَدَّةَ، فَيَعْزِمَ عُقْدَةَ النِّكَاحِ عَلَيْهَا حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهَا، فَيَبْلُغَ الْأَجَلَ الَّذِي أَجَّلَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ لِانْقِضَائِهَا.

﴿وَاعْلَمُوا﴾ – أَيُّهَا النَّاسُ – ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ مِنْ هَوَاهِنَّ وَنِكَاحِهِنَّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِكُمْ ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾يَقُولُ: فَاحْذَرُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ فِي أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْتُوا شَيْئًا مِمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ، مِنْ عَزْمِ عُقْدَةِ نِكَاحِهِنَّ، أَوْ مُوَاعَدَتِهِنَّ السِّرَّ فِي عِدَدِهِنَّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ فِي شَأْنِهِنَّ فِي حَالِ مَا هُنَّ مُعْتَدَّاتٌ، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾يَعْنِي: أَنَّهُ ذُو سَتْرٍ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ وَتَغْطِيَةٍ عَلَيْهَا، فِيمَا تُكِنُّهُ نُفُوسُ الرِّجَالِ مِنْ خِطْبَةِ الْمُعْتَدَّاتِ، وَذِكْرِهِمْ إِيَّاهُنَّ فِي حَالِ عِدَدِهِنَّ، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَطَايَاهُمْ. وَقَوْلُهُ ﴿حَلِيمٌ﴾يَعْنِي: أَنَّهُ ذُو أَنَاةٍ لَا يُعَجِّلُ عَلَى عِبَادِهِ بِعُقُوبَتِهِمْ عَلَى ذُنُوبِهِمْ.

٢٣٦- ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾يَعْنِي: لَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ ﴿إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾يَقُولُ: لَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ فِي طَلَاقِكُمْ نِسَاءَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾يَعْنِي: مَا لَمْ تُجَامِعُوهُنَّ.

وَإِنَّمَا عَنَى اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –، بِقَوْلِهِ: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾: الْمُطَلَّقَاتُ قَبْلَ الإِفْضَاءِ إِلَيْهِنَّ فِي نِكَاحٍ قَدْ سُمِّيَ لَهُنَّ فِيهِ الصَّدَاقُ.

﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ﴾يَعْنِي: أَوْ تُوجِبُوا لَهُنَّ، ﴿فَرِيضَةً[٣٩٦]﴾يَعْنِي: صَدَاقًا وَاجِبًا.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ[٣٩٧]﴾يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾: وَأَعْطُوهُنَّ مَا يَتَمَتَّعْنَ بِهِ مِنْ أَمْوَالِكُمْ عَلَى أَقْدَارِكُمْ وَمَنَازِلِكُمْ مِنَ الْغِنَى وَالْإِقْتَارِ.

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾هَلْ هُوَ عَلَى الْوُجُوبِ، أَوْ عَلَى النَّدْبِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عَلَى الْوُجُوبِ يُقْضَى بِالْمُتْعَةِ فِي مَالِ الْمُطَلِّقِ، كَمَا يُقْضَى عَلَيْهِ بِسَائِرِ الدُّيُونِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْهِ لِغَيْرِهِ، وَقَالُوا: ذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ كَائِنَةً مَنْ كَانَتْ مِنْ نِسَائِهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: الْمُتْعَةُ لِلْمُطَلَّقَةِ عَلَى زَوْجِهَا الْمُطَلِّقِهَا وَاجِبَةٌ، وَلَكِنَّهَا وَاجِبَةٌ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ سِوَى الْمُطَلَّقَةِ الْمَفْرُوضِ لَهَا الصَّدَاقُ، فَأَمَّا الْمُطَلَّقَةُ الْمَفْرُوضُ لَهَا الصَّدَاقُ إِذَا طُلِّقَتْ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا؛ فَإِنَّهَا لَا مُتْعَةَ لَهَا، وَإِنَّمَا لَهَا نِصْفُ الصَّدَاقِ الْمُسمَّى.

وَقَالَ آخَرُونَ: لَا يَقْضِي الْحَاكِمُ وَلَا السُّلْطَانُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْمُطَلِّقِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – نَدْبٌ وَإِرْشَادٌ إِلَى أَنْ تُمَتَّعَ الْمُطَلَّقَةُ.

وَالَّذِي هُوَ أَوْلَى بِالصَّوَابِ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي؛ قَوْلُ مَنْ قَالَ: (لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ مُتْعَةٌ)؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –، قَالَ: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾فَجَعَلَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – ذَلِكَ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ، وَلَمْ يُخَصِّصْ مِنْهُنَّ بَعْضًا دُونَ بَعْضٍ.

فَلَيْسَ لِأَحَدٍ إِحَالَةُ ظَاهِرِ تَنْزِيلٍ عَامٍّ، إِلَى بَاطِنٍ خَاصٍّ، إِلَّا بِحُجَّةٍ يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهَا.

---

[٣٩٦] **الْمُرَادُ بِفَرْضِ الْفَرِيضَةِ**: تَسْمِيَةُ الْمَهْرِ.

[٣٩٧] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَمَّا الْمُوسِعُ: فَهُوَ الَّذِي قَدْ صَارَ مِنْ عَيْشِهِ إِلَى سَعَةٍ وَغِنًى، وَأَمَّا الْمُقْتِرُ: فَهُوَ الْمُقِلُّ مِنَ الْمَالِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَإِنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – قَدْ خصَّ الْمُطَلَّقَةَ قَبْلَ الْمَسِيسِ، إِذَا كَانَ مَفْرُوضًا لَهَا؛ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾إِذْ لَمْ يَجْعَلْ لَهَا غَيْرَ نِصْفِ الْفَرِيضَةِ؟ قِيلَ: إِنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – إِذَا دَلَّ عَلَى وُجُوبِ شَيْءٍ فِي بَعْضِ تَنْزِيلِهِ، فَفِي دَلَالَتِهِ عَلَى وُجُوبِهِ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ، الْكِفَايَةُ عَنْ تَكْرِيرِهِ، حَتَّى يَدُلَّ عَلَى بُطُولِ[٣٩٨] فَرْضِهِ.

وَقَدْ دَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾عَلَى وُجُوبِ الْمُتْعَةِ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ[٣٩٩]، فَلَا حَاجَةَ بِالْعِبَادِ إِلَى تَكْرِيرِ ذَلِكَ فِي كُلِّ آيَةٍ وَسُورَةٍ.

فَإِنْ ظَنَّ ذُو غَبَاءٍ أَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – إِذْ قَالَ: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ وَ: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أَنَّهَا غَيْرُ وَاجِبَةٍ، لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ وَاجِبَةً؛ لَكَانَتْ عَلَى الْمُحْسِنِ وَغَيْرِ الْمُحْسِنِ، وَالْمُتَّقِي وَغَيْرِ الْمُتَّقِي!.

فَإِنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – قَدْ أَمَرَ جَمِيعَ خَلْقِهِ بِأَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَمِنَ الْمُتَّقِينَ، وَمَا وَجَبَ مِنْ حَقٍّ عَلَى أَهْلِ الْإِحْسَانِ وَالتُّقَى؛ فَهُوَ عَلَى غَيْرِهِمْ أَوْجَبُ، وَلَهُمْ أَلْزَمُ!.

وَأَجْمَعَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّ الْمُطَلَّقَةَ غَيْرَ الْمَفْرُوضِ لَهَا قَبْلَ الْمَسِيسِ؛ لَا شَيْءَ لَهَا عَلَى زَوْجِهَا الْمُطَلِّقِهَا غَيْرَ الْمُتْعَةِ.

---

[٣٩٨] مِنَ (الْبُطْلَانِ)، قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ: بَطَلَ الشَّيْءُ يَبْطُلُ بُطْلًا وَبُطُولًا وَبُطْلَانًا: فَسَدَ أَوْ سَقَطَ حُكْمُهُ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَجَمْعُهُ: بَوَاطِلُ.

[٣٩٩] قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: الْأَقْوَى وَالْأَرْجَحُ – وَاللهُ أَعْلَمُ –؛ هُوَ الْقَوْلُ بِوُجُوبِ الْمُتْعَةِ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ: سَوَاءٌ طُلِّقَتْ قَبْلَ الْمَسِيسِ أَمْ لَا؟ فُرِضَ لَهَا الصَّدَاقُ أَمْ لَا؟ وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا**﴾وَقَدْ كُنَّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ – مَفْرُوضًا لَهُنَّ مَدْخُولًا بِهِنَّ! وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ**﴾، وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنِهِ الْكُبْرَى، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: لَمَّا طَلَّقَ حَفْصُ بْنُ الْمُغِيرَةِ امْرَأَتَهُ فَاطِمَةَ، فَأَتَتِ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَ لِزَوْجِهَا: «**مَتِّعْهَا**» قَالَ: لَا أَجِدُ مَا أُمَتِّعُهَا! قَالَ: «**فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْمَتَاعِ!**» قَالَ: «**مَتِّعْهَا؛ وَلَوْ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ تَمْرٍ!**!». قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: وَقِصَّتُهَا الْمَشْهُورَةُ فِي الْعِدَّةِ؛ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ مَدْخُولًا بِهَا.

قُلْتُ: وَالْحَدِيثُ حَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الصَّحِيحَةِ(٢٢٨١)، وَصَحِيحِ الْجَامِعِ(٥٨٢٣).

فَائِدَةٌ: قَالَ بَعْضُهُمْ: الْحِكْمَةُ فِي شَرْعِ هَذِهِ الْمُتْعَةِ: أَنَّ فِي هَذَا الطَّلَاقِ غَضَاضَةً وَإِيهَامًا لِلنَّاسِ أَنَّ الزَّوْجَ مَا طَلَّقَهَا إِلَّا وَقَدْ رَابَهُ مِنْهَا شَيْءٌ! فَإِذَا هُوَ مَتَّعَهَا مَتَاعًا حَسَنًا؛ تَزُولُ هَذِهِ الْغَضَاضَةُ، وَيَكُونُ هَذَا الْمَتَاعُ الْحَسَنُ بِمَنْزِلَةِ الشَّهَادَةِ بِنَزَاهَتِهَا، وَالِاعْتِرَافِ بِأَنَّ الطَّلَاقَ كَانَ مِنْ قِبَلِهِ – أَيْ: لِعُذْرٍ يَخْتَصُّ بِهِ – لَا مِنْ قِبَلِهَا – أَيْ: لَا لِعِلَّةٍ فِيهَا –؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى – أَمَرَنَا أَنْ نُحَافِظَ عَلَى الْأَعْرَاضِ بِقَدْرِ الطَّاقَةِ، فَجَعَلَ هَذَا التَّمْتِيعَ كَالْمَرْهَمِ لِجُرْحِ الْقَلْبِ! لِكَيْ يَتَسَامَعَ بِهِ النَّاسُ؛ فَيُقَالُ: إِنَّ فُلَانًا أَعْطَى فُلَانَةَ كَذَا وَكَذَا، فَهُوَ لَمْ يُطَلِّقْهَا إِلَّا لِعُذْرٍ، وَهُوَ آسِفٌ عَلَيْهَا! مُعْتَرِفٌ بِفَضْلِهَا! لَا لِأَنَّهُ رَأَى عَيْبًا فِيهَا، أَوْ رَابَهُ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهَا!!.

فَلِلَّهِ مَا أَحْسَنَ وَأَعْظَمَ هَذَا الْحُكْمَ الْإِلَهِيّ، وَأَدَلَّهُ عَلَى حِكْمَةِ الْخَالِقِ – سُبْحَانَهُ – وَرَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ، ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾؟.

﴿مَتَاعًا﴾يَعْنِي: وَمَتِّعُوهُنَّ مَتَاعًا ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾يَعْنِي: بِمَا أَمَرَكُمُ اللهُ بِهِ مِنْ إِعْطَائِكُمْ لَهُنَّ ذَلِكَ بِغَيْرِ ظُلْمٍ، وَلَا مُدَافَعَةٍ مِنْكُمْ لَهُنَّ بِهِ. ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾يَعْنِي: مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ الْحَقِّ عَلَى الْمُحْسِنِينَ ويعني بِقَوْلِهِ: ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾: الَّذِينَ يُحْسِنُونَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ فِي الْمُسَارَعَةِ إِلَى طَاعَةِ اللهِ فِيمَا أَلْزَمَهُمْ بِهِ، وَأَدَائِهِمْ مَا كَلَّفَهُمْ مِنْ فَرَائِضِهِ.

٢٣٧- ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾وَهَذَا الْحُكْمُ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – إِبَانَةٌ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾وَتَأْوِيلُ ذَلِكَ: لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ – أَيُّهَا النَّاسُ – إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تُمَاسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً، فَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ نِصْفُ مَا كُنْتُمْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ مِنْ قَبْلِ طَلَاقِكُمْ إِيَّاهُنَّ، يَعْنِي بِذَلِكَ: فَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ نِصْفُ مَا أَصْدَقْتُمُوهُنَّ، ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾يَعْنِي: إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ اللَّوَاتِي وَجَبَ لَهُنَّ عَلَيْكُمْ نِصْفُ تِلْكَ الْفَرِيضَةِ، فَيَتْرُكْنَهُ لَكُمْ، وَيَصْفَحْنَ لَكُمْ عَنْهُ، تَفَضُّلًا مِنْهُنَّ بِذَلِكَ عَلَيْكُمْ، إِنْ كُنَّ مِمَّنْ يَجُوزُ حُكْمُهُ فِي مَالِهِ، وَهُنَّ بَوَالِغُ رَشِيدَاتٌ، فَيَجُوزُ عَفْوُهُنَّ حِينَئِذٍ عَمَّا عَفَوْنَ عَنْكُمْ مِنْ ذَلِكَ، فَيَسْقُطُ عَنْكُمْ مَا كُنَّ عَفَوْنَ لَكُمْ عَنْهُ مِنْهُ.

﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِيمَنْ عَنَى اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –، بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ وَلِيُّ الْبِكْرِ، وَقَالُوا: وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَوْ يَتْرُكُ الَّذِي يَلِي عَلَى الْمَرْأَةِ عَقْدَ نِكَاحِهَا مِنْ أَوْلِيَائِهَا، لِلزَّوْجِ النِّصْفَ الَّذِي وَجَبَ لِلْمُطَلَّقَةِ عَلَيْهِ قَبْلَ مَسِيسِهِ، فَيَصْفَحُ لَهُ عَنْهُ، إِنْ كَانَتِ الْجَارِيَةُ مِمَّنْ لَا يَجُوزُ لَهَا أَمْرٌ فِي مَالِهَا.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ: الزَّوْجُ، قَالُوا: وَمَعْنَى ذَلِكَ: أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ نِكَاحُ الْمَرْأَةِ فَيُعْطِيَهَا الصَّدَاقَ كَامِلًا.

عَنْ عِيسَى بْنِ عَاصِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ شُرَيْحًا، قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: مَنِ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ؟ قُلْتُ: وَلِيُّ الْمَرْأَةِ، قَالَ: لَا؛ بَلْ هُوَ الزَّوْجُ.[400]

وَأَوْلَى الْقَوْلَيْنِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ؛ قَوْلُ مَنْ قَالَ: الْمَعْنِيُّ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾: الزَّوْجُ.[401]

﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ يَعْنِي: وَأَنْ يَعْفُوَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ – أَيُّهَا الْأَزْوَاجُ وَالزَّوْجَاتُ – بَعْدَ فِرَاقِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا عَمَّا وَجَبَ لِبَعْضِكُمْ قِبَلَ بَعْضٍ، فَيَتْرُكُهُ لَهُ إِنْ كَانَ قَدْ بَقِيَ لَهُ قِبَلَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَقِيَ لَهُ، فَبِأَنْ يُوَفِّيَهُ بِتَمَامِهِ – أَقْرَبُ لَكُمْ إِلَى تَقْوَى اللهِ.

﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَلَا تَغْفُلُوا – أَيُّهَا النَّاسُ – الْأَخْذَ بِالْفَضْلِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فَتَتْرُكُوهُ، وَلَكِنْ لِيَتَفَضَّلِ الرَّجُلُ الْمُطَلِّقُ زَوْجَتَهُ قَبْلَ مَسِيسِهَا، فَيُكْمِلُ لَهَا تَمَامَ صَدَاقِهَا إِنْ كَانَ لَمْ يُعْطِهَا جَمِيعَهُ. وَإِنْ كَانَ قَدْ سَاقَ إِلَيْهَا جَمِيعَ مَا كَانَ فَرَضَ لَهَا؛ فَلْيَتَفَضَّلْ عَلَيْهَا بِالْعَفْوِ عَمَّا يَجِبُ لَهُ وَيَجُوزُ لَهُ الرُّجُوعُ بِهِ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ نِصْفُهُ. فَإِنْ شَحَّ الرَّجُلُ بِذَلِكَ وَأَبَى إِلَّا الرُّجُوعَ بِنِصْفِهِ

---

[400] صحيح: أخرجه الدارقطني في سننه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والبيهقي في الكبرى والصغرى؛ وصححه الألباني في الإرواء تحت الحديث(١٩٣٥)
قُلْتُ: أَخْرَجَ الدَّارَقُطْنِيُّ فِي سُنَنِهِ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنِهِ الْكُبْرَى – وَغَيْرُهُمَا – عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَ: تَزَوَّجَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ امْرَأَةً فَطَلَّقَهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا، فَقَرَأَ الْآيَةَ: ﴿**إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ**﴾، فَقَالَ: «أَنَا أَحَقُّ بِالْعَفْوِ مِنْهَا؛ فَسَلَّمَ إِلَيْهَا الْمَهْرَ كَامِلًا فَأَعْطَاهَا إِيَّاهُ».

[401] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَيُقَالُ لِمَنْ أَبَى مَا قُلْنَا – مِمَّنْ زَعَمَ أَنَّ الَّذِيَ بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَلِيُّ الْمَرْأَةِ –: هَلْ يَخْلُو الْقَوْلُ فِي ذَلِكَ مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ – إِذْ كَانَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ هُوَ الْوَلِيُّ عِنْدَكَ –: إِمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كُلُّ وَلِيٍّ جَازَ لَهُ تَزْوِيجُ وَلِيَّتِهِ، أَوْ يَكُونَ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ دُونَ بَعْضٍ؟ فَلَنْ يَجِدَ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ أَحَدِ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ سَبِيلًا!. فَإِنْ قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ، قِيلَ لَهُ: فَأَيُّ ذَلِكَ عُنِيَ بِهِ؟! فَإِنْ قَالَ: لِكُلِّ وَلِيٍّ جَازَ لَهُ تَزْوِيجُ وَلِيَّتِهِ، قِيلَ لَهُ: أَفَجَائِزٌ لِلْمُعْتِقِ أَمَةً تَزْوِيجُ مَوْلَاتِهِ بِإِذْنِهَا بَعْدَ عِتْقه إِيَّاهَا؟ فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ لَهُ: أَفَجَائِزٌ عَفْوُهُ – إِنْ عَفَا – عَنْ صَدَاقِهَا لِزَوْجِهَا بَعْدَ طَلَاقِهِ إِيَّاهَا قَبْلَ الْمَسِيسِ؟ فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ؛ خَرَجَ مِنْ قَوْلِ الْجَمِيعِ! وَإِنْ قَالَ: لَا؛ قِيلَ لَهُ: وَلِمَ؟! وَمَا الَّذِي حَظَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَهُوَ وَلِيُّهَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ نِكَاحِهَا؟!! ثُمَّ يُعْكَسُ الْقَوْلُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، وَيُسْأَلُ الْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَفْوِ سَائِرِ الْأَوْلِيَاءِ غَيْرِهِ!. وَإِنْ قَالَ: لِبَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ؛ سُئِلَ الْبُرْهَانَ عَلَى خُصُوصِ ذَلِكَ، وَقَدْ عَمَّهُ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – فَلَمْ يُخَصِّصْ بَعْضًا دُونَ بَعْضٍ! وَيُقَالُ لَهُ: مَنِ الْمَعْنِيُّ بِهِ، إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ بَعْضُ الْأَوْلِيَاءِ دُونَ بَعْضٍ؟! فَإِنْ أَوْمَأَ فِي ذَلِكَ إِلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ؛ سُئِلَ الْبُرْهَانُ عَلَيْهِ، وَعُكِسَ الْقَوْلُ فِيهِ، وَعُورِضَ فِي قَوْلِهِ ذَلِكَ بِخِلَافِ دَعْوَاهُ. ثُمَّ لَنْ يَقُولَ فِي ذَلِكَ قَوْلًا إِلَّا أُلْزِمَ فِي الْآخَرِ مِثْلَهُ!. فَإِنْ ظَنَّ ظَانٌّ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا فَارَقَهَا زَوْجُهَا، فَقَدْ بَطَلَ أَنْ يَكُونَ بِيَدِهِ عُقْدَةُ نِكَاحِهَا، – وَاللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – إِنَّمَا أَجَازَ عَفْوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ نِكَاحِ الْمُطَلَّقَةِ، فَكَانَ مَعْلُومًا بِذَلِكَ أَنَّ الزَّوْجَ غَيْرُ مَعْنِيٍّ بِهِ، وَأَنَّ الْمَعْنِيَّ بِهِ هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ نِكَاحِ الْمُطَلَّقَةِ بَعْدَ بَيْنُونَتِهَا مِنْ زَوْجِهَا. وَفِي بُطُولِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ حِينَئِذٍ بِيَدِ الزَّوْجِ، صِحَّةُ الْقَوْلِ أَنَّهُ بِيَدِ الْوَلِيِّ الَّذِي إِلَيْهِ عُقَدُ النِّكَاحِ إِلَيْهَا. وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ صَحَّ الْقَوْلُ بِأَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ هُوَ الْوَلِيُّ – فَقَدْ غَفَلَ وَظَنَّ خَطَأً. وَذَلِكَ أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ: أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ نِكَاحِهِ، وَإِنَّمَا أُدْخِلَتِ الْأَلْفُ وَاللَّامُ فِي النِّكَاحِ بَدَلًا مِنَ الْإِضَافَةِ إِلَى الْهَاءِ الَّتِي كَانَ (النِّكَاحِ) – لَوْ لَمْ يَكُونَا فِيهِ – مُضَافًا إِلَيْهَا، كَمَا قَالَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿**فَإِنِ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾ بِمَعْنَى: فَإِنَّ الْجَنَّةَ مَأْوَاهُ.
فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ، وَهُوَ الزَّوْجُ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ نِكَاحِ نَفْسِهِ فِي كُلِّ حَالٍ قَبْلَ الطَّلَاقِ وَبَعْدَهُ.

عَلَيْهَا؛ فَلْتَتَفَضَّلِ الْمَرْأَةُ الْمُطَلَّقَةُ عَلَيْهِ بِرَدِّ جَمِيعِهِ عَلَيْهِ، إِنْ كَانَتْ قَدْ قَبَضَتْهُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ قَبَضَتْهُ فَتَعْفُوَ عَنْ جَمِيعِهِ. فَإِنْ هُمَا لَمْ يَفْعَلَا ذَلِكَ وَشَحَّا وَتَرَكَا مَا نَدَبَهُمَا اللهُ إِلَيْهِ – مِنْ أَخْذِ أَحَدِهِمَا عَلَى صَاحِبِهِ بِالْفَضْلِ –؛ فَلَهَا نِصْفُ مَا كَانَ فَرَضَ لَهَا فِي عَقْدِ النِّكَاحِ، وَلَهُ نِصْفُهُ.

﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يَعْنِي: إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ – أَيُّهَا النَّاسُ – مِمَّا نَدَبَكُمْ إِلَيْهِ وَحَضَّكُمْ عَلَيْهِ، مِنْ عَفْوِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ عَمَّا وَجَبَ لَهُ قِبَلَهُ مِنْ حَقٍّ بِسَبَبِ النِّكَاحِ الَّذِي كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَزْوَاجِكُمْ، وَتَفَضّلِ بَعْضكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي ذَلِكَ، وَبِغَيْرِهِ مِمَّا تَأْتُونَ وَتَذَرُونَ مِنْ أُمُورِكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ وَغَيْرِكُمْ مِمَّا حَثَّكُمُ اللهُ عَلَيْهِ وَأَمَرَكُمْ بِهِ أَوْ نَهَاكُمْ عَنْهُ ﴿بَصِيرٌ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: ذُو بَصَرٍ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ هُوَ يُحْصِيهِ عَلَيْكُمْ وَيَحْفَظُهُ، حَتَّى يُجَازِيَ ذَا الْإِحْسَانِ مِنْكُمْ عَلَى إِحْسَانِهِ، وَذَا الْإِسَاءَةِ مِنْكُمْ عَلَى إِسَاءَتِهِ.

٢٣٨ – ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ يَعْنِي: وَاظِبُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ فِي أَوْقَاتِهِنَّ، وَتَعَاهَدُوهُنَّ وَالْزَمُوهُنَّ، وَعَلَى الصَّلَاةِ الْوُسْطَى مِنْهُنَّ.

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي الصَّلَاةِ الْوُسْطَى، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ.

عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى: صَلَاةِ الْعَصْرِ، مَلَأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَارًا!!» ثُمَّ صَلَّاهَا بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ –: بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ –.[٤٠٢]

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: حَبَسَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ، حَتَّى اصْفَرَّتِ الشَّمْسُ أَوِ احْمَرَّتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى مَلَأَ اللهُ بُيُوتَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ نَارًا! أَوْ حَشَا اللهُ قُلُوبَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَارًا!!».[٤٠٣]

عَنْ شَقِيقِ بْنِ عُقْبَةَ الْعَبْدِيِّ، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ» قَالَ: فَقَرَأْتُهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَا شَاءَ اللهُ أَنْ نَقْرَأَهَا،

---

[٤٠٢] صحيح: رواه مسلم، وأحمد؛ وغيرهما.

[٤٠٣] صحيح: رواه مسلم، وأحمد؛ وغيرهما.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ نَسَخَهَا، فَأَنْزَلَ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ كَانَ مَعَ شَقِيقٍ: فَهِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ! قَالَ: قَدْ حَدَّثْتُكَ كَيْفَ نَزَلَتْ، وَكَيْفَ نَسَخَهَا اللهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.[٤٠٤]

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الصَّلَاةُ الْوُسْطَى صَلَاةُ الظُّهْرِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الصَّلَاةُ الْوُسْطَى صَلَاةُ الْمَغْرِبِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الصَّلَاةُ الْوُسْطَى: هِيَ صَلَاةُ الْغَدَاةِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ إِحْدَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَلَا نَعْرِفُهَا بِعَيْنِهَا!.

وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ: مَا تَظَاهَرَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الَّتِي ذَكَرْنَاهَا قَبْل فِي تَأْوِيلِهِ: وَهُوَ أَنَّهَا الْعَصْرُ.

وَالَّذِي حَثَّ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ؛ نَظِير الَّذِي رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الْحَثِّ عَلَيْهِ:

عَنْ أَبِي الْمُهَاجِرِ، عَنْ بُرَيْدَةَ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَقَالَ: «مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ».[٤٠٥] وَقَالَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «مَنْ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا لَمْ يَلِجِ النَّارَ».[٤٠٦]

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ[٤٠٧]﴾يَعْنِي: مُطِيعِينَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ أَصْلَ الْقُنُوتِ: الطَّاعَةُ، وَقَدْ تَكُونُ الطَّاعَةُ لِلَّهِ فِي الصَّلَاةِ بِالسُّكُوتِ عَمَّا نَهَى اللهُ مِنَ الْكَلَامِ فِيهَا، وَلِذَلِكَ وَجَّهَ مَنْ وَجَّهَ تَأْوِيلَ الْقُنُوتِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، إِلَى السُّكُوتِ فِي الصَّلَاةِ – أَحَدَ الْمَعَانِي الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ عَلَى عِبَادِهِ فِيهَا – إِلَّا عَنْ قِرَاءَةِ قُرْآنٍ، أَوْ ذِكْرٍ لَهُ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ.

---

[٤٠٤] صحيح: رواه مسلم، وأحمد، والبيهقي في الكبرى؛ وغيرهم.

[٤٠٥] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي؛ وغيرهم.

[٤٠٦] صحيح: رواه مسلم، وأحمد، والنسائي؛ وغيرهم.

[٤٠٧] عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَالَ: كُنَّا نَتَكَلَّمُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الصَّلَاةِ، يُكَلِّمُ الرَّجُلُ مِنَّا صَاحِبَهُ إِلَى جَنْبِهِ، حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾؛ «فَأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ، وَنُهِينَا عَنِ الْكَلَامِ» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي – واللفظ له –، والنسائي؛ وغيرهم].

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ إِذًا: حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى، وَقُومُوا لِلَّهِ فِيهَا مُطِيعِينَ؛ بِتَرْكِ بَعْضِكُمْ فِيهَا كَلَامَ بَعْضٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي الْكَلَامِ، سِوَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِيهَا، أَوْ ذِكْرِ اللهِ بِالَّذِي هُوَ أَهْلُهُ، أَوْ دُعَائِهِ فِيهَا، غَيْرِ عَاصِينَ لِلَّهِ فِيهَا بِتَضْيِيعِ حُدُودِهَا، وَالتَّفْرِيطِ فِي الْوَاجِبِ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا مِنْ فَرَائِضِ اللهِ.

٢٣٩– ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ يَعْنِي: وَقُومُوا لِلَّهِ فِي صَلَاتِكُمْ مُطِيعِينَ لَهُ – لِمَا قَدْ بَيَّنَّاهُ مِنْ مَعْنَاهُ – فَإِنْ خِفْتُمْ مِنْ عَدُوٍّ لَكُمْ – أَيُّهَا النَّاسُ – تَخْشَوْنَهُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي حَالِ الْتِقَائِكُمْ مَعَهُمْ، أَنَّ تُصَلُّوا قِيَامًا عَلَى أَرْجُلِكُمْ بِالْأَرْضِ، قَانِتِينَ لِلَّهِ – فَصَلُّوا رِجَالًا مُشَاةً عَلَى أَرْجُلِكُمْ، وَأَنْتُمْ فِي حَرْبِكُمْ وَقِتَالِكُمْ وَجِهَادِ عَدُوِّكُمْ، أَوْ رُكْبَانًا عَلَى ظُهُورِ دَوَابِّكُمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَجْزِيكُمْ حِينَئِذٍ مِنَ الْقِيَامِ مِنْكُمْ، قَانِتِينَ.

الْخَوْفُ الَّذِي لِلْمُصَلِّي أَنْ يُصَلِّيَ مِنْ أَجَلِهِ الْمَكْتُوبَةَ مَاشِيًا رَاجِلًا وَرَاكِبًا جَائِلًا[٤٠٨]: الْخَوْفُ عَلَى الْمُهْجَةِ عِنْدَ السَّلَّةِ[٤٠٩] وَالْمُسَايَفَةِ فِي قِتَالِ مَنْ أُمِرَ بِقِتَالِهِ مِنْ عَدُوٍّ لِلْمُسْلِمِينَ، أَوْ مُحَارِبٍ، أَوْ طَلَبِ سَبُعٍ، أَوْ جَمَلٍ صَائِلٍ، أَوْ سَيْلٍ سَائِلٍ فَخَافَ الْغَرَقَ فِيهِ.

وَكُلِّ مَا الْأَغْلَبُ مِنْ شَأْنِهِ هَلَاكُ الْمَرْءِ مِنْهُ إِنْ صَلَّى صَلَاةَ الْأَمْنِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةَ شِدَّةِ الْخَوْفِ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ، يُومِئُ إِيمَاءً لِعُمُومِ كِتَابِ اللهِ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ وَتَأْوِيلُ ذَلِكَ: فَإِذَا أَمِنْتُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – مِنْ عَدُوِّكُمْ أَنْ يَقْدِرَ عَلَى قَتْلِكُمْ فِي حَالِ اشْتِغَالِكُمْ بِصَلَاتِكُمُ الَّتِي فَرَضَهَا عَلَيْكُمْ – وَمَنْ غَيْرِهِ مِمَّنْ كُنْتُمْ تَخَافُونَهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي حَالِ صَلَاتِكُمْ – فَاطْمَأْنَنْتُمْ، فَاذْكُرُوا اللهَ فِي صَلَاتِكُمْ وَفِي غَيْرِهَا بِالشُّكْرِ لَهُ وَالْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ التَّوْفِيقِ لِإِصَابَةِ الْحَقِّ الَّذِي ضَلَّ عَنْهُ

---

[٤٠٨] قَوْلُهُ: (**جَائِلًا**) أَصْلُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ – كَمَا فِي كُتُبِ اللُّغَةِ –: (جَوَلَ) فالْجِيمُ وَالْوَاوُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الدَّوَرَانُ، يُقَالُ: جَالَ يَجُولُ جَوْلًا وَجَوَلَانًا ، وَأَجَلْتُهُ أَنَا؛ هَذَا هُوَ الْأَصْلُ، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ، يُقَالُ: جَالَ الْقَوْمُ فِي الحَرْبِ: فَرُّوا ثُمَّ كَرُّوا، وَيُقَالُ: جَالَ بِسَيْفِهِ: لَعِبَ بِهِ وَأَدَارَهُ عَلَى جَوَانِبِهِ.

[٤٠٩] يُقَالُ: أَتَيْنَاهُمْ عِنْدَ السَّلَّةِ: أَيْ: عِنْدَ اسْتِلَالِ السُّيُوفِ!.

أَعْدَاؤُكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ بِاللهِ، كَمَا ذَكَّرَكُمْ بِتَعْلِيمِهِ إِيَّاكُمْ مِنْ أَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، وَأَخْبَارِ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَالْأَنْبَاءِ الْحَادِثَةِ بَعْدَكُمْ، فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ، الَّتِي جَهِلَهَا غَيْرُكُمْ، وَبَصَّرَكُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَغَيْرِهِ، إِنْعَامًا مِنْهُ عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ، فَعَلَّمَكُمْ مِنْهُ مَا لَمْ تَكُونُوا – مِنْ قَبْلِ تَعْلِيمِهِ إِيَّاكُمْ – تَعْلَمُونَ.

٢٤٠– ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ – أَيُّهَا الرِّجَالُ – ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾يَعْنِي: زَوْجَاتٍ كُنَّ لَهُ نِسَاءً فِي حَيَاتِهِ، بِنِكَاحٍ لَا مِلْكِ يَمِينٍ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾فَاخْتَلَفَتِ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ، فَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾بِنَصْبِ الْوَصِيَّةِ؛ بِمَعْنَى: فَلْيُوصُوا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ، أَوْ عَلَيْهِمْ وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِهِمْ.

وقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ بِرَفْعِ (الْوَصِيَّةِ). ثُمَّ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ فِي وَجْهِ رَفْعِ الْوَصِيَّةِ؟

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: رُفِعَتْ بِمَعْنَى: كُتِبَتْ عَلَيْهِمُ الْوَصِيَّةُ...وَقَالَ آخَرُونَ مِنْهُمْ: بَلِ الْوَصِيَّةُ مَرْفُوعَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ فَتَأَوَّلَ: لِأَزْوَاجِهِمْ وَصِيَّةٌ. وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَوْلَى بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ؛ وَهُوَ أَنْ تَكُونَ الْوَصِيَّةُ إِذَا رُفِعَتْ مَرْفُوعَةٌ بِمَعْنَى: كُتِبَتْ عَلَيْكُمْ وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِكُمْ.

وَأَوْلَى الْقِرَاءَتَيْنِ بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا: قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَهُ رَفْعًا؛ لِدَلَالَةِ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ عَلَى أَنَّ مَقَامَ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا فِي بَيْتِ زَوْجِهَا الْمُتَوَفَّى حَوْلًا كَامِلًا كَانَ حَقًّا لَهَا قَبْلَ نُزُولِ قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾وَقَبْلَ نُزُولِ آيَةِ الْمِيرَاثِ.[٤١٠]

وَلِتَظَاهُرِ الْأَخْبَارِ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِنَحْوِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الظَّاهِرُ مِنْ ذَلِكَ، أَوْصَى لَهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ بِذَلِكَ قَبْلَ وَفَاتِهِنَّ، أَوْ لَمْ يُوصُوا لَهُنَّ بِهِ.

---

[٤١٠] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ**﴾، «فَنُسِخَ ذَلِكَ بِآيَةِ الْمِيرَاثِ بِمَا فَرَضَ لَهُنَّ مِنَ الرُّبُعِ وَالثُّمُنِ، وَنُسِخَ أَجَلُ الْحَوْلِ بِأَنْ جُعِلَ أَجَلُهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا» [حسن صحيح: رواه أبو داود، والنسائي؛ وحسنه الألباني في صحيح أبي داود(٢٢٩٨)].

وَعَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ: هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي فِي البَقَرَةِ ﴿**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا**﴾إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**غَيْرَ إِخْرَاجٍ**﴾ قَدْ نَسَخَتْهَا الأُخْرَى، فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟! قَالَ: «تَدَعُهَا يَا ابْنَ أَخِي، لاَ أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ» [رواه البخاري في صحيحه].

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿مَتَاعًا﴾فَإِنَّ مَعْنَاهُ: جَعَلَ ذَلِكَ لَهُنَّ مَتَاعًا، أَيِ الْوَصِيَّةَ الَّتِي كَتَبَهَا اللهُ لَهُنَّ.

وَقَوْلِهِ: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾فَإِنَّ مَعْنَاهُ: أَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – جَعَلَ مَا جُعِلَ لَهُنَّ مِنَ الْوَصِيَّةِ مَتَاعًا مِنْهُ لَهُنَّ إِلَى الْحَوْلِ، لَا إِخْرَاجًا مِنْ مَسْكَنِ زَوْجِهَا، يَعْنِي: لَا إِخْرَاجَ فِيهِ مِنْهُ حَتَّى يَنْقَضِيَ الْحَوْلُ.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾يَعْنِي: أَنَّ الْمَتَاعَ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لَهُنَّ إِلَى الْحَوْلِ فِي مَالِ أَزْوَاجِهِنَّ بَعْدَ وَفَاتِهِمْ وَفِي مَسَاكِنِهِمْ، وَنَهَى وَرَثَتَهُ عَنْ إِخْرَاجِهِنَّ؛ إِنَّمَا هُوَ لَهُنَّ مَا أَقَمْنَ فِي مَسَاكِنِ أَزْوَاجِهِنَّ، وَأَنَّ حُقُوقَهُنَّ مِنْ ذَلِكَ تَبْطُلُ بِخُرُوجِهِنَّ إِنْ خَرَجْنَ مِنْ مَنَازِلِ أَزْوَاجِهِنَّ قَبْلَ الْحَوْلِ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِنَّ، بِغَيْرِ إِخْرَاجٍ مِنْ وَرَثَةِ الْمَيِّتِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَى أَوْلِيَاءِ الْمَيِّتِ فِي خُرُوجِهِنَّ وَتَرْكِهِنَّ الْحِدَادَ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ؛ لِأَنَّ الْمُقَامَ حَوْلًا فِي بُيُوتِ أَزْوَاجِهِنَّ وَالْحِدَادَ عَلَيْهِ تَمَامُ حَوْلٍ كَامِلٍ، لَمْ يَكُنْ فَرْضًا عَلَيْهِنَّ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ إِبَاحَةً مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – لَهُنَّ إِنْ أَقَمْنَ تَمَامَ الْحَوْلِ مُحِدَّاتٍ، فَأَمَّا إِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَى أَوْلِيَاءِ الْمَيِّتِ وَلَا عَلَيْهِنَّ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ، وَذَلِكَ تَرْكُ الْحِدَادِ.

يَقُولُ: فَلَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ فِي التَّزَيُّنِ إِنْ تَزَيَّنَّ وَتَطَيَّبْنَ وَتَزَوَّجْنَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَهُنَّ.

﴿وَاللهُ عَزِيزٌ﴾يَعْنِي: وَاللهُ عَزِيزٌ فِي انْتِقَامِهِ مِمَّنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَتَعَدَّى حُدُودَهُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، فَمَنَعَ مَنْ كَانَ مِنَ الرِّجَالِ نِسَاءَهُمْ وَأَزْوَاجَهُمْ مَا فُرِضَ لَهُنَّ عَلَيْهِمْ فِي الْآيَاتِ الَّتِي مَضَتْ قَبْلُ: مِنَ الْمُتْعَةِ وَالصَّدَاقِ وَالْوَصِيَّةِ، وَإِخْرَاجِهِنَّ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْحَوْلِ، وَتَرْكِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ وَأَوْقَاتِهَا، وَمَنْعِ مَنْ كَانَ مِنَ النِّسَاءِ مَا أَلْزَمَهُنَّ اللهُ مِنَ التَّرَبُّصِ عِنْدَ وَفَاةِ أَزْوَاجِهِنَّ عَنِ الْأَزْوَاجِ، وَخَالَفَ أَمْرَهُ فِي الْمُحَافَظَةِ عَلَى أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ ﴿حَكِيمٌ﴾فِيمَا قَضَى بَيْنَ عِبَادِهِ مِنْ قَضَايَاهِ الَّتِي قَدْ تَقَدَّمَتْ فِي الْآيَاتِ قَبْلَ قَوْلِهِ: ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِهِ وَأَقْضِيَتِهِ.

٢٤١- ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾يَعْنِي: وَلِمَنْ طلّقَ مِنَ النِّسَاءِ عَلَى مُطَلِّقِهَا مِنَ الْأَزْوَاجِ: مَتَاعٌ.

يَعْنِي بِذَلِكَ: مَا تَسْتَمْتِعُ بِهِ؛ مِنْ ثِيَابٍ، وَكِسْوَةٍ، وَنَفَقَةٍ، أَوْ خَادِمٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُسْتَمْتَعُ بِهِ.

﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾الَّذِينَ اتَّقَوُا اللهَ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَحُدُودِهِ، فَقَامُوا بِهَا عَلَى مَا كَلَّفَهُمُ الْقِيَامَ بِهِ خَشْيَةً مِنْهُمْ لَهُ، وَوَجَلًا مِنْهُمْ مِنْ عِقَابِهِ.

٢٤٢- ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: كَمَا بَيَّنْتُ لَكُمْ مَا يَلْزَمُكُمْ لِأَزْوَاجِكُمْ وَيَلْزَمُ أَزْوَاجكُمْ لَكُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - وَعَرَّفْتُكُمْ أَحْكَامِي وَالْحَقَّ الْوَاجِبَ لِبَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ؛ فَكَذَلِكَ أُبَيِّنُ لَكُمْ سَائِرَ الْأَحْكَامِ فِي آيَاتِي الَّتِي أَنْزَلْتُهَا عَلَى نَبِيِّي مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي هَذَا الْكِتَابِ، لِتَعَقَّلُوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِي وَبِرَسُولِي - حُدُودِي، فَتَفْهَمُوا اللَّازِمَ لَكُمْ مِنْ فَرَائِضِي، وَتَعْرِفُوا بِذَلِكَ مَا فِيهِ صَلَاحُ دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ، وَعَاجِلِكُمْ وَآجِلِكُمْ، فَتَعْلَمُوا بِهِ؛ لِيصْلحَ ذَات بَيْنِكُمْ، وَتَنَالُوا بِهِ الْجَزِيلَ مِنْ ثَوَابِي فِي مَعَادِكُمْ.

٢٤٣- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ يَعْنِي: أَلَمْ تَعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ؟ وَهُوَ مِنْ رُؤْيَةِ الْقَلْبِ لَا رُؤْيَةِ الْعَيْنِ؛ لِأَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يُدْرِكِ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ هَذَا الْخَبَرَ، وَرُؤْيَةُ الْقَلْبِ: مَا رَآهُ وَعَلِمَهُ بِهِ.

فَمَعْنَى ذَلِكَ: أَلَمْ تَعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ، الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ؟.

عَنَى بِالْأُلُوفِ: كَثْرَةَ الْعَدَدِ، دُونَ قَوْلِ مَنْ قَالَ: عَنَى بِهِ الِائْتِلَافَ، بِمَعْنَى: ائْتِلَافِ قُلُوبِهِمْ، وَأَنَّهُمْ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ مِنْ غَيْرِ افْتِرَاقٍ كَانَ مِنْهُمْ وَلَا تَبَاغُضٍ، وَلَكِنْ فِرَارًا: إِمَّا مِنَ الْجِهَادِ، وَإِمَّا مِنَ الطَّاعُونِ!.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: أَنَّهُمْ خَرَجُوا مِنْ حَذَرِ الْمَوْتِ، فِرَارًا مِنْهُ!.

وَإِنَّمَا حَثَّ اللهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - عِبَادَهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، عَلَى الْمُوَاظَبَةِ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالصَّبْرِ عَلَى قِتَالِ أَعْدَاءِ دِينِهِ.

وَشَجَّعَهُمْ بِإِعْلَامِهِ إِيَّاهُمْ وَتَذْكِيرِهِ لَهُمْ، أَنَّ الْإِمَاتَةَ وَالْإِحْيَاءَ بِيَدَيْهِ وَإِلَيْهِ – دُونَ خَلْقِهِ – وَأَنَّ الْفِرَارَ مِنَ الْقِتَالِ وَالْهَرَبَ مِنَ الْجِهَادِ وَلِقَاءِ الْأَعْدَاءِ، إِلَى التَّحَصُّنِ فِي الْحُصُونِ، وَالِاخْتِبَاءِ فِي الْمَنَازِلِ وَالدُّورِ؛ غَيْرُ مُنْجٍ أَحَدًا مِنْ قَضَائِهِ إِذَا حَلَّ بِسَاحَتِهِ! وَلَا دَافِعَ عَنْهُ أَسْبَابَ مَنِيَّتِهِ إِذَا نَزَلَ بِعُقُوبَتِهِ! كَمَا لَمْ يَنْفَعُ الْهَارِبِينَ مِنَ الطَّاعُونِ – الَّذِينَ وَصَفَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – صِفَتَهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ – فِرَارُهُمْ مِنْ أَوْطَانِهِمْ! وَانْتِقَالُهُمْ مِنْ مَنَازِلِهِمْ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي أَمَّلُوا بِالْمَصِيرِ إِلَيْهِ السَّلَامَةَ! وَبِالْمَوْئِلِ النَّجَاةَ مِنَ الْمَنِيَّةِ! حَتَّى أَتَاهُمْ أَمْرُ اللهِ!! فَتَرَكَهُمْ جَمِيعًا خُمُودًا صَرْعَى! وَفِي الْأَرْضِ هَلْكَى! وَنَجَا مِمَّا حَلَّ بِهِمُ الَّذِينَ بَاشَرُوا كربَ الْوَبَاءِ، وَخَالَطُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَظِيمَ الْبَلَاءِ!.

﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾يَعْنِي: إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ وَمَنٍّ عَلَى خَلْقِهِ، بِتَبْصِيرِهِ إِيَّاهُمْ سَبِيلَ الْهُدَى، وَتَحْذِيرِهِ لَهُمْ طُرُقَ الرَّدَى، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ نِعَمِهِ الَّتِي يُنْعِمُهَا عَلَيْهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَدِينِهِمْ، وَأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، كَمَا أَحْيَا الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ بَعْدَ إِمَاتَتِهِ إِيَّاهُمْ، وَجَعْلِهِمْ لِخَلْقِهِ مَثَلًا وَعِظَةً يَتَّعِظُونَ بِهِمْ، عِبْرَةً يَعْتَبِرُونَ بِهِمْ، وَلْيَعْلَمُوا أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِيَدِهِ، فَيَسْتَسْلِمُونَ لِقَضَائِهِ، وَيَصْرِفُوا الرَّغْبَةَ كُلَّهَا وَالرَّهْبَةَ إِلَيْهِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ يُنْعِمُ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ بِنِعَمِهِ الْجَلِيلَةِ، وَيَمُنُّ عَلَيْهِ بِمِنَنِهِ الْجَسِيمَةِ؛ يَكْفُرُ بِهِ وَيَصْرِفُ الرَّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ إِلَى غَيْرِهِ!! وَيَتَّخِذُ إِلَهًا مِنْ دُونِهِ؛ كُفْرَانًا مِنْهُ لِنِعَمِهِ الَّتِي تُوجِبُ أَصْغَرُهَا عَلَيْهِ مِنَ الشُّكْرِ مَا يَفْدَحُهُ![411] وَمِنَ الْحَمْدِ مَا يُثْقِلُهُ! فَقَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾يَقُولُ: لَا يَشْكُرُونَ نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُهَا عَلَيْهِمْ، وَفَضْلِي الَّذِي تَفَضَّلْتُ بِهِ عَلَيْهِمْ؛ بِعِبَادَتِهِمْ غَيْرِي! وَصَرْفِهِمْ رَغْبَتَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ إِلَى مَنْ دُونِي مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا يَمْلِكُ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا!!.

[411] قَالَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ: الْفَدْحُ: إِثْقَالُ الْأَمْرِ وَالْحِمْلِ صَاحِبَهُ. فَدَحَهُ الْأَمْرُ وَالْحِمْلُ وَالدَّيْنُ يَفْدَحُهُ فَدْحًا: أَثْقَلَهُ.

٢٤٤- ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سُمَيْعٌ عَلِيمٌ﴾يَعْنِي: ﴿وَقَاتِلُوا﴾ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾يَعْنِي: فِي دِينِهِ الَّذِي هَدَاكُمْ لَهُ - لَا فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ - أَعْدَاءَ دِينِكُمْ، الصَّادِينَ عَنْ سَبِيلِ رَبِّكُمْ، وَلَا تَحْتَمُوا عَنْ قِتَالِهِمْ عِنْدَ لِقَائِهِمْ، وَلَا تَجْبُنُوا عَنْ حَرْبِهِمْ، فَإِنَّ بِيَدِي حَيَاتَكُمْ وَمَوْتَكُمْ. وَلَا يَمْنَعَنَّ أَحَدُكُمْ مِنْ لِقَائِهِمْ وَقِتَالِهِمْ حَذَرَ الْمَوْتِ وَخَوْفَ الْمَنِيَّةِ عَلَى نَفْسِهِ بِقِتَالِهِمْ، فَيَدْعُوهُ ذَلِكَ إِلَى التَّعْرِيدِ[٤١٢] عَنْهُمْ وَالْفِرَارِ مِنْهُمْ، فَتَذِلُّوا! وَيَأْتِيكُمُ الْمَوْتُ الَّذِي خِفْتُمُوهُ فِي مَأْمَنِكُمُ الَّذِي وَأَلْتُمْ إِلَيْهِ[٤١٣] كَمَا أَتَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فِرَارًا مِنَ الْمَوْتِ، الَّذِينَ قَصَصْتُ عَلَيْكُمْ قِصَّتَهُمْ، فَلَمْ يُنْجِهِمْ فِرَارُهُمْ مِنْهُ مِنْ نُزُولِهِ بِهِمْ حِينَ جَاءَهُمْ أَمْرِي، وَحَلَّ بِهِمْ قَضَائِي! وَلَا ضَرَّ الْمُتَخَلِّفِينَ وَرَاءَهُمْ مَا كَانُوا لَمْ يَحْذَرُوهُ، إِذْ دَافَعْتُ عَنْهُمْ مَنَايَاهُمْ، وَصَرَفْتُهَا عَنْ حَوْبَائِهِمْ[٤١٤]، فَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالِهِ مِنْ أَعْدَائِي وَأَعْدَاءِ دِينِي، فَإِنَّ مَنْ حَيِيَ مِنْكُمْ فَأَنَا أُحْيِيهِ، وَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ فَبِقَضَائِي كَانَ قَتْلُهُ.

ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - لَهُمْ: وَاعْلَمُوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - أَنَّ رَبَّكُمْ سُمَيْعٌ لِقَوْلِ مَنْ يَقُولُ مِنْ مُنَافِقِيكُمْ لِمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ فِي سَبِيلِي: لَوْ أَطَاعُونَا فَجَلَسُوا فِي مَنَازِلِهِمْ مَا قُتِلُوا!! عَلِيمٌ بِمَا تُخْفِيهِ صُدُورُهُمْ مِنَ النِّفَاقِ وَالْكُفْرِ وَقِلَّةِ الشُّكْرِ لِنِعْمَتِي عَلَيْهِمْ، وَآلَائِي لَدَيْهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ، وَلِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِهِمْ وَأُمُورِ عِبَادِي.

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ: فَاشْكُرُونِي أَنْتُمْ بِطَاعَتِي فِيمَا أَمَرْتُكُمْ مِنْ جِهَادِ عَدُوِّكُمْ فِي سَبِيلِي، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِي وَنَهْيِي، إِذْ كَفَرَ هَؤُلَاءِ نِعَمِي.

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سُمَيْعٌ لِقَوْلِهِمْ، وَعَلِيمٌ بِهِمْ وَبِغَيْرِهِمْ وَبِمَا هُمْ عَلَيْهِ مُقِيمُونَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، مُحِيطٌ بِذَلِكَ كُلِّهِ، حَتَّى أُجَازِيَ كُلًّا بِعَمَلِهِ: إِنْ خَيْرًا؛ فَخَيْرًا، وَإِنْ شَرًّا؛ فَشَرًّا.

---

[٤١٢] **(التَّعْرِيدُ)**: الْفِرَارُ، يُقَالُ: عَرَّدَ الرَّجُلُ تَعْرِيدًا: فَرَّ، وَهَرَبَ [تهذيب اللغة؛ للأزهري، ولسان العرب، مادة: (عرد)].

[٤١٣] **(وَأَلْتُمْ إِلَيْهِ)**: لَجَأْتُمْ إِلَيْهِ.

[٤١٤] **(الحَوْبَاءُ)**: رُوحُ القَلْبِ، وَقِيلَ: هِيَ النَّفْسُ [النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (حَوَبَ)].

٢٤٥- ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يَعْنِي: مَنْ هَذَا الَّذِي يُنْفِقُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيُعِينُ مُضْعِفًا[٤١٥]، أَوْ يُقَوِّي ذَا فَاقَةٍ أَرَادَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَيُعْطِي مِنْهُمْ مُقْتِرًا؟.

وَذَلِكَ هُوَ الْقَرْضُ الْحَسَنُ الَّذِي يَقْرِضُ الْعَبْدُ رَبَّهُ.

وَإِنَّمَا سَمَّاهُ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – قَرْضًا؛ لِأَنَّ مَعْنَى الْقَرْضِ: إِعْطَاءُ الرَّجُلِ غَيْرَهُ مَالَهُ مُمَلَّكًا لَهُ، لِيَقْضِيَهُ مِثْلَهُ إِذَا اقْتَضَاهُ.

فَلَمَّا كَانَ إِعْطَاءُ مَنْ أَعْطَى أَهْلَ الْحَاجَةِ وَالْفَاقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِنَّمَا يُعْطِيهِمْ مَا يُعْطِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَا وَعَدَهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ عِنْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ سَمَّاهُ قَرْضًا، إِذْ كَانَ مَعْنَى الْقَرْضِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مَا وَصَفْنَا.

وَإِنَّمَا جَعَلَهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – حَسَنًا؛ لِأَنَّ الْمُعْطِي يُعْطِي ذَلِكَ عَنْ نَدْبِ اللهِ إِيَّاهُ وَحَثِّهِ لَهُ عَلَيْهِ، احْتِسَابًا مِنْهُ. فَهُوَ لِلَّهِ طَاعَةٌ، وَلِلشَّيَاطِينِ مَعْصِيَةٌ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرَةُ الْآيَةِ الَّتِي قَالَ اللهُ فِيهَا – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أَمَّا قَوْلُهُ: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ فَإِنَّهُ عِدَةٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – مُقْرِضُهُ وَمُنْفِقُ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ إِضْعَافِ الْجَزَاءِ لَهُ عَلَى قَرْضِهِ وَنَفَقَتِهِ، مَا لَا حَدَّ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ!.

﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ الَّذِي بِيَدِهِ قَبْضُ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ وَبَسْطِهَا، دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنِ ادَّعَى أَهْلُ الشِّرْكِ بِهِ أَنَّهُمْ آلِهَةٌ، وَاتَّخَذُوهُ رَبًّا دُونَهُ يَعْبُدُونَهُ.

وَذَلِكَ نَظِيرُ الْخَبَرِ الَّذِي رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –:

عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: غَلَا السِّعْرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ! – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – غَلَا السِّعْرُ، فَأَسْعِرْ لَنَا! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «إِنَّ اللهَ الْبَاسِطُ الْقَابِضُ الرَّزَّاقُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى اللهَ لَيْسَ أَحَدٌ يَطْلُبُنِي بِمَظْلَمَةٍ فِي نَفْسٍ وَمَالٍ».[٤١٦]

---

[٤١٥] أَضْعَفَ الرَّجُلُ: ضَعُفَتْ دَابَّتُهُ، يُقَالُ: هُوَ ضَعِيفٌ مُضْعِفٌ، فَالضَّعِيفُ: فِي بَدَنِهِ، وَالْمُضْعِفُ: الَّذِي دَابَّتُهُ ضَعِيفَةٌ [لسان العرب، مادة: (ضعف)].

[٤١٦] صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم، وصححه الألباني في غاية المرام(٣٢٣)، والتعليقات الحسان(٤٩١٤)، والمشكاة(٢٨٩٤).

يَعْنِي بِذَلِكَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: أَنَّ الْغَلَاءَ وَالرُّخْصَ وَالسَّعَةَ وَالضِّيقَ بِيَدِ اللهِ دُونَ غَيْرِهِ.

فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ يَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿يَقْبِضُ﴾: يَقْتُرُ بِقَبْضِهِ الرِّزْقَ عَمَّنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَبْسُطُ﴾: يُوَسِّعُ بِبَسْطَةِ الرِّزْقَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ.

وَإِنَّمَا أَرَادَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِقِيلِهِ ذَلِكَ: حَثَّ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ قَدْ بَسَطَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِهِ، فَوَسَّعَ عَلَيْهِمْ مِنْ رِزْقِهِ، عَلَى تَقْوِيَةِ ذَوِي الْإِقْتَارِ مِنْهُمْ بِمَالِهِ، وَمَعُونَتِهِ بِالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِ، وَحُمُولَتِهِ عَلَى النُّهُوضِ لِقِتَالِ عَدُوِّهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي سَبِيلِهِ، فَقَالَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: مَنْ يُقَدِّمُ لِنَفْسِهِ ذُخْرًا عِنْدِي بِإِعْطَائِهِ ضُعَفَاءَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَ الْحَاجَةِ مِنْهُمْ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الْقِتَالِ فِي سَبِيلِي، فَأُضَاعِفُ لَهُ مِنْ ثَوَابِي أَضْعَافًا كَثِيرَةً مِمَّا أَعْطَاهُ وَقَوَّاهُ بِهِ؟ فَإِنِّي – أَيُّهَا الْمُوَسِّعُ – الَّذِي قَبَضْت الرِّزْقَ عَمَّنْ نَدَبْتُكَ إِلَى مَعُونَتِهِ وَإِعْطَائِهِ، لِأَبْتَلِيَهُ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ بِهِ، وَالَّذِي بَسَطْتُ عَلَيْكَ لِأَمْتَحِنَكَ بِعَمَلِكَ فِيمَا بَسَطْتُ عَلَيْكَ، فَأَنْظُرَ كَيْفَ طَاعَتُكَ إِيَّايَ فِيهِ، فَأُجَازِيَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا عَلَى قَدْرِ طَاعَتِكُمَا لِي فِيمَا ابْتَلَيْتُكُمَا فِيهِ وَامْتَحَنْتُكُمَا بِهِ؛ مِنْ غِنًى وَفَاقَةٍ، وَسَعَةٍ وَضِيقٍ، عِنْدَ رُجُوعِكُمَا إِلَيَّ فِي آخِرَتِكُمَا وَمَصِيرِكُمَا إِلَيَّ فِي مَعَادِكُمَا.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يَعْنِي: وَإِلَى اللهِ مَعَادُكُمْ – أَيُّهَا النَّاسُ – فَاتَّقُوا اللهَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَنْ تُضَيِّعُوا فَرَائِضَهُ وَتَتَعَدُّوا حُدُودَهُ، وَأَنْ يَعْمَلَ مَنْ بُسِطَ عَلَيْهِ مِنْكُمْ مِنْ رِزْقِهِ بِغَيْرِ مَا أَذِنَ لَهُ بِالْعَمَلِ فِيهِ رَبُّهُ، وَأَنْ يَحْمِلَ الْمُقْتِرُ مِنْكُمْ – فَقبضَ عَنْ رِزْقِهِ – إِقْتَارُهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، وَالتَّقَدُّمُ عَلَى مَا نَهَاهُ، فَيَسْتَوْجِبُ بِذَلِكَ عِنْدَ مَصِيرِهِ إِلَى خَالِقِهِ، مَا لَا قِبَلَ لَهُ بِهِ مِنْ أَلِيمِ عِقَابِهِ!.

٢٤٦– ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يَعْنِي: أَلَمْ تَرَ يَا مُحَمَّدُ بِقَلْبِكَ، فَتَعْلَمَ بِخَبَرِي إِيَّاكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِلَى الْمَلَإِ[٤١٧] مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يَعْنِي: إِلَى وُجُوهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَشْرَافِهِمْ وَرُؤَسَائِهِمْ ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ يَقُولُ: مِنْ بَعْدِ مَا قُبِضَ مُوسَى فَمَاتَ.

---

[٤١٧] (**الْمَلَأُ**): الْأَشْرَافُ مِنَ النَّاسِ وَوُجُوهُهُمْ وَرُؤَسَاؤُهُمْ وَمُقَدَّمُوهُمْ الَّذِينَ يُرْجَعُ إِلَى قَوْلِهِمْ، سُمُّوا بِذَلِكَ؛ لِمَلَاءَتِهِمْ بِمَا يُلْتَمَسُ عِنْدَهُمْ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَجَوْدَةِ الرَّأْيِ، أَوْ: لِأَنَّهُمْ يَمْلَئُونَ الْعُيُونَ أُبَّهَةً وَالصُّدُورَ هَيْبَةً، وَالْجَمْعُ: أَمْلَاءٌ [لسان العرب، والمصباح المنير].

﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ[418] ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ[419] قَالَ﴾ يَعْنِي: قَالَ النَّبِيُّ الَّذِي سَأَلُوهُ أَنْ يَبْعَثَ لَهُمْ مَلِكًا يُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾، هَلْ تَعِدُونَ ﴿إِنْ كُتِبَ﴾ يَعْنِي: إِنْ فُرِضَ ﴿عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾؟ يَعْنِي: أَنْ لَا تَفُوا بِمَا تَعِدُونَ اللهَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ،

---

[418] قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: إِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَنْ هَذَا النَّبِيّ؟ قُلْنَا: إِنَّ اللهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – أَبْهَمَهُ؛ وَلَوْ كَانَ فِي مَعْرِفَةِ اسْمِهِ فَائِدَة؛ لَكَانَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – يُبَيِّن اسْمه لَنَا؛ لَكِنْ لَيْسَ لَنَا فِي ذِكْرِ اسْمِهِ فَائِدَة؛ الْمُهِمُّ: أَنَّهُ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.

فَائِدَةٌ: قَالَ الْإِمَامُ السَّعْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾: وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ ذَكَرَ أَنَّهُ يَقُصُّ عَلَى رَسُولِهِ أَحْسَنَ الْقَصَصِ فِي هَذَا الْكِتَابِ، ثُمَّ ذَكَرَ هَذِهِ الْقِصَّةَ وَبَسَطَهَا، وَذَكَرَ مَا جَرَى فِيهَا، فَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّهَا قِصَّةٌ تَامَّةٌ كَامِلَةٌ حَسَنَةٌ، **فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُكَمِّلَهَا أَوْ يُحَسِّنَهَا بِمَا يُذْكَرُ فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي لَا يُعْرَفُ لَهَا سَنَدٌ وَلَا نَاقِلٌ وَأَغْلَبُهَا كَذِبٌ؛ فَهُوَ مُسْتَدْرِكٌ عَلَى اللهِ، وَمُكَمِّلٌ لِشَيْءٍ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَاقِصٌ، وَحَسْبُكَ بِأَمْرٍ يَنْتَهِي إِلَى هَذَا الْحَدِّ قُبْحًا!!** فَإِنَّ تَضَاعِيفَ هَذِهِ السُّورَةِ قَدْ مُلِئَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ التَّفَاسِيرِ(!) مِنَ الْأَكَاذِيبِ وَالْأُمُورِ الشَّنِيعَةِ الْمُنَاقِضَةِ لِمَا قَصَّهُ اللهُ – تعالى – بِشَيْءٍ كَثِيرٍ!!!.

فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَفْهَمَ عَنِ اللهِ مَا قَصَّهُ، وَيَدَعَ مَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُنْقَل اهـ.

وَجَاءَ فِي تَفْسِيرِ الْمَنَارِ: يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْآنَ –كَمَا ظَنَّ كَثِيرٌ مِمَّنْ قَبْلَهُمْ – أَنَّ الْقِصَصَ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ يَجِبُ أَنْ تَتَّفِقَ مَعَ مَا جَاءَ فِي كُتُبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ النَّصَارَى بِـ(الْعَهْدِ الْعَتِيقِ)، أَوْ كُتُبِ التَّارِيخِ الْقَدِيمَةِ، وَلَيْسَ الْقُرْآنُ تَارِيخًا وَلَا قَصَصًا، وَإِنَّمَا هُوَ هِدَايَةٌ وَمَوْعِظَةٌ، فَلَا يَذْكُرُ قِصَّةً لِبَيَانِ تَارِيخِ حُدُوثِهَا! وَلَا لِأَجْلِ التَّفَكُّهِ بِهَا أَوِ الْإِحَاطَةِ بِتَفْصِيلِهَا!! وَإِنَّمَا يَذْكُرُ مَا يَذْكُرُهُ لِأَجْلِ الْعِبْرَةِ؛ كَمَا قَالَ: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ وَبَيَان سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ؛ كَمَا قَالَ: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾، وَقَالَ: ﴿**سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ**﴾، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَالْحَوَادِثُ الْمُتَقَدِّمَةُ مِنْهَا مَا هُوَ مَعْرُوفٌ، وَاللهُ – تَعَالَى – يَذْكُرُ مِنْ هَذَا وَذَاكَ مَا شَاءَ أَنْ يَذْكُرَ؛ لِأَجْلِ الْعِبْرَةِ وَالْمَوْعِظَةِ، فَيَكْتَفِي مِنَ الْقِصَّةِ بِمَوْضِعِ الْعِبْرَةِ وَمَحَلِّ الْفَائِدَةِ، وَلَا يَأْتِي بِهَا مُفَصَّلَةً بِجُزْئِيَّاتِهَا الَّتِي لَا تَزِيدُ فِي الْعِبْرَةِ، بَلْ رُبَّمَا تُشْغَلُ عَنْهَا، فَلَا غَرْوَ أَنْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْقِصَصِ – الَّتِي يَعِظُنَا اللهُ بِهَا وَيُعَلِّمُنَا سُنَنَهُ – مَا لَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُرْوَ وَلَمْ يُدَوَّنْ بِالْكِتَابِ...

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ: أَنَّ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ فِي قَصَصِ الَّذِينَ خَلَوْا هِيَ مُنْتَهَى الْحِكْمَةِ، وَمَا كَانَ لِمُحَمَّدٍ الْأُمِّيِّ النَّاشِئِ فِي تِلْكَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُمِّيَّةِ أَنْ يَرْتَقِيَ إِلَيْهَا بِفِكْرِهِ وَقَدْ جَهِلَهَا الْحُكَمَاءُ فِي عَصْرِهِ وَقَبْلَ عَصْرِهِ، وَلَكِنَّهَا هِدَايَةُ اللهِ – تَعَالَى – لِعِبَادِهِ أَوْحَاهَا إِلَى صَفْوَتِهِ مِنْهُمْ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: ﴿**وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ**﴾، فَعَلَيْنَا – وَقَدْ ظَهَرَتِ الْآيَةُ وَوَضَحَتِ السَّبِيلُ – أَلَّا نَلْتَفِتَ إِلَى رِوَايَاتِ الْغَابِرِينَ فِي تِلْكَ الْقِصَصِ! وَلَا نَعُدَّ مُخَالَفَتَهَا لِلْقُرْآنِ شُبْهَةً نُبَالِي بِكَشْفِهَا!!.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ قِصَصَ الْعَهْدَيْنِ: الْعَتِيقِ، وَالْجَدِيدِ، الَّتِي يُسَمَّى مَجْمُوعُهَا: (الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ!)! هِيَ وَحْيٌ مِنَ اللهِ شَهِدَ لَهَا الْقُرْآنُ، وَهِيَ تُعَارِضُ بَعْضَ قِصَصِهِ!.

قُلْنَا: أَوَّلًا: إِنَّ تِلْكَ الْكُتُبَ لَيْسَ لَهَا أَسَانِيدُ مُتَّصِلَةٌ مُتَوَاتِرَةٌ!!. ثَانِيًا: إِنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا أَثْبَتَ أَنَّ اللهَ – تَعَالَى – أَعْطَى مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – التَّوْرَاةَ – وَهِيَ الشَّرِيعَةُ –، وَأَنَّ أَتْبَاعَهُ قَدْ حَفِظُوا مِنْهَا نَصِيبًا وَنَسُوا نَصِيبًا! وَأَنَّهُمْ حَرَّفُوا النَّصِيبَ الَّذِي أُوتُوهُ!! وَأَنَّهُ أَعْطَى عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – الْإِنْجِيلَ – وَهُوَ مَوَاعِظُ وَبِشَارَةٌ –، وَقَالَ فِي أَتْبَاعِهِ مِثْلَ مَا قَالَ فِي الْيَهُودِ: ﴿**فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**﴾.

وَيَجِدُ الْقَارِئُ تَفْصِيلَ هَذِهِ الْحَقَائِقِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَالْمَائِدَةِ وَالْأَعْرَافِ بِالنُّقُولِ مِنْ تَارِيخِ الْفَرِيقَيْنِ.

[419] قَالَ فِي أَيْسَرِ التَّفَاسِيرِ(!): قَوْلُهُ: ﴿**ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْجِهَادَ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ إِمَامٍ تَجْتَمِعُ عَلَيْهِ كَلِمَة الْأُمَّةِ، وَأَيُّمَا جِهَادٍ يَخْلُو مِنْ إِمَامَةٍ شَرْعِيَّةٍ يُقَاتَل تَحْتَ رَايَتِهَا؛ فَعَاقِبَتُهَا خُسْر! وَشَاهِدُ هَذَا: حَالُ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ! فَقَدْ قَاتَلُوا الِاسْتِعْمَار تَحْتَ شِعَارِ الْأَحْزَابِ، فَلَمَّا انْتَصَرُوا؛ خَسِرُوا كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى دِينَهُمْ!!.

فَإِنَّكُمْ أَهْلُ نَكْثٍ وَغَدْرٍ وَقِلَّةِ وَفَاءٍ بِمَا تَعِدُونَ؟ ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾يَعْنِي: قَالَ الْمَلأُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِنَبِيِّهِمْ ذَلِكَ: وَأَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُنَا أَنْ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَدُوَّنَا وَعَدُوَّ اللهِ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ؟يَعْنِي: وَقَدْ أُخْرِجَ مَنْ غُلِبَ عَلَيْهِ مِنْ رِجَالِنَا وَنِسَائِنَا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَمَنْ سُبِيَ.

وَهَذَا الْكَلَامُ ظَاهِرُهُ الْعُمُومُ وَبَاطِنُهُ الْخُصُوصُ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ كَانُوا فِي دِيَارِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ، وَإِنَّمَا كَانَ أُخْرِجَ مِنْ دَارِهِ وَوَلَدِهِ مَنْ أُسِرَ وَقُهِرَ مِنْهُمْ.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾يَقُولُ: فَلَمَّا فُرِضَ عَلَيْهِمْ قِتَالُ عَدُوِّهِمْ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ؛ ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾يَقُولُ: أَدْبَرُوا مُوَلِّينَ عَنِ الْقِتَالِ، وَضَيَّعُوا مَا سَأَلُوهُ نَبِيَّهُمْ مِنْ فَرْضِ الْجِهَادِ!!.

وَالْقَلِيلُ الَّذِي اسْتَثْنَاهُمُ اللهُ مِنْهُمْ؛ هُمُ الَّذِينَ عَبَرُوا النَّهَرَ مَعَ طَالُوتَ.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾يَعْنِي: وَاللهُ ذُو عِلْمٍ بِمَنْ ظَلَمَ مِنْهُمْ نَفْسَهُ، فَأَخْلَفَ اللهَ مَا وَعْدَهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَخَالَفَ أَمْرَ رَبِّهِ فِيمَا سَأَلَهُ ابْتِدَاءً أَنْ يُوجِبَهُ عَلَيْهِ.

٢٤٧- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾يَعْنِي: وَقَالَ لِلْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَبِيُّهُمْ شَمْوِيل[٤٢٠]: إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَاكُمْ مَا سَأَلْتُمْ، وَبَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا.

---

[٤٢٠] قُلْتُ - أَبُو حَمْزَةَ -: اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - أَبْهَمَ هَذَا النَّبِيَّ وَلَمْ يُبَيِّنِ اسْمَهُ لَنَا، وَلَمْ يَصِحَّ عَنِ الْمَعْصُومِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي ذَلِكَ شَيْءٌ.

وَعَلَيْهِ: فَمَا الْفَائِدَةُ الْمَرْجُوَّةُ فِي تَعْيِينِ اسْمِهِ؟! هَلْ سَيَزْدَادُ الْإِيمَانُ بِذَلِكَ؟! أَمْ أَنَّ الْقِصَّةَ لَا تَكْمُلُ وَلَا تَحْسُنُ إِلَّا بِتَعْيِينِ النَّبِيِّ الَّذِي قَدْ أَبْهَمَهُ اللهُ؟!!!.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، قَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ! كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَحْدَثُ الْأَخْبَارِ بِاللهِ؟ تَقْرَءُونَهُ لَمْ يُشَبْ! وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللهُ وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ؛ فَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، أَفَلَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ؟! وَلَا وَاللهِ! مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا - قَطُّ - يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ!!**» [صحيح: رواه البخاري، والبيهقي في الكبرى والشعب].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، أَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَغَضِبَ، وَقَالَ: «**أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً! لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا؛ مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي!**» [حسن: رواه أحمد؛ وحسنه الألباني في الإرواء(١٥٨٩)].

فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ذَلِكَ؛ قَالُوا: أَنَّى يَكُونُ لِطَالُوتَ الْمُلْكُ عَلَيْنَا، وَهُوَ مِنْ سِبْطِ بِنْيَامِينَ بْنِ يَعْقُوبَ، وَسِبْطُ بِنْيَامِينَ سِبْطٌ لَا مُلْكَ فِيهِمْ وَلَا نُبُوَّةَ! وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ؛ لِأَنَّا مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا بْنِ يَعْقُوبَ!!

﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ يَعْنِي: وَلَمْ يُؤْتَ طَالُوتُ كَثِيرًا مِنَ الْمَالِ.

﴿قَالَ﴾ نَبِيُّهُمْ لَهُمْ: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ يَعْنِي: اخْتَارَهُ عَلَيْكُمْ ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي بِذَلِكَ: إِنَّ اللهَ بَسَطَ لَهُ فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ، وَآتَاهُ مِنَ الْعِلْمِ فَضْلًا عَلَى مَا أَتَى غَيْرَهُ مِنَ الَّذِينَ خُوطِبُوا بِهَذَا الْخِطَابِ.

﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يَعْنِي: أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ وَبِيَدِهِ دُونَ غَيْرِهِ (يُؤْتِيهِ)، يَقُولُ: يُؤْتِي ذَلِكَ مَنْ يَشَاءُ، فَيَضَعُهُ عِنْدَهُ وَيَخُصُّهُ بِهِ، وَيَمْنَحُهُ مَنْ أَحَبَّ مِنْ خَلْقِهِ.

يَقُولُ: فَلَا تَسْتَنْكِرُوا – يَا مَعْشَرَ الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ – أَنْ يَبْعَثَ اللهُ طَالُوتَ مَلِكًا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلَكَةِ؛ فَإِنَّ الْمُلْكَ لَيْسَ بِمِيرَاثٍ عَنِ الْآبَاءِ وَالْأَسْلَافِ! وَلَكِنَّهُ بِيَدِ اللهِ يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، فَلَا تَتَخَيَّرُوا عَلَى اللهِ!!.

﴿وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يَعْنِي: وَاللهُ وَاسِعٌ بِفَضْلِهِ، فَيُنْعِمُ بِهِ عَلَى مَنْ أَحَبَّ، وَيُرِيدُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَنْ هُوَ أَهْلٌ لِمُلْكِهِ الَّذِي يُؤْتِيهِ، وَفَضْلِهِ الَّذِي يُعْطِيهِ، فَيُعْطِيهِ ذَلِكَ لِعِلْمِهِ بِهِ، وَبِأَنَّهُ لِمَا أَعْطَاهُ أَهْلٌ: إِمَّا لِلْإِصْلَاحِ بِهِ، وَإِمَّا لِأَنْ يَنْتَفِعَ هُوَ بِهِ.

٢٤٨– ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ وَهَذَا الْخَبَرُ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عَنْ نَبِيِّهِ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُ – دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَلَأَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ هَذَا الْقَوْلُ، لَمْ يُقِرُّوا بِبَعْثَةِ اللهِ طَالُوتَ عَلَيْهِمْ مَلِكًا إِذْ أَخْبَرَهُمْ نَبِيُّهُمْ بِذَلِكَ، وَعَرَّفَهُمْ فَضِيلَتَهُ الَّتِي فَضَّلَهُ اللهُ بِهَا؛ وَلَكِنَّهُمْ سَأَلُوهُ الدَّلَالَةَ عَلَى صِدْقِ مَا قَالَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَأَخْبَرَهُمْ بِهِ.

فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ – إِذْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا وَصَفْنَا –: ﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، فَقَالُوا لَهُ: ائْتِ بِآيَةٍ عَلَى ذَلِكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ؟!.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾يَعْنِي: لِلْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾: إِنَّ عَلَامَةَ مُلْكِ طَالُوتَ الَّتِي سَأَلْتُمُونِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى صِدْقِي فِي قَوْلِي: إِنَّ اللهَ بَعَثَهُ عَلَيْكُمْ مَلِكًا، وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ سِبْطِ الْمُمَلَّكَةِ؛ ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ[٤٢١] فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وَهُوَ التَّابُوتُ الَّذِي كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِذَا لَقُوا عَدُوًّا لَهُمْ قَدَّمُوهُ أَمَامَهُمْ، وَزَحَفُوا مَعَهُ، فَلَا يَقُومُ لَهُمْ مَعَهُ عَدُوٌّ، وَلَا يَظْهَرُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ نَاوَأَهُمْ، حَتَّى ضَيَّعُوا أَمْرَ اللهِ، وَكَثُرَ اخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَسَلَبَهُمُ اللهُ إِيَّاهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، يَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ ذَلِكَ، حَتَّى سَلَبَهُمْ آخِرَهَا مَرَّةً فَلَمْ يَرُدَّهُ عَلَيْهِمْ، وَلَنْ يُرَدَّ إِلَيْهِمْ آخِرَ الْأَبَدِ!.[٤٢٢]

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فِيهِ﴾: فِي التَّابُوتِ ﴿سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ[٤٢٣]﴾ السَّكِينَة فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْفَعِيلَةِ، مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: سَكَنَ فُلَانٌ إِلَى كَذَا وَكَذَا: إِذَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ وَهَدَأَتْ عِنْدَهُ نَفْسُهُ، فَهُوَ يَسْكُنُ سُكُونًا وَسَكِينَةً.

﴿وَبَقِيَّةٌ﴾يَعْنِي: الشَّيْءَ الْبَاقِيَ﴿مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ[٤٢٤]﴾يَعْنِي: مِنْ تَرِكَةِ آلِ مُوسَى، وَآلِ هَارُونَ.

---

٤٢١ **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** الله – تَعَالَى ذِكْرُهُ – قَالَ مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ قَوْلَهُ لِقَوْمِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿**إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ**﴾وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ لَا تَدْخُلَانِ فِي مِثْلِ هَذَا مِنَ الْأَسْمَاءِ إِلَّا فِي مَعْرُوفٍ عِنْدَ الْمُتَخَاطَبِين بِهِ، وَقَدْ عَرَفَهُ الْمُخْبِرُ وَالْمُخْبَرُ.

فَقَدْ علِمَ بِذَلِكَ أَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ: أَنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ الَّذِي قَدْ عَرَفْتُمُوهُ الَّذِي كُنْتُمْ تَسْتَنْصِرُونَ بِهِ(!!) فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ.

وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ تَابُوتًا مِنَ التَّوَابِيتِ غَيْرَ مَعْلُومٍ عِنْدَهُمْ قَدْرُهُ وَمَبْلَغُ نَفْعِهِ قَبْلَ ذَلِكَ؛ لَقِيلَ: إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ تَابُوتٌ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ اهـ.

قُلْتُ: التَّابُوتُ: صُنْدُوقٌ مِنْ خَشَبٍ – أَوْ مِنْ غَيْرِهِ – يُوضَعُ فِيهِ الْمَتَاعُ وَغَيْرُهُ.

٤٢٢ **قُلْتُ:** هَذِهِ (الْقِصَّةُ!) مَأْخُوذَةٌ مِنْ كُتُبِ (الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)، وَلَمْ يَصِحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ!.

٤٢٣ **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾يَعْنِي: أَنَّهُ كَالشَّيْءِ الَّذِي يُسَكِّنُهُمْ، وَيَطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِ؛ وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللهِ!.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي مَدَارِجِ السَّالِكِينَ: وَأَصْلُ السَّكِينَةِ: هِيَ الطُّمَأْنِينَةُ وَالْوَقَارُ وَالسُّكُونُ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللهُ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ عِنْدَ اضْطِرَابِهِ مِنْ شِدَّةِ الْمَخَاوِفِ؛ فَلَا يَنْزَعِجُ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَا يَرِدُ عَلَيْهِ، وَيُوجِبُ لَهُ زِيَادَةَ الْإِيمَانِ، وَقُوَّةَ الْيَقِينِ وَالثَّبَاتِ.

٤٢٤ **قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ:** يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ آلِ مُوسَى وَآلِ هَارُونَ: هُوَ مُوسَى وَهَارُونَ أَنْفُسَهُمَا؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –: «**يَا أَبَا مُوسَى! لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم؛ وغيرهما].

فَالْمُرَادُ مِنْ (آلِ دَاوُدَ): هُوَ دَاوُدُ نَفْسُهُ.

قُلْتُ: وَهَذَا التَّابُوتُ فِيهِ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ مُوسَى وَهَارُون – عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ؛ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ – كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا؛ إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ**» [صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٦٢٩٧)، وغيره].

﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ[٤٢٥]﴾: حَمَلَتِ التَّابُوتَ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى وَضَعَتْهُ فِي دَارِ طَالُوتَ بَيْنَ أَظْهُرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.[٤٢٦]

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي: أَنَّ نَبِيَّهُ قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: إِنَّ فِي مَجِيئِكُمُ التَّابُوتَ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ حَامِلَتُهُ الْمَلَائِكَةُ﴿لَآيَةً لَكُمْ﴾ يَعْنِي: لَعَلَامَةً لَكُمْ وَدَلَالَةً – أَيُّهَا النَّاسُ – عَلَى صِدْقِي فِيمَا أَخْبَرْتُكُمْ: أَنَّ اللهَ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا، أَنْ كُنْتُمْ قَدْ كَذَّبْتُمُونِي فِيمَا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ مِنْ تَمْلِيكِ اللهِ إِيَّاهُ عَلَيْكُمْ، وَاتَّهَمْتُمُونِي فِي خَبَرِي إِيَّاكُمْ بِذَلِكَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي: إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ عِنْدَ مَجِيءِ الْآيَةِ الَّتِي سَأَلْتُمُونِيهَا عَلَى صِدْقِي فِيمَا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ مِنْ أَمْرِ طَالُوتَ وَمُلْكِهِ.

٢٤٩– ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ وَفِي هَذَا الْخَبَرِ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – مَتْرُوكٌ قَدِ اسْتَغْنَى بِدَلَالَةِ مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ عَنْ ذِكْرِهِ.

---

[٤٢٥] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:** وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ**﴾؛ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّابُوتَ كَبِيرٌ!.

[٤٢٦] **قَالَ الْإِمَامُ السَّعْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَاعْلَمْ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُفَسِّرِينَ – رَحِمَهُمُ اللهُ – قَدْ أَكْثَرُوا(!) فِي حَشْوِ تَفَاسِيرِهِمْ مِنْ قَصَصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَنَزَّلُوا عَلَيْهَا الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ! وَجَعَلُوهَا تَفْسِيرًا لِكِتَابِ اللهِ؛ مُحْتَجِّينَ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ**»!!.

وَالَّذِي أَرَى: أَنَّهُ وَإِنْ جَازَ نَقْلُ أَحَادِيثِهِمْ عَلَى وَجْهٍ تَكُونُ مُفْرَدَةً غَيْرَ مَقْرُونَةٍ وَلَا مُنَزَّلَةٍ عَلَى كِتَابِ اللهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ جَعْلُهَا تَفْسِيرًا لِكِتَابِ اللهِ قَطْعًا إِذَا لَمْ تَصِحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَذَلِكَ أَنَّ مَرْتَبَتَهَا كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ**» فَإِذَا كَانَتْ مَرْتَبَتُهَا أَنْ تَكُونَ مَشْكُوكًا فِيهَا، وَكَانَ مِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَنَّ الْقُرْآنَ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ وَالْقَطْعُ بِأَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ تُجْعَلَ تِلْكَ الْقَصَصُ الْمَنْقُولَةُ بِالرِّوَايَاتِ الْمَجْهُولَةِ – الَّتِي يَغْلُبُ عَلَى الظَّنِّ كَذِبُهَا أَوْ كَذِب أَكْثَرِهَا – مَعَانِيَ لِكِتَابِ اللهِ مَقْطُوعًا بِهَا!! وَلَا يَسْتَرِيبُ بِهَذَا أَحَدٌ! وَلَكِنْ بِسَبَبِ الْغَفْلَةِ عَنْ هَذَا؛ حَصَلَ مَا حَصَلَ!! وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: وَهَذَا كَلَامٌ مَتِينٌ قَوِيٌّ – كَمَا تَرَى –، فَرَحِمَ اللهُ عَلَّامَةَ الْقَصِيمِ رَحْمَةً وَاسِعَةً.

وَأُضِيفُ: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ! كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَحْدَثُ الْأَخْبَارِ بِاللهِ؟ تَقْرَءُونَهُ لَمْ يُشَبْ! وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللهُ وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ؛ فَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، أَفَلَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ؟! وَلَا وَاللهِ! مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا – قَطُّ – يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ!!**» [صحيح: رواه البخاري، والبيهقي في الكبرى والشعب].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَتَى النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَغَضِبَ، وَقَالَ: «**أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً! لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا؛ مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي!**» [حسن: رواه أحمد؛ وحسنه الألباني في الإرواء(١٥٨٩)].

وَمَعْنَى الْكَلَامِ: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ؛ فَأَتَاهُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَصَدَّقُوا عِنْدَ ذَلِكَ نَبِيَّهُمْ، وَأَقَرُّوا بِأَنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ طَالُوتَ مَلِكًا عَلَيْهِمْ، وَأَذْعَنُوا لَهُ بِذَلِكَ.

يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾، وَمَا كَانَ لِيَفْصِلَ بِهِمْ إِلَّا بَعْدَ رِضَاهُمْ بِهِ وَتَسْلِيمِهِمُ الْمُلْكَ لَهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ يَقْدِرُ عَلَى إِكْرَاهِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، فَيظَنُّ بِهِ أَنَّهُ حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ كَرْهًا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿فَصَلَ[٤٢٧]﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي بِهِ: شَخَصَ بِالْجُنْدِ وَرَحَلَ بِهِمْ.

فَلَمَّا فَصَلَ بِهِمْ طَالُوتُ؛ ﴿قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ[٤٢٨]﴾يَقُولُ: إِنَّ اللهَ مُخْتَبِرُكُمْ بِنَهَرٍ؛ لِيَعْلَمَ كَيْفَ طَاعَتُكُمْ لَهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي[٤٢٩] وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾فَإِنَّهُ خَبَرٌ مِنَ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عَنْ طَالُوتَ أَنَّهُ قَالَ لِجُنُودِهِ، إِذْ شَكَوْا إِلَيْهِ الْعَطَشَ، فَأَخْبَرَ أَنَّ اللهَ مُبْتَلِيهِمْ بِنَهَرٍ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ الِابْتِلَاءَ الَّذِي أَخْبَرَهُمْ عَنِ اللهِ بِهِ مِنْ ذَلِكَ النَّهَرِ؛ هُوَ أَنَّ مَنْ شَرِبَ مِنْ مَائِهِ فَلَيْسَ هُوَ مِنْهُ، يَعْنِي بِذَلِكَ: أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ وِلَايَتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَلَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَبِلِقَائِهِ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَطْعَمْهُ﴾: لَمْ يَذُقْهُ؛ يَعْنِي: وَمَنْ لَمْ يَذُقْ مَاءَ ذَلِكَ النَّهَرِ؛ فَهُوَ مِنِّي، يَقُولُ: هُوَ مِنْ أَهْلِ وِلَايَتِي وَطَاعَتِي، وَالْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَبِلِقَائِهِ.

ثُمَّ اسْتَثْنَى مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾: الْمُغْتَرِفِينَ بِأَيْدِيهِمْ غُرْفَةً، فَقَالَ: وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْ مَاءَ ذَلِكَ النَّهَرِ إِلَّا غُرْفَةً يَغْتَرِفُهَا بِيَدِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنِّي، بِمَعْنَى: إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ كَفًّا مِنْ مَاءٍ.

---

[٤٢٧] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَصْلُ الْفَصْلِ: الْقَطْعُ، يُقَالُ مِنْهُ: فَصَلَ الرَّجُلُ مِنْ مَوْضِعِ كَذَا وَكَذَا، يَعْنِي بِهِ: قَطَعَ ذَلِكَ فَجَاوَزَهُ شَاخِصًا إِلَى غَيْرِهِ، يَفْصِلُ فُصُولًا؛ وَفَصَلَ الْعَظْمَ وَالْقَوْلَ مِنْ غَيْرِهِ فَهُوَ يَفْصِلُهُ فَصْلًا: إِذَا قَطَعَهُ فَأَبَانَهُ؛ وَفَصَلَ الصَّبِيُّ فِصَالًا: إِذَا قَطَعَهُ عَنِ اللَّبَنِ؛ وَقَوْلٌ فَصْلٌ: يَقْطَعُ فَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ لَا يُرَدُّ.

[٤٢٨] **(النَّهْرُ وَالنَّهَرُ)** – بِسُكُونِ الْهَاءِ وَفَتْحِهَا، وَهُمَا لُغَتَانِ فَصِيحَتَانِ -: وَاحِدُ (الْأَنْهَارِ)؛ وَهُوَ مَجْرَى الْمَاءِ، وَهَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِ، وَقِيلَ: هُوَ الْمَاءُ نَفْسُهُ، وَصَرِيحُ الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ: أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِي الْمَاءِ، مَجَازٌ فِي الْأُخْدُودِ.

[٤٢٩] **قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ**: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي**﴾يَعْنِي: لَيْسَ مِنْ أَصْحَابِي فِي هَذِهِ الْحَرْبِ، وَلَمْ يُخْرِجْهُمْ بِذَلِكَ عَنِ الْإِيمَانِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ غَشَّنَا؛ فَلَيْسَ مِنَّا**» أَيْ: لَيْسَ مِنْ أَصْحَابِنَا، وَلَا عَلَى طَرِيقَتِنَا وَهَدْيِنَا.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ﴾يَعْنِي: فَلَمَّا جَاوَزَ النَّهَرَ طَالُوتُ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾يَعْنِي: وَجَاوَزَ النَّهَرَ مَعَهُ الَّذِينَ آمَنُوا؛ ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾يَعْنِي: أَنَّهُ جَاوَزَ النَّهَرَ مَعَ طَالُوتَ: الْمُؤْمِنُ الَّذِي لَمْ يَشْرَبْ مِنَ النَّهَرِ إِلَّا الْغُرْفَةَ، وَالْكَافِرُ الَّذِي شَرِبَ مِنْهُ الْكَثِيرُ.

ثُمَّ وَقَعَ التَّمْيِيزُ بَيْنَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِرُؤْيَةِ جَالُوتَ وَلِقَائِهِ، وَانْخَزَلَ عَنْهُ أَهْلُ الشِّرْكِ وَالنِّفَاقِ؛ وَهُمُ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾.

ثُمَّ اخْتُلِفَ فِي عِدَّةِ مَنْ جَاوَزَ النَّهَرَ مَعَهُ يَوْمَئِذٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَتْ عِدَّتُهُمْ عِدَّةَ أَهْلِ بَدْرٍ ثَلَثَمِائَةِ رَجُلٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا:

عَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: «كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانُوا يَوْمَ بَدْرٍ ثَلَثُمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا؛ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ مَنْ جَازَ مَعَهُ، وَمَا جَازَ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ!».[٤٣٠]

وَأَمَّا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: قَالَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَيَسْتَيْقِنُونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ، لِلَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ[٤٣١] قَلِيلَةٍ[٤٣٢]﴾يَعْنِي بِـ(كَمْ): كَثِيرًا

---

[٤٣٠] صحيح: رواه البخاري، وأحمد، والترمذي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم.

فَائِدَةٌ: وَقَعَ عِنْدَ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّ عَدَدَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ بَدْرٍ: ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا.

[٤٣١] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَأَمَّا الْفِئَةُ: فَإِنَّهُمُ الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ، لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ، وَهُوَ مِثْلُ الرَّهْطِ وَالنَّفَرِ، يُجْمَعُ: فِئَاتٌ وَفِئُونَ.

[٤٣٢] **قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ:** وَفِي قَوْلِهِمْ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ –: ﴿**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ**﴾: تَحْرِيضٌ عَلَى الْقِتَالِ، وَاسْتِشْعَارٌ لِلصَّبْرِ، وَاقْتِدَاءٌ بِمَنْ صَدَّقَ رَبَّهُ قُلْتُ – الْقُرْطُبِيِّ –: هَكَذَا يَجِبُ عَلَيْنَا نَحْنُ أَنْ نَفْعَلَ! لَكِنِ الْأَعْمَالُ الْقَبِيحَةُ، وَالنِّيَّاتُ الْفَاسِدَةُ؛ مَنَعَتْ مِنْ ذَلِكَ! حَتَّى يَنْكَسِرَ الْعَدَدُ الْكَبِيرُ مِنَّا، قُدَّامَ الْيَسِيرِ مِنَ الْعَدُوِّ – كَمَا شَاهَدْنَاهُ غَيْرَ مَرَّةٍ! –!! وَذَلِكَ بما كسبت أيدينا!!.

وَفِي الْبُخَارِيِّ: وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «إِنَّمَا تُقَاتِلُونَ بِأَعْمَالِكُمْ»، وَفِيهِ مُسْنَدٌ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ**». فَالْأَعْمَالُ فَاسِدَةٌ! وَالضُّعَفَاءُ مُهْمَلُونَ! وَالصَّبْرُ قَلِيلٌ! وَالِاعْتِمَادُ ضَعِيفٌ!! وَالتَّقْوَى زَائِلَةٌ!!!.

قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿**اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ [لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ]**﴾، وَقَالَ: ﴿**وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا**﴾، وَقَالَ: ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾، وَقَالَ: ﴿**وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ**﴾، [وَقَالَ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾]، وَقَالَ: ﴿**إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾. فَهَذِهِ أَسْبَابُ النَّصْرِ وَشُرُوطُهُ؛ وَهِيَ مَعْدُومَةٌ عِنْدَنَا! غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِينَا! فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ عَلَى مَا أَصَابَنَا وَحَلَّ بِنَا!! بَلْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا ذِكْرُهُ، وَلَا مِنَ الدِّينِ إِلَّا رَسْمُهُ؛ لِظُهُورِ الْفَسَادِ، وَلِكَثْرَةِ الطُّغْيَانِ وَقِلَّةِ الرَّشَادِ، حَتَّى اسْتَوْلَى الْعَدُوُّ شَرْقًا وَغَرْبًا بَرًّا وَبَحْرًا!! وَعَمَّتِ الْفِتَنُ وَعَظُمَتِ الْمِحَنُ، وَلَا عَاصِمَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ!! اهـ. وَمَا بَيْنَ الْمَعْقُوفَيْنِ زِيَادَةٌ مِنِّي.

قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فِي عَصْرِ الْقُرْطُبِيِّ – رَحِمَهُ اللهُ – وَهُوَ عَصْرُ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ –، فَمَاذَا نَقُولُ نَحْنُ فِي وَقْتِنَا الْحَاضِرِ(!!) الَّذِي قَلَّ فِيهِ العِلمُ، وَكَثُرَ فِيهِ الْجَهْلُ! وَفَشَتْ فِيهِ الْبِدَعُ وَالْمُنْكَرَاتُ!! وَأَطَلَّتْ عَلَيْنَا فِيهِ السَّنَوَاتُ الْخَدَّاعَاتُ بِرَأْسِهَا: يُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ! وَيُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ! وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ! وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ!! فَإِلَى اللهِ الْمُشْتَكَى، وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ!.

غَلَبَتْ فِئَة قَلِيلَة﴿فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾يَعْنِي: بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ ﴿وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يَقُولُ: مَعَ الْحَابِسِينَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى رِضَاهُ وَطَاعَتِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾يَعْنِي: وَاللهُ مَعِين الصَّابِرِينَ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ طَاعَتِهِ، وَظُهُورِهِمْ وَنَصْرِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِ الصَّادِينَ عَنْ سَبِيلِهِ، الْمُخَالِفِينَ مِنْهَاجَ دِينِهِ.

وَكَذَلِكَ يُقَالُ لِكُلِّ مَعِينٍ رَجُلًا عَلَى غَيْرِهِ: هُوَ مَعَهُ؛ بِمَعْنَى: هُوَ مَعَهُ بِالْعَوْنِ لَهُ وَالنُّصْرَةِ.

٢٥٠- ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾يَعْنِي: وَلَمَّا بَرَزَ طَالُوتُ وَجُنُودِهِ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿بَرَزُوا﴾: صَارُوا بِالْبَرَازِ مِنَ الْأَرْضِ؛ وَهُوَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَاسْتَوَى.[٤٣٣]

﴿قَالُوا﴾يَعْنِي: أَنَّ طَالُوتَ وَأَصْحَابَهُ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾يَعْنِي: أَنْزِلْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾يَعْنِي: وَقَوِّ قُلُوبَنَا عَلَى جِهَادِهِمْ لِتَثْبُتَ أَقْدَامُنَا فَلَا نُهْزَمُ عَنْهُمْ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ فَجَحَدُوكَ إِلَهًا وعَبَدُوا غَيْرَكَ، وَاتَّخذُوا الْأَوْثَانَ أَرْبَابًا.

٢٥١- ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾يَعْنِي: فَهَزَمَ طَالُوتُ وَجُنُودُهُ أَصْحَابَ جَالُوتَ، وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ.

وَفِي هَذَا الْكَلَامِ مَتْرُوكٌ، تُرِكَ ذِكْرُهُ اكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ مَا ظَهَرَ مِنْهُ عَلَيْهِ.

وَذَلِكَ أَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتِ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾؛ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ، فَأَفْرَغَ عَلَيْهِمْ صَبْرَهُ وَثَبَّتَ أَقْدَامَهُمْ، وَنَصَرَهُمْ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ﴾: فَلُّوهُمْ[٤٣٤] بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ.

---

[٤٣٣] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَلِذَلِكَ قِيلَ لِلرَّجُلِ الْقَاضِي حَاجَتَهُ: تَبَرَّزَ؛ لِأَنَّ النَّاسَ قَدِيمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِنَّمَا كَانُوا يَقْضُونَ حَاجَتَهُمْ فِي الْبَرَازِ مِنَ الْأَرْضِ، فَقِيلَ: قَدْ تَبَرَّزَ فُلَانٌ: إِذَا خَرَجَ إِلَى الْبَرَازِ مِنَ الْأَرْضِ لِذَلِكَ، كَمَا قِيلَ: تَغَوَّطَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقْضُونَ حَاجَتَهُمْ فِي الْغَائِطِ مِنَ الْأَرْضِ - وَهُوَ الْمُطْمَئِنُ مِنْهَا -، فَقِيلَ لِلرِّجَالِ: تَغَوَّطَ، أَيْ: صَارَ إِلَى الْغَائِطِ مِنَ الْأَرْضِ.

[٤٣٤] كَذَا أَثْبَتَهَا الْمُحَقِّقُ الْكَبِيرُ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر، فِي تَحْقِيقِهِ الْفَرِيد لِتَفْسِيرِ الطَّبَرِيِّ - هَذَا -، قَالَ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: وَكَانَ فِي الْمَخْطُوطَةِ وَالْمَطْبُوعَةِ: (قَتَلُوهُمْ)مِنَ الْقَتْلِ؛ وَهُوَ خَطَأٌ لَا خَيْرَ فِيهِ؛ فَإِنَّ الْهَزِيمَةَ الِانْكِسَارُ، لَا الْقَتْلُ!. وَهَزَمَهُ: كَسَرَهُ، لَا قَتَلَهُ!! اهـ.

قُلْتُ: قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ مَادَة(ف ل ل): فَلَلْتُ الْجَيْشَ فَلًّا: كَسَرْتُهُ فَانْكَسَرَ. وَقَالَ فِي مَادَّةِ(ه ز م): هَزَمْتُ الْجَيْشَ هَزْمًا: كَسَرْتُهُ، وَالِاسْمُ الْهَزِيمَةُ.

﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ[٤٣٥]﴾ وَدَاودُ هَذَا؛ هُوَ دَاوُدُ بْنُ إِيشَا(!) نَبِيُّ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –.

﴿وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ يَعْنِي: وَأَعْطَى اللهُ دَاوُدَ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ. وَالْهَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَآتَاهُ اللهُ﴾ عَائِدَةٌ عَلَى دَاوُدَ، وَالْمُلْكُ: السُّلْطَانُ، وَالْحِكْمَةُ: النُّبُوَّةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ يَعْنِي: عَلَّمَهُ صَنْعَةَ الدُّرُوعِ، وَالتَّقْدِيرَ فِي السَّرْدِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ[٤٣٦]﴾ يَعْنِي: وَلَوْلَا أَنَّ اللهَ يَدْفَعُ بِبَعْضِ النَّاسِ، وَهُمْ أَهْلُ الطَّاعَةِ لَهُ وَالْإِيمَانُ بِهِ، بَعْضًا وَهُمْ أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ لِلَّهِ، وَالشِّرْكِ بِهِ، كَمَا دَفَعَ عَنِ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ طَالُوتَ يَوْمَ جَالُوتَ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ بِاللهِ وَالْمَعْصِيَةِ لَهُ وَقَدْ أَعْطَاهُمْ مَا سَأَلُوا رَبَّهُمُ ابْتِدَاءً مِنْ بِعْثَةِ مَلِكٍ عَلَيْهِمْ لِيُجَاهِدُوا مَعَهُ فِي سَبِيلِهِ بِمَنْ جَاهَدَ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَالْيَقِينِ وَالصَّبْرِ، جَالُوتَ وَجُنُودَهُ، لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ، يَعْنِي: لَهَلَكَ أَهْلُهَا بِعُقُوبَةِ اللهِ إِيَّاهُمْ، فَفَسَدَتْ بِذَلِكَ الْأَرْضُ، وَلَكِنَّ اللهَ ذُو مَنٍّ عَلَى خَلْقِهِ، وَتَطَوُّلٍ عَلَيْهِمْ بِدَفْعِهِ بِالْبَرِّ مِنْ خَلْقِهِ عَنِ الْفَاجِرِ، وَبِالْمُطِيعِ عَنِ الْعَاصِي مِنْهُمْ، وَبِالْمُؤْمِنِ عَنِ الْكَافِرِ.

---

[٤٣٥] دَاوُدُ – عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – كَانَ مَعَ جُنُودِ طَالُوتَ، وَبَاشَرَ قَتْلَ مَلِكِ الْكُفَّار بِيَدِهِ؛ لِشَجَاعَتِهِ، وَقُوَّتِهِ، وَصَبْرِهِ.
وَقَدْ وَصَفَهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِأَنَّهُ كَانَ: «**لَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم].

[٤٣٦] قَالَ فِي تَفْسِيرِ الْمَنَارِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ أَيْ: لَوْلَا أَنَّ اللهَ – تَعَالَى – يَدْفَعُ أَهْلَ الْبَاطِلِ بِأَهْلِ الْحَقِّ، وَأَهْلَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ بِأَهْلِ الْإِصْلَاحِ فِيهَا؛ لَغَلَبَ أَهْلُ الْبَاطِلِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَبَغَوْا عَلَى الصَّالِحِينَ، وَأَوْقَعُوا بِهِمْ حَتَّى يَكُونَ لَهُمُ السُّلْطَانُ وَحْدَهُمْ، فَتَفْسُدَ الْأَرْضُ بِفَسَادِهِمْ!! فَكَانَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَى الْعَالَمِيْنَ، وَإِحْسَانِهِ إِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ، أَنْ أَذِنَ لِأَهْلِ دِينِهِ الْحَقِّ الْمُصْلِحِينَ فِي الْأَرْضِ بِقِتَالِ الْمُفْسِدِينَ فِيهَا مِنَ الْكَافِرِينَ وَالْبُغَاةِ الْمُعْتَدِينَ.
فَأَهْلُ الْحَقِّ حَرْبٌ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَاللهُ نَاصِرُهُمْ مَا نَصَرُوا الْحَقَّ وَأَرَادُوا الْإِصْلَاحَ فِي الْأَرْضِ اهـ.
قُلْتُ: وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ**﴾ تَقْوِيَةٌ لِلْإِذْنِ فِي الْقِتَالِ، وَإِظْهَارٌ لِلْمَصْلَحَةِ الَّتِي فِيهِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَوْلَا الْقِتَالُ وَالْجِهَادُ؛ لَاسْتَوْلَى الْكُفَّارُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَذَهَبَ الدِّين!! [التَّسْهِيل لِعُلُومِ التَّنْزِيلِ؛ لِابْنِ جُزَيٍّ].
وَفِيهِ: تَنْبِيهٌ عَلَى فَضِيلَةِ الْمُلْكِ، وَأَنَّهُ لَوْلَاهُ؛ مَا اسْتَتَبَّ أَمْرُ الْعَالَمِ!.
قَالَ أَحَدُ الْحُكَمَاءِ: الْمُلْكُ وَالدِّينُ أَخَوَانِ لَا غِنًى لِأَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ، فَالدِّينُ: أُسٌّ، وَالْمُلْكُ: حَارِسٌ، فَمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ أُسٌّ؛ فَمَهْدُومٌ! وَمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَارِسٌ؛ فَضَائِعٌ! [ذَكَرَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي بَهْجَةِ الْمَجَالِسِ، مَنْسُوبًا إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ].

٢٥٢- ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ﴾: هَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي اقْتَصَّ اللهُ فِيهَا أَمْرَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَأَمْرَ الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى الَّذِينَ سَأَلُوا نَبِيَّهُمْ أَنْ يَبْعَثَ لَهُمْ طَالُوتَ مَلِكًا وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْآيَاتِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿آيَاتُ اللهِ﴾: حُجَجُهُ وَأَعْلَامُهُ وَأَدِلَّتُهُ.

يَقُولُ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: فَهَذِهِ الْحُجَجُ الَّتِي أَخْبَرْتُكَ بِهَا يَا مُحَمَّدُ – وَأَعْلَمْتُكَ مِنْ قُدْرَتِي عَلَى إِمَاتَةِ مَنْ هَرَبَ مِنَ الْمَوْتِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَهُمْ أُلُوفٌ، وَإِحْيَائِي إِيَّاهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَتَمْلِيكِي طَالُوتَ أَمْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ،... وَصَرْفِي مُلْكَهُ إِلَى دَاوُدَ لِطَاعَتِهِ إِيَّايَ، وَنُصْرَتِي أَصْحَابَ طَالُوتَ، مَعَ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ، وَضَعْفِ شَوْكَتِهِمْ عَلَى جَالُوتَ وَجُنُودِهِ، مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ، وَشِدَّةِ بَطْشِهِمْ – حُجَجِي عَلَى مَنْ جَحَدَ نِعْمَتِي، وَخَالَفَ أَمْرِي، وَكَفَرَ بِرَسُولِي مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ: التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، الْعَالِمِينَ بِمَا اقْتَصَصْتُ عَلَيْكَ مِنَ الْأَنْبَاءِ الْخَفِيَّةِ، الَّتِي يَعْلَمُونَ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِي، لَمْ تَتَخَرَّصْهَا وَلَمْ تَتَقَوَّلْهَا أَنْتَ – يَا مُحَمَّدُ –؛ لِأَنَّكَ أُمِّيٌّ، وَلَسْتَ مِمَّنْ قَرَأَ الْكُتُبَ، فَيَلْتَبِسُ عَلَيْهِمْ أَمْرُكَ، وَيَدَّعُوا أَنَّكَ قَرَأْتَ ذَلِكَ فَعَلِمْتَهُ مِنْ بَعْضِ أَسْفَارِهِمْ، وَلَكِنَّهَا حُجَجِي عَلَيْهِمْ أَتْلُوهَا عَلَيْكَ – يَا مُحَمَّدُ – بِالْحَقِّ الْيَقِينِ كَمَا كَانَ، لَا زِيَادَةَ فِيهِ، وَلَا تَحْرِيفَ، وَلَا تَغْيِيرَ شَيْءٍ مِنْهُ عَمَّا كَانَ.

﴿وَإِنَّكَ﴾ – يَا مُحَمَّدُ – ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ[٤٣٧]﴾ يَقُولُ: إِنَّكَ لَمُرْسَلٌ مُتَّبَعٌ فِي طَاعَتِي، وَإِيثَارِ مَرْضَاتِي عَلَى هَوَاكَ، فَسَالِكٌ فِي ذَلِكَ مِنْ أَمْرِكَ سَبِيلَ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِي الَّذِينَ أَقَامُوا عَلَى أَمْرِي، وَآثَرُوا رِضَايَ عَلَى هَوَاهُمْ، وَلَمْ تُغَيِّرْهُمُ الْأَهْوَاءُ وَمَطَامِعُ الدُّنْيَا.

[٤٣٧] **قَالَ الْإِمَامُ الشِّنْقِيطِيُّ فِي أَضْوَاءِ الْبَيَانِ:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ يُفْهَمُ مِنْ تَأْكِيدِهِ هُنَا بِـ(أَنَّ وَاللَّامِ): أَنَّ الْكُفَّارَ يُنْكِرُونَ رِسَالَتَهُ – كَمَا تَقَرَّرَ فِي فَنِّ الْمَعَانِي –، وَقَدْ صَرَّحَ بِهَذَا الْمَفْهُومِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا**﴾.

٢٥٣- ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ[٤٣٨] مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ[٤٣٩] وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾

يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ﴾: الرُّسُلُ الَّذِينَ قَصَّ اللهُ قَصَصَهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ؛ كَمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...وَدَاوُدَ، وَسَائِرِ مَنْ ذَكَرَ نَبَأَهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ.

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: هَؤُلَاءِ رُسُلِي فَضَّلْتُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَكَلَّمْتُ بَعْضَهُمْ – وَالَّذِي كَلَّمْتُهُ مِنْهُمْ مُوسَى – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَرَفَعْتُ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ عَلَى بَعْضٍ بِالْكَرَامَةِ وَرِفْعَةِ الْمَنْزِلَةِ.

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ يَعْنِي: وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ عَلَى نُبُوَّتِهِ: مِنْ إِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ، وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، مَعَ الْإِنْجِيلِ الَّذِي أَنْزَلْتُهُ إِلَيْهِ، فَبَيَّنْتُ فِيهِ مَا فَرَضْتُ عَلَيْهِ. ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ يَعْنِي: وَقَوَّيْنَاهُ وَأَعَنَّاهُ ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ.

---

[٤٣٨] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: فَإِنْ قُلْتَ**: كَيْفَ نَجْمَعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ الْمُثْبِتَةِ لِلتَّفَاضُلِ بَيْنَ الرُّسُلِ، وَبَيْنَ مَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَتَهُ، أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ، فَقَالَ: لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ! فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ؛ فَقَامَ فَلَطَمَ وَجْهَهُ!! وَقَالَ: تَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، وَالنَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَيْنَ أَظْهُرِنَا؟! [فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَ: يَا] أَبَا الْقَاسِمِ! إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا، فَمَا بَالُ فُلَانٍ لَطَمَ وَجْهِي؟! فَقَالَ [رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –]: «**لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟**» فَذَكَرَهُ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حَتَّى رُئِيَ [الْغَضَبُ] فِي وَجْهِهِ! ثُمَّ قَالَ: «**لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي: أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَمْ بُعِثَ قَبْلِي؟ وَلَا أَقُولُ: إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**» [صحيح: رواه البخاري – واللفظ له –، ومسلم – وما بين المعقوفين له –].؟

فَالْجَوَابُ: أَنْ يُقَالَ: فِي هَذَا عِدَّةُ أَوْجُهٍ مِنَ الْجَمْعِ؛ أَحْسَنُهَا: أَنَّ النَّهْيَ فِيمَا إِذَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ الِافْتِخَارِ وَالتَّعَلِّي: بِأَنْ يَفْتَخِرَ أَتْبَاعُ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَى غَيْرِهِمْ، فَيَقُولُوا: مُحَمَّدٌ أَفْضَلُ مِنْ مُوسَى – مَثَلًا –، أَفْضَلُ مِنْ عِيسَى، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ فَهَذَا مَنْهِيٌّ عَنْهُ!! أَمَّا إِذَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ الْخَبَرِ؛ فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ؛ وَلَا فَخْرَ!**» [صحيح: رواه ابن ماجة؛ وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة(٤٣٠٨)]. اهـ بِتَصَرُّفٍ.

[٤٣٩] قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: مِنَ الَّذِينَ كَلَّمَهُمُ اللهُ – تَعَالَى – بِلَا وَاسِطَةٍ –: نَبِيُّ اللهِ وَكَلِيمُهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ – عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ –.

قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ**﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾.

وَمُعْتَقَدُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، (أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ) فِي كَلَامِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –: أَنَّهُ كَلَامٌ حَقِيقِيٌّ يَلِيقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ الْأَزْهَرِيُّ السَّلَفِيُّ مُحَمَّد خَلِيل هَرَّاس فِي شَرْحِ الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ: خُلَاصَةُ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ اللهَ – تَعَالَى – لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ، وَأَنَّ الْكَلَامَ صِفَةٌ لَهُ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ، يَتَكَلَّمُ بِهَا بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، فَهُوَ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ، وَمَا تَكَلَّمَ اللهُ بِهِ فَهُوَ قَائِمٌ بِهِ لَيْسَ مَخْلُوقًا مُنْفَصِلًا عَنْهُ – كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ !!–، وَلَا لَازِمًا لِذَاتِهِ لُزُومَ الْحَيَاةِ لَهَا – كَمَا تَقُولُ الْأَشَاعِرَةُ !!–؛ بَلْ هُوَ تَابِعٌ لِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

وَاللهُ – سُبْحَانَهُ – نَادَى مُوسَى بِصَوْتٍ، وَنَادَى آدَمَ وَحَوَّاءَ بِصَوْتٍ، وَيُنَادِي عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَوْتٍ، وَيَتَكَلَّمُ بِالْوَحْيِ بِصَوْتٍ، وَلَكِنَّ الْحُرُوفَ وَالْأَصْوَاتَ الَّتِي تَكَلَّمَ اللهُ بِهَا؛ صِفَةٌ لَهُ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، وَلَا تُشْبِهُ أَصْوَاتَ الْمَخْلُوقِينَ وَحُرُوفَهُمْ؛ كَمَا أَنَّ عِلْمَ اللهِ الْقَائِمَ بِذَاتِهِ لَيْسَ مِثْلَ عِلْمِ عِبَادِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يُمَاثِلُ الْمَخْلُوقِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ اهـ.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾يَعْنِي: وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، يَعْنِي: مِنْ بَعْدِ الرُّسُلِ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُ فَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ، وَبَعْدَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الآيَاتِ بِمَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ لِمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ وَوَفَّقَهُ.

وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾يَعْنِي: مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَا أَبَانَ لَهُمُ الْحَقَّ، وَأَوْضَحَ لَهُمُ السَّبِيلَ.

﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾يَعْنِي: وَلَكِنِ اخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِ الرُّسُلِ، لَمَّا لَمْ يَشَأِ اللَّهُ مِنْهُمْ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَنْ لَا يَقْتَتِلُوا، فَاقْتَتَلُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ بِتَحْرِيمِ الاِقْتِتَالِ وَالاِخْتِلَافِ، وَبَعْدَ ثُبُوتِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَرِسَالَةِ رُسُلِهِ وَوَحْيِ كِتَابِهِ، فَكَفَرَ بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ بَعْضُهُمْ، وَآمَنَ بِذَلِكَ بَعْضُهُمْ.

فَأَخْبَرَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: أَنَّهُمْ أَتَوْا مَا أَتَوْا مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ عَلَى خَطَأٍ، تَعَمُّدًا مِنْهُمْ لِلْكُفْرِ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ!.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِعِبَادِهِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾يَقُولُ: وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَحْجِزَهُمْ – بِعِصْمَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ إِيَّاهُمْ – عَنْ مَعْصِيَتِهِ فَلَا يَقْتَتِلُوا؛ مَا اقْتَتَلُوا وَلَا اخْتَلَفُوا، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، بِأَنْ يُوَفِّقَ هَذَا لِطَاعَتِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ فَيُؤْمِنَ بِهِ وَيُطِيعَهُ، وَيَخْذُلَ هَذَا فَيَكْفُرَ بِهِ وَيَعْصِيَهِ!.

٢٥٤– ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾يَعْنِي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ، وَتَصَدَّقُوا مِنْهَا، وَآتُوا مِنْهَا الْحُقُوقَ الَّتِي فَرَضْنَاهَا عَلَيْكُمْ.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾يَعْنِي: مِنْ قَبْلِ مَجِيءِ يَوْمٍ لَا بَيْعٌ فِيهِ، يَقُولُ: لَا تَقْدِرُونَ فِيهِ عَلَى ابْتِيَاعِ مَا كُنْتُمْ عَلَى ابْتِيَاعِهِ – بِالنَّفَقَةِ مِنْ أَمْوَالِكُمُ الَّتِي[رَزَقْتُكُمُوهَا – بِمَا] [٤٤٠] أَمَرْتُكُمْ بِهِ، أَوْ نَدَبْتُكُمْ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا قَادِرِينَ، لِأَنَّهُ يَوْمُ جَزَاءٍ وَثَوَابٍ وَعِقَابٍ، لَا يَوْمُ عَمَلٍ وَاكْتِسَابٍ وَطَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ! فَيَكُونُ لَكُمْ إِلَى ابْتِيَاعِ مَنَازِلِ أَهْلِ الْكَرَامَةِ بِالنَّفَقَةِ حِينَئِذٍ – أَوْ بِالْعَمَلِ بِطَاعَةِ اللَّهِ – سَبِيلٌ.

---

[٤٤٠] قَارِنْ بِتَفْسِيرِ الطَّبَرِيِّ، تَحْقِيق مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر.

﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾يَعْنِي: لَا مُخَالَّةٌ فِيهِ نَافِعَةٌ كَمَا كَانَتْ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ خَلِيلَ الرَّجُلِ فِي الدُّنْيَا قَدْ كَانَ يَنْفَعُهُ فِيهَا بِالنُّصْرَةِ لَهُ عَلَى مَنْ حَاوَلَهُ بِمَكْرُوهٍ وَأَرَادَهُ بِسُوءٍ، وَالْمُظَاهَرَةِ لَهُ عَلَى ذَلِكَ.

فَآيَسَهُمْ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – أَيْضًا – مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا أَحَدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْصُرُ أَحَدًا مِنَ اللهِ! بَلِ الْأَخِلَّاءُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ، كَمَا قَالَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –.

﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾يَعْنِي: لَا شَافِعَ لَهُمْ يَشْفَعُ عِنْدَ اللهِ كَمَا كَانَ ذَلِكَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، فَقَدْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَشْفَعُ فِي الدُّنْيَا لِبَعْضٍ بِالْقَرَابَةِ وَالْجِوَارِ وَالْخُلَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ، فَبَطُلَ ذَلِكَ كُلُّهُ يَوْمَئِذٍ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى ذِكْرُهُ عَنْ قِيلِ أَعْدَائِهِ مِنْ أَهْلِ الْجَحِيمِ فِي الْآخِرَةِ إِذَا صَارُوا فِيهَا: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾!!.

وَهَذِهِ الْآيَةُ مَخْرَجُهَا فِي الشَّفَاعَةِ عَامٌ وَالْمُرَادُ بِهَا خَاصٌ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ لِأَهْلِ الْكُفْرِ بِاللهِ؛ لِأَنَّ أَهْلَ وِلَايَةِ اللهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ، يَشْفَعُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ.[٤٤١]

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾يَعْنِي: وَالْجَاحِدُونَ لِلَّهِ الْمُكَذِّبُونَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ هُمُ الظَّالِمُونَ، يَقُولُ: هُمُ الْوَاضِعُونَ جُحُودَهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَالْفَاعِلُونَ غَيْرَ مَا لَهُمْ فِعْلُهُ، وَالْقَائِلُونَ مَا لَيْسَ لَهُمْ قَوْلُهُ.

عَنْ عَطَاءِ بْنِ دِينَارٍ، أَنَّهُ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَالَ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾وَلَمْ يَقُلِ: الظَّالِمُونَ هُمُ الْكَافِرُونَ!!.

٢٥٥– ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾اللهُ الَّذِي لَهُ عِبَادَةُ الْخَلْقِ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، لَا إِلَهَ سِوَاهُ، لَا مَعْبُودَ سِوَاهُ، يَعْنِي: وَلَا تَعْبُدُوا شَيْئًا سِوَى الْحَيِّ الْقَيُّومِ الَّذِي لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿الْحَيُّ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: الَّذِي لَهُ الْحَيَاةُ الدَّائِمَةُ، وَالْبَقَاءُ الَّذِي لَا أَوَّلَ لَهُ بِحَدٍّ، وَلَا آخر لَهُ بِأَمَدٍ، إِذْ كَانَ كُلُّ مَا سِوَاهُ فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ حَيًّا فَلِحَيَاتِهِ أَوَّلٌ مَحْدُودٌ، وَآخِرٌ مَمْدُودٌ، يَنْقَطِعُ بِانْقِطَاعِ أَمَدِهَا وَيَنْقَضِي بِانْقِضَاءِ غَايَتِهَا.

---

[٤٤١] فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ!.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿الْقَيُّومُ﴾: الْقَائِمُ بِرِزْقِ مَا خَلَقَ وَحِفْظِهِ.

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ يَعْنِي: لَا يَأْخُذُهُ نُعَاسٌ فَيَنْعَسُ، وَلَا نَوْمٌ فَيَسْتَثْقِلُ نَوْمًا.[٤٤٢]

وَإِنَّمَا عَنَى – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: لَا تَحِلُّهُ الْآفَاتُ، وَلَا تَنَالُهُ الْعَاهَاتُ. وَذَلِكَ أَنَّ السِّنَةَ وَالنَّوْمَ، مَعْنَيَانِ يَغْمُرَانِ فَهْمَ ذِي الْفَهْمِ، وَيُزِيلَانِ مَنْ أَصَابَاهُ عَنِ الْحَالِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَاهُ.

فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ – إِذْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا وَصَفْنَا –: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ﴾ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴿الْقَيُّومُ﴾ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ دُونَهُ بِالرِّزْقِ وَالْكَلَاءَةِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّصْرِيفِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ لَا يُغَيِّرُهُ مَا يُغَيِّرُ غَيْرَهُ، وَلَا يُزِيلُهُ عَمَّا لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ تَنَقُّلُ الْأَحْوَالِ وَتَصْرِيفُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ؛ بَلْ هُوَ الدَّائِمُ عَلَى حَالٍ، وَالْقَيُّومُ عَلَى جَمِيعِ الْأَنَامِ، لَوْ نَامَ كَانَ مَغْلُوبًا مَقْهُورًا؛ لِأَنَّ النَّوْمَ غَالِبُ النَّائِمِ قَاهِرُهُ! وَلَوْ وَسَنَ لَكَانَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا فِيهِمَا دَكًّا؛ لِأَنَّ قِيَامَ جَمِيعِ ذَلِكَ بِتَدْبِيرِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَالنَّوْمُ شَاغِلُ الْمُدَبِّرِ عَنِ التَّدْبِيرِ، وَالنُّعَاسُ مَانِعُ الْمُقَدِّرِ عَنِ التَّقْدِيرِ بِوَسَنِهِ!.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ مَالِكُ جَمِيعِ ذَلِكَ بِغَيْرِ شَرِيكٍ وَلَا نَدِيدٍ، وَخَالِقُ جَمِيعِهِ دُونَ كُلِّ آلِهَةٍ وَمَعْبُودٍ.

وَإِنَّمَا يَعْنِي بِذَلِكَ: أَنَّهُ لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ لِشَيْءٍ سِوَاهُ؛ لِأَنَّ الْمَمْلُوكَ إِنَّمَا هُوَ طَوْعُ يَدِ مَالِكِهِ، وَلَيْسَ لَهُ خِدْمَةُ غَيْرِهِ إِلَّا بِأَمْرِهِ!.

يَقُولُ: فَجَمِيعُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مُلْكِي وَخَلْقِي، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْبُدَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِي غَيْرِي وَأَنَا مَالِكُهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَعْبُدَ غَيْرَ مَالِكِهِ، وَلَا يُطِيعَ سِوَى مَوْلَاهُ!.

---

[٤٤٢] عَنْ أَبِي مُوسَى – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ؛ فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ؛ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ!**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم].

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ[٤٤٣]﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ لَمَمَالِيكِهِ إِنْ أَرَادَ عُقُوبَتَهُمْ ، إِلَّا أَنْ يَخْلِيَهُ، وَيَأْذَنَ لَهُ بِالشَّفَاعَةِ لَهُمْ؟.

وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: مَا نَعْبُدُ أَوْثَانَنَا هَذِهِ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى!!

فَقَالَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – لَهُمْ: لِي مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، مَعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مُلْكًا، فَلَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ لِغَيْرِي، فَلَا تَعْبُدُوا الْأَوْثَانَ الَّتِي تَزْعُمُونَ أَنَّهَا تُقَرِّبُكُمْ مِنِّي زُلْفَى؛ فَإِنَّهَا لَا تَنْفَعُكُمْ عِنْدِي وَلَا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا! وَلَا يَشْفَعُ عِنْدِي أَحَدٌ لِأَحَدٍ إِلَّا بِتَخْلِيَتِي إِيَّاهُ وَالشَّفَاعَةِ لِمَنْ يَشْفَعُ لَهُ، مِنْ رُسُلِي وَأَوْلِيَائِي وَأَهْلِ طَاعَتِي.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ مَا كَانَ وَبِكُلِّ مَا هُوَ كَائِنٌ عِلْمًا، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ الْعَالِمُ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، مُحِيطٌ بِذَلِكَ كُلِّهِ، مُحْصٍ لَهُ دُونَ سَائِرِ مَنْ دُونَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ سِوَاهُ شَيْئًا إِلَّا بِمَا شَاءَ هُوَ أَنْ يَعْلَمَهُ، فَأَرَادَ فَعَلَّمَهُ.

وَإِنَّمَا يَعْنِي بِذَلِكَ: أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَنْبَغِي لِمَنْ كَانَ بِالْأَشْيَاءِ جَاهِلًا! فَكَيْفَ يعْبدُ مَنْ لَا يَعْقِلُ شَيْئًا أَلْبَتَّةَ مِنْ وَثَنٍ وَصَنَمٍ؟! يَقُولُ: أَخْلِصُوا الْعِبَادَةَ لِمَنْ هُوَ مُحِيطٌ بِالْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، يَعْلَمُهَا، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى الْكُرْسِيِّ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عِلْمُ اللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –.

وَقَالَ آخَرُونَ: الْكُرْسِيُّ: مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ.

وَلِكُلِّ قَوْلٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَجْهٌ وَمَذْهَبٌ، غَيْرَ أَنَّ الَّذِي هُوَ أَوْلَى بِتَأْوِيلِ الْآيَةِ؛ مَا جَاءَ بِهِ الْأَثَرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وَهُوَ:

---

[٤٤٣] قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: وَشُرُوطُ إِذْنِ اللهِ فِي الشَّفَاعَةِ: رِضَى اللهِ عَنِ الشَّافِعِ، وَعَنِ الْمَشْفُوعِ لَهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].
قَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ: قَوْلُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾: فِي هَذَا الِاسْتِفْهَامِ مِنَ الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ عِبَادِهِ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَنْفَعَ أَحَدًا مِنْهُمْ بِشَفَاعَةٍ أَوْ غَيْرِهَا، وَالتَّقْرِيعُ وَالتَّوْبِيخُ لَهُ مَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ! وَفِيهِ مِنَ الدَّفْعِ فِي صُدُورِ عُبَّادِ الْقُبُورِ، وَالصَّدِّ فِي وُجُوهِهِمْ ، وَالْفَتِّ فِي أَعَضَادِهِمْ؛ مَا لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، وَلَا يُبْلَغُ مَدَاهُ!!.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ خَلِيفَةَ، قَالَ: أَتَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَتِ: ادْعُ اللهَ أَنْ يُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ! فَعَظَّمَ الرَّبَّ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ كُرْسِيَّهُ وَسِعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَإِنَّهُ لَيَقْعُدُ عَلَيْهِ، فَمَا يَفْضُلُ مِنْهُ مِقْدَارُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ» ثُمَّ قَالَ بِأَصَابِعِهِ فَجَمَعَهَا: «وَإِنَّ لَهُ أَطِيطًا كَأَطِيطِ الرَّحْلِ الْجَدِيدِ إِذَا رُكِبَ مِنْ ثِقَلِهِ».[٤٤٤]

وَأَمَّا الَّذِي يَدُلُّ عَلَى صِحَّتِهِ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ؛ فَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ الَّذِي رَوَاهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي الْمُغِيرَةِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: هُوَ عِلْمُهُ!.[٤٤٥]

﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ يَعْنِي: وَلَا يَشُقُّ عَلَيْهِ وَلَا يَثْقِلُهُ، وَ(الْهَاءُ وَالْمِيمُ وَالْأَلِفُ)فِي قَوْلِهِ: ﴿حِفْظُهُمَا﴾ مِنْ ذِكْرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَا يَثْقُلُ عَلَيْهِ حِفْظُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

---

[٤٤٤] حَدِيثٌ ضَعِيفٌ مُنْكَرٌ: قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي الْعِلَلِ الْمُتَنَاهِيَةِ: هَذا حَدِيثٌ لا يَصِحُّ عَن رَسُولِ الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، وإِسنادُهُ مُضطَرِبٌ جِدًّا. وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي السِّلْسِلَةِ الضَّعِيفَةِ(٤٩٧٨): مُنْكَرٌ.

[٤٤٥] **قَالَ الْمُحَقِّقُ الْكَبِيرُ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر، تَعْلِيقًا عَلَى هَذَا الْمَوْضِعِ:** الْعَجَبُ لِأَبِي جَعْفَرٍ، كَيْفَ تَنَاقَضَ قَوْلُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ! فَإِنَّهُ بَدَأَ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِيَ هُوَ أَوْلَى بِتَأْوِيلِ الْآيَةِ؛ مَا جَاءَ بِهِ الْأَثَرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، مِنَ الْحَدِيثِ فِي صِفَةِ الْكُرْسِيِّ، ثُمَّ عَادَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ يَقُولُ: وَأَمَّا الَّذِي يَدُلُّ عَلَى صِحَّتِهِ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ؛ فَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ عِلْمُ اللهِ – سُبْحَانَهُ –. فَإِمَّا هَذَا؛ وَإِمَّا هَذَا!! وَغَيْرُ مُمْكِنٍ أَنْ يَكُونَ أَوْلَى التَّأْوِيلَات فِي مَعْنَى (الْكُرْسِيِّ) هُوَ الَّذِي جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ، وَيَكُون مَعْنَاهُ أَيْضًا (الْعِلْم)، كَمَا زَعَمَ أَنَّهُ دَلَّ عَلَى صِحَّتِهِ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ!!.

وَكَيْفَ يَجْمَعُ فِي تَأْوِيلٍ وَاحِدٍ، مَعْنَيَانِ مُخْتَلِفَانِ فِي الصِّفَةِ وَالْجَوْهَرِ!!...

وَقَدْ أَرَادَ الطَّبَرِيُّ أَنْ يَسْتَدِلَّ – بَعْدُ – بِأَنَّ الْكُرْسِيَّ هُوَ (الْعِلْمُ)، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا**﴾، فَلِمَ لَمْ يَجْعَلِ (الْكُرْسِيّ) هُوَ (الرَّحْمَةُ)، وَهُمَا فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ؟!...وَاسْتِخْرَاجُ مَعْنَى الْكُرْسِيِّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ – كَمَا فَعَل الطَّبَرِيُّ –؛ ضَعِيفٌ جِدًّا! يَجِلُّ عَنْهُ مَنْ كَانَ مِثْلَهُ حَذَرًا وَلُطْفًا وَدِقَّةً!! اهـ.

قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: الْكُرْسِيُّ: هُوَ مَوْضِعُ قَدَمَيِ اللهِ – جَلَّ وَعَلَا –، وهو الذي بَيْنَ يَدَيِ الْعَرْشِ كَالْمُقَدِّمَةِ لَهُ، وَلَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهُ إِلَّا اللهُ – سُبْحَانَهُ –.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، قَالَ: «**الْكُرْسِيُّ: مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، وَالْعَرْشُ: لَا يُقَدِّرُ أَحَدٌ قَدْرَهُ**» [صحيح: أخرجه إمام الأئمة ابن خزيمة في كتابه العظيم: (التوحيد)، وابن منده في التوحيد، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في مختصر العلو(٤٥)].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: وَالَّذِي تَقْتَضِيهِ الْأَحَادِيثُ: أَنَّ الْكُرْسِيَّ مَخْلُوقٌ بَيْنَ يَدَيِ الْعَرْشِ، وَالْعَرْشُ أَعْظَمُ مِنْهُ اهـ.

وَأَمَّا الْقَوْلُ الْمَنْسُوبُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –: (بِأَنَّ الْكُرْسِيَّ هُوَ الْعِلْمُ)؛ فَلَمْ يَصِحَّ عَنْهُ!.

قَالَ الْإِمَامُ الْأَلْبَانِيُّ فِي السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ، تَحْتَ الْحَدِيثِ(١٠٩): وَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ الْعِلْمُ، فَلَا يَصِحُّ إِسْنَادُهُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي الْمُغِيرَةِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْهُ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. قَالَ ابْنُ مَنْدَه: ابْنُ أَبِي الْمُغِيرَةِ لَيْسَ بِالْقَوِيِّ فِي ابْنِ جُبَيْرٍ اهـ.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ[٤٤٦]﴾ يَعْنِي: وَاللهُ الْعَلِيُّ، وَالْعَلِيُّ: الْفَعِيلُ مِنْ قَوْلِكَ: عَلَا يَعْلُو عُلُوًّا: إِذَا ارْتَفَعَ، فَهُوَ عَالٍ وَعَلِيٌّ، وَالْعَلِيُّ: ذُو الْعُلُوِّ وَالِارْتِفَاعِ عَلَى خَلْقِهِ بِقُدْرَتِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿الْعَظِيمُ﴾: ذُو الْعَظَمَةِ، الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ دُونَهُ، فَلَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ!.

٢٥٦- ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي قَوْمٍ مِنَ الْأَنْصَارِ - أَوْ فِي رَجُلٍ مِنْهُمْ - كَانَ لَهُمْ أَوْلَادٌ قَدْ هَوَّدُوهُمْ أَوْ نَصَّرُوهُمْ، فَلَمَّا جَاءَ اللهُ بِالْإِسْلَامِ أَرَادُوا إِكْرَاهَهُمْ عَلَيْهِ، فَنَهَاهُمُ اللهُ عَنْ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونُوا هُمْ يَخْتَارُونَ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ.

---

[٤٤٦] **قَالَ الْإِمَامُ السَّعْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾** بِذَاتِهِ فَوْقَ عَرْشِهِ، الْعَلِيُّ بِقَهْرِهِ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، الْعَلِيُّ بِقَدْرِهِ لِكَمَالِ صِفَاتِهِ اهـ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الصَّوَاعِقِ الْمُرْسَلَةِ: فَفِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ: ذَكَرَ الْحَيَاةَ الَّتِي هِيَ أَصْلُ جَمِيعِ الصِّفَاتِ، وَذَكَرَ مَعَهَا قَيُّومِيَّتَهُ الْمُقْتَضِيَةَ لِدَوَامِهِ وَبَقَائِهِ، وَانْتِفَاءِ الْآفَاتِ جَمِيعِهَا عَنْهُ مِنَ النَّوْمِ وَالسِّنَةِ وَالْعَجْزِ وَغَيْرِهَا، ثُمَّ ذَكَرَ كَمَالَ مُلْكِهِ، ثُمَّ عَقَّبَهُ بِذِكْرِ وَحْدَانِيَّتِهِ فِي مُلْكِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ سَعَةَ عِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ، ثُمَّ عَقَّبَهُ بِأَنَّهُ لَا سَبِيلَ لِلْخَلْقِ إِلَى عِلْمِ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا بَعْدَ مَشِيئَتِهِ لَهُمْ أَنْ يَعْلَمُوهُ، ثُمَّ ذَكَرَ سَعَةَ كُرْسِيِّهِ؛ مُنَبِّهًا بِهِ عَلَى سَعَتِهِ - سُبْحَانَهُ - وَعَظَمَتِهِ وَعُلُوِّهِ، وَذَلِكَ تَوْطِئَةٌ بَيْنَ يَدَيْ عُلُوِّهِ وَعَظَمَتِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ كَمَالِ اقْتِدَارِهِ وَحِفْظِهِ لِلْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ؛ مِنْ غَيْرِ اكْتِرَاثٍ وَلَا مَشَقَّةٍ وَتَعَبٍ، ثُمَّ خَتَمَ الْآيَةَ بِهَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ الْجَلِيلَيْنِ[: الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ] الدَّالَّيْنِ عَلَى عُلُوِّ ذَاتِهِ وَعَظَمَتِهِ فِي نَفْسِهِ اهـ. وَمَا بَيْنَ الْمَعْقُوفَيْنِ زِيَادَةٌ مِنِّي.

قُلْتُ - أَبُو حَمْزَةَ -: **آيَةُ الْكُرْسِيِّ لَهَا شَأْنٌ عَظِيمٌ، وَهِيَ أَعْظَمُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ، فَمِنْ فَضَائِلِهَا:**

١- عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قَالَ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: ﴿**اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**وَاللهِ! لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، وأبو داود؛ وغيرهم].

وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّ لَهَا لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ الْمَلِكَ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ**» [صحيح: صححه الألباني في الصحيحة(٣٤١٠)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٤٧١)، ومختصر العلو(٢٢)].

قَوْلُهُ: (**لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ**) أَيْ: لِيَكُنِ الْعِلْمُ هَنِيئًا لَكَ.

٢- إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، فَإِنَّهُ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ [رواه البخاري، وغيره].

٣- مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ حِينَ يُمْسِي؛ أُجِيرَ مِنَ الْجِنِّ حَتَّى يُصْبِحَ، وَمَنْ قَرَأَهَا حِينَ يُصْبِحُ؛ أُجِيرَ مِنَ الْجِنِّ حَتَّى يُمْسِيَ [صححه الألباني في الصحيحة(٣٢٤٥)، وصحيح الترغيب والترهيب(٦٦٢)].

فَائِدَةٌ: تَفْسِيرُ مَا جَاءَ فِي الْأَحَادِيثِ: مَنْ قَالَ كَذَا وَكَذَا حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي، أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ: قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، وَأَنَّ مَحَلَّ هَذِهِ الْأَذْكَارِ: بَعْدَ الصُّبْحِ، وَبَعْدَ الْعَصْرِ [الوابل الصيب من الكلم الطيب؛ لابن القيم].

٤- مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ؛ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ [صححه الألباني في الصحيحة(٩٧٢)، وصحيح الجامع(٦٤٦٤)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٥٩٥)].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَكُونُ مِقْلَاتًا، فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ أَنْ تُهَوِّدَهُ، فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، فَقَالُوا: لَا نَدَعُ أَبْنَاءَنَا!! فَأَنْزَلَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.[٤٤٧]

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ: لَا يُكْرَهُ أَهْلُ الْكِتَابِ عَلَى الدِّينِ إِذَا بَذَلُوا الْجِزْيَةَ، وَلَكِنَّهُمْ يُقَرُّونَ عَلَى دِينِهِمْ، وَقَالُوا: الْآيَةُ فِي خَاصٍّ مِنَ الْكُفَّارِ، وَلَمْ يُنْسَخْ مِنْهَا شَيْءٌ.

وَقَالَ آخَرُونَ: هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ قَبْلَ أَنْ يُفْرَضَ الْقِتَالُ.

وَأَوْلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي خَاصٍّ مِنَ النَّاسِ، قَالَ: عَنَى بِقَوْلِهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾: أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ وَالْمَجُوسُ، وَكُلُّ مَنْ جَاءَ إِقْرَارُهُ عَلَى دِينِهِ الْمُخَالِفِ دِيْنَ الْحَقِّ، وَأخذَ الْجِزْيَةَ مِنْهُ، وَأَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْهَا مَنْسُوخًا.

وَإِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ...، كَانَ بَيِّنًا بِذَلِكَ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، إِنَّمَا هُوَ: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ لِأَحَدٍ مِمَّنْ حَلَّ قَبُولُ الْجِزْيَةِ مِنْهُ بِأَدَائِهِ الْجِزْيَةَ، وَرِضَاهُ بِحُكْمِ الْإِسْلَامِ.

﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾يَعْنِي: قَدْ وَضَحَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَاسْتَبَانَ لِطَالِبِ الْحَقِّ وَالرَّشَادِ وَجْهُ مَطْلَبِهِ، فَتَمَيَّزَ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْغَوَايَةِ، فَلَا تُكْرِهُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ – وَمَنْ أَبَحْتُ لَكُمْ أَخْذَ الْجِزْيَةِ مِنْهُ – عَلَى دِينِكُمْ – دِينِ الْحَقِّ –، فَإِنَّ مَنْ حَادَ عَنِ الرَّشَادِ بَعْدَ اسْتِبَانَتِهِ لَهُ؛ فَإِلَى رَبِّهِ أَمْرُهُ، وَهُوَ وَلِيُّ عُقُوبَتِهِ فِي مَعَادِهِ.

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ[٤٤٨]﴾الطَّاغُوت: كُلُّ ذِي طُغْيَانٍ عَلَى اللهِ فَعُبِدَ مِنْ دُونِهِ: إِمَّا بِقَهْرٍ مِنْهُ لِمَنْ عَبَدَهُ، وَإِمَّا بِطَاعَةٍ مِمَّنْ عَبَدَهُ لَهُ، وَإِنَسَانًا كَانَ ذَلِكَ الْمَعْبُودُ، أَوْ شَيْطَانًا، أَوْ وَثَنًا، أَوْ صَنَمًا، أَوْ كَائِنًا مَا كَانَ مِنْ شَيْءٍ.

---

[٤٤٧] صحيح: رواه أبو داود، والنسائي في الكبرى، والبيهقي في الكبرى، والطحاوي في شرح مشكل الآثار، والضياء المقدسي في المختارة، وابن حبان في صحيحه؛ وصححه الألباني في صحيح أبي داود(٢٦٨٢)، والتعليقات الحسان(١٤٠). قَالَ أَبُو دَاوُدَ: الْمِقْلَاتُ: الَّتِي لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ.

[٤٤٨] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي إِعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ:** وَالطَّاغُوتُ: كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ؛ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ.

فَطَاغُوتُ كُلِّ قَوْمٍ: مِنْ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ غَيْرَ اللهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ، أَوْ يَتْبَعُونَهُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ مِنَ اللهِ، أَوْ يُطِيعُونَهُ فِيمَا لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ؛ فَهَذِهِ طَوَاغِيتُ الْعَالَمِ إِذَا تَأَمَّلْتَهَا وَتَأَمَّلْتَ أَحْوَالَ النَّاسِ مَعَهَا؛ رَأَيْتَ أَكْثَرَهُمْ عَدَلُوا مِنْ عِبَادَةِ اللهِ إِلَى عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ! وَعَنِ التَّحَاكُمِ إِلَى اللهِ وَإِلَى الرَّسُولِ إِلَى التَّحَاكُمِ إِلَى الطَّاغُوتِ! وَعَنْ طَاعَتِهِ وَمُتَابَعَةِ رَسُولِهِ إِلَى طَاعَةِ الطَّاغُوتِ وَمُتَابَعَتِهِ! وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَسْلُكُوا طَرِيقَ النَّاجِينَ الْفَائِزِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ – وَهُمُ الصَّحَابَةُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ – وَلَا قَصَدُوا قَصْدَهُمْ؛ بَلْ خَالَفُوهُمْ فِي الطَّرِيقِ وَالْقَصْدِ مَعًا!!.

فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ إِذًا: فَمَنْ يَجْحَدْ رُبُوبِيَّةَ كُلِّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَكْفُرُ بِهِ﴿وَيُؤْمِنْ بِاللهِ[٤٤٩]﴾يَقُولُ: وَيُصَدِّقُ بِاللهِ أَنَّهُ إِلَهُهُ وَرَبُّهُ وَمَعْبُودُهُ؛ ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾يَقُولُ: فَقَدْ تَمَسَّكَ بِأَوْثَقِ مَا يتَمَسَّكُ بِهِ منْ طَلَبِ الْخَلَاص لِنَفْسِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَعِقَابِهِ.

وَالْعُرْوَةُ[٤٥٠] فِي هَذَا الْمَكَانِ: مَثَلٌ لِلْإِيمَانِ الَّذِي اعْتَصَمَ بِهِ الْمُؤْمِنُ، فَشَبَّهَهُ فِي تَعَلُّقِهِ بِهِ وَتَمَسُّكِهِ بِهِ، بِالْمُتَمَسِّكِ بِعُرْوَةِ الشَّيْءِ الَّذِي لَهُ عُرْوَةٌ يُتَمَسَّكُ بِهَا.

﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا[٤٥١]﴾يَعْنِي: لَا انْكِسَارَ لَهَا، وَ(الْهَاءُ وَالْأَلِفُ) فِي قَوْلِهِ: ﴿لَهَا﴾؛ عَائِدٌ عَلَى الْعُرْوَةِ.

وَمَعْنَى الْكَلَامِ: فَمَنْ يُكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ؛ فَقَدِ اعْتَصَمَ مِنْ طَاعَةِ اللهِ بِمَا لَا يَخْشَى مَعَ اعْتِصَامِهِ خُذْلَانَهُ إِيَّاهُ، وَإِسْلَامَهُ عِنْدَ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ فِي أَهْوَالِ الْآخِرَةِ، كَالْمُتَمَسِّكِ بِالْوَثِيقِ مِنْ عُرَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا يُخْشَى انْكِسَارُ عُرَاهَا.

﴿وَاللهُ سَمِيعٌ﴾ إِيمَانَ الْمُؤْمِنِ بِاللهِ وَحْدَهُ، الْكَافِرِ بِالطَّاغُوتِ، عِنْدَ إِقْرَارِهِ بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ، وَتَبَرُّئِهِ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ وَإِخْلَاصِ رُبُوبِيَّتِهِ قَلْبُهُ، وَمَا انْطَوَى عَلَيْهِ مِنَ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَصْنَامِ وَالطَّوَاغِيتِ ضَمِيرُهُ، وَبِغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَخْفَتْهُ نَفْسُ كُلِّ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، لَا يَنْكَتِمُ عَنْهُ سِرٌّ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرٌ، حَتَّى يُجَازِيَ كُلًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا نَطَقَ بِهِ لِسَانُهُ، وَأَضْمَرَتْهُ نَفْسُهُ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ!.

---

[٤٤٩] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي شَرْحِ ثَلَاثَةِ الْأُصُولِ:** بَدَأَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – بِالْكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ قَبْلَ الْإِيمَانِ بِاللهِ؛ لِأَنَّ مِنْ كَمَالِ الشَّيْءِ: إِزَالَة الْمَوانِعِ قَبْلَ وُجُودِ الثَّوَابِتِ، وَلِهَذَا يُقَالُ: التَّخْلِيَةُ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ اهـ.

قُلْتُ: فَلَا يَصِحُّ إِيمَانُ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى يَكْفُرَ بِالطَّاغُوتِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**﴾ "وَمَفْهُومُ الشَّرْطِ: أَنَّ مَنْ لَمْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ، لَمْ يَسْتَمْسِكْ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى؛ وَهُوَ كَذَلِكَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَمْسِكْ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، فَهُوَ بِمَعْزِلٍ عَنِ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِاللهِ هُوَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى، وَالْإِيمَانُ بِالطَّاغُوتِ يَسْتَحِيلُ اجْتِمَاعُهُ مَعَ الْإِيمَانِ بِاللهِ؛ لِأَنَّ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ شَرْطٌ فِي الْإِيمَانِ بِاللهِ أَوْ رُكْنٌ مِنْهُ؛ كَمَا هُوَ صَرِيحُ قَوْلِهِ: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ**﴾ الْآيَةَ" [أضواء البيان؛ للشنقيطي].

عَنْ أَبِي مَالِكٍ (سَعْدِ بْنِ طَارِقِ بْنِ أَشْيَمَ) الْأَشْجَعِيِّ، عَنْ أَبِيهِ (طَارِقِ بْنِ أَشْيَمَ الْأَشْجَعِيِّ)، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، يَقُولُ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ؛ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد؛ وغيرهما].

[٤٥٠] الْعُرْوَةُ مِنَ الدَّلْوِ والْكُوزِ: الْمَقْبِضُ، يُقَالُ: أَخَذَ الْإِبْرِيقَ مِنْ عُرْوَتِهِ: مِقْبِضِهِ [القاموس المحيط، ومعجم الغني].

[٤٥١] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَأَصْلُ الْفَصْمِ: الْكَسْرُ.

٢٥٧- ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يَعْنِي: نَصِيرُهُمْ وَظَهِيرُهُمْ، يَتَوَلَّاهُمْ بِعَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ.

﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ[٤٥٢] إِلَى النُّورِ﴾ يَعْنِي: يُخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَعْنِي: الْجَاحِدِينَ وَحْدَانِيَّتَهُ ﴿أَوْلِيَاؤُهُمْ﴾ يَعْنِي: نُصَرَاؤُهُمْ وَظُهَرَاؤُهُمُ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمْ، ﴿الطَّاغُوتُ﴾ يَعْنِي: الْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ[٤٥٣]﴾ يَعْنِي بِالنُّورِ: الْإِيمَانَ، وَيَعْنِي بِالظُّلُمَاتِ: ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَشُكُوكِه، الْحَائِلَةَ دُونَ أَبْصَارِ الْقُلُوبِ وَرُؤْيَةِ ضِيَاءِ الْإِيمَانِ وَحَقَائِقِ أَدِلَّتِهِ وَسُبُلِهِ.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يَعْنِي: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ النَّارِ، أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ يُخَلَّدُونَ فِيهَا - يَعْنِي: فِي نَارِ جَهَنَّمَ - دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، إِلَى غَيْرِ غَايَةٍ وَلَا نِهَايَةٍ أَبَدًا!!.

٢٥٨- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ يَعْنِي: أَلَمْ تَرَ يَا مُحَمَّدُ بِقَلْبِكَ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ؟ يَعْنِي: الَّذِي خَاصَمَ إِبْرَاهِيمَ نَبِيَّ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ﴿فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ يَعْنِي: حَاجَّهُ فَخَاصَمَهُ فِي رَبِّهِ؛ لِأَنَّ اللهَ آتَاهُ الْمُلْكَ!.

---

[٤٥٢] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** وَإِنَّمَا عَنَى بِالظُّلُمَاتِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الْكُفْرَ، وَإِنَّمَا جَعَلَ الظُّلُمَاتِ لِلْكُفْرِ مَثَلًا؛ لِأَنَّ الظُّلُمَاتِ حَاجِبَةٌ لِلْأَبْصَارِ عَنْ إِدْرَاكِ الْأَشْيَاءِ وَإِثْبَاتِهَا، وَكَذَلِكَ الْكُفْرُ، حَاجِبٌ أَبْصَارَ الْقُلُوبِ عَنْ إِدْرَاكِ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ بِصِحَّتِهِ وَصِحَّةِ أَسْبَابِهِ فَأَخْبَرَ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - عِبَادَهُ أَنَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَمُبَصِّرُهُمْ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ وَسُبُلَهُ وَشَرَائِعَهُ وَحُجَجَهُ، وَهَادِيهِمْ، فَمُوَفِّقُهُمْ لِأَدِلَّتِهِ الْمُزِيلَةِ عَنْهُمُ الشُّكُوكَ، بِكَشْفِهِ عَنْهُمْ دَوَاعِيَ الْكُفْرِ، وَظُلَمَ سَوَاتِرِ أَبْصَارِ الْقُلُوبِ.

[٤٥٣] **فَإِنْ قِيلَ:** كَيْفَ قَالَ: ﴿**يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾ وَهُمْ كُفَّارٌ لَمْ يَكُونُوا فِي نُورٍ قَطُّ؟!

قِيلَ: هُمُ الْيَهُودُ كانوا مُؤْمِنِينَ بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ - لِمَا يَجِدُونَ فِي كُتُبِهِمْ مِنْ نَعْتِهِ -، فَلَمَّا بُعِثَ؛ كَفَرُوا بِهِ!!.

وَقِيلَ: هُوَ عَلَى الْعُمُومِ فِي حَقِّ جَمِيعِ الْكُفَّارِ، قَالُوا: مَنْعُهُمْ إِيَّاهُمْ مِنَ الدُّخُولِ فِيهِ: إِخْرَاجٌ، كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِأَبِيهِ: أَخْرَجْتَنِي مِنْ مَالِكَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ! كَمَا قَالَ اللهُ - تَعَالَى - إِخْبَارًا عَنْ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ﴿**إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ**﴾، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَطُّ فِي مِلَّتِهِمْ!.

وَقِيلَ: هَذَا بِاعْتِبَارِ الْفِطْرَةِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ؛ فَكَانُوا عَلَى الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ وَالْإِيمَانِ، ثُمَّ أَخْرَجُوهُمْ؛ كَقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم].

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ[٤٥٤] قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ[٤٥٥] قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ[٤٥٦]﴾يَعْنِي: أَلَمْ تَرَ يَا مُحَمَّدُ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ حِينَ قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، يَعْنِي بِذَلِكَ: رَبِّي الَّذِي بِيَدِهِ الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ، يُحْيِي مَنْ يَشَاءُ وَيُمِيتُ مَنْ أَرَادَ بَعْد الْإِحْيَاء، قَالَ: أَنَا أَفْعَلُ ذَلِكَ، فَأُحْيِي وَأُمِيتُ، اسْتَحِيي مَنْ أَرَدْتُ قَتْلَهُ فَلَا أَقْتُلُهُ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنِّي إِحْيَاءً لَهُ! وَأَقْتُلُ آخرَ فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنِّي إِمَاتَةً لَهُ!!.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: فَإِنَّ اللهَ – الَّذِي هُوَ رَبِّي – يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ مَشْرِقِهَا، فَأْتِ بِهَا – إِنْ كُنْتَ صَادِقًا أَنَّكَ إِلَهٌ – مِنْ مَغْرِبِهَا، قَالَ اللهُ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾يَعْنِي: انْقَطَعَ وَبَطَلَتْ حُجَّتُهُ!.

﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾يَقُولُ: وَاللهُ لَا يَهْدِي أَهْلَ الْكُفْرِ إِلَى حُجَّةٍ يَدْحَضُونَ بِهَا حُجَّةَ أَهْلِ الْحَقِّ عِنْدَ الْمُحَاجَّةِ وَالْمُخَاصَمَةِ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ حُجَجُهُمْ دَاحِضَةٌ!.

٢٥٩– ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ نَظِيرَ الَّذِي عَنَى بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ مِنْ تَعْجِيبِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْهُ.

---

[٤٥٤] وَيُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾أَنَّ هَذَا الْمَلِكَ طَلَبَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ دَلِيلًا عَلَى وُجُودِ الرَّبِّ، فَكَأَنَّهُ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ: مَنْ هُوَ رَبُّكَ؟ أَوْ: مَا شَأْنُهُ؟ أَوْ: مَا فِعْلُهُ؟ فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾.

[٤٥٥] دَلَّ جَوَابُهُ هَذَا: عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾: الَّذِي يُنْشِئُ الْحَيَاةَ فِي جَمِيعِ الْعَوَالِمِ الْحَيَّةِ – مِنْ نَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ وَغَيْرِهَا –، وَيُزِيلُ الْحَيَاةَ بِالْمَوْتِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: قَوْلُهُ: ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾أَيِ: الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِهِ: حُدُوثُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُشَاهَدَةِ بَعْدَ عَدَمِهَا، وَعَدَمُهَا بَعْدَ وُجُودِهَا. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ ضَرُورَةً؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَحْدُثْ بِنَفْسِهَا فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُوجِدٍ أَوْجَدَهَا؛ وَهُوَ الرَّبُّ الَّذِي أَدْعُو إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

[٤٥٦] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ:** قَوْلُهُ: ﴿**فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾أَيْ: إِذَا كُنْتَ كَمَا تَدَّعِي مِنْ أَنَّكَ أَنْتَ الَّذِي تُحْيِي وَتُمِيتُ، فَالَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ هُوَ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِي الْوُجُودِ: فِي خَلْقِ ذَوَاتِهِ، وَتَسْخِيرِ كَوَاكِبِهِ وَحَرَكَاتِهِ، فَهَذِهِ الشَّمْسُ تَبْدُو كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الْمَشْرِقِ، فَإِنْ كُنْتَ إِلَهًا – كَمَا ادَّعَيْتَ – تُحْيِي وَتُمِيتُ؛ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ!!.

فَلَمَّا عَلِمَ عَجْزَهُ وَانْقِطَاعَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمُكَابَرَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ؛ بُهِتَ، أَيْ: أُخْرِسَ فَلَا يَتَكَلَّمُ، وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ.

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عُزَيْرٌ! وَقَالَ آخَرُونَ: هُو أورْمِيَا بْنُ حَلْقِيَّا!!.

وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – عَجَّبَ نَبِيَّهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِمَّنْ قَالَ – إِذْ رَأَى قَرْيَةً خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا –: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ ابْتَدَأَ خَلْقَهَا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، فَلَمْ يُقْنِعْهُ عِلْمُهُ بِقُدْرَتِهِ عَلَى ابْتِدَائِهَا، حَتَّى قَالَ: أَنَّى يُحْيِيهَا هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟ وَلَا بَيَانَ عِنْدَنَا – مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي يَصِحُّ مِنْ قِبَلِهِ الْبَيَانُ – عَلَى اسْمِ قَائِلِ ذَلِكَ!.

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عُزَيْرًا! وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ أورْمِيَا! وَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى مَعْرِفَةِ اسْمِهِ؛ إِذْ لَمْ يَكُنِ الْمَقْصُودُ بِالْآيَةِ تَعْرِيفَ الْخَلْقِ اسْمَ قَائِلِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ بِهَا:

تَعْرِيفُ الْمُنْكِرِينَ قُدْرَةَ اللهِ عَلَى إِحْيَائِهِ خَلْقه بَعْدَ مَمَاتِهِمْ! وَإِعَادَتِهِمْ بَعْدَ فَنَائِهِمْ! وَأَنَّهُ الَّذِي بِيَدِهِ الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ – مِنْ قُرَيْشٍ، وَمَنْ كَانَ يُكَذِّبُ بِذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ – وَتَثْبِيتُ الْحُجَّةِ بِذَلِكَ عَلَى مَنْ كَانَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ مُهَاجَرِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ يَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بِإِطْلَاعِهِ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَى مَا يُزِيلُ شَكَّهُمْ فِي نُبُوَّتِهِ، وَيَقْطَعُ عُذْرَهُمْ فِي رِسَالَتِهِ، إِذْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَنْبَاءُ الَّتِي أَوْحَاهَا إِلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي كِتَابِهِ، مِنَ الْأَنْبَاءِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهَا مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَقَوْمُهُ، وَلَمْ يَكُنْ عِلْمُ ذَلِكَ إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَلَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَقَوْمُهُ مِنْهُمْ، بَلْ كَانَ أُمِّيًّا وَقَوْمُهُ أُمِّيُّونَ، فَكَانَ مَعْلُومًا بِذَلِكَ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ – مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ ظَهْرَانَيْ مُهَاجَرِهِ، – أَنَّ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ إِلَّا بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ إِلَيْهِ.

وَلَوْ كَانَ الْمَقْصُودُ بِذَلِكَ الْخَبَرَ عَنِ اسْمِ قَائِلِ ذَلِكَ؛ لَكَانَتِ الدَّلَالَةُ مَنْصُوبَةً عَلَيْهِ نَصبًا يَقْطَعُ الْعُذْرَ وَيُزِيلُ الشَّكَّ! وَلَكِنَّ الْقَصْدَ كَانَ إِلَى ذَمِّ قِيلِهِ؛ فَأَبَانَ تَعَالَى ذِكْرُهُ ذَلِكَ لِخَلْقِهِ. [٤٥٧]

[٤٥٧] قُلْتُ: وَهَذَا الْكَلَامُ غَايَة فِي الرَّوْعَةِ وَالدِّقَّةِ وَالتَّحْقِيقِ!! فَرَحِمَكَ اللهُ يَا أَبَا جَعْفَرٍ وَغَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ وَجَزَاكَ بِأَحْسَنِ عَمَلِكَ. آمِينَ.

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الْقَرْيَةِ الَّتِي مَرَّ عَلَيْهَا الْقَائِلُ: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ!.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هِيَ الْقَرْيَةُ الَّتِي كَانَ اللهُ أَهْلَكَ فِيهَا الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ

وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ، كَالْقَوْلِ فِي اسْمِ الْقَائِلِ: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾سَوَاءً لَا يَخْتَلِفَانِ!.

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ وَهِيَ خَالِيَةٌ مِنْ أَهْلِهَا وَسُكَّانِهَا.

وَأَمَّا الْعُرُوشُ: فَإِنَّهَا الْأَبْنِيَةُ وَالْبُيُوتُ، وَاحِدُهَا: عَرْشٌ، وَجَمْعُ قَلِيلِهِ: أَعْرُشٌ، وَكُلُّ بِنَاءٍ؛ فَإِنَّهُ عَرْشٌ.

﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ وَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ قَائِلَهُ لَمَّا مَرَّ بِالْمَوْضِعِ – الَّذِي ذَكَرَ اللهُ أَنَّهُ مَرَّ بِهِ – خَرَابًا بَعْدَ مَا عَهِدَهُ عَامِرًا، قَالَ: أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ خَرَابِهَا؟

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ قِيلُهُ مَا قَالَ مِنْ ذَلِكَ شَكًّا فِي قُدْرَةِ اللهِ عَلَى إِحْيَائِهِ، فَأَرَاهُ اللهُ قُدْرَتَهُ عَلَى ذَلِكَ بِضَرْبِهِ الْمَثَلَ لَهُ فِي نَفْسِهِ، ثُمَّ أَرَاهُ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْكَرَ قُدْرَتَهُ عَلَى عِمَارَتِهِ وَإِحْيَائِهِ، أَحْيَا مَا رَآهُ قَبْلَ خَرَابِهِ، وَأَعْمَرَ مَا كَانَ قَبْلَ خَرَابِهِ!.

وَذَلِكَ أَنَّ قَائِلَ ذَلِكَ كَانَ – فِيمَا ذُكِرَ لَنَا – عَهْدُهُ عَامِرًا بِأَهْلِهِ وَسُكَّانِهِ، ثُمَّ رَآهُ خَاوِيًا عَلَى عُرُوشِهِ؛ قَدْ بَادَ أَهْلُهُ! وَشَتَّتَهُمُ الْقَتْلُ وَالسِّبَاءُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بِذَلِكَ الْمَكَانِ أَحَدٌ!! وَخُرِّبَتْ مَنَازِلُهُمْ وَدُورُهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْأَثَرُ!!.

فَلَمَّا رَآهُ كَذَلِكَ بَعْدَ الْحَالِ الَّتِي عَهِده عَلَيْهَا، قَالَ: عَلَى أَيِّ وَجْهٍ يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ خَرَابِهَا فَيَعْمُرُهَا، اسْتِنْكَارًا! – فِيمَا قَالَهُ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ –، فَأَرَاهُ كَيْفِيَّةَ إِحْيَائِهِ ذَلِكَ بِمَا ضَرَبَهُ لَهُ فِي نَفْسِهِ، وَفِيمَا كَانَ فِي إِدْوَاتِهِ وَفِي طَعَامِهِ، ثُمَّ عَرَّفَهُ قُدْرَتَهُ عَلَى ذَلِكَ – وَعَلَى غَيْرِهِ – بِإِظْهَارِهِ عَلَى إِحْيَائِهِ مَا كَانَ عَجَبًا عِنْدَهُ فِي قُدْرَةِ اللهِ إِحْيَاؤُهُ رَأْيَ عَيْنِهِ حَتَّى أَبْصَرَهُ بِبَصَرِهِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ، قَالَ: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾: ثُمَّ آثَارَهُ حَيًّا مِنْ بَعْدِ مَمَاتِهِ.

وَأَمَّا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ تَأْوِيلُهُ: قَالَ اللهُ لَهُ: كَمْ قَدْرُ الزَّمَانِ الَّذِي لَبِثْتَ مَيِّتًا قَبْلَ أَنْ أَبْعَثَكَ مِنْ مَمَاتِكَ حَيًّا؟ ﴿قَالَ﴾ الْمَبْعُوثُ بَعْدَ مَمَاتِهِ: ﴿لَبِثْتُ﴾ مَيِّتًا إِلَى أَنْ بَعَثْتَنِي حَيًّا ﴿يَوْمًا﴾ وَاحِدًا ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ لِأَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – كَانَ قَبَضَ رُوحَهُ أَوَّلَ النَّهَارِ، ثُمَّ رَدَّ رُوحَهُ آخِرَ النَّهَارِ بَعْدَ الْمِائَةِ عَامٍ.

﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بِمَعْنَى: بَلْ بَعْضَ يَوْمٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ بِمَعْنَى: بَلْ يَزِيدُونَ، فَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ رُجُوعًا مِنْهُ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا﴾.

﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ يَعْنِي: لَمْ تُغَيِّرْهُ السِّنُونَ الَّتِي أَتَتْ عَلَيْهِ.

﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ يَعْنِي: إِنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بَعَثَ قَائِلَ ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ مِنْ مَمَاتِهِ، ثُمَّ أَرَاهَ نَظِيرَ مَا اسْتَنْكَرَ مِنْ إِحْيَاءِ اللهِ الْقَرْيَةَ الَّتِي مَرَّ بِهَا بَعْدَ مَمَاتِهَا عِيَانًا مِنْ نَفْسِهِ وَطَعَامِهِ وَحِمَارِهِ. فَحَمَلَ تَعَالَى ذِكْرُهُ مَا أَرَاهُ مِنْ إِحْيَائِهِ نَفْسَهُ وَحِمَارَهُ مَثَلًا لِمَا اسْتَنْكَرَ مِنْ إِحْيَائِهِ أَهْلَ الْقَرْيَةِ الَّتِي مَرَّ بِهَا خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا، وَجَعَلَ مَا أَرَاهُ مِنَ الْعَبْرَةِ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، عِبْرَةً لَهُ وَحُجَّةً عَلَيْهِ فِي كَيْفِيَّةِ إِحْيَائِهِ مَنَازِلَ الْقَرْيَةِ وَجِنَانَهَا.

﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ يَعْنِي: أَمَتْنَاكَ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ.

وَإِنَّمَا عَنَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً﴾: وَلِنَجْعَلَكَ حُجَّةً عَلَى مَنْ جَهِلَ قُدْرَتِي، وَشَكَّ فِي عَظَمَتِي! وَأَنَا الْقَادِرُ عَلَى فِعْلِ مَا أَشَاءُ مِنْ إِمَاتَةٍ وَإِحْيَاءٍ، وَإِفْنَاءٍ وَإِنْشَاءٍ، وَإِنْعَامٍ وَإِذْلَالٍ، وَإِقْتَارٍ وَإِغْنَاءٍ، بِيَدِي ذَلِكَ كُلُّهُ! لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ دُونِي! وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرِي!!.

فَكَانَ ذَلِكَ حُجَّةً عَلَى مَنْ عَرَفَهُ مِنْ وَلَدِهِ وَقَوْمِهِ مِمَّنْ عَلِمَ مَوْتَهُ، وَإِحْيَاءَ اللهِ إِيَّاهُ بَعْدَ مَمَاتِهِ، وَعَلَى مَنْ بُعِثَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ.

﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ الْعِظَام الَّتِي أُمِرَ بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا: هِيَ عِظَامُ نَفْسِهِ وَحِمَارِهِ.

مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿كَيْفَ نُنْشِزُهَا[458]﴾: كَيْفَ نَرْفَعُهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا مِنَ الْأَرْضِ فَنَرُدُّهَا إِلَى أَمَاكِنِهَا مِنَ الْجَسَدِ.

﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾يَعْنِي: ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا﴾أَيِ الْعِظَامَ ﴿لَحْمًا﴾وَالْهَاءُ الَّتِي فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ مِنْ ذِكْرِ الْعِظَامِ، وَمَعْنَى نَكْسُوهَا: نُلْبِسُهَا وَنُوَارِيهَا بِهِ كَمَا يُوَارِي جَسَدَ الْإِنْسَانِ كِسْوَتُهُ الَّتِي يَلْبَسُهَا، وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ الْعَرَبُ، تَجْعَلُ كُلَّ شَيْءٍ غَطَّى شَيْئًا وَوَارَاهُ؛ لِبَاسًا لَهُ وَكِسْوَةً.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾يَعْنِي: فَلَمَّا اتَّضَحَ لَهُ عِيَانًا مَا كَانَ مُسْتَنْكَرًا مِنْ قُدْرَةِ اللهِ وَعَظَمَتِهِ عِنْدَهُ قَبْلَ عِيَانِهِ ذَلِكَ، ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ الْآنَ بَعْدَ الْمُعَايَنَةِ وَالْإِيضَاحِ وَالْبَيَانِ ﴿أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٢٦٠- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى[459]قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ يَعْنِي: أَلَمْ تَرَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ أَرِنِي.

---

[458] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَأَصْلُ النَّشْزِ: الِارْتِفَاعُ، وَمِنْهُ قِيلَ: قَدْ نَشَزَ الْغُلَامُ: إِذَا ارْتَفَعَ طُولُهُ وَشَبَّ، وَمِنْهُ نُشُوزُ الْمَرْأَةِ عَلَى زَوْجِهَا، وَمِنْ ذَلِكَ قِيلَ لِلْمَكَانِ الْمُرْتَفِعِ مِنَ الْأَرْضِ: نَشَزٌ وَنَشْزٌ وَنَشَازٌ، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنَّكَ رَفَعْتَهُ، قُلْتَ: أَنْشَزْتُهُ إِنْشَازًا، وَنَشَزَ هُوَ: إِذَا ارْتَفَعَ.

[459] قُلْتُ - أَبُو حَمْزَةَ -: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى**﴾السُّؤَالُ هُنَا عَنِ الْكَيْفِيَّةِ لَا عَنِ الْإِمْكَانِ؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ شَاكًّا فِي إِحْيَاءِ الْمَوْتَى قَطُّ، وَإِنَّمَا طَلَبَ الْمُعَايَنَةَ لِمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ مِنْ رُؤْيَةِ مَا أُخْبِرَتْ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ**»[صحيح الجامع(٥٣٧٣)]. فَأَرَادَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَعْلَمَ الْكَيْفِيَّةَ: كَيْفَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى بَعْدَ أَنْ أَمَاتَهُمْ، وَصَارُوا تُرَابًا وَعِظَامًا!.

وَأَمَّا مَا قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً - مِنْ أَنَّهُ سَأَلَ ذَلِكَ (لِأَنَّهُ شَكَّ فِي قُدْرَةِ اللهِ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى)! وَاسْتِدْلَالُهُ لِذَلِكَ بِمَا صَحَّ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ قَوْلِهِ: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ**»؛ فَمَرْدُودٌ؛ لِأَنَّ قَوْلَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ**» مَعْنَاهُ: أَنَّهُ لَوْ كَانَ شَاكًّا؛ لَكُنَّا نَحْنُ أَحَقُّ بِهِ، وَنَحْنُ لَا نَشُكُّ؛ فَإِبْرَاهِيمُ أَحْرَى أَنْ لَا يَشُكَّ!.

فَالْحَدِيثُ -كَمَا تَرَى - مَبْنِيٌّ عَلَى نَفْيِ الشَّكِّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، وَلَا يَحْتَمِلُ غَيْرَ ذَلِكَ!!.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي تَأْوِيلِ مُخْتَلَفِ الْحَدِيثِ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (أَنَا أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ): تَوَاضُعًا مِنْهُ، وَتَقْدِيمًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَى نَفْسِهِ، يُرِيدُ: أَنَّا لَمْ نَشُكَّ، وَنَحْنُ دُونَهُ، فَكَيْفَ يَشُكُّ هُوَ؟! اهـ.

وَقَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ: اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَى «**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ**» عَلَى أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ؛ أَحْسَنُهَا وَأَصَحُّهَا - مَا قَالَهُ الْإِمَامُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ الْمُزَنِيُّ صَاحِبُ الشَّافِعِيِّ وَجَمَاعَاتٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ - مَعْنَاهُ: أَنَّ الشَّكَّ مُسْتَحِيلٌ فِي حَقِّ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّ الشَّكَّ فِي إِحْيَاءِ الْمَوْتَى لَوْ كَانَ مُتَطَرِّقًا إِلَى الْأَنْبِيَاءِ؛ لَكُنْتُ أَنَا أَحَقُّ بِهِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي لَمْ أَشُكَّ، فَاعْلَمُوا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمْ يَشُكَّ.

وَإِنَّمَا خُصَّ إِبْرَاهِيمُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ لِكَوْنِ الْآيَةِ قَدْ يَسْبِقُ إِلَى بَعْضِ (الْأَذْهَانِ الْفَاسِدَةِ) مِنْهَا احْتِمَالُ الشَّكِّ! وَإِنَّمَا رَجَّحَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى نَفْسِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ تَوَاضُعًا وَأَدَبًا، أَوْ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ خَيْرُ وَلَدِ آدَمَ اهـ.

فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ[٤٦٠]﴾ يَقُولُ: أَوَلَمْ تُصَدِّقْ يَا إِبْرَاهِيمُ بِأَنِّي عَلَى ذَلِكَ قَادِرٌ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ! لَكِنْ سَأَلْتُكَ أَنْ تُرِيَنِي ذَلِكَ ﴿لِيَطْمَئِنَّ[٤٦١] قَلْبِي﴾ يَعْنِي: لِيَسْكُنَ وَيَهْدَأَ بِالْيَقِينِ الَّذِي يَسْتَيْقِنُهُ.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ[٤٦٢]﴾ يَعْنِي: قَالَ اللهُ لَهُ: فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ يَعْنِي: اضْمُمْهُنَّ إِلَيْكَ، وَوَجِّهْهُنَّ نَحْوَكَ، ثُمَّ قَطِّعْهُنَّ، ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾.

أَمَرَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنْ يَجْعَلَ الْأَطْيَارَ الْأَرْبَعَةَ أَجْزَاءً مُتَفَرِّقَةً عَلَى كُلِّ جَبَلٍ، لِيُرِيَ إِبْرَاهِيمَ قُدْرَتَهُ عَلَى جَمْعِ أَجْزَائِهِنَّ وَهُنَّ مُتَفَرِّقَاتٌ مُتَبَدِّدَاتٌ فِي أَمَاكِنَ مُخْتَلِفَةٍ شَتَّى، حَتَّى يُؤَلِّفَ بَعْضَهُنَّ إِلَى بَعْضٍ، فَيَعُدْنَ – كَهَيْئَتِهِنَّ قَبْلَ تَقْطِيعِهِنَّ وَتَمْزِيقِهِنَّ وَقَبْلَ تَفْرِيقِ أَجْزَائِهِنَّ عَلَى الْجِبَالِ – أَطْيَارًا أَحْيَاءً يَطِرْنَ، فَيَطْمَئِنَّ قَلْبُ إِبْرَاهِيمَ، وَيَعْلَمَ أَنَّ كَذَلِكَ جَمْعُ اللهِ أَوْصَالَ الْمَوْتَى لِبَعْثِ الْقِيَامَةِ، وَتَأْلِيفُهُ أَجْزَاءَهُمْ بَعْدَ الْبِلَى وَرَدَّ كُلِّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِمْ إِلَى مَوْضِعِهِ كَالَّذِي كَانَ قَبْلَ الرَّدَى!.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ فَإِنَّ مَعْنَاهُ: هُوَ أَنَّهُ أُمِرَ أَنْ يَقُولَ لِأَجْزَاءِ الْأَطْيَارِ بَعْدَ تَفْرِيقِهِنَّ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ: تَعَالَيْنَ بِإِذْنِ اللهِ.

﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ﴾ يَعْنِي: وَاعْلَمْ – يَا إِبْرَاهِيمُ – أَنَّ الَّذِيَ أَحْيَا هَذِهِ الْأَطْيَارَ بَعْدَ تَمْزِيقِكَ إِيَّاهُنَّ، وَتَفْرِيقِكَ أَجْزَاءَهُنَّ عَلَى الْجِبَالِ، فَجَمَعَهُنَّ وَرَدَّ إِلَيْهِنَّ الرُّوحَ، حَتَّى أَعَادَهُنَّ كَهَيْئَتِهِنَّ قَبْلَ تَفْرِيقِكَهُنَّ، ﴿عَزِيزٌ﴾ فِي بَطْشِهِ إِذَا بَطَشَ بِمَنْ بَطَشَ مِنَ الْجَبَابِرَةِ وَالْمُتَكَبِّرَةِ! الَّذِينَ خَالَفُوا أَمْرَهُ، وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَعَبَدُوا غَيْرَهُ! وَفِي نِقْمَتِهِ حَتَّى يَنْتَقِمَ مِنْهُمْ، ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَمْرِهِ.

---

[٤٦٠] **قَالَ أَبُو حَيَّانَ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ**: قَوْلُهُ: ﴿**قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ**﴾ الضَّمِيرُ فِي (قَالَ)، عَائِدٌ عَلَى الرَّبِّ، وَالْهَمْزَةُ لِلتَّقْرِيرِ، كَقَوْلِهِ: أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا؟ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾ الْمَعْنَى: أَنْتُمْ خَيْرٌ، وَقَدْ شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ، وَكَذَلِكَ هَذَا: مَعْنَاهُ: قَدْ آمَنْتُ بِالْإِحْيَاءِ.

[٤٦١] **قَالَ أَبُو حَيَّانَ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ**: اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿**لِيَطْمَئِنَّ**﴾ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ بَعْدَ لَكِنْ، التَّقْدِيرُ: وَلَكِنْ سَأَلْتُ مُشَاهَدَةَ الْكَيْفِيَّةِ لِإِحْيَاءِ الْمَوْتَى ؛ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي، فَيَقْتَضِي تَقْدِيرُ هَذَا الْمَحْذُوفِ تَقْدِيرَ مَحْذُوفٍ آخَرَ قَبْلَ لَكِنْ حَتَّى يَصِحَّ الِاسْتِدْرَاكُ، التَّقْدِيرُ: قَالَ: بَلَى، أَيْ: آمَنْتُ، وَمَا سَأَلْتُ عَنْ غَيْرِ إِيمَانٍ، وَلَكِنْ سَأَلْتُ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي!.

[٤٦٢] **قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ**: اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ مَا هِيَ؟ وَإِنْ كَانَ لَا طَائِلَ تَحْتَ تَعْيِينِهَا! إِذْ لَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ مُهِمٌّ؛ لَنَصَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ.

٢٦١- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾يَعْنِي: مَثَلَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي جِهَادِ أَعْدَاءِ اللهِ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾مِنْ حَبَّاتِ الْحِنْطَةِ أَوِ الشَّعِيرِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ الَّتِي تُسَنْبِلُ رَيْعَهَا سُنْبُلَة بَذَرَهَا زَارِعٌ، فَـ﴿أَنْبَتَتْ﴾يَعْنِي: فَأَخْرَجَتْ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ[٤٦٣]﴾ يَقُولُ: فَكَذَلِكَ الْمُنْفِقُ مَالَهُ عَلَى نَفْسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، لَهُ أَجْرُهُ سَبْعُمِائَةِ ضِعْفٍ عَلَى الْوَاحِدِ مِنْ نَفَقَتِهِ.[٤٦٤]

﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾يَعْنِي: وَاللهُ يُضَاعِفُ عَلَى السَّبْعِمِائَةِ إِلَى مَا يَشَاءُ مِنَ التَّضْعِيفِ، لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ الْمُنْفِقِينَ فِي سَبِيلِهِ.

﴿وَاللهُ وَاسِعٌ﴾يَعْنِي: وَاللهُ وَاسِعٌ أَنْ يَزِيدَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ الْمُنْفِقِينَ فِي سَبِيلِهِ عَلَى أَضْعَافِ السَّبْعِمِائَةِ الَّتِي وَعدَهُ أَنْ يَزِيدَهُ، ﴿عَلِيمٌ﴾ مَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهُمُ الزِّيَادَةَ.

٢٦٢- ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا[٤٦٥]وَلَا أَذًى﴾يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: الَّذِينَ يُعِينُونَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ وَفِي حُمُولَاتِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مُؤَنِهِمْ، ثُمَّ لَمْ يُتْبِعْ نَفَقَتَهُ الَّتِي أَنْفَقَهَا عَلَيْهِمْ مَنًّا عَلَيْهِمْ بِإِنْفَاقِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَلَا أَذًى لَهُمْ.

فَامْتِنَانُهُ بِهِ عَلَيْهِمْ: بِأَنْ يُظْهِرَ لَهُمْ أَنَّهُ قَدِ اصْطَنَعَ إِلَيْهِمْ - بِفِعْلِهِ وَعَطَائِهِ الَّذِي أَعْطَاهُمُوهُ تَقْوِيَةً لَهُمْ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ - مَعْرُوفًا، وَيُبْدِي ذَلِكَ إِمَّا بِلِسَانٍ أَوْ فِعْلٍ!.

---

[٤٦٣] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي إِعْلَامِ الْمُوَقِّعِينَ:** شَبَّهَ سُبْحَانَهُ نَفَقَةَ الْمُنْفِقِ فِي سَبِيلِهِ - سَوَاءٌ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الْجِهَادُ، أَوْ جَمِيعُ سُبُلِ الْخَيْرِ مِنْ كُلِّ بِرٍّ - بِمَنْ بَذَرَ بِذْرًا فَأَنْبَتَتْ كُلُّ حَبَّةٍ مِنْهُ سَبْعَ سَنَابِلَ، اشْتَمَلَتْ كُلُّ سُنْبُلَةٍ عَلَى مِائَةِ حَبَّةٍ، وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ فَوْقَ ذَلِكَ، بِحَسَبِ حَالِ الْمُنْفِقِ وَإِيمَانِهِ وَإِخْلَاصِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَنَفْعِ نَفَقَتِهِ وَقَدْرِهَا وَوُقُوعِهَا مَوْقِعِهَا؛ فَإِنَّ ثَوَابَ الْإِنْفَاقِ يَتَفَاوَتُ بِحَسَبِ مَا يَقُومُ بِالْقَلْبِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِخْلَاصِ، وَالتَّثْبِيتِ عِنْدَ النَّفَقَةِ؛ وَهُوَ إِخْرَاجُ الْمَالِ بِقَلْبٍ ثَابِتٍ قَدِ انْشَرَحَ صَدْرُهُ بِإِخْرَاجِهِ، وَسَمَحَتْ بِهِ نَفْسهُ، وَخَرَجَ مِنْ قَلْبِهِ قَبْلَ خُرُوجِهِ مِنْ يَدِهِ! فَهُوَ ثَابِتُ الْقَلْبِ عِنْدَ إِخْرَاجِهِ، غَيْر جَزِع وَلَا هَلِع، وَلَا مُتْبِعه نَفْسه تَرْجُف يَدهُ وَفُؤَاده!!.

[٤٦٤] عَنْ خُرَيْمِ بْنِ فَاتِكٍ الْأَسَدِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قَالَ: «**مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللهِ؛ كُتِبَتْ لَهُ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ**» [صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٢٦٠٤)، وصحيح الجامع(٦١١٠)؛ وغيرهما].

وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، والنسائي؛ وغيرهم]. الْخِطَامُ: هُوَ الْحَبْلُ الَّذِي يُقَادُ بِهِ الْبَعِيرُ[النهاية في غريب الحديث والأثر].

قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ: قِيلَ: يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ: لَهُ أَجْرُ سَبْعِمِائَةِ نَاقَةٍ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَيَكُونَ لَهُ فِي الْجَنَّةِ بِهَا سَبْعُمِائَةٍ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ مَخْطُومَةٌ، يَرْكَبُهُنَّ حَيْثُ شَاءَ لِلتَّنَزُّهِ، كَمَا جَاءَ فِي خَيْلِ الْجَنَّةِ وَنُجُبِهَا؛ وَهَذَا الِاحْتِمَالُ أَظْهَرُ، وَاللهُ أَعْلَمُ اهـ.

[٤٦٥] اعْلَمْ - وَفَّقَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ - أَنَّ الْمَنَّ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ! فعن أَبِي ذَرٍّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى - [الَّذِي لَا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مَنَّهُ!] -، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد - وما بين المعقوفين لهما -، وأبو داود، والترمذي، والنسائي؛ وغيرهم].

وَأَمَّا الْأَذَى: فَهُوَ شِكَايَتُهُ إِيَّاهُمْ بِسَبَبِ مَا أَعْطَاهُمْ وَقَوَّاهُمْ مِنَ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَنَّهُمْ لَمْ يَقُومُوا بِالْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ فِي الْجِهَادِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي يُؤْذِي بِهِ مَنْ أَنْفَقَ عَلَيْهِ!.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾يَعْنِي: لَهُمْ ثَوَابُهُمْ وَجَزَاؤُهُمْ عَلَى نَفَقَتِهِمُ الَّتِي أَنْفَقُوهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَهَا مَنًّا وَلَا أَذًى.

﴿وَ﴾هُمْ مَعَ مَا لَهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ عَلَى نَفَقَتِهِمُ الَّتِي أَنْفَقُوهَا – عَلَى مَا شَرَطْنَا –، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ عِنْدَ مَقْدِمِهِمْ عَلَى اللهِ وَفِرَاقِهِمُ الدُّنْيَا، وَلَا فِي أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ، وَأَنْ يَنَالَهُمْ مِنْ مَكَارِهِهَا أَوْ يُصِيبَهُمْ فِيهَا مِنْ عِقَابِ اللهِ! ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى مَا خَلَّفُوا وَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

٢٦٣– ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾يَعْنِي: قَوْلٌ جَمِيلٌ، وَدُعَاءُ الرَّجُلِ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾يَعْنِي: وَسَتْرٌ مِنْهُ عَلَيْهِ لِمَا عَلِمَ مِنْ خَلَّتِهِ[٤٦٦]وَسُوءِ حَالَتِهِ؛ خَيْرٌ عِنْدَ اللهِ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَصَدَّقُهَا عَلَيْهِ يُتْبِعُهَا أَذًى، يَعْنِي: يَشْتَكِيهِ عَلَيْهَا وَيُؤْذِيهِ بِسَبَبِهَا.

﴿وَاللهُ غَنِيٌّ﴾ عَمَّا يَتَصَدَّقُونَ بِهِ، ﴿حَلِيمٌ﴾ حِينَ لَا يُعَجِّلُ بِالْعُقُوبَةِ عَلَى مَنْ يَمُنُّ بِصَدَقَتِهِ مِنْكُمْ، وَيُؤْذِي فِيهَا مَنْ يَتَصَدَّقُ بِهَا عَلَيْهِ.

٢٦٤– ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾يَعْنِي: صَدّقُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾يَقُولُ: لَا تُبْطِلُوا أُجُورَ صَدَقَاتِكُمْ ﴿بِالْمَنِّ وَالْأَذَى[٤٦٧] كَـ﴾مَا أَبْطَلَ كُفْرُ ﴿الَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ – وَهُوَ مُرَاءَاتُهُ إِيَّاهُمْ بِعَمَلِهِ

---

[٤٦٦] (**الْخَلَّةُ**) – بِالْفَتْحِ –: الْفَقْرُ وَالْحَاجَةُ [المصباح المنير، مادة(خ ل ل)].

[٤٦٧] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي طَرِيقِ الْهِجْرَتَيْنِ**: تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْإِخْبَارَ بِأَنَّ الْمَنَّ وَالْأَذَى يُحْبِطُ الصَّدَقَةَ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْحَسَنَةَ قَدْ تُحْبَطُ بِالسَّيِّئَةِ! اهـ. فَلَيْسَ الشَّأْنُ الْإِتْيَانَ بِالطَّاعَةِ، إِنَّمَا الشَّأْنُ فِي حِفْظِهَا مِمَّا يُبْطِلُهَا!! [قاله ابن القيم في(عدة الصابرين)].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي الْمُفْهِمْ: وَالْمَنَّانُ : فَعَّالٌ مِنَ الْمَنِّ، وَقَدْ فَسَّرَهُ فِي الْحَدِيثِ، فَقَالَ: هُوَ الَّذِي لَا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مَنَّهُ، أَيْ: إِلَّا امْتَنَّ بِهِ عَلَى الْمُعْطَى لَهُ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الِامْتِنَانَ بِالْعَطَاءِ مُبْطِلٌ لِأَجْرِ الصَّدَقَةِ وَالْعَطَاءِ، مُؤْذٍ لِلْمُعْطَى؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿**لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى**﴾.

وَإِنَّمَا كَانَ الْمَنُّ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ غَالِبًا إِلَّا عَنِ الْبُخْلِ، وَالْعُجْبِ، وَالْكِبْرِ، وَنِسْيَانِ مِنَّةِ اللهِ – تَعَالَى – فِيمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ.

فَالبخيلُ: يُعَظِّمُ فِي نَفْسِهِ الْعَطِيَّةَ – وَإِنْ كَانَتْ حَقِيرَةً فِي نَفْسِهَا! –، **وَالْعُجْبُ**: يَحْمِلُهُ عَلَى النَّظَرِ لِنَفْسِهِ بِعَيْنِ الْعَظَمَةِ، وَأَنَّهُ مُنْعِمٌ بِمَالِهِ عَلَى الْمُعْطَى لَهُ ، وَمُتَفَضِّلٌ عَلَيْهِ، وَأَنَّ لَهُ عَلَيْهِ حَقًّا تَجِبُ عَلَيْهِ مُرَاعَاتُهُ!! **وَالْكِبْرُ**: يَحْمِلُهُ عَلَى أَنْ يَحْتَقِرَ الْمُعْطَى لَهُ – وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ فَاضِلًا –.

وَمُوجِبُ ذَلِكَ كُلِّهِ: الْجَهْلُ، ونِسْيانُ مِنَّةِ اللهِ – تَعَالَى – فِيمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ؛ إِذْ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِمَا يُعْطِي وَلَمْ يَحْرِمْهُ ذَلِكَ، وَجَعَلَهُ مِمَّنْ يُعْطِي، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِمَّنْ يَسْأَلُ! وَلَوْ نَظَرَ بِبَصَرِهِ؛ لَعَلِمَ أَنَّ الْمِنَّةَ لِلْآخِذِ؛ لِمَا يُزِيلُ عَنِ الْمُعْطِي مِنْ إِثْمِ الْمَنْعِ وَذَمِّ الْمَانِعِ، وَمِنَ الذُّنُوبِ، وَلِمَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ الْجَزِيلِ وَالثَّنَاءِ الْجَمِيلِ اهـ [فَائِدَةٌ: الْقُرْطُبِيُّ صَاحِبُ (الْمُفْهِمِ)، هُوَ شَيْخُ الْقُرْطُبِيِّ الْمُفَسِّرِ].

–، وَذَلِكَ أَنْ يُنْفِقَ مَالَهُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ فِي الظَّاهِرِ أَنَّهُ يُرِيدُ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – فَيَحْمَدُونَهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ غَيْرُ مُرِيدٍ بِهِ اللهِ وَلَا طَالِب مِنْهُ الثَّوَابَ!![٤٦٨] وَإِنَّمَا يُنْفِقُهُ – كَذَلِكَ ظَاهِرًا –؛ لِيَحْمَدَهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؛ فَيَقُولُوا: هُوَ سَخِيٌّ كَرِيمٌ! وَهُوَ رَجُلٌ صَالِحٌ!! فَيُحْسِنُوا عَلَيْهِ بِهِ الثَّنَاءَ، وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَا هُوَ مُسْتَبْطِنٌ مِنَ النِّيَّةِ فِي إِنْفَاقِهِ مَا أَنْفَقَ!! فَلَا يَدْرُونَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ التَّكْذِيبِ بِاللهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – وَالْيَوْمِ الْآخِرِ!!.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾فَإِنَّ مَعْنَاهُ: وَلَا يُصَدِّقُ بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَلَا بِأَنَّهُ مَبْعُوثٌ بَعْدَ مَمَاتِهِ فَمُجَازًى عَلَى عَمَلِهِ، فَيَجْعَلُ عَمَلَهُ لِوَجْهِ اللهِ وَطَلَبِ ثَوَابِهِ وَمَا عِنْدَهُ فِي مَعَادِهِ.

وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُنَافِقِ؛ وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّهُ مُنَافِقٌ؛ لِأَنَّ الْمُظْهِرَ كُفْرَهُ وْالْمُعْلِنَ شِرْكَهُ، مَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَكُونُ بِشَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِهِ مُرَائِيًا؛ لِأَنَّ الْمَرَائِيَّ هُوَ الَّذِي يُرَائِي النَّاسَ بِالْعَمَلِ الَّذِي هُوَ فِي الظَّاهِرِ لِلَّهِ، وَفِي الْبَاطِنِ مُرِيبة سَرِيرَةُ[٤٦٩]عَامِله، مُرَادُهُ بِهِ حَمْدُ النَّاسِ عَلَيْهِ. وَالْكَافِرُ لَا يُخِيلُ عَلَى أَحَدٍ أَمْرُهُ أَنَّ أَفْعَالَهُ كُلَّهَا إِنَّمَا هِيَ لِلشَّيْطَانِ – إِذَا كَانَ مُعْلِنًا كُفْرَهُ – لَا لِلَّهِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ؛ فَغَيْرُ كَائِنٍ مُرَائِيًا بِأَعْمَالِهِ!.

﴿فَمَثَلُهُ﴾يَعْنِي: فَمَثَلُ هَذَا الَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ، وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وَالصَّفْوَانُ: هُوَ الصَّفَا؛ وَهِيَ الْحِجَارَةُ الْمُلْسُ ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾يَعْنِي: عَلَى الصَّفْوَانِ تُرَابٌ ﴿فَأَصَابَهُ﴾ يَعْنِي: أَصَابَ الصَّفْوَانَ ﴿وَابِلٌ﴾؛ وَهُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ الْعَظِيمُ، ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾يَقُولُ: فَتَرَكَ الْوَابِلُ الصَّفْوَانَ صَلْدًا؛ وَالصَّلْدُ مِنَ الْحِجَارَةِ: الصُّلْبُ الَّذِي لَا شَيْءَ عَلَيْهِ مِنْ نَبَاتٍ وَلَا غَيْرِهِ، وَهُوَ مِنَ الْأَرَضِينَ: مَا لَا يَنْبُتُ فِيهِ شَيْءٌ.

ثُمَّ رَجَعَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – إِلَى ذِكْرِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ ضَرَبَ الْمَثَلَ لِأَعْمَالِهِمْ، فَقَالَ: فَكَذَلِكَ أَعْمَالُهُمْ بِمَنْزِلَةِ الصَّفْوَانِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ، فَأَصَابَهُ الْوَابِلُ مِنَ الْمَطَرِ، فَذَهَبَ بِمَا عَلَيْهِ مِنَ التُّرَابِ، فَتَرَكَهُ نَقِيًّا لَا تُرَابَ عَلَيْهِ وَلَا شَيْءَ، يَرَاهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي الظَّاهِرِ أَنَّ لَهُمْ أَعْمَالًا – كَمَا يُرَى التُّرَابُ عَلَى هَذَا

[٤٦٨] قارن بطبعة محمود محمد شاكر.

[٤٦٩] قارن بطبعة محمود محمد شاكر.

الصَّفْوَانِ – بِمَا يُرَاؤُونَهُمْ بِهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَصَارُوا إِلَى اللهِ؛ اضْمَحَلَّ ذَلِكَ كُلُّهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ، كَمَا ذَهَبَ الْوَابِلُ مِنَ الْمَطَرِ بِمَا كَانَ عَلَى الصَّفْوَانِ مِنَ التُّرَابِ، فَتَرَكَهُ أَمْلَسَ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ!.

فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يَعْنِي بِهِ: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، يَقُولُ: لَا يَقْدِرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ثَوَابِ شَيْءٍ ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا لِمَعَادِهِمْ، وَلَا لِطَلَبِ مَا عِنْدَ اللهِ فِي الْآخِرَةِ! وَلَكِنَّهُمْ عَمِلُوهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَطَلَبَ حَمْدِهِمْ!! وَإِنَّمَا حَظُّهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، مَا أَرَادُوهُ وَطَلَبُوهُ بِهَا!.

﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ يَقُولُ: لَا يُسَدِّدُهُمْ لِإِصَابَةِ الْحَقِّ فِي نَفَقَاتِهِمْ وَغَيْرِهَا، فَيُوَفِّقُهُمْ لَهَا، وَهُمْ لِلْبَاطِلِ عَلَيْهَا مُؤْثِرُونَ، وَلَكِنَّهُ تَرَكَهُمْ فِي ضَلَالَتِهِمْ يَعْمَهُونَ!!.

فَقَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ: لَا تَكُونُوا كَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ هَذَا الْمَثَلُ صِفَةُ أَعْمَالِهِمْ، فَتُبْطِلُوا أُجُورَ صَدَقَاتِكُمْ بِمَنِّكُمْ عَلَى مَنْ تَصَدَّقْتُمْ بِهَا عَلَيْهِ وَأَذَاكُمْ لَهُمْ، كَمَا أَبْطَلَ أَجْرَ نَفَقَةِ الْمُنَافِقِ الَّذِي أَنْفَقَ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ، وَهُوَ غَيْرُ مُؤْمِنٍ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، عِنْدَ اللهِ.

٢٦٥– ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ[٤٧٠]﴾ يَعْنِي: وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فَيَصَّدَّقُونَ بِهَا، وَيَحْمِلُونَ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَيُقَوُّونَ بِهَا أَهْلَ الْحَاجَةِ مِنَ الْغُزَاةِ وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ طَاعَاتِ اللهِ، طَلَبَ مَرْضَاتِهِ، ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يَعْنِي: وَتَثْبِيتًا لَهُمْ عَلَى إِنْفَاقِ ذَلِكَ فِي طَاعَةِ اللهِ وَتَحْقِيقًا.[٤٧١]

وَإِنَّمَا عَنَى اللهُ – جَلَّ وَعَزَّ – بِذَلِكَ: أَنَّ أَنْفُسَهُمْ كَانَتْ مُوقِنَةً مُصَدِّقَةً بِوَعْدِ اللهِ إِيَّاهَا فِيمَا أَنْفَقَتْ فِي طَاعَتِهِ بِغَيْرِ مَنٍّ وَلَا أَذًى، فَثَبَّتَتْهُمْ فِي إِنْفَاقِ أَمْوَالِهِمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ، وَصَحَّحَتْ عَزْمَهُمْ وَآرَاءَهُمْ يَقِينًا مِنْهَا بِذَلِكَ، وَتَصْدِيقًا بِوَعْدِ اللهِ إِيَّاهَا مَا وَعَدَهَا.

---

[٤٧٠] **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي طَرِيقِ الْهِجْرَتَيْنِ**: هَذَا مَثَلُ الَّذِى مَصْدَرُ نَفَقَتِهِ عَلَى الْإِخْلَاصِ وَالصِّدْقِ، فَإِنَّ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ سُبْحَانَهُ هُوَ الْإِخْلَاصُ، وَالتَّثْبِيت مِنَ النَّفْسِ هُوَ الصِّدْقُ فِي الْبَذْلِ، فَإِنَّ الْمُنْفِقَ يَعْتَرِضُهُ عِنْدَ إِنْفَاقِهِ آفتَانِ، إِنْ نَجَا مِنْهُمَا؛ كَانَ مَثَلُهُ مَا ذَكَرَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، إِحْدَاهُمَا: طَلَبُهُ بِنَفَقَتِهِ مَحْمَدَةً أَوْ ثَنَاءً أَوْ غَرَضًا مِنْ أَغْرَاضِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ(!) وَهَذَا حَالُ أَكْثَرِ الْمُنْفِقِينَ!! وَالْآفَةُ الثَّانِيَةُ: ضَعْفُ نَفْسِهِ بِالْبَذْلِ وَتَقَاعُسها وَتَرَدُّدهَا: هَلْ يَفْعَلُ، أَمْ لَا!؟ فَالْآفَةُ الْأُولَى تَزُولُ بِابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللهِ، وَالْآفَةُ الثَّانِيَةُ تَزُولُ بِالتَّثْبِيتِ، فَإِنَّ تَثْبِيتَ النَّفْسِ: تَشْجِيعُهَا وَتَقْوِيَتُهَا وَالْإِقْدَامُ بِهَا عَلَى الْبَذْلِ؛ وَهَذَا هُوَ صِدْقُهَا، وَطَلَبُ مَرْضَاةِ اللهِ: إِرَادَةُ وَجْهِهِ وَحْدَهُ؛ وَهَذَا إِخْلَاصُهَا.

[٤٧١] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: ثَبَّتُّ فُلَانًا فِي هَذَا الْأَمْرِ: إِذْ صَحَّحْتُ عَزْمَهُ وَحَقَّقْتُهُ وَقَوَّيْتُ فِيهِ رَأْيَهُ أَثْبَتُّهُ تَثْبِيتًا اهـ.

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾وَالْجَنَّةُ: الْبُسْتَانُ، ﴿بِرَبْوَةٍ﴾وَالرَّبْوَة مِنَ الْأَرْضِ: مَا نَشَزَ مِنْهَا فَارْتَفَعَ عَنِ السَّيْلِ.

﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾يَعْنِي: أَصَابَ الْجَنَّةَ الَّتِي بِالرَّبْوَةِ مِنَ الْأَرْضِ، وَابِلٌ مِنَ الْمَطَرِ؛ وَهُوَ الشَّدِيدُ الْعَظِيمُ الْقَطْرِ مِنْهُ، ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي الْجَنَّةَ: أَنَّهَا أُضْعِفَ ثَمَرُهَا ضِعْفَيْنِ حِينَ أَصَابَهَا الْوَابِلُ مِنَ الْمَطَرِ، وَالْأُكُلُ: هُوَ الشَّيْءُ الْمَأْكُولُ.

﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾الطَّلّ: هُوَ النَّدَى وَاللَّيِّنُ مِنَ الْمَطَرِ.

وَإِنَّمَا يَعْنِي – تَعَالَى ذِكْرُهُ – بِهَذَا الْمَثَلِ: كَمَا ضُعِّفَتْ ثَمَرَةُ هَذِهِ الْجَنَّةِ الَّتِي وُصِفَتْ صِفَتُهَا حِينَ جَادَ الْوَابِلُ، فَإِنْ أَخْطَأَ هَذَا الْوَابِلُ، فَالطَّلُّ كَذَلِكَ، يُضَعِّفُ اللهُ صَدَقَةَ الْمُتَصَدِّقِ وَالْمُنْفِقِ مَالِهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ نَفْسِهِ، مِنْ غَيْرِ مَنٍّ وَلَا أَذًى، قَلَّتْ نَفَقَتُهُ أَوْ كَثُرَتْ لَا تَخِيبُ وَلَا تُخْلِفُ نَفَقَتُهُ، كَمَا تُضَعَّفُ الْجَنَّةُ الَّتِي وَصَفَ – جَلَّ ثناؤُهُ – صِفَتَهَا، قَلَّ مَا أَصَابَهَا مِنَ الْمَطَرِ أَوْ كَثُرَ، لَا يُخْلِفُ خَيْرُهَا بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ – أَيُّهَا النَّاسُ – فِي نَفَقَاتِكُمُ الَّتِي تُنْفِقُونَهَا﴿بَصِيرٌ﴾لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهَا – وَلَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا – شَيْءٌ، يَعْلَمُ مَنِ الْمُنْفِقُ مِنْكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى، وَالْمُنَفِّقُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ نَفْسِهِ، فَيُحْصِي عَلَيْكُمْ حَتَّى يُجَازِيَ جَمِيعَكُمْ جَزَاءَهُ عَلَى عَمَلِهِ: إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ!.

وَإِنَّمَا يَعْنِي بِهَذَا الْقَوْلِ – جَلَّ ذِكْرُهُ –: التَّحْذِيرَ مِنْ عِقَابِهِ فِي النَّفَقَاتِ الَّتِي يُنْفِقُهَا عِبَادُهُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ مَا قَدْ تَقَدَّمَ فِيهِ بِالنَّهْيِ عَنْهُ، أَوْ يُفَرِّطَ فِيمَا قَدْ أُمِرَ بِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ بِمَرْأًى مِنَ اللهِ وَمَسْمَعٍ، يَعْلَمُهُ وَيُحْصِيهُ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ لِخَلْقِهِ بِالْمِرْصَادِ.

٢٦٦– ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾يَعْنِي: أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ ﴿أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾يَعْنِي: بُسْتَانًا ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾يَعْنِي: مِنْ تَحْتِ الْجَنَّةِ وَ﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ﴾يَعْنِي: وَأَصَابَ أَحَدَكُمُ﴿الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾وَإِنَّمَا جَعَلَ جَلَّ ثناؤُهُ الْبُسْتَانَ مِنَ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ – الَّذِي قَالَ

– جَلَّ ثناؤُهُ – لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ: أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ – مَثَلًا لِنَفَقَةِ الْمُنَافِقِ الَّتِي يُنْفِقُهَا رِيَاءَ النَّاسِ، لَا ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ – فَالنَّاسُ بِمَا يَظْهَرُ لَهُمْ مِنْ صَدَقَتِهِ، وَإِعْطَائِهِ لِمَا يُعْطَى وَعَمَلِهِ الظَّاهِرِ –، يُثْنُونَ عَلَيْهِ وَيَحْمَدُونَهُ بِعَمَلِهِ ذَلِكَ أَيَّامَ حَيَاتِهِ – فِي حُسْنِهِ كَحُسْنِ الْبُسْتَانِ وَهِيَ الْجَنَّةُ – الَّتِي ضَرَبَهَا اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – لِعَمَلِهِ مَثَلًا – مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ؛ لِأَنَّ عَمَلَهُ ذَلِكَ الَّذِي يَعْمَلُهُ فِي الظَّاهِرِ فِي الدُّنْيَا، لَهُ فِيهِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ مِنْ عَاجِلِ الدُّنْيَا، يَدْفَعُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَدَمِهِ وَمَالِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، وَيَكْتَسِبُ بِهِ الْمَحْمَدَةَ وَحُسْنَ الثَّنَاءِ عِنْدَ النَّاسِ، وَيَأْخُذُ بِهِ سَهْمَهُ مِنَ الْمَغْنَمِ مَعَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ يَكْثُرُ إِحْصَاؤُهَا، فَلَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا، كَمَا وَصَفَ – جَلَّ ثناؤُهُ – الْجَنَّةَ – الَّتِي وَصَفَ مَثَلًا لِعَمَلِهِ – بِأَنَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، ثُمَّ قَالَ جَلَّ ثناؤُهُ:

﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾يَعْنِي: أَنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ أَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ صِغَارٌ أَطْفَالٌ، ﴿فَأَصَابَهَا﴾يَعْنِي: فَأَصَابَ الْجَنَّةَ﴿إِعْصَارٌ[٤٧٢] فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾يَعْنِي: أَنَّ جَنَّتَهُ تِلْكَ أَحْرَقَتْهَا الرِّيحُ الَّتِي فِيهَا النَّارُ، فِي حَالِ حَاجَتِهِ إِلَيْهَا، وَضَرُورَتِهِ إِلَى ثَمَرَتِهَا بِكِبَرِهِ، وَضَعْفِهِ عَنْ عِمَارَتِهَا، وَفِي حَالِ صِغَرِ وَلَدِهِ وَعَجْزِهِ عَنْ إِحْيَائِهَا وَالْقِيَامِ عَلَيْهَا، فَبَقِيَ لَا شَيْءَ لَهُ، أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَى جَنَّتِهِ وَثِمَارِهَا بِالْآفَةِ الَّتِي أَصَابَتْهَا مِنَ الْإِعْصَارِ الَّذِي فِيهِ النَّارُ.

يَقُولُ: فَكَذَلِكَ الْمُنْفِقُ مَالَهُ رِيَاءَ النَّاسِ، أَطْفَأَ اللهُ نُورَهُ، وَأَذْهَبَ بَهَاءَ عَمَلِهِ، وَأَحْبَطَ أَجْرَهُ حَتَّى لَقِيَهُ، وَعَادَ إِلَيْهِ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَى عَمَلِهِ، حِينَ لَا مُسْتَعْتَبَ لَهُ وَلَا إِقَالَةَ مِنْ ذُنُوبِهِ وَلَا تَوْبَةَ، وَاضْمَحَلَّ عَمَلُهُ كَمَا احْتَرَقَتِ الْجَنَّةُ الَّتِي وَصَفَ جَلَّ ثناؤُهُ صِفَتَهَا عِنْدَ كِبَرِ صَاحِبِهَا وَطُفُولَةِ ذُرِّيَّتِهِ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهَا فَبَطَلَتْ مَنَافِعُهَا عَنْهُ!!.

وَهَذَا الْمَثَلُ الَّذِي ضَرَبَهُ اللهُ لِلْمُنْفِقِينَ أَمْوَالَهُمْ رِيَاءَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ نَظِيرُ الْمَثَلِ الْآخَرِ الَّذِي ضَرَبَهُ لَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾.

---

[٤٧٢] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: الْإِعْصَارُ: الرِّيحُ الْعَاصِفُ، تَهُبُّ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ كَأَنَّهَا عَمُودٌ، تُجْمَعُ أَعَاصِيرَ اهـ.

قَالَ الزَّجَاجُ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابِهِ: الْإِعْصَارُ: الرِّيحُ الَّتِي تَهُبُّ مِنَ الْأَرْضِ كَالْعَمُودِ إِلَى نَحْوِ السَّمَاءِ، وَهِيَ الَّتِي تُسَمِّيهَا النَّاسُ: (الزَّوْبَعَةُ)، وَهِيَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، لَا يُقَالُ إِنَّهَا إِعْصَارٌ حَتَّى تَهُبَّ بِشِدَّةٍ اهـ.

سَأَلَ عُمَرُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَ: فِيمَ تَرَوْنَ أُنْزِلَتْ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؟ فَقَالُوا: اللهُ أَعْلَمُ، فَغَضِبَ عُمَرُ!! فَقَالَ: «قُولُوا نَعْلَمُ، أَوْ لَا نَعْلَمُ!»، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ!»، فَقَالَ عُمَرُ: «قُلْ يَا ابْنَ أَخِي وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ!»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ»، قَالَ عُمَرُ: «أَيُّ عَمَلٍ»؟ قَالَ: «لِعَمَلٍ»، فَقَالَ عُمَرُ: «رَجُلٌ غَنِيٍ بِعَمَلِ الْحَسَنَاتِ، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ كُلَّهَا!».[٤٧٣]

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾يَعْنِي: كَمَا بَيَّنَ لَكُمْ رَبُّكُمْ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – أَمْرَ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِهِ، وَكَيْفَ وَجْهُهَا، وَمَا لَكُمْ وَمَا لَيْسَ لَكُمْ فِعْلُهُ فِيهَا، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمُ الْآيَاتِ سِوَى ذَلِكَ، فَيُعَرِّفُكُمْ أَحْكَامَهَا وَحَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَيُوَضِّحُ لَكُمْ حُجَجَهَا، إِنْعَامًا مِنْهُ بِذَلِكَ عَلَيْكُمْ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾يَقُولُ: لِتَتَفَكَّرُوا بِعُقُولِكُمْ، فَتَتَدَبَّرُوا وَتَعْتَبِرُوا بِحُجَجِ اللهِ فِيهَا، وَتَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا مِنْ أَحْكَامِهَا، فَتُطِيعُوا اللهَ بِهِ.

٢٦٧– ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾يَعْنِي: صَدَّقُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَآيِ كِتَابِهِ، ﴿أَنْفِقُوا﴾يَعْنِي: زَكُّوا وَتَصَدَّقُوا ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾يَعْنِي: زَكُّوا مِنْ طَيِّبِ مَا كَسَبْتُمْ بِتَصَرُّفِكُمْ – إِمَّا بِتِجَارَةٍ، وَإِمَّا بِصِنَاعَةٍ – مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. وَيَعْنِي بِالطَّيِّبَاتِ: الْجِيَادَ، يَقُولُ: زَكُّوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي اكْتِسَبْتُمُوهَا حَلَالًا، وَأَعْطُوا فِي زَكَاتِكُمُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، الْجِيَادَ مِنْهَا دُونَ الرَّدِيءِ.

﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾يَعْنِي: وَأَنْفِقُوا أَيْضًا مِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، فَتَصَدَّقُوا وَزَكُّوا مِنَ النَّخْلِ وَالْكَرْمِ وَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ، وَمَا أَوْجَبْتُ فِيهِ الصَّدَقَةِ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ.[٤٧٤]

---

[٤٧٣] صحيح: رواه البخاري، وأبو داود في الزهد، وابن المبارك في الزهد والرقائق، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي.

[٤٧٤] **فَائِدَةٌ:** زَكَاةُ الزُّرُوعِ لَا تَجِبُ إِلَّا فِي أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ: الْقَمْحِ، وَالشَّعِيرِ، وَالزَّبِيبِ، وَالتَّمْرِ – فَقَطْ –؛ لِحَدِيثِ أَبِي مُوسَى، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَعَثَهُمَا إِلَى الْيَمَنِ، فَأَمَرَهُمَا أَنْ يُعَلِّمَا النَّاسَ أَمْرَ دِينِهِمْ؛ وَقَالَ: «**لَا تَأْخُذُوا الصَّدَقَةَ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ: الشَّعِيرِ، وَالْحِنْطَةِ، وَالزَّبِيبِ، وَالتَّمْرِ**» [صحيح: أخرجه الدارقطني في سننه، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى؛ وصححه الألباني في الإرواء تحت الحديث(١٠٨)].

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: «**إِنَّمَا سَنَّ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الزَّكَاةَ فِي هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ: الْحِنْطَةِ، وَالشَّعِيرِ، وَالزَّبِيبِ، وَالتَّمْرِ**» [صحيح: أخرجه الدارقطني في سننه؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٨٧٩)، وصحيح الجامع(٣٥٨٤)].

وَانْظُرْ – لِلْفَائِدَةِ –: تَمَامُ الْمِنَّةِ، لِلْأَلْبَانِيِّ صـ٣٦٨-٣٧٣.

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾يَعْنِي: وَلَا تَعَمَّدُوا، وَلَا تَقْصِدُوا﴿الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ[٤٧٥]﴾يَعْنِي بِالْخَبِيثِ: الرَّدِيءَ، غَيْرَ الْجَيِّدِ ، يَقُولُ: لَا تَعَمَّدُوا الرَّدِيءَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ فِي صَدَقَاتِكُمْ فَتَصَدَّقُوا مِنْهُ[٤٧٦]، وَلَكِنْ تَصَدَّقُوا مِنَ الطَّيِّبِ الْجَيِّدِ.

﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾يَعْنِي: وَلَسْتُمْ بِآخِذِي الْخَبِيثَ فِي حُقُوقِكُمْ، ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾يَعْنِي: إِلَّا أَنْ تَتَجَافَوْا فِي أَخْذِكُمْ إِيَّاهُ عَنْ بَعْضِ الْوَاجِبِ لَكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ، فَتُرَخِّصُوا فِيهِ لِأَنْفُسِكُمْ.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حُمَيْدٌ﴾يَعْنِي: وَاعْلَمُوا – أَيُّهَا النَّاسُ – أَنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – غَنِيٌّ عَنْ صَدَقَاتِكُمْ وَعَنْ غَيْرِهَا، وَإِنَّمَا أَمَرَكُمْ بِهَا، وَفَرَضَهَا فِي أَمْوَالِكُمْ: رَحْمَةً مِنْهُ لَكُمْ؛ لِيُغْنِيَ بِهَا عَائِلَكُمْ، وَيُقَوِّيَ بِهَا ضَعِيفَكُمْ، وَيُجْزِلَ لَكُمْ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ مَثُوبَتَكُمْ، لَا مِنْ حَاجَةٍ بِهِ فِيهَا إِلَيْكُمْ.

وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿حَمِيدٌ﴾: أَنَّهُ مَحْمُودٌ عِنْدَ خَلْقِهِ بِمَا أَوْلَاهُمْ مِنْ نِعَمِهِ، وَبَسَطَ لَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ.

٢٦٨– ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾يَعْنِي: الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ – أَيُّهَا النَّاسُ – بِالصَّدَقَةِ وَأَدَائِكُمُ الزَّكَاةَ الْوَاجِبَةَ عَلَيْكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ أَنْ تَفْتَقِرُوا، ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾يَعْنِي: وَيَأْمُرُكُمْ بِمَعَاصِي اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –، وَتَرْكِ طَاعَتِهِ ﴿وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾يَعْنِي: أَنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – يَعِدُكُمْ – أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – أَنْ

---

[٤٧٥] عَنِ الْبَرَاءِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، ﴿**وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ**﴾، قَالَ: «نَزَلَتْ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، كُنَّا أَصْحَابَ نَخْلٍ، فَكَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي مِنْ نَخْلِهِ عَلَى قَدْرِ كَثْرَتِهِ وَقِلَّتِهِ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي بِالْقِنْوِ وَالْقِنْوَيْنِ فَيُعَلِّقُهُ فِي الْمَسْجِدِ، وَكَانَ أَهْلُ الصُّفَّةِ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ، فَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا جَاعَ أَتَى الْقِنْوَ فَضَرَبَهُ بِعَصَاهُ فَيَسْقُطُ مِنَ الْبُسْرِ وَالتَّمْرِ فَيَأْكُلُ، وَكَانَ نَاسٌ مِمَّنْ لَا يَرْغَبُ فِي الْخَيْرِ! يَأْتِي الرَّجُلُ بِالْقِنْوِ فِيهِ الشِّيصُ وَالْحَشَفُ وَبِالْقِنْوِ قَدِ انْكَسَرَ فَيُعَلِّقُهُ»، فَأَنْزَلَ اللهُ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى –: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ**﴾ «[يَقُولُ: لَا تَعْمِدُوا لِلْحَشَفِ مِنْهُ تُنْفِقُونَ]»، ﴿**وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ**﴾، [يَقُولُ]: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أُهْدِيَ إِلَيْهِ مِثْلُ مَا أَعْطَى؛ لَمْ يَأْخُذْهُ إِلَّا عَلَى [اسْتِحْيَاءٍ مِنْ صَاحِبِهِ، غَيْظًا أَنَّهُ بَعَثَ إِلَيْكَ بِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ حَاجَةٌ!]»، [﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ**﴾عَنْ صَدَقَاتِكُمْ]، قَالَ: «فَكُنَّا بَعْدَ ذَلِكَ يَأْتِي أَحَدُنَا بِصَالِحِ مَا عِنْدَهُ» [صحيح: رواه الترمذي – واللفظ له –، وابن ماجة، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي – وما بين المعقوفين له ولابن ماجة –؛ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي(٢٩٨٧)].

[٤٧٦] كَمَا هُوَ عَادَةُ أَكْثَرِ النُّفُوسِ: تُمْسِكُ الْجَيِّدَ لَهَا، وَتُخْرِجُ الرَّدِيءَ لِلْفَقِيرِ!! [قاله ابن القيم في طريق الهجرتين].

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْمَسْجِدَ وَبِيَدِهِ عَصًا، [وَأَقْنَاءٌ مُعَلَّقَةٌ فِي الْمَسْجِدِ، قِنْوٌ مِنْهَا حَشَفٌ]، فَطَعَنَ بِالْعَصَا فِي ذَلِكَ الْقِنْوِ؛ وَقَالَ: «**لَوْ شَاءَ رَبُّ هَذِهِ الصَّدَقَةِ تَصَدَّقَ بِأَطْيَبَ مِنْهَا!**»، وَقَالَ: «**إِنَّ رَبَّ هَذِهِ الصَّدَقَةِ يَأْكُلُ الْحَشَفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ!!**» [حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان، وابن خزيمة، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي – وما بين المعقوفين له ولابن حبان –؛ وحسنه الألباني في صحيح أبي داود(١٦٠٨)، والتعليقات الحسان(٦٧٣٦)، وصحيح الترغيب والترهيب(٨٧٩)].

قُلْتُ: وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ! وَقَدْ دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فِي أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَوْضِعٍ عَلَى أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**جَزَاءً وِفَاقًا**﴾ أَيْ: مُوَافِقًا لِأَعْمَالِهِمْ، بِدُونِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ.

يَسْتُرَ عَلَيْكُمْ فَحْشَاءَكُمْ بِصَفْحِهِ لَكُمْ عَنْ عُقُوبَتِكُمْ عَلَيْهَا، فَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ بِالصَّدَقَةِ الَّتِي تَتَصَدَّقُونَ ﴿وَفَضْلًا﴾ يَعْنِي: وَيَعِدُكُمْ أَنْ يُخْلِفَ عَلَيْكُمْ مِنْ صَدَقَتِكُمْ، فَيَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ عَطَايَاهُ وَيُسْبِغَ عَلَيْكُمْ فِي أَرْزَاقِكُمْ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً مِنِ ابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ: فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ، وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ: فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ، وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ؛ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ، وَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى؛ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾.[٤٧٧]

﴿وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾يَعْنِي: وَاللهُ وَاسِعُ الْفَضْلِ الَّذِي يَعِدُكُمْ أَنْ يُعْطِيكُمُوهُ مِنْ فَضْلِهِ وَسَعَةِ خَزَائِنِهِ، عَلِيمٌ بِنَفَقَاتِكُمْ وَصَدَقَاتِكُمُ الَّتِي تُنْفِقُونَ وَتَصَدَّقُونَ بِهَا، يُحْصِيهَا لَكُمْ حَتَّى يُجَازِيَكُمْ بِهَا عِنْدَ مَقْدَمِكُمْ عَلَيْهِ فِي آخِرَتِكُمْ.

٢٦٩– ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا[٤٧٨]﴾يَعْنِي: يُؤْتِي اللهُ الْإِصَابَةَ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَمَنْ يُؤْتَ الْإِصَابَةَ فِي ذَلِكَ مِنْهُمْ؛ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾يَعْنِي: وَمَا يَتَّعِظُ بِمَا وَعَظَ بِهِ رَبُّهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي وَعَظَ فِيهَا الْمُنْفِقِينَ أَمْوَالَهُمْ بِمَا وَعَظَ بِهِ غَيْرَهُمْ فِيهَا، وَفِي غَيْرِهَا مِنْ آيِ كِتَابِهِ، فَيَذْكُرُ وَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ فِيهَا، فَيَنْزَجِرُ عَمَّا زَجَرَهُ عَنْهُ رَبُّهُ، وَيُطِيعُهُ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ، ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾يَعْنِي: إِلَّا أُولُو الْعُقُولِ، الَّذِينَ عَقَلُوا عَنِ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ.

٢٧٠– ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾يَعْنِي: وَأَيُّ نَفَقَةٍ أَنْفَقْتُمْ – يَعْنِي: أَيَّ صَدَقَةٍ تَصَدَّقْتُمْ –، أَوْ أَيَّ نَذْرٍ نَذَرْتُمْ – يَعْنِي بِالنَّذْرِ: مَا أَوْجَبَهُ الْمَرْءُ عَلَى نَفْسِهِ تَبَرُّرًا فِي طَاعَةِ اللهِ، وَتَقَرُّبًا بِهِ

[٤٧٧] صحيح: رواه الترمذي، والنسائي في الكبرى، وابن حبان في صحيحه؛ وتراجع الألباني عن تضعيفه، فصححه في صحيح موارد الظمآن (٣٨)، وفي هداية الرواة(٧٠)، والتعليقات الحسان(٩٩٣).

[٤٧٨] عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، يَقُولُ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد؛ وغيرهم].

إِلَيْهِ، مِنْ صَدَقَةٍ أَوْ عَمَلِ خَيْرٍ –، ﴿فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾أَيْ: أَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ بِعِلْمِ اللهِ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ، وَلَكِنَّهُ يُحْصِيهِ – أَيُّهَا النَّاسُ – عَلَيْكُمْ حَتَّى يُجَازِيَكُمْ جَمِيعَكُمْ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ.

فَمَنْ كَانَتْ نَفَقَتُهُ مِنْكُمْ وَصَدَقَتُهُ وَنَذْرُهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ نَفْسِهِ؛ جَازَاهُ بِالَّذِي وَعْدَهُ مِنَ التَّضْعِيفِ! وَمَنْ كَانَتْ نَفَقَتُهُ وَصَدَقَتُهُ رِيَاءَ النَّاسِ وَنُذُورُهُ لِلشَّيْطَانِ؛ جَازَاهُ بِالَّذِي أَوْعَدَهُ مِنَ الْعِقَابِ وَأَلِيمِ الْعَذَابِ!!.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾يَعْنِي: وَمَا لِمَنْ أَنْفَقَ مَالَهُ رِيَاءَ النَّاسِ وَفِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَكَانَتْ نُذُورُهُ لِلشَّيْطَانِ وَفِي طَاعَتِهِ، ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾يَعْنِي: مَنْ يَنْصُرُهُمْ مِنَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَدْفَعُ عَنْهُمْ عِقَابَهُ يَوْمَئِذٍ بِقُوَّةٍ وَشِدَّةِ بَطْشٍ، وَلَا بِفِدْيَةٍ!.

٢٧١– ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾يَعْنِي: إِنْ تُعْلِنُوا الصَّدَقَاتِ فَتُعْطُوهَا مَنْ تَصَدَّقْتُمْ بِهَا عَلَيْهِ، ﴿فَنِعِمَّا هِيَ[٤٧٩]﴾يَقُولُ: فَنِعْمَ الشَّيْءُ هِيَ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا﴾يَقُولُ: وَإِنْ تَسْتُرُوهَا فَلَمْ تُعْلِنُوهَا﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ يَعْنِي: وَتُعْطُوهَا الْفُقَرَاءَ فِي السِّرِّ، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾يَقُولُ: فَإِخْفَاؤُكُمْ إِيَّاهَا خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِعْلَانِهَا.[٤٨٠] وَذَلِكَ فِي صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ.

﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ[٤٨١]﴾يَعْنِي: وَيُكَفِّرُ اللهُ عَنْكُمْ بِصَدَقَاتِكُمْ – عَلَى مَا ذُكِرَ فِي الْآيَةِ – مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ.

---

٤٧٩ **قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي طَرِيقِ الْهِجْرَتَيْنِ:** قَوْلُهُ: ﴿**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ**﴾أَيْ: فَنِعْمَ شَيْءٌ هِيَ، وَهَذَا مَدْحٌ لَهَا مَوْصُوفَة بِكَوْنِهَا ظَاهِرَةً بَادِيَةً، فَلَا يَتَوَهَّمُ مُبْدِيهَا بُطْلَانُ أَثَرِهِ وَثَوَابِهِ فَيَمْنَعُهُ ذَلِكَ مِنْ إِخْرَاجِهَا وَيَنْتَظِرُ بِهَا الْإِخْفَاءَ فَتَفُوتُ أَوْ تَعْتَرِضُهُ الْمَوَانِع وَيُحَالُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَلْبِهِ أَوْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِخْرَاجِهَا، فَلَا يُؤَخِّرُ صَدَقَةَ الْعَلَانِيَةِ بَعْدَ حُضُورِ وَقْتِهَا إِلَى وَقْتِ السِّرِّ؛ وَهَذِهِ كَانَتْ حَالُ الصَّحَابَةِ.

٤٨٠ قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**إِنَّ صَدَقَةَ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ**» [الصحيحة(١٩٠٨)، وصحيح الجامع(٣٧٥٩)].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ – وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ – مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – فِي السَّبْعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، وَمِنْهُم: «**وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ!**».

٤٨١ **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** ﴿**وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ...، وَأَوْلَى الْقِرَاءَاتِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا بِالصَّوَابِ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: ﴿**وَنُكَفِّرْ عَنْكُمْ**﴾ بِالنُّونِ وَجَزْمِ الْحَرْفِ، عَلَى مَعْنَى الْخَبَرِ مِنَ اللهِ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ يُجَازِي الْمُخْفِي صَدَقَتَهُ مِنَ التَّطَوُّعِ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ مِنْ صَدَقَتِهِ، بِتَكْفِيرِ سَيِّئَاتِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَمَا وَجْهُ دُخُولِ (مِنْ) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾؟ قِيلَ: وَجْهُ دُخُولِهَا فِي ذَلِكَ، بِمَعْنَى: ونُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ مَا نَشَاءُ تَكْفِيرَهُ مِنْهَا دُونَ جَمِيعِهَا؛ لِيَكُونَ الْعِبَادُ عَلَى وَجَلٍ مِنَ اللهِ فَلَا يَتَّكِلُوا عَلَى وَعْدِهِ مَا وَعَدَ عَلَى الصَّدَقَاتِ الَّتِي يُخْفِيهَا الْمُتَصَدِّقُ فَيَجْتَرِئُوا عَلَى حُدُودِهِ وَمَعَاصِيهِ!.

﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فِي صَدَقَاتِكُمْ مِنْ إِخْفَائِهَا وَإِعْلَان، وَإِسْرَارٍ بِهَا وَجِهَار، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ. ﴿خَبِيرٌ﴾يَعْنِي: ذُو خِبْرَةٍ وَعِلْمٍ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ بِجَمِيعِهِ مُحِيطٌ، وَلِكُلِّهِ مُحْصٍ عَلَى أَهْلِهِ، حَتَّى يُوَفِّيَهُمْ ثَوَابَ جَمِيعِهِ، وَجَزَاءَ قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ.

٢٧٢- ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هَدَاهُمْ[٤٨٢]وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ[٤٨٣]وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ[٤٨٤]﴾يَعْنِي: لَيْسَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ هُدَى الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَتَمْنَعُهُمْ صَدَقَةَ التَّطَوُّعِ، وَلَا تُعْطِيهِمْ مِنْهَا؛ لِيَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ حَاجَةً مِنْهُمْ إِلَيْهَا، وَلَكِنَّ اللهَ هُوَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ فَيُوَفِّقُهُمْ لَهُ، فَلَا تَمْنَعْهُمُ الصَّدَقَةَ.

---

[٤٨٢] الْمُرَادُ بِالْهِدَايَةِ هُنَا: هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ، وَأَمَّا هِدَايَةُ الْبَيَانِ وَالْإِرْشَادِ؛ فَهِيَ لَهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾.

[٤٨٣] عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**لَا تَصَدَّقُوا إِلَّا عَلَى أَهْلِ دِينِكُمْ**» فَأَنْزَلَ اللهُ - تَعَالَى -: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ**﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ**﴾، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**تَصَدَّقُوا عَلَى أَهْلِ الْأَدْيَانِ**» [صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، وغيره، وأورده الألباني في الصحيحة(٢٧٦٦)].

[٤٨٤] قُلْتُ - أَبُو حَمْزَةَ -: لَمْ يُفَسِّرْ أَبُو جَعْفَرٍ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - بَقِيَّةَ الْآيَةِ: ﴿ **وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**﴾. فَأَقُولُ: قَوْلُهُ: ﴿**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ**﴾أَيْ: مَالٍ﴿**فَلِأَنْفُسِكُمْ**﴾أَيْ: فَهُوَ لِأَنْفُسِكُمْ، لَا يَعُودُ نَفْعُهُ إِلَّا عَلَيْكُمْ، فَاللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَا يَنْتَفِعُ بِهِ، وَلَكِنْ لِأَنْفُسِكُمْ تُقَدِّمُونَهُ، فَمَنْ تَصَدَّقَ، فَإِنَّمَا يَتَصَدَّقُ - فِي الْحَقِيقَةِ - لِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّ نَفْعَ الصَّدَقَةِ يَعُودُ عَلَيْهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**...وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ...**» [صحيح الجامع(٥١٣٦)، وصحيح الترغيب والترهيب(٨٦٨)]. وَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ عَنْ أَهْلِهَا حَرَّ الْقُبُورِ، وَإِنَّمَا يَسْتَظِلُّ الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ**» [الصحيحة(٣٤٨٤)، وصحيح الترغيب والترهيب(٨٧٣)].

﴿**وما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ**﴾أَيْ: وَمَا تُنْفِقُونَ النَّفَقَةَ الْمُعْتَدَّ لَكُمْ قَبُولُهَا، إِلَّا مَا كَانَ إِنْفَاقُهُ لِابْتِغَاءِ وَجْهِ اللهِ، فَإِذَا عَرِيَتْ مِنْ هَذَا الْقَصْدِ؛ فَلَا يُعْتَدُّ بِهَا! ﴿**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ**﴾أَيْ: تُعْطَوْنَهُ وَافِيًا مِنْ غَيْرِ نَقْصٍ؛ بَلِ الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ﴿**وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**﴾أَيْ: لَا تُنْقَصُونَ مِنْ أُجُورِ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا، وَلَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ! قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾، وَقَالَ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: «**...يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا؛ فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ؛ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ!!**» [صحيح: رواه مسلم، والبخاري في الأدب المفرد، وغيرهما].

٢٧٣- ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾يعْنِي: وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرَ فَلِأَنْفُسِكُمْ تُنْفِقُونَ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَ(اللَّامُ) الَّتِي فِي الْفُقَرَاءِ مَرْدُودَةٌ عَلَى مَوْضِعِ اللَّامِ فِي فَلِأَنْفُسِكُمْ، كَأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾يَعْنِي بِهِ: وَمَا تَتَصَدَّقُوا بِهِ مِنْ مَالٍ فَلِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ.

﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾يَعْنِي: الَّذِينَ جَعَلَهُمْ جِهَادُهُمْ عَدُوَّهُمْ يَحْصُرُونَ أَنْفُسَهُمْ فَيَحْبِسُونَهَا عَنِ التَّصَرُّفِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَصَرُّفًا.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾يَعْنِي: لَا يَسْتَطِيعُونَ تَقَلُّبًا فِي الْأَرْضِ، وَسَفَرًا فِي الْبِلَادِ، ابْتِغَاءَ الْمَعَاشِ وَطَلَبَ الْمَكَاسِبِ، فَيَسْتَغْنُوا عَنِ الصَّدَقَاتِ رَهْبَةَ الْعَدُوِّ، وَخَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْهُمْ.

﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾يَعْنِي: يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ بِأَمْرِهِمْ وَحَالِهِمْ أَغْنِيَاءَ مِنْ تَعَفُّفِهِمْ عَنِ الْمَسْأَلَةِ وَتَرْكِهِمُ التَّعَرُّضَ لِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ صَبْرًا مِنْهُمْ عَلَى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ.

﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾يَعْنِي: تَعْرِفُهُمْ - يَا مُحَمَّدُ - بِسِيمَاهُمْ، يَعْنِي: بِعَلَامَتِهِمْ وَآثَارِهِمْ.

﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا[٤٨٥]﴾يُقَالُ: قَدْ أَلْحَفَ السَّائِلُ فِي مَسْأَلَتِهِ إِذَا أَلَحَّ فَهُوَ يُلْحِفُ فِيهَا إِلْحَافًا. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَفَكَانَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ يَسْأَلُونَ النَّاسَ غَيْرَ إِلْحَافٍ؟ قِيلَ: غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ كَانُوا يَسْأَلُونَ

---

[٤٨٥] ←عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **«مَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيمَةُ أُوقِيَّةٍ؛ فَقَدْ أَلْحَفَ»** زَادَ هِشَامٌ فِي حَدِيثِهِ: وَكَانَتِ الْأُوقِيَّةُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا [صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي؛ وصححه في صحيح الجامع(٦٢٨٣)]

←وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **«مَنْ سَأَلَ وَلَهُ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا؛ فَهُوَ الْمُلْحِفُ»** [صحيح: رواه النسائي؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٦٢٨٢)، والصحيحة تحت الحديث(١٧١٩)].

←وَعَنْ رَجُلٍ مِنْ مُزَيْنَةَ، أَنَّهُ قَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: أَلَا تَنْطَلِقُ فَتَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا يَسْأَلُهُ النَّاسُ؟ فَانْطَلَقْتُ أَسْأَلُهُ، فَوَجَدْتُهُ قَائِمًا يَخْطُبُ، وَهُوَ يَقُولُ: **«مَنِ اسْتَعَفَّ؛ أَعَفَّهُ اللهُ، وَمَنِ اسْتَغْنَى؛ أَغْنَاهُ اللهُ، وَمَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ عِدْلُ خَمْسِ أَوَاقٍ؛ فَقَدْ سَأَلَ إِلْحَافًا»**. فَقُلْتُ - بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي -: لَنَاقَةٌ لَهُ هِيَ خَيْرٌ مِنْ خَمْسِ أَوَاقٍ، وَلِغُلَامِهِ نَاقَةٌ أُخْرَى هِيَ خَيْرٌ مِنْ خَمْسِ أَوَاقٍ؛ فَرَجَعْتُ، وَلَمْ أَسْأَلْهُ! [صحيح: رواه أحمد، والطحاوي في شرح مشكل الآثار، والهيثمي في المجمع، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٢٣١٤)، وصحيح الجامع(٦٠٢٢)].

←وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **«لَا تُلْحِفُوا فِي الْمَسْأَلَةِ، فَوَاللهِ، لَا يَسْأَلُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا، فَتُخْرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّي شَيْئًا، وَأَنَا لَهُ كَارِهٌ؛ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتُهُ!»** [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، والنسائي؛ وغيرهم].

قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ: مَقْصُودُ الْبَابِ وَأَحَادِيثِهِ: النَّهْيُ عَنِ السُّؤَالِ، وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَيْهِ إِذَا لَمْ تَكُنْ ضَرُورَةٌ، وَاخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي مَسْأَلَةِ الْقَادِرِ عَلَى الْكَسْبِ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَصَحُّهُمَا: أَنَّهَا حَرَامٌ؛ لِظَاهِرِ الْأَحَادِيثِ، وَالثَّانِي: حَلَالٌ مَعَ الْكَرَاهَةِ بِثَلَاثِ شُرُوطٍ: أَنْ لَا يُذِلَّ نَفْسَهُ، وَلَا يُلِحَّ فِي السُّؤَالِ، وَلَا يُؤْذِي الْمَسْئُولَ، فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ هَذِهِ الشُّرُوطِ؛ فَهِيَ حَرَامٌ بِالِاتِّفَاقِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

النَّاسَ شَيْئًا عَلَى وَجْهِ الصَّدَقَةِ إِلْحَافًا أَوْ غَيْرَ إِلْحَافٍ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ تَعَفُّفٍ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يُعْرَفُونَ بِسِيمَاهُمْ، فَلَوْ كَانَتِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ شَأْنِهِمْ لَمْ تَكُنْ صِفَتُهُمُ التَّعَفُّفَ، وَلَمْ يَكُنْ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى عِلْمِ مَعْرِفَتِهِمِ بِالْأَدِلَّةِ وَالْعَلَامَةِ حَاجَةٌ، وَكَانَتِ الْمَسْأَلَةُ الظَّاهِرَةُ تُنْبِئُ عَنْ حَالِهِمْ وَأَمْرِهِمْ!.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا وَصَفْت، فَمَا وَجْهُ قَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا[٤٨٦]﴾وَهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا أَوْ غَيْرَ إِلْحَافٍ؟ قِيلَ لَهُ: وَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ اللهَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ – لَمَّا وَصَفَهُمْ بِالتَّعَفُّفِ، وَعَرَّفَ عِبَادَهُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلَ مَسْأَلَةٍ بِحَالٍ، بِقَوْلِهِ: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُعْرَفُونَ بِالسِّيمَا، زَادَ عِبَادَهُ إِبَانَةً لِأَمْرِهِمْ، وَحُسْنَ ثَنَاءٍ عَلَيْهِمْ، بِنَفْيِ الشَّرَهِ وَالضَّرَاعَةِ – الَّتِي تَكُونُ فِي الْمُلِحِّينَ مِنَ السُّؤَّالِ – عَنْهُمْ، وَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْقَائِلِينَ يَقُولُ[٤٨٧]: ذَلِكَ نَظِيرَ قَوْلِ الْقَائِلِ: قَلَّمَا رَأَيْتُ مِثْلَ فُلَانٍ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يَرَ مِثْلَهُ أَحَدًا وَلَا نَظِيرًا!.[٤٨٨]

٢٧٤– ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.[٤٨٩]

---

[٤٨٦] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، [وَالْأَكْلَةُ وَالْأَكْلَتَانِ]، [وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الْمُتَعَفِّفَ]: الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، [وَلَا يَعْلَمُ النَّاسُ حَاجَتَهُ] فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا**» وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿**لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا**﴾[صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والنسائي – وما بين المعقوفين له وللبخاري وأحمد –].

[٤٨٧] قارن بطبعة محمود محمد شاكر.

[٤٨٨] قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: لَمْ يُفَسِّرْ أَبُو جَعْفَرٍ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى – بَقِيَّةَ الْآيَةِ: ﴿**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾.

قَوْلُهُ: ﴿**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ**﴾أَيْ: مَالٍ ﴿**فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾أَيْ: لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ، وَسَيَجْزِي عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ وَأَتَمَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِ.

[٤٨٩] ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ**﴾ فِي مَرْضَاةِ اللهِ ﴿**بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً**﴾ أَيْ: يَعُمُّونَ الْأَوْقَاتَ وَالْأَحْوَالَ بِالْخَيْرِ وَالصَّدَقَةِ؛ لِحِرْصِهِمْ عَلَى الْخَيْرِ، فَكُلَّمَا نَزَلَتْ بِهِمْ حَاجَةُ مُحْتَاجٍ؛ عَجَّلُوا قَضَاءَهَا، وَلَمْ يُؤَخِّرُوهُ، وَلَمْ يَتَعَلَّلُوا بِوَقْتٍ وَلَا حَالٍ!.

وَالْمُرَادُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ: جَمِيعُ الْأَوْقَاتِ، كَمَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالسِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ: جَمِيعُ الْأَحْوَالِ، وَقَدَّمَ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ، وَالسِّرَّ عَلَى الْعَلَانِيَةِ؛ لِلْإِيذَانِ بِمَزِيَّةِ الْإِخْفَاءِ عَلَى الْإِظْهَارِ!.

وَالْإِنْفَاقُ فِي أَيِّ وَقْتٍ وُجِدَ: مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، وَعَلَى أَيَّةِ حَالٍ وُجِدَ: سِرًّا وَعَلَانِيَةً؛ فَإِنَّهُ سَبَبٌ لِلْجَزَاءِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَلْيُبَادِرْ بِهِ الْعَبْد، وَلَا يَنْتَظِرُ بِهِ غَيْرَ وَقْتِهِ وَحَالِهِ، وَلَا يُؤَخِّرُ نَفَقَةَ اللَّيْلِ إِذَا حَضَرَ إِلَى النَّهَارِ، وَلَا نَفَقَةَ النَّهَارِ إِلَى اللَّيْلِ، وَلَا يَنْتَظِرُ بِنَفَقَةِ الْعَلَانِيَةِ وَقْت السِّرّ، وَلَا بِنَفَقَةِ السِّرِّ وَقْت الْعَلَانِيَة؛ فَإِنَّ نَفَقَتَهُ فِي أَيِّ وَقْتٍ وَعَلَى أَيِّ حَالٍ وُجِدَتْ؛ سَبَبٌ فِي أَجْرِهِ وَثَوَابِهِ.

﴿**فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَلَى مَا فَعَلُوا مِنَ الْإِنْفَاقِ فِي الطَّاعَاتِ ﴿**وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ فِيمَا قَدِمُوا عَلَيْهِ مِنْ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ ﴿**وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾عَلَى مَا خَلَّفُوا وَرَاءَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَعَيْشِهَا، عِنْدَ مُعَايَنَتِهِمْ مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ عِنْدَهُ.

٢٧٥- ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا[٤٩٠]﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ يُرْبُونَ ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ فِي الْآخِرَةِ مِنْ قُبُورِهِمْ ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ[٤٩١]﴾ يَعْنِي: يَتَخَبَّلُهُ الشَّيْطَانُ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ فَيَصْرَعُهُ مِنَ الْمَسِّ، يَعْنِي: مِنَ الْجُنُونِ.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ يَعْنِي: ذَلِكَ الَّذِي وَصَفَهُمْ بِهِ مِنْ قِيَامِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ قُبُورِهِمْ، كَقِيَامِ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ مِنَ الْجُنُونِ، فَقَالَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا أَنَّهُ يُصِيبُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ – مِنْ قُبْحِ حَالِهِمْ، وَوَحْشَةِ قِيَامِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ، وَسُوءِ مَا حَلَّ بِهِمْ –؛ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَكْذِبُونَ وَيَفْتَرُونَ، وَيَقُولُونَ: إِنَّمَا الْبَيْعُ الَّذِي أَحَلَّهُ اللهُ لِعِبَادِهِ مِثْلُ الرِّبَا! وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ كَانُوا يَأْكُلُونَ مِنَ الرِّبَا مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، كَانَ إِذَا حَلَّ مَالُ أَحَدِهِمْ عَلَى غَرِيمِهِ، يَقُولُ الْغَرِيمُ لِغَرِيمِ الْحَقِّ: زِدْنِي فِي الْأَجَلِ وَأَزِيدُكَ فِي مَالِكَ، فَكَانَ يُقَالُ لَهُمَا إِذَا فَعَلَا ذَلِكَ: هَذَا رِبًا لَا يَحِلُّ!.

فَإِذَا قِيلَ لَهُمَا ذَلِكَ؛ قَالَا: سَوَاءٌ عَلَيْنَا زِدْنَا فِي أَوَّلِ الْبَيْعِ، أَوْ عِنْدَ مَحِلِّ الْمَالِ!! فَكَذَّبَهُمُ اللهُ فِي قِيلِهِمْ؛ فَقَالَ: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ﴾ يَعْنِي: وَأَحَلَّ اللهُ الْأَرْبَاحَ فِي التِّجَارَةِ وَالشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ، ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ يَعْنِي: الزِّيَادَةَ الَّتِي يُزَادُ رَبُّ الْمَالِ بِسَبَبِ زِيَادَتِهِ غَرِيمَهُ فِي الْأَجَلِ، وَتَأْخِيرِهِ دَيْنَهُ عَلَيْهِ.

---

[٤٩٠] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: وَالْإِرْبَاءُ: الزِّيَادَةُ عَلَى الشَّيْءِ، يُقَالُ مِنْهُ: أَرْبَى فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ: إِذَا زَادَ عَلَيْهِ، يُرْبِي إِرْبَاءً، وَالزِّيَادَةُ: هِيَ الرِّبَا، وَرَبَا الشَّيْءُ: إِذَا زَادَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فَعَظُمَ، فَهُوَ يَرْبُو رَبْوًا، وَإِنَّمَا قِيلَ لِلرَّابِيَةِ[رَابِيَة]: لِزِيَادَتِهَا فِي الْعِظَمِ وَالْإِشْرَافِ عَلَى مَا اسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ مِمَّا حَوْلَهَا، مِنْ قَوْلِهِمْ: رَبَا يَرْبُو...، وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْمُرْبِي مُرْبٍ: لِتَضْعِيفِهِ الْمَالَ الَّذِي كَانَ لَهُ عَلَى غَرِيمِهِ حَالًا، أَوْ لِزِيَادَتِهِ عَلَيْهِ فِيهِ، لِسَبَبِ الْأَجَلِ الَّذِي يُؤَخِّرُهُ إِلَيْهِ، فَيَزِيدُهُ إِلَى أَجَلِهِ الَّذِي كَانَ لَهُ قَبْلَ حَلِّ دِينِهِ عَلَيْهِ اهـ.

فَصْلٌ: ذِكْرُ بَعْضِ مَا حَضَرَنَا ذِكْرُهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ فِي تَعْظِيمِ ذَنْبِ الرِّبَا:

◄عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي؛ وغيرهم].

◄وَعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –؛ «**آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ**»، وَقَالَ: «**هُمْ سَوَاءٌ**»[صحيح: رواه مسلم، وأحمد؛ وغيرهما]

◄وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**الرِّبَا: ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ بَابًا، أَيْسَرُهَا: مِثْلُ أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ!! وَإِنَّ أَرْبَى الرِّبَا؛ عِرْضُ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ!**» [صحيح: رواه ابن ماجة، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٣٥٣٩)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٨٥١)].

◄وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَنْظَلَةَ – غَسِيلِ الْمَلَائِكَةِ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**دِرْهَمُ رِبًا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْلَمُ؛ أَشَدُّ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ زِنْيَةً!!**» [صحيح: رواه أحمد، والدارقطني في سننه، والضياء المقدسي في المختارة، والهيثمي في المجمع، وقال: رواه أحمد و الطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح؛ وصححه الألباني في الصحيحة(١٠٣٣)، وصحيح الجامع(٣٣٧٥)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٨٥٥)، وغاية المرام(١٧٢)، والمشكاة(٢٨٢٥)].

[٤٩١] قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «... **فَمَنْ أَكَلَ الرِّبَا؛ بُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَجْنُونًا يَتَخَبَّطُ**» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾ [حسن: أخرجه الطبراني في الكبير؛ وحسنه الألباني في الصحيحة(٣٣١٣)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٨٦٢)].

فَقَالَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: لَيْسَتِ الزِّيَادَةُ مِنْ وَجْهِ الْبَيْعِ نَظِيرَ الزِّيَادَةِ مِنْ وَجْهِ الرِّبَا؛ لِأَنِّي أَحْلَلْتُ الْبَيْعَ، وَحَرَّمْتُ الرِّبَا، وَالْأَمْرُ أَمْرِي وَالْخَلْقُ خَلْقِي! أَقْضِي فِيهِمْ مَا أَشَاءُ، وَأَسْتَعْبِدُهُمْ بِمَا أُرِيدُ! لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَعْتَرِضَ فِي حُكْمِي، وَلَا أَنْ يُخَالِفَ فِي أَمْرِي! وَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ طَاعَتِي وَالتَّسْلِيمُ لِحُكْمِي!!.

ثُمَّ قَالَ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى﴾ يَعْنِي بِالْمَوْعِظَةِ: التَّذْكِيرَ، وَالتَّخْوِيفَ الَّذِي ذَكَّرَهُمْ وَخَوَّفَهُمْ بِهِ فِي آيِ الْقُرْآنِ، وَأَوْعَدَهُمْ عَلَى أَكْلِهِمُ الرِّبَا مِنَ الْعِقَابِ! يَقُولُ – جَلَّ ثناؤُهُ –: فَمَنْ جَاءَهُ ذَلِكَ فَانْتَهَى عَنْ أَكْلِ الرِّبَا، وَارْتَدَعَ عَنِ الْعَمَلِ بِهِ، وَانْزَجَرَ عَنْهُ؛ ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ يَعْنِي: مَا أَكَلَ، وَأَخَذَ فَمَضَى، قَبْلَ مَجِيءِ الْمَوْعِظَةِ وَالتَّحْرِيمِ مِنْ رَبِّهِ فِي ذَلِكَ ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾ يَعْنِي: وَأَمْرُ آكِلِهِ بَعْدَ مَجِيئِهِ الْمَوْعِظَةُ مِنْ رَبِّهِ وَالتَّحْرِيمُ، وَبَعْدَ انْتِهَاءِ آكِلِهِ عَنْ أَكْلِهِ، إِلَى اللهِ فِي عِصْمَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ، إِنْ شَاءَ عَصَمَهُ عَنْ أَكْلِهِ وَثَبَّتَهُ فِي انْتِهَائِهِ عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ خَذَلَهُ عَنْ ذَلِكَ ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ لِأَكْلِ الرِّبَا بَعْدَ التَّحْرِيمِ، وَقَالَ مَا كَانَ يَقُولُهُ قَبْلَ مَجِيءِ الْمَوْعِظَةِ مِنَ اللهِ بِالتَّحْرِيمِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾، ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[٤٩٢]﴾ يَعْنِي: فَفَاعِلُو ذَلِكَ وَقَائِلُوهُ هُمْ أَهْلُ النَّارِ، يَعْنِي: نَارَ جَهَنَّمَ فِيهَا خَالِدُونَ!.

٢٧٦– ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا﴾ يَعْنِي: يَنْقُصُ اللهُ الرِّبَا فَيُذْهِبُهُ!.[٤٩٣]

---

[٤٩٢] قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: قَوْلُهُ: ﴿**فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ مَعْنَى هَذِهِ الصِّيغَةِ: أَنَّ هَذَا جَزَاؤُهُ إِنْ جُوزِيَ عَلَيْهِ، وَكَذَا كُلُّ وَعِيدٍ عَلَى ذَنْبٍ. وَبِتَقْدِيرِ دُخُولِ الْمُرَابِي النَّارَ؛ فَلَيْسَ بِمُخَلَّدٍ فِيهَا أَبَدًا، بَلِ الْخُلُودُ – هَاهُنَا –: هُوَ الْمُكْثُ الطَّوِيلُ.

وَأَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: عَلَى أَنَّ مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى اقْتِرَافِ كَبِيرَةٍ – أَوْ كَبَائِر – لَمْ يَتُبْ مِنْهَا؛ فَهُوَ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ: إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ عَلَى الْكَبِيرَةِ – أَوِ الْكَبَائِرِ – الَّتِي مَاتَ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَيْهَا، وَهُوَ مَعَ هَذَا؛ لَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ إِذَا عُذِّبَ، بَلْ مَآلُهُ إِلَى الْجَنَّةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ«...**مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ**...»، وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثم يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وغيرهما].

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى: وَقَدِ اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ؛ وَسَائِرُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ: عَلَى أَنَّهُ لَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ أَحَدٌ مِمَّنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَاتَّفَقُوا – أَيْضًا – عَلَى أَنَّ نَبِيَّنَا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَشْفَعُ فِيمَنْ يَأْذَنُ اللهُ لَهُ بِالشَّفَاعَةِ فِيهِ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ مَنْ أُمَّتِهِ اهـ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**» [صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٣٧١٤)، والتعليقات الحسان(٦٤٣٣)، والمشكاة(٥٥٩٨)، وصحيح الترغيب والترهيب(٣٦٤٩)].

قَالَ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ – تَعْلِيقًا عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ –: فَإِنَّ هَذِهِ الشَّفَاعَةَ فِيهَا قَمْعُ الْمُبْتَدِعَةِ الْمُفَرِّقَةِ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ لِأَهْلِ الصَّغَائِرِ وَالْكَبَائِرِ! اهـ.

[٤٩٣] وَقَدِ اشْتُهِرَ هَذَا حَتَّى عَرَفَهُ الْعَامَّةُ، فَهُمْ يَذْكُرُونَ دَائِمًا مَا يَحْفَظُونَ مِنْ أَخْبَارِ آكِلِي الرِّبَا: الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَمْوَالُهُمْ! وَخَرِبَتْ بُيُوتُهُمْ!!.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، أَنَّهُ قَالَ: «الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ فَإِلَى قُلٍّ».[٤٩٤]

﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ يُضَاعِفُ أَجْرَهَا لِرَبِّهَا، وَيُنَمِّيهَا لَهُ.

عَنِ الْقَاسِمِ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «إِنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَيَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ، فَيُرَبِّيهَا لِأَحَدِكُمْ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ، حَتَّى إِنَّ اللُّقْمَةَ لَتَصِيرُ مِثْلَ أُحُدٍ».[٤٩٥]

﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ يَعْنِي: وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُصِرٍّ عَلَى كُفْرٍ بِرَبِّهِ، مُقِيمٍ عَلَيْهِ، مُسْتَحِلٍّ أَكْلَ الرِّبَا وَإِطْعَامَهُ، (أَثِيمٍ) مُتَمَادٍ فِي الْإِثْمِ فِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ مِنْ أَكْلِ الرِّبَا وَالْحَرَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَاصِيهِ، لَا يَنْزَجِرُ عَنْ ذَلِكَ وَلَا يَرْعَوِي عَنْهُ! وَلَا يَتَّعِظُ بِمَوْعِظَةِ رَبِّهِ الَّتِي وَعَظَهُ بِهَا فِي تَنْزِيلِهِ وَآيِ كِتَابِهِ!.

٢٧٧– ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وَهَذَا خَبَرٌ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – بِأَنَّ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ صَدَّقُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ؛ مِنْ تَحْرِيمِ الرِّبَا وَأَكْلِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ شَرَائِعِ دِينِهِ، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الَّتِي أَمَرَهُمُ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – بِهَا، وَالَّتِي نَدَبَهُمْ إِلَيْهَا، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ الْمَفْرُوضَةَ بِحُدُودِهَا، وَأَدَّوْهَا بِسُنَنِهَا، ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ، بَعْدَ الَّذِي سَلَفَ مِنْهُمْ مِنْ أَكْلِ الرِّبَا، قَبْلَ مَجِيءِ الْمَوْعِظَةِ فِيهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ يَعْنِي: ثَوَابَ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَصَدَقَتِهِمْ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يَوْمَ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ فِي مَعَادِهِمْ، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يَوْمَئِذٍ مِنْ عِقَابِهِ عَلَى مَا كَانَ سَلَفَ مِنْهُمْ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ قَبْلَ مَجِيئِهِمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ، مِنْ أَكْلِ مَا كَانُوا أَكَلُوا مِنَ الرِّبَا، بِمَا كَانَ مِنْ إِنَابَتِهِمْ، وَتَوْبَتِهِمْ إِلَى اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ مَجِيئِهِمُ الْمَوْعِظَةُ مِنْ رَبِّهِمْ، وَتَصْدِيقِهِمْ بِوَعْدِ اللهِ وَوَعِيدِهِ، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَلَى تَرْكِهِمْ مَا كَانُوا تَرَكُوا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَكْلِ الرِّبَا وَالْعَمَلِ بِهِ، إِذَا عَايَنُوا جَزِيلَ ثَوَابِ اللهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى –، وَهُمْ عَلَى تَرْكِهِمْ مَا تَرَكُوا مِنْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَوَصَلُوا إِلَى مَا وُعِدُوا عَلَى تَرْكِهِ.

٢٧٨– ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يَعْنِي: صَدَّقُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ يَقُولُ: خَافُوا اللهَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَاتَّقُوهُ بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَالِانْتِهَاءِ عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ، ﴿وَذَرُوا﴾ يَعْنِي: وَدَعُوا ﴿مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ يَقُولُ: اتْرُكُوا طَلَبَ مَا

---

[٤٩٤] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم.

[٤٩٥] صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي، وابن ماجة؛ وغيرهم.

بَقِيَ لَكُمْ مِنْ فَضْلٍ عَلَى رُءُوسِ أَمْوَالِكُمُ الَّتِي كَانَتْ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُرْبُوا عَلَيْهَا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾يَقُولُ: إِنْ كُنْتُمْ مُحَقِّقِينَ إِيمَانَكُمْ قَوْلًا وَتَصْدِيقَكُمْ بِأَلْسِنَتِكُمْ، بِأَفْعَالِكُمْ.

٢٧٩- ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾يَعْنِي: فَإِنْ لَمْ تَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ يَعْنِي: اعْلَمُوا ذَلِكَ وَاسْتَيْقِنُوهُ، وَكُونُوا عَلَى إِذْنٍ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – لَكُمْ بِذَلِكَ.

﴿وَإِنْ تُبْتُمْ﴾ فَتَرَكْتُمْ أَكْلَ الرِّبَا وَأَنَبْتُمْ إِلَى اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –، ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾مِنَ الدُّيُونِ الَّتِي لَكُمْ عَلَى النَّاسِ، دُونَ الزِّيَادَةِ الَّتِي أَحْدَثْتُمُوهَا عَلَى ذَلِكَ رِبًا مِنْكُمْ.

﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾يَعْنِي: بِأَخْذِكُمْ رُءُوسِ أَمْوَالِكُمُ الَّتِي كَانَتْ لَكُمْ قَبْلَ الْإِرْبَاءِ عَلَى غُرَمَائِكُمْ مِنْهُمْ، دُونَ أَرْبَاحِهَا الَّتِي زِدْتُمُوهَا رِبًا عَلَى مَنْ أَخَذْتُمْ ذَلِكَ مِنْهُ مِنْ غُرَمَائِكُمْ، فَتَأْخُذُوا مِنْهُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ أَخْذُهُ، أَوْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ قَبْلُ ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾يَقُولُ: وَلَا الْغَرِيمُ الَّذِي يُعْطِيكُمْ ذَلِكَ دُونَ الرِّبَا الَّذِي كُنْتُمْ أَلْزَمْتُمُوهُ مِنْ أَجْلِ الزِّيَادَةِ فِي الْأَجَلِ، يَبْخَسُكُمْ حَقًّا لَكُمْ عَلَيْهِ فَيَمْنَعُكُمُوهُ؛ لِأَنَّ مَا زَادَ عَلَى رُءُوسِ أَمْوَالِكُمْ لَمْ يَكُنْ حَقًّا لَكُمْ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ بِمَنْعِهِ إِيَّاكُمْ ذَلِكَ ظَالِمًا لَكُمْ.

٢٨٠- ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾يَعْنِي: وَإِنْ كَانَ مِمَّنْ تَقْبِضُونَ مِنْهُ مِنْ غُرَمَائِكُمْ رُءُوسَ أَمْوَالِكُمْ ذُو عُسْرَةٍ، يَعْنِي: مُعْسِرًا بِرُءُوسِ أَمْوَالِكُمُ الَّتِي كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْهِمْ قَبْلَ الْإِرْبَاءِ، فَأَنْظِرُوهُمْ إِلَى مَيْسَرَتِهِمْ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾فَإِنَّهُ يَعْنِي: فَعَلَيْكُمْ أَنْ تُنْظِرُوهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ.[٤٩٦]

---

[٤٩٦] فَلَا تَجُوزُ مَطَالَبَتُهُ بِالدَّيْنِ، وَلَا طَلَبُ الدَّيْنِ مِنْهُ؛ إِلَى أَنْ يُيَسِّرَ اللهُ لَهُ رِزْقًا فَيَدْفَعَ إِلَيْكُمْ مَالَكُمُ الَّذِي أَخَذَهُ مِنْكُمْ، فَالْحُكْمُ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ وُجُودًا وَعَدَمًا؛ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ وُجُوبُ الْإِنْظَارِ مُعَلَّلًا بِالْإِعْسَارِ؛ صَارَ مُسْتَمِرًّا إِلَى أَنْ تَزُولَ الْعِلَّةُ – وَهِيَ الْعُسْرَةُ – حَتَّى تَجُوزَ مُطَالَبَتُهُ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: أُصِيبَ رَجُلٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي ثِمَارٍ ابْتَاعَهَا، فَكَثُرَ دَيْنُهُ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ**»؛ فَتَصَدَّقَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ وَفَاءَ دَيْنِهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِغُرَمَائِهِ: «**خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ، وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة؛ وغيرهم].

قَوْلُهُ: (**خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ، وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ**)مَعْنَاهُ: لَيْسَ لَكُمُ الْآنَ إِلَّا هَذَا وَلَا تَحِلُّ لَكُمْ مُطَالَبَتُهُ مَا دَامَ مُعْسِرًا؛ بَلْ يُنْظَرُ إِلَى مَيْسَرَةٍ[شرح مسلم؛ للنووي].

قَالَ السِّنْدِيُّ فِي حَاشِيَتِهِ عَلَى ابْنِ مَاجَةَ: قَوْلُهُ: (**وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ**) مِنْ زَجْرِهِ وَحَبْسِهِ؛ لِأَنَّهُ ظَهَرَ إِفْلَاسُهُ، وَإِذَا ظَهَرَ إِفْلَاسُ الرَّجُلِ لَا يَجُوزُ حَبْسُهُ بِالدَّيْنِ، بَلْ يُتْرَكُ إِلَى أَنْ يَحْصُلَ لَهُ مَالٌ فَيَأْخُذَ الْغُرَمَاءُ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا مَا وَجَدُوا، وَبَطَلَ مَا بَقِيَ مِنَ الدُّيُونِ!! اهـ.

قُلْتُ: فَالدَّيْنُ لَا يَسْقُطُ بِإِعْسَارِ الْمَدْيُونِ، وَإِنَّمَا تَتَأَخَّرُ عَنْهُ الْمُطَالَبَةُ فِي الْحَالِ، وَمَتَى أَيْسَرَ؛ وَجَبَ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ.

"إِذَا ثَبَتَ أَنَّ هَذَا الْمَدِينَ يَدَّعِي الْإِعْسَارَ وَلَيْسَ بِمُعْسِرٍ؛ فَإِنَّهُ لَا بَأْسَ أَنْ يُجْبَرَ وَيُحْبَسَ وَيُضْرَبَ حَتَّى يُوفِّيَ! فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؛ فَإِنَّ الْحَاكِمَ يَتَوَلَّى بَيْعَ مَا شَاءَ مِنْ مَالِهِ وَيُوَفِّي دَيْنَهُ، أَمَّا الَّذِي نَعْلَم أَنَّهُ مُعْسِرٌ حَقِيقَة؛ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لِطَالِبِهِ أَنْ يُطَالِبَهُ، وَلَا أَنْ يَقُولَ: أَعْطِنِي!! يَجِبُ أَنْ يُعْرِضَ عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ: ﴿**فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ**﴾" [قاله الشيخ الصالح، محمد بن عثيمين، في شرح رياض الصالحين].

﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾يَعْنِي: وَأَنْ تَتَصَدَّقُوا بِرُءُوسِ أَمْوَالِكُمْ عَلَى هَذَا الْمُعْسِرِ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ – أَيُّهَا الْقَوْمُ – مِنْ أَنْ تُنْظِرُوهُ إِلَى مَيْسَرَتِهِ، لِتَقْبِضُوا رُءُوسَ أَمْوَالِكُمْ مِنْهُ إِذَا أَيْسَرَ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾مَوْضِعَ الْفَضْلِ فِي الصَّدَقَةِ، وَمَا أَوْجَبَ اللهُ مِنَ الثَّوَابِ لِمَنْ وَضَعَ عَنْ غَرِيمِهِ الْمُعْسِرِ دَيْنَهُ!.[٤٩٧]

---

[٤٩٧] فَصْلٌ عَظِيمُ النَّفْعِ فِيمَا جَاءَ فِي ثَوَابِ إِنْظَارِ الْمُعْسِرِ، وَالرِّفْقِ بِهِ، وَالتَّجَاوُزِ عَنْهُ:

◆عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا؛ قَالَ لِفِتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا؛ فَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُ!**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد؛ وغيرهم].

◆وَعَنْ حُذَيْفَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**تَلَقَّتِ الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَقَالُوا: أَعَمِلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا؟ قَالَ: لَا، قَالُوا: تَذَكَّرْ! قَالَ: كُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ، فَآمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا الْمُعْسِرَ، وَيَتَجَوَّزُوا عَنِ الْمُوسِرِ، قَالَ: قَالَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: تَجَوَّزُوا عَنْهُ**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم – واللفظ لمسلم –].

◆وَعَنْ حُذَيْفَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: «**أُتِيَ اللهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا، قَالَ: يَا رَبِّ! آتَيْتَنِي مَالَكَ، فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ – وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ – فَكُنْتُ أَتَيَسَّرُ عَلَى الْمُوسِرِ، وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ، فَقَالَ اللهُ: أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِنْكَ؛ تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي**»، فَقَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ الْجُهَنِيُّ، وَأَبُو مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيُّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –: هَكَذَا سَمِعْنَاهُ مِنْ فِيِّ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – [صحيح: رواه مسلم، وغيره].

◆وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، عَنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**إِنَّ رَجُلًا لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ! وَكَانَ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَيَقُولُ لِرَسُولِهِ: خُذْ مَا تَيَسَّرَ، وَاتْرُكْ مَا عَسُرَ، وَتَجَاوَزْ؛ لَعَلَّ اللهَ – تَعَالَى – أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا! فَلَمَّا هَلَكَ، قَالَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ قَالَ: لَا؛ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لِي غُلَامٌ، وَكُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا بَعَثْتُهُ لِيَتَقَاضَى، قُلْتُ لَهُ: خُذْ مَا تَيَسَّرَ، وَاتْرُكْ مَا عَسُرَ، وَتَجَاوَزْ؛ لَعَلَّ اللهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا، قَالَ اللهُ – تَعَالَى –: قَدْ تَجَاوَزْتُ عَنْكَ!**» [صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وابن حبان، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٢٠٧٨)، والتعليقات الحسان(٥٠٢١)، وصحيح الترغيب والترهيب(٩٠٥)].

◆وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ، أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ، طَلَبَ غَرِيمًا لَهُ، فَتَوَارَى عَنْهُ؛ ثُمَّ وَجَدَهُ، فَقَالَ: إِنِّي مُعْسِرٌ، فَقَالَ: آللهِ؟ قَالَ: آللهِ؟ قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، يَقُولُ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ، أَوْ يَضَعْ عَنْهُ**» [صحيح: رواه مسلم، وغيره].

◆وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا، أَوْ وَضَعَ لَهُ؛ أَظَلَّهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ!**» [صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والطبراني في الأوسط؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٦١٠٧)، وصحيح الترغيب والترهيب(٩٠٩)].

◆وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، يَقُولُ: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا؛ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِهِ صَدَقَةٌ**»، قَالَ: ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا؛ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ**»، قُلْتُ: سَمِعْتُكَ يَا رَسُولَ اللهِ تَقُولُ: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا؛ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلِهِ صَدَقَةٌ**»، ثُمَّ سَمِعْتُكَ تَقُولُ: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا؛ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ!**»، قَالَ لَهُ: «**بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ؛ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدَّيْنُ، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ فَأَنْظَرَهُ؛ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ**» [صحيح: رواه أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في الإرواء(١٤٣٨)، والصحيحة(٨٦)، وصحيح الترغيب والترهيب(٩٠٧)].

◆وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا؛ نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ فِي الدُّنْيَا؛ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ فِي الدُّنْيَا؛ سَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ؛ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة؛ وغيرهم].

[**شَرْحُ الْغَرِيبِ**]: (**يُنْظِرُوا الْمُعْسِرَ**)أَيْ: يُمْهِلُوا الْمَدْيُونَ الْفَقِيرَ، فَلَا يُطَالِبُونَهُ بِالدَّيْنِ إِلَى أَنْ يُيَسِّرَ اللهُ عَلَيْهِ. (**وَيَتَجَوَّزُوا عَنِ الْمُوسِرِ**): الْمُوسِرُ: الْغَنِيُّ وَالتَّجَاوُزُ وَالتَّجَوُّزُ، مَعْنَاهُمَا: الْمُسَامَحَةُ فِي الِاقْتِضَاءِ وَالِاسْتِيفَاءِ، وَقَبُول مَا فِيهِ نَقْصٌ يَسِيرٌ. (**فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ**) أَيْ: يَمُدُّ وَيُؤَخِّرُ الْمُطَالَبَةَ إِلَى مُدَّةٍ يَجِدُ مَالًا فِيهَا، وَقِيلَ مَعْنَاهُ: يُفَرِّجُ عَنْهُ. (**أَوْ يَضَعْ عَنْهُ**) الْوَضْعُ عَنْهُ: إِسْقَاطُ الدَّيْنِ عَنْ ذِمَّةِ الْمَدْيُونِ الْفَقِيرِ؛ إِمَّا كُلُّ الدَّيْنِ، وَإِمَّا بَعْضُهُ.

٢٨١- ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثناؤُهُ: وَاحْذَرُوا – أَيُّهَا النَّاسُ – يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ فَتَلْقَوْنَهُ فِيهِ، أَنْ تَرِدُوا عَلَيْهِ بِسَيِّئَاتٍ تُهْلِكُكُمْ، أَوْ بِمُخْزِيَاتٍ تُخْزِيكُمْ، أَوْ بِفَاضِحَاتٍ تَفْضَحُكُمْ، فَتَهْتِك أَسْتَارَكُمْ، أَوْ بِمُوبِقَاتٍ تُوبِقُكُمْ، فَتُوجِبُ لَكُمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ مَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ! وَإِنَّهُ يَوْمُ مُجَازَاةٍ بِالْأَعْمَالِ لَا يَوْمَ اسْتِعْتَابٍ! وَلَا يَوْمَ اسْتِقَالَةٍ وَتَوْبَةٍ وَإِنَابَةٍ! وَلَكِنَّهُ يَوْمُ جَزَاءٍ وَثَوَابٍ وَمُحَاسَبَةٍ!! تُوَفَّى فِيهِ كُلُّ نَفْسٍ أَجْرَهَا عَلَى مَا قَدَّمَتْ وَاكْتَسَبَتْ مِنْ سَيِّئٍ وَصَالِحٍ! لَا تُغَادَرُ فِيهِ صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ إِلَّا أُحْضِرَتْ! فَوُفِّيَتْ جَزَاءَهَا بِالْعَدْلِ مِنْ رَبِّهَا، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

وَكَيْفَ يُظْلَمُ مِنْ جُوزِيَ بِالْإِسَاءَةِ مِثْلَهَا، وَبِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا؟!! كَلَّا! بَلْ عَدَلَ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْمُسِيءُ، وَتَكَرَّمَ عَلَيْكَ فَأَفْضَلَ وَأَسْبَغَ أَيُّهَا الْمُحْسِنُ، فَاتَّقَى امْرُؤٌ رَبَّهُ، وَأَخَذَ مِنْهُ حِذْرَهُ وَرَاقَبَهُ أَنْ يَهْجِمَ عَلَيْهِ يَوْمُهُ، وَهُوَ مِنَ الْأَوْزَارِ ظَهْرُهُ ثَقِيلٌ! وَمِنْ صَالِحَاتِ الْأَعْمَالِ خَفِيفٌ!! فَإِنَّهُ – عَزَّ وَجَلَّ – حَذَّرَ فَأَعْذَرَ، وَوَعَظَ فَأَبْلَغَ!!.

٢٨٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾يَعْنِي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ﴾يَعْنِي: إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴿بِدَيْنٍ[٤٩٨]﴾أَوِ اشْتَرَيْتُمْ بِهِ، أَوْ تَعَاطَيْتُمْ، أَوْ أَخَذْتُمْ بِهِ ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى[٤٩٩]﴾يَقُولُ: إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ وَقَّتُّمُوهُ بَيْنَكُمْ ﴿فَاكْتُبُوهُ[٥٠٠]﴾يَعْنِي: فَاكْتُبُوا الدَّيْنَ الَّذِي تَدَايَنْتُمُوهُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى؛ مِنْ

---

[٤٩٨] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَمَا وَجْهُ قَوْلِهِ: ﴿**بِدَيْنٍ**﴾وَقَدْ دَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿**إِذَا تَدَايَنْتُمْ**﴾عَلَيْهِ؟ وَهَلْ تَكُونُ مُدَايَنَةٌ بِغَيْرِ دَيْنٍ فَاحْتِيجَ إِلَى أَنْ يُقَالَ: بِدَيْنٍ؟ قِيلَ: إِنَّ الْعَرَبَ لَمَّا كَانَ مَقُولًا عِنْدَهَا تَدَايَنَّا بِمَعْنَى: تَجَازَيْنَا، وَبِمَعْنَى: تَعَاطَيْنَا الْأَخْذَ وَالْإِعْطَاءَ بِدَيْنٍ؛ أَبَانَ اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿**بِدَيْنٍ**﴾الْمَعْنَى الَّذِي قَصَدَ تَعْرِيفَهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿**تَدَايَنْتُمْ**﴾حُكْمَهُ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ حُكْمُ الدَّيْنِ دُونَ حُكْمِ الْمُجَازَاةِ اهـ.

والدَّيْنُ: هُوَ كُلُّ مَا ثَبَتَ فِي الذِّمَّةِ؛ مِنْ ثَمَنِ بَيْعٍ، أَوْ أُجْرَة بَيْتٍ، أَوْ دُكَّانٍ، أَوْ بَاقِي صَدَاق امْرَأَةٍ، أَوْ قَرْضٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، الْمُهِمُّ: أَنَّ كُلَّ مَا ثَبَتَ فِي الذِّمَّةِ؛ فَهُوَ دَيْنٌ.

[٤٩٩] (**الْأَجَلُ**): الْوَقْتُ الْمَضْرُوبُ لِإِنْهَاءِ شَيْءٍ، وَ(**الْمُسَمَّى**): الْمُعَيَّنُ بِالتَّسْمِيَةِ؛ كَشَهْرٍ، وَسَنَةٍ – مَثَلًا –.

[٥٠٠] تَمَسَّكَ الطَّبَرِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى – بِظَاهِرِ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**فَاكْتُبُوهُ**﴾، فَقَالَ – مَا مُلَخَّصُهُ –: إِنَّ كَتْبَ الدَّيْنِ وَاجِبٌ فَرْضٌ، وَانْتَصَرَ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى – لِهَذَا الْقَوْلِ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ.

وَلَكِنْ: ثَبَتَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾حَتَّى بَلَغَ: ﴿**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**﴾، فَقَالَ: هَذِهِ نَسَخَتْ مَا قَبْلَهَا [حسن: رواه ابن ماجة، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الأوسط، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة(٢٣٦٥)].

بَيْعٍ كَانَ ذَلِكَ أَوْ قَرْضٍ. ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ﴾يَعْنِي: وَلْيَكْتُبْ كِتَاب الدَّيْنِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى بَيْنَ الدَّائِنِ وَالْمَدِينِ﴿كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ يَعْنِي: بِالْحَقِّ وَالْإِنْصَافِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي يَكْتُبُهُ بَيْنَهُمَا، بِمَا لَا يَحِيفُ ذَا الْحَقِّ حَقَّهُ، وَلَا يَبْخَسُهُ، وَلَا يُوجِبُ لَهُ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ عَلَيْهِ دَيْنُهُ فِيهِ بِبَاطِلٍ، وَلَا يُلْزِمُهُ مَا لَيْسَ عَلَيْهِ.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾يَعْنِي: وَلَا يَأْبَيَنَّ كَاتِبٌ اسْتُكْتِبَ ذَلِكَ، أَنْ يَكْتُبَ بَيْنَهُمْ كِتَابَ الدَّيْنِ، كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ كِتَابَتَهُ فَخَصَّهُ بِعِلْمِ ذَلِكَ، وَحَرَمَهُ كَثِيرًا مِنْ خَلْقِهِ.

﴿فَلْيَكْتُبِ﴾ الْكَاتِبُ، ﴿وَلْيُمْلِلِ[٥٠١]الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ وَهُوَ الْغَرِيمُ الْمَدِينُ، يَقُولُ: لِيَتَوَلَّ الْمَدِينُ إِمْلَالَ كِتَابِ مَا عَلَيْهِ مِنْ دَيْنِ رَبِّ الْمَالِ عَلَى الْكَاتِبِ[٥٠٢] ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ الْمُمْلِي الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ، فَلْيَحْذَرْ عِقَابَهُ فِي بَخْسِ الَّذِي لَهُ الْحَقُّ مِنْ حَقِّهِ شَيْئًا، أَنْ يَنْقُصَهُ مِنْهُ ظُلْمًا، أَوْ يَذْهَبَ بِهِ مِنْهُ تَعَدِّيًا، فَيُؤْخَذَ بِهِ حَيْثُ لَا يَقْدِرُ عَلَى قَضَائِهِ إِلَّا مِنْ حَسَنَاتِهِ! أَوْ أَنْ يَتَحَمَّلَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ!!.

﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾يَعْنِي: فَإِنْ كَانَ الْمَدِينُ الَّذِي عَلَيْهِ الْمَالُ ﴿سَفِيهًا﴾يَعْنِي: جَاهِلًا بِالصَّوَابِ فِي الَّذِي عَلَيْهِ أَنْ يُمِلَّهُ عَلَى الْكَاتِبِ.

﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾هُوَ الْعَاجِزُ عَنْ إِمْلَالِهِ – وَإِنْ كَانَ شَدِيدًا رَشِيدًا –: إِمَّا لِعِيٍّ لِسَانِهِ، أَوْ خَرَسٍ بِهِ ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾هُوَ الْمَمْنُوعُ مِنْ إِمْلَالِهِ: إِمَّا بِالْحَبْسِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ مَعَهُ عَلَى حُضُورِ الْكَاتِبِ الَّذِي يَكْتُبُ الْكِتَابَ فَيُمِلَّ عَلَيْهِ، وَإِمَّا لِغَيْبَتِهِ عَنْ مَوْضِعِ الْإِمْلَالِ، فَهُوَ غَيْرُ قَادِرٍ مِنْ أَجْلِ غَيْبَتِهِ عَنْ إِمْلَالِ الْكِتَابِ، ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾يَعْنِي: وَلِيَّ الْحَقِّ ﴿بِالْعَدْلِ﴾يَعْنِي: بِالْحَقِّ.

---

[٥٠١] **قَالَ فِي الْمِصْبَاحِ الْمُنِيرِ**: أَمْلَلْتُ الْكِتَابَ عَلَى الْكَاتِبِ إِمْلَالًا: أَلْقَيْتُهُ عَلَيْهِ، وَأَمْلَيْتُهُ عَلَيْهِ إِمْلَاءً، وَالْأُولَى لُغَةُ الْحِجَازِ وَبَنِي أَسَدٍ، وَالثَّانِيَةُ لُغَةُ بَنِي تَمِيمٍ وَقَيْسٍ، وَجَاءَ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ بِهِمَا: ﴿**وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ**﴾[البقرة: ٢٨٢] ﴿**فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾[الفرقان: ٥].

[٥٠٢] ؛ لِيَكُونَ إِمْلَالُهُ حُجَّةً عَلَيْهِ تُبَيِّنُهَا الْكِتَابَةُ وَتَحْفَظُهَا!.

﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ[٥٠٣]﴾يَعْنِي: وَاسْتَشْهِدُوا عَلَى حُقُوقِكُمْ شَاهِدَيْنِ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾يَعْنِي: مِنْ أَحْرَارِكُمُ الْمُسْلِمِينَ، دُونَ عَبِيدِكُمْ، وَدُونَ أَحْرَارِكُمُ الْكُفَّارِ.

﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَـ﴾لْيَكُنْ ﴿رَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾عَلَى الشَّهَادَةِ.

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَـ﴾لْيَشْهَدْ ﴿رَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾عَلَى ذَلِكَ.

﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾يَعْنِي: مِنَ الْعُدُولِ الْمُرْتَضَى دِينُهُمْ وَصَلَاحُهُمْ.

﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾يَعْنِي: فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَلْيَشْهَدْ رَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ، كَي إِنْ ضَلَّتْ إِحْدَاهُمَا ذَكَّرَتْهَا الْأُخْرَى.

﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا[٥٠٤]﴾يَعْنِي: وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ مِنَ الْإِجَابَةِ، إِذَا دُعُوا لِإِقَامَةِ الشَّهَادَةِ وَأَدَائِهَا عِنْدَ ذِي سُلْطَانٍ أَوْ حَاكِمٍ يَأْخُذُ مِنَ الَّذِي عَلَيْهِ مَا عَلَيْهِ، لِلَّذِي هُوَ لَهُ.

---

[٥٠٣] عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ يَدْعُونَ اللهَ، فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ: رَجُلٌ كَانَتْ تَحْتَهُ امْرَأَةٌ سَيِّئَةُ الْخُلُقِ فَلَمْ يُطَلِّقْهَا، وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ عَلَى رَجُلٍ مَالٌ فَلَمْ يُشْهِدْ عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ آتَى سَفِيهًا مَالَهُ، وَقَدْ قَالَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ﴾**». [صحيح: أخرجه ابن ابي شيبة في مصنفه، والبيهقي في الكبرى، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة(١٨٠٥)، وصحيح الجامع(٣٠٧٥)]. **قَالَ فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ:** قَوْلُهُ: (**وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ عَلَى رَجُلٍ مَالٌ فَلَمْ يُشْهِدْ عَلَيْهِ**)يَعْنِي: فَأَنْكَرَهُ، فَإِذَا دَعَا لَا يُسْتَجَابُ لَهُ؛ لِأَنَّهُ الْمُفَرِّطُ الْمُقَصِّرُ بِعَدَمِ امْتِثَالِ قَوْله تَعَالَى ﴿**وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ**﴾ اهـ. بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ

[٥٠٤] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:** فَإِنَّ الَّذِي نَقُولُ بِهِ فِي الَّذِي يُدْعَى لِشَهَادَةٍ لِيَشْهَدَ عَلَيْهَا إِذَا كَانَ بِمَوْضِعٍ لَيْسَ بِهِ سِوَاهُ مِمَّنْ يَصْلُحُ لِلشَّهَادَةِ، فَإِنَّ الْفَرْضَ عَلَيْهِ إِجَابَةُ دَاعِيهِ إِلَيْهَا كَمَا فَرْضٌ عَلَى الْكَاتِبِ إِذَا اسْتُكْتِبَ بِمَوْضِعٍ لَا كَاتِبَ بِهِ سِوَاهُ، فَفَرْضٌ عَلَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ، كَمَا فَرْضٌ عَلَى مَنْ كَانَ بِمَوْضِعٍ لَا أَحَدَ بِهِ سِوَاهُ يَعْرِفُ الْإِيمَانَ وَشَرَائِعَ الْإِسْلَامِ، فَحَضَرَهُ جَاهِلٌ بِالْإِيمَانِ وَبِفَرَائِضِ اللهِ فَسَأَلَهُ تَعْلِيمَهُ وَبَيَانَ ذَلِكَ لَهُ أَنْ يُعَلِّمَهُ وَيُبَيِّنَهُ لَهُ، وَلَمْ نُوجِبْ مَا أَوْجَبْنَا عَلَى الرَّجُلِ مِنَ الْإِجَابَةِ لِلشَّهَادَةِ إِذَا دُعِيَ ابْتِدَاءً لِيَشْهَدَ عَلَى مَا أُشْهِدَ عَلَيْهِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَلَكِنْ بِأَدِلَّةٍ سِوَاهَا، وَهِيَ مَا ذَكَرْنَا، وَقَدْ فَرَضْنَا عَلَى الرَّجُلِ إِحْيَاءَ مَا قَدَرَ عَلَى إِحْيَائِهِ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ اهـ.

قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**خَيْرُ الشُّهُودِ؛ مَنْ أَدَّى شَهَادَتَهُ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة – واللفظ له ولأحمد –].

قُلْتُ: فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ خَيْرَ الشُّهُودِ؛ مَنْ أَدَّى شَهَادَتَهُ لِمَنْ هِيَ لَهُ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: عِنْدِي إِشْكَالٌ، وَهُوَ: كَيْفَ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ، وَحَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَفِيهِ: «**ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ**» فِي سِيَاقِ الذَّمِّ لَهُمْ؟

فَالْجَوَابُ: اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا عَلَى أَقْوَالٍ؛ أَحْسَنُهَا: أَنَّ حَدِيثَ عِمْرَانَ مَحْمُولٌ عَلَى شَهَادَةِ الزُّورِ، أَيْ: يُؤَدُّونَ شَهَادَةً لَمْ يَسْبِقْ لَهُمْ بِهَا عِلْمٌ. وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ: مَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، وَفِيهِ: «...**ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ، حَتَّى يَشْهَدَ الرَّجُلُ عَلَى الشَّهَادَةِ لَا يُسْأَلُهَا**...» [صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه، والطبراني في الكبير والأوسط، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٢٥٤٦)]. قَالَ التِّرْمِذِيُّ فِي أَوَاخِرِ الشَّهَادَاتِ: الْمُرَادُ بِهِ: شَهَادَةُ الزُّورِ [قاله في تحفة الأحوذي].

﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾يَعْنِي: وَلَا تَسْأَمُوا – أَيُّهَا الَّذِينَ تُدَايِنُونَ النَّاسَ إِلَى أَجَلٍ – أَنْ تَكْتُبُوا صَغِيرَ الْحَقِّ، يَعْنِي: قَلِيلَهُ أَوْ كَبِيرَهُ، يَعْنِي: أَوْ كَثِيرَهُ ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾إِلَى أَجَلِ الْحَقِّ؛ فَإِنَّ الْكِتَابَ أَحْصَى لِلْأَجَلِ وَالْمَالِ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا﴾: لَا تَمَلُّوا.

﴿ذَلِكُمْ﴾يَعْنِي: اكْتِتَابُ كِتَابِ الدَّيْنِ إِلَى أَجَلِهِ، ﴿أَقْسَطُ[٥٠٥]عِنْدَ اللهِ﴾يَعْنِي: أَعْدَلُ عِنْدَ اللهِ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾يَعْنِي: وَأَصْوَبُ لِلشَّهَادَةِ.

وَإِنَّما كَانَ الْكِتَابُ أَعْدَلَ عِنْدَ اللهِ، وَأَصْوَبَ لِشَهَادَةِ الشُّهُودِ عَلَى مَا فِيهِ؛ لِأَنَّهُ يَحْوِي الْأَلْفَاظَ الَّتِي أَقَرَّ بِهَا الْبَائِعُ وَالْمُشْتَرِي وَرَبُّ الدَّيْنِ وَالْمُسْتَدِينُ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَا يَقَعُ بَيْنَ الشُّهُودِ اخْتِلَافٌ فِي أَلْفَاظِهِمْ بِشَهَادَتِهِمْ؛ لِاجْتِمَاعِ شَهَادَتِهِمْ عَلَى مَا حَوَاهُ الْكِتَابُ، وَإِذَا اجْتَمَعَتْ شَهَادَتُهُمْ عَلَى ذَلِكَ؛ كَانَ فَصْلُ الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ أَبْيَنَ لِمَنِ احْتُكِمَ إِلَيْهِ مِنَ الْحُكَّامِ، مَعَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ.

وَهُوَ أَعْدَلُ عِنْدَ اللهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَمَرَ بِهِ، وَاتِّبَاعُ أَمْرِ اللهِ لَا شَكَّ أَنَّهُ عِنْدَ اللهِ أَقْسَطُ وَأَعْدَلُ مِنْ تَرْكِهِ وَالِانْحِرَافِ عَنْهُ.

﴿وَأَدْنَى﴾يَعْنِي: وَأَقْرَبُ ﴿أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ مِنْ أَنْ لَا تَشُكُّوا فِي الشَّهَادَةِ.

وَمَعْنَى الْكَلَامِ: وَلَا تَمَلُّوا – أَيُّهَا الْقَوْمُ – أَنْ تَكْتُبُوا الْحَقَّ الَّذِي لَكُمْ قِبَلَ مَنْ دَايَنْتُمُوهُ مِنَ النَّاسِ إِلَى أَجَلٍ؛ صَغِيرًا كَانَ ذَلِكَ الْحَقُّ، قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا، فَإِنَّ كِتَابَكُمْ ذَلِكَ أَعْدَلُ عِنْدَ اللهِ، وَأَصْوَبُ لِشَهَادَةِ شُهُودِكُمْ عَلَيْهِ، وَأَقْرَبُ لَكُمْ أَنْ لَا تَشُكُّوا فِيمَا شَهِدَ بِهِ شُهُودُكُمْ عَلَيْكُمْ مِنَ الْحَقِّ وَالْأَجَلِ إِذَا كَانَ مَكْتُوبًا.

ثُمَّ اسْتَثْنَى جَلَّ ذِكْرُهُ مِمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ أَنْ يَسْأَمُوهُ مِنَ اكْتِتَابِ كُتُبِ حُقُوقِهِمْ عَلَى غُرَمَائِهِمْ بِالْحُقُوقِ الَّتِي لَهُمْ عَلَيْهِمْ، مَا وَجَبَ لَهُمْ قِبَلَهُمْ مِنْ حَقٍّ عَنْ مُبَايَعَةٍ بِالنُّقُودِ الْحَاضِرَةِ يَدًا بِيَدٍ، فَرَخَّصَ لَهُمْ فِي تَرْكِ

---

[٥٠٥] قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: يُقَالُ مِنْهُ: أَقْسَطَ الْحَاكِمُ فَهُوَ يُقْسِطُ إِقْسَاطًا وَهُوَ مُقْسِطٌ: إِذَا عَدَلَ فِي حُكْمِهِ، وَأَصَابَ الْحَقَّ فِيهِ، فَإِذَا جَارَ؛ قِيلَ: قَسَطَ فَهُوَ يَقْسِطُ قُسُوطًا، وَمِنْهُ قَوْلُ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾يَعْنِي: الْجَائِرُونَ.

اكْتِتَابِ الْكُتُبِ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ – أَعْنِي: مِنَ الْبَاعَةِ وَالْمُشْتَرِينَ – يَقْبِضُ – إِذَا كَانَ الْوَاجِبُ بَيْنَهُمْ فِيمَا يَتَبَايَعُونَهُ نَقْدًا – مَا وَجَبَ لَهُ قِبَلَ مُبَايِعِيهِ قَبْلَ الْمُفَارَقَةِ، فَلَا حَاجَةَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَى اكْتِتَابِ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ عَلَى الْفَرِيقِ الْآخَرِ كِتَابًا بِمَا وَجَبَ لَهُمْ قِبَلَهُمْ، وَقَدْ تَقَابَضُوا الْوَاجِبَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ، فَلِذَلِكَ قَالَ – تَعَالَى ذِكْرُهُ –: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ لَا أَجَلَ فِيهَا وَلَا تَأْخِيرَ وَلَا نَسَاءَ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ يَقُولُ: فَلَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَكْتُبُوهَا – يَعْنِي: التِّجَارَةَ الْحَاضِرَةَ –.

﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ يَعْنِي: وَأَشْهِدُوا عَلَى صَغِيرِ مَا تَبَايَعْتُمْ وَكَبِيرِهِ مِنْ حُقُوقِكُمْ، عَاجِلِ ذَلِكَ وَآجِلِهِ، وَنَقْدِهِ وَنَسَائِهِ، فَإِنَّ إِرْخَاصِي لَكُمْ فِي تَرْكِ اكْتِتَابِ الْكُتُبِ بَيْنَكُمْ فِيمَا كَانَ مِنْ حُقُوقٍ تَجْرِي بَيْنَكُمْ لِبَعْضِكُمْ مِنْ قِبَلِ بَعْضٍ عَنْ تِجَارَةٍ حَاضِرَةٍ دَائِرَةٍ بَيْنَكُمْ يَدًا بِيَدٍ وَنَقَدًا، لَيْسَ بِإِرْخَاصٍ مِنِّي لَكُمْ فِي تَرْكِ الْإِشْهَادِ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ بِعْتُمُوهُ شَيْئًا أَوِ ابْتَعْتُمْ مِنْهُ؛ لِأَنَّ فِي تَرْكِكُمُ الْإِشْهَادَ عَلَى ذَلِكَ خَوْفَ الْمَضَرَّةِ عَلَى كُلٍّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ.

أَمَّا عَلَى الْمُشْتَرِي: فَأَنْ يَجْحَدَ الْبَائِعُ الْبَيْعَ، وَلَهُ بَيِّنَةٌ عَلَى مِلْكِهِ مَا قَدْ بَاعَ، وَلَا بَيِّنَةَ لِلْمُشْتَرِي مِنْهُ عَلَى الشِّرَاءِ مِنْهُ! فَيَكُونُ الْقَوْلُ حِينَئِذٍ قَوْلَ الْبَائِعِ مَعَ يَمِينِهِ وَيُقْضَى لَهُ بِهِ، فَيَذْهَبُ مَالُ الْمُشْتَرِي بَاطِلًا!!.

وَأَمَّا عَلَى الْبَائِعِ: فَأَنْ يَجْحَدَ الْمُشْتَرِي الشِّرَاءَ، وَقَدْ زَالَ مِلْكُ الْبَائِعِ عَمَّا بَاعَ، وَوَجَبَ لَهُ قِبَلَ الْمُبْتَاعِ ثَمَنُ مَا بَاعَ، فَيَحْلِفُ عَلَى ذَلِكَ! فَيَبْطُلُ حَقُّ الْبَائِعِ قِبَلَ الْمُشْتَرِي مِنْ ثَمَنِ مَا بَاعَهُ!!.

فَأَمَرَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – الْفَرِيقَيْنِ بِالْإِشْهَادِ؛ لِئَلَّا يَضِيعَ حَقُّ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ قِبَلَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ.

﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ كَانَ أَحَدُهُمْ يَجِيءُ إِلَى الْكَاتِبِ فَيَقُولُ: اكْتُبْ لِي، فَيَقُولُ: إِنِّي مَشْغُولٌ أَوْ لِي حَاجَةٌ، فَانْطَلِقْ إِلَى غَيْرِي، فَيَلْزَمُهُ وَيَقُولُ: إِنَّكَ قَدْ أُمِرْتَ أَنْ تَكْتُبَ لِي، فَلَا يَدَعُهُ وَيُضَارُّهُ بِذَلِكَ وَهُوَ يَجِدُ غَيْرَهُ! وَيَأْتِي الرَّجُلُ فَيَقُولُ: انْطَلِقْ مَعِي، فَيَقُولُ: اذْهَبْ إِلَى غَيْرِي فَإِنِّي مَشْغُولٌ أَوْ لِي حَاجَةٌ، فَيَلْزَمُهُ وَيَقُولُ: قَدْ أُمِرْتَ أَنْ تَتْبَعَنِي، فَيُضَارَّهُ بِذَلِكَ، وَهُوَ يَجِدُ غَيْرَهُ!!.

﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا﴾ يَعْنِي: وَإِنْ تُضَارُّوا الْكَاتِبَ أَوِ الشَّاهِدَ، وَمَا نُهِيتُمْ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ؛ ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ يَعْنِي: إِثْمٌ بِكُمْ وَمَعْصِيَةٌ.

﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ يَعْنِي: وَخَافُوا اللهَ – أَيُّهَا الْمُتَدَايِنُونَ – فِي الْكِتَابِ وَالشُّهُودِ أَنْ تُضَارُّوهُمْ، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ حُدُودِ اللهِ أَنْ تُضَيِّعُوهُ، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ[٥٠٦]﴾ يَعْنِي: وَيُبَيِّنُ لَكُمُ الْوَاجِبَ لَكُمْ وَعَلَيْكُمْ، فَاعْمَلُوا بِهِ ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يَعْنِي: مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَغَيْرِهَا، يُحْصِيهَا عَلَيْكُمْ، لِيُجَازِيَكُمْ بِهَا.

٢٨٣– ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يَعْنِي: وَإِنْ كُنْتُمْ – أَيُّهَا الْمُتَدَايِنُونَ – فِي سَفَرٍ بِحَيْثُ لَا تَجِدُونَ كَاتِبًا يَكْتُبُ لَكُمْ، وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ إِلَى اكْتِتَابِ كِتَابِ الدَّيْنِ الَّذِي تَدَايَنْتُمُوهُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى بَيْنَكُمُ الَّذِي أَمَرْتُكُمْ بِاكْتِتَابِهِ وَالْإِشْهَادِ عَلَيْهِ سَبِيلٌ؛ ﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ يَعْنِي: فَارْتَهِنُوا بِدِيُونِكُمُ الَّتِي تَدَايَنْتُمُوهَا إِلَى الْأَجَلِ الْمُسَمَّى رُهُونًا تَقْبِضُونَهَا مِمَّنْ تُدَايِنُونَهُ كَذَلِكَ؛ لِيَكُونَ ثِقَةً لَكُمْ بِأَمْوَالِكُمْ.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ[٥٠٧] وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ يَعْنِي: فَإِنْ كَانَ الْمَدِينُ أَمِينًا عِنْدَ رَبِّ الْمَالِ وَالدَّيْنِ فَلَمْ يَرْتَهِنْ مِنْهُ فِي سَفَرِهِ رَهْنًا بِدَيْنِهِ لِأَمَانَتِهِ عِنْدَهُ عَلَى مَالِهِ وَثِقَتِهِ، فَلْيَتَّقِ اللهَ الْمَدِينُ رَبَّهُ، يَقُولُ:

---

[٥٠٦] **تَنْبِيهٌ مُهِمٌّ:** قَالَ فِي تَفْسِيرِ الْمَنَارِ نَقْلًا عَنْ شَيْخِهِ: اشْتُهِرَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْمُدَّعِينَ لِلتَّصَوُّفِ فِي مَعْنَى هَاتَيْنِ الْجُمْلَتَيْنِ: ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ**﴾: أَنَّ التَّقْوَى تَكُونُ سَبَبًا لِلْعِلْمِ، وَبَنَوْا عَلَى ذَلِكَ أَنَّ سُلُوكَ طَرِيقَتِهِمْ، وَمَا يَأْتُونَهُ فِيهَا مِنَ الرِّيَاضَةِ وَتِلَاوَةِ الْأَوْرَادِ وَالْأَحْزَابِ(!) تُثْمِرُ لَهُمُ الْعُلُومَ الْآلِهِيَّةَ، وَعِلْمَ النَّفْسِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ بِدُونِ تَعَلُّمٍ!!.

وَهَذَا الزَّعْمُ فَتَحَ لِلْجَاهِلِينَ الَّذِينَ يَلْبَسُونَ لِبَاسَ الصَّلَاحِ دَعْوَى الْعِلْمِ بِاللهِ وَفَهْمِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَمَعْرِفَةِ أَسْرَارِ الشَّرِيعَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا قَدْ تَعَلَّمُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا(!) وَالْعَامَّةُ تُسَلِّمُ لَهُمْ بِهَذِهِ الدَّعْوَى! وَتُصَدِّقُ قَوْلَهُمْ: أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي تَوَلَّى تَعْلِيمَهُمْ!! وَيُسَمُّونَ عِلْمَهُمْ هَذَا بِـ(الْعِلْمِ اللَّدُنِّيِّ)!!!.

وَيُرَدُّ اسْتِدْلَالُهُمْ بِالْآيَةِ عَلَى ذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَا يَرْضَى بِهِ سِيبَوَيْهِ – وَلَهُ الْحَقُّ فِي ذَلِكَ –؛ لِأَنَّ عَطْفَ (يُعَلِّمُكُمْ) عَلَى (اتَّقُوا اللهَ) يُنَافِي أَنْ يَكُونَ جَزَاءً لَهُ وَمُرَتَّبًا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَةَ...

وَالثَّانِي: أَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا عِبَارَةٌ عَنْ جَعْلِ الْمُسَبَّبِ سَبَبًا وَالْفَرْعِ أَصْلًا وَالنَّتِيجَةِ مُقَدِّمَةً!! فَإِنَّ الْمَعْرُوفَ الْمَعْقُولَ أَنَّ الْعِلْمَ هُوَ الَّذِي يُثْمِرُ التَّقْوَى، فَلَا تَقْوَى بِلَا عِلْمٍ! فَالْعِلْمُ: هُوَ الْأَصْلُ الْأَوَّلُ، وَعَلَيْهِ الْمُعَوَّلُ اهـ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ برجس فِي (عَوَائِقِ الطَّلَبِ) بَعْدَ نَقْلِهِ مَا تَقَدَّمَ: وَهَذَا كَلَامٌ جَيِّدٌ! وَيُضَافُ إِلَيْهِ – إِيضَاحًا –: أَنَّ الْعَمَلَ يُكْسِبُ الْقَلْبَ قُوَّةً إِيمَانِيَّةً، فَيَسْتَوْعِبُ مِنَ الْعُلُومِ، وَيُدْرِكُ مِنَ الْفَوَائِدِ، مَا لَا يُدْرِكُهُ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْ هَذِهِ الرُّتْبَةِ؛ وَهَذَا مُشَاهَدٌ بِالْعِيَانِ وَمُدْرَكٌ بِالْحِسِّ!.

أَمَّا مَنْ تَعَبَّدَ للهِ وَتَرَكَ الْعِلْمَ، وَقَالَ: ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ**﴾؛ فَهُوَ جَاهِلٌ لَا تُجَارِيهِ الرَّعَاعُ فِي جَهْلِهِ!! وَاللهُ الْحَافِظُ اهـ.

[٥٠٧] فَصَاحِبُ الْمَالِ قَدْ عَمِلَ مَعَكَ مَعْرُوفًا عَظِيمًا؛ حَيْثُ أَقْرَضَكَ مَالَهُ بِغَيْرِ كِتَابٍ وَلَا إِشْهَادٍ وَلَا رَهْنٍ، وَرَضِيَ بِأَمَانَتِكَ! فَيَتَأَكَّدُ عَلَيْكَ أَدَاءُ الْأَمَانَةِ مِنْ جِهَتَيْنِ: أَدَاءً لِحَقِّ اللهِ، وَامْتِثَالًا لِأَمْرِهِ، وَوَفَاءً بِحَقِّ صَاحِبِ الْمَالِ، الَّذِي رَضِيَ بِأَمَانَتِكَ وَوَثِقَ بِكَ!.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**» [صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، والدارقطني في سننه، والدارمي في سننه، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الأوسط، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في الإرواء(١٥٤٤)، والصحيحة(٤٢٣)، وصحيح الجامع(٢٤٠)].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: مَا خَطَبَنَا النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، إِلَّا قَالَ: «**لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ**» [صحيح: رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الكبرى، والطبراني في الأوسط؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٧١٧٩)، وصحيح الترغيب والترهيب(٣٠٠٤)، والتعليقات الحسان(١٩٤)].

فَلْيَخَفِ اللهَ رَبَّهُ فِي الَّذِي عَلَيْهِ مِنْ دَيْنِ صَاحِبِهِ أَنْ يَجْحَدَهُ، أَوْ يَلُطَّ دُونَهُ[508]، أَوْ يُحَاوِلَ الذَّهَابَ بِهِ، فَيَتَعَرَّضَ مِنْ عُقُوبَةِ اللهِ مَا لَا قِبَلَ لَهُ بِهِ، وَلْيُؤَدِّ دَيْنَهُ الَّذِي ائْتَمَنَهُ عَلَيْهِ، إِلَيْهِ.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ[509]﴾وَهَذَا خِطَابٌ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – لِلشُّهُودِ الَّذِينَ أَمَرَ الْمُسْتَدِينَ وَرَبَّ الْمَالِ بِإِشْهَادِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا، وَلَا تَكْتُمُوا – أَيُّهَا الشُّهُودُ – بَعْدَ مَا شَهِدْتُمْ شَهَادَتَكُمْ عِنْدَ الْحُكَّامِ، كَمَا شَهِدْتُمْ عَلَى مَا شَهِدْتُمْ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ أَجِيبُوا مَنْ شَهِدْتُمْ لَهُ إِذَا دَعَاكُمْ لِإِقَامَةِ شَهَادَتِكُمْ عَلَى خَصْمِهِ عَلَى حَقِّهِ عِنْدَ الْحَاكِمِ الَّذِي يَأْخُذُ لَهُ بِحَقِّهِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ الشَّاهِدَ – جَلَّ ثناؤُهُ – مَا عَلَيْهِ فِي كِتْمَانِ شَهَادَتِهِ، وَإِبَائِهِ مِنْ أَدَائِهَا وَالْقِيَامِ بِهَا عِنْدَ حَاجَةِ الْمُسْتَشْهِدِ إِلَى قِيَامِهِ بِهَا عِنْدَ حَاكِمٍ أَوْ ذِي سُلْطَانٍ؛ فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا﴾يَعْنِي: وَمَنْ يَكْتُمْ شَهَادَتَهُ ، ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾يَقُولُ: فَاجِرٌ قَلْبُهُ، مُكْتَسِبٌ بِكِتْمَانِهِ إِيَّاهَا مَعْصِيَةَ اللهِ.

﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾فِي شَهَادَتِكُمْ: مِنْ إِقَامَتِهَا وَالْقِيَامِ بِهَا، أَوْ كِتْمَانِكُمْ إِيَّاهَا عِنْدَ حَاجَةِ مَنِ اسْتَشْهَدَكُمْ إِلَيْهَا، وَبِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَرَائِرِ أَعْمَالِكُمْ وَعَلَانِيَتِهَا، ﴿عَلِيمٌ﴾يُحْصِيهِ عَلَيْكُمْ؛ لِيَجْزِيَكُمْ بِذَلِكَ كُلِّهِ جَزَاءَكُمْ: إِمَّا خَيْرًا، وَإِمَّا شَرًّا؛ عَلَى قَدْرِ اسْتِحْقَاقِكُمْ.

٢٨٤– ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾لِلَّهِ مُلْكُ كُلِّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، وَإِلَيْهِ تَدْبِيرُ جَمِيعِهِ، وَبِيَدِهِ صَرْفُهُ وَتَقْلِيبُهُ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ مُدَبِّرُهُ وَمَالِكُهُ وَمُصَرِّفُهُ.

﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾يَقُولُ: وَإِنْ تُظْهِرُوا فِيمَا عِنْدَكُمْ مِنَ الشَّهَادَةِ عَلَى حَقِّ رَبِّ الْمَالِ الْجُحُودَ وَالْإِنْكَارَ، أَوْ تُخْفُوا ذَلِكَ فَتُضْمِرُوهُ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ سَيِّئِ أَعْمَالِكُمْ،

---

[508] اللَّطُّ فِي الْخَبَرِ: أَنْ تَكْتُمَهُ وَتُظْهِرَ غَيْرَهُ [المحيط في اللغة].

[509] عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ ابْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ، وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ؛ حَتَّى تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ، وَقَطْعَ الْأَرْحَامِ، وَظُهُورَ شَهَادَةِ الزُّورِ، وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ!**» [صحيح: رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، والطحاوي في مشكل الآثار، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في الصحيحة(٦٤٧)، وصحيح الأدب المفرد(٨٠٥)].

﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾[٥١٠] يَعْنِي بِذَلِكَ: يَحْتَسِبُ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَيُجَازِي مَنْ شَاءَ مِنْكُمْ مِنَ الْمُسِيئِينَ بِسُوءِ عَمَلِهِ، وَغَافِرٌ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ مِنَ الْمُسِيئِينَ.

﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يَعْنِي: فَيُعَرِّفُ مُؤْمِنَكُمْ تَفَضُّلَهُ بِعَفْوِهِ عَنْهُ وَمَغْفِرَتَهُ لَهُ فَيَغْفِرُهُ لَهُ، وَيُعَذِّبُ مُنَافِقَكُمْ عَلَى الشَّكِّ الَّذِي انْطَوَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي وَحْدَانِيَّةِ خَالِقِهِ وَنُبُوَّةِ أَنْبِيَائِهِ. ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يَعْنِي: وَاللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – عَلَى الْعَفْوِ عَمَّا أَخْفَتْهُ نَفْسُ هَذَا الْمُؤْمِنِ مِنَ الْهَمَّةِ بِالْخَطِيئَةِ، وَعَلَى عِقَابِ

---

[٥١٠] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: أَنَّ مُحَاسَبَةَ اللهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا هُوَ مُحَاسِبُهُمْ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي أَخْفَتْهَا أَنْفُسُهُمْ غَيْرُ مُوجِبَةٍ لَهُمْ مِنْهُ عُقُوبَةً، بَلْ مُحَاسَبَتُهُ إِيَّاهُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ عَلَيْهَا؛ لِيُعَرِّفُهُمْ تَفَضُّلَهُ عَلَيْهِمْ بِعَفْوِهِ لَهُمْ عَنْهَا، كَمَا بَلَغَنَا...عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنْ نَبِيِّ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**يُدْنِي اللهُ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِسَيِّئَاتِهِ، يَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ! فَيَقُولُ: سَتَرْتُهَا فِي الدُّنْيَا وَأَغْفِرُهَا الْيَوْمَ، ثُمَّ يُظْهِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ، فَيَقُولُ: هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ – أَوْ كَمَا قَالَ – وَأَمَّا الْكَافِرُ؛ فَإِنَّهُ يُنَادِي بِهِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ**» اهـ. قُلْتُ: وَالْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا.

قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: ثُمَّ رَفَعَ اللهُ – تَعَالَى – الْمُؤَاخَذَةَ بِمَا فِي النُّفُوسِ، فَنُسِخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِالْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا:

عَنْ مَرْوَانَ الْأَصْفَرِ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: – أَحْسِبُهُ ابْنَ عُمَرَ –: ﴿**إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ**﴾ قَالَ: «**نَسَخَتْهَا الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا**» [صحيح: رواه البخاري، وغيره].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: ﴿**لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾، قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ! فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللهِ! كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلَاةَ، وَالصِّيَامَ، وَالْجِهَادَ، وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا!! قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟! بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**»، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ؛ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ؛ نَسَخَهَا اللهُ – تَعَالَى –، فَأَنْزَلَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾ قَالَ: «**نَعَمْ**» ﴿**رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا**﴾ قَالَ: «**نَعَمْ**» ﴿**رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ**﴾ قَالَ: «**نَعَمْ**» ﴿**وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ قَالَ: «**نَعَمْ**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد؛ وغيرهما].

ثُمَّ جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُؤَكِّدَةً لِاسْتِقْرَارِ الْحُكْمِ عَلَى عَدَمِ الْمُؤَاخَذَةِ بِمَا فِي النُّفُوسِ؛ فَمِنْهَا:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا؛ مَا لَمْ تَعْمَلْ، أَوْ تَتَكَلَّمْ**» [صحيح: رواه البخاري – واللفظ له –، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة؛ وغيرهم].

وَعَنْهُ – أَيْضًا – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: قَالَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: «**إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً؛ فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ، فَإِذَا عَمِلَهَا؛ فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً؛ فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا، فَإِذَا عَمِلَهَا؛ فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا**» [صحيح: رواه مسلم، وأحمد، وابن حبان في صحيحه؛ وغيرهم].

فَائِدَةٌ مُهِمَّةٌ: قَالَ الطَّبَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: فَأَمَّا مَنْ كَانَ مَا أَخْفَتْهُ نَفْسُهُ شَكًّا فِي اللهِ وَارْتِيَابًا فِي نُبُوَّةِ أَنْبِيَائِهِ؛ فَذَلِكَ هُوَ الْهَالِكُ الْمُخَلَّدُ فِي النَّارِ! الَّذِي أَوْعَدَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، بِقَوْلِهِ: ﴿**وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ**﴾ اهـ.

هَذَا الْكَافِرِ عَلَى مَا أَخْفَتْهُ نَفْسُهُ مِنَ الشَّكِّ فِي تَوْحِيدِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَنُبُوَّةِ أَنْبِيَائِهِ، وَمُجَازَاةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى كُلِّ مَا كَانَ مِنْهُ، وَعَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ قَادِرٌ.

٢٨٥- ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ يَعْنِي: صَدَّقَ الرَّسُولُ - يَعْنِي رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَقَرَّ ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ يَعْنِي: بِمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَمَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ وَحَرَامٍ، وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ، وَأَمْرٍ وَنَهْيٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ مَا فِيهِ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي حَوَاهَا.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ[٥١١] وَكُتُبِهِ[٥١٢] وَرُسُلِهِ[٥١٣]﴾ يَقُولُ: وَصَدَّقَ الْمُؤْمِنُونَ - أَيْضًا - مَعَ نَبِيِّهِمْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ.

---

[٥١١] **قَالَ الْعَلَّامَةُ الْأَزْهَرِيُّ السَّلَفِيُّ مُحَمَّد خَلِيل هَرَّاس فِي شَرْحِ الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ:** وَالْمَلَائِكَةُ: جَمْعُ مَلَكٍ، وَأَصْلُهُ مَأْلَكٌ؛ مِنَ الْأَلُوكَةِ؛ وَهِيَ الرِّسَالَةُ.

وَهُمْ نَوْعٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، أَسْكَنَهُمْ سَمَوَاتِهِ، وَوَكَّلَهُمْ بِشُؤُونِ خَلْقِهِ، وَوَصَفَهُمْ فِي كِتَابِهِ بِأَنَّهُمْ: ﴿**لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾، وَأَنَّهُمْ: ﴿**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ**﴾.

فَيَجِبُ عَلَيْنَا الْإِيمَانُ بِمَا وَرَدَ فِي حَقِّهِمْ مِنْ صِفَاتٍ وَأَعْمَالٍ فِي الْكِتَابِ والسُّنَّةِ، وَالْإِمْسَاكُ عَمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ هَذَا مِنْ شُؤُونِ الْغَيْبِ الَّتِي لَا نَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا عَلَّمَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ اهـ.

قُلْتُ: وَهُمْ أَجْسَادٌ - لَيْسَ كَمَا يَزْعُمُ الزَّاعِمُونَ: أَنَّهُمْ أَرْوَاحٌ!! -؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ**﴾، وَقَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ: إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ!!**» [صحيح: رواه أبو داود، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والهيثمي في المجمع، وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح؛ وصححه الألباني في الصحيحة(١٥١)، وصحيح الجامع(٨٥٤)، ومختصر العلو(٧٥)، والمشكاة(٥٧٢٨)، وقال الحافظ في الفتح: إسناده على شرط الصحيح].

وَقَالَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ: رِجْلَاهُ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَعَلَى قَرْنِهِ الْعَرْشُ، وَبَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعَاتِقِهِ؛ خَفَقَانُ الطَّيْرِ سَبْعِمِائَةِ سَنَةٍ، يَقُولُ ذَلِكَ الْمَلَكُ: سُبْحَانَكَ حَيْثُ كُنْتَ!**» [صحيح: أخرجه الطبراني في الأوسط؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(٨٥٣)].

قُلْتُ: فَهَذِهِ الْأَدِلَّةُ - كَمَا تَرَى - تُبْطِلُ قَوْلَ مَنْ قَالَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ: أَنَّهُمْ أَرْوَاحٌ!!!.

[٥١٢] **قَالَ الْعَلَّامَةُ الْأَزْهَرِيُّ السَّلَفِيُّ مُحَمَّد خَلِيل هَرَّاس فِي شَرْحِ الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ:** وَالْكُتُبُ: جَمْعُ كِتَابٍ، وَهُوَ مِنَ الْكَتْبِ؛ بِمَعْنَى: الْجَمْعِ وَالضَّمِّ، وَالْمُرَادُ بِهَا: الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -.

وَالْمَعْلُومُ لَنَا مِنْهَا: صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ، وَالتَّوْرَاةُ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى فِي الْأَلْوَاحِ، وَالْإِنْجِيلُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عِيسَى، وَالزَّبُورُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى دَاوُدَ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الَّذِي هُوَ آخِرُهَا نُزُولًا، وَهُوَ الْمُصَدِّقُ لَهَا، وَالْمُهَيْمِنُ عَلَيْهَا، وَمَا عَدَاهَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ إِجْمَالًا اهـ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: وَلْيُعْلَم أَنَّ التَّوْرَاةَ الَّتِي بِأَيْدِي الْيَهُودِ الْيَوْم، وَالْإِنْجِيلَ الَّذِي بِأَيْدِي النَّصَارَى، لَا يُوثَقُ بِهِمَا؛ لِأَنَّهُمْ حَرَّفُوا! وَبَدَّلُوا! وَكَتَمُوا الْحَقَّ!! اهـ.

[٥١٣] **(الرَّسُولُ)**: هُوَ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ جَدِيدٍ. وَأَوَّلُ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ: نُوحٌ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَآخِرُهُمْ: مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

وَالْإِيمَانُ بِرُسُلِ اللهِ - تَعَالَى - لَا يَتِمُّ حَتَّى يُؤْمِنَ الْعَبْدُ بِجَمِيعِهِمْ مِنْ غَيْرِ حَصْرٍ؛ مَنْ قَصَّهُمُ اللهُ عَلَيْنَا، وَمَنْ لَمْ يَقْصُصْهُمْ.

وَعَلَيْهِ: فَمَنْ كَفَرَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِهِمْ كُلِّهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا**﴾.

فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِجَمِيعِ رُسُلِ اللهِ دُونَ تَفْرِيقٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾يَعْنِي: وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، يَقُولُونَ: لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ.

﴿وَقَالُوا﴾يَعْنِي: وَقَالَ الْكَلُّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿سَمِعْنَا﴾قَوْلَ رَبِّنَا، وَأَمْرَهُ إِيَّانَا بِمَا أَمَرَنَا بِهِ، وَنَهْيَهُ عَمَّا نَهَانَا عَنْهُ، ﴿وَأَطَعْنَا﴾رَبَّنَا فِيمَا أَلْزَمَنَا مِنْ فَرَائِضِهِ، وَاسْتعَبْدَنَا بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ، وَسَلَّمْنَا لَهُ، ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾يَعْنِي: وَقَالُوا: غُفْرَانَكَ رَبَّنَا، بِمَعْنَى: اغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا غُفْرَانَكَ، كَمَا يُقَالُ: سُبْحَانَكَ، بِمَعْنَى: نُسَبِّحُكَ سُبْحَانَكَ.

﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾يَعْنِي: وَإِلَيْكَ يَا رَبَّنَا مَرْجِعُنَا وَمَعَادُنَا، فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا.

٢٨٦- ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا[٥١٤]﴾يَعْنِي: لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا فَيَتَعَبَّدُهَا إِلَّا بِمَا يَسَعُهَا: فَلَا يُضَيِّقُ عَلَيْهَا، وَلَا يُجْهِدُهَا.

﴿لَهَا﴾يَعْنِي: لِلنَّفْسِ الَّتِي أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّفُهَا إِلَّا وُسْعَهَا، ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ مَا اجْتَرَحَتْ وَعَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ؛ ﴿وَعَلَيْهَا﴾يَعْنِي: وَعَلَى كُلِّ نَفْسٍ ﴿مَا اكْتَسَبَتْ﴾مَا عَمِلَتْ مِنْ شَرٍّ.

فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ إِذًا: لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا يَسَعُهَا، فَلَا يُجْهِدُهَا، وَلَا يُضَيِّقُ عَلَيْهَا فِي أَمْرِ دِينِهَا، فَيُؤَاخِذُهَا بِهَمَّةٍ إِنْ هَمَّتْ، وَلَا بِوَسْوَسَةٍ إِنْ عَرَضَتْ لَهَا، وَلَا بِخَطْرَةٍ إِنْ خَطَرَتْ بِقَلْبِهَا.

---

[٥١٤] قَوْلُهُ: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾أَيْ: لَا يُلْزِمُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا تُطِيقُ؛ فَخَرَجَ هُنَا حَدِيثُ النَّفْسِ وَالْوَسْوَسَةِ؛ لِأَنَّهُمَا خَارِجَانِ عَنِ الطَّاقَةِ، فَهُمَا خَارِجَانِ عَنِ التَّكْلِيفِ، لِأَنَّ دَفْعَهَا فَوْقَ الطَّاقَةِ، وَفِي الْمُؤَاخَذَةِ عَلَيْهَا حَرَجٌ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾، وَاللهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَتَعَبَّدَنَا بِمَا لَا نُطِيقُ، وَأَجَلُّ مِنْ أَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْنَا فِي الدِّينِ!.

فَاللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا يُكَلِّفُ الْعِبَادَ إِلَّا بِمَا يَدْخُلُ تَحْتَ وُسْعِهِمْ وَيَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، وَلَا يُكَلِّفُهُمْ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ وُسْعِهِمْ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾، وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ الْمُصَلِّيَ أَنْ يَتَطَهَّرَ بِالْمَاءِ، فَإِنْ عَدِمَهُ أَوْ خَافَ الضَّرَرَ بِاسْتِعْمَالِهِ - لِشِدَّةِ الْبَرْدِ أَوْ جِرَاحَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ -؛ تَيَمَّمَ صَعِيدًا طَيِّبًا، فَمَسَحَ بِوَجْهِهِ وَيَدَيْهِ مِنْهُ، وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ: «**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ؛ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ؛ فَعَلَى جَنْبٍ**» [صحيح: رواه البخاري، وأحمد، وأبو داود، والترمذي؛ وغيرهم].

وَقَالَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «...**فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ؛ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ؛ فَدَعُوهُ**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وغيرهما].

قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ: قَوْلُهُ: (**فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**): هَذَا مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ الْمُهِمَّةِ، وَمِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ الَّتِي أُعْطِيَهَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَدْخُلُ فِيهَا مَا لَا يُحْصَى مِنَ الْأَحْكَامِ؛ كَالصَّلَاةِ بِأَنْوَاعِهَا، فَإِذَا عَجَزَ عَنْ بَعْضِ أَرْكَانِهَا أَوْ بَعْضِ شُرُوطِهَا؛ أَتَى بِالْبَاقِي، وَإِذَا عَجَزَ عَنْ بَعْضِ أَعْضَاءِ الْوُضُوءِ أَوِ الْغُسْلِ؛ غَسَلَ الْمُمْكِنَ، وَإِذَا وَجَدَ بَعْضَ مَا يَكْفِيهِ مِنَ الْمَاءِ لِطَهَارَتِهِ أَوْ لِغَسْلِ النَّجَاسَةِ؛ فَعَلَ الْمُمْكِنَ، ...وَإِذَا وَجَدَ مَا يَسْتُرُ بَعْضَ عَوْرَتِهِ أَوْ حَفِظَ بَعْضَ الْفَاتِحَةِ؛ أَتَى بِالْمُمْكِنِ، وَأَشْبَاهُ هَذَا غَيْرُ مُنْحَصِرَةٍ، وَهِيَ مَشْهُورَةٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ. وَالْمَقْصُودُ: التَّنْبِيهُ عَلَى أَصْلِ ذَلِكَ، وَهَذَا الْحَدِيثُ مُوَافِقٌ لِقَوْلِ اللهِ - تَعَالَى -: ﴿**فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ اهـ.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا[٥١٥]﴾وَهَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ دُعَاءَهُ كَيْفَ يَدْعُونَهُ، وَمَا يَقُولُونَ فِي دُعَائِهِمْ إِيَّاهُ، وَمَعْنَاهُ: قُولُوا: رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا شَيْئًا فَرَضْتَ عَلَيْنَا عَمَلَهُ فَلَمْ نَعْمَلْهُ، أَوْ أَخْطَأْنَا فِي فِعْلِ شَيْءٍ نَهَيْتَنَا عَنْ فِعْلِهِ فَفَعَلْنَاهُ، عَلَى غَيْرِ قَصْدٍ مِنَّا إِلَى مَعْصِيَتِكَ، وَلَكِنْ عَلَى جَهَالَةٍ مِنَّا بِهِ وَخَطَأٍ.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾يَعْنِي: قُولُوا: رَبَّنَا لَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا، يَعْنِي بِالْإِصْرِ: الْعَهْدَ؛ كَمَا قَالَ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾وَإِنَّمَا عَنَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا عَهْدًا فَنَعْجَزُ عَنِ الْقِيَامِ بِهِ وَلَا نَسْتَطِيعُهُ ، ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾يَعْنِي: عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ كُلِّفُوا أَعْمَالًا وَأُخِذَتْ عُهُودُهُمْ وَمَوَاثِيقُهُمْ عَلَى الْقِيَامِ بِهَا، فَلَمْ يَقُومُوا بِهَا، فَعُوجِلُوا بِالْعُقُوبَةِ! فَعَلَّمَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – أُمَّةَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الرَّغْبَةَ إِلَيْهِ بِمَسْأَلَتِهِ أَنْ لَا يَحْمِلَهُمْ مِنْ عُهُودِهِ وَمَوَاثِيقِهِ عَلَى أَعْمَالٍ – أَنْ ضَيَّعُوهَا أَوْ أَخْطَئُوا فِيهَا أَوْ نَسُوهَا – مِثْلَ الَّذِي حَمَّلَ مَنْ قَبْلَهُمْ، فَيَحِلُّ بِهِمْ بِخَطَئِهِمْ فِيهِ وَتَضْيِيعِهِمْ إِيَّاهُ، مِثْلَ الَّذِي أَحَلَّ بِمَنْ قَبْلَهُمْ.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾يَعْنِي: وَقُولُوا أَيْضًا: رَبَّنَا لَا تُكَلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا لَا نُطِيقُ الْقِيَامَ بِهِ، لِثِقَلِ حِمْلِهِ عَلَيْنَا.

---

[٥١٥] **قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ**: إِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: وَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يُؤَاخِذَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – عِبَادَهُ بِمَا نَسُوا أَوْ أَخْطَأُوا، فَيَسْأَلُوهُ أَنْ لَا يُؤَاخِذَهُمْ بِذَلِكَ؟ قِيلَ: إِنَّ النِّسْيَانَ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: عَلَى وَجْهِ التَّضْيِيعِ مِنَ الْعَبْدِ وَالتَّفْرِيطِ؛ وَالْآخَرُ: عَلَى وَجْهِ عَجْزِ النَّاسِي عَنْ حِفْظِ مَا اسْتُحْفِظَ وَوُكِّلَ بِهِ، وَضعف عَقْله عَنِ احْتِمَالِهِ. فَأَمَّا الَّذِي يَكُونُ مِنَ الْعَبْدِ عَلَى وَجْهِ التَّضْيِيعِ مِنْهُ وَالتَّفْرِيطِ؛ فَهُوَ تَرْكٌ مِنْهُ لِمَا أُمِرَ بِفِعْلِهِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَرْغَبُ الْعَبْدُ إِلَى اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – فِي تَرْكِهِ مُؤَاخَذَتَهُ بِهِ، وَهُوَ النِّسْيَانُ الَّذِي عَاقَبَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – بِهِ آدَمَ – صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ –، فَأَخْرَجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾وَهُوَ النِّسْيَانُ الَّذِي قَالَ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿**فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا**﴾.

فَرَغْبَةُ الْعَبْدِ إِلَى اللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – بِقَوْلِهِ: ﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾فِيمَا كَانَ مِنْ نِسْيَانٍ مِنْهُ لِمَا أُمِرَ بِفِعْلِهِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي وَصَفْنَا، مَا لَمْ يَكُنْ تَرْكُهُ مَا تَرَكَ مِنْ ذَلِكَ تَفْرِيطًا مِنْهُ فِيهِ وَتَضْيِيعًا، كُفْرًا بِاللهِ – عَزَّ وَجَلَّ –، فَإِنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كُفْرًا بِاللهِ؛ فَإِنَّ الرَّغْبَةَ إِلَى اللهِ فِي تَرْكِهِ الْمُؤَاخَذَةَ بِهِ غَيْرُ جَائِزَةٍ؛ لِأَنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – قَدْ أَخْبَرَ عِبَادَهُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لَهُمُ الشِّرْكَ بِهِ، فَمَسْأَلَتُهُ فِعْلَ مَا قَدْ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ، خَطَأٌ!.

وَإِنَّمَا تَكُونُ مَسْأَلَتُهُ الْمَغْفِرَةَ، فِيمَا كَانَ مِنْ مِثْلِ نِسْيَانِهِ الْقُرْآنَ بَعْدَ حِفْظِهِ بِتَشَاغُلِهِ عَنْهُ وَعَنْ قِرَاءَتِهِ، وَمَثَلِ نِسْيَانِهِ صَلَاةً أَوْ صِيَامًا، بِاشْتِغَالِهِ عَنْهُمَا بِغَيْرِهِمَا حَتَّى ضَيَّعَهُمَا!.

وَأَمَّا الَّذِي الْعَبْدُ بِهِ غَيْرُ مُؤَاخَذٍ؛ لِعَجْزِ بِنْيَتِهِ عَنْ حِفْظِهِ، وَقِلَّةِ احْتِمَالِ عَقْلِهِ مَا وُكِّلَ بِمُرَاعَاتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْعَبْدِ غَيْرُ مَعْصِيَةٍ، وَهُوَ بِهِ غَيْرُ آثِمٍ، فَذَلِكَ الَّذِي لَا وَجْهَ لِمَسْأَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ لَهُ؛ لِأَنَّهُ مَسْأَلَةٌ مِنْهُ لَهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِذَنْبٍ! وَذَلِكَ مِثْلُ الْأَمْرِ يَغْلِبُ عَلَيْهِ وَهُوَ حَرِيصٌ عَلَى تَذَكُّرِهِ وَحِفْظِهِ، كَالرَّجُلِ يَحْرِصُ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ بِجِدٍّ مِنْهُ فَيَقْرَؤُهُ، ثُمَّ يَنْسَاهُ بِغَيْرِ تَشَاغُلٍ مِنْهُ بِغَيْرِهِ عَنْهُ، وَلَكِنْ بِعَجْزِ بِنْيَتِهِ عَنْ حِفْظِهِ، وَقِلَّةِ احْتِمَالِ عَقْلِهِ ذِكْرَ مَا أُودِعَ قَلْبُهُ مِنْهُ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ النِّسْيَانِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا تَجُوزُ مَسْأَلَةُ الرَّبِّ مَغْفِرَتَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا ذَنْبَ لِلْعَبْدِ فِيهِ، فَيَغْفِرُ لَهُ بِاكْتِسَابِهِ.

﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾مَسْأَلَةً مِنْهُمْ رَبَّهُمْ أَنْ يَعْفُوَ لَهُمْ عَنْ تَقْصِيرٍ إِنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ، فَيَصْفَحُ لَهُمْ عَنْهُ وَلَا يُعَاقِبَهُمْ عَلَيْهِ وَإِنْ خَفَّ مَا كَلَّفَهُمْ مِنْ فَرَائِضِهِ عَلَى أَبْدَانِهِمْ.

﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾يَعْنِي: وَاسْتُرْ عَلَيْنَا زَلَّةً إِنْ أَتَيْنَاهَا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، فَلَا تَكْشِفْهَا وَلَا تَفْضَحْنَا بِإِظْهَارِهَا.

﴿وَارْحَمْنَا﴾يَعْنِي: تَغَمَّدْنَا مِنْكَ بِرَحْمَةٍ تُنَجِّينَا بِهَا مِنْ عِقَابِكَ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِنَاجٍ مِنْ عِقَابِكَ أَحَدٌ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ إِيَّاهُ دُونَ عَمَلِهِ! وَلَيْسَتْ أَعْمَالُنَا مُنَجِّيَتَنَا إِنْ أَنْتَ لَمْ تَرْحَمْنَا! فَوَفِّقْنَا لِمَا يُرْضِيكَ عَنَّا.﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾يَعْنِي: أَنْتَ وَلِيُّنَا بِنَصْرِكَ، دُونَ مَنْ عَادَاكَ وَكَفَرَ بِكَ، لِأَنَّا مُؤْمِنُونَ بِكَ، وَمُطِيعُوكَ فِيمَا أَمَرْتَنَا وَنَهَيْتَنَا، فَأَنْتَ وَلِيُّ مَنْ أَطَاعَكَ، وَعَدُوُّ مَنْ كَفَرَ بِكَ فَعَصَاكَ، ﴿فَانْصُرْنَا﴾ لِأَنَّا حِزْبُكَ، ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[٥١٦]﴾الَّذِي جَحَدُوا وَحْدَانِيَّتَكَ، وَعَبَدُوا الْآلِهَةَ وَالْأَنْدَادَ دُونَكَ، وَأَطَاعُوا فِي مَعْصِيَتِكَ الشَّيْطَانَ.

---

[٥١٦] **ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي فَضْلِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ – نَفَعَنَا اللهُ بِهِمَا –:**

➡عَنْ حُذَيْفَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتِ الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا، وَجُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَأُوتِيتُ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُ أَحَدٌ قَبْلِي، وَلَا يُعْطَى أَحَدٌ بَعْدِي**» [صحيح: رواه أحمد، والنسائي في الكبرى، وابن حبان في صحيحه، وابن خزيمة في صحيحه، والطبراني في الكبير والأوسط، والبيهقي في الكبرى، والحاكم في المستدرك، والهيثمي في المجمع، وقال: رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح؛ وصححه الألباني في الصحيحة(١٤٨٢)، وصحيح الجامع(٤٢٢٣)، والتعليقات الحسان(١٦٩٥)].

➡وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: «**اقْرَءُوا هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ رَبِّي[أَعْطَانِيهِمَا]مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ**» [صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الكبير؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(١١٧٢)، ومختصر العلو(٨٧)].

➡وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «**مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ؛ كَفَتَاهُ**» [صحيح: رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة؛ وغيرهم].

قَوْلُهُ: (**كَفَتَاهُ**) مَعْنَاهُ: كَفَتَاهُ مِنْ شَرِّ مَا يُؤْذِيهِ [قاله ابن القيم في الوابل الصيب من الكلم الطيب].

➡وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَلْفَيْ عَامٍ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَا يُقْرَآنِ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ**» [صحيح: رواه الترمذي، والنسائي في الكبرى، والدارمي في سننه، وابن حبان في صحيحه، والطبراني في الكبير والصغير والأوسط، والبيهقي في الشعب، والحاكم في المستدرك وصححه، ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع(١٧٩٩)، وصحيح الترغيب والترهيب(١٤٦٧)، والتعليقات الحسان(٧٧٩)].

قُلْتُ – أَبُو حَمْزَةَ –: إِلَى هُنَا انْتَهَتْ – بِحَمْدِ اللهِ – التَّعْلِيقَات عَلَى هَذَا الْمُخْتَصَرِ اللَّطِيفِ، وَاللهَ أَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَ عَمَلِي – هَذَا – خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ كَاتِبَهُ، وَقَارِئَهُ، وَجَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَوَافَقَ الْفَرَاغُ مِنْهُ – بِعَوْنِ اللهِ وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ – قَبْلَ ظُهْرِ يَوْمِ الْأَحَدِ التَّاسِعِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ – وَهُوَ يَوْمُ عَرَفَةَ – سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَأَلْفٍ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِمَامِ الْمُرْسَلِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَكَتَبَ/ أَحْمَدُ بْنُ طَلِيلٍ أَبُو الْفِيَةَ

أَبُو حَمْزَةَ